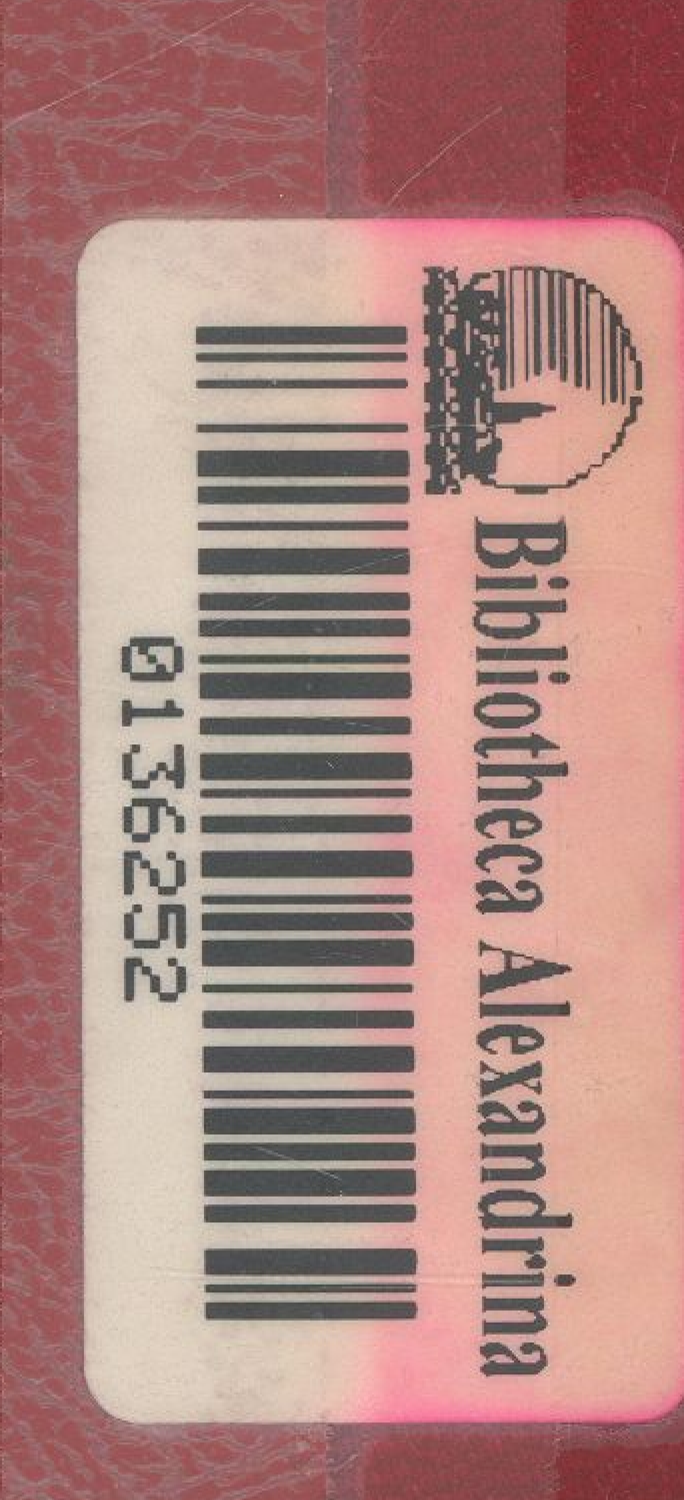
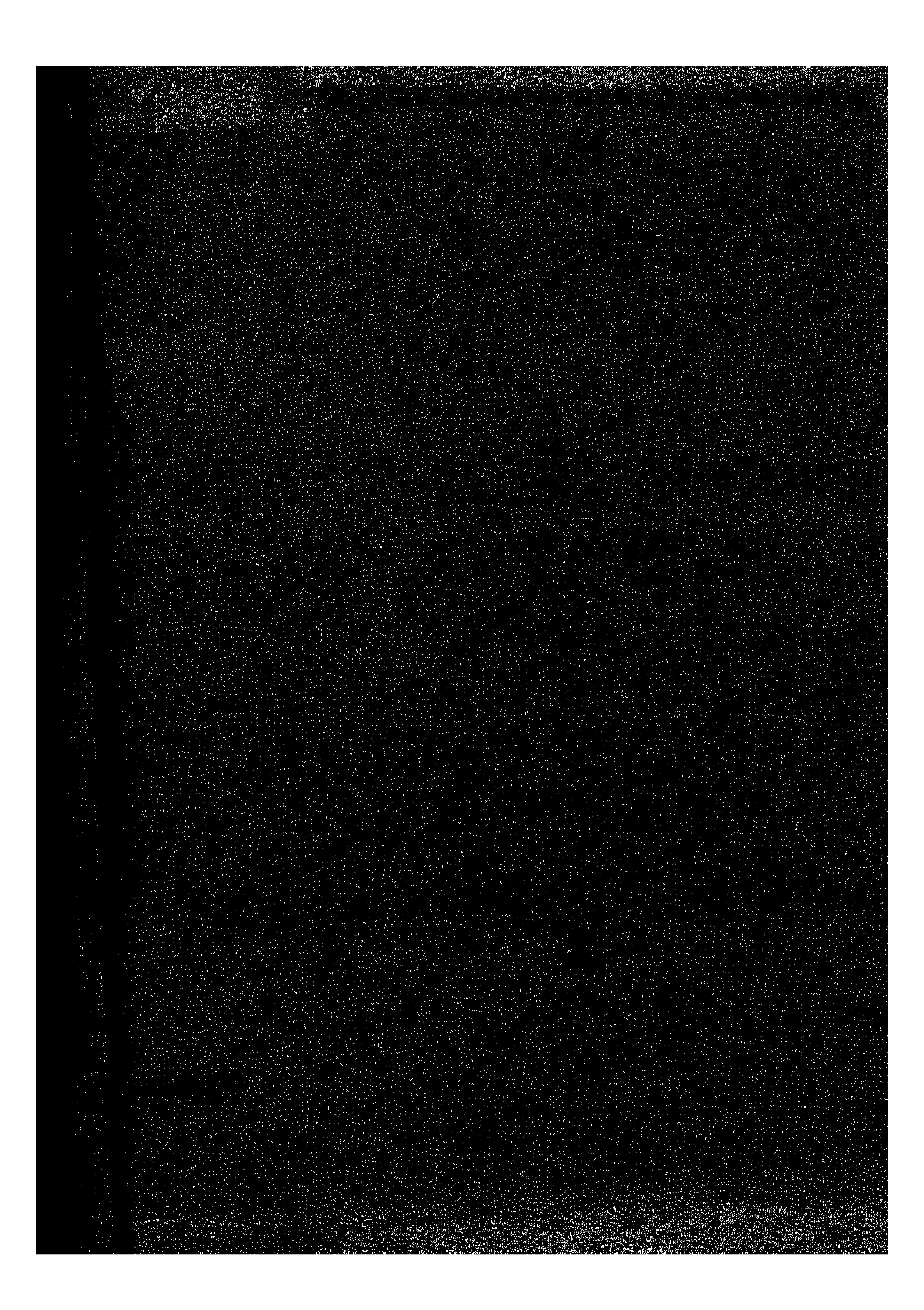
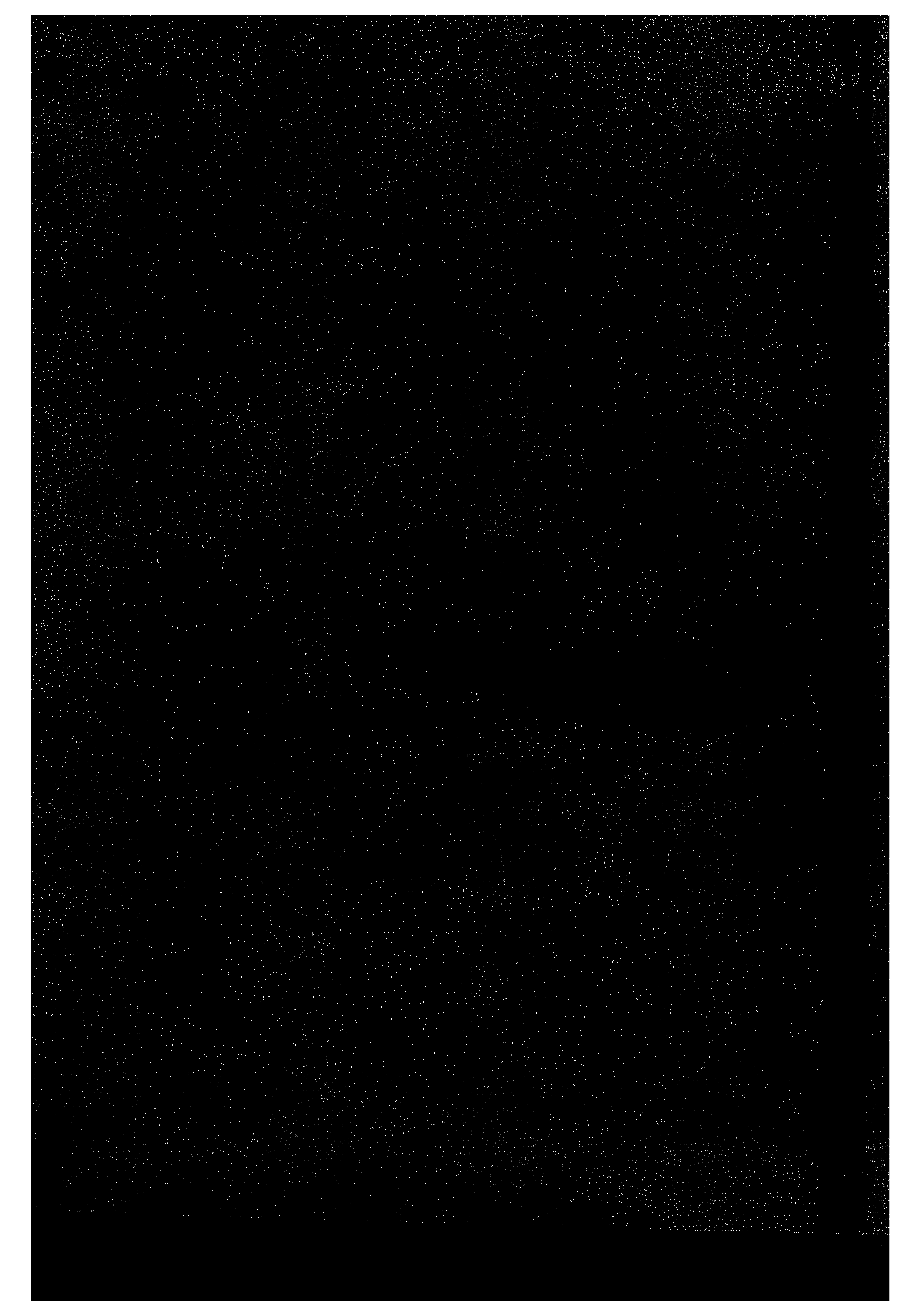
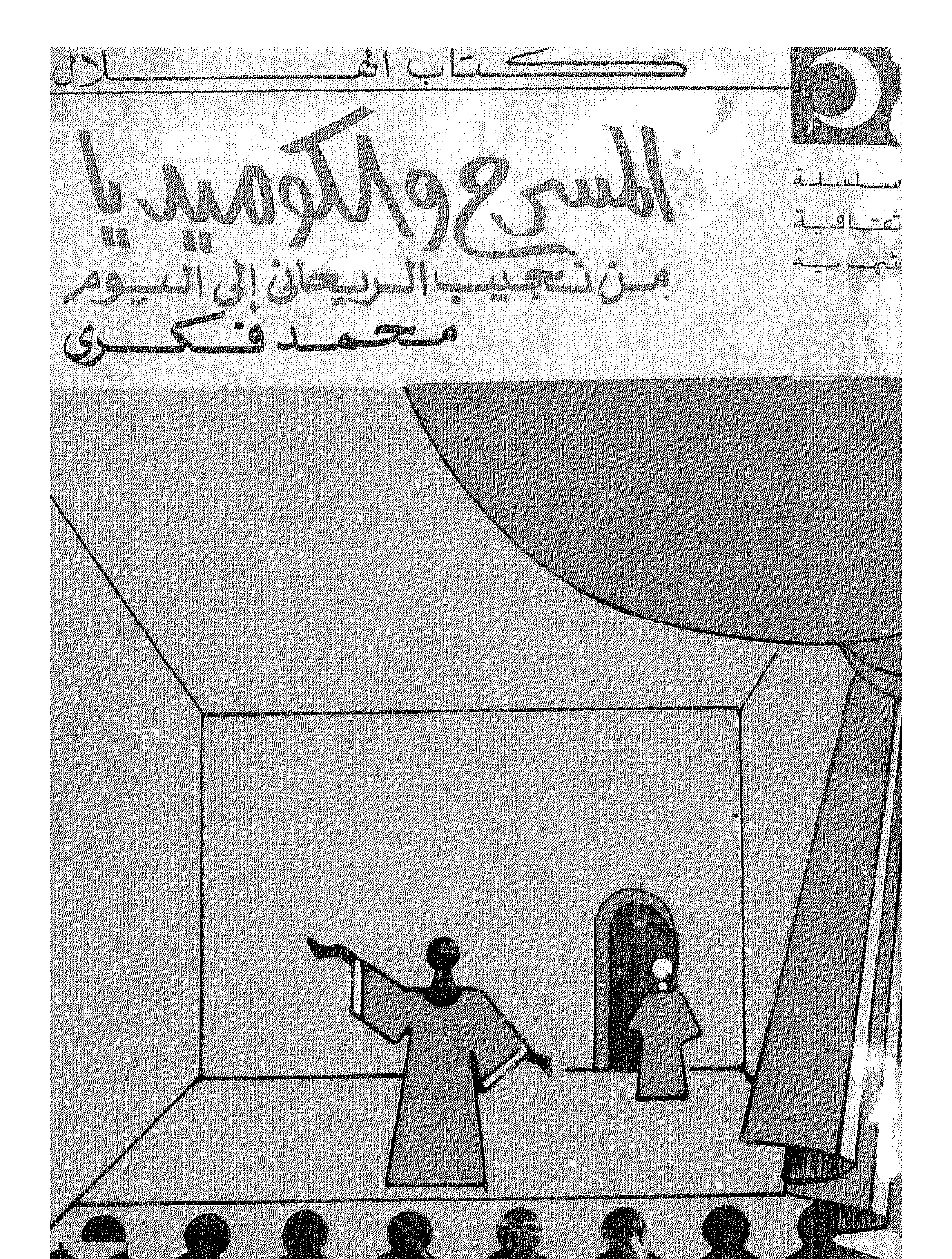


Bibliotheca Alexandrina
0136252







كتاب الهلال
سلسلة ثقافية شهرية
المسرح والكوميديا
من نجيب الريحاني إلى اليوم
محمد فكري

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

نائب رئيس مجلس الإدارة : صبرى أبو المجد

رئيس التحرير : د. حسين مؤنس

سكرتير التحرير : عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

KITAB AL-HILAL

العدد ٣٦١ - صفر ١٤٠١ - يناير ١٩٨١

No. 361 - January 1981

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى - ١٢ عددا - فى جمهورية مصر العربية جنيهان مصريان بالبريد العادى . وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان ثلاثة ونصف جنيه مصرى بالبريد الجوى . وفي سائر انحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادي وخمسة عشر دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج. م. ع. بحوالة بريدية غير حكومية وباقى بلاد العالم بشيك مصرفي لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة أعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــــلاف بريشة
الفنان : أحمد الوردجى

محمد فكري

المسرح والكوميديا

من نجيب الريحاني إلى اليوم

دار الهلال

احببت المسرح كما لم يحبه احد ٠وتقربت اليه كما لم يتقرب اليه أحد، وصددت عنه كما لم يصد عنه أحد٠٠

ومن خلال هذا الحب وذلك الصد٠٠٠ ولد هذا الكتـــاب املا في أن يلقي بعض الضوء للاجيال القادمة

●●

ان ينقدك احـــد ، فلأنك تمـــلك مميزات جديرة بالبحث والتفكير ٠

والا يعني بنقدك أحـــد ، فلأنك لا تملك اية مميـزات على الاطلاق ٠

فكرى

تمهيد

ان صناعة الفنون المركبة التى تحتاج الى تعاون مجموعة من الفنانين ، والى اجهزة منظمة ، هى فى حقيقة الأمر ادارة وفن

فالمسرح .. ادارة وفن .

والسينما .. ادارة وفن .

والتليفزيون .. ادارة وفن .

ومشكلة مصر الحقيقية هى مشكلة ادارة .

فالطريق الذى يرصف ثم يعاد حفره لتركيب كابلات تليفون أو كهرباء هو مشكلة الادارة .. بل أصبح مثلا لسوء الادارة .

والروتين الذى يعطل مصالح الناس ، ويهدر حقوقهم .. هو فى حقيقة الأمر مشكلة ادارة .

وعدم احترام الناس والسيارات لقواعد المرور وآدابه .. مشكلة ادارة قبل أن تكون مشكلة ذوق وأخلاق .. لأن الادارة الواعية الحازمة تلزم الناس باتباعها .

وأعطال التليفونات والمرافق العامة ، يرجع معظمها الى الادارة .

والماكينات التى نستوردها وتصدأ فى مخـــــازن الجمارك لعدم تجهيز المصنع أو توفير الأيدى العاملة .. مشكلة ادارة .

ووقوف سفن تحمل سلعا تموينية فى عرض البحر تتقــاضى غرامة تأخير لعــدم وجــود مكان تفرغ فيه حمولتها ، بينما الشعب لا يجــد حاجاته التموينية .. مشكلة ادارة .

بل أن أن فقدان الأخلاق والذوق وتقاليدنا العريقة ، هى مشكلة ادارة ، لأن الانسان اذا وجد الادارة الرشيدة الحازمة فى بيته وفى مدرسته وفى عمله وفى المرافق التى يرتادها أو يستخدمها .. لما أفلت منه الزمام .

***

واذا كان معظم النقــاد والمثقفين يجمعون اليوم على أن المسرح قد تدهور عما كان عليه فى مطلع الستينات ..

أقول أن وراء ذلك مشكلة ادارة .

وقد تناولت فى هذاالكتاب بعض موضوعات المسرح ادارة وفنا .

الجزء الاول :

ثورة المسرح

ثورة المسرح المصرى

كلما ألمت بالمسرح المصرى أزمة من تلك الأزمات التى يعانى منها بين حين وآخر ، يكثر الحديث حول الجهاز الذى يشرف عليه ، أيكون جهـــازا مستقلا بشئون المسرح ، أم يكون ضمن هيئة تتولى فنون أخرى ؟ .. أيكون تابعا لوزارة ثقافة .. أم للمجلس الأعلى للثقافة !

كما يكثر الحديث بين المشتغلين بالمسرح حول تحويل مسرح الدولة الى قطاع خاص ، أو شركات اقتصادية ، وكأن انتمائه للدولة هو سر فشله .

وليس عــلاج المسرح المصرى بأن تتخلى الـدولة عن مسئوليتها بتحويله الى القطاع الخاص . واذا جاز ذلك على بعض المؤسسات التجارية فانه لا يجوز على أجهزة الخدمات التى تمس كيان المواطن روحا أو جسدا . والا ارأينا من ينادى بالقـــاء تبعة تنظيم المرور على عاتق القطاع الخاص ، أو سمعنا مناديا بعد هزيمة عام ١٩٦٧ ينادى بأن يعهـد الى القطاع الخـــاص بالدفاع عن الوطن .

والمسرح المصرى يسهم فى اعادة صنع الانسان المصرى الحديث ..

واذا كان تغيير قيادات الجيش وتنظيمه من الداخل قد أديا الى تحقيق أمجاد نصر أكتوبر العظيم .. فالمسرح المصرى فى حاجة الى قيادات ، والى تنظيم من الداخل حتى يستطيع أن يؤدى رسالته للجمهور ، وهو قادر فى

نفس الوقت على تحقيق ارباح ان لم تصل الى مستوى القطاع الخـــاص والشركات الاقتصادية ، فهى تغطى نفقاته على أقل تقدير .. وكم من الشركات التى تفلس لقصور فى القيادة أو التنظيم .

أما انشاء شركات اقتصادية للمسرح فهى فكرة طيبة فى حد ذاتها ، فلماذا لا ننشىء شركات جديدة لهذا الغرض تؤدى وظيفتها الى جانب مسارح الدولة . خاصة وأنها الأمل الباقى فى انقاذ جهود مصر من تخريب القطـاع الخاص لحياته وذوقه وكفاحه وأمجاده !؟

وليس يعنينا بعد ذلك أن يكون جهاز المسرح تابعا لوزارة ثقافة ، أو لمجلس ثقافة ، بقدر ما يعنينا أن يكون جهازا مستقلا فى ميزانيته وتخطيطه واشرافه . وأن تكون للبيوت المسرحية التى تتبعه درجة من الاستقلال والصلاحية تمكنها من مناقشة الشركات الاقتصـــادية والقطاع الخاص .

ولكن .. ما الذى اصاب المسرح المصرى !! وما المقصود بتنظيم جهاز المسرح من الداخل !؟

لنعد الى الوراء قليلا لمحاولة حصر الداء .. واكتشاف الدواء .

أين هو المسرح المصرى !؟

لا شك أن المسرح المصرى قد تدهور الى حد لا يمكن اغفاله أو السكوت عليه ، بحيث يمكن أن نقول ونحن مطمئنين انه لم يعد فى مصر مسرح بالمعنى الحقيقى لهذه الـكلمة ، منذ حوالى منتصف الستينات وحتى الآن ..

لا من حيث وظيفته .

ولا من حيث قدراته .

ولا من حيث جمهوره .

ولا من حيث الأجهزة التى تديره .

وما يطلع علينا النقاد والمهتمون بالمسرح من حين لآخر فى أجهزة الأعلام المختلفة ، عن تدهور مستوى المسرح ، واضطراب الأجهزة المسرحية ، والفوضى التى آلت اليها الحركة المسرحية فى مصر ، كان كفيــلا بأن يحرك أى جهاز مسرحى لعمل شيء .. أى شيء .

ولكن جهاز المسرح لم يكن قادرا على عمل شيء . فقد كان يحمل فى داخله عوامل انهياره منذ الستينات ، ولم يكن يملك الرؤية الواضحة لتصحيح المسار .

فليس فيما نرى منذ سنوات مناخ حقيقى لفن مسرحى يمكن أن يزدهر وتتكامل فيه التيارات الفنية والفكرية والاجتماعية ..

وليس فيما نرى منذ سنوات ما يتناول حياة الشعب المصرى ومشكلاته .

وليس فيما نرى منذ سنوات نظـــــام أو خطة لفن مسرحى حقيقى ، يتضمن برامج ثابتة مدروسة لمختلف الفرق المسرحية تنفذ على مدار الموسم المسرحى .

ولم يقـــدم المسرح المصرى خلال أكثر من عقد من الزمان المؤلف المسرحى الذى يعتد به فى هذا المجال .. مع أن مصر غنية بالمواهب ، ولا يمكن أن تجدب فيهـــا المواهب ..

واصبحت دور المسرح معطلة معظم المواسم المسرحية ، لا تقدم الا بعض مسرحيات هنا او هناك ، هزيله فنيا وفكريا ، لا تمس واقع الجماهير ولا ترتبط بحياتها ..

واذا ظهرت بعض مسرحيات جيدة تبدو فى جو الاحتضار العام كأنها حلاوة الروح .. أو انها مسرحيات شاردة افلتت من بقايا عصر ازدهار سابق ..

وهرب الممثلون المخرجون الى القطاع الخاص .. أو الى خارج البلاد كلية ..

وتناقص جمهور المسرح الحقيقى بشكل ملحوظ خلال العقد الاخير ..

وأصبحنا نتحدث عن سوء حال المسرح ، اكثر مما نتحدث عن مسرحيات شاهدناها ، أو قضايا فنية طرحتها ، أو مشكلات اجتماعية تناولتها .

كيف هرب جمهور المسرح

وليس لنا ان نعتب على الفنانين الشاردين ، او على جمهور المسرح بقدر ما نعتب على أنفسنا ، فالجمهور هو المفترى عليه دائما ، نتهمه فى ذوقه وفى ثقافته حينما ينفض عن أعمال لا تعبر عن واقعه ولا تمثل حياته ، ولا تتفق مع مزاجه . ونتهمه فى ذوقه وفى ثقافته حينما نزعم ان ما يريده هو ما نقدم له من أعمال هابطة ..

فأين هو المسرح المصرى .. وماذا قدم لجمهوره !؟

ان الجماهير تريد أن ترى واقعها على منصة المسرح ، ترى أمجادها وعثراتها .. أفراحها ومآسيها .. تريد أن تتعاطف مع مشكلاتها فتأسى لها ، أو تضحك وتسخر منها .. ومن خلال ألمها وضحكها .. تتبصر طريقها وتكتشف قيمها ..

فماذا قال المسرح لجمهوره ، واغلب ما قدمه من مسرحيات مقتبسة أو ممصرة أو مترجمة ، تراها وكأنك ترى أصوات كوكب آخر غير الذى نعيش فيه .

ولقد كان هناك الكثير مما يقال ..

فمنذ قيام الثورة .. وحتى الآن ، ظهرت قيم فكرية واجتماعية واخلاقية جديدة ، كما ظهرت فئات من المستغلين والانتهازيين حاولت أن تركب الموجة لصالحها سواء فى الاجهزة الشعبية أو الادارية أو الاقتصادية أو الفنية ، واصطرعت قيم واخلاقيات الماضى بقيم وأخلاقيات الحاضر فى تناقضات تفاعلت فى علاقات المجتمع ابتداء من العلاقات الأسرية .. حتى أكبر الجماعات ..

وكان فى ذلك أرض خصبة للمسرح الجاد والكوميدى على السواء .

واذا كان المسرح المصرى قد استطاع مواكبة ذلك بدرجة أو بأخرى فى بعض لحظات ازدهاره عند أوائل الستينات ، فقد انحسر بعد ذلك الى لا شىء .

فماذا قال المسرح لجمهوره خلال العقد الآخير .. !؟

بعد هزيمة يونيه ١٩٦٧ ، بدأ الملل يتسرب الى الشعب الصامد الذى رفض الهزيمة ، مع طول فترة الاحتلال ومحاولات التشكيك ، وبدأ الشباب يشعر بالضياع والغربة والتمزق النفسى .

كان الشعب فى حاجة لمن يقول له أنه شعب أصيل ذو تاريخ طويل وحضارة عريقة .. استوعب كل الفتوحات وانتصر على كل الغزاة .. وأن الهزيمة فى حياة الشعوب العريقة ظاهرة عارضة ..

كان فى حاجة لمن يقول له أن الانسان المصرى محارب عظيم .. حينما يتحدى فى نخوته ومقدساته .. وأن الوقت فى صالحنـــا والمستقبل لنا بالعمل والـكفاح والتدريب ..

كان الشعب فى حاجة لمن يقول له ان ايمانه بالله .. وبمصر .. وبنفســه .. وبقـوميته .. اقــوى من كل تحد .

كان الشعب فى حاجة لمن يفضح لـه المســـــتغلين والانتهازيين واللاعبين بمقدراته .

ولقد قيل ذلك كله بوسائل اعلام مختلفة ..

ولكننا للأسف الشديد لم نقله بفن المسرح .. أخطر الفنون وأشدها أثرا فى مخاطبة وجدان الجماهير .

بل أين ما قدمه المسرح المصرى خلال معركة أكتوبر المجيدة !!

وبعد المعركة ..

وحتى الآن .. !؟

ألم يكن فى المعركة وما حققته من نصر وبطولات .. وما هيأته من علاقات انسانية واجتماعية جديدة داخل المجتمع .. ما يغرى المسرح المصرى !؟

ألم يكن فى وضع مصر الجديد فى العالم ، وما هيأه المواطن المصرى من علاقات فى الخارج ، وتبدل نظرة شعوب العالم اليه .. ما يغرى المسرح المصرى !؟

ألم يكن فى السخرية من أوهام اسرائيل التى تحطمت .. وتباهيها بقوتها التى تبددت .. ما يضحك الشعب المصرى .. ويغرى المسرح المصرى !؟

الم يكن فى تصحيح مسار الثورة ، وما تضمنه ذلك من صراعات فكرية واجتماعية ، وما حققه من ديمقراطية وحرية .. وما تلا ذلك من تبدل العلاقات الانسانية فى المجتمع .. ما يغرى المسرح المصرى !؟

لقد نطقت السينما المصرية ، وهى آخر ما كنا نتوقع لها أن تنطق ، وتناولت بعض هذه الموضوعات .

ولكن المسرح المصرى لم ينطق .

وما كان لجثة هامدة أن تنطق .

ومن عجب أن الذين لقى المسرح المصرى على ايديهم ازدهاره حتى منتصف الستينات ، هم الذين انحسر المسرح المصرى فى ظلهم فى العقد الأخير .

فلقد لقى المسرح المصرى ازدهاره على أيدى كتابنا الكبار .. توفيق الحكيم .. ونعمان عاشور .. وسعد الدين وهبه .. وعبد الرحمن الشرقاوى .. ويوسف ادريس .. رشاد رشدى .. ثم لحق بهم كتاب من الشباب مثل على سالم وسمير سرحان .. وغيرهما .

ولقى المسرح المصرى ازدهاره على أيدى مخرجينا الكبار .. ابتداء من زكى طليمات ، وفتوح نشاطى ، وعبد الرحيم الزرقانى ، ونبيل الالفى ، وحمدى غيث ثم لحق بهم سعد أردش وكرم مطاوع وأحمد عبد الحليم وكمال يس ونجيب سرور .. الذين عادوا من الخارج بأفكار ورؤى فنية جديدة .. وقدموا لنا بعض الأعمال الطليعية حتى هزيمة عام ١٩٦٧ .

ولقى المسرح المصرى ازدهاره على أيدى ممثلينا الكبار ، الذين لا زالوا اذا تيسرت لهم ظروف العمل ، يملأون منصة المسرح حركة وفنا ونشاطا ..

فى ذلك الوقت كنا نهرع الى المسرح القومى ، والمسرح الحديث ، ومسرح الحكيم ، ومسرح المائة كرسى . وكان يثار الجدل .. وتبرز القضايا ، وتكثر المناقشات ، وتنشر الكتب والأبحاث ، وتكشفت لنا كثير من قضايا الفن ، وخفايا المسرح ، ومشكلات المجتمع وقيمه . وتناول نقادنا الكبار هذه الأعمال بالدراسة والتحليل والنقد .. محمد مندور ، ولويس عوض ، ورشاد رشدى ، وعبد الفتاح البارودى ، ورجاء النقاش ، وجلال العشرى .

ما هو المسرح المصرى !؟

ولكن ما هو المسرح المصرى الذى ندينه ونكيل له الاتهامات ؟

المسرح فى اساسه هو :

مؤلف .

مخرج .

ممثل .

ادارة ..

ونحن نبادر فنحكم على ممثلينا بالبراءة . ففن الممثل هو فن أداء ، ونحن لدينا مجموعة من أفضل الممثلين الذين أبرزوا كفاءاتهم ومقدرتهم فى كل وقت .. سواء من الجيل السابق .. أو من الجيل الجديد .

كما نبادر فنحكم بالبراءة على مخرجينا .

حقيقة أن بعضهم جنح الى رؤى خاصة ، ورؤى

غريبة عن مجتمعنا ، واستعراض العضلات فى الاخراج والابهار .. ولكن عذرهم انهم كانوا يعملون بلا خطة واضحة .. ولا معايير ثابتة حتى يلتزموا بها .

أما مسئولية مؤلفينا باعتبارهم رجال فكر وثقافة ، فهى مسئولية أدبية ، ويحق لنا أن نتساءل : لماذا لم يقل مؤلفونا شيئا ـ الا النزر اليسير ـ خلال العقد الأخير ، بينما مصر تمر بأخطر فترات حياتها فى العصر الحديث، والمجتمع المصرى يغلى بتناقضات وصراعات وتحديات ومشكلات ، ويتطلع الى وضوح الرؤيا وتثبيت القيم أكثر من اى وقت مضى .

هى مسئولية بلا شك يتحملها مؤلفونا ، ومهما قيل عن تعقيدات ومتاهات وضعتهم فيها أجهزة المسرح ، فآثروا الصمت .. أو آثروا الانتظار حتى يفعل الله شيئا فى أمر المسرح .. فان ذلك لا يعفيهم من المسئولية .

كانوا لابد ان يفعلوا شيئا ، ويحاولون تصحيح المسار ، ولهم من ثقلهم الأدبى والفنى ما يجعل كلمتهم مسموعة ، وآراءهم موضع الاعتبار ، ليس مجرد آراء وكلمات تذهب سدى على صفحات الجرائد .. فما أكثر ما شبعنا من الكلام ، وانما بتقديم وثائق وأبحاث مدروسة الى المسئولين .. تضعهم مباشرة أمام مسئولياتهم .

ولكن يبدو أنهم ملوا الطريق وقنعوا من الغنيمة بالصمت ، وآثروا الكتابة فى مجالات أخرى غير المسرح .

متى يقدم المسرح شيئا

ولست أدرى متى يقدم المسرح شيئا لجمهوره ، وكل شيء متاح له الآن !!

ان أمل أى صاحب فرقة مسرحية تجارية هو أن يجد مسرحا يعمل عليه ، وهو مستعد ان يدفع :

آلاف الجنيهات ايجارا للمسرح .

آلاف الجنيهات أجور ومرتبات المؤلفين والفنانين والفنيين والاداريين والعمال .

نفقات الديكورات والملابس والاضاءة والاكسسوار .. الخ .

وهو بعد هذا وذاك يحقق ربحا .

وهم لديهم مسارح الدولة بالمجان .

وتدفع الدولة مكافآت ما يختارونه من نصوص .

ولديهم مخرجون وممثلون وفنيون واداريون وعمال مدفوعة رواتبهم .

ولديهم مخازن الملابس واطنان من الديكورات والأخشاب .

وفوق هذا وذاك يحصلون على ميزانية ـ مهما كانت ضئيلة ـ لتقديم الموسم المسرحى .

ومع ذلك لا يقدمون شيئا ، ولا يجلبون دخلا .

سمعت منذ سنوات حوارا فى مكتب مدير أحد المسارح ، مفاده أنهم ساخطون لأن الهيئة لم تعتمد لهم سوى اربعة آلاف جنيه لديكورات المسرحية التى

يقدمونها ـ مع انها مسرحية غير جماهيرية ـ وتولاهم العجب .. وتولانى العجب .. تولاهم العجب لهـذا التغيير الشـديد الذى يضر بالفن المسرحى ، وتولانى العجب لأننى قلت فى نفسى .. لو لدى مسرح بالمجان وأربعة آلاف جنيه ، لبدأت نهضة مسرحية حقيقية فى هذا البلد .

هذا هو الفرق بين صاحب فرقة مسرحية وبينهم ، لقد تعودوا الميرى وتمرغوا فى ترابه .. وكم هو قليل تراب الميرى هذا .

تعودوا الانتظار ، فلا يتحـركون الا باعتمـاد ، ولا يعطون الا بميزانية ، وفقدوا القـدرة على المبـادأة والمبادرة والقنص ، لقـد جلسوا ينتظـرون النصوص وينتظرون الجمهـور بدلا من أن يقتنصوهما ، وينتظرون الميزانية بدلا من أن تتفتق أذهانهم للاستفادة بما لديهم .

والمدير الذى لا يستطيع أن يملأ مسرحه بالجمهور ، يحرم هذا الجمهور من الخدمات التى تنفق من اجلها الدولة آلاف الجنيهات ، وفى نفس الوقت لا يستطيع ان يدر دخلا يعوض به الفنـانين الذين يبذلون العرق والدم على منصـة المسرح عن تراب الميرى ... وعن النزوح الى الفرق الخاصة .. والى خارج البلاد سعيا وراء لقمة العيش .

وهكذا انتهى المسرح المصرى .

آثر الكتاب الكبار الصمت ..

ويئس الكتاب الجدد .

وندرت النصوص ، فتعطلت المسارح .. والمخرجون .. والممثلون ، ومنهم من هرب الى القطاع الخاص او

انزلق معه ، ومنهم من التمس لنفسه مجالا للعمل وموردا للرزق فى بلد آخر .

***

لا يوجد مسرح بلا نصوص .

وبدلا من أن يعمل المسرح المصرى على تشجيع الكتاب ورعايتهم وحفزهم للكتابة للمسرح . عمل على اقصائهم من الحقل المسرحى ، فصفى كتابه ، وقتل كل أمل لمؤلف جديد .

كيف صفى المسرح المصرى كتابه

هل سمعت عن مسرحية تمكث لدى لجنة قراءة أكثر من ثلاث سنوات !؟

كان هذا يحدث ولا يزال فى المسرح المصرى .

فلجان النصوص الموكول اليها اختيار المسرحيات فى مسرح الدولة من غير المتفرغين . يشغل كل منهم أكثر من منصب ، ويزاول أكثر من عمل فنى ، ويمارس القراءة والاختيار كعمل ثانوى فى وقت فراغه ، وقلما يكون لديه وقت فراغ .. وقد يقرأها أحدهم فى شهر .. أو فى عام .. أو وقتما يشاء لها الله .. وليس هناك نظام أو قاعدة للمتابعة أو المساءلة أو الحساب .

وهل تعلم ان المسرحية كان ينبغى لها ان تعرض على لجنة أولية ثم على لجنة مركزية ، يبلغ مجموع اعضائهما حوالى عشرة أعضاء !؟

عشرة اعضاء من مختلف التيارات الفكرية والفنية والسياسية ، بعضهم متخصص فى جوركى وتشيخوف ،

وبعضهم لا يرى الفن الا من خــلال شكسبير أو تنيسي وليامز ، وبعضهم من المتأثرين بصمويل بيكيت أو يونسكو ، والمفروض أن تمر المسرحية خـــلال هـــذه الأذواق والتيارات .

هل تستطيع ان ترضي مسرحية كل هذه الأذواق !؟

لو أتيح لأحد ان يطلع على بعض التقارير الفنية عن مسرحية واحدة ، لوجد تناقضا صـــارخا فى الأسس والمبررات بين من تناولوها رفضا أو قبولا .

واذا استطاعت مسرحية بعد ذلك أن تفلت كانت تدخل فى دوامة الكراسى الموسيقية ، وهى لعبة ظريفة ظلت فى جهاز المسرح فترة أوائل العقد الماضى ، ربمـــا لأسباب سياسية . يتغير المسئول فى جهاز المسرح .. ومع كل مسئول جديد تفض لجان وتشكل لجان .. ومع كل لجنة جديدة يصرف النظر عما أقرته اللجان السابقة لتبدأ من جديد . وقبل أن يستقر شيء ، تتكرر نفس اللعبة . وقد تظل مسرحية ســـنوات طويلة بين رفض وقبول دون أن تصل الى شيء .

وحاول أن تتصور مصـــير مسرحية تفلت من ذلك كله .

لعلك تتصور أن تنحني اعجـــابا لمؤلفها العجيب ، ونسارع بدفعها الى منصة التمثيل .

هذا اسراف فى الخيال .

كان مصيرها المحتوم هو خزانة قديمة ، لا تخرج منها الا لأسباب بالفن .. قد تكون عقائدية .. وقد تكون نفعية .. الخ .

ومع أن قيادات المسرح قد استقرت فى العقد الأخير ، الا انها ورثت فيما ورثت نظاما باليا مهترئا لم يمكنها من مواصلة الطريق فى الاتجاه الصحيح .

المؤلف تحت رحمة المخرج

وتظل المسرحية حبيسة الى أن يأذن لها الله .

ولعلنا نذكر مسرحية « عفاريت مصر الجديدة » التى لاقت نجاحا ملموسا . لقد صرح مؤلفها انها ظلت حبيسة ادراج مكاتب المؤسسة ثلاث سنوات قبل أن ترى النور .. وأعلن مقاطعته لمسرح الدولة .

وعند عرض مسرحية ست الملك ، أعلنت الفنانة سميحة ايوب مديرة المسرح القومى ، أن اللجنة كانت قد اختارتها منذ سنتين . وأن المسرح القومى سيلجأ بعدها الى التمصير والاقتباس لعدم وجود نصوص .

ما شاء الله .. وأين كانت كل من هاتين المسرحيتين طوال هذه المدة ، والمسرح يشكو عدم وجود نصوص ؟

هناك مسرحيات موافق عليها منذ أكثر من أربع سنوات ، ولم تر النور بعد ، وقد لا تراه أبدا .

الا يعرف المسئولون فى جهاز المسرح أن لديهم مسرحيات موافق عليها !؟ أو هى تحتاج الى بعض التعديل لتصبح صالحة للعرض على أقل تقدير !؟

ان هذه المسرحيات فى انتظار مخرج يقع عليها اختياره ، وقد يكون اختياره ، وفقا للذوقه الخاص ، أو لاعتبارات نفعية كربط اسمه باسم مؤلف كبير يدفعه الي عالم الشهرة ، أو لسهولة التناول أو كمية الابهار ،

أو أية اعتبارات أخرى . واذا لم يقع عليهـــا اختيار مخرج .. فقد حكم عليها بالموت .

ما قيمة موافقة اللجان اذن !؟

وقد يدور المؤلف بمسرحيته الموافق عليها من لجان الهيئة على مختلف مسارح الدولة ، فلا تعترف بموافقتها ، وتعرضها على لجانها الخاصة التى غالبا ما ترفضها عنادا للجان الهيئة أو لأســـباب خلفية أخرى ، فاذا تقدم مؤلف بمسرحية الى المسرح مبـــاشرة ، ولم يكن من شلته ، كان يطلب منه أن يتقدم الى الهيئة .

أما المخرج ، فقد كان يستطيع اخراج المسرحية التى يريدها ، حتى لو لم تكن قدمت الى اللجان من قبل ، ويستطيع أن يحصل على موافقتهم بالتمرير .

ومع أن لجان هيئة المسرح لم يكن لموافقتها أى سلطان على المسارح التابعة لها ، فقد كان لها فى الاختيار تحكمات تفوق الحد .

كانوا أساتذة أكثر من اللازم

والحق ان بعض أعضاء لجان القراءة فى تلك الفترة ، كانوا اســـــاتذة فى فن المسرح ، نشروا لنا الأبحـــاث والدراسات ، وعلمونا قواعد الدراما ، من بناء درامى .. الى حدث درامى .. الى رسم شخصيات .. الى حوار صاعد .. الخ . وحينما أصبحوا لجـــان قراءة واختيار أمسكوا مساطرهم ومثلثاتهم وفقـــا لمفاهيمهم المتنوعة ، وراحوا يقيسون بدقة متناهية ، فهذا البناء الدرامي متداع ، وهذا الخط الدرامى مختل .. وهذه

الشخصيات سطحية .. والمسرحية لا تصلح .

لقد كانوا اساتذة اكثر من اللازم .

نحن لا نكتب لأساتذة .. ولكننا نكتب للشعب

هذه هي القضية ..

ما الذي يهم الشعب في المقام الأول .. الكلمة أم الصناعة الفنية ؟!

وما هي المعايير والمقـــاييس الذي يتم على أساسها الاختيار ؟!

نحن لا نقلل من شأن الصناعة الفنية ، ولا نرضى لمنصة المسرح أن تقدم فنا هابطا شكلا أو مضمونا .

ولكننا نقول أن الشعب تهمه مشكلاته أولا ، وما أكثر مشكلات الشعب ، يهمه أن يأسى لها وأن يسخر منها ، ومن الذين يتلاعبون بمقـــــدراته في سكنه أو قوته أو كسائه ، بجمل ووســـائل بهلوانية تضحك أكثر القلوب تحجرا ، ولعلنا لا زلنا نذكر مسرحية « حضرة صاحب العمارة » لفرقة تحية كاريوكا .

منذ مدة .. ظهر في الجرائد خبر يقول أننا ندفع نصف مليون دولار غرامة تأخير لسفينة شحن لا تجد مكانا تفرغ فيه حمولتها من اللحوم المستوردة ، أى أن الشعب يجوع .. وفي نفس الوقت يدفع نصف مليـون دولار غرامة من دمه ، وهـــذه مأســاة يجب أن نأسى لها ، ومهزلة ينبغى أن نسخر منهـــا ، ونكشف أصحابها ، ونحاكمهم على منصة المسرح اذا عز علينا ان نحاكمهم في الواقع .

ان الشعب يهمه أن يكشف ويسخر من الذين يتلاعبون بقيمه ويستخفون بمصيره جهلا .. أو اهمـــالا .. أو استغلالا .

ان مجرد اعلان عن فيلم « شقة فى وسط البلد » جعل الجماهير تتدفق على دار السينما قبل ان تسأل عن البناء الفنى .. والخط الدرامى .

ونحن لم نكن فى حاجة لأساتذة ، بقدر ما كنا فى حاجة لفنانين بسطاء واعين يتفهمون مشـــاعر الشعب واحتياجاته ، ويتفاعلون مع وجدانه .

فى الطريق الى الهاوية

ولقد أضر الفنانون الذين عادوا الينا من الخـارج بأفكار جديدة ورؤى جـديدة بالحركة المسرحية بقـدر ما أفادوها . لقد بهرونا فى أول الأمر . قدموا لنـــا فكرا غريبا جديدا علينا كان لابد لمثقفينا من الاطلاع عليه لاثراء الحركة الفنية .

ولـكنهم حينما عالجوا مسرحيـات مصرية غالوا فى الاغراب ، وتفننوا فى ابراز قـدراتهم فى الاخراج من حيث الديكور والاضاءة والاستعراضات واســـتخدام الكورس وتحريك المجموعات ، وفى فورة انبهارنا نسينا ان هذا الفن لا يمس جمـاهير مصر ، ولا يراعى مزاج شعبها البسيط العميق الذى يحركه جوهر الأشياء دون زخرفها .

ولعل ذلك ما دفع فنانا حساسا مثل يوسف ادريس فى ذلك الوقت الى البحث عن مسرح مصرى ، تمثله فى مسرحية « الفرافير » ، وسواء استطاع فى مسرحيته

تلك أن يحقق شيئا من هدفه من حيث الشكل أو من حيث المضمون أو من حيث كليهما ، سواء استطاع ذلك أم لم يستطع ، فهو احساس فنان بأن المسرح المصرى كان يتجنب الطريق ...

كانوا كمن يقدمون لنا طبق اليوم ، ويتفننون فى عرض مهاراتهم فى صنع أطباق متنوعة من اللحوم أو الدجاج أو المارون جلاسيه ، بينما الشعب يبحث عن العدس والفول والبصارة والجبن القريش ، وحينما تتوفر له هذه الأطعمة فما ابسط أن يأكلها ..

ما أبسط أن يتذوق الشعب فنه .

ولقد كان هذا اسرافا فى الفن ، بقدر ما كان اسرافا فى النفقات لازمنا حتى وقتنا الحاضر .

الفنان المدير

وهذه قضية تثار بين حين وآخر ، هل يكون مدير الفرقة المسرحية من بين الفنانين ؟! ام يفضل ان يكون من بين الاداريين ذوى الثقافة الفنية المسرحية ؟

وأحيانا يأخذ بهذا الرأى ، واحيانا يأخذ بذلك ، ولعل التجربة قد أثبتت فيما مضى نجاح الفرقة المسرحية كلما كان مديرها من غير الفنانين .

وقد درجت أجهزة المسرح فى العقد الأخير على تعيين الممثلين أو المخـــــرجين مديرين للمسارح أو الفرق المسرحية ، ربما على سبيل تكريمهم بعـــد رحلة الفن الطويلة ، أو فيما يشبه أقدمية موظفى الحكومة .

وقد يكون الفنان عظيما فى فنه ، ولكن الفن شيء ..

والادارة شيء آخر . ونادرا ما يجتمعان في فرد واحد .. وأسوأ ما نكافيء به فنانا أن نعينه في منصب اداري . اننا نقتله قبل أن نقتل الفن الذي نعينه لادارته .

فالفنان .. وجدان .. مشاعر .. خيال .. عواطف، الفنان يغلب عليه العنصر الذاتي مهما حاول أن يتجرد من ذاتيته . والادارة موضوعية ، واذا تولى فنان ادارة مسرح لابد ان يطبعه بذاتيته سواء من حيث أراد أو من حيث لم يرد .

هنا تصطرع ذوات الفنانين الذين يعملون في المسرح ، مع ذات المدير الفنان صاحب السلطة ، واما أن تذوب هذه الذوات في رؤيته الخاصة ، واما ان تولد صراعا يضر بالعمل الفني يؤدي الى دماره .. ويصبح المسرح هو مسرح « الفنان المدير » يقدم عليه ذاته الفنية بصرف النظر عن نوعية المسرح فلا نعجب اذا رأينا أعمالا فلكلورية أو استعراضية على مسرح طليعي ، أو اعمالا كلاسيكية على مسرح حديث ، أو أعمـــــالا طليعية على مسرح كلاسيكي .

ولا عجب اذن أن نجد حول هذا المدير أو ذاك شلة أثيرة لديه ممن يؤمنون بتياره الفني ، ويتفقون مع رؤيته الخاصة . وهؤلاء لهم معظم العمل ، ثم نجد شلة اخرى نصطرع معه لنفس الأسباب ، وهؤلاء نادرا ما يعملون ..

وهذا ما تحدث عنه النقاد وأطلقوا عليه نظـــــام « الشللية » في المسرح .

ولا عجب اذن أن نجد تبادل المنافع بين هذه الشلل في المسارح المختلفة . فهذا يخرج لذاك .. وذاك يمثل لهذا .. وهذا يقتبس لهؤلاء .. الخ . وما أقل مايقتبسون وما يمصرون وما يقدمون .

الجمهور المفترى عليه

هل نعجب اذن اذا انفض الجمهور !!

وهل نتهمه اذن بعدم تذوق المسرح والاقبال عليه !!

لنعد الى الوراء قليلا لنرى مؤشر ترمومتر اقبـــال الجماهير على المسرح .

فى الثلاثينيات وما بعدها .. كان الاقبال شديدا على مسرحيات يوسف وهبى والريحانى ، ذلك أن الجمهور كان يجلس مبهورا ليشاهد يوسف وهبى يدافع عنه وعن شرفه وعن قيمه ضد قيم فاسدة لأغنياء وباشاوات .. وهو العامل العصـــامى الذى كون نفسه بعرقه وعمله « بيوى أفندى » ولمعى فى « أولاد الفقراء » .

كان الجمهور يضحك مع الريحانى فى بعض مشاهده ضحكات ممتزجة بدموعه فيما قدمه من بعض تناقضات اواقع المجتمع .

كانت مسرحيات يوسف هبى ميلودرامات تقــوم على مبالغات واضحة فى التأليف والتمثيل .. ومع ذلك فقد أقبل الجمهور دون أن يفكر فى البناء الدرامى والخط الدرامى .

وكانت مُسرحيات الريحــانى فودفيلات مقتبسة عن اعمال فرنسية ، استخدم فيها أحيانا مشاهد مبتذلة وأسماء مبتذلة ، وصب ممثليه فى قوالب حديدية .. ومع ذلك فقد أقبل عليهـــا الجمهور دون أن يفكر فى البناء الدرامى والخط الدرامى ، لأنه كان يعبر عن مشاكل ومتاعب طبقة الأفندية على حد تعبير الأستاذ يحيى حقى .

كانا يقولان شيئا لجمهور الطبقة الغـــالبة فى حدود الوسائل والتصورات والفرص المتاحة .

وما لنا نذهب الى بعيد ..

لقد لقى المسرح فترة ازدهار ارتفع فيها مؤشر اقبال الجماهير في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات ، حين طلعت علينا أعمال جادة تقول شيئا من واقع الجماهير : الصفقة . والناس اللى تحت . والسبنسة . والفرافير . ورحلة خارج السور . وعفاريت مصر الجديدة . وملك يبحث عن وظيفة . ومعظم أعمال كتاب هذه المسرحيات وغيرهم ، وما اسهمت به فرقة المسرح الحر من أعمال مؤلفة أو اعداد لروايات نجيب محفوظ .

حينذاك بدا لنا أن ثمة مناخا مسرحيا قد ظهر في الأفق ، أن ثمة ازدهارا يوشك أن يتطور ويثمر ، خاصة واننا نملك مجمـــوعة من خيرة المؤلفين والمخـــرجين والممثلين .

ولكن المد اخذ ينحسر ، ثم غرق المسرح المصرى بين تراكمات التمصير والاقتباس والاعداد .. غير المدروس الذى لا يمس حياة الشعب ، ولا يستلهم واقعه ، و يعبر عن مزاجه ..

وقل ما يقدمه للجماهير الى أن كاد ينعدم .

وفقد المسرح المؤلف .. والفنانين .. والجمهور .

وفقد المسرح الوظيفة .. والمناخ .

بل فقد نفسه .

***

هل نستطيع أن تتصور دولة بلا دستور !؟

أيمكنك أن تتصور ما يشيع فيها من اضطراب ، فلا هى تعرف ماذا تريد ولا ماذا تفعل ، وما يدب فيهـــا من فوضى .. فتختل العلاقات ، وتحكمها الأهواء والنزوات، وتكثر الصراعات ، ويختلط الحـابل بالنابل ، وتجرى الأمور وفق المصالح الخاصة ، وتبادل المنـافع لمن هو اقوى او أكثر نفوذا . ويضيع الحق فيمجد الغث ويحقر الثمين ، وتختفى المعـايير والمقاييس ، ويصبح شاغل المنصب هو الحق .. والصواب .. والقاعدة .

هذا هو حال المسرح المصرى .

والا لما استطاع أن يصفى جمهوره .

ولما استطاع أن يصفى كتابه .

ولما استطاع أن يعطل ممثليه ومخرجيه ويدفعهم خارج البلاد .

ولما استطاع أن يقدم أعمالا لا يمت معظمها الى المجتمع المصرى بصلة .

ولما استطاع فى النهاية ان يعطل مسارح الدولة فـلا يقدم عليها كل موسم سوى أعمال تعـد على أصابع اليد الواحدة .

ولو كان هناك دستور للمسرح المصرى ، اى لو كان هناك نظام للمسرح ، يتضمن خطة عامة ، ومجموعة من المقاييس والمعايير الفنية ، ومجموعة من القواعد تحكم المعاملات ، لعرف كل من يتعامل مع المسرح ما له وما عليه، ولعرفنا كيف نحاسب ، ومن نحاسب .

دستور للمسرح المصرى

دعونا نتصور دستورا للمسرح المصرى .

ومنطلق هذا الدستور هو ما نقدمه للجماهير .

وجمهورنا جمهور بسيط واع ، يحس باصالته وحضارته أكثر مما يدرك بثقافته ، ومن ثمة فهو فى حاجة الى فن بسيط عميق .. يرى فيه واقع حياته .. عدا آلامه وآماله .. يرى فيه أفراحه ومآسيه .. يرى فيه صراعاته ومشكلاته نفسية كانت أو أخلاقية او أجتماعية .. أكثر مما يرى فيه حذلقة فى التأليف أو ابهارا فى الاخراج .. حتى لو تغاضينا فى سبيل ذلك عن بعض القواعد الدرامية التى لا تخل بالعمل الفنى .

ولا يتنافى مع ذلك أن يكون عرض الواقع المصرى من خلال قيم انسانية عامة تهم الانسان فى كل زمان ومكان ..

وان كان ذلك فى حد ذاته هو مطلب جوهرى ، فهو فى نفس الوقت اقتصاد فى التكاليف يؤدى الى مزيد من الأعمال الفنية التى تقدم للجماهير .

كيف نستعيد كتاب المسرح

واذا كان كتاب المسرح قد تم اجلاؤهم بالتعقيدات التى يواجهونها من حيث تعدد اللجان ، واختلاف مشارب أعضائها الفنية والفكرية .. ورفضهم لمعظم اعمالهم لاعتبارات المستوى الفنى الذى يتخطونه دون وجود معايير متعارف عليها .. وقيام لجان .. وانفضاض لجان .. دون وجود قواعد ثابتة للتعامل ، حتى تصل النصوص

فى النهاية الى أن تدفن فى مهدها .

اذا كان الأمر كذلك ، فان عدم حرص كتاب المسرح للعودة اليه .. يكون لهم فيه عذر .

هل رأيت عذابا يمر به مؤلف ، مثل العذاب الذى يمر به مؤلف المسرح المصرى !؟ ويكون نصيبه بعد ذلك قروشا ضئيلة .. تقل عن نصيب أى عامل فى حقل المسرح .

وقبل أن نقترح ان تكون لهم مكافآت مجزية ونسبة من دخل المسرحية ، دعونا نتصور كيف يمكن الحصول على نتاج قرائحهم ؟

لجان متفرغة

فى تصورى ان تقديم اعمال فنية يصل مستواها الى نسبة ٦٠ ٪ فكريا وفنيا ، وتمس حياة الجماهير فتقبل عليها .. أفضل من التمصير ومن الاقتباس ومن تقديم اعمال تخضع لكل قواعد الدراما ولا يقبل عليها أحد .

ولكن كيف نصل الى هذه المسرحيات !؟

هنا يصبح وجود لجنة متفرغة لكل مسرح ضرورة قصوى ، لجنة من عدد محدود من الأعضاء ذوى الخبرة والتخصص تأليفا واخراجا .

وليست وظيفة هذه اللجنة التى اتصورها هى مجرد القراءة والاختيار ، وتقرير ما يصلح وما لا يصلح .

وانما تكون هذه اللجنة مسئولة مسئولية كاملة عن تجهيز جميع نصوص الموسم المسرحى التى تحددها الخطة وفق المعايير والمقاييس التى يضعها جهاز المسرح المسئول .. فهى لا تكتفى بما يقدم لها من نصوص ،

وانما تسعى وراء المؤلفين .. وتسـعى وراء كل من يستطيع أن يقدم جهدا فكريا أو فنيا يمكن اعداده أو تجهيزه للمسرح ، وتطرح أمام المؤلفين متطلبات الموسم المسرحي التي تحددها الخطة العامة وتنسق فيما بينهم .. وتبحث مقترحاتهم .. وتتابع خطواتهم ، وليس ما يمنع من أن يشترك أكثر من مؤلف في عمل مسرحى واحد .

ان المسرح في حاجة الى نصوص ، وعليه أن يتحرك للحصول عليهـا بدلا من أن ينتظر حتى تهبط عليه من السماء .

فاذا ما تجمع للجنة نتاج هذا الجهد ، قامت بتطبيقه على الوجه الآتي :

١ ــ اقرار المسرحيات التي تصلح للعرض فـكريا وفنيا .

٢ ــ تبنى المسرحيات التي تحتاج الى بعض التوازن من حيث القـواعد الدرامية والعمل على صياغتها في القالب الدرامي بالتنسيق مـع المؤلف حتى تنتهى الى الصورة الصالحة للعرض .

وهذا عمل تكنيكي بحت لا يجعل من اللجنة صاحبة حق على المسرحية .

٣ ــ تبنى المؤلفين التي تجد اللجنـة في مسرحياتهم ما يبشر بأمل ، فتجعلهم من أبنـاء المسرح ، وتتولاهم بالرعاية والعناية ، وتتابع خطواتهم حتى تعرف مسرحياتهم طريقها الى منصة المسرح .

وبذلك لا نرفض أية فكرة أو جهد أو اقتراح يفيـد المسرح .

وهكذا تصبح اللجنـة في خدمة التأليف المسرحي

وليست قيمة علمية ، ووسيلة انماء وتطوير وخلق ، وليست وسيلة رفض ، وتصبح لها وظيفة حقيقية بدلا من الانتظار ولطم الخدود لعدم وجود نصوص .

وهكذا يكتب المؤلف وهو يعرف أن جهده لن يضيع سدى ، وأنه لن يقضي نصف عمره ، وربما عمره كله .. ترفض مسرحياته واحدة بعد الأخرى ، مرة لاختلال الخط الدرامى .. ومرة لتداعي البناء ، ومرة لأن لجنة المسرح لم تعترف بموافقة لجنة الهيئة ، ومرة لأن لجنة الهيئة لم تصدق على ما وافقت عليه لجنة المسرح .. الخ . وان الطريق امامه مفتوح طال أم قصر ، وأنه ينتمي فعلا الى المسرح ، وأن هناك من يباركون خطواته وينتظرون نتاج قريحته .

وهكذا نسترد كتابنا الكبار ، وندفع كتابنا الجدد ، ونوفر نصوصا تثرى الحركة المسرحية ، وتخلق مجال العمل والتنافس ، ونقدم فى النهاية شيئا للجماهير .

أما مجموعة القواعد التى ينبغى التعامل على أساسها مع المؤلفين ، فيجب أن تكون واضحة وثابتة ، من حيث طريقة التقدم بالمسرحية ، والجهة التى تتلقاها ، والمدة التى يستغرقها العرض على اللجنة ، والتقرير النهائى بالصلاحية أو التعديل ، والنظام الدقيق الذى يكفل عدم دخول نصوص فى غير دورها من الأبواب الخلفية .

لا تتركوا المؤلف تحت رحمة المخرج

وطالما أن اللجنة المتخصصة قد وافقت على المسرحية ، فالمسرح ملزم بعرضها فى دورها ، ولا تلقى المسرحية حتى يرضى عنها أحد المخرجين ونحن لا ننكر على المخرج

حقه في أن يتخير ما يلائم رؤيته الفنية ، ولكن في حدود ما تعرضه عليه لجان المسرح لموسم مسرحي معين . وعلى اللجنة ان تعهد بما يبقى لديها من مسرحيات خلال الموسم على مخرجين متمكنين لاخراجهـا مراعية ملاءمة هـذه المسرحيات لأذواقهم الفنية . ولا تؤجل المسرحيـة عن دورها الا لاعتبـارات التنسيق ، أو لارتباطها بمناسبة معينة .

تقسيم نوعي دقيق

وينبغي كذلك وجود تقسيم نوعي دقيق وفقا لوظيفة كل مسرح .

فليبق مسرحنا القـومي قلعة للأعمـال التـاريخية والكلاسيكية ، وان كان لهذا اللون جمهور خاص على درجة معينة من الثقافة ، الا أنه قـادر باستمرار على استدراج جمهور جديد كلما مال الى البساطة والعمق ، ومس تاريخ الشعب الذي يرتبط بحاضره .. ويوحي له بطريق المستقبل .

أما المسرح الحديث فهو مسرح الجماهير العريضة ، وهو وعاء فسيح لـكل التجارب والتيارات والأشـكال الفنية التي ترتبط بواقع الجماهير ومشـكلاتها ، واذا استطعنا استعادة ثقة جمهور المسرح ، فالمسرح الحديث هو مجاله الحقيقي ، فلتتعدد فرقـه بقدر ما يستطيع استعادة الجماهير ، وليكن بعضها للمسرح الجـاد ، وبعضها للمسرح الكوميدي ، وليفتح أبوابه للمؤلفين ويعمل على تنشئة جيل جديد من كتاب المسرح يقولون ما عندهم للجماهير .

أما عن مسرح الطليعة ، فنحن لم نصل بعد الى مستوى التجارب الطليعية بالمعنى المفهوم لهذه الكلمة . ان مجرد تقديم مسرحية عالمية مترجمة .. تعتبر بالنسبة لشعبنا البسيط عملا طليعيا . ومع ان الترجمة الدقيقة لكبار كتاب العالم تمثل واقعا غير واقعنا .. وقيما غير قيمنا ، الا أنها تقدم قيمــا انسانية عامة . وزادا من المعرفة والثقافة والأشكال الفنية ، ينبغى لمثقفينا وكتابنا الاطلاع عليها ودراستها كاطلاعهم على تراثنا الفكرى سواء بسواء .. وهم جمهور محــدود ، فليكن مجالهم هو مسرح الطليعة .

هذا التقسيم النوعى الدقيق ، يحدد لكل من المتعاملين مع المسرح من مؤلفين ومخرجين ومديرين ، نوعية المسرح الذى يتقدم ليعمل معه ، ويحدد للجمهور نوعية المسرح الذى يقبل عليه . فلا نقدم له عرضا استعراضيا باسم عمل طليعى ، أو مسرحية حديثة باسم عمل كلاسيكى ، ويجنبنا فى نفس الوقت لعبة الــكراسى الموسيقية بين المديرين ، الذى ينتقل أحدهم الى أى مسرح بنفس افكاره ورؤاه الفنية ، أو لعبة المحسوبية حيث يستطيع مؤلف او مخرج أن يقدم مسرحية من اى لون على اى مسرح له على المشرفين عليه دلال .

جهاز مستقل للمسرح

المسرح جامعه الشعب ، وهو من احطر الفنــون لتى ترتبط مباشرة بالجماهير ، ويختلف نيها عن غيره من فنون السينما والموسيقى ، ولديه من المهام والمشكلات ما يجعله أحوج من غيره الى جهاز مستقل لادارته ، ويتبع هذا الجهاز .

المسرح التاريخى والكلاسيكى .

المسرح الحديث (بفرقه المختلفة جادة أو كوميدية) .

المسرح العالمى (الذى يقدم الترجمات العالمية والتجارب الطليعيه) .

ويكون وظيفة هذا الجهاز وضع دستور المسرح وقوانينه ، اى النظام العام والقواعد التى يلتزم بها الجميع ، ووضع الخطه العامه للموسم المسرحى .. والميزانيه ، ومراقبه ذلك ومتابعته .. الى جانب ما يتولاه من الأمور الادارية للعاملين باجهزة المسرح .

بيوت مسرحية

وليس ما يمنع بعد ذلك أن يستقل كل مسرح بادارته ، فى حدود النظام العام والخطه العامة ، ويكون نجاح او فشل اى مدير مسرح هو مدى تفهمه وتحقيقه لهما ، وعلى أساسهما يعرف كل من يتعامل مع المسرح ما له من حقوق وما عليه من واجبات ، ويستطيع طلب محاسبة اى مسئول يخرق القانون ، أو تقديمه لمحكمة الفن .

الادارة فى خدمة الفن

ولنكف عن لعبة الفنان المدير ، ونجعل الادارة موضوعية بفصلها عن الفن . ونضع مجموعة من القواعد الثابتة تجعل الادارة فى خدمة الفن ، فلا تتسلط عليه ، ولا يكون شاغل المنصب هو القانون .. والحق .. والصواب .. والقاعده .. والفن .. وكل شىء .

وليتفرغ بعد ذلك ممثلونا ومخرجونا الكبار لفنهم الذى انشغلوا عنه بالمناصب .

خطة عامة للمسرح

ان وجود خطة عامة للمسرح ـ بعد وضع نظامه الأساسي ـ هي الأساس الذي يحدد كيان المسرح المصري ، ويبرز هويته ، ويحدد معالمه .

وتبدأ هذه الخطــــة بتحديد موعد بداية الموسم المسرحي ونهايته ، كما تحدد عدد المسرحيات التي يقدمها كل بيت مسرحي وفقا لوظيفته ونوعيته وكثافة جمهوره. وما يقدم في كل موسم من مسرحيــــات جديدة أو مسرحيات معادة ، والظروف المناسبة لاعادة مسرحيات معينة .

ويلتزم كل بيت مسرحي بهذه المواعيد ، كما يلتزم بتقديم عروضه الفنية طوال الموسم بلا انقطاع ، وبطبع جدول زمني بالمسرحيات التي يقدمهــــا خلال الموسم واعلانه في الصحف وفي مكان بارز من المسرح .

وليكن مديرو البيوت المسرحية أعضاء في اللجنة التي يعينها الجهاز المسئول لوضع النظام والخطة .

هكذا .. يمكن أن تتبارى الفرق المسرحية في تقديم عروضها ، وتتنافس في مستوى ما تقدمه من فن .

وهكذا .. يـكون الجمهور على وعي بالحـــــركة المسرحية ، فيستطيع متابعتها وملاحقتها فكريا وفنيا .

وهكذا .. يتولد منــاخ حقيقي لفن المسرح ويستنفر الكتاب ، ويحمس المشرفين ، ويستدرج الجمهور .

وبدلا من ان نمسك بأقلامنا لنكتب عن تدهور المسرح، نمسك بها لنقوم بدراسة وتحليل الأعمال المقدمة فـكريا وفنيا ، ودراسة وتحليل ما تتناوله من حياة الجمهور ومشكلاته .

ميزانية فن .. وليست ميزانية ابهار

يحق للمسرح التجارى أن يبهر متفرجيه ، فهو يحقق أرباحا ، وجمهوره قادر على الدفع ، وتلك هى وظيفته ، ومع ذلك فهو لا يفعل الا فى اضيق الحدود .

اما مسرح الدولة فله وظيفة أخرى ، هو جامعة شعبية بحق .. أو ينبغى له أن يكون . وهو اذن جهاز خدمات قبل أن يكون جهاز ربح . وليس معنى ان يكون جهاز خدمات ان تنفق عليه الدولة بلا عائد مادى أو اجتماعى . حقيقة انه يقدم عروضه بقيمة رمزية فى متناول الجميع ، الا أنه اذا امتلأ المسرح بالجمهور فلابد أن يدر دخلا مناسبا ، وتصبح وظيفة الدولة هنا هى الاسهام فى نفقات ما يقدم للجماهير ، وليس تحمل جميع نفقاته .

والمسرح الذى لا يمتلىء بالجماهير يفقد وظيفته ، فلا هو استطاع أن يوصل خدماته لأصحابها ، ولا هو يدر دخلا ، ومثل هذا المسرح لا يستحق أن ينفق عليه مليما واحدا .

وللذلك ينبغى أن تراعى الميزانية عدة امور :

الاقتصاد فى نفقات الاخراج دون استعراض عضلات الديكورات والملابس والاكسسوار والاضاءة واستخدام المجموعات والاستعراضات فى النصوص الدرامية ، لمجرد الابهار وبلا مبررات فنية قوية .

استعمال ما يوجد فى مخازن المسارح من ديكورات وملابس .. الخ ، الى أقصى حد ممكن .

وضع ميزانية محددة للدعاية لكل مسرحية ، وفق نظام مدروس ، فلا تقوم دعاية مسرحية على حساب مسرحية

اخرى .. طبقا للنفوذ أو المحسوبية .

مراعاة ما ينبغى أن يحققه مسرح ناجح من دخل طوال الموسم المسرحى .

مراعاة أن المسارح التى تعمل عليها بلا ايجار ، وان جميع الفنانين والفنيين والعاملين مدفوعة رواتبهم .

لا تجعلوا من الفنانين موظفين

أصبح الفنان فى مسارح الدولة موظفا يحصل على راتبه طوال العام سواء عمل ام لم يعمل . ويتناول حوافز خاصة أثناء العمل ، فلم يعد يهمه أن يوجد النص .. أو ينجح العمل .. او يمتلىء المسرح بالجماهير ، الا من حيث النجاح الأدبى ، لم يعد العمل بالنسبة له مسألة حياة أو موت . ولم يعد وجود الجماهير مرتبط بحياته ومستوى معيشته .

واذا عز كل شىء ، فى مسرح ضاع فيه كل شىء ، فلا أقل من الراتب .

ومن هنا كان لابد أن يرتبط دخل الفنانين بنجاح العمل ، وحجم الجمهور ، وكثرة الدخل . وذلك باشراكهم — الى جانب الراتب — فى نسبة من دخل المسرحية بدلا من الحوافز .

ولن يكون المؤلف أقل حقا من هؤلاء فى نسبة من هذا الدخل .

هنا يتولد الحافز والسعى ، ويكون كل عضو من أعضاء الفرقة دافعا للآخرين ، وكلهم وراء المدير الناجح الذى يحقق لهم عملا ودخلا ، ولن يجد المدير الذى يجلس

على مقعده لمجرد التباهى بشرف المنصب مكانا بينهم .. واذا تحقق العمل فقد استحقوا الدخل .. واستحقوا من قبله الراتب .

نعم دستور للمسرح

ان وجود دستور للمسرح المصرى مهما كان ، أفضل من العمل فى ظل الفوضى والاضطراب اللذين أديا الى ما وصل اليه المسرح من تدهور .

قبه يعرف كل من يعمـــل بالمسرح المصرى ما له وما عليه . ويكون هو الفيصل بين الحق والباطل ، وبين النجاح والفشل .

لحظة مع القطاع الخاص

فقد مسرح الدولة نفسه .. وكان لابد ان يخلو الجو ..

وخلا الجو لمجموعة من الأذكيـــاء وأصحاب الفهلوة الفنية ، من انصاف المثقفين وانصــاف الموهوبين الذين يتعلقون بأذيال الفن ويتعيشون فى مجاله واحسوا خلو السوق الفنى من بضاعة المسرح ، فحملوا حقائبهم فيما يشبه تجارة الشنطة ، واستوردوا لنا من الخارج سقط المتاع ، فأخفوا معالمه وأسقطوا عنه كل قيمة فـكرية وفنية تحت اسم الاعداد والاقتباس والتمصير ، وليس فيما قدموه لنا رؤى فنية وفكرية لفن غربى ، ولا هو عمل يحمل الطابع المصرى والحياة المصرية .. وانمــا قدموا لنا مجموعة مشاهد فارغة من اى محتوى الا أداء تمثيلى لبعض من ممثلينا الموهوبين .

وطرحوا بضاعتهم هذه فى « شواربى » السوق الفنى، فاستقطبوا جمهورا جديدا ليس له اصـــــالة جمهور الخمسينات والستينات ، جمهور يكسب موارده المالية بنفس أسلوب تجارة الشنطة .. وقادر على دفع ثلاثة جنيهات ثمنا لتذكرة المسرح .. الى جانب جمهور وافد يحمل موارد مالية ليريقها بين بنات الليل وموائد الخمر فى شارع الهرم ، ويستكمل بعض سـهراته فى الضحك الفارغ الذى لا يشغله عن نفسه .

ولا ننكر أن بعض ما قدمته المسارح الخاصة كان فيه ما يستحق الذكر ، الا أن الأمور بصفة عامة اخذت تتطور الى الأسوأ .

ومن أسف أن بعض مؤلفينا الكبار ، اضطروا حينما أفلس مسرح الدولة أن يجاروهم فى هذا التيار .

والحق أنهم كانوا أكثر من محظوظين ، فقد وجدوا أمامهم مجموعة من أفضل من انجبت مصر من ممثلى الكوميديا ، ممثلون يمتـــــازون بالموهبـــة .. والذكاء .. وخفة الظل . مجـرد وجودهم على منصة المسرح يبعث على الضحك . هؤلاء الممثلون هم الذين نجحوا وشدوا الجمـــاهير ، وليست النصوص التى قدموها ، وبغيرهم لا يبقى من معظم هذه النصوص سوى صور باهتة .

ومع ذلك فقد ظلم هؤلاء الممثلون انفسهم بقـــدر ما نجحوا ، فقد صبوا انفسهم فى قوالب حديدية أصبح من العسير عليهم الخروج منهـــا ، وغالوا أحيانا فى الحركات البلهاء حتى كادوا يفقدون السيطرة على فنهم . ولو كان للمسرح المصرى وظيفة وله منهـــاج ، وله مؤلفون يعبرون عن حياة الشعب وعن مزاجه ، لأمكن اطلاق طاقات هؤلاء الممثلين فى أدوار متنوعة بدلا من تفصيل مشاهد بمثابة قوالب على مقاساتهم ، ولأمكن بمثل هؤلاء الممثلين الموهوبين الذين قل أن يجتمعوا فى جيل واحد .. عمل شىء رائع للمسرح المصرى ..

واصبحت كل أمجادهم ان يضحكونا على ملابسات أو سوء فهم او تداخلات خالية من اى محتوى ، او على عثرات لفظية وحركات بلهاء ، لأبله أو ساذج يعلمونه كيف يحب أو كيف يأكل ، أو على دون جوان قد تتساقط

تحت أقدامه الفتيات ويتفنن فى اخفـــاء كل منهن عن الأخرى .

وكلما أمعنت الفكرة التى يستوردونها فى الغـرابة ، وبعدها عن حياة الشعب .. كانت أحب الى نفوسهم .

ومع ذلك .. فنحن لا نعترض على هذا اللون من الفن ولا نطالب بمصادرته ، فهو لون له طبيعته وله جمهوره، بل ان جمهور المسرح الأصيل يحتاج من وقت لآخر أن يسرى عن نفسه بمثل هذا التهريج على سبيل التسلية والترويح .

اما ان يكون هذا هو معظم بضاعة المسرح فى السوق الفنى ، ويخلو الجو من المسرح الأصيل الذى يتنـاول حياة الجماهير وواقعهم .. فهى مأساة .

نعم .. هى مأساة ان تصبح بضـــاعة الشواربى هى أساس اقتصاد مصر .

والأغرب من ذلك انهم لم يكتفوا بتقديم هذا الفن الى الجمهور الوافـــد من مختلف البلدان العربية ، بل أصبحوا يصدرونه الى بلادهم ، فيما عرف بالانتـاج الخاص .. مجـــاراة للتليفزيون المصرى الذى أوكل مسئولياته القومية لما أسماه بالشركات والانتاج الخاص .

وابتعـــد الفن المصرى عن مصر أكثر فأكثر ، فهم يشترطون لمثل هذا الانتـــاج أن يتضمن أفكارا عامة وملابسات عامة ، لا يشتم منها رائحة الشعب المصرى فى نضاله أو انتصاراته أو صراعاته أو مشكلاته .. وذلك حتى يمكن تسويقه فى معظم هذه البـــلاد .. بل هم يشترطون فى النص المسرحى زمنا معينا وعددا معينا من الشخصيات اقتصـــادا فى التكلفة حتى يصور فى ليلة

واحدة ، ويصدر بعد ذلك الى تليفزيونات هذه البلاد فيجلب لمنتجيه آلاف الجنيهات .

وأصبحنا ننتج في مصر فنا لغير الشعب المصرى ، بل ان معظمه يسيء الى مصر بقدر ما يجلب من آلاف الجنيهات لمنتجيه ، وكم من سؤال واجهته من افراد في مختلف البلدان العربية ، يدل على أن شعوبها يتصورون المجتمع المصرى « شارع هرم كبير » وقد انتقلت اليهم هذه الصورة الشوهاء عبر السينما والتليفزيون .

وأصبحنا نرى المؤلفين والمخرجين والممثلين مشغولين عن أى شيء بالبحث عن منتج ـ ومعظمهم من غير المصريين ـ لينتجوا أى شيء لغير مصر ، وعن غير مصر ، مهما كان من ناحية الصناعة الفنية عظيما أو مبهرا .

الى هذا الحد تدهور المسرح المصرى .

الى حد تصوير المسرحية فى ليلة واحدة .. وبلا جمهور .

وقد يتبادر الى الذهن أننى أريد للمسرح المصرى أن يكون ندوة لمناقشة مشكلات الشعب ، أو أن يتخلى عن الضحك والتسلية والترفيه . وهذا أبعد ما يكون عن تصورى ، انما قصدت ان واقع الشعب ومشكلاته فيها من التناقضات والملابسات ما يبعث على الضحك والسخرية أكثر من تلك المشاهد الفارغة المحتوى ، بل هما المجال الحقيقى لفن الكوميديا .

مسرح الهواة

أدى تدهور المسرح المصرى الى انهيار جبهة من أعظم الجبهات التى تثرى الفن ، وتعتبر بمثابة الروافد التى

تغذى نهر الفن المسرحى ، وهى حركة الهواية .

فلا شك ان الهواية هى بداية كل عمل فنى ، فكلنا بدأنا هواة ، كل الذين ملاوا الحياة الفنيه تأليفا وتمثيلا واخراجا .. فضلا عن الفنون الأخرى .. بدأوا هواة .

والهواية هى التى حفزتهم على الاستمرار فى طريق الفن الوعر ، والعطاء المستمر بلا مقابل حتى يصلوا الى جمهور المسرح العريض .

ولو كان الهدف ماديا .. لحققوه من طريق اكثر ، واقل وعورة .

ولقد لعبت الهواية دورا كبيرا فى تاريخ المسرح ، ابتداء من المدرسة .. والجامعة .. والشركة .. والمؤسسة .. والنقابة ، الى أكبر جمعيات الهواة كجمعية أنصار التمثيل والسينما ، وفرقة المسرح الحر .

وكم كانت مدارسنا تزخر بجماعات الأدب ، والتمثيل ، والموسيقى ، والرسم الخ . ولا زالت بعض مدارسنا القديمة بها مسارح هواة التمثيل ، وبعض هذه المسارح توجد فى الشركات والهيئات والنقابات .

ونظرة واحدة الى ما قدمته جمعيات الهواية ، كجماعة انصار التمثيل والسينما ، وفرقة المسرح الحر ... وغيرهما ، من مؤلفين .. وممثلين .. ومخرجين أثروا الحركة المسرحية فى شتى مجالاتها ، بل قامت على أكتافهم فى فترات مختلفة نهضة مسرحية حقيقية .. كفيلة بأن تبرز عظم الدور الذى تعطيه حركات الهواية فى مسار الفن ..

وتزدهر الحركة المسرحية بقدر ما تزدهر حركات الهواية . واذا شاءت لها الظروف أن تنحسر أو

تتهاوى ، كان ذلك بمثابة السدود التى تحجب مياه روافد الهواية من أن تصب فى نهر الفن .. فيجف ، وينضب معينه .

ومسرح المحترفين ، يقدم نتاج الخبرة الناضجة الى الجمهور العريض .

اما مسرح الهواة فيقطع الطريق من بدايته ، ويتدرج في مستويات التطور المختلفة ، ويقدم اعماله لجماهير خاصة ، ابتداء من جمهور المدرسة الى جمهور الشركة أو النقابة أو المصلحة .. فيربى أذواق هذه الجماهير ، ويرقى بها ، ويعدها للمسرح الكبير .. جامعة الشعب .

ومسرح المحترفين يبدأ بقصد الربح المادى ، أو هو ينتظر المقابل السريع فى معظم الأحيان ، سواء كان على هيئة مرتبات من الدولة ، أو من ريع الشباك فى المسرح التجارى . ويعمل ما فى وسعه لارضاء الجماهير حتى لو كان ذلك على حساب الفن .. ولا يعطى لجمهوره الا بقدر ما يأخذ ، بل ان المسرح التجارى ينتظر مقابلا أكثر مما يعطى .

أما مسرح الهواة فهو يعمل لأنه يريد أن يقول شيئا وأن يقدم فنا . وهو يعمل لتربية أذواق الجماهير ولا ينحدر لارضاء نزواتها ، وهو قادر على العطاء فترة طويلة قبل ان يفكر فى المقابل ، وكم هو قليل ذلك المقابل الذى يرضيه .

ومع أن بعض جماعات الهواية فى الجامعات أو الشركات أو النقابات تبذل ما فى وسعها فى حدود امكانياتها المتواضعة ، وتقدم لجمهورها نصوصا جديدة ، واخراجا جديدا تثبت بهما قيمة ما تؤديه حركات الهواية من وظيفة للفن .

الا أنه من العسف أن ننتظر منها ذلك دائما ، لعروض لا تقدم الا ليوم واحد او بضعة أيام ، ولجمهور محدود .. ولا عتب عليهم اذا جنحوا الى تقديم نصوص قديمة مستهلكة من برامج مسارح تحتضر ، وبنفس تصورها التقديم اخراجا وتمثيلا .

فهذه الأعمال المتفرقة التى تقدمها جماعات محدودة ، لجمهور محدود ، لأيام محدودة ، وبامكانيات متواضعة ، لا ترقى الى ما ينبغى أن تؤديه الهواية من وظيفة ... وبعض المحاولات الجادة التى نراها تحتضر الآن ، لا يعلم مآلها الا الله .

فالفن لابد أن يصل الى مداه ، وهاوى الفن لابد أن يصل الى غايته ، وهو أن يقول ما عنده لجمهور المسرح العريض ، والا لكان نشاطه بلا هدف ، وعمله بلا أمل ...

والجمعيات الكبيرة ، للهواة التى تستطيع احياء مواسم مسرحية كاملة للجمهور ، هى المآل الطبيعى الذى ينبغى أن ينتهى اليه هاوى المسرح سواء من المدرسة أو الشركة أو النقابة أو المصلحة .

وللأسف الشديد فان هذه الجمعيات لم يعد لها وجود حقيقى فعال فى النشاط المسرحى ، فعندما أصبح المسرح تابعا للدولة ، وخاصة بعد انشاء فرق التليفزيون المسرحية ، امتصت أعضاء هذه الجمعيات واذابتها فى فرقها ، وهذا ما آلت اليه جمعية أنصار التمثيل والسينما ، وفرقة المسرح الحر .

وعندما ألغيت فرق التليفزيون المسرحية ، وسمح بتكوين فرق خاصة وجدت حركة الهواية نفسها فى ظروف جديدة صعبة .

فالجمعيات القديمة لم يعدلها وجود حقيقى .

وانشاء جمعيات جديدة يضعها فى طريق مسدود من حيث الموارد المالية ، وظروف العمل المسرحى نفسه .

ان وجود مسرح للعمل عليـه أصبح مشكلة كبرى . خاصة وأن حركة الهواية رغم قدرتها على العطاء دون مقابل ، لا تملك الموارد المالية التى تمكنها من استئجار مسرح ، ومنافسة الامكانيات الجبارة التى تملكها مسارح الدولة ، والموارد المالية الضخمة التى يطرحها المسرح التجارى .

ومسرح الدولة مكتظ بممثلين ومخـرجين موظفين ، معطلين عن العمل معظم المواسم المسرحية ، اغلبهم من خريجى معاهد التمثيل ، ولا مجال له فى أن يستوعب مواهب جديدة سواء من الهواة أو من غير الهواة .

والمسرح التجارى يختلف فى نوعيته عن نشاط الهواة من حيث الوظيفة والهدف . ويقدم نصوصا تفصـل تفصيلا لنوعية معينة من الممثلين وتعتمد على أدائهم ، وبغيرهم لا تقوم له قائمة .. ولا مجال عنده لطـالب الهواية الا فى النادر القليل .. وفى ادوار ثانوية .

وما لم تجد جماعات الهواية المختلفة متنفسا طبيعيا لها فى الالتقاء بجماهير المسرح الـكبير ، وذلك عن طريق جمعيات الهواة الكبيرة القادرة على احياء مواسم مسرحية كاملة .. فانهـا تصل الى عنق الزجاجة .. وتتضخم وتختنق .

واذا كانت جماعات الهواية فى المدرسة أو الشركة أو النقابة أو المصلحة الحكومية ، هى مسئولية الجهات التى يتبعونها ، فان هذه الجماعات على أى حال من

الأحوال لن يتأتى لها أن تنشط ، وتثمر الثمرة المرجوة الا اذا وجدت النهر الذى تتدفق اليه ، وهو جمعيات الهواة الكبيرة التى تستطيع احياء مواسم مسرحية كاملة ، وتقدم عروضها للجماهير .

واذا كانت الوظيفة التى تؤديها هذه الجمعيات ليست تجارية ، ولا تقل فى أهميتها عن الوظيفة التى تؤديها مسارح الدولة ، ان لم تزد عليها فى تبنيها للمؤلف والممثل والمخرج منذ بزوغ موهبته ، والعمل على انماء هذه المواهب وتطويرها .. وهى وظيفة قومية تجعل لها حقا فى مسارح الدولة .

فان دور الأجهزة المسئولة عن الثقافة فى تشجيع قيام هذه الجمعيات ، ورعايتها ، واعانتها ، وتوفير المسارح التى تعمل عليها .. يصبح ضرورة قومية .

الجزء الثاني

في الضحك والكوميديا

نحن نضحك

نحن شعب يضحك دائمـــا ، يضحك بالبسمة ... ويضحك بالدمعة ، يضحك سرورا .. ويضحك ألما .

يحتلنا الغزاة .. فنسخر منهم ، ونضحك عليهم .

ويستبد بنا بعض الحـــكام الأجانب فنسخر منهم ، ونضحك عليهم .

ويخرج علينا بعض ابنائنا فيتنكرون لمعـــايير مجتمعنا تعاليا عليه ، أو خروجا على مألوف عاداته وتقاليده .. أو تجمدا فى قوالب هذه العادات والتقاليد ... فنسخر منهم ، ونضحك عليهم .

وقد يضحك الشعب مقهورا . ولـــكنه ليس ضحك الغافل أو المستكين ، وليست فكاهته هى فكاهة السلبى الذى يدفن رأسه فى الرمال ، وانما هى السخرية التى تعرى هؤلاء جميعا ، وهى المرآة التى تعكس صورهم على حقيقتها أمام المجتمع ، فتكون حافزا له على المقــاومة والخلاص .

انظر الى تاريخ هذا الشعب خلال العصور .. تجده قد ضحك على الهكسوس وســـخر منهم حتى استكمل معداته .. فطردهم ، هكذا فعل بكل الغزاة انتهاء بالحملة الفرنسية والاســـتعمار الانجليزى ، وهكذا فعل بـكل

الحكام الأجانب انتهاء بالمماليك والأتراك ، وهكذا يفعل بكل من سولت له نفسه من أبنائه أن يستبد به أو يخرج عليه .

فقد استخدم المصريون الفكاهة على مر العصور سلاحا ذا حدين ، سلاحا يسرون به عن أنفسهم ، فيرفعون عن نفوسهم اثر المعاناة .. والظلم .. وقسوة الحياة ، فيما تمتلىء به حياتهم من نكات وسخريات وقفشات ، فلا يكاد يلتقى أحدهم بالآخر .. أو يجمع بعضهم مجلس حتى يهم أحدهم « أسمعت آخر نكتة !؟ » ويأخذ فى روايتها مباشرة دون انتظار اجابة .

حتى الكبت الجنسى ، وجد له متنفسا فى الفكاهة ، باعتباره لونا من الوان القهر فى المجتمع .

واستخدم المصريون الفكاهة سلاحا يشهرونه فى وجه الغزاة والحكام والطغاة ، يكشفون جبروتهم واستغلالهم ومخازيهم ، فيضحكون عليهم ويتندرون بهم الى أن تحين ساعة الخلاص .

وقد حددت الفكاهة وظيفتها هذه فى مسارحها عبر العصور ، وأصبحت هذه الوظيفة هى المحك الأساسى فى تقييم الفكاهة ، سواء ما نشأ منها عن اللغة ، أو ما نشأ منها عن المواقف والشخصيات فيما يعرف بالكوميديا .

انظر الى الكاتب المصرى الأسعد بن مماتى فى كتابه « الفاشوش فى حكم قراقوش » كيف يسخر من هذا الحاكم التركى الذى ذاع صيته منذ عصر الدولة الأيوبية كرمز للاستبداد والقسوة ، وكيف يرسمه فى صورة من الحمق والتحكم .. معبرا بذلك عن سخط المصريين فيما كان يدور على ألسنتهم .

جاءته الشرطة يوما بأحد غلمانه وقد قتل نفسا محرمة بغير حق ، فقال : « اشنقوه » فقيل له : انه حدادك الذى ينعل لك فرسك ، فنظر أمام بابه فرأى قفاصا ، فقال : أشنقوا القفاص .. واتركوا الحداد .

وهو بذلك .. فيما تصوره النكتة ، قد حقق المصلحة والعدالة معا ، فأبقى على حداده ، وشنق رجلا بدلا من القتيل ، فهل هناك سخرية أبلغ من هذه فى تصوير استبداد حاكم ؟!

وانظر الى ابن سودون الذى انشد شعره فى الضحك والفكاهة ، حتى ذاع صيته بين الظرفاء ، وتنافسوا فى الحصول على ما يكتب .. انظر اليه فى كتـــابه « نزهة النفوس ومضحك العبوس » يقول :

عجب عجب هـــــــــذا عجب
بقـــر تمشى ولهـــــا ذنب
ولهـــــا فى بزبزهـــــــا لبن
يبدو للنـــــــاس اذا حلبوا
من أعجب ما فى مصر يرى الـ
كـــــرم يرى فيـــــه العنب
والنخـــــــل يرى فيـــه البلح
أيضـــــا ويرى فيـــه رطب
« أوسيم » بهـــا البرسيم كـــذا
فى الجيزة قد زرع القصب
والمركب مع ما قــــــد وسقت
فى البحـــــــر بحبل تنسحب
والناقة لا منقــــــار لهـــــا
والوزة ليس لهـــــــــا قتب

لابد لهـــــذا من ســــبب
حذر فــــــدر ماذا الســــبب

وقد نضحك من تعجبه لهذه الصور البديهية ، وقد نضحك لبعض الصور المقلوبة التى أوردها كالناقة التى لا منقار لها ؛ « والوزة » التى ليس لها قتب . ولكننا فى النهاية قد لا نكون فى حاجة الأن نحذر السبب .

ولعله نظر حوله فى مصر القرن التاسع الهجرى ، فوجد الأمور مقلوبة فى وضع أبنائها ، وفساد أحوالها ، فأصبح من الطبيعى كذلك أن تقلب الطبيعة حتى تستقيم الأمور. وأصبح ما يدعو للعجب أن يكون شـــــيئا فى وضعه الصحيح .

انظر الى نكاتنا وفكاهتنا التى تعكس الوضع الاجتماعى فى أروع صوره .

افتقر أحد الأتراك ، فأخذ يمر على بيوت المصريين يتسول ما يجودون به عليه ، فكان يطرق الباب صائحا بعجرفته المعهودة : هات حسنة لسيدك محمد اغا .

وقابل جماعة من المصريين أجنبيا ممن يبتزون المال بالربا الفاحش ، ولاحظ أحدهم أن الليلة باردة ، والأجنبى بدون قفاز ، وأبدى ملاحظته تلك ، فقـــــال قائلهم : ما حاجته الى قفاز ويده فى جيوبنا .

ألم تكن هذه هى مأساة المصريين على مر العصور ، بسلب الأجانب خيراتهم وأقواتهم .. ويفرضون عليهم سيادتهم !!

وهل ننسى تلك النكات التى شاعت أيام كبت الحريات ومراكز القوى !؟

التقى صديقان فبادر أحدهما الآخر :

ـ هل علمت أن فلانا خلع ضرسه من أنفه !؟

ـ ولماذا لم يخلعه من فمه ؟

ـ وهل يستطيع أحد فتح فمه ؟

وهل هناك أبلغ في التعبير عن سوء حال الموظفين ، وما كان يخصم من رواتبهم من ضرائب واستقطاعات وخصومات .. الخ ، من هذه النكتة التي شاعت مع بداية الخصومات .

ركب وزير المالية الترام يتفقد أحوال الناس ، فسمع موظفا يقول لزميله أن راتبه ينفد في اليوم العاشر من الشهر ، وسأله زميله :

ـ وكيف تعيش باقي أيام الشهر !؟

ـ أعيش على الستر .

فأصدر الوزير قرارا في اليوم التالي بخصم ١٠ ٪ من الستر .

هكذا يضحك المصريون ، يضحكون من آلامهم ، ويضحكون من مستغليهم ، ويضحكون من أنفسهم . وتكون فكاهاتهم مرآة عظيمة تعكس صورة المجتمع بكل عيوبه وتبرز الحقيقة واضحة لكل عين ترى وأذن تسمع ، حتى اذا حانت الساعة ، وجد كل خارج على الجماعة .. سواء كان أمة غازية .. أو حاكما أجنبيا .. او مصريا مستبدا بأبناء شعبه .. وجد صورته واضحة في مرآة الشعب ، ليس الى الفكاك منها من سبيل .

ضحك المصريون اذن .. ضحكوا في مجالس السمر ، وضحكوا في أسواق العمل . ضحكوا بالنكتة والسخرية واللذع والتهكم والدعابة والمزاح والقفش والتورية ،

وكان لهم فى كل العصور ظرفاء يمثلونهم فى هذا المجال، وكان من أبرزهم فى العصر الحديث : محمد البابلى ، وعبد العزيز البشرى ، والدكتور محجوب ثابت ، وحسين شفيق المصرى .. وغيرهم كثيرون .

وضحكوا مع الأدباتية ، والشعر الفكاهى ، والكاريكاتير، والزجل ، فيما جمعته بعد ذلك صحف الفكاهة مثل « أبو نظارة » التى انشأها يعقوب صنوع ، و « التنكيت والتبكيت » و « الأستاذ » اللتان أنشأهما عبد الله النديم ، ومجلة الأرغول التى انشأها شيخ الزجالين محمد النجار ، و « حمارة منيتى » التى انشأها محمد توفيق و « الكشكول » و « الفكاهة » التى راس تحريرها حسين شفيق المصرى .. ثم مجلة « البعكوكة » التى راس تحريرها محمود أمين المفتى .

وقد كتب فى هذه المجلات والصحف ، معظم أهل الظرف الذين سبق ذكرهم وغيرهم من امثال بيرم التونسى وبديع خيرى ، وفنانو الكاريكاتير ، وتناولوا فيها بالفكاهة نقد الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية فى مصر .

ومن أسف ، ان مثل هذه المجلات الفكاهية المتخصصة، قد اختفت من سوق الثقافة المصرية ، مع مالها من أثر عظيم فى النقد والتوجيه . واقتصر الأمر على بعض ما يفرد فى الصحف والمجلات من مساحات محدودة فى بعض أبواب الفن والثقافة .

واذا كانت الكوميديا ، هى ارقى اشكال الفكاهة ، لما تجمعه من فكاهة اللغة ، والموقف ، والشخصية . فهل استطاعت الكوميديا المصرية عند نشأتها ، او خلال نموها ، أن تلعب هذا الدور ؟!

لا ضحك بلا هدف

الانسان هو الكائن الوحيد الذى يضحك ، فالحيوان لا يضحك ، والطبيعة لا تضحك ، والجماد لا يضحك ، هذه حقيقة اكدها العلماء والفلاسفة على مر العصور .

واذا كان بعض العلماء ، يرون أن بوادر الضحك تبدو عند بعض الكائنات العليا كالقردة والشمبانزى . وذلك فيما يبدو ابتســـاما على وجوهها تعبيرا عن الراحة والسرور .

فمما لا شك فيه ان الانسان هو الكائن الوحيد القادر على الضحك الواضح والقهقهة العالية . كما انه الكائن الوحيد القادر على اضحاك غيره ، واذا كنا نضحك أحيانا من الحيوان ، أو من بعض الظواهر الطبيعية ، فانمـا يكون ذلك لوجود شبه بينها وبين بعض الظواهر الاجتماعية فى علاقاتها الانسانية ، فقد نضحك من قرد يلبس قبعة لأننا نحاول أن نتصور انسانا على هيئة القرد تحت هذه القبعة . وقد نضحك من صورة شـــجرة صغيرة مثمرة بجوار شجرة كبيرة عقيمة ، لأننـا نتصور مكانها طفلة قادرة على الانجاب ، وامرأة عاجزة عن ذلك .

فالضحك ينشأ أصلا عن ظواهر اجتماعية : شخصية انسانية .. علاقة اجتماعية .. سلوك اجتماعى . ولم يكن

للضحك أن ينشأ ما لم يكن هناك تصور معين مخالف لمنطقة الجماعة عن هذه الشخصية تأباها الجماعة ، والكرم المبالغ فيه الى حد الاضرار .. مبالغة تأباها الجماعة . واذا كانت مثل هذه الظواهر هي منبع الضحك الحقيقي ، فانما هو ضحك من الأمور المعوجة ، وهو ضحك يبغي للأمور أن تستقيم .. وهذه وظيفة اجتماعية .

ومن ثمة .. فان مولد الضحك من الظواهر الاجتماعية، يرتبط بوظيفته الاجتماعية .

وكون الانسان هو الكائن الوحيد الضاحك ، القادر على الاضحاك ، انما ينبع أصلا من انه كائن اجتماعي ، وهو أعلى الكائنات الحية ادراكا لذاته ولروح الجماعة ، ولطبيعة العلاقات الاجتماعية . وهو أعمق هذه الكائنات وجدانا واحساسا بالألم .

ويمكن توليد الضحك بوسائل صناعية ، فكما يمكن اضحاك الطفل عن طريق الدغدغة (الزغزغة) . يمكن اضحاك بعض الكبار السذج عن طريق دغدغة حواسهم ، وذلك بتركيب بعض مواقف جوفاء تقليدا لمواقف اجتماعية ، أو بأداء بعض الحركات المبتذلة بالجسم كهز الأرداف .. والصدر .. الخ ، أو بطريقة نطق خاصة فيها حشرجة أو سرسعة أو تخنف ، أو تهشيم بعض الألفاظ والحروف ، أو عن طريق التلاعب اللفظي .. ولكننا حينئذ نكون حيال ضحك زائف مفتعل لا يستجيب له الا الأطفال والسذج .

واذا تناولنا الفكاهة في صورة من أبسط صورها مثل النكتة . وفي أعلى صورها وهي الكوميديا ، وجدنا أنها لم تكن قادرة على الاضحاك الحقيقي ، ما لم تكن مستمدة

من جذورها الاجتمـــاعية ، ومن ثمة مؤدية لوظيفتها الاجتماعية .

ولنتناول هنا بعض النكات التى يتولد الضحك فيها عن ظواهر اجتماعية ، وتؤدي السخرية فيها وظيفتهـــا الاجتماعية . وبعض النكات القائمة على مجرد التلاعب اللفظى ، لنر أيهما أكثر اضحاكا .

هذه نكتة تحمل دلالة اجتماعية .

أضرب أسد فى حديقة الحيوان عن الطعام لانهم يقدمون له الفول السودانى بدلا من اللحم . ولمـا سـأل المدير المختص عن سبب ذلك اجاب :

— حينما أحضروا لنا الأسد ، لم يكن لدينا درجة أسد خالية ، فقيدناه على درجة قرد .

ومع أن الضحك ظاهرة اجتماعية ، اى ان النكتة التى تلقى على جماعة ، تجد لها صدى من الضحك اكثر مما لو ألقيت على شخص واحد . أو بأكثر مما لو قرأت ، الا انك تشعر هنا بما تولده هذه المفارقة من الضحك ، هذا ان لم تكن قد ضحكت فعلا وقهقهت بمفردك .

ونحن لا نضحك هنا من الأسد ، ولكننا نضحك من قلب الحقائق طبقا للشكليات بجعل العلاقة بين الكـائن وطعامه وفقا للدرجة الخالية . ولا شك أن النكتة هنا ترمز لظاهرة اجتمـــاعية عامة ، تمس كل فرد قد يصبح معرضا لقلب أوضاعه طبقا للشكليات ، وما أكثر ما نقرأ عن موظف يصر على أن الرجل الماثل أمامه أنثى ، لأن الكاتب أخطأ فى شهادة الميلاد أو فى البطاقة العائلية بزيادة تاء التأنيث

ومع أن الضحك ينبع من منطق هذه العقلية ، ومن

هذه العلاقة ، الا أن النكتة تؤدى وظيفتها الاجتماعية بالسخرية منها ، باعتبارها تصورا معوجا للأمور ، فى مقابل التصور الصحيح .

ولعلنا نذكر نكتة الوزير الذى أصدر قرارا بخصم ١٠ ٪ من الستر .

ففى الوقت الذى يتولد فيه الضحك من تجسيم « الستر » وهو شىء معنوى ، ليبدو فى صورة شىء مادى .. الا ان النكتة تؤدى وظيفتها الاجتماعية بتصوير سوء أوضاع الموظفين ومعاملة الاداريين لهم .. فى مقابل ما ينبغى أن يكون .

فماذا لو طلبنا من مثل هذا الموظف أن يوفر الف جنيه مثلا من الستر ، ليدفعها مهرا لعروس أو مقدما لايجار شقة !؟

ومع أن النكات القائمة على التلاعب اللفظى ترقى قليلا عن دغدغة الحواس عن طريق حركة الأجسام ، أو تحريف النطق أو تشويه الملابس ، الا انها أقل قدرة ، على الاضحاك ، لأنها تفقد المنبع ومن ثمة تفقد الوظيفة .

وهذه بعض نكات قائمة على التلاعب اللفظى .

« واحد طلع القلعة .. لقاها لابسة » .

« واحد راح يقعد على القهوة .. قعد على الشاى » .

« ذهب رجلان الى الحلاق .. واحد حلق .. والثانى غويشة » .

« واحد ضرب التليفون عيط » .

وتلاحظ فى هذه النكات التكلف الواضح لمحاولة الاضحاك !

فالضحك اذن يستمد وجوده من الظواهر الاجتماعية، وهو يسخر من الخارجين على منطق الجماعة وقوانينها ومألوف عاداتها واساليب سلوكها . واذا كان الضحك بهذا المعنى هو بمثابة عقوبة اجتماعية للخــارجين على الجماعة ، فهــو في نفس الوقت أداة اصــلاح ، لأن الفكاهة تبرز المثل الأعلى حين تسخر من نقيضه .

ومن يريد أن يعزل الضحك عن منبعه أو عن وظيفته، انما يقدم لنا صورا مفتعلة ، سرعان ما تنضب لأنها فارغة من أى محتوى ، ولا تلبث أن تهبط الى ضرب من التكرار والتبذل والاسفاف .

واذا كانت أرقى الأشــكال الفنية التى تؤدى الى الضحك هى الكوميديا ، فالتمثيل هو الوسيلة التى تنقل هذه الكوميديا الى الجماهير . والمثل هو اداة التعبير عن رسالة الكوميديا .

فاذا تجردت من منبعها ووظيفتها ، لم نعد أمام ضحك حقيقى أو كوميــديا حقيقية ، ولم يعد الذى يضحكنا ممثلا ، وانما ظريفا يستدر ضحكاتنا بوسيلة مفتعلة عن طريق الدغدغة الحسية ، بحــركة الجسم أو التلاعب اللفظى ، متخذا لنفسه طريقة خاصة مفتعلة فى نطقه أو أو فى أسلوب حركته .

تناول أى مشهدين تمثيليين كوميدين لممثل واحد، سواء من مسرحية واحدة أو من مسرحيتين مختلفتين . أحدهما يحمل قيمة اجتمــاعية معينة يريد الممثل أن يبرزها للجمهور ، والآخر فارغ من أى محتوى اجتماعى ، وانظر كيف يؤدى الممثل دوره فى كلا المشهدين . . تجده فى المشهد الأول يرتفع لمستوى التمثيل لأن لديه ما يقوله وما يفعله ، وتجده فى المشهد الثانى يهبط الى مستوى

مهرج السيرك ، فيضطر الى أن يمسخ ملابسه ، ويحرف طريقة نطقه ، ويبالغ فى حركاته ، بل يصطنع حركات جوفاء لا مبرر لها ، لا تضحك الا السذج والأطفال .

والفرق بين الممثل والظريف ، ان الممثل يتخير دورا يناسبه فى نص كتبه مؤلف مدرك لأدواته الفنية ، واع برسالته ، فاستمد الضحك من أصوله ، ووظفه فى وظيفته .. والممثل هنـا لا يتكلف اضحاك الجماهير لأن النص نفسه يتكفل بذلك .. ويتحقق نجـــاح الممثل بمقدار ما يحقق رسالة النص .

أما الظريف فله طريقة نطق خاصة به ، وبعض الحركات التى تصبح من لوزامه ، وهو يريد ممن يتصدى للكتابة أن يفصل له هيكلا فارغا يتفق مع طبيعة ظروفه ، ويتيح له استخدام طريقة نطقه وحركاته ، ولأنه يستغرق معظم المشهد ومعظم النص فى ذلك ، فانه يطغى على أية دلالة اجتماعية .

واذا كانت هذه الوسائل سرعان ما تنضب لأنهـــا لا تقوم على أساس اجتماعى ، ولا تلبث أن تهبط الى ضرب من التـكرار والتبذل والاسفاف ، فان الضحك الحقيقى الذى ينشأ عن عوامل اجتماعية لا ينضب أبدا، لأن الحياة الاجتماعية دائمة ومستمرة ومتطورة .

فاذا اجتمعت للممثل القـــدرة على تمثيل ما يوفره النص ، الى جانب الظرف بلغ أفضل ما يطمح فيه ممثل .

وقبل أن نتعرض للـكوميديا المصرية ، ونرى الدور الذى لعبته خلال نشأتها وتطـورها بالنسبة للمجتمع المصرى ، علينا أن نلم الماما سريعة بظـــروف نشأة الـكوميديا فى الدول التى سبقتنا اليها ، والدور الذى لعبته .

في الكوميديا

قد يقال أن الضحك هدف في حد ذاته ، فهو يغسل هموم الفرد ، ويبعث في نفسه الشعور بالراحة والسرور ، وتلك وظيفته . ونحن لا ننكر ذلك . ولكن هذه وظيفة نفسية بحتة تتناول الانسان باعتباره كائنا فردا ، كما يشعر الانسان بالراحة والسرور بعد اشباع حاجاته الفطرية ، كأن يأكل بعد جوع او يشرب بعد عطش أو يقضي حاجة جنسية . ولكن اللذة التى تصحب قضاء هذه الحاجات ، او الراحة والسرور اللذان يعقبانها ليس هما الوظيفة الأساسية لها ، بل قضت حكمة الله أن يكونا مكافأة لوظيفة اجتماعية ابعد اثرا هي حفظ الانسان واستمرار الجنس البشرى .

والضحك لم يكن لينشأ عن الانسان الفرد . وقد سبق أن بينا أن الضحك ظاهره اجتماعية لا ينشأ عن الانسان الا بوصفه كائنا اجتماعيا . وقد يكون شعور الانسان بالراحة والسرور عقب الضحك ، مكافأة لما أداه الضحك من وظيفة اجتماعية .

***

وقد نشأت الكوميديا كما ـ نشأت التراجيديا ـ عن نشاط انساني مرتبط بالجماعة . وذلك فيما كان يقوم

به الانسان من احتفالات عقب رحلات الصيد الشاقة التى يطارد فيها الحيوان سعيا وراء غـذائه وكسائه . فكانت تعقد حلقات الرقص ، ويلبس الراقصون الأقنعة وجلود الحيوان ، ويمثلون المطاردة . واذا كان ذلك يدخل على نفوسهم الراحة والسرور ، فهمـا مكافأة الانسان المنتصر تمجيدا للمثل الأعلى فى توفير الحيـاة واستمرارها ، وسخرية من الحيوان الذى يقاوم ثم يسقط فى النهاية .

وقد نشأت الدراما عنـد الاغريق أول ما نشأت عن طقوس مشـابهة ، احتفـالا باله الخصب والنمـاء « ديونيسوس » حيث كانوا يقـومون بعد جنى العنب وعصير الخمور باقامة الأعياد فيعقدون حلقـات الرقص والغنـاء ينشدون فيها الأناشـيد ، ويلبسون الأقنعة ، وجلود الحيوان ، ويمرحون فرحا وسرورا بوفرة المحصول وتمجيد المثل الأعلى فى تحقيق الخصب والنماء .

وقد تولدت الكوميديا عن هذا اللون من المرح ، كمـا تولدت التراجيديا عن لون آخر من الطقوس كانوا يظهرون فيها حزنهم عندما تتجهم الطبيعة ، وتجف الكروم .

وقد تبلورت الـكوميديا الاغريقية ومرت بمراحل مختلفة من التطور من حيث التأليف والتكنيك ، ومن حيث الموضوعات التى تناولتها وأسلوب الحوار . ومن حيث التمثيل وعدد الممثلين ، ومن حيث حلقات التمثيل والأدوات المستخدمة . حتى اتخذت شكلها النهائى الذى عهدناه عند الاغريق .

والذى يعنينا من هذا كله ، أن الكوميديا سواء عنـد ظهور بوادرها فى تمثيل رحلات الصيد ، أو فى الاحتفال بأعياد الاله « ديونيسوس » كانت تعبيرا عن فرحة الانسان

وسروره بتحقيق خير الجماعة وتمجيد المثل الأعلى فى تحقيقها ، والسخرية من نقيضه .

واذا كان المثـــل الأعلى ونقيضه فى ذلك الوقت كانا يتمثلان فى الانسان المنتصر على الحيوان ، أو فى اله الخصب والنماء الذى ينتصر على الطبيعة ، فانه بعد أن ارتقى تفكير الانسان ونضجت علاقاته الاجتماعية ، ونزل بحياته ومشكلاته من لدى آلهة الأولمب الى أرض الواقع . أصبح المثل الأعلى يتمثل فى الانسان الذى يعمل لخير الجماعة ، والسلوك الذى يعمل لرقيها ، والنظم التى تنهض بقيمها ، وأصبح نقيضه الذى يستحق السخرية والتهكم هو كل ما يعوق ذلك سواء كان انسانا أو سلوكا أو نظاما .

***

وأكبر من عرف من كتاب الـكوميديا الاغريقيين فى عهدها القديم هو ارستوفان (٤٤٨ ق م) ، اشتهر بأنه شاعر صاخب المرح ، ومصلح اجتماعى فى نفس الوقت .

حاول أن يضحك جمهوره ، فاســـتخدم السخرية والتهكم والهزل ، واستمد ذلك من نقده للمجتمع والعمل على رد أبناء جيله الى فضائل الأسلاف .

انظر كيف يهزأ بالحرب فى مسرحية « الاوكرانيون » فيجعل أحد المواطنين يسعى الى تحقيق السلام ، ويسخر من قادة الحـــرب ، ويتمكن من عقد هدنة بمفرده بين الطرفين المتحاربين ينعم فيها وحده بمزايا السلام من أمان ورخاء ، وكيف يكمن وراء هذه التناقضات من عوامل لاثارة الضحك وبناء المشاهد الهازلة التى تصل أحيانا الى الخشونة !؟

لقد نال الجائزة الأولى عن هذه المسرحية ، كما نالها عن مسرحية أخرى بعنوان « الفرسان » واصل فيهـــا السخرية والتهكم من الحرب والداعين لها .

ثم يسخر من الفلسفة السفسطائية التى سادت عصره، مظهرا الفيلسوف سـقراط فى صـورة هزلية أضحكت الجماهير وأثارتها عليه فى نفس الوقت ، مع أن سقراط لم يكن سفسطائيا .

ثم هو يستطيع أن يولد ضحكا أكثر مرحا وعمقا من خلال نقده لنظام المحاكم والمحلفين فى مسرحية « الزنابير » حيث يعشق العجوز فيلوكليون الخدمة فى المحاكم ، ولكن ابنه يحبسه فى البيت ليمنعه عنها ، فيحاول الهرب موحيا الى سجانيه مرة أنه دخان عليه أن ينطلق من المدخنة ، ومرة انه طير عليه أن يحلق فى الهواء ، ولمـا يفشل فى الهرب يعقد محكمته الخاصة فى البيت ، ويأخذ فى محاكمة كلبه وأفراد الانشاد ، ساخرا من نظام المحاكم والمحلفين .

ثم هو ينقد نظام التربية السائد فى عصره فى « ضيوف هرقل » والزعماء الشعبيين فى « البابليون » التى قدم من أجلها الى المحاكمة ولم يفلت الا بمشقة كبيرة .

وقد تغيرت الكوميديا القـــديمة على يد « مناندر » (٣٤٣ ق م) فخفف من حدة المبالغة التى سادت لدى ارستوفان ، وتناول شخصيات معروفة مألوفة أقرب الى واقع الحياة . تنحصر مشاكلهـــا فى أمور الدنيا مثل الحياة العائلية والمال والتجارة والحب . وعنى بتصوير الشخصيات أكثر من عنايته بالمواقف ، فبدت لديه ملامح كوميديا النماذج الشخصية ، واهتم بمعـــالجة القيم الاخلاقية والأبعاد النفسية . وكانت هذه هى منـــابعه

التي يولد منها الضحك بأحداث المفارقات الفكاهية وسوء التفاهم ، ولكنه كان ضحك لا يحمل صخب آرستوفان وخشونته .

***

أما الكوميديا الرومانية فقد كانت تقليدا للكوميديا الاغريقية ، أتاحت ظروف اجتماعية خاصة ، وطقوس دينية معينة للكوميديا أن تنشأ في اليونان . وكان الرومان أكفاء في الاقتباس ، وان كانوا قد تناولوها بطريقتهم الخاصة ، وأحدثوا تغييرا فى شكل المسرح .

كان الرومان يحبون الصخب والعنف ، ولا غرو ان كانت تسليتهم المفضلة هى صراع الانسان والوحوش فى حلبات المصارعة .

وكان على بلوتس (٢٤٥ ق م) أن يضحك هذا الجمهور . فهو يقتبس المشاهد والشخصيات والأحداث الاغريقية من كل العصور ومن كل المؤلفين . يقتبس عن الكوميديا الاجتماعية والكوميديا الأخلاقية وكوميديا الشخصيات ، ويسرف فى استخدام الهزل والسخرية ، ويستخدم تكنيكا لاثارة الضحك ، لا يخفى فيه شيئا عن جمهوره ، ليفاجئه بما لم يكن متوقعا من أحداث ، ولكن عن طريق الأخطاء الناشئة عن جهل اشخاص الروايه انفسهم بما هو معروف لدى الجماهير .

أما تيرانس فهو يكتب للمثقفين ، ويقصد الى الضحك الهادىء ، فكان عليه أن يقتفى اثر مناندر ، ومع ذلك فلم يكن ينقل عن الكوميديا الاغريقية نقلا مباشرا ، بل كان يستمد منها عقد مسرحياته ويضفى عليها حوارا ذا صبغة محلية .

وسواء أسرف هذا فى الضحك أو اقتصد ذاك ، فقد

كانت مسرحياتهما أيضا تقتفى أثر الكوميديا الاغريقية فى معالجة المشكلات الاجتماعية والأخلاقية .

***

ولم يكن بعد ذلك ، للمسرح عامة ، والكوميديا خاصة من شأن يذكر الا مع بدايات عصر النهضة . حيث بدأت نهضة المسرح فى ايطاليا ، وظهرت الكوميديا فى صورة من أروع صورها ، فيما عرف بالكوميديا المرتجلة . حيث الممثل المؤلف المخرج المبدع المتألق ، الذى يفيض فنه عفو الساعة وفقا لمشاعر الجماهير ، وحيث ينصهر وجدان المؤلف وجمهوره فى بوتقة واحدة ، عن فن هو مزاج الممثل الملقى بالجمهور المتلقى .

فلم يكن فى هذه الكوميديا من نص مكتوب ، بل سيناريو مختصر عن الفكرة الرئيسية يكتبه رئيس الفرقة ، ولم يكن هناك مناظر استعراضية ، بل مجرد منصة وممثلين وحركة .

وعلى الممثل أن يبتكر ويتجاوب مع جمهوره .

ومع ذلك لم تكن هذه الكوميديا مجرد اضحاك للجماهير ، وما كان لها أن تضحك الجماهير ما لم تنبع من المجتمع وظروفه ومشكلاته .

فقد تناولت الكوميديا المرتجلة نماذج صادقة من المجتمع ، استطاعت من خلال السخرية منها والتهكم عليها ، أن تعكس صورة صادقة لمجتمع ذلك العصر .

ومن أهم النماذج الشخصية التى تناولتها الكوميديا المرتجلة :

البنطلون .. أو المسخة ، وهو العجوز الطاعن السن الذى يقف عقبة أمام الشباب وآمالهم . فهو الزوج

لفتاة صغيرة ، وهو الأب لشاب يحول بينه وبين حبيبته أو لفتاة يحول بينها وبين حبيبهـــا لاعتبارات مالية أو اجتماعية . وهو مخدوع أبدا .. تخدعه زوجته ، أو ابنته ، أو ابنه ، بمعـــاونة بعض النماذج الشخصية الأخرى ، ويضعونه فى صورة من الهزأ والسخرية تليق بالصفة التى أطلقت عليه .. المسخة .

والمتعالم .. وهو رفيق المسخة ، علامة دعى قادم من المدينة الجامعية « بولونيا » قد يكون طبيبا أو مهندسا أو محاميا ، لكنه جاهل يتشدق بألفاظ جوفاء ، ويقلب حقائق العلم بطريقة تثير الضحك والسخرية .

والتاجر .. وهو تاجر بندقى بدين محتال مستغل . يقوم غالبا بدور العزول ، فهــــو عاشق ولهان يحاول الحصول على الفتاة من حبيبها مستغلا ماله أو مكائده ، ولكنه يخرج فى النهاية صفر اليدين ، حيث يخدعه وينتصر عليه ابنه أو خادمه أو اى شخص آخر .

والضابط .. وهو ضخم الجسم ذو شاربين كبيرين ، متكبر كثير الزهو والخيلاء . يتظاهر بأنه بطل مغـوار ولكنه فى حقيقة الأمر جبان رعديد ، يتحدث عن بطولاته ومغامراته ، ولكنه ينكمش فزعا أو يختبىء خلف أى شىء لمجرد سماع صوت مفاجىء ، أو رؤية خادم يحمل سيفا من خشب .

والخادمان .. وهما وجهان لنموذج واحد . أحدهما طيب ساذج ، والآخر شرير ماكر . ولكن أحدهما دائما هو الوصيف ، وهو مساعد العشاق ، وهو مدبر المكائد التى يقع فيها المسخة أو التاجر لصـــالح العشـــاق من الشباب .

ولسنا نتتبع الكوميديا فى دقائق تطورها عبر التاريخ ،

ولكننا نلتمس أهم مراحل تطـورها فى علاقتهـا بالمجتمع نشأة ووظيفة .

***

كان شكسبير (١٥٦٤) هو قمـة الانجاز المسرحى فى انجلترا . كتب التراجيديا والكوميديا على السواء ، فارتفع بهما الى أعلى ما يصل اليه فن فى عصره وعاشت أعماله فى مختلف العصور .

لم يصل الى درجة عالية من التعليم . ولم يتعلم اليونانية واللاتينية كأبناء المثقفين فى عصره ، ولكنه رجع الى ما ترجم من آدابهما وغيرهما من الآداب القديمة . وقد لا يكون شكسبير على المستوى العلمى لما سموا أنفسهم بفطناء الجامعة فى ذلك الوقت تمييزا لأنفسهم عن الكتاب غير الجـامعيين ، ولـكنه كان من الذكاء والفطنة بحيث استوعب ما قرأ من ترجمات الآداب القديمة . ومن قوة البصيرة بحيث استطاع أن يعى حياة المجتمع وقيمه ، ومن قوة الفهم بحيث استطاع ان يستفيد منهما ، ويصوغ فنه .

وليس يعـنينا هنا مذهب شكسبير الفنى ، وخروجه عن المدرسة الكلاسيكية بتحطيم قانون الوحدات الثلاث وبدأ فصل الأنواع ، والتمهيد للمذهب الرومانسى . بقـدر ما يعنينا وعيه بحياة المجتمع وقيمه ، واعتبارهما منبعه لاثارة الضحك .

ومع أن شكسبير قد استمد معظم مسرحياته من التاريخ القريب لعصره ، وجعل اماكن احـداثها مختلف البلدان الأوربية ، الا انه كان يتناول قيمـــا انسانية عامة ، تمس حياة الفرد فى مجتمعه كما تمسها فى أى مكان .

فقد تناول الحياة فى ترفها وبؤسها ، فى حزنهــــا ومرحها ، وتناول شخصيات بشرية من كل مستوى ، ملوك ووزراء وقادة وتجــار وصناع ومتسولين ، تنتمى الى مختلف الطبائع والسلوك : الكريم واللئيم وذو النجدة والدساس والحكيم والأبله والمتواضع والمغرور .. الخ .

فهو فى « جهد الحب الضائع » يضعنا امام الطبيعة الانسانية وجها لوجه ، فملك نافار وثلاثة من أصدقائه ، يتعاهدون على البعد عن النســاء ، ويعتزلون الحياة فى مكان قصى . لكن يشاء حظهم ان تمر بهم ملــكة فرنســـا ووصيفاتها الثلاث . فتتحرك فيهم عاطفة الحب وطبيعة البشر ، ويجد كل منهم نفســــه مدفوعا الى الحب . فيتقرب كل منهم الى حبيبته ، وهو يتحايل للتخفى عن زملائه حتى تنكشف أمورهم ، فيعلنون انهم لا يستطيعون مقاومة الطبيعة البشرية ومعاندة الحياة .

وسواء كان المعتزلون بقيادة ملك نافار أو من عامة الشعب ، فهى مشكلة اجتماعية قبل كل شىء .

وهو فى « ترويض النمرة » يتناول موضوع المرأة المتمردة الشرسة سليطة اللسان التى تتطاول على النــاس بحق وبغير حق ، حتى ينفر منها الخطاب . ولكن أحدهم « بتيوشيو » يجــد فى نفســه الــكفاءة على ترويضها ، فيلاينها حتى تقبل الزواج منه ، ثم يزج بها فى سلسلة من المواقف الضاحكة المحرجة التى لا تستطيع منهــــا فكاكا ، وفى نفس الوقت تؤدى الى اذلال كبريائها وكسر انفها ، حتى تلين الفتاة وتصبح مطيعة لكل ما يقول لها من صواب أو خطأ .

وهو فى تاجر البندقية يكشف بشــــاعة اليهــودى المستغل ، الذى يتحايل على أبنــــاء مجتمعه لاستلاب

أموالهم . فيشترط على أنطونيو تاجر البندقية الشريف ، لاقراضه مبلغا من المال ، أن يقتطع رطلا من لحمه اذا لم يستطع سداد المبلغ فى الموعد المحدد .

ويقبل التاجر الشريف لأنه كان يريد مساعدة صديقه باسانيو بهذا المبلغ فى التقرب من حبيبته « بورسيا » . ويجيئه الخبر بغرق سفنه في البحر ويعجز عن سداد الدين فى موعده ، فيصر اليهودى لعــداء بينهما على اقتطاع رطل من لحمه ، رافضا أى عرض آخر بسداد المبلغ أو حتى أضعافه .

ويحاول يا سانيو انقاذ صديقه .

وتتخفى « بورسيا » فى زى محام شاب تدافع عن انطونيو امام القضاء . وتتمكن بذكائها الحاد أن تقلب الموقف ضد اليهودى . فتوافق على اقتطاع رطل من لحمه بشرط عدم اسالة نقطة دم واحدة لأن العقد لم ينص على اسالة دماء .

ويسقط فى يد اليهودى ، ويتنازل عن تنفيذ العقد على أن يسترد دينه . ولكن « بورسيا » تصر على تنفيذ العقد ، والا وقع اليهودى تحت طائلة العقاب بمصادرة أمواله واعدامه . وأخيرا يوافق اليهودى انقاذا لحياته على أن يتنازل عن ثروته لابنته وزوجها المسيحى التى هربت معه .

وهى كلها نماذج شخصية ، وقيم أخلاقية ، وألوان من السلوك الاجتماعى ، أمدت شكسبير بعناصر الاضحاك من فكاهة وسخرية وتهكم .

***

وكان موليير (١٦٢٢) هو رائد الكوميديا الفرنسية .

تثقف ثقافة عالية ، فدرس عيون الآداب القديمة فى كلية الجيزويت وخاصة اليونانية واللاتينية ، ثم قضى عاما فى دراسة البلاغة وعامين فى دراسة الفلسفة ، ومع أنه كان أثناء دراسته شغوفا بالمسرح يتردد على دور التمثيل ليشاهد بعض المسرحيات الشعبية والهزلية ، الا انه لم يعمـــل بالمسـرح فى ذلك الوقت ، والتحق بمدرسة ونال اجازتها . والتحق بوظيفة فى القصر ، ثم اعتزل الوظيفة . وكان قد تعـرف على أسرة تحترف التمثيل تعرف بأسرة « بيجـــار » فارتبط بها وكون معها فرقة مسرحيـة ببعض أرث عن أمه ، ولـكن هـذه الفـرقة أخفقت عند عملها فى باريس فغرق فى الديون . فطاف بفرقته الأقاليم لمدة اثنى عشر عاما ، تمرس خلالها بأصول الفن المسرحى ، وألم بالكثير من اللهجات والعادات وأخلاق الناس ومشكلات المجتمع . واكتشف نفســـه كممثل كوميدى قادر عن اثارة الضحك بعد أن كان يؤدى أدوار التراجيـــديا ، ومن ثمة عكف على كتابة مسرحيـاته الكوميدية مزودا برؤيا صادقة عن حياة الناس فى عصره ، وبحس مسرحى كوميدى ســاعده بالوصول بكوميديا النماذج الشخصية الى أوج نضجها .

وعادت الفرقة الى باريس عام ١٦٥٨ ، حيث مثلت فى القصر مسرحية من تأليفه هى « الطبيب العاشق » فضحك لها الملك كثيرا ، وأمر بأن تخصص احدى قاعات قصر فرساى لهذه الفرقة الناجحة .

وهكذا عاد موليير فنانا ، الى القصر الذى اعتزل فيه الوظيفة بمحض ارادته .

هذا هو موليير ، الممثل والمؤلف الكوميدى ، الذى أضحك الجمهور والقصر ، وسخر من كل ما يستحق

السخرية فى مجتمعه ، حتى لم يســـــلم هو نفسه من سخريته ، والذى وصل بكوميديا النماذج الشخصية الى درجة من الرقى لم تعرفها الكوميديا من قبل . فهل كان يبلغ هذه الدرجة ما لم يكن على وعى بمنابع الضحك الحقيقى ، وادراك بمشكلات مجتمعه وأخلاقه !؟

انظر اليه في « مدرسة النساء » التى يرى فيهـــا المؤرخون صورة لحياته الشخصية ..

كان قد تزوج من ربيبته من أسرة « بيجار » وكانت تصغره بعشرين سنة . فمالت الى الشباب من سنها ولم تحافظ على أواصر الزوجية ، وألهبت نار الغيرة فى نفسه . وادرك خطأه وتعلم الدرس فى وجوب التكافؤ بين الرجل والمرأة فى السن والثقـــــافة والظـــروف الاجتماعية .

وأراد أن يعلم جمهوره الدرس ، فقدم له « مدرسة النساء » وسخر من نفسه .

وتدور المسرحية حول كهل هو « ارنولف » ظن انه يستطيع ان يحمل شابة صغيرة على الرضا بحياتها معه واخلاصها له . فاشترى طفلة قروية رباها فى عزلة عن الناس ، وحجب عنها حقائق الحياة . لكنها ما تكاد تشب عن الطوق وتقابل شـــابا من سنها حتى تندفع اليه ، ويصبح ذلك الكهل من خلال ظروف وملابسات المسرحية أضحوكة بين الناس .

فهل كان موليير مجرد مهرج يضحك الناس أم كان أستاذا يعلمهم !؟

ما أروع الكوميديا ، لأن من طبيعتها أن تضحك الناس وهى تلقنهم درس الحياة ، فيضحكون وهم يحترمون المثل

والمؤلف وأنفسهم فى نفس الوقت .

أنظر اليه كيف يتناول رزيلة من رزائل المجتمع هى البخل ، ويجسمها فى نموذج شخصى هو البخيل . فيضعه موضع السخرية والهزأ ، ويضحك الناس ما شاء لهم الضحك .

وانظر اليه كيف يكشف عيوب مجتمعه ، فيحارب النفاق فيمن يتسترون وراء الدين فى شخصية «ترتوف» وغفلة المجتمع عن حيلهم وشعوذتهم فى شخصية « أرجون » . وكيف هاجم الارستقراطية وحذلقتها الجوفاء فى « النساء المتحذلقات ودون جوان » . وكيف عرى طبقة النبلاء بما يتفشى بها من تفاهة وانحلال فى « كاره البشر » ، وكيف تهكم من مدعى الطب فى « الحب المداوى » ، وكيف سخر من المتعالين من أبناء الطبقة الوسطى الذين يجرون وراء المال ويتعلقون بأذيال الارستقراطية تقليدا لهم فى تفاهتهم وانحلالهم فى « البرجوازى النبيل » .

اليس فى ذلك كله دعوة لتحقيق المثل الأعلى فى المجتمع ؟!

***

وليس من الضرورى أن يتعمد تناول مشكلات المجتمع ومعالجتها معالجة مباشرة . ولكن يكفى الفنان أن يكون منتميا لمجتمعه على وعى به . والنموذج الكوميدى الجيد هو بطبعه نموذج اجتماعى ، وهو بطبعه يرتبط بالجماعة وما يسود بينها من علاقات ، ومثل هذا النموذج الذى يتخيره الفنان بحسه الكوميدى الصادق يؤدى دوره الاجتماعى سواء اراد المؤلف ام لم يرد .

لقد كتب « جوجول » « المفتش العام » واستطاع

بحسه الكوميدى الصادق ان يتخير نماذج بشرية فى ظل مجتمع معين ، كشفت مفاسد الادارة فى أحد الأقاليم فى مختلف القطاعات . وأوعز الحاقدون على جوجول للقيصر أنه ينتمى الى الثوار ويحض على الثورة ، ولم يكن جوجول فى حقيقة الأمر من الثوار ، بل كان من رعايا القيصر المخلصين . وعبثا حاول أن يدفع عن نفسه هذه التهمة بأنه مجرد فنان يعكس ما يراه أمامه كالمرآة .

ولا عجب اذن أن تزدهر الكوميديات فى عصور الحرية والديمقراطية .

***

وقد تقلبت الكوميديا بين مذاهب مختلفة من كلاسية ورومانسية وواقعيـــــة . وصنفها المؤرخون تصنيفات مختلفة مثل الفارس والفكاهة وكوميدياالدسيسةوكوميديا النماذج الشخصية . كما صنفوها الى كوميديا اجتماعية وكوميديا اخلاقية وكوميديا نفسية .. الخ . ولكن هذه التصنيفات ان دلت على شيء ، فانما تدل على غلبة بعض عناصر الاضـــــحاك أو ملابساته فى بعضها عن البعض الآخر ، أو على غلبة بعض الظواهر خلال تطور الانسان لاكتشاف نفسه اجتماعيا وأخلاقيا ونفسيا .

ولكن الكوميديا الحديثة أبعد اثرا ، لأنها تملك كل ما تكشف للانسان من عناصر الاضحاك . كمـا أنهـــا تملك كل ما توصل اليه الانســـــان فى اكتشاف نفسه اجتماعيا واخلاقيا ونفسيا .

***

ولسنا فى مجال مناقشة الكوميديا اليونانية أو كوميديا شكسبير وموليير وغيرهما ، وفى مدى قدرتها على اضحاك

الجماهير في بيئات مختلفة أو عصور مختلفة ، فكل مجتمع له ذوقه الخاص ، وله ملابساته وتقاليده ، ويستطيب بعض عناصر الاضحاك عن غيرها كما وكيفا . وما يضحك مجتمعا قد لا يضحك غيره .

ولكن فى النهاية يظل المنبع الاساسى للضحك والكوميديا هو العلاقات الاجتماعية ، وتظل الوظيفة الأساسية لهما وظيفة اجتماعية .

***

ومع ذلك ، فهناك عناصر مشتركة بين الشعوب . ومن خلال هذه العناصر عاشت هذه الكوميديا على مر العصور ، وكانت مائدة دسمة للاقتباس أو الاستلهام .

لكننا نجد فى بعض فترات الافلاس الفكرى والفنى ، أن بعض من يتصدون للكوميديا ، ويعجزون عن ادراك أذواق مجتمعاتهم واستلهام عاداته وتقاليده ، وفهم طبيعة علاقاته الاجتماعية فيما يؤلفون ، أو يعجزون عن فهم العناصر المشتركة التى تؤهلهم لاختيار ما يقتبسون أو يستلهمون ... نجدهم يستعيدون بعض العقد والملابسات فى ظل ظروف اجتماعية أو تاريخية معينة ، فيفرغونها من فحواها الاجتماعى ، ويقدمونها لأجيال تالية أو مجتمعات مغايرة ، وذلك بدعوى ما يسمونه : الضحك للضحك .

وهو ضحك زائف أشبه بدغدغة الأطفال ، لأنه عزل عن منابعه الأصيلة . مما يضطر الممثل الى بذل جهد غير عادى ، والمبالغة فى الحركات المبتذلة ، وطريقة النطق ، والزراية بالملبس .

هكذا نضحك

الكوميديا فن مركب يعتمد على الرؤية والسمع معا ، ويقوم أساسا على كافة ما عرف الانسان من وسائل الاضحاك ، ابتداء مما ينشأ عن اللغة كالفكاهة والنكتة الى ما ينشأ عن علاقة الفرد بالمجتمع وما يتضمنه من مواقف وسلوك ونماذج شخصية .

فلم تعد الحياة تحتمل تقسيم الكوميديا الى فكاهية وسلوكية وشخصية ، أو الى نفسية وأخلاقية واجتماعية . ان المسرحية الحديثة ينبغى أن تكشف الحياة بكل أبعادها . وتتكامل فيها هذه العوامل جميعا لتفسير سلوك الفرد والجماعة .

ولقد درج بعض الباحثين الى التفريق بين الكوميديا والدراما عن طريق نهاية المسرحية سعيدة كانت أو مفجعة . وهو تفريق يغفل العناصر الأساسية التى تفرق بين الدراما والكوميديا .. ذلك ان الفكرة هى مجرد فكرة فحسب ، والذى يجعلها درامية أو كوميدية هو طريقة التناول .

ولكى نفرق بين الكوميديا والدراما ، ينبغى أن نأخذ فى اعتبارنا أن اثر العمل الفنى ، هو نتاج التفاعل بين الانسان المتلقى لهذا العمل ، والعناصر التى يتضمنها هذا

العمل والتى يحققها الفنان .

والأساس الأول فى التفرقة بين الكوميديا والدراما هو العاطفة . اذا تسرب العمل الفنى الى العاطفة .. فنحن أمام دراما . واذا تحاشاها متجها الى العقل .. فنحن أمام كوميديا . لأن الأثر الكوميدى يتجه الى العقل مباشرة ويحدث خللا فى منطقه . والفنان الكوميدى يصطنع له الوسائل التى تبتعد به عن العاطفة وتتجه به الى العقل .

واذا كانت الكوميديا تنبع من نفس المنبع الذى تنبع منه الدراما ، وهو الصراع بين ارادة الانسان والقوى الأخرى . سواء كانت هذه القوى نابعة من نفسه أو خارجة عنها ، فان طبيعة هذا الصراع فى الكوميديا تختلف ، بحيث تبدو هذه القوى وكأنها تداخلت فى ارادة الانسان ، فجمدته وجعلته يسلك سلوكا آليا ، لا يدرك فيه مأساته ولا يتأثر بها وجدانيا . فيبدو للمشاهد وكأنه ليس انسانا حيا ، بل شيء يتحرك من خلال قوى أخرى ... فلا يتعاطف معه وجدانيا .. ويضحك مما يضفيه المؤلف على مسرحيته من وسائل الاضحاك .

ولسنا نقصد بهذه التفرقة بين الكوميديا والدراما العودة الى نظرية فصل الأنواع . فتكون الدراما تأثرا خالصا ، والكوميديا ضحكا متواصلا . فان الحياة نفسها

لا تحتمل هذا الفصل .. وانما الذى يفرق بين الكوميديا والدراما .. هو طريقة تناول الفكرة الأساسية وما حولها من حوار ومواقف وشخصيات ، فاذا كانت تخاطب العاطفة فنحن أمام دراما ، واذا كانت تقتصر على العقل فنحن أمام كوميديا .

ولنتناول فكرة بسيطة تصلح لموقف قصير ، ونحاول

أن نراها مرة فى صورة درامية ، ومرة أخرى فى صورة كوميدية :

« شاب قصير يتقدم لخطبة فتاة فترفضه » .

لنتصور هذا الشاب يتقدم الى الفتاة مترددا .. لأنه مدرك لقصره متأثر بمشكلته نفسيا ، يخاف ويشفق على نفسه من الرفض ، كما أن الفتاة نفسها مدركة لمشكلته ومتأثرة بها ، تحاول أن ترفض بطريقة لا تؤذى شعوره .. وحينما تتحقق لحظة الرفض .. تبدو مأساته واضحة على ملامحه وفى حركاته » .

الجمهور هنا أمام موقف درامى لأننا استطعنا ان نجعله يتعاطف مع الشاب وجدانيا باثارة عاطفة الخوف من أجله والشفقة عليه .. وكذلك على الفتاة لحرج موقفها .. وذلك بأن جذبنا الجمهور الى النمو التدريجى للفعل .

ثم لنتصور هذا الشاب غير مدرك لقصره ، ولا متأثر نفسيا بمشكلته . يتقدم لخطبة الفتاة وكأنه يحقق رغبه قوى خفية تحركه ، وكأن القبول أو الرفض لا يعنيه شخصيا . وعندما ترفض لا يلبث أن يصيح بحركات لا ارادية .. « عندها حق .. فانها أطول من اللازم » . انه يجهل نفسه لدرجة أن ينسب القصور اليها .

الجمهور هنا أمام موقف كوميدى ، لاننا استطعنا أن نعزل الشاب وجدانيا . ونحول انتباه الجمهور من الفعل الى الحركة .

واذا كان كل عمل أدبى عظيم ، ينبع من تصوير الشخصيات ، فان ذلك يبدو واضحا فى الكوميديا ، لأنها تقوم على تصوير نماذج بشرية .. تصور طباع أكبر عدد

من الناس .. بخلاف الدراما التى تقوم على شخصيات فريدة .. لأنها تبرز أبعاداً نفسية لا يمكن أن تتكرر فى شخصين مختلفين .

واذا كان سلوك الشخصية الانسانية يفسر من خلال تفاعل أبعادها الفسيولوجية والاجتماعية والنفسية . فلنر كيف يمكن أن نجد فى هذه الأبعاد ما يثير الضحك فى الشخصيات الكوميدية .

رأينا الكوميديا تنبع من تداخل قوى أخرى فى ارادة الانسان سواء كانت هذه القوى مادية او نفسية أو اجتماعية ، فتجمده وتجعله يسلك سلوكا آليا لا اراديا . فالجمود والآلية — كما يرى برجسون — هما الأساس الذى تستمد منه عناصر الكوميديا ويجملها فى :

التكرار ..

والقلب ..

وتداخل السلاسل ..

ذلك أنه نظر الى الحياة فى الزمان ، فوجدها تطورا مستمرا لا ينقلب ولا يتكرر .

ونظر الى الحياة فى المكان فوجد أن كل كائن حى منظومة مغلقة من الحوادث لا يمكن أن يتداخل أو ينتسب الى كائنين اثنين .

فاعتبر الصفات المناقضة لهذا القانون هى التى تؤدى الى الكوميديا . وأجملها فى التكرار .. والقلب .. وتداخل السلاسل .

نلاحظ هذه الأمور بالنسبة للانسان فى الشكل : وخاصة فى حالة التشوه البدنى . وهو أحط انواع

الضحك لأنه يسخر من العيوب الخلقية) وفي ، الحركة ، والاشارة ...

فيبدو لنا الأحدب كمن تجمد وأجبر على الانحناء ، والأعرج كمن تحرك ساقه قوة آلية خفية .. (لاحظ حركات شارلي شابلن وما فيها من آلية تؤدي الى التكرار) .

ونحن نضحك ممن يقلد هذه الأشكال والحركات لأنه يوهمنا بأن قوة خفية تحركه . لأن التقليد هو استخراج الجانب الآلي المتكرر من الانسان ، ولو كانت حركاتنا واشاراتنا تتبع حالاتنا النفسية لما تكررت قط ، ولما أمكن أن تقلد .

أما وضع الانسان الاجتماعي ، وما يصاحبه من طباع وخصائص نفسية ، نتيجة علاقته بالمجتمع ، فان فيها معينا لا ينضب من وسائل الاضحاك ، فاننا نستطيع أن نضحك من كل عيوب الناس ، بل ومن محاسنهم كذلك . نستطيع أن نضحك من البخل ، والجبن ، كما نضحك من الكرم والحب والتدين . ذلك أن العيب الاجتماعي ليس بالضرورة عيبا أخلاقيا ، فقد توافق أفعال الفرد الأخلاق ، ولكن يكمن خلفها جمود نفسي ضد المجتمع بحيث تخرج هذه الأفعال عن مألوف الجماعة ، ويكفي أن نتصور انسانا كريما يصر على تقديم الطعام للضيف حتى يصاب بالتخمة والمرض ، وما يلابس ذلك من حضور طبيب .. الخ ، أو نتصور رجلا يحب الاطفال ويصر على مداعبتهم حتى يصابوا بأذى ، لنضحك من مثل هذين الشخصين .. أو لنتصور انسانا يفزع من الحبل لخوفه من الثعابين .. ذلك أن منطق الشخصية المضحكة يحاول أن يكيف الأشياء وفقا لفكرة ، وما « الذاهل » وهو من الشخصيات

التى استغلها كثير من الكتاب الكوميديين ، الا انسان جامد الفكر والحس يتـــلاءم مع ظرف خيالى بدلا من ان يتكيف مع الواقع الراهن .

ويبدو لنـــا تداخل الجمـود الآلى فى بعض المهن الاجتماعية ، حيث يستمد الانسان منها جمودها ، بدلا من أن يضفى عليها مرونته ، ذلك فيما يعرف بمضحك الحرفة وما ينشأ عنها من حب الظهور الحرفى ، والتجمد الحرفى ، والمنطق الحرفى .

فى حب الظهور الحرفى يضع الانسان الجامد حرفته فوق كل اعتبار ، فالمحامى مثلا لا يستطيع أن يتصور الانسان الا كمحام أو متقاض .

وفى التجمد الحرفى تنحصر الشخصية فى اطار وظيفتها بحيث لا تشعر كما يشعر عامة الناس . فقد يتأثر الناس من معاناة المرضى للآلام ، فى حين يبدو ذلك للطبيب من لوازم العمل .

وفى منطق الحرفة ، يكتسب الفرد طرائق من التفكير ، قد تكون صحيحة فى حرفته خاطئة فيما عداها ، ويؤدى اصطدامه بالمجتمع الى آثار مضحكة من طبيعة خاصة .

ومن أكثر الوسائل اضحاكا ، أن يتحدث الانسان فى شئون الحياة العامة بلغة حرفته .

ويؤدى تداخل الجمود الآلى مع الكائن الحى ، الى ألوان من مثيرات الضحك تبدو فى التنكر ... حيث نضحك من الانسان الذى يبدو لنا فى زى غير مألوف نتيجة جمود الزى ومرونة الانسان .

وفى اعلاء الشكل على الجوهر .. كقول طبيب « ان الموت باتباع القواعد خير من الشفاء بمخالفتها » .

وفى اظهار الجانب المادى للانسان حيث نكون بصدد الجـانب الروحى كأن نقـول « انه انسان نبيل كريم بدين » .

وفى جعل الانسان فى عداد الأشياء أو الحيـوانات كقول أحدهم « ليس فى الفـــرقة سوى الـكلب وزوجتى » .

ولا ينتظر من الكاتب المسرحى بالطبع أن يستخدم كل مثيرات الضحك فى مسرحيته ، ولكنه بنتخب لشخصياته ومواقفه من ألوان الضحك ما يعمل على تطوير فكرته الأساسية ونمو شخصياته .

والحوار هو الذى يكشف لنا عن الشخصيات ، ويمضى بها فى الصراع . ويعمل على ابراز الفكرة الرئيسية . وهو يختلف عن اللغة . ذلك ان الحوار هو تسلسل اللغة تسلسلا معينا ، نابعا من الفكرة الأساسية ، وناميا مع الشخصيات ، ومؤديا الى المواقف . ومع ذلك فان الحوار يقوم على اللغة . وقد يتولد الضحك عن اللغة .. لنفس الأسباب ، وهو تداخل الجمود الآلية .. وما يتضمناهما من تكرار وقلب ، وتداخل سلاسل .

فقـد نضـحك من الجمود الذى يكمن وراء الجمـل الجاهزة والعبارات المقررة ، فيحولها الى فكرة لا معقولة نتيجة اندفاع الانسان خضوعا لسرعة آلية مكتسبة الى قول ما لم يكن يريد قـوله . فهـذه مثلا جملة مقررة « لا يجب أن يأكل الانسان فيما بين وجبات الطعام » ولنتصور اللامعقولية التى تصل اليها مثل هذه العبارة فيما لو طلبت عمـــلا معينا من انسان ما ، فاندفع صائحا « لا يجب أن يعمل الانسان فيما بين وجبات الطعام » .

كذلك يتولد الضحك اذا تظاهرنا بفهم المعنى الحقيقي

لتعبير استخدم بالمعنى المجازى ، فاذا قال قائل « ان فلان يجرى وراء القرش » وتساءل آخر « وهل أدركه ؟ » لكنا أمام نكتة .

كذلك يتولد الضحك اذا امتدت فكرة عبارة معينة لتقلب المعنى الى ضده . كأن يطلب المدرس من التلميذ الا يؤجل عمل اليوم الى الغد ، فيجيب التلميذ : امرك يا سيدى سأؤجله اذن الى بعد غد » .

ونستطيع كذلك أن نجد الضحك فى عمليات مثل :

القلب : اى وضع الفاعل مكان المفعول أو العكس ، بحيث تظل الجملة تحمل معنى ما كقول أحدهم « عض البطل الكلب » .

النقل : اى نقل التعبير من مستوى الى مستوى آخر ، كالتعبير عن الأمور القديمة بلغة الحياة الحديثة . أو التعبير عما ينبغى أن يكون متظاهرين أنه ما ينبغى أن يكون « الفكاهة » أو لنقل التعبير من المستوى الحقير الى المستوى العظيم « المبالغة » ، أو من المستوى الفخم الى المستوى العادى كقولنا « كانت الشمس تتوهج فى السماء مثل الشمعة » أو نقل لغة الحرفة الى العلاقات الانسانية كأن يرسل رجل أعمال خطابا الى حبيبته يقول فيه « الحاقا لخطابى المؤرخ ٢٠ الجارى والمرسل اليك بالبريد المستعجل ، بخصوص الموضوع عاليه ، وهو حبى الشديد لك .. الخ » .

أما استخدام تداخل السلاسل فى اللغة ، أى تداخل سلسلتين من الأفكار بحيث تكتسب الجملة معنيين مختلفين ، فهو يكمن فى شتى ألوان التورية والكناية والجناس .

ونستطيع أن نصل الى مواقف ضحكة بترتيب الحوادث

ترتيبا يجعلنا نحس بتداخل نوع من التركيب الآلى . ويتضح ذلك من المثال الذى ذكره برجسون « قبعة من القش يأكلها حصان . ولا يوجد فى المدينة سوى قبعة واحدة تشبهها ، فيجرى صاحب الشأن للبحث عنها ، ويجد خلفه كثيرون ممن يعاونونه فى البحث . وهذه القبعة تزداد بعدا كلما اقتربت لحظة العثور عليها ، حتى اذا ظنوا أخيرا أن الغاية قد تحققت ، تبين أن القبعة التى بحثوا عنها هى القبعة التى أكلها الحصان » .

ذلك ان الحوادث لو كانت دائمة اليقظة لمجراها لما انقادت لتلك المصادفات الآلية ، والتسلسل الدائرى بالعودة الى نقطة البدأ .

أما التكرار فى الكوميديا ، فهو ليس تكرار كلمة أو جملة ، وانما هو تكرار موقف أو مجموعة من الظروف . ولنحاول ان نتصور فتاة تحب الأبطال والمغامرين . يتقدم لها شابان أحدهما طيب والآخر شرير . تتحقق للأول سلسلة من أعمال البطولة عن طريق المصادفة . فتقبله الفتاة . فيتظاهر الآخر بسلسلة أعظم من أعمال البطولة المزيفة ، فتترك الفتاة الأول اليه ، فيقوم الأول بالقاء نفسه فى المهالك من أجل انقاذها ، فتتحول كل المهالك التى يقع فيها الى سلسلة من البطولات ، فتعود اليه الفتاة .

ونحن هنا نكرر اثرا ذا ثلاثة ازمان . فى المرحلة الأولى يظن الشاب الطيب أنه قد استحوذ على الفتاة . وفى المرحلة الثانية يستميلها اليه الشرير ببطولاته المزيفة . وفى المرحلة الثالثة تتحول هذه البطولات الى الشاب الطيب .

أما القلب ، فينقلب فيه الموقف ، وتنعكس الادوار ،

كالمتهم الذى يلقى على القاضى درسا فى الأخلاق . والطفل الذى يلقى على والديه درسا فى التربية ، والظالم الذى يقع ضحية ظلمه والمخادع الذى يقع ضحية خديعته . وكل ما يندرج كما يرى برجسون تحت عنوان « العالم المقلوب » .

وقد يكون تداخل السلاسل من أهم هذه الأمور فى البناء الكوميدى . اذ أنه بمثابة الخيط الذى تدور حوله المواقف . ذلك أن كل سلسلة من هذه الحوادث تتطور هى والشخصيات التى تمثلها تطورا مستقلا ، فى الوقت الذى تتواجد فيه هذه السلاسل من الحوادث فى مجرى عام يتخذ لنفسه تطورا خاصا . فينشأ سوء الفهم بين الشخصيات ، بينما المؤلف لا ينى يلوح لنا بوشوك انفصال هذه الحوادث .

الجزء الثالث

في الكوميديا المصرية

موليير مصر ..
ومولد الكوميديا المصرية

مصر قطعة من أوروبا .

هكذا أرادها الرجل .

ومن أجل ذلك استدان . استدان من الأجانب لينشر العمران فى مصر . يبنى القصور والجسور ، ويشق الشوارع الفسيحة ، وينشىء سكك الحديد ، وينشىء نظام البرق والبريد ، ويبنى دارا للأوبرا تليق بامبراطورة فرنسا التى شرفته بالزيارة . ويقيم فيها الحفلات ، ويستقدم الفرق الايطالية لتقدم عروضها .

وظل يستدين حتى أنه لم يجعل مصر قطعة من أوروبا فحسب ، بل أتاح لانجلترا ، ولكل مغامرى أوروبا وأفاقيها أن يجثموا على صدر مصر ، ويعيثوا فيهـا فسادا ، ويشوهوا وجهها الاجتماعى لبضع عشرات من السنين .

هذا الرجل هو الخديوى اسماعيل .

وفى ظل هذا الجو . جو الحفلات والأوبرات ، ظهر رجل آخر ، مغامر ثائر جياش العاطفة ، عاش حياة المصريين لأنه مصرى ، وعاش حياة الأسر اليهودية لأنه يهـودى . وعاش المجتمع المصرى فى ظل المغامرين والأفاقين . فامتلأت نفسه سخرية من الحياة . وأراد

ان يقول شيئا للناس ، ويخرج ما فى أعماق نفسه من انفعالات . فأطلقها ضحكة يطرب بها قلبه ، ويضحك بها الناس ، ويجعل منها مرآة من النقد والسخرية واللذع يرون فيها أنفسهم ، ويرون فيهـــا صورة صـادقة لمجتمعهم .

هذا الرجل هو يعقوب صنوع .

درس يعقوب صنوع فى ايطاليا لمدة ثلاث سنوات ، وأجاد عدة لغات أوروبية أهمها الفرنسية والايطالية الى جانب ثقافته العربية . وقد مكنه ذلك من ترجمة واقتباس كثيرا من المسرحيات الفرنسية والايطـــالية ، وخاصة مسرحيات موليير . بالاضافة الى ما ألفه من مسرحيات محلية تناول فيها موضوعات اجتماعية جعل خلفيتها من واقع حياة المصريين وخاصة مشكلات الحب والزواج فى الأسر اليهودية ، والأسر الشامية المتمصرة ، والطبقـات الشعبية .

فى عام ١٨٦٩ واتته فكرة تأسيس أول مسرح مصرى .

وقد استوحى هذه الفكرة على حسب قوله ، من الفرق الأجنبية الفرنسية والايطالية . خاصة تلك التى كانت تعرض مسرحيات فكاهية أو غنـــائية او درامية للجاليات الأجنبية فى القـــاهرة ، على مسرح حديقة الأزبكية فى الهواء الطلق .

وقد بدأت الفكرة عنده بتأليف مسرحية قصيرة من نوع الفودفيل ، سعى لدى أصدقائه ومعارفه ، حتى مكنوه من عرضها فى البلاط الخـــديوى الشغوف بالحفلات والأوبرات ، أمام جمهور من الباشوات والبيكوات .

وهنا اســـتطاع الرجل أن يستحوذ على البابهم ،

فأضحكهم حتى فاض بهم الضحك . وأمتعهم حتى شجعوه على عرضها فى مسرح حديقة الأزبكية الذى يكاد يكون المسرح المعتمد فى ذلك الحين .

وعندئذ قرر انشاء فرقته المسرحية ، كانت فى أول الأمر مكونة من تلاميذه . وكان يقوم أحد الشباب بتمثيل أدوار النساء ، ثم جعلها بعد ذلك فرقة من المحترفين ، ودرب فتاتين فقيرتين على التمثيل ، وعلمهما القراءة لتقوما بأدوار النساء .

المهم أن العرض الأول فى حديقة الأزبكية نجح نجاحا باهرا . وحضره رجال البلاط وثلاثة آلاف مشاهد ، وقد استهل الحفل بالقاء خطاب عن فوائد المسرح ومباهجه .

وفى هذا الخطاب حدد يعقوب صنوع مفهوم مسرحه فى الفائدة والبهجة . ولقد كان الرجل مدركا لهذا المفهوم محافظا عليه حتى النهاية .

أراد أن يضحك عامة الناس ، فاستخدم اللهجة العامية التى يألفونها ، ومزجها بالحكم والأمثال الشعبية السائدة على ألسنتهم . وقدم لهم ألوانا من السخرية والنكتة اللاذعة ، تكشف بعض النماذج الشخصية فى المجتمع كبعض المصريين الذين يقلدون الأجانب . وأراد أن يفيدهم فعالج موضوعات اخلاقية تتناول الصراع بين القيم كالحب والواجب ، وأثر المعاملات التجارية فى تحديد مصير العشاق ، ثم أراد أن يبصرهم بوطنهم فعرض بالنقد الساخر للسياسة القائمة ، وهاجم نفوذ الانجليز وتدخلهم فى شئون البلاد ، وسيطرة الاقتصاد الأجنبى على مقدرات مصر .

ومن ثمة فهو مسرح كوميدى ، أخلاقى ، وطنى .

وقد عرضه ذلك لمتاعب لا حصر لها ، انتهت بنفيه خارج البلاد .

وقد بدأت متاعبه مع الخديوى عندما استدعاه ليمثل فى القصر ، ولم يمض على تأسيس فرقته سوى أربعة اشهر .. فقدم ثلاث مسرحيات اخلاقية « آنسة على المودة » و « غندور مصر » فنال اعجابا شديدا من جمهور المشاهدين ، وصفق له الخديوى طويلا . واستدعاه أثناء العرض مهنئا وأطلق عليه لقب « موليير مصر » .

ولكنه لم يكد يقدم المسرحية الثالثة ، وهى مسرحية تهاجم نظام تعدد الزوجات ، وتبين ما يؤدى اليه من جرائم ومتاعب تهدد المجتمع ، حتى انقلب عليه الخديوى رأسا على عقب ، ظانا أنه يعـرض به وبنظـام حريمه . واستدعاه مرة أخرى وأنبه قائلا « ان كانت كليتاك لا تحتملان أكثر من واحدة ، فلا تدع الغير يفعل مثلك » .

فاضطر الى حذف هذه المسرحية ارضاء للخديوى .

ومع ذلك ، فقد كان من اثر اضفاء لقب موليير مصر عليه ، اقبال الجماهير على مسرحه .

ولم تكن التقاليد المسرحية قد رسخت بعـد ، فكان الجمهور يتدخل أحيانا لتغيير مسار المسرحية بما يتفق مع ذوقه وأخلاقه .

من ذلك أن بطلة احدى مسرحياته ، كانت تمثل دور فتاة لعوب . تلاعبت بالرجال حتى ساءت سمعتها ، واعرض الشبان عن الزواج منها حتى نهاية المسرحية . فتدخل الجمهور ليملى على المؤلف وهـو يعقوب صنوع نفسه ــ نهاية المسرحية ، بأن يجد لها زوجا يليق بظرفها وجمالها ، ذلك أنها رغم تلاعبها بالرجال لم تفرط فى شرفها قط .

ومن ذلك ايضا ، أن ممثلة الدور الأول بالفرقة . صفعت ممثلا كانت تكرهه لالحاحه فى غرامها ، فكان ينتهز دوره فى المسرحية ، ويبثها حبه وهيامه ، فاستقبل الجمهور هذا المشهد استقبالا عاصفا . وطلب جمهور الليالى التالية أن يقدم له نفس المشهد ، وسرعان ما أصبح من بين مشاهد الرواية .

ولسنا بصدد تقييم مسرح يعقوب صنوع أو تتبع تطوره الفكرى والفني . ولكن حسبنا أن نقول ان قيمته تكمن فى انه كان مؤلفا ، وممثلا ومديرا ، وصاحب مسرح ، وأن ذلك أتاح له ان يوجه مسرحه الوجهة التى تتفق مع افكاره ، وان يجعل منه وسيلة لتحقيق رسالته القومية والاجتماعية .

قدم مسرحية « الوطن والحرية » فسخر فيها من « جون بول » رمز الامبراطورية البريطانية ، وندد بالتدخل الانجليزى فى مصر .

ولم يفت ذلك كبار المسئولين من الجالية الانجليزية الذين شاهدوا المسرحية . فدسوا له عند الخديوى ، وأوعزوا اليه أن مسرحياته ضد سياسة الخديوى والحكومة . وأن فيها خطرا على نظام الحكم ، فأمر الخديوى باغلاق مسرحه .. وبدأ فى اضطهاده .

هذه هي الكوميديا ، المرآة التى يكتشف فيها المجتمع ذاته . وكفاها هذه الوظيفة ، ومع ذلك ، فسواء أراد المؤلف أم لم يرد ، فعندما يملك حاسة الكوميديا الحقة ، فى اختيار النماذج التى يتناولها ، والمشكلات التى يعالجها ، ووسائل السخرية والتهكم التى يضحك بها الناس ، فلابد أن تؤدى وظيفتها الصحيحة .

محاولات لم تسفر عن شيء

لم تجد الكوميديا من يواصل رسالتها كفن متخصص بعد يعقوب صنوع .

فقد كانت الفرق التي تزاول الفن المسرحي فى مصر ، وهى فرق متمصرة انتقلت الينا من الشام مثل : فرقة سليم النقاش ، وفرقة احمد أبو خليل القبانى .. كان يغلب على ما تقدم الطابع التراجيدى والغنائى . وحين استقل الشيخ سلامة حجازى عن هذه الفرق السورية .. انشأ مسرحا غنائيا .

على أن التمثيل التراجيدى نفســـه ، لم يرتق الى مستواه الفنى الذى يعنى بأصوله ووسائله الا على يد جورج أبيض ، الذى تلقى فن التمثيل فى فرنسا . وعاد بمصـــاحبة فرقة فرنسية الى مصر عام ١٩١١ يقدمون روايات فرنسية . ثم كون فرقته الخاصة عام ١٩١٤ لتقديم مسرحيات تراجيدية باللغة العربية . وكان من بين أعضاء هذه الفرقة المخرج الفنان عزيز عيد .

وفى ذلك الوقت أيضا تكونت جمعية أنصار التمثيل من بعض شباب المصريين المهتمين بالمسرح ، ليسهموا فى حمل رسالته .

وقامت عدة محاولات فى المسرح الكوميدى لم تسفر

عن شيء ، حتى ظهر رجل الـكوميديا وفارسها العتيد نجيب الريحانى ، فانطلق بهـــا الى آفاق لم تعرفها الكوميديا المصرية من قبل .

كانت أول محاولة تلك التى قام بها عزيز عيد عام ١٩٠٧ ، فقد كان شغوفا بالكوميديا تواقا الى تقديمهـا للجماهير . متطلعـا الى ترقية الـــكوميديا المصرية المحلية .

كون فرقة مسرحية قدمت كوميديا « ضربة مقرعة » على مسرح دار التمثيل العربى . ولكن الرواية لم تلق الاستجابة المنتظرة من الجماهير . فانضم الى صديقه نجيب الريحانى الذى سبق أن تعرف عليه اثناء عملهما فى البنك الزراعى ، وعبثا حاول أن يقنـــع الريحانى بتمثيل ادوار كوميدية لكن الريحانى كان يعتبر نفسه فارسا تراجيديا لا يشق له غبار .. فما له والكوميديا .

ولم تستطع فرقة عزيز عيد أن تواصل طريقهـا ، وسرعان انفصل عنها الريحانى .

ومن عجائب الأمور ، أن نجيب الريحانى هذا ، الذى لم يكن يتصور أنه يستطيع أن يلعب دورا كوميـــديا واحدا . هو الذى أعده القدر ليحمل لواء الكوميديا فى مصر خلال النصف الأول من هذا القرن .

***

وكانت المحاولة الثانية فى الكوميديا أشبه بالفكاهة . فقد قدمها بطل التراجيديا الأول فى مصر جورج ابيض. ذلك ان أحمد حشمت باشا الذى ولى وزارة المعارف فى ذلك الوقت أخذ على عاتقه تشجيع التأليف المصرى ، أو تقديم روايات ممصرة تحمل الطابع المصرى على أقـل

تقدير . وكانت روايات عثمان جلال الكوميدية المصرة تحمل هذا الطابع ، فعهد بها الى جورج أبيض وطلب منه أن تمثلهـا فرقته ، وهى :« طرطوف ـ مدرسة الأزواج ـ النساء العاملات » .

وتصدى جورج أبيض نفسه لهذه المسرحيات ؛ فقدمها على مسرح تياترو عباس ممثلا الدور الأول فيها ، فلعب دور الشيخ متلوف ، ولبس الجبة والقفطان والعمامة ، وعبثا حاول أن يضحك الجماهير . فكيف كان لجمهور جورج أبيض أن يضحك وهو يرى بطله التراجيـدى الأول ، الذى طالما بهره بأدواره التاريخية والتراجيدية ، يحاول اضحاكه . وكيف كان لجورج أبيض الذى اعتاد التمثيل باللغة العربية الفصحى ، مجلجلا بصوته على منصة المسرح ، في أدوار ذات جلال وهيبة ، أن يحسن اداء اللهجة العامية .. وفى أدوار كوميدية .. !!

سقطت هذه الروايات واحدة بعد أخرى ، وانفض الجمهور عن الفرقة . وانسحب ممول الفرقة عبد الرازق عنايت .

***

أما المحاولة الثالثة فقد قام بها عزيز عيد . عاوده حنينه لتكوين فرقة مسرحية كوميديه تتخصص فى الكوميدى والفودفيل . ونجح فى تكوينهـا فى صيف ١٩١٥ . وضم اليها اكبر ممثلى الكوميديا فى ذلك الحين من أمثال استيفان روستى ، وحسن فايق وأمين عطا الله ، وضم اليها كذلك نجيب الريحانى ، وكانت بطلة الفرقة السيدة روزا اليوسف .

واعد للافتتاح رواية « خلي بالك من اميلي » . عربها له أمين صدقي باللهجة العامية الدارجة . ومع ان الرواية كانت مليئة بالمفاجآت المضحكة فان الجمهور لم يقبل عليها . وتناولتها الصحف بالنقد والتجريح .

واستمر عزيز عيد في نضاله ، فقدم روايات أخرى من تعريب امين صدقي ، مثل : « ضربة مقرعة – ليلة الدخلة – عندك حاجة تبلغ عنها – بسلامته ما دخلش دنيا – يا ست ما تمشيش كده عريانه » .

ولكنه لم يستطع شد الجمهور الى مسرحه ، فلم يكن الوقت قد حان بعد لتقوم للمسرح الكوميدى قائمه فى مصر . فقد كان جمهور المسرح المصرى ينقسم الى فئتين . فئة قليلة جدا ، وهى مجتمع الأسر المصرية التى ترتاد المسارح ، ولم تستطع كوميديا عزيز عيد ان تصل الى ذوقها :

فقد كان هذا الجمهور يرى ان تراجيديا جورج ابيض الكلاسيكية المهيبة التى يقدمها بالعربية الفصحى ، وفى ملابس تاريخية ذات رونق وجلال ... هى الشكل المسرحى الجدير بالاحترام .

ولم يستطع عزيز عيد أن يراعى ذوق هذا الجمهور وعاداته وتقاليده ، ولم يتعرض لواقعه وحياته ومشكلاته، فقد كانت المسرحيات الغربية أقرب الى صورتها الأصلية .

كما كانت فارسات عزيز عيد جريئات فى معالجة الحب والجنس . جعلت الجمهور المتحفظ يشعر بالخجل .. مما اضطره ان يعلن أن مسرحياته للرجال فقط . فلم تحضر السيدات ولا الرجال .

أما الفئة الغـــالبة من الجمهور ، فقد كانت من السماسرة الأجانب والتجار والمضاربين . وبعض الأعيان وأبنائهم الذين تعلموا فى الخارج ، وعادوا يرطنون بلغة معظم مفرداتها اجنبية ، وبهرتهم اضواء القاهرة فارتادوا ملاهيها ومسارحها ، جمهور خليط معظمه لم يكن يفهم اللغة العربية ، ولا يستطيع متابعة أية رواية تقدم بهـا وخاصة اذا كانت من ثلاثة فصول .

جمهور لا تهمه كلاسيكيات جورج ابيض، ولاكوميديات عزيز عيد .. هذا هو جمهور الفرانكو آراب .

من مأساة عزيز عيد انه قدم كوميديات تناسب طبقة وسطى لم تكن قد تكونت بعد . وحينما تكونت الطبقة الوسطى لم تستطع أن تتذوق تراجيديات جورج ابيض فتعرضت لهزات عنيفة ، حتى جاء فارسها المعبر عنها يوسف وهبى ، فشدها الى مسرحه الوليد ، ولو ادركت هذه الطبقة عزيز عيد لكان لمحـــاولاته الكوميدية شأن آخر .

أما نجيب الريحانى ، فقد نزل مرغما تحت ظروف الفاقة والعوز الى مجتمع « الفرانكو آراب » فقدم له احتياجاته وســار معه على الطريق ، وتعرض بدوره لهزات عنيفة حينما أدركته الطبقة الوسطى ، كادت أن تقضى عليه ، لولا انه اكتشف الطريق ، وطلق مسرحيات « الفرانكو آراب » .

ثلاثة كتاب

قبل ان نتعرض لنجيب الريحانى وقصته مع الكوميديا المصرية . نرى أن نلقى ضوءا سريعا على ثلاثة كتاب ، عاصرت اعمالهم مولد الكوميديا المصرية ، وكان ما ترجموه او اقتبسوه او مصروه أساسا فى اغلب ما قدمته فرق الكوميديا فى مصر .

وقد بدأت حركة الترجمة والاقتباس والتمصير للآداب الغربية فى مصر الحديثة فور اتصالها بأوروبا ، على اثر البعثات التى ارسلها محمد على لدراسة العلوم والآداب الحديثة ، وكان رائدها رفاعة رافع الطهطاوى .

وها نحن قد رأينا يعقوب صنوع يعتمد فى مسرحه على اقتبـــاس وتمصير بعض المسرحيات الايطـــالية والفرنسية . الى جانب ما ألفه من مسرحيات مصرية صميمة .

على ان ذروة حركة التمصير فى مصر ، وخاصة فى الأدب والمسرح ، كانت على يد محمد عثمان جلال .

محمد عثمان جلال

هو اول كاتب مصرى قصر قلمـه على تمصير المسرح

تمصيرا شعبيا على أوسع نطاق . واستخدم اللغة العامية ، فى الوقت الذى كان فيه غيره من المصريين والسوريين المتمصرين يستخدمون اللغة العربية الفصحى .

ترجم ومصر كثيرا من القصص مثل « بول وفرجينى » و « خرافات لافونتين » وكذلك بعض مآسى راسين فى مجموعة « الروايات المفيدة فى علم التراجيدة » كما نقل عن موليير ـ « طرطوف ـ مدرسة الأزواج ـ النساء العاملات ـ مدرسة النساء ـ الثقلاء » وهى المسرحيات التى خاض بها جورج ابيض محاولته الفاشلة فى الكوميديا .

وقد ساعد الكاتب على تحقيق رسالته ، انه تعلم فى مدارس الارساليات الفرنسية فى مصر ، فجمع بين ثقافتها وثقافة البلاد . وسعى الى التوفيق بينهما . فاستخدم فى حواره اللغة العامية والزجل ، وضمنه الفكاهات والحكم الشعبية السائدة ، والأمثال السارية على الألسن ، ورغم ان المسرحيات التى مصرها كانت مكتوبة اصلا للبلاط الفرنسى ، الا انه استطاع أن ينتقل بها الى ذوق الشعب المصرى وعاداته وتقاليده ، ويهتم بذلك اكثر من اهتمامه بالأصل المترجم . حتى لتبدو كأنها فقدت كل صلة لها بالأصل ، ودارت حوادثها فى بيئة شعبية محلية .

وكان كسلفه يعقوب صنوع ، يرى ان وظيفة المسرح هى الفائدة والمتعة .

امين صدقى

واصل أمين صدقى حركة الاقتباس والتمصير باللغة

العامية ، لكن اعماله لا تحمل القيمة الأدبية التى كانت تحملها اعمال محمد عثمان جلال . فقد جنح الى الفودفيل والفارس . وخاصة مسرحيات « فيدو » أكبر مؤلفى الفودفيل فى ذلك الوقت ، ولم يستطع أن يبتعد بها عن أصلها وينقلها الى البيئة المصرية المحلية ، فخلت من عادات الشعب وتقاليده ومشكلاته . فجاءت فارساته جريئة تحمل تلميحات وعبارات لم يتعودها الذوق المصرى المحتشم .

ارتبط اسمه بعزيز عيد ، ونجيب الريحانى وعلى الكسار .

فقد كلفه عزيز عيد بتعريب المسرحيات لفرقته التى أسسها عام ١٩١٥ ، فقدم لها « خللى بالك من اميلى ، ضربة مقرعة — ليلة الدخلة — عندك حاجة تبلغ عنها — اللغة الانجليزية كما انزلت — يا ست ما تمشيش كده عريانه » .

ولكن الجمهور لم يقبل عليها للأسباب التى أوردناها من قبل .

وأسهم مع نجيب الريحانى فى تقديم مسرحيات الفصل الواحد فيما عرف « بالفرانكو آراب » وابتدع بعض شخصيات مثل « أم شولح » الحماة الشلق ، وكان يمثل دورها بنفسه .

وحققت مسرحية « حمار وحلاوة » أرباحا هائلة ، قفزت برصيد فرقة نجيب الريحانى الى حوالى ثمانية وعشرين ألفا من الجنيهات ، بعد أن كانت تعانى من الافلاس المستمر . مما أدى الى نشوب خلاف بينهما ، انتهى بانفصالهما .

فقد كان امين صدقى يتقــــاضى مرتبا شهريا من الريحانى قدره ستون جنيها ، فلما رأى مسرحيته تحقق هذه الأرباح ، طلب منه أن تكون الارباح مناصفة بينهما ، فرفض الريحانى . وذهب أمين صدقى لحال سبيله .

وألف امين صدقى فرقة مسرحية مع على الكسار ، عملت على مسرح الماجستيك ، وراح يثـــأر لنفسه من الريحانى بتقــديم استعراضات تحت عناوين تسخر من الريحانى .

بديع خيرى

تعرف عليه الريحانى بعد انفصاله عن أمين صدقى .

بدأ معــه كمؤلف أغان وأزجال لفرقته عام ١٩١٨ ، فقدم معظم أغانى وأزجال الاستعراضات التى قدمتهـا الفرقة مثل : « على كيفك ــ اش ــ العشرة الطيبة ــ الليالى الملاح » وهى التى لحنها رائد الموسيقى العربية سيد درويش .

تناول بالنقد والسخرية سياسة ذلك الوقت . وحث المصريين على كراهية الاســتعمار الانجليزى . وحينما قامت ثورة ١٩١٩ كانت أزجاله وأغانيه صدى لوجدان الشعب . فى حفز همته وتوحيد صفوفه ، فتغنى بهـا أثناء الثورة ، وامتزجت اغانيه مع هتافات يحيا الهلال مع الصليب .

لا تقولى نصرانى ولا يهودى ولا مسلم .
يا شيخ اتعلم .
اللى أوطانهم تجمعهم .
عمر الأديان ماتفرقهم .

وسمع الشعب صوت مصر تناديه :

قوم يا مصرى	مصر دايمـــا بتناديك
خـد بناصرى	نصرى دين واجب عليك
رد ســعدى	قبل ما يضيع بين أيديك
اوع مجـــدى	يروح هـدر أدام عنيـك

ولك أن تتصور هذه الكلمات ، يرددها الشعب ، بألحان سيد درويش ، التى كانت موسيقاه تنبع من وجـدان الجماهير ، وتعبر عن آلامه وأفراحه .

تخرج بديع خيرى فى مدرسة المعلمين العليا ، ولكن الفن أخذ عليه لبه ، فبدأ يكتب الزجل ، وعاش فى الأحياء الشعبية وتردد على مقاهيها حتى قاده الفن الى شارع عمـــاد الدين ، فتمرس بفن الشعب ، تمرس بفكاهاته ونكته وسخريته ، وذاعت أزجاله فيما كان ينشره فى الصحف ، أو فيما يلقيه فنانو المونولوج فى الملاهى ، أو بين فصول المسرحيات .

كون مع نجيب الريحانى ثنائيا فنيا لم يفصم عراه الا الموت ، كتب فى أثنائه وشارك فى كتابة معظم المسرحيات التى قدمتها فرقة الريحانى ، واستمر يواصل الرسالة من بعده حتى وافته المنية .

مسرح الريحانى

يعتبر مسرح الريحانى لا شك ، أكبر انجاز كوميدى حديث ، ناضل من أجل تكوينه ، واشترك معه فى التأليف والتمثيل أقطاب الكوميديا فى وقته ، ولكن اليه وحده يرجع الفضل فى استمرار هذا المسرح .

ولا ترجع أهمية الريحـــانى فى كونه ممثلا كوميديا يستهوى ألباب الجماهير فحسب ، وانما فى كونه صاحب فرقة مسرحية ، ومديرها ، ومشـــــارك فى تأليف معظم ما قدمته ، منصة مسرحه ، ومسئول عن مستواه الفنى ، واتجاهه الفكرى والاجتماعى .

فقد عاش حياة المجتمع المصرى من القـــاع الى القمة .

فهو مغامر متصعلك ، عاش على المقاهى والأرصفة ، ونام فى الشوارع والطـرقات . جاع وتشرد . اغتنى وأفلس . مثل فى الملاهى ، وفى أرقى المسارح . ظن أنه ممثل تراجيدى فضحك منه الناس . ظن انه قد يصلح للوظيفة فطارده الفن . عبر عن حياة المصريين حتى اعتبره البعض بطلا قوميا ، ورماه البعض بالخيانة . ارتفع بفنه حتى اعتبره البعض من الخـالدين ، وهبط بفنه حتى اعتبره البعض من باب التدليس والتزييف الذى يقع تحت

طائلة قانون الغش التجارى . أضحك المصريين وأبكاهم . فهمهم أحيانا وأحيانا لم يفهمهم . واكبهم أحيانا وتخلف عنهم بعض الأحيان .

ولكن الذى لا شك فيه ، أن هذا الفنــان المغامر المتصعلك ، لم يـكن ليستطيع ان يتنفس فى غير هــذا الجو . جو مولد الكوميديا المصرية فى مطلع هذا القرن .

***

فى مقال للأستاذ يحيى حقى ، يعترف أن الريحانى كان ممثلا هزليا عظيما . تجلت فيه موهبة الحضور ، ولكنه يأخذ عليه الكثير من الناحيتين الفنية والاجتماعية .

فقد عجز — مع بديع خيرى — عن تقديم قصة واحدة من صميم الحياة المصرية .

واستورد لشعب مصر أكسد بضاعة ، زوقها بلفائف من التدليس والخداع ، ممــا ينطبق عليه قانون الغش التجارى .

واستخدم اسماء مبتذلة مثل بقدونس أفندى ، وبصلة هانم ، وصال وجال فى مجال الردح والتشليق .

وصب جميع ممثليه فى قوالب من حديد ، وجعل كل منهم فى هيئة لا يتعداها فى مسرحية اثر أخرى .. ابن الذوات التالف .. الغنى العبيط .. الخادمة الشرشوحة .. البنت الدلوعة .. المعلم لابس اللاسة .. الافندى العجوز الخبيث . وجعل لكل منهم لازمة لا يتعداها ، لأنها حين جربت أول مرة ضحك لها الناس .. وكان لابد أن تفصل مسرحيات الريحانى على قد هذه الشخصيات .

ولم تخل مسرحية له من امرأة تركية عجوز ليضحك

الناس من رطانتها العربية ، وهذه من الحيل المكشوفة السهلة .

وابتدع مسرحية الفرانكو آراب ، التى يغلب فيها الحوار باللغة الفرنسية على اللغة العربية ، وتخاطب جمهورا من السماسرة والمضاربين والتجار والأجانب الذين يبتزون المصريين ، وأنصاف المتعلمين بين الشرق والغرب .

وشوه وجه مصر فى رمزها الأصيل .. العمدة المصرى ، فابتدع شخصية « كشكش بك » عمدة كفر البلاص ، الذى جاء بقطنه الى البورصة ، وجعله موطن سخرية سماسرة القطن واشباههم فى النهار ، وموضع لهوهم وتسليتهم بالليل . سعيد بلهوه وعبثه بين فريق الراقصات العاريات اللاتى ينفق عليهن آخر مليم فى جيبه دون أن ينال شيئا .

وانه حينما تحول الى الأفندى المطربش الطيب القلب حسن النية الذى يريد السلام ، ويحمل فى نفس الوقت بعض المكر والدهاء للدفاع عن نفسه تجاه قطيع الذئاب والسباع ... حصر نفسه فى التعبير عن بعض مشكلات هذه الطبقة ، التى لولا غلبتها على المجتمع المصرى لما توفرت له أسباب النجاح ، ولم يعبر عن سمات انسانية عامة كتلك التى عبر عنها شارلى شابلن فى مأساة ضعف الفرد الفقير وسط مجتمع ظالم منافق .

وقد نتفق مع الأستاذ يحيى حقى فى بعض ما أورده عن مسرح الريحانى ، ولكننا نختلف معه فى عدة قضايا .

فلم يكن فى مصر الكاتب الكوميدى الذى يستطيع أن يثرى المسرح الكوميدى بمسرحيات مصرية صميمة ،

ولا زال مثل هذا الكاتب لا وجود له حتى الآن .

كما أن بعض ما وقع فيه الريحانى له مبررات أملتها ضرورة فنية واجتماعية .

فقد تناول الأستاذ يحيى حقى بعض سقطات الريحانى فى مراحل معينة من تطوره وعممها على مسرحه . واغفل المميزات التى حققها هذا المسرح .

***

وقبل أن نتناول مسرح الريحانى بالتفصيل ، يحق لنا أن نقول انه قد هبط أحيانا فى اختيار الاسماء ، وفى استخدام كثير من الشتائم والسباب الفاضح فى حواره ، بشكل يأباه الذوق المصرى المحتشم .

انظر الى هذا الحوار ، وهو من احدى مسرحيات كشكش بك المتقدمة .

أم شولح — قصدى أخلص بنتى منك واطلقها ، ياراجل عفش يا مرم يابو ريالة . يا زعلوك بالقوى .

كشكش بك — يعنى أقوم أخرشمها دلوقت .

زعرب — لا .. لج . خليك تقيل .

أم شولح — تخرشم مين يا راجل يا بصلة . يا راجل ياللى هدومك بتمشى لوحدها . ياللى بتلبس اللباس من راسك ، تخرشم مين يا دون يا عرة ، يـ بك سقط ، يا عمدة من غير رخصة .

كشكش بك — هو جرى ايه يامرة يا شرشوحة ، يا عتيقة ، يا شلجايه ، يا كركوبة ، يا قروية ، يا أم لباس من غير دكة .

واذا حدث مثل هذا التشليق بين امرأتين من حثالة

القوم ، لقلت انهما تجاوزتا الحـد . فكيف بالريحانى يجريه بين رجل من أعيان الريف ، يحمل رتبة البكوية ، وبين حماته التى يفترض ان تكون من أسرة تناسب هذا المستوى اجتماعيا على الأقل .

كيف نغفر له مثل هذا التبذل والاسفاف !؟ وهل هبط ذوق الجمهور المصرى ، فى اى مرحلة من مراحل نضجه وتطوره الى هذا الحد من الاسفاف والتبذل !؟

كشكش بك ومسرحية الفرانكو آراب

ابتدع نجيب الريحانى شخصية كشكش بك عمـدة كفر البـلاص ، ومسرحية الفرانكو آراب فى منتصف العقد الثانى من هذا القرن . ابان الحـرب العـالمية الأولى ، ويتعين علينا أن نعرف وجه مصر الاجتماعى والثقافى فى مطلع هذا القرن ، وهو الجو الذى انبثق عنه هذا اللون من الفن .

وجه مصر

ما هو وجه مصر ؟ سؤل طرحته الاجيال المتعاقبة ، وراحت تجيب عليـــه ، فاختلفت فى الفكر والرأى والمفهوم . وذلك خـــلال رحلة طـويلة للبحث عن الذات .

فالى عهد قريب كانت مصر دولة مملوكية .

والى عهد قريب جدا .. كانت مصر تابعة للخلافة العثمانية ، يحكمها ويتولى الأمور فيها الأتراك والمماليك والجراكسة .

وكان المصريون غرباء فى بلادهم . يزرعون ويحصدون

ويقدمون خيرات مصر للسادة . ويعيشون فى تخلف عصور الظلام من فقر وجهل ومرض . لم يكن لهم دور فى صنع حضارة العصر ، حتى شرف الدفاع عن بلادهم لم يكن متاحا لهم .

ولم يتحقق لهم شرف الدفاع عن الوطن ، الا حينما اراد محمد على تحقيق احلامه فى امبراطورية كبيره ، وخذله المرتزقة من المماليك والأتراك ، فلجأ الى تجنيد المصريين .. ومع ذلك لم يسمح لهم بالترقية الى أكبر من رتبة العسكر حتى جاء سعيد وسمح لهم بالترقية الى رتبة الضباط .. مما كان له أثره فى قيام الثورة العرابية لتغيير وجه مصر .

ولم يتح لهم شيء من التعليم ، الا عندما ارسل محمد على البعثات التعليمية ، وفتح المدارس لتخريج موظفين لادارة منشآته الحربية ، فنشأت فئة من المتعلمين أخذت تنمو مع الزمن .. وتدرس وتفكر وتتفلسف .. لتغيير وجه مصر .

ولم يكن من بين المصريين من يرقى الى مستوى الأعيان ، حتى أراد اسماعيل أن يجعل مصر قطعة من أوروبا ، فانشأ مناصب العمد فى القرى من اهل اليسار .

وعمل هؤلاء على الحصول على رتبة البكوية والباشوية .. وعلى أن تستعين بهم الحكومة فى مناصب مديرى الأقاليم ومفتشيها . وأصبح اعيان المصريين وذواتهم يملكون آلاف الأفدنة .. ويطمحون الى السلطة .

وكان ذلك سبيلا لتغيير وجه مصر .

وخاضت هذه الفئات رحلة البحث عن الذات . ولم

يكن من السهل عليهم كشف وجه مصر الحقيقى فى ظل الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية القائمه .
فاختلط عليهم الأمر وكان لابد أن يختلط . وتعاونوا أحيانا واختلفوا فى بعض الأحيان ... رأى الجيش ان يكون تغيير وجه مصر بالثورة ، ورأى المثقفون أن يكون تغيير وجه مصر بالاصلاح الاجتماعى والثقافى .. وحينما اندلعت الثورة انقسم أعيان مصر ومثقفوها على أنفسهم ، وحينما انصرف بعضهم عنهـــــا لم يكن ذلك تخليا عن مصر . ولكن لأنهم رأوا أن تغيير وجه مصر يحتاج الى مسار آخر . فرأينا على مبارك رائد التعليم فى عصر اسماعيل يعود الى قريته ، ومحمد عبده يلوم نفسه على تورطه مع الثورة ، بل رأينا قادة الثورة انفسنهم بعـد فشلها يلقون اللوم على بعضهم البعض .

ومع ذلك فقد استمرت حركة الأصلاح فى طريقها ، منادية وعاملة على نشر التعـــــليم ، وتحرير المرأة ، والمطالبة بالدستور ، وانشاء المدارس والجامعات .

ثم اختلط الأمر على المفكرين والسياسيين ، أين هو وجه مصر الحقيقى ؟ هل فى انتمائها الى الخلافة العثمانية .. أم فى انتمائها الى العالم العربى .. أم فى عودتها الى مصر الفرعونية !؟ ورأينا جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ومصطفى كامل يؤيدون انتماء مصر الى الخـلافة العثمانية الاسلامية) خشية أن ينفرد بها الانجليز .. واحتاج الأمر الى نصف قرن ليدرك المصريون أن هذه الانتماءات الثلاثة لا تتعارض ، وانما يتمم كل منها الآخر بشكل من الأشكال .

وكما اختلط الأمر على المفكرين والسياسيين ، اختلط على المثقفين . فرأينا من يدعو الى أن نستمد ثقافة العصر

من الانجليز ، ومن يدعو الى أن نستمدها من الفرنسيين ، ولم يكن واضحا تماما للجميع أن ثقافة العصر منبعهـا العالم كله ، على أساس من تراث كل امة .

وهل أكثر من ان يختلط الأمر فى لغتنا العربية .!
فنجد من يدعو الى كتابتها بالحروف اللاتينية ، او من يدعو الى تعميم اللهجات العامية !؟

كان الطريق وعرا وقاسيا . وكانت الرؤية غائمة . وكانت الظروف السياسية والاجتماعية تملى ألوانا من التفكير والمفاهيم . ولو قسنا الأمور بمقياس اليوم لرمينا بعضهم بالجهل أو الخيانة . ولو قسناها بمقياس المراحل التى مروا بها لرأينا أنهم خاضوا رحلة شاقة للبحث عن ذات مصر . حتى بدأ الوعى يزداد ، والأمور تتضح فى طريقها الى ثورة ١٩١٩ ، ثم الى ثورة ١٩٥٢ .

على أننا نستطيع أن نعكس وجه مصر عند مطلع هذا القرن فى الظواهر الآتية :

الاحتلال الانجليزى جاثم على أرض مصر .

وجود الامتيازات الأجنبية وامتـــلاء مصر بالأفاقين والسماسرة والمضاربين والمرابين يبتزون أموال المصريين وأراضيهم وبيوتهم .

ظهور فئة من السماسرة والتجار المصريين .

العائلات التركية تشعر بالتميز والسيادة ، وتغلب رطانتها عند الحديث ، بل ظلت بعض الاسر المصرية تفخر بأنها من اصل تركى حتى بعد ثورة ١٩٥٢ .

انتشار الملاهى ودور التسلية التى تجلب سقط متاع فتيات أوروبا ليرقصن شبه عاريات ، ويجالسن الجمهور

ويشاركنه الشراب واللهو والعبث ، وخاصة ابان الحرب العالمية الأولى .

ازدياد نفوذ وثراء اعيان وذوات المصريين ، وامتلاكهم آلاف الأفدنة ، وطواف أبنائهم بأوروبا للعلم أو السياحة ، ينقلون عادات أهلها فى المأكل والملبس والمشرب ، ويعوجون ألسنتهم ويرطنون بلغة نصف كلماتها أجنبية ونصفها عربية ملحنة .

وبعض هؤلاء الأعيان والعمد الذين كانوا يحضرون الى القاهرة لبيع محصول القطن ، بهرتهم اضواؤها وملاهيها ، فأمضوا وقتهم على موائد الخمر بين راقصات أجنبيات شبه عاريات ، ليبددوا آخر قرش من ثمن المحصول .

كان هذا وجه مصر .. فلا تكاد تسير فى طريق أو تدخل شركة أو بنكا أو محلا او ملهى ، الا وتطالعك وجوه أجنبية .. أتراك .. وارمن .. وطليان .. ويونانيين .. ومالطيين .. وقبارصة .. وانجليز .. وفرنسيين .. الخ . و وجوه مصرية متفرنجة ؛ وما تكاد تسمع الا وتصافحك لغة كلها رطانة أجنبية مطعمة بكلمات عامية ملحنة . وما تكاد تسير فى طريق الا وتطالعك لافتات (بقالة خريستو .. بار ينى .. كافيه روزانا .. ملهى الباريزيانا .. بنك باركليز .. مزارع جاناكليز .. شركة كوتاريللى .. الخ) .

لقد كانت مصر فى ذلك الوقت ــ والتى تبدو فى القاهرة والمدن الكبرى ــ فرانكو آراب . بل كان الفرانكو فيها يغلب على الآراب . وفى هذا الجو ظهرت مسرحية الفرانكو آراب ، وشخصية كشكش بك عمدة كفر البلاص .

كان هذا هو وجه مصر الظاهر ، الذى ظل باديا على السطح حتى نماء الطبقة الوسطى وطبقة التجار ، وقيام الأحزاب وفسادها .

أما وجه مصر الكامن ، فكان يتخذ مسارا آخر نحو ثورة ١٩٥٢ .

ولكن .. كم من الناس كان يستطيع أن يرى وجه مصر الكامن فى ذلك الوقت !؟

***

عودة الى كشكش بك

هكذا ولدت شخصية كشكش بك وكان لابد لها أن تولد . وهكذا ظهرت مسرحية الفرانكو آراب وكان لابد لها أن تظهر .

لقد فشل عزيز عيد لأنه قدم كوميديات تناسب طبقة وسطى لم تكن قد نضجت بعـــد . وكان على نجيب الريحانى أن يهبط الى مجتمع الفرانـــكو آراب اذا أراد للكوميديا أن توجد وأن تستمر . وسواء أدرك الريحانى ذلك أم لم يدركه . فقد دفعـــه الجـــوع والصعلكة والبحث عن لقمة العيش الى أن يبدأ من هذا الطريق .

لم يكن غريبا اذن ان تولد مسرحية الفرانكو آراب خلال الحرب العالمية الأولى فى ملهى (الأبيه دى روز) لتقدم لجمهور يعـــكف على شرب الخمر ، ومجـــالسة الفتيات والراقصات .. ولم يكن غريبا ان تكون من فصل واحد ، وان تغلب عليها الرطانة الافرنجية ، وان تتخللها عناصر موســـــيقية أكثر من عناصر الدراما والتمثيل . وأن يظهر الى جانب شخصية كشكش بك شخصية القواد الأجنبى ، والخـــواجة المبتز ، وبعض

الراقصات الأجنبيات ، الى جانب الشخصيات المصرية كشخصية حماته أم شولح ، وابنها شولح ، والخادم زعرب .

وبغض النظر عما لحق هذا اللون المسرحي من تطـور في المعالجة او الأسلوب . أو الحوار . فان مسرحية الفرانكو آراب تظل هي مسرحية الفرانكو آراب .

أما شخصية كشكش بك عمدة كفر البلاص فحولها كلام كثير .

هل كان كشكش بك عمدة كفر البلاص هو رمز مصر الأصيل حقا !؟ ام هو رمز سيىء لابن مصر الذى اتاحت له الظـــــروف أن يتسيد ، وان يغتنى ، ويملك آلاف الأفدنة ، فجمع عرق الفلاحين ، وراح يريقه فى ملاهى أوروبا أو ملاهى القاهرة ، ويقدمه لقمة سائغة للسماسرة والمضاربين وقواد الليل والجنس !؟

ان رمز مصر الأصيل حقا ، هو الفلاح الذى ظل يعمل ويعرق ، ويحمل مصر على كتفيه . أما كشكش بك فكان نموذجا لابد أن يعاقب فنيا . وكانت الكوميديا دائما هى وسيلة العقاب .

لقد أدرك هذا الفنان المغامر المتصعلك . الذى انصهر فى بوتقة مجتمع المدينة ، وعمل أحيانا فى بعض قرى الصعيد . أدرك بحسه الكوميدى البحت أن كشكش بك نموذجا كوميديا جيدا ، بغض النظر عما وراءه من قيم اجتماعية أو اخلاقية . ولكن من عظمة الكوميديا أن النموذج الـكوميدى الجيد هو بطبعه نمـوذج اجتماعى اخلاقى . سواء أراد ذلك الفنان الذى يقدمه أم لم يرد .

وقد تتبعه الريحانى فى مجالات لهوه وعبثه وعلاقته بالسماسرة والمضاربين والقوادين وفتيات الليل (تعالى لى يا بطة ـ وداع كشكش بك .. الخ) . ووضعه فى مجال الاستهزاء والسخرية والتهكم ، وكان ينبغى ان يضحك عليه شعب مصر الحقيقى . ولكن من سوء حظ هـذا الشعب ، أن الذى كان يضحك على كشكش بك وعليه وعلى مصر كلهـــا فى ذلك الوقت هو مجتمع الفرانكو آراب .

ومع ذلك .. فلعلنا نتساءل : ألم يكن وراء كشكش بك مغزى أخلاقى فى ندمه وتوبته ؟ ألم يكن يحمل بعض العناد والمقاومة ويستخدم فكره الساذج ضد الخواجة فى السوق أو فى الملهى !؟ ألم يكن يحمل الى جانب طيبته بعض الكبرياء !!

ولسنا نحاول أن نحمل شخصية كشكش بك أكثر مما تحتمل ، فنتصورها كما تصورها البعض رمزا للمقاومة أمام الأجنبى الذى يستغل . أو نعتبرها كمـا اعتبرها البعض شخصية قومية . وبحسبنا أن نقول أنها نموذج كوميدى جيد استطاع ان يعـكس روح العصر . رغم ما أحاط به من معالجة خشنة ، وحوار هابط ، وضرب وتشليق .

***

وما كاد المجتمع المصرى يمر بالتحول الجديد حتى فقد نجيب الريحانى الارض التى يقف عليها . فقد بدأ نمو الطبقة الوسطى من المفكرين والمثقفين والموظفين .

ونشأت طبقة المهنيين والعمال . وبدات تطغى على مجتمع الفرانكو آراب ، وراحت تشارك فى فكر مصر وثقافتها وسياستها . وأحست مصر بذاتها واشتعلت

الروح القومية مطالبة بالدستور والحرية . حتى تحقق دستور ١٩٢٣ وتكون برلمان ١٩٢٤ .

لم يعد لكشكش بك مكان فى هذا المجتمع . ولم يكتشف نجيب الريحانى بعد نماذجه الكوميدية من المجتمع الجديد ليقدمها له فى مسرح كوميدى متخصص ، فلجأ أحيانا الى الأوبريت ، واحيانا الى الميلودراما ، وعاد الى شخصية كشكش بك فى بعض الأحيان ، الى أن اهتدى الى شخصية الأفندى المطربش ممثل الطبقة الوسطى .

ولا يفوتنا ونحن فى طريقنا الى كوميديا الطبقة الوسطى ، أن نذكر من أوبريتاته العديدة التى قدمها أوبريت (العشرة الطيبة) . ذلك أن أوبريت العشرة الطيبة تحمل اكثر من معنى اجتماعى وفنى . فقد اعتبرت رمز للمقاومة الوطنية لأنها ترسم صورة ساخرة للحياة فى مصر المملوكية ، وتنقد أساليب الحكم التركى . ثم هى نتاج أربعة من فنانى هذا العصر ، فمترجمها هو الأديب الكبير محمد تيمور . وكاتب ازجالها بديع خيرى . وواضع ألحانها موسيقار الشعب سيد درويش ، وممثلها رائد الكوميديا نجيب الريحانى .

ومع ان هذا العمل كان يعتبر فى رأى البعض انجازا قوميا رائعا يضع نجيب الريحانى فى مصاف الأبطال القوميين ، فقد اعتبر فى رأى البعض الآخر خيانة ضد الخلافة العثمانية ، موله الريحانى بأموال انجليزية .

على أن هذه الأوبريتات وغيرها ، كانت تحمل بعض دلالات التحول الذى يجرى فى مصر ، فكانت تقدم على مسارح وليس فى ملاهى المخمورين . وكان يرتادها مجتمع ناشىء من الأفندية والطلبة والمهنيين المتعلمين ، ويعبر معظمها كما راينا فى أوبريت العشرة الطيبة عن

روح المقاومة الوطنية .

وفي الوقت الذى كان فيه نجيب الريحانى يتلمس طريقه فى الاوبريت والميلودراما ، والعودة الى كشكش بك ، كان يوسف وهبى يعرف طريقه جيدا الى المجتمع المصرى الجديد ، فقدم نماذج الطبقة الوسطى ، وعبر عن واقعها ومشـــــكلاتها ، ولأول مرة فى تاريخ المسرح الجاد فى مصر ، يشاهد أبناء هذه الطبقــة أنفسهم على مسرح فى أعقاب الثورة الوطنية ، فى مسرحيات اجتماعية تدافع عنهم وتنادى بالمساواة والعدالة (أولاد الشوارع ـ أولاد الفقراء ـ بيومى أفنـــدى .. الخ) . ولم يــكن الريحانى ليعود الى الطريق الصحيح ، قبل أن يكتشف الأفندى المطربش ممثل هذه الطبقة .

فلمن اذن غير هذه الطبقة كان يستطيع نجيب الريحانى أن يقدم فنه !؟ فهى الطبقة الغالبة التى أدى عدم وجودها الى فشل عزيز عيد ، وحكم وجودها على كشكش بك وتراجيديات جورج أبيض بالموت .

هنا ينبغي أن تختلف المسرحية تمــــاما عن أسلوب ووسائل الفرانكو آراب ، وهنـــا ينبغى تناول مشكلات وشخصيات وملابسات ودوافع جديدة ، وهنـــا ينبغى اصطناع لغة حوار وتصوير بيئة يحملان طابعـــا مصريا صميما . وبقدر ما نجح نجيب الريحانى وبديع خيرى فى تحويل ما اقتبسوه أو مصروه الى بيئة مصرية ، والى مشكلات وملابسات ودوافع مصرية ، بقدر ما نجحت مسرحياتهم جماهيريا على أقل تقدير .

وقد تناول مسرح نجيب الريحانى فى هذه المرحلة المجتمع المصرى الجديد ، بأغنيائه وذواته وباشاواته وطبقته الوسطى ، ليكشف ما فيه من فساد ، ويسخر ويتهكم

من المساوىء الاجتماعية والعيوب الأخلاقية . وكان نموذجه الكوميدى الأساسى فى ذلك هو ممثل الطبقة الوسطى .. المدرس .. أو الموظف .. او كاتب المحامى .. أو حامل المؤهل العاطل . وهو انسان طيب القلب حسن النية يريد أن يعيش فى سلام . لكن المجتمع لا يرحمه ، ويعصف به فى دوامة من الفساد المالى والأخلاقى ، فيجابههم ببعض المكر والدهاء اللذين تسمح بهما طيبته .

وفى مسرحيات الريحانى الناضجة ، نجد أن معظم المواقف المسرحية لا تخلو من دلالة اجتماعية ، بل ان نسيج الحوار نفسه يحمل غمزات اجتماعية فيها تهكم وسخرية ، وكشف اجتماعى واخلاقى له اثر بالغ وخطير ، بغض النظر عن العبارات السوقية والحوار المبتذل الذى قد يتخلل الرواية .

انظر الى الفكرة الأساسية لمسرحية « الجنيه المصرى » .

مدرس شريف يؤدى رسالته التعليمية بأمانة . فيوقعه ذلك فى الفقر والمهانة والمتاعب ، مما يجعل ناظر مدرسته يرفض زواجه من ابنته . وحينما يجارى المجتمع فى فساده ، ويحقق المال والمركز الاجتماعى ، يقبل عليه الناس ، ويتقرب اليه ناظر المدرسة فيعرض عليه الزواج من ابنته التى لم يعد راغبا فيها .

انظر الى نسيج هذا الحوار فى نفس المسرحية .

الناظر : ... ولما الأرض بتاعتك تلف يا أستاذ ، يقوم يلف معاها ٣٦٠ صاغ فى الهوا . يعنى حضرتك نكبة على مالية المدرسة .. تعتمد على مواهبك تجوع .. تعتمد

على فضايلك تحفى .. تعتمد على أيديك تشحت . تعتمد على قوة ذكائك تفتنى وتكيس . الراجل المدرب يا ياقوت افندى هو الراجل اللى يشغل المغفلين لمصلحة جيوبه .

ياقوت : لكن دى نظرية فاسدة يا حضرة الناظر . معناها يختل نظام الشرف . تنعدم الذمة . تنمحى المبادىء القويمة .

الناظر : الشرف .. الذمة .. المبادىء القويمة ، كلها يا ياقوت افندى تشتريها بالجنيه . عندك جنيه تقدر تشترى ذمة ، تشترى شرف .. تشترى مبادىء ، ما عندكش جنيه ما عندكش لا ذمة ولا شرف ولا مبادىء .

ولقد تحققت نظرية الناظر عندما حقق ياقوت آفندى الثراء عن طريق الاحتيال ، حتى الصحفى الذى هدد بفضيحته ، أخذ يمجد فيه الأمين الصادق ، والثرى الأمثل ، والاقتصادى العصامى .. حينما املى عليه الجنيه مقاله .

ولكن ماذا كان يعنى الريحاني !؟

هل كان يشجع على الانحراف والاحتيال والتخلى عن الشرف كما تصور البعض لأن المسرحية لم تحقق العدالة الشعرية بعقاب ياقوت آفندى المنحرف !!

أم كان يقول للمجتمع حذار .. والا فقدت قيمك وأخلاقك وشرفك . لأن المال ليس هو كل شىء . وقد تضحك لك الدنيا وتعطيك أكثر مما تريد من مال ، ولكنه بغير القيم والأخلاق والشرف لن يحقق لك السعادة .

وهذه هى قضية (الدنيا لما تضحك) .

فقد تراهن احد أصحاب الملايين مع افلاطون آفندى

الفقير على اعطائه مبلغ مائتى جنيه شهريا لمدة سنة ، بشرط أن يتمكن من انفـاقها كاملة (لاحظ أن المائتى جنيه فى ذلك الوقت تساوى أكثر من ألفى جنيه فى الوقت الحالى) .

وينفق افلاطون افندى هنا وهناك بلا حساب دون ان ينفد المبلغ . ويقع فى متاعب لا حصر لها . وتفقد اسرته سعادتها .

وهنا تتوسل ابنته قمر الى الثرى ان يعفى اباها من الرهان ، فيستجيب لها ويمنحه معاشا شهريا مناسبا مدى الحياة .

هكذا يريد الريحانى ان يقول ان الثراء الفاحش الذى يزيد عن الحاجة ، كالفقر سواء بسواء ، كلاهما لا يجلب السعادة ، وانما تتوفر فى حياة سهلة ميسورة يسودها الحب والقيم .

ولكن الريحانى فى غمرة عرض قضيته ، وتركيب الحل النهائى السعيد لمسرحيته ، فاته ان الحل لا يكمن فى منحة شهرية يقدمها أحد الأثرياء لانسان فقير ، وانما فى تحقيق عدالة اجتماعية اساسها العمل تتوفر فى ظلها حياة ميسورة للجميع ، وان كان السياق العـام للمسرحية قد يوحى بذلك .

ويواصل الريحانى مسيرته فيقدم (حكم قراقوش) . وقراقوش هو حاكم القاهرة المستبد فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، والذى أصبح اسمه رمزا للاستبداد السياسى .

وفى (حكم قراقوش) نجد (بندق) عامل المقهى لدى كشك أغا ، يقوم على خدمة زبونين متخفيين هما فى حقيقة الأمر قراقوش وتابعه .

بندق : أيوه يا حضرة الفاضل .. اسكت أجارك الله .. ده اللى ايده فى الميه مش زى اللى ايده فى النار . كل شى فىء البلد انعكس حاله . الضماير خسرت .. الأعراض اتلوثت .. الذمم اتوسخت ، الأعراض انتهكت. الكبير بياكل الصغير زى السمك .. والقلوب اسودت .
احنا فى أيام سودة .. احنا فى حكم قراقوش .

ثم يعلن لهما أنه لو جلس فى موقع السلطة أسبوعا واحدا ، لأصلح من حال البلاد .

ويسألانه : كيف ؟

بندق : ابل ريق الغلبان .. أنصب ميزان العدل .. أحنى دماغ القوى قدام حقوق الضعيف .

وهنا يوضع بندق فى امتحان رهيب . إذ يعرض عليه قراقوش أن يكون نائبا للسلطان لمدة أسبوع ، على أن يقتل فى نهايته ، فيقبل ، وينتقل الى البلاط ليقوم بمهمته . ويستدعى مجلس الأبحاث ، فاذا بسلحدار الجيش اصم . وقاضى القضاة غبى . والمهندس أخنف ، وحجة البيان لا يستطيع أن يفصح عن شيء . وكاتب البلاط جاهل . ويديرون شئون البلاد وفقا لعيهم وجهلهم .

ويعمل بندق على اصلاح الأحوال ، فيحل مجلس الأبحاث ، ويلغى الضرائب ، ويعفو عن المظلومين والسياسيين والمفكرين المزجوج بهم ظلما فى غياهب السجون ومستشفيات المجاذيب .

ويغضب عليه الحاكم ، وينتظر نهاية الأسبوع ليقتله .

وهنا تظهر لعبة الريحاني المفضلة فى حل المشكلات حلا يقوم على الصدفة او ضربة حظ . فتقع الأميرة شمس

فى غرامه لطيبة قلبه ونبل اخلاقه ، وتطلب من والدها السلطان أن يزوجها له ، وكأن اصلاح البلاد يتم عن طريق غرام أميرة بأحد افراد الشعب المظلومين .

وبغض النظر عن هذه النهاية ، وسواء أراد الريحانى ذلك أم لم يرد ، ألم تكن (حكم قراقوش) توحى بحكم الملك فؤاد وحاشيته !؟ وألم يكن مجلس الأبحاث يوحى بمجلس الوزراء وخاصة فى عهد اسماعيل صدقي الذى قضى على الديمقراطية والغى الدستور !؟

***

نمت الصناعة فى مصر ، وقفزت فئة من ابناء الطبقة الوسطى ، اصبحت من كبار اصحاب روءس الأموال وكبار التجار ، واستشرى الاقطاع ، وقامت الأحزاب واختلفت وتصارعت ، وقامت الحرب العالمية الثانية فأدت الى ثراء طبقة محدثة ليس لها رصيد ثقافى أو اخلاقى ، وتفشت الأنانية فى المجتمع ، فساد النفاق والمصلحة الشخصية والرشوة وافساد الذمم ، واستبد القصر بالشعب ، وفسدت الحياة السياسية ، وما زال ممثل الطبقة الوسطى يضيع فى المدينة ويضيع معه الريحانى أحيانا ، فيجعله لعبة فى يد الحظ والقدر ، ويحل مشاكله عن طريق الصدفة والمفاجأة . ولكنه أبدا مدرك لوضعه الاجتماعى . فهو هدف للمهانة والاضطهاد ، وهو معرض لقهر الأغنياء وأصحاب السلطة . ومن هنا كانت عقد المسرحية لدى الريحانى دائما قائمة على صراع الانسان مع القدر والمجتمع ، وليست قائمة على الحب .

ففى مسرحية (لو كنت حليوة) التى قدمها عام ١٩٣٨،

وفضح فيها نظام الوقف ونظـــار الأوقاف . يجعـل البطل فى نهاية المسرحية يفتنى بضربة حظ فى صــورة ورقة يانصيب رابحة . بعـد أن أحبته البطلة وتركت خطيبها من اجله .

وفى مسرحية (حسن ومرقص وكوهين) التى قدمها عام ١٩٤٣ ، وقدم فيها ثلاثة نماذج شـــخصية رائعة ترسم بوضوح صفات المسلم والقبطى واليهودى ، يجعل البطل يفتنى فى نهـاية المسرحية بضربة حظ ، يتمثل فى ارث يهبط عليه من السماء ، كما يجعل البطلة تحبه فى نهاية المسرحية .

وفى مسرحية (الا خمسة) التى قدمها عام ١٩٤٥ ، يقدم لنا محاميا مفلسا يعمل فى خدمة أسرة تركية للبحث عن كنز مخبأ فى القصر ، وفى النهاية تترك ابنة الأسرة خطيبها لتتزوج منه ، وبضربة حظ أيضا يعثر على الكنز .

ومع انه فى روايته الأخيرة (سلاح اليوم) التى قدمها فى موسم ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦ ، لم يجعل من البطل لعبـة فى يد الحظ ، بل جعله يحقق النجاح عن طريق المكر والدهاء والرشوة واستخدام النساء ...

الا أن قضيته الأولى والأخيرة أيضا فى هذه المسرحية كانت المال .

فقد كان المال هو الشغل الشاغل لنجيب الريحانى ، ولعله كان عقدة حياته ، فكان الأســـــاس فى اغلب مسرحياته . يحققه بالحظ وبالصدفة وبكل وسيلة الا الوسيلة الوحيدة التى كان يسعى اليهـــا وجه مصر الكامن .. وهى تحقيق العدالة الاجتماعية .

فقد نضج ممثل الطبقـــة الوسطى . لم يعد هـو الانسان المسلح بالوعي القومي فحسب ، بل أصبح مسلحا بالوعى الاجتماعي كذلك . مدركا للقـــوى التى تعصف بمقدراته . ولم يعـــد يستسلم للحظ أو القـــدر او السلطة ، بل أخذ يعمل من أجل تصحيح الأوضاع . ويضحي من أجل ذلك بنفسه وبقوته .. كان يسـعى حثيثا نحو الثورة .. ولم تكن الثورة منه بعيدة .

هذا ما لم يستطع أن يدركه الريحانى .

وعلى ضوء ذلك نســـتطيع أن نفسر مسرحيــــاته الأخيرة .

يرى البعض أن مسرحيات الريحانى نمت وتطورت فى خط متصاعد . وانه بلغ اوج نضجه الفنى فى مسرحياته الأخيرة . ولكننا نختلف مع هذا الراى ونرى انه منذ بدأ التحول الأخير فى مجتمع الطبقة الوسطى ، وتم نضجها الاجتماعى ، فقد نجيب الريحانى الارض التى كان يقف عليها . وبدأت مسرحياته تفقـــد وظيفتها الاجتماعية ، وتسربت اليها عوامل الضعف الفنى .

فقد ظل الريحانى يلعب بنفس النماذج الشخصية ، ويقدم نفس المشكلات والملابسات والدوافع التى قدمها لمجتمع الطبقــة الوسطى الناشىء الذى لم يـكن يعرف طريقه بعد ، فأصبحت تـكرارا لا مبرر له . ومن ثمة تجمدت الشخصيات فى تلك القوالب الحديدية ، وخلت المواقف من دلالتها الاجتماعية ، وفقد الحـوار غمزاته التهكمية الساخرة ، وغلبت عليه العبـــارات المبتذلة الجوفاء ، وكثرت الشخصيات التى تضحك عن طريق الرطانة ، وتكررت عوامل الاضحاك التى الفها الجمهور من قبل .

ولنتخذ مثالا لذلك مسرحيتى (٣٠ يوم فى السجن) و (الا خمسة) .

فالفكرة الأساسية فى مسرحية (٣٠ يوم فى السجن) تقوم على شاب عاطل لا يجد عملا هو أمشير افندى . يلجأ الى زميل قديم له منــذ الدراسة على شيء من الثراء ليصيب لديه شيئا من المال أو الوساطة للعمل . فيجده فى ورطة حيث حكم عليه بالسجن ثلاثين يوما لتعديه على أحد رجال الشرطة ، ويقبل السجن بدلا منه نظير مبلغ من المال . وتحدث عدة ملابسات تؤدى الى بعض اللبس . اذ تقدم الفانية عشيقة الزميل فيقدمها لأسرته على أنها زوجة أمشير أفندى ، ويقبل أحد القضاة لخطبة الحماة فاذا به القاضى الذى حكم بالسجن على الزميل الثرى ، فيحدث بعض الخلط بين الشخصيتين .

وهناك بعض شخصيات مقحمة على المسرحية لاستدرار الضحك . خادمة شامية حيزبون تستخدم رطانتها وتقع فى حب أمشير أفندى ، ونشال تعرف عليه فى السجن يستخدم أسلوب ابناء البلد فى مبالغة مفتعلة .

وفى نهاية المسرحية تتضح الأمور ، وتتزوج الفــانية من أمشير افندى ، ويتزوج القاضى من الحماة ، ويستقيم الزميل الثرى ويرتد الى حظيرة الأسرة .

ويبدو من موضوع المسرحية أنهــا لا تحمل اى عمق اجتماعى ، كما ان الشـــخصيات هى نفس الشخصيات النمطية التى ألفناها فى مسرحيات الريحــانى بعد ان فقدت وظيفتها ، وتنمو المسرحية من خلال حوار أجوف لا وظيفة له أكثر من ان يؤدى الى اللبس والخلط ، خال من أية غمزات أو ايحاءات اجتماعية أو أخلاقية كما رأينا فى حوار بعض مسرحيات الريحانى من قبل .

والفكرة الأساسية في مسرحية (الا خمسة) تقوم على محام مفلس لا عملاء له ، يعثر على خريطة كنز مخبأ في قصر أسرة تركية ، فيعمل سائقا لدى الأسرة ليعثر على الكنز . ويغازل ربة القصر العجوز التركية الشمطاء، ويتحمل صلف وعنت أخيها الارستقراطي المفلس الذى يعيش عالة عليها . وتمتنع العجوز عن مد أخيها وابنته بالمال ، آملة في الزواج من المحامى الشاب . فيترك الفتاة خطيبها ابن الذوات العاطل بالوراثة الذى كان يأمل أن يعيش عالة على اموال عمتها الثرية .

ويصرح المحامي للفتاة في نهاية المسرحية انه لا يقصد الزواج من عمتها ، ولكنه يبحث عن كنز في القصر ، فيبحثان عنه معا ويفشلان في العثور عليه . وهنا يكتشف المحامى ان الكنز الحقيقى هو العمل ، وان عليه أن يعود لمكتبه ويعمل ويعرق ليحقق النجاح ، فتحبه الفتاة التى يكون قد أحبها بدوره .

ولكن هذا الدرس الأخلاقى لا يعدو مجرد خطبة قصيرة في نهاية المسرحية . اما المسرحية نفسها فتنمو وتطرد من خلال رطانة العجوز التركية ، وسرسعة الخادمة (الشرشوحة) وعنجهية ابن الذوات العاطل ، دون أى كشف اجتماعى أو أخلاقى فى تركيب المواقف او صياغة الحوار .

أما الدرس الأخير ، الذى لم يستغرق أكثر من دقيقة ، فهو للجمهور فقط . أما البطل فلابد ان يعثر على الكنز ، ولكى تكتمل له السعادة تقبل الفتاة الزواج منه .

***

كانت الكوميديا فى حاجة الى نماذج جديدة تلائم

التطور الجديد . نماذج ايجابية تعمـل بحق لتحقيق النجـــــاح . وتضحكنا من سلبيات المجتمـع وهى تسعى سعيا ايجابيا لتحقيق العدالة الاجتماعية . ولكن الريحانى لم يدرك هذه النماذج ، ولم يستطع أن يقدمها لجمهوره . ولم يستطع أحد فى مجال المسرح الكوميدى المتخصص ان يقدمها حتى اليوم .

ولم يكن ذنب الريحانى ان الحياة فى مصر قد تطورت بأسرع مما يستطيع ان يلاحقها الفنـان . وحسبه أنه استطاع أن يقدم نماذج عبرت عن بعض مراحل التطور الاجتماعى فى مصر من خلال طبقة الاعيان ونشأة الطبقة الوسطى .

وكان على الجيل الجديد ان يحمل المشعل ويواصل الرسالة ، ولكن من اسف ان هذا الجيل قد ارتد ليجتر اعمال الريحانى فى صور مختلفة .

الكسار والمسرح

لا يفوتنا وقد تحدثنا عن مسرح الريحانى ، وما كان له من أثر فى المسرح الكوميدى خلال النصف الأول من هذا القرن ، ان نذكر رجلا عاصره ، بل ونافسه فى كثير من الاحيان فى بعض مراحل مسيرة المسرح الكوميدى فى مصر .. هو على الكسار .

ويكمن أساس الحديث عن أثر كل من نجيب الريحانى وعلى الكسار فى المسرح ، ولون المسرحيات التى قدمها كل منهما ، ومدى النجاح الذى حققه ، فى الفرق بين شخصية كل منهما .

فلم يكن على الكسار مجرد انسان من صميم الشعب المصرى .. بل كان من بيئة معينة ، تحمل طابعا معينا ، وصفات جسمانية معينة ، ولهجـــة حديث خاصة .. حصرته فى نطاق لم يســـــتطع منه فكاكا .. وجعلت المنافسة بينه وبين الريحانى فى مجال المسرح الكوميدى المتخصص ظلما فادحا له ، يستحق ما يعرف فى قانون الملاكمة بايقاف المباراة لعدم التكافؤ بين المتنافسين ...

وأعنى بالمسرح الكوميدى المتخصص ، المسرح الـذى يعنى بوسائل الكوميديا وأصولها ، دون الاســتعراضات والاستكشافات والنمر الشعبية .

فعلى الكسار رجل نوبى أسمر اللون ، يتحدث بلهجة

عامية نوبية ، وهذه الصفات لم تكن تؤهله لدور أكثر من دور الخادم أو الطباخ او البواب .. ولم يكن من الغريب أن يطلق على نفسه (بربرى مصر الوحيد) .

وقد استطاع على الكسار ان ينافس الريحانى بحق ، فى مرحله المحاولات الاولى التى سادت فيهـا مسرحية الفرانكو آراب ، فابتدع شـخصية عم عثمان البربرى النوبى ، وهو يماثل شخصية كشكش بك من حيث انه انسان بسيط ، يحمل بعض المسكر الطيب او الطيبة الماكره ، واضفى على هذه الشخصية جاذبية خاصة ، بما يحمل من خفه الدم ، ونقاء الروح ورقة الاداء .

ومع ذلك فشتان بين شخصية كشكش بك الذى يمثل طبقة الأعيان ، وشخصية عم عثمان البربرى الذى يمثل أدنى طبقات الشعب المصرى ، ظهرت شخصية عم عثمان البربرى أول ما ظهرت فى مسرحية الفصل الواحد التى كانت تقدم فى كازينو دى بارى ضمن برنامج يشتمل على الرقص والأغانى والموسيقى والمونولوج .

فقد انشأ الكسار فرقة استعراضية عاصرت فرقة الريحانى ، واعتمد فيها ، مثله فى ذلك مثل الريحانى فى أول أمره ـ على الغناء والرقص والفكاهة ، فقدم استعراضات غنائية فكاهية مفككة الحبكة ، اطلق عليها بدوره فرانكو آراب . مثل (البربرى فى استكهولم) . وهى مغامرات خيالية شبيهة بما كان يقدمه الريحانى ، تقوم على شخصيات نمطية مثل شخصية عم عثمان البربرى ، وشخصية العاشق التى كان يقدمها مطرب شعبى من زملاء الكسار هو مصطفى امين ويؤدى اغانيها .

ولقد كانت الظروف الاجتماعية فى ذلك الوقت ،

وسيادة مسرحية الفرانكو آراب ، تمثل ارضا صالحة للمنافسة بينهما . تمثلت فيما يقدمانه من استعراضات، وفيما يطلقانه على استعراضاتهما من عناوين تحمل طابع القافية والتنكيت ، فيسمى احداهما استعراضه (راحت عليك) فيرد عليه الآخر باستعراض (فشر) . وقد اثرت هذه المنافسة تأثيرا حقيقيا على جمهور الريحانى، مما جعله لا يستطيع ان يصمد لهذه المنافسة الا بعد ان انتقل الى مسرح الرينيسانس، بل دفعت الريحانى فى هذه المرحلة الى أن يحتذى بما كان يقدمه الكسار فى فرقته .

يقول نجيب الريحانى فى مذكراته :

« رأيت أن كازينو دى بارى المجاور لنا ، والتى تديره مدام مارسيل لانجلو ويعمل به الأستاذ على الكسار ، أقول رأيت بعد البحث الدقيق ان هذا الكازينو قد احتكر اقبال الجمهور الذى كان يقصده زرافات ووحدانا ، ويملأ مقاعده ومقاصيره ، ما العمل اذن ؟

فلأوقف التمثيل فى مسرحى ليلة أمضيها بهذا الكازينو لأدرس عن كثب علة هذا الاقبال وسببه ...

فأدهشنى ان أرى ان كل ما هناك عبارة عن استعراض يغلب عليه العنصر الافرنجى وتتخلله بضع مواقف فكاهية يظهر فيها الأستاذ على الكسار ...

لم تكن الاستعراضات تحوى موضوعا ما ، ولا معانى خاصة ، ولكن كانت فخامة المناظر وعظمتها ، وتابلوهات الرقص هو كل ما يشتمل عليه البرنامج . يا لله ! ما دام الأمر كذلك ، فلماذا أتعب نفسى و « أشغل مخى » فى الاتيان بالموضوعات ، والبحث عن الروايات ذات المغزى،

وما دام الجمهور يستريح ويقبل على النوع الاستعراضي ، فماذا يمنع ان نقدم له ما يشتهيه :(» .

وخرج الريحاني ليقدم لجمهوره استعراض (حمار وحلاوة) الذى حقق منه أرباحا هائلة .

وفي عام ١٩٢٢ قدم الكسار اوبريت (ألف ليلة وليلة) ولم يكن ذلك غريبا فى وقت طغى فيه الأوبريت على كل شيء . فحقق بهذا الأوبريت نجاحا باهرا ألهب المنافسة بينه وبين الريحانى . واستمر الكسار فى تقديم مسرحيات كوميدية موسيقية أو أوبريتات تمضي حبكتها على وتيرة واحدة ، وتقوم غالبا فى اطار من التاريخ العربى الاسلامى وفى جو فانتازى من ألف ليلة وليلة .

وأراد الكسار أن يساير العصر ، فقدم عام ١٩٣١ اقتباسا عن مسرحية البخيل لموليير . وجاء تمصيرها مشوقا اقترب به من مجال الكوميديا الراقية ، فاعتمدت على أحداث عصرية وشخصيات واقعيــة . وخلت من النمر الراقصة . واســــتمدت فكاهتها من المواقف والشخصيات بدلا من النكت . فضلا عن شمولها على مغذى أخلاقى اجتماعى هو مساوىء البخل .

ولكن الى أى مدى كان يستطيع الكسار ان يقترب من الكوميديا الراقية . ان البخل صفة عامة قد يلصق بالرجل الأبيض كما يلصق بالرجل الأسمر ، وقد يتصف به رجل من الاعيـــــان كما يتصف به رجل من الطبقة الوسطى أو من عامة الشعب . وقد يضحك منه جمهور من بين هؤلاء أو أولئك .

ولكننا رأينا من قبل كيف تعاظمت الطبقــة الوسطى

بما تحمل من تقاليد وملابسات ومشكلات اجتماعية ، فحكمت على كشكش بك بالموت ودفعت بالريحاني الى الأفندى المطربش . فالى اى مدى كان يستطيع الكسار ان يمثل هذه الطبقة وهو الرجل الذى يحمل لونا اسمر ، ولهجة نوبية ، حكما عليه ان يكون فى موضع الخادم او الطباخ او البواب !؟

لم يستطع الكسار أن يلبى احتياجات الطبقة الجديدة، ومن ثمة فقد الأرض التي يستطيع الوقوف عليها لمنافسه الريحاني ، واضطرته صفاته الجسمانية واللغوية أن ينحصر فى شخصية عم عثمان الخادم البربرى ، فانصرف عنه جمهور الطبقة الراقية ، والمتعلمين ، وجمهور الطبقة الوسطى ، ولم يبق له الا لابسو الجلاليب والطواقى .

ولعلنا نتساءل : لو أن على الكسار قد وجد الكاتب الذى يستطيع أن يبرز ملابسات طبقته ، ومشكلاتها الاجتماعية ، فى علاقاتها مع السادة من ابناء الطبقات الأخرى .. هل كان يستطيع مسرحه ان يحقق النجاح !؟

وهل كان الكسار يستطيع أن يعتمد على جمهور لابسي الجلاليب والطواقى ، فى وقت كانت فيه الطبقة الوسطى تنمو وتتعاظم لتسيطر على الادارة والسياسة ورأس المال !؟

لقد انتقل على الكسار منذ عام ١٩٣٤ الى روض الفرج ، وراح يقدم أوبريتاته القصيرة وبعض النمر التى تعتمد على الرقص والموسيقى والمونولوج ، وهو لون من الفن الشعبى استهوى بحق جماهير الشعب . ولكنه بدأ يفقد هذا الجمهور بالتدريج ، لأن بعض هذا الجمهور

كان يلحق بقطار الطبقة الوسطى ويفقد اهتمامه بهـذا الفن ، وبعضه يفقد قدرته المادية على ارتياد المسارح .

سؤال أخير يطرح نفسه بصدد علي الكسار !؟ لو انه استطاع أن يدرك المتغيرات الاجتماعية فى ذلك الوقت ، ويدرك انه لا يستطيع أن يقدم كوميديا الطبقة الوسطى ، وأخذ فرقته يجوب بها أقاليم مصر ليقدم فنه الشعبى للابسي الجلاليب والطواقى فى مواطنهم ، أكان يستطيع ان يحقق النجاح !؟

هى تجربة لم يقم بها الكسار على اية حال . ولعل الظروف لم تدفعه اليها ، فقد كان ما زال يعيش على ذكريات مجده الأول فى العاصمة ، كما أن أحدا فى ذلك الوقت لم يكن يهتم بلابسى الجلاليب والطواقى . ولو أن الظروف دفعتـه للنزول الى مجتمع الجلاليب والطواقى ، كما دفعت الريحانى من قبل للنزول الى مجتمع الفرانكو آراب ، ربما لكان لهـذا الفن الشعبى الذى افتقدناه بحق .. شأن آخر .

فقد أتاحت هذه الاستعراضات الشعبية ، النمو والازدهار لفن من أخطر الفنون أثرا فى توجيه الجماعات هو فن « المونولوج » وفن المونولوج هو فن الكاريكاتير المصور بالكلمة والحركة والغناء ، الذى يتناول بالنقـد والسخرية والتهكم نماذج من المجتمع خارجة على قيمه وعاداته وتقاليده .

وقد تألق فى هذا الفن مجموعة من الفنانين أمثال حسن فايق ، واسماعيل يس وثريا حلمى ، ومحمود شكوكو الفنان الشعبى الأصيل الذى تخرج فى مسرح على الكسار .

ولعلنا لا زلنا نذكر بعض هذه المونولوجات واثرها فى

توجيه الجماعة ونقدها ، فنتصور حسن فايق وهو يلقى مونولوجه عن مضار شم الكوكايين ، ويسخر ويتهكم من الذين يتناولونه ، أو نتصور اسماعيل يس وهو يلقى مونولوجه .. « ما تستغربش .. ما تستعجبش ، فيه ناس بتتعب و لاتكسبش ، وناس بتكسب ولا تتعبش » ، ثم يأخذ فى النقد والسخرية من هذه النماذج ، او نتصور ثريا حلمى وهى تلقى كلماتها .. « راجل بشناب .. أهو طول الباب .. وأهو عرض الباب .. ماشى بيتشدق فى لبانة » .. وتتهكم من أفعاله وتعرضه لفتيات فى مثل سن ابنته .

ومن اسف ان الذين ما زالوا يزاولون هذا الفن ، قد انزلقوا به الى لون من التهريج ، والتنكيت السمج ، والتقليد المجوج لبعض الممثلين والمطربين . ففقد وظيفته الأصلية ، وهبط الى ضرب من الابتذال والاسفاف ، فى وقت نحن احوج اليه لتوجيه الأفراد ، والتهكم من النماذج السيئة فى المجتمع .

***

لم يدرك الكسار متغيرات العصر ، ولم تدفعه الظروف ليطوف بفرقته وبفنه الشعبى على لابسى الجلاليب والطواقى فى مواطنهم ، وظل فى العاصمة يواجه مصيره المحتوم ، الى أن سرح باقى أعضاء فرقته ، وانضم الى المسرح الشعبى ، وهو الفرقة التى تكونت من ممثلى الفرق المنحلة .

وفى عام ١٩٥٢ طلبت الفرقة القومية من على الكسار أن يمثل مسرحية البخيل ، وكان هذا بمثابة اعتراف بعلى الكسار يتوج كفاحه الطويل من أجل الفن . ولكن الرجل سقط فى الكواليس فى ليلة الافتتاح ، ولعله اكتفى بهذا الاعتراف ، وهنىء به ، ولم يعد فى حاجة الى مزيد .

مسرح الظرفاء

اذا كان الريحاني ومن معه قد عجزوا عن ملاحقـــة الظروف الاجتماعية فى السنوات الاخيرة ، حتى تجمدت شخصياته وفقدت وظيفتها ، وخلت مسرحياته من دلالتها الاجتماعية ، فلأنهم كانوا من جيل سابق .

وكان على الجيل الجديد أن يلعب دوره .

كان على الجيل الجديد أن يحمل المشعل ، ويعمل على رفعة الكوميديا فنيا واجتماعيا ...

فيتخطى مرحة الاقتبـــاس والتمصير الى مرحلة التأليف .

ويتجـــاوز مشـــكلات العشرينات والثلاثينات الى مشكلات الخمسينات والستينات وما بعدها .

وقد قدمت له الظـــروف الاجتماعية فى مصر كل ما يحتاج اليه من عناصر لأداء هذا الدور .

فقد تحققت أخـــيرا ثورة ١٩٥٢ ، ومع نمو الثورة وتطورها ، ظهـــرت ملابسات ومشكلات جديدة فى المجتمع ، وظهرت نماذج وشخصيات جديدة حاولت أن تركب الموجة لصالحها .

فقد قضينا على الملك فظهر مئات الملوك الصغار .

وقضينا على سيطرة راس المال على الحكم ، فظهرت فئة استطاعت أن تسيطر على الحكم والمال معا من خلال الادارة والمناصب ، تمثلت فى بعض مديرى الأجهزة وسكرتيريهم ومديرى مكاتبهم ممن مارسوا الارهاب والتعذيب باسم أمن المواطنين .

وهى نماذج شخصية مريضة قد يكون وراءها دوافع من الفشل أو الضعف أو الحقد ، وهى نماذج كوميدية بحق كانت تستطيع أن تضحك طوب الأرض . ولنا أن نتصور شخصية انسان ضعيف ، قد يستكين لارهاب زوجة عصبية ، أو يركع باكيا تحت أقدام غانية من أجل ليلة حب ، أو يرتعد خوفا من رؤية ظله ، وهو يمارس جبروته على مواطنين ابرياء بحكم منصبه او أجهزته .

وقضينا على الفساد ، فظهرت فئة تركب كل موجة وكل اتجاه ، باسم الشعب وصالح الشعب .

وظهرت تناقضات اجتماعية ، وتعاظم نفوذ مراكز القوى ، واختل البناء الاجتماعي فى مصر نتيجة ظروف طارئة ، فظهرت فئات مستقلة ، وفئات اثرت من السفر الى الخارج ، وارتفع دخل اصحاب الحرف وانخفض دخل الموظفين والمثقفين ، وظهرت قوانين وظيفية قلبت احوال الناس ، فدنا المتعلم ، وارتفع نصف المتعلم ، واختلت دفة الادارة في المصالح والهيئات والادارات والجمعيات التعاونية ، كما اختلت بعض مرافق الدولة .

ووراء ذلك كله ملابسات اجتماعية ، ونماذج شخصية، تدعى العلم او الخبرة او الكفاءة وهى تتخبط وتهبط بأجهزتها الى الهاوية ، تمارس الفسق وهى تدعى الورع، ترتشى وهى تتحدث عن الأمانة ، تنافق وهى تزعم

الاخلاص .. وهى نماذج كوميدية جيدة تصلح لمن يريد أن يقدم كوميديا حقيقية .

وقد يتعلل البعض بأن أحدا لم يكن يستطيع أن يقول شيئا فى تلك الأيام ، وهى علة لا يقبلها منطق الفن ، لأن الفن ليس تعبيرا مباشرا عن الأحداث ، ولا هو اتهام لموقف معين أو لشخصية معينة ، وخاصة الكوميديا التى تعتمد على نماذج بشرية وملابسات عامة . وقد يستطيع كاتب ناجح أن يعبىء وجدان الشعب ضد الظلم . بمجرد أن يصور زوجة تثور على طغيان زوجها ، أو ابن يثور على قسوة أبيه ، أو موظف يتمرد على استبداد رئيسه . ويستطيع أن يكشف النفاق والزيف فى أى صورة وأى مستوى ، بحيث يضحك الطغاة المستبدين والمنافقين على انفسهم دون أن يدروا .

ومع ذلك فقد استمرت الأحداث . وقامت ثورة التصحيح ، وعملت على تحقيق الديمقراطية ، وقامت الاحزاب .. فرأينا من سبق لهم افساد الحياة السياسية فى مصر . يريدون ركوب الموجه من جديد ، ورأينا شخصيات ونماذج جديدة تهدم الديمقراطية باسم الديمقراطية ، وتخرب مؤسسات الشعب باسم الشعب ، وخضنا معركة السلام بين تناقضات جبهة الرفض ومفاهيمها المريضة .

كان ذلك كله أمام الجيل الجديد ، وهو جيل الثورة بحق لأنه نشأ مع نشأتها ، وكابد احداثها ، وعانى مشكلاتها .

كانت أمامه المشكلات الاجتماعية ، والنماذج الشخصية ، والمواقف ، والملابسات ، ومختلف الوان السلوك ..

فماذا فعل الجيل الجديد !؟

ادار ظهره لذلك كله ، وراح يجتر اعمال الريحانى ، فأعادوا بعض مسرحياته التى قدمهـــا فى العشرينيات والثلاثينيات .

هذا فى مجال المسرح الكوميدى المتخصص ، ولا نعنى بالطبع المسرحيات الجادة التى ظهرت أثنــاء ازدهار المسرح فى الستينات مثل مسرحيات توفيق الحكيم ، ونعمان عاشور ، وسعد الدين وهبة ، ورشاد رشدى .. الخ ، أو المسرحيات التى تناولت موضوعات هامة فى شكل يميل الى الكوميديا مثل عفاريت مصر الجديدة لعلى سالم ، وملك يبحث عن وظيفة لسمير سرحان .

ومع ذلك ، فقـد وهبنا الله فى هـذا الجيل الجديد مجموعة من الممثلين الظرفاء قلمـــا يوجدوا فى جيل واحد . ارتفعوا احيانا الى أعلى مستويات التمثيل ، وهبطوا أحيانا الى أدنى مســـتويات الظرف . وتقلب اداؤهم هذا من مسرحية لأخرى ، بل من مشهد لآخر فى نفس المسرحية ، بقدر ما تحمل من ظروف المجتمع ، ومشكلاته ونماذجه الاجتماعية .

انظر الى فؤاد المهندس ..

ممثل موهوب ، وظريف خفيف الظل ، أحب أن اراه سواء وهو يمثل او لا يمثل . ذلك انه يتمتع بحضور مسرحي يجذب الجماهير ، ولكن حينما تخلو المواقف من ملابساتها الاجتماعية ، ويفقد الحوار نموه الطبيعى، وتعتمـد المسرحية على نمـاذج بشرية مستهلكة ، فانه يضطر الى الاتيان بحركات بهلوانية تسىء الى موهبته والى فن الكوميديا والى الجماهير .

فى مسرحية (حالة حب) يجىء مع عبد المنعم مدبولى

تحت اقدام خطيب الممثلة ليصيحا معا « برىء يا بيه .. احنا الخنافس يابيه .. فسفس فسافس يا بيه » فما معنى ذلك ؟ ، وهل يحمل هذا المشهد أى معنى أو اى موقف مضحك على الاطلاق !؟ . ويعلمونه كيف يغـازل حبيبته فى نفس المسرحية وفى مسرحية السـكرتير الفنى ، فاذا به يتقدم ويتأخر ويتراقص فى حركات بلهاء . هل هذا هو أسلوب الغزل فى ستينيات هـذا القرن . وفى مسرحية (انا وهو وهى) التى تألق فيها وقدم شخصية عصرية ، يصعد فوق الاريكة ، ويركب فوق النمساوى بك ليلبسه الطربوش ، ثم ليخلع عنه الطربوش عدة مرات ، وهو يكبسه فوق عينيه مرة ، وفوق أذنيه مرة ، فهل يضحك هذا المشهد الا الأطفـال السذج !؟ وهل هذا النموذج البشرى الذى قدمه فى الفصلين الأول والثانى من مسرحية السـكرتير الفنى ، وهو يرتدى جاكتة مزرية و « بنطلون » قديم قصير حتى منتصف ساقيه ، على مؤخرته رقعتان كبيرتان ، ثم وهو يقفز بملابس المهرج هذه فوق الارائك والمقاعد فرحا بما ناله من أجر عن صفقته الخاسرة ... هل هذا النموذج له وجـود حقيقى فى الستينيات .. أو حتى فى التاريخ !؟

وليس مجالنا أن نناقش هذه المسرحية أو غيرها ، ولكننا فقط نتساءل : هل كان يوجد فى مصر حين ظهرت مسرحية السـكرتير الفنى مدرسة خاصة مصروفاتها ثلاثون قرشا فى الشهر !؟ وهل كان يوجد مدرس راتبه الشهرى مائتان وسبعون قرشا ولا يجد تلميذا واحـدا لاعطائه درسا خصوصيا ، وتصل به الفاقة الى هذا الحد المزرى فى ملابسه !؟

لو كنت مدرسا لقاضيت أصحاب هذه المسرحية مطالبا بالتعويض .

حينما ظهرت هذه المسرحية ، كانت الحياة الاجتماعية فى مصر قد تغيرت عنها وقت أن قدم الريحانى هذه المسرحية لأول مرة باسم « الجنيه المصرى » فقد تكدست المدارس بالتلاميذ ، وانخفض مستوى التعليم ، وارتفعت مصروفات المدارس الخاصة ارتفاعا فاحشا، وتفاقمت مشكلة الدروس الخصوصية وأثرى البعض من ورائها ، ولو أن الذين عالجوا هذه المسرحية كانوا ينتمون أقل انتماء للمجتمع المصرى ، لطوعوا مواقفها ونماذجها البشرية لتناول مشكلات العصر ، ولم تكن تحتاج منهم الا الى القليل ولكنهم كانوا فى واد والحياة فى مصر فى واد آخر .

ومع ذلك ، فهل هبط الريحانى الى مستوى مهرج السيرك وهو يقدم « الجنيه المصرى » !؟

تعالوا اذن نرى كيف أتاحت المواقف الاجتماعية المصرية ، والنماذج الكوميدية الجيدة لفؤاد المهندس نفسه أن يتألق فى فن التمثيل .

فى الفصل الثالث من مسرحية (السكرتير الفنى) يؤدى مشاهد لا زالت تحمل روح العصر ومشكلاته ، ويقدم نموذجا لرجل أعمال عصرى فى ظل ملابسات اجتماعية قائمة ، فيمثل ، ويجيد ، ويتألق ، ويضحكنا بحق دون بهلوانية ولا ملابس مزرية . وما يقال عن هذه المسرحية يقال عن مسرحية (أنا فين وانت فين) وهى مسرحية جيدة تعبر عن حب انسان طيب فقير لسيدة غنية . ويدرك أن الفوارق بينهما لن تصل بهذا الحب الى نهايته ، فينقذها من الأخطار التى تحدق بها ، ثم

يحمل حبه بين جوانحه ويرحل . ولكنه يلجأ فى بعض مشاهدها الى الملابس المزرية والمواقف الجوفاء .

وفى تصورى أن أروع أدوار فؤاد المهندس هو دوره فى مسرحية (سيدتى الجميلة) فقد كان لديه ما يقوله وما يفعله ، فلم يلجأ الى المشاهد المصطنعة ، والحوار الأجوف ، والحركات المبتذلة .

***

وما يقال عن فؤاد المهندس يقال عن غيره من أبناء مدرسة ساعة لقلبك . كما يقال عن محمد رضا وهو فنان معاصر لأبناء هذه المدرسة .

خذ مثلا محمد عوض ...

وحاول أن تتبعـــه فى أدواره فى مسرحيات جلفدان هانم ، وسفاح رغم أنفه ، والعبيط ، ومطرب العواطف . ونمرة ٢ يكسب .

لقد لعب محمد عوض فى (نمره ٢ يكسب) ثلاثة أدوار . دور ناصح النقاش . ودور وجدي الشاب الجاد (نمره ٢) ودور النشال .

وقد مارس فى الدور الأول كل الوان التبذل والبهلوانية من صراخ وحركات بلهاء وحوار أجوف ، باعتباره الدور الرئيسى الحقيقى فى المسرحية ، وهو النموذج الكوميدى الذى اصطنعه محمـد عوض لنفسه فى معظم أدواره . والتزم جانب الرزانة فى الدور الثانى باعتبار انه يتقمص شخصية مؤقتة غريبة على نموذجه الكوميدى . ومن عجب أن يجيد فى هذا الدور ويصبح أكثر اضـحاكا وأكثر احتراما لجمهوره ولفن الكوميديا .

ولعل هذا يثبت لمحمد عوض ولغيره ، أن الذى يضحك فى المسرحية ليس هو البهلوانية ، وانما النموذج المسرحى الجيد ، والتمثيل الجاد ، من خلال نص تتكفل احداثه ، ومواقفه ، ونماذجه بالاضحاك .

واذا كان نمره ٢ قد كسب فى المسرحية ، فانه للأسف لم يكسب فى حياة محمد عوض الكوميدية .

وهذا هو أمين الهنيدى ، فنان كبير لا شك ، استطاع فى (حلمك ياسى علام) أن يكشف عن بعض العيوب الاجتماعية التى تتمثل فى الدجل والشعوذة اللذين يمارسهما بعض المدعين . ولكن ماذا قال لجمهوره فى (غراميات عفيفى) وفى غيرها !؟ انه يضطر ان يبذل جهدا يفوق طاقة البشر ، ويصطنع صوتا غريبا ، وطريقة نطق غير مألوفة ، لاضحاك الجماهير ، لأن النصوص والنماذج الكوميدية التى يقدمها لا توفر له المناخ المناسب لابراز طاقته .

وها هو الفنان الكبير محمد رضا ، الذى تألق فى المفتش العام ، وقدم نموذجا كوميديا جيدا للمأمور المنافق المرتشي الذى يريد أن يخفى مفاسد جهازه الادارى عن السلطة ، فيقع بحمقه ضحية شاب مفلس . ها هو محمد رضا الذى أجاد فى نمرة ٢ يكسب ، يتقمص شخصية ابن البلد بصورة لا يبدو بها اى ابن بلد ، ويلجأ الى تهشيم الفاظ اللغة الدارجة بطريقة لا ينطق بها ابن بلد ولا اى كائن حى .

***

وقد عاصر ابناء مدرسة ساعة لقلبك كذلك الفنان أبو بكر عزت ، والفنان عبد المنعم ابراهيم .

وقد أتاحت بعض المسرحيات لأبى بكر عزت أن يكشف بعض عيوب المجتمع ويقول شيئا لجمهور المسرح مثل (المفتش العام ، وحركة ترقيات ، وسنة مع الشغل اللذيذ) ، واقتصرت بعض المسرحيات على ملابسات فارغة لمجرد الاضحاك مثل مسرحية الدبور . ولكنه فى كلتا الحالتين لم يلجأ الى ملابس مزرية أو حركات بهلوانية ، أو وسائل معينة فى النطق لاضحاك الجماهير .

أما الفنان عبد المنعم ابراهيم ، فقد التزم منهجا أكاديميا فى التمثيل الكوميدى ، فقدم عن طريق مسرح الدولة مسرحيات بعضها باللغة العربية الفصحى وبعضها باللغة العامية . ومع تقديرنا له كممثل كوميدى ، فان مسرح الدولة لم يستطع أن يكون منافسا حقيقيا للمسرح الكوميدى الخاص ، كما أن الكوميديا الأكاديمية لم تتح له شعبية جماهيرية تجعله منافسا لمجموعة الظرفاء ، وخاصة فى مجال المسرح .

وقد حجبت مجموعة الظرفاء كذلك ، مجموعة أخرى من ممثلى الكوميديا ، الممتازين، لم يستطيعوا أن يجاروهم فى حركاتهم المفتعلة ، واصطناعهم لطرق النطق المختلفة ، فاكتفوا رغم كفاءتهم الفنية بالأدوار الثانوية مثل عبد السلام محمد وحسن مصطفى واسامة عباس وحسن عابدين وغيرهم .

***

وقد يقال ما ذنب هؤلاء الظرفاء ولم يقدم لهم النص الجيد الذى تتجلى فيه مواهبهم فى فن التمثيل . فقد أجادوا حينما توفرت لهم مواقف جيدة ، واستظرفوا حينما لم تتوفر . وفى كلتا الحالتين أضحكوا الجماهير .

وهذا يتوقف على مفهوم النص الجيد لديهم ، ولقد تحدد مفهومهم للكوميديا منذ نشأتهم فى برنامج ساعة لقلبك . ولعلنا نذكر كيف كان هذا البرنامج يضحكنا بلا هدف اجتماعى . وانما عن طريق الاستظراف : فى النطق (حيجننونى) أو الاستعباط (رشاد) أو الفتونة (الفتوة) أو الفشر (الخواجة بيجو وأبى لمعة) .. الخ .

وقد توقف هذا البرنامج وكان لابد له ان يتوقف . فقد استنفد كل ألوان الاستظراف القائمة على التلاعب اللفظى والحوار الأجوف ، دون ان يؤدى أية وظيفة اجتماعية .

وعندما انتقلوا الى منصة المسرح ، بدأ معظمهم بتقليد الريحانى ، وكان للريحانى بحةفى صوته فحشرجوا أصواتهم . وكانت له لازمة معينة فى حركة يده وأصابعه تتفق وتكوينه الجسمانى ، فلوا أيديهم وأصابعهم ، وكان يقدم نموذجا كوميديا يتناسب مع الثلاثينيات . فقدموا نفس النموذج بعد أن شوهوه شكلا وموضوعا وبالغوا فى حركات الريحانى ، واستحدثوا حركات غيرها فاقت كل حد مألوف . وكان لابد أن تفصل لهم مشاهد تتيح لهم استخدام ذلك كله .

ولأنهم كانوا ظرفاء بحق ، فقد خلبوا الباب الجماهير ، فهم يذهبون الى المسرح ويدفعون ثمن التذكرة لمجرد مشاهدتهم حتى بدون نص وبدون تمثيل . فهيمنوا على الحركة المسرحية ، وتدخوا تدخلا مباشرا فى توجيه النص ليتضمن النماذج الكوميدية التى حذقوها ، والحركات التى ألفوها . ولم يعد يصلح لهم النص الذى يؤلفه مؤلف يفهم أصول الكوميديا ورسالتها ، فاستكتبوا نفرا ممن يتعلقون بأذيال الفن ، ويتعيشون فى مجاله ، ليفصلوا لهم

مشاهد على قدهم ، فأعادوا بعض مسرحيات الريحانى ، وحرفوا بعضها الآخر ، واقتبسوا بعض المسرحيات الغربية بعد أن أفرغوها من أى محتوى اجتماعى لتخلو لألوان الاستظراف التى حذقوها نطقا أو حركة أو اشارة .

وقد لجأ هؤلاء الكتاب الى المشاهد الجاهزة ينقلونها بتحريف بسيط ، ولم يجهدوا أنفسهم فى تطويرها أو تطويعها للحياة المصرية كما فعل الريحانى والذين كتبوا له من قبل . ولو كانت لديهم أدنى خبرة فى التأليف لصنعوا شيئا من برنامج الفشر الذى كان يقدمه الخواجة بيجو وأبو لمعة بما يحمله من متناقضات ، ولكن من سوء حظهما أن الذين كتبوا أو استكتبوا لم تكن لديهم مشاهد جاهزة عن هذا اللون الكوميدى يستطيعون أن يفصلوا منها بعض المسرحيات .

وتتمثل خطورة تفصيل المشاهد والمسرحيات فى أنها تحرم المؤلف من ابراز رؤياه الخاصة فى مشكلات عصره ، واختيار المواقف والنماذج الاجتماعية التى تعبر عن مضمون مسرحيته . ولا يقبل مؤلف يحترم نفسه وقلمه ومجتمعه ، أن يقتصر دوره على مجرد تفصيل مشاهد تناسب هذا أو ذاك من المستظرفين . كما أنها تحصر الممثل فى شخصية واحدة مهما تعددت أسماؤها وملابسها وصورها . ان الممثل طاقة ، تبرز أبعادها الفنية كلما تنوعت الشخصيات التى يتقمصها ، والتى يرسمها الكتاب مختلفون ، يتناول كل منهم فيها أبعادا انسانية ونفسية واجتماعية مختلفة ، فتتعدد أدوار الممثل ولا يكرر نفسه .

وقد تبلور مفهوم الكوميديا عند أبناء مدرسة (ساعة لقلبك) فيما أعلنه رائدهم عبد المنعم مدبولى فى نظريته عن الضحك للضحك ، رغم كل الشعارات التى أعلنهـا على مسرحه الخاص من أنه فكر ومتعة وفن .

وقد يكون للضحك فى حد ذاته وظيفة فى التسرية عن الانسان والتنفيس عن احزانه ، ولكنه لن يكون ضحكا حقيقيا ما لم ينشأ عن منبعه الأصيل .

ونظرية الضحك للضحك هذه دعوى غريبة تدل على عدم ادراك لمنشأ الضحك ووظيفته .

وعبد المنعم مدبولى فنان موهوب لا شك ، له قـدرة خارقة على الاضحاك تمثيـلا واخراجا ، تظهر بصماته بصورة مباشرة أو غير مباشرة على الكوميديا المصريه منذ نشاة ســاعة لقلبك وحتى الآن . وعودة سريعة لبعض ما قدم من مسرحيات ترينا بوضوح كيف ارتفع الى القمة فى تمثيل واخراج بعض المشـاهد ، وكيف هبط فى بعضها الآخر الى حد التهريج .

ومع حبنا وتقديرنا لأبناء مدرسة ساعة لقلبك ، فليس من وظيفتهم تحديد المسار الفـكرى والفنى للحركة المسرحية . لأنها ترتبط بالمسار الثقافى والفكرى والفنى لمصر ، وهى وظيفة المؤلفين والمفكرين والنقاد . ولو أنهم سايروا الحركة المسرحية ، ومثلوا مسرحيات لمؤلفين على وعى بمجتمعهم وبرسـالة الـكوميديا دون أن تفصل على قدهم ونماذجهم المستهلكة ، ولو أن استظرافهم لم يطغ على كل تأليف جيد ، ولو أنهم نظروا للأمام بدلا من ان ينظروا الى الخلف .. لاســتطاعوا بما منحهم الله من موهبة فى فن التمثيل وفى الظرف معا ، ان يفعلوا شيئا فى تاريخ الكوميديا المصرية .

فى مفترق الطرق

ليس فيما عرضنا نقدا أو تحليلا لمسرحيات كوميدية ، ولا هو تقييم لفرقة مسرحية معينة أو ممثل بعينه ، وانما قصدنا أن نبين أن الضحك والكوميديا منشأهما المجتمع والحياة . وأن الكوميديا كلمـــا استطاعت ان تتخير موضوعاتها ، ومواقفها ، ونماذجهـــا البشرية من واقع المجتمع فى نموه وتطـوره ، كلمـا اتاحت للممثل فرصه حقيقية للتمثيل ، واذا تخلت عن ذلك دفعت بالممثل الى استخدام نماذج بشرية مستهلكة تهوى الى البهلوانية والاستظراف .

وها نحن قد رأينا الممثل الواحد يرتفع الى قمة التمثيل، ويهبط الى هاوية الاستظراف فى المسرحية الواحـدة . واذا كانت أجيالنا الجديدة لم ترتفع فى الكوميديا الى مستوى ما قدمه الريحـانى ، فليس ذلك لأن الريحانى يفضلهم فى فن التمثيل الكوميدى . وانما لأنه استطاع فى بعض فترات عمله أن يرتبط بنمو المجتمع وتطوره .

وقد نجد من بين اجيالنا الجديدة من يفوق الريحانى فى فن التمثيل الكوميدى ، وفى خفة الظل . وقد سبق أن أوضحت اننا رزقنا فى هذا الجيل بمجموعة من ممثلى الكوميديا الموهوبين الذين قلمـــا يوجدون فى جيل

واحد : عبـد المنعم مدبولى (ناظر المدرسة) ، وفؤاد المهندس (الألفة المجد) ، وأمين الهنيدى ، ومحمد عوض، ومحمد رضـا ، وثلاثى أضواء المسرح ، وعادل امام ، وسعيد صالح ، ومحمد صبحى ... الخ .

ولكنهم فى معظم الأحيان لم يستطيعوا أن يضحكونا ضحكا حقيقيا .

ان الريحانى كان عظيما لأنه يكشف واقع الحياة ، فكنا نضحك من مشاكلنا ، ونسخر من آلامنا . وحينما تخير نموذج المدرس الفقير ، تخيره أقرب الى حياة ومتاعب المدرس الفقير فى عصره شكلا ومضمونا . لم يحاول أن يكون بهلوانا ، والذى تكفل باضحاكنا هو مواقف وملابسات اجتماعية . ومن اسف ان فؤاد المهندس حينما ادى هذا الدور ، اداه من خلال نموذج بشرى مفتعل ، ليس له نظير فى الحياة فى أى وقت من الأوقات ، ومن خـلال مواقف وملابسات قديمة الطابع لم يعد لها وجود حقيقى فى المجتمع المصرى ، فكنا أمام مدرس مهرج يحـاول اضحاكنا من خارجنا بشكل مفتعل .

هذا هو المعيار الذى نتناول به الموضوع . التزمناه عندما تحدثنا عن ابناء مدرسة ساعة لقلبك ، ولنلتزمه حينما نتحـدث عن فرقة ثلاثى أضـواء المسرح ، وفرقة تحية كاريوكا ، وعن عادل امام وسعيد صالح ومحمد صبحى .

***

وقد ظهرت فرقة ثلاثى أضواء المسرح عقب ابناء مدرسة ساعة لقلبك بقليل ، وعاصرتها .

ونسجل لها أنها تجنبت النماذج البشرية المستهلكة ،

كمـا تجنبت كثـيرا من المواقف والملابسات التقليدية . فقدمت شخصيات متنوعة ، ومواقف وملابسات كوميدية مختلفة .

بدأت هذه الفرقة بداية طيبة بتقديم مسرحية « طبيخ الملايكة » من اعداد على سالم . وهى مسرحية جيدة تريد أن تقول شيئا . فقد يخطىء الانسان تحت ضغط ظروف اجتماعية معينة . ولكن الانسان ليس مجرما دائما ، أو شريرا بطبعه . انه فى النهاية انسان يحمل قلبا بين جنبيه ، فيه قدر من الحب والخير ، واذا تيسرت له الظروف المناسبة أبرزت ما فى قلبه من حب وخير .

وهذا ما حدث للهاربين الثلاثة من السجن مع الأسرة التى اختفوا فى منزلها ، فقد تعاطفوا معها نتيجة الظلم الواقع عليها ، وحاولوا انقاذها من المـآزق التى وقعت فيها .

كما تبين المسرحية أن السجون لا تحوى كل المجرمين أو أكثرهم شرا ، فخارجها مجرمون يستغلون وينهبون دون أن تنالهم يد العدالة ، وقد انقذ الهاربون الأسرة من أحد هؤلاء .

ومع ذلك فقد انزلقت المسرحية الى مواقف لا مبرر لها لاستدرار الضحك ، مثل الموقف الذى مثلوا فيه دور الهواة يقصقصون رباط عنق أحـد الضيوف ويحطمون ساعته .

وأبناء هذا الثلاثى متناقضون ومتكاملون فى آن واحد . ولعل هذا هو السر فى قدرتهم على الاستمرار معا ، رغم رحيل رفيق الكفاح الضيف أحمد الذى كان يمثل البعد الانساني العميق لأبناء هذه المدرسة .

فسمير غانم فنان خفيف الظل والدم كثير الحركة (والتأميز) ، حركاته مستعدة للافلات منه دائما ، وجورج فنان كوميدى رزين . فهو بمثابة (الفرملة) لحركات سمير . ومن هنا كان تناقضهما سببا فى تكاملهما ، وفى أن عيارهما لم يفلت كثيرا نحو البهلوانية .

ولكن مدرسة الثلاثى ابتعدت عن المجتمع المصرى وحياته ومشكلاته ، فلجأت الى مسرحيات غربية منقولة بتحوير بسيط (فندق الأشغال الشاقة ـ جوليو وروميت ـ موسيكا فى الحى الشرقى) . ولا مانع بعد ذلك من عدة مشاهد ضاحكة قائمة على التلاعب اللفظى والحركى من خفيف الظل سمير ، ومن بعض الاستعراضات الحالمة مع الرقيقة صفاء أبو السعود ، أو بوسى .. الخ ، ولكنك لا تحس فيها بمصر ولا بشعب مصر .

فهذه المدرسة لم تجتر أعمالا كأعمال الريحانى أو غيره ، ولم تعش المجتمع المصرى فى حاضره أو مستقبله ، ولم تقدم نماذج بشرية أو مواقف وملابسات مصرية . فجاءت مسرحياتها من حيث تعبيرها عن المجتمع المصرى كالماء ليس لها لون ولا طعم ولا رائحة .

***

وذلك خلاف أبناء (مدرسة المشاغبين) الذين كانت رائحتهم تزكم الأنوف . فقد دفعت هذه المسرحية بمجموعة من أحب نجوم الكوميديا الموهوبين ، كان لبعضهم دور من قبل فى المجال الكوميدى ، وظهر بعضهم لأول مرة ، ولكن مدرسة المشاغبين دفعت بهم جميعا الي مرحلة النجومية التى تخلب الباب الجماهير ،

وتجذبهم الى دور المسرح جذبا .

وكل فنان من أبناء مدرسة المشاغبين هـذه له لون خاص ، ومذاق خاص .

فقد سبق لعادل امام ان أكد موهبته فى أكثر من عمل فنى ، ومع أنه قد اشتهر ببعض حركات وتعبيرات أصبحت من لوازمه ، الا انه قادر دائما على التلون وشد أنظار الجماهير . ولعلنـــا لا ننسى دوره فى شخصية سكرتير المحامى فى مسرحية (أنا وهو وهى) وهو دور يختلف تماما عن دوره فى شخصية المزاحم لفؤاد المهندس فى حب شـويكار فى مسرحية « حالة حب » .

أما سعيد صالح فقـد سبق أن أكد موهبتـه فى مسرحية (هاللو شلبى) مع رائد الكوميديا المعاصرة عبد المنعم مدبولى . وهى مسرحية تريد أن تبرز كفاح الفنان ليصل الى الجماهير ويؤدى رسالته الفنية رغم قلة الامكانيات المادية المتاحة والعقبات التى تواجه الفرق المسرحية الناشئة .

وأدى سـعيد صالح فى هـذه المسرحيـة نموذجا لشخصية اجتماعية ، هى شـخصية المؤلف البسيط الذى ينزح من قريته ليقـدم فنه لجماهير القاهرة ، فيتضح له أنه دونه والوصول الى الجماهير عقبات لم تكن تخطر له على بال .

ولعل عبد المنعم مدبولى أراد فى هذه المسرحية أن يثبت لكبار نجوم الكوميديا أنه عبد المنعم مدبولى ، وأنه قادر بمجموعة من الشبان الجدد أن يقـدم كوميديا ناجحة ، ولعله قـد أفلح ، ولولا نظريته فى الضحك للضحك التى دفعت به الى كثير من التهريج ، والحوار

لاجوف ، والحركات التى لا مبرر لها ، كانت ، [illegible]
شلبى) أفضل مما وصلت الينا . ولـكان دور سعيد
صالح من أفضل النماذج التى قدمت للجماهير .

وجاءت مدرسة المشاغبين ، فضيعت الطـــريق من
تحت أقدام هذين الموهوبين ، ولا أدرى من المسئول عن
وصول مدرسة المشاغبين الينا فى صـــورتها الأخيرة .
اهو مقتبسها على سالم الذى عهدناه مؤلفا مسئولا على
وعى بمجتمعه ، أم هو مخرجهـــــا الأكاديمى جلال
الشرقاوى صاحب المآثر السابقة فى المجال الدرامى ،
أم هم الممثلون أنفسهم الذين طغى استظرافهم على النص
فجرفوا أمامهم كل شىء .

واذا كانت وظيفة الـكوميديا أن تسخر وتتهكم من
المثل السيىء فى المجتمع ، عقـوبة له من جهة ، وابرازا
للمثل الأعلى من جهـــة أخرى ، فقد هزأت مدرسة
المشـــــاغبين بالمثل الأعلى ، وقلبت كل القيم النبيلة
المتعارف عليها فى المجتمع . وذلك بأن جعلتنـا نضحك
بالمقلوب . فوضعت الصغار فى مواقع الـكبار والكبار
فى مواقع الصغار ، وجعلت التلاميذ والأبناء المشاغبين
فى موضع التسلط والوصــــــاية على الأب والناظر
والمعـلمة ، يستخدمون فى مخاطبتهم ألفاظ التصغير
والتسفية ، ويمارسون عليهم وسائل التهديد والارهاب،
ويضعونهم فى مواقف السخرية والتحقير .

ولقد ضحكنا ، ولكن ضحك الذين يقهقهون لمجـرد
تصور انسان يسير بقدميه على السقف وجسده مدلى
فى الهواء ، فقد حشدوا لنا كلّ الألفاظ والعبـارات
والمواقف المقلوبة التى لا تسرى الا بين المخـــدرين
والمخمورين .

[illegible] المشاغبين انفسهم فى
هذا الموقف ، فتجعل النماذج الصالحة متمثلة فى الآب والناظر والمعلمة هى التى تسخر منهم وتتهكم عليهم . وتقضى على هذه الأصنام المنحرفة .

وهو تغيير بديهى كان لابد أن يجرى على القصة المقتبسة لتلائم المعالجة الكوميدية ، لأن الأصل الدرامى حاول أن يتغلغل الى الأبعاد النفسية للمنحرفين ، ويحيط بالظروف الاجتماعية التى تكتنفهم ، ولم يضع الناظر والمدرس فى موضع التحقير أبدا ، وحينما استطاع مدرسهم أن يردهم الى قيم المجتمع ، فانما كان ذلك نتيجة قيم تربوية وانسانية .

ولو كان الآب فى مدرسة المشاغبين غير قائم بواجباته، أو كان الناظر مستبدا بتلاميذه لصالح شخصى أو مرض نفسى ، أو كانت المعلمة جهولا مدعية ، وكان التلاميذ غيورين على مصلحتهم ومستقبلهم ، لقلنا ان المسرحية تعمل على تحقير نماذج اجتماعية شاذة لا يجب أن توجد فى مجتمعنا ، ولكان التلاميذ يسخرون ويتهكمون من أجل مثلٍ أعلى مفقود . ولكان ذلك ادعى بالمسرحية أن تتناول بعض القيم التربوية والتعليمية فى مجتمعنا .

والقول بأن المشاغبين قد عادوا فى نهاية المسرحية الى جادة الصواب ، لا يعفى المسرحية من انها حطمت مثلنا العليا ، وتطاولت على القيم التربوية فى مجتمعنا دون أن تقدم مبررا لانحرافهم وتطاولهم ورفضهم للعلم ، ولم تكن عودتهم نتيجة قيم انسانية وتربوية بقدر ما كانت نتيجة حبهم لمعلمة من الجنس الآخر .

وقد اعتزل عادل امام المشـــاغبة وواصل المشاغبون تقاليدهم فى مسرحية (العيال كبرت) .

ومع أن هذه المسرحية تقوم على فكرة تصلح لكوميديا جيدة ، وهى دور الأبناء فى تقويم الأسرة ولم شملها ، الا انها سارت على نهج مدرسة المشاغبين فى الضحك المقلوب من حيث قلب المواقف والقيم وجعل الابناء فى موضع الوصاية على والديهم يسخرون منهم ويحقرونهم بألفاظ وعبـــارات يستحى الآباء من استخدامها مع أبنائهم ، وبتقديم نماذج منحرفة للأبناء دون آية مبررات اجتماعية .

فالبنت .. تريد أن تعمل راقصة فى الكباريهات رغم يسر أسرتها المادى ، والابن الأكبر فاشل فى دراسته يشجعها على ذلك ليعيش من كدها . والأبن الثالث أبله لا يدرى ماذا يريد ولا ماذا يفعل ، مما أفقد يونس شلبى هويته فى هذا الدور حتى كمشاغب ســاذج . والأبن الوحيد الذى وصل الى الجامعة مختل التفكير ، يريد وهو طالب أن يتزوج من ارملة لديها اربعة أبناء . وهى جميعا نماذج مختلة منحرفة فى حاجة لمن يقـومها أكثر مما هى قادرة على تقويم الوالدين .

هكذا واصلت المسرحية نفس اســلوب مدرسة المشاغبين . واعتمدت على نفس المؤثرات التى ضحك منها الجمهور من قبل ، وكأن المسرحية ليس وراءها مخرج وانما تسير بقوة الدفع الذاتى استمرارا لأدوار الممثلين الســـابقين ، فجاءت صدى خافتا لمدرسة المشاغبين .

وان دلت مسرحية العيال كبرت على شىء ، فانما على أن عيال الكوميديا فى مصر لم يكبروا بعد .

اعتزل عادل امام المشاغبة فى مسرحية (شاهد ما شافش حاجة) وهى مسرحية تقوم على تناقض ظريف لانسان طيب ساذج وجد نفسه فجأة مثار تحقيق كشاهد فى جريمة مقتل راقصة لم ير أو يعرف عنها شيئا . وتمارس معه وسائل التحقيق الملتوية أحيانا والمتشددة أحيانا فى محاولة لاستخلاص الأدلة بأية صورة ، ولعلها بعض وسائل القهر التى كانت سائدة فى ظل ظروف سياسية معينة . وعمدت المسرحية فى الفصل الثانى أثناء استجواب عادل امام أمام المحكمة واستخدام سذاجته الفكاهية فى تصور الأمور ، الى الخلط بين شخصيات هامة من رجال الدولة وبعض رجال المحكمة ، وكأن ذلك فى تصوره يعطى المسرحية قيمة اجتماعية . ولو أن النص عمد صراحة الى ايضاح الملابسات الاجتماعية لظروف القهر السياسى التى كانت قائمة ، فوجد البطل نفسه غارقا فيها ، لأدى ذلك الى تكثيف الأحداث ، والى تكثيف كمية الضحك ، ولأعفى المسرحية من بعض المشاهد الدخيلة والاطالة التى لا مبرر لها ، كالمشهد المطول لبكاء عادل امام فى السينما أثناء مشاهدة أحد الأفلام ، وحضور المدير .. والاسعاف .. والمطافى .. والمحافظ .. الخ ليتضح فى النهاية أن بكاءه كان بسبب ضيق حذائه . وهو مشهد مشابه لما كان يحكيه فى مدرسة المشاغبين عن تناول الطعام مع فتاته أو معلمته ومحاولة كل منهما أن يخطف الخبز أو السلاطة قبل الآخر ، وعن تناول (الشوربة) بصوت مسموع ، وتساقطها على قميصه وبنطلونه وجوربه .. الخ .

وعلى أية حال ، فان شاهد ما شافش حاجة توضح تماما أن عادل امام يستطيع أن يفعل شيئا فى الكوميديا

المصرية لو انه وجد ما يقـوله وما يفعله . وقد وجد شيئا من ذلك فى المسلسل التليفـــزيونى (ابراهيم الطائر) وفى الفيلم السينمائى (المحفظة معايا) وهى كوميديا تمس بدرجة أو بأخرى شيئا من واقع المجتمع المصرى .. ومهما يكن نجاح عادل امام فى أيهما ، فان الموطن الحقيقى لممثل الكوميديا هو خشبة المسرح .

وملاحظة صغيرة أبسطها أمام كل فنان يحصر نفسه فى دور واحد اكثر من خمس سنوات كما فعل عادل امام فى شاهد ما شافش حاجة . حرام ان يسجن الفنان موهبته وطاقته طوال مثل هذه المدة فى دور واحد . وليس مبررا أن المسرحية تلقى اقبـــالا من الجماهير ، وتحقق ربحا ، فان أية مسرحية جـديده جيدة يقدمها فنان ناجح كفيلة بأن تحقق نفس الربح وأكثر . وتقدم فى نفس الوقت للجمـــاهير واقعا اجتماعيا جديدا ونماذج كوميـــدية جديدة . وليس ما يمنع أن توضع المسرحيات السابقة فى ريبورتوار الفرقة ليعاد عرضها بين حين وآخر اذا كانت ما زالت تلقى اقبالا من الجماهير .

***

وأخيرا نتناول نجم آخر من غير هذه المدارس ، له شخصية متميزة شاهدناها فى (كومبارس الموسم) مخرجا عصبيا ، وفى (هاللو شلبى) طبيبا عصبيا كذلك ، طفر فجأة الى القمة هو الفنان محمد صبحى .

ومن عجب أن يصل محمـــــد صبحى عن طـريق (سطوحى) الى مرحلة النجـومية ، وهو فنان واع مثقف ثقافة منهجية ، يعرف قبل غيره ان الضحك من البلهاء وأصحاب العاهات فى الكوميديا هو احط أنواع

الضحك ، يختلف الأمر فى ذلك عنه فى الدراما . ذلك أن تصور الأبله أو صاحب العاهة فى الدراما يحتاج الى التغلغل فى أعماق نفسه ، وابراز أبعاده النفسية والانسانية ، وهو الدور الذى أداه محمد صبحى نفسه فى فيلم (أين المفر) بمقدرة فائقة .

أما فى مسرحية (انتهى الدرس يا غبى) فقد لجأ الى التأتأة والثأثأة والاستغباء والسباب ، والتلاعب بالألفاظ ، وهم يعلمونه كيف يأكل وكيف يتكلم وكيف يقرأ فى مشاهد تستغرق أكثر من نصف المسرحية ، وكأنه بذلك (سيدى الجميل) بدلا من (سيدتى الجميلة) ، مع فارق وحد هو أن « سطوحى » أبله يلجأ الى تكسير الصحون والتراشق بالتورتة ، وهى حيل استهلكها لوريل وهاردي منذ أكثر من خمسين سنة . ولا جناح عليه أن يهرج أو يتبذل أو يفعل أى شىء بأية وسيلة ، فهو فى النهاية أبله وليس على الأبله حرج .

ولكنه حينما يتحرر من قناع البله الزائف الذى استخفى وراءه ، ويصل الى المشهد الأخير الذى يحمل دلالة المسرحية الاجتماعية ، نجده يقف على خشبة المسرح ممثلا حقيقيا ليلقى الدرس الأخير ، فيبدع ويتألق ، كما أبدع وتألق فى المسلسل التليفزيونى فرصة العمر فى دور (على بك مظهر) .

فقد استطاع فى المسلسل التليفزيونى أن يظهر الأبعاد النفسية والانسانية والاجتماعية لعاشق المظاهر . وأن يوضح من خلال ملابسات اجتماعية منطقية أثر هذا السلوك على المحيطين به ، فكان ممثلا كوميديا بحق ، ولكنه حينما أدى نفس الدور على خشبة المسرح ، أفرغه من محتواه النفسى والاجتماعى

والانسانى . وافرغ المواقف الاجتماعية من دلالتهـا ، فهبط بالدور الى مستوى مهرج السيرك الذى لا هم له الا تكسير التليفزيون والتليفون وكل ما تقع عليه يداه ، والقفز على خشبة المسرح على طريقة الكنغر الاسترالى ولم يقتنف فى مجال الزراية بالملبس اثر فؤاد المهندس فى الملابس الضيقــة القصـــيرة ذات الرقعتين على المؤخرتين ، ولكنه أصر أن يتلف ويبتكر فعمد الى الملابس الواسعة الطويلة التى يقص بنطلونها وأكمـــام سترتها لتناسب طوله ، مما يتنافى مع طبيعة عاشق المظـاهر كمدع يجيد التأنق فى الحـديث والمظهـر والملبس .

وهكذا افقد المسرحية قيمتها الأدبية والفنية وأثرها فى ادانة حب المظاهر .

ولعل محمد صبحى قد شـــعر بالذنب بعد دور سطوحى ، فعـــاد يثبت جدارته الفنية فى مسرحية (هاملت) ، ومهما كان نجاحه فى هذا الدور ، فان هاملت مسرحية كلاسيكية لاتستطيع أن تشـد جماهير المسرح العريضة .

***

ولقد نشأ فى وسط هذا الزحام مسرح مكافح ، ربما يملك من الوعى بفن الـكوميديا أكثر ممـــا يملك من الامكانيات والطاقات ، هو مسرح الفنانة تحية كاريوكا ، التى كان لجهدها وفنهـــا الأثر الأكبر فى قيام هـــذا المسرح .

ومع أننى أفضل ان تطلق على المسارح اسماء عامة مثل مسرح الفن أو المسرح الكوميدى او المسرح الجديد، حتى لا يرتبط باسم فنـــــان معين ينتهى و يتعثر بانتهائه . وانما يظل مدرسة لتخريج أجيال من فنـانى المسرح .

الا أنها وجهة نظر على أية حال .

وقد بدأ هذا المسرح محاولا ان يقول شيئا عن مصر وعن مشكلات المجتمع المصرى ، ولعله اراد ان يصفى حسابه أولا مع الوسط الثقافى والفنى فقدم (روبابيكيا) كاشفا بعض مظاهر الفساد فى هذا الوسط ، وهى قضية خطيرة ان مست فى تناولها المباشر وسط المؤلفين والفنانين ، فهى تمس فى النهاية جمهور مصر كله لأنه هو الذى يتلقى نتاج هؤلاء المؤلفين .

ويتعرض هذا المسرح لمشكلة من أخطر مشكلات مصر هى مشكلة الاسكان . حيث يسخر ويتهكم بشكل كوميدى ضاحك من بعض مظاهر التلاعب التى يمارسها الملاك الجشعون مع المستأجر الغزل (حضرة صاحب العمارة) .

ولا تكاد تخلو مسرحية من المسرحيات التى قدمها هذا المسرح من قضية اجتماعية عامة تمس الجماهير .. (البغل فى الابريق .. يحيا الوفد) .. الخ ، وان كان قد جنح فى يحيا الوفد الى السياسة المباشرة التى قد تفسد الفن فى كثير من الأحيان .

ورغم النجاح النسبى الذى حققه هذا المسرح ، فانه لم يستطع أن يواصل رسالته ، ولم يستطع أن يحقق مناخا فنيا يتيح له النمو والتطور والمنافسة .

ولعل ذلك يرجع لأمور بعضها خاص وبعضها فنى وبعضها لقلة الامكانيات .

فقد اعتمد هذا المسرح على فارس وحيد هو فايز حلاوة . ومع أن فايز حلاوة كان العامل الأساسى فى

وعى هذا المسرح واتجاهه الفنى ، الا أنه وزع موهبته بين التأليف والاخراج والتمثيل والاشراف ، فلم يتح له أن يعطى كلا منها حقه كاملا . فجاءت بعض المشاهد وبعض المسرحيات مسطحة فى حاجة الى مزيد من العمق فى التناول ، والاهتمام فى المعالجة ، والتخلى عن بعض المواقف المطولة القائمة على التراشق بحوار فكاهى لا مبرر له .

كما لم يكن لهذا المسرح صفة الثبات والاستمرار . فهو يجمع فرقة معينة لأداء مسرحية معينة . ثم ينفض معظم أعضائها ، لحين اعداد مسرحية جديدة قد تقدم فى نفس المواسم ، أو بعده بمواسم ، بنفس الأعضاء او بغيرهم .

وهذا أسلوب قد يصلح لمسارح الظرفاء ، لأن الجمهور يتتبعهم فى اى وقت وفى اى مسرح . فلا يكاد يحس أنهم ظهروا من جديد حتى يتدفق عليهم .

أما المسارح الكوميدية الجادة ، فهى تحتاج الى ريبورتوار ثابت مستمر لتربية أذواق الجماهير وربطهم بمشكلات العصر دون انقطاع . ومع أن مثل هذه المسارح لا تستطيع تحقيق أرباح كتلك التى تحققها مسارح الظرفاء خاصة فى ظروف تخلف التذوق الكوميدى ، فان صفة الدوام والثبات مع رقى مستوى العروض وربط الجماهير بواقعهم كفيل باستدراج جمهور جديد يعينها على مواصلة رسالتها .

ومع أن مسرح تحية كاريوكا كان قد حقق شيئا من النجاح النسبى فى هذا الطريق . الا أنه للأسف الشديد لم يقدم لنا شيئا منذ وقت بعيد . ولعل السبب فى

ذلك يرجع الى قلة الامكانيات المادية ، أو الى أن فايز حلاوة اثبت جدارته الفنية تاليفا واخراجا وتمثيلا بما لا يدع مجالا للشك ، ولم يعد فى حاجة الى مزيد .

ولو ان هذا المسرح بما يملك من وعى كوميدى ، قد نشأ كمدرسة فنية للمؤلفين والمخرجين والممثلين ، لتعددت الطاقات ، وتنوعت الرؤى الفنية ، ولاتيح الوقت الكافى لها للتعمق وبذل الجهد ، ولكان له شأن آخر .

***

ان الجيل الأخير من الكوميديين الشبان الظرفاء ما زال أمامه وقت للعطاء ، وهو الآن فى مفترق الطريق ،

فهو يملك الموهبة ويملك الطاقة ، لكنه ما زال يتأرجح بين التمثيل والظرف . وعليه أن يتسلح بالوعى الكوميدى ، فينتمى أبطاله حقيقة الى المجتمع المصرى ويقدمون له واقعه وحياته . ومستقبلهم الكوميدى نفسه مرهون بذلك . فالظريف قد يطغى عليه ظريف آخر . ولكن الممثل الذى يقدم حياة الجماهير يظل مرتبطا بالجماهير . واذا غلب عليهم الظرف والاستظراف فلن يرحمهم التطور ، وسيتمخض مجتمع مصر الناهض عن جيل جديد من الكوميديين يسحب السجادة من تحت اقدامهم .

ذلك أن الحياة المصرية الأصيلة لن تتوقف عندهم .

المؤلف المصرى المفترى عليه

مسكين هو المؤلف المصرى .

لا أعرف مؤلفا يستهان به وبانتاجه كما يستهان بالمؤلف المصرى .

ولا أعرف مؤلفا يكال له من الاتهامات كما يكال للمؤلف المصرى .

ولا أعرف مؤلفا يقع عليه من الظلم ما يقع على المؤلف المصرى .

***

واحب قبل ان نتعرض لبعض ما يلاقيه المؤلف المصرى من صعاب ، أن أوضح أن النص هو الأساس فى كل عمل فنى ، لأنه يحمل الفكر والواقع الاجتماعى والنماذج الشخصية وانماط السلوك . ومهما يقال عن مسرح الممثل أو مسرح المخرج ، فما ذلك كله الا وسائل فنية تغلب بدرجة أو بأخرى عند ابراز العناصر التى يتضمنها النص ، فالمخرج هو مترجم النص الى المشاهدين ، والممثلون هم أدواته .

والنص وراءه مؤلف .

ولم تكن الصعاب التى تواجه المؤلف المصرى فى

الحقبة الأخيرة معروفة من قبل ، عندما كان النشر مقصــورا على الـــكتب والصحف والمجـــلات الأدبية المتخصصة . وقبل توسع الاذاعة فى تقــديم الاعمال الدرامية ، وتضخم صناعة السينما ، وانتشار مسارح القطاعين العام والخاص ، وظهور التليفزيون .

***

يستهان بانتاجه قبل أن يرى النور ، خاصة اذا لم يكن له حظ من الشـــــهرة او النفوذ يتيح له فرص انتاجه .

وأول ما يجابهه مثل هذا المؤلف ، هو فئة جديدة من مزاولى الأدب والفن ، نســـتطيع أن نطلق عليهم موظفى الأدب والفن ، وهى فئة أتاحت ظروف النقل أو التعيين أو الانتداب أو توزيع القوى العاملة لأفرادها أن يشغلوا مناصب ادارية مرتبطة بالثقـــافة والفن ، فزاولوا بعض اعمال التأليف ، واحتكروا لأنفسهم حق تقييم النصوص واجازتها ، وراحوا يطبقون عليها بعض القواعد والمقاييس التقليدية المحفوظة التى تحجب معظم الأعمال الجيدة عن الظهور .

ثم يجابه مثل هذا المؤلف بمن أطلق عليهم مجموعات « الشلل » فى المؤسسات المختلفة ممن يتولون اعــداد الميزانيات وتوزيعها فيما بينهم فيما يؤلفونه أو يقتبسونه من أعمال لا ترقى الى مستوى الفن الرفيع .. ولا تصبح لهم بعد ذلك حاجة لتشجيع أى تأليف من اى مستوى ، أو الى ظهور أجيال جديدة من المثقفين والمؤلفين ... فأى أعمال غير أعمـــالهم لا تصلح .. وان جاز وصلح بعضها لاعتبارات فنية أقوى منهم .. فمصيرها أدراج المكاتب الى أجل غير مسمى .

أيكون هذا مصير انتـــاج بذل فيه مؤلفه كثير من الوقت والجهد والعرق !؟

سمعت محاضرة لأحد المحاضرين الألمان منذ حوالى عشرين سنة قال فيهـا ان التليفزيون الالمانى لا يترك فكرة وموضوعا أو قصة يتقدم بها أى انسان ، وتحمل قيمة أدبية أو اجتماعية او انسانية الا وحاول الاستفادة منهـــا ، وذلك بأن يعهـد بالفـــكرة أو الموضـــــوع الى احد القصاصين لصياغتها فى قصة ، وبانقصة الى أحد خبراء الدراما لصياغتها فى سيناريو . وهنـــاك خبراء فى الاجتماع والتاريخ والعـــلوم لتقويم العمل الفنى من هذه النواحى .

والمؤلف المصرى مطلوب منه أن يقدم القصة كاملة ، ويتولى كتابة السيناريو والحوار فى معظم الأحوال ، وهو مسئول عن نصه من الناحية الاجتماعية والتاريخية والعلمية .. ثم يقال له بمنتهى البساطة .. لا تصلح .

وقد يكون تصورهم فى عدم صلاحية النص لاختلاف فى الرأى ، أو اختلاف فى المفـاهيم الفنية ، وفى اسوأ الأحوال يكون نتيجة خلل فى التناول الاجتماعى أو المعالجة الفنية ما أبسط أن يعهد به الى متخصص يقوم بناءه . ولكن ما أسهل أن نحكم عليه بالموت ونهدر جهـــد وعرق مؤلفينا ، وندفنهم بالحياة .

فاذا ما اتجه الى القطاع الخاص ، وجد نفسه أمام مؤسسات تجارية لا يهمها من الفن الا ما يدره من كسب مادى حتى لو كان على حساب الفن والجماهير واذواق الجماهير وهو اما أن يجاريهـــا فيما تقدمه من عبث اذا استطاع الهبوط بفكره وفنه الى مستواها ، واما ان يحترم نفسه وينتظر .

وفى كلتا الحالتين عليـــــه أن ينتظر الى أجل غير مسمى .

والا .. فكيف نفسر عدم ظهور جيل لاحق لكتابنا الكبار ، جيل على مستوى العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ واحسان عبد القدوس ويوسف السباعى ويوسف ادريس .. الخ . جيـــل يؤدى دوره فى الحركة الثقافية والفنية المعاصرة بنفس القدر الذى أدى به هـــؤلاء أدوارهم ، أو حتى أقـــل من هــــذا القدر !!

هل اجدبت مصر من المواهب !!

مصر .. الأرض الطيبة الخصبة .. ذات الحضارة العريقة .. التى أنجبت من انجبت من رجال الفـــكر والفن والاقتصاد والحرب .

مصر التى حققت نصر أكتوبر العظيم .

هل كانت قاصرة عن انجاب الجيل الجديد !!

***

ويقع عليه كثير من الظلم الأدبى والمادى .

لاحظ جميع وسائل الاعلام .. صحافة .. اذاعة .. تليفزيون .

عندما تعلن عن البرامج الفنية والتمثيلية ، لا تجد لاسم المؤلف ذكرا . فتظهر البرامج فى الصحيفة ، أو تظهر المذيعة معلنة عن تمثيلية كذا أو فيلم أو مسرحية كذا .. من تمثيل فلانة وفلان واخراج فلان .. وكأن الناس سترى ممثلين فى غير نص له مؤلف ، من حقه ان يذكر قبل هؤلاء جميعـــا ، وبدونه لا يعمل هؤلاء

جميعا ، بل لا تجد المذيعة نفسها ما تعلن عنه .

لاحظ اعلانات الأفلام والمسرحيات .

تجد اسم المؤلف فى حاجة الى ميكروسكوب للبحث عنه ، واسم المخرج ـ فضلا عن أسماء الممثلين ـ يصفع عينيك بحجم أكبر من أن تتسع له الرؤية ، ولا غرو فهو سيد الموقف فى هذه المؤسسة أو تلك ، وهو الذى يختار النص ، ولابد أن تضيع التقاليد الأدبية بين من يملك من موظفى الفن ، ومن لا يملك .

واذا هان ذلك على المؤلف .

فان ما يقع عليه من ظلم مادى يحرمه العيش الكريم ، ويعوقه عن التفرغ للانتاج الجاد الجيد .. لا يهون .

وتعالوا نتساءل ...

هل حصل أحد ممن ذكرنا من كبار كتابنا ، ممن كان لهم فضل الريادة والكشف وكافحوا لخلق نهضة ثقافية وفنية فى مصر والعالم العربى ، وغيروا ووضعوا كثيرا من المفاهيم فى القصة والنقد والفن ، وبلغوا القمة خبرة وشهرة وذيوعا .

هل حصل واحد من هؤلاء عن كل ما ألف من كتب على نصف ما يحصل عليه كاتب غربى من كتاب واحد !؟

وما لنا نعقد مقارنة بين مؤلفينا ومؤلفين من الغرب قد يقال أن لهم كثرة من القراء ، ووفرة من الدخل !؟

هل حصل واحد من كتابنا الـــكبار هؤلاء ، على ما تحصل عليه ممثلة الدور الأول أو ممثل الدور الأول فى احدى قصصه !!

واذا كان هذا هو الحـال مع كتابنا الكبار ، فكيف

يكون الحال مع كتاب الأجيال اللاحقة الذين ليس لهم مثل حظهم من الشيوع والنفوذ !؟

ما يكاد أحدهم يفلت بنص من براثن الصعاب التى يواجهها ، حتى ينهب نهبا . ولا ينال من وراء عمله الا القليل .

وقد يقال أن الفن عطاء .

وهذه حقيقة تصافح كل مؤلف عند بداية هوايته للتأليف ، فهو ينفق أكثر من نصف عمره فى التحصيل واستكمال أدوات فنه ، وهو ينفق باقى عمره فى التأليف ومحاولة نشر ما يكتب . وهو لا ينتظر بعد هذا وذاك سوى حيـــاة ميسورة وعيش كريم يوفران له الفرصة للابداع .

وقد يهون الأمر على المؤلف أن تكون ظروف الانتاج فى مصر غير قادرة على مكافأته مكافأة مجزية ، كما هو الحال فى تأليف الكتب التى لا تدر دخلا مناسبا لعـدم وفرة القراء .

ولكن ما هو الحال فى السينما والاذاعة والتليفزيون !؟

أليس مما يحـــز فى النفس أن يرى المؤلف كل من يتعاملون فى مؤلفه ابتداء من المنتج حتى الموزع ، يكسبون منه ، بل ويثرون من ورائه ، ولا ينـــــال هو الا أقل القليل .

وهل يغيب عنا ما يحـــدث الآن فيما يسمى بالانتاج الخاص ، لقد هبط علينا كل من هب ودب من مصر أو من العالم العـــربى ممن لهم أو ممن ليست لهم علاقة بالفن ، ممن يملكون مالا و يقترضـــونه من المؤسسات المصرية ، بغيتهم الاثراء السريع على حســـاب مؤلفى

مصر ، وممثلى مصر ، فيشترون نتاج مؤلفينا بثمن بخس ، ثم ينتجونه فى مصر ، أو فى خارجها ، ويثرون من توزيعه فى جميع البـــلاد العربية دون أن يكون للمؤلف حق الأداء العلنى فى هذه البلاد أو حتى داخل بلده .

وهل يلام هؤلاء ومؤسساتنا نفسها لا تقدر المؤلف المصرى حق قدره . فلا مكافأة مجزية ، ولا حق أداء علنى ، ولا نصيب فيما تربحه من توزيع عمله فى مختلف البلدان العربية ، أو نقله من وسيلة عرض الى وسيلة أخرى ، كنقل الفيـــلم أو المسرحية عن طـريق التليفزيون .

سمعت ان مؤلف احدى المسرحيات التى ظلت تعرض سنوات متتالية ، وحققت أرباحا طائلة . ذهب الى الجهة المنتجـة يطالب بنصيبه فى المبلغ الـكبير الذى دفعـه التليفزيون نظير عرض المسرحية وتسويقها فى البـــلاد العربية ، فقيل له : لا حق لك عنـــدنا ، فقد بعتنا المسرحية نظير ثمن معلوم ، وأصبح من حقنا استغلالها كما نشاء .

ولم يكن الثمن الذى تقاضاه يتجاوز بضع مئات من الجنيهات . فاضطر الى رفع الأمر الى القضاء .

وسواء صحت الرواية أم لم تصح ، وسواء وجد له القضاء مخرجا فى القانون ينصفه أم لم يجد .

علينا ان نتساءل : كيف يكون شعور المؤلف حينما يجد أن كل من تعامل فى مؤلفه من قريب أو بعيد قد ربح أو تقاضى أكثر مما تقاضى هو نفسه !؟ فضلا عن المنتج والممثلين الذين يعتبر دخلهم بالنسبة لدخله شيئا رهيبا .

ويكثر الحديث عن هبوط مستوى معظم الأعمال الفنية الى حد استخدام الكاريكاتير اللاذع ، وسخرية الكتاب الساخرين ، عن وقاية المشاهدين من تمثيليات ومسلسلات التليفزيون والاذاعة .

وعن تعطل المسارح معظم المواسم المسرحية .

وهو حديث يمس المؤلف في المقام الأول ، لأن نصه هو أساس كل عمل فنى ، وأعنى المؤلف الجاد الذى يرتفع بمستوى فنه فكريا واجتماعيا وفنيا ، وليست هذه الفئة التى تتعيش فى مجال الفن فتقبل أى أجر لتكتب أى شىء .

وتكال الاتهامات للمؤلف .

لا توجد نصوص ..

الكتاب الكبار ينصرفون عن المسرح والتليفزيون .

لا يوجد المؤلف الكوميدى ..

وهو آخر هذه المبررات التى يبررون بها أعمالهم الهابطة التى يحصلون على نصوصها من كل من يستطيع ان يجمع بعض شتات المشاهد أو الأحداث من أعمال مصرية قديمة أو أعمال اجنبية ، ليست لها اية علاقة بالواقع المصرى الحديث .

وكانهم يريدون بالمؤلف الجاد ، رغم ما يتعرض له من تعقيدات موظفى الفن ، وتعويقه عن الانتاج الجيد ، وهضم حقوقه الأدبية والمادية والاثراء من وراء مؤلفاته ، أن ينصرف عن كل ما يوفر له لقمة العيش من أعمال أخرى فى الصحافة أو الوظيفة ، ويتفرغ لتاليف أعمال جيدة ، قد لا تتفق مع مفاهيمهم فى النهاية ، وان هى

اتفقت يكون المؤلف آخر من يستفيد منها .

وهم يدعون عدم وجود المؤلف الكوميدى حسب مفهومهم للكوميديا ، أى تركيب مشاهد وأحداث تتيح لهم وسائل الظرف التى اعتادوها، وهذا المؤلف لا يمكن أن يوجد خاصة بعد أن استنفدوا وسائلهم فى الاضحاك المفتعل ، أما المؤلف الكوميدى الذى يفهم أدواته الفنية للاضحاك . والذى يملك حقه فى التعبير عن مجتمعه كما يراه هو . فان مصر قادرة على انجابه اذا تيسر له المناخ المناسب .

انهم يعملون على اقصاء المؤلف الجاد ، ويتهمونه فى نفس الوقت .

هل سمعت عن جهاز فنى ، كمسرح أو تليفزيون أو اذاعة ، يعمل على تشجيع المؤلفين !؟ بحيث يضم لجنة لتبنى المؤلفين ومتابعة أعمالهم وتوجيههم حتى تتفق مع ما يحتاج اليه هذا الجهاز من مستوى فنى أو ثقافى أو اجتماعى .. أو بحيث تعهد بالأعمال الفنية التى تحتاج الى تقويم الى خبراء فى النواحى الدرامية أو الاجتماعية أو التاريخية لاصلاح ما يكون بها من خلل فى هذه النواحى حتى تصبح صالحة للعرض . أو بحيث تتخير من بين النصوص التى لم تكتمل فنيا ، الأفكار والموضوعات الصالحة ، فتعهد بها الى متخصصين لوضعها فى القالب القصصى أو الدرامى السليم !؟

انهم « لا يملكون الا شعارا واحدا .. تصلح .. أو لا تصلح ، وغالبا ما تكون الصلاحية لاعتبارات سبق ذكرها .

والعقد الذى يبرم بين جهة انتاج ومؤلف فى ظل هذه الظروف الأدبية والمادية التى لا تتيح له القليل من نتاج قريحته ، هو لا شك عقد اذعان كتلك العقود التى تبرم بين مالك مستغل ومستأجر مجبر ، لأن المؤلف مهما كان مستواه الفنى لا يشعر بوجوده وكيانه الا اذا وصل انتاجه الى الجماهير ، وجهات الانتاج هى التى تحدد مصيره .

واذا كانت قوانين الاسكان قد صدرت لحماية المستأجر ، فلابد من صدور تشريعات لحماية المؤلف تكفل له الحق الأدنى من حقوقه سواء نص عليها العقد بينه وبين الجهة المنتجة أم لم ينص . ولابد أن تراعى هذه التشريعات :

أن يذكر العمل الفنى مقرونا باسم مؤلفه قبل غيره ، وأن يعلن عن اسم المؤلف فى المكان المناسب وبالحجم المناسب باعتباره الأصل فى العمل الفنى .

أن يكون للمؤلف حق الأداء العلنى فى الاذاعة والتليفزيون ، ونسبة معينة من الربح فى السينما والمسرح ودور النشر .

أن يكون التعاقد لعرض العمل الفنى بوسيلة عرض واحدة .. سينما .. أو مسرح ، فاذا ما نقل العمل الفنى الى وسيلة عرض أخرى كالاذاعة أو التليفزيون ، كان ذلك بموافقة المؤلف ونظير نسبة من الأجر .

ان يكون التعاقد لعرض العمل الفنى فى بلد واحد ، فاذا أريد عرضه فى بلاد أخرى كان ذلك بموافقة المؤلف ونظير نسبة من الأجر .

مع احتفاظ المؤلف فى كافة الأحوال بحق الأداء العلنى ونسبة فى الأرباح .

لقد كرمت الدولة المؤلف فيمن كرمت من أجل أهل الفن ، ومنحته الجوائز التقـديرية والتشجيعية وارفع الاوسمة ، وبقى أن تضع الاجهزة الفنية النظم والقواعد التى تيسر له التعامل الكريم فى عرض انتاجه والاستفادة بافكاره ونتاج قريحته . وأن تعمل الجهات المعنية كاتحاد الكتاب وغيره ، على استصدار التشريعات التى تحفظ حقوقه ، وتحميه من اســـتغلال المنتجين ومطـاردة الضرائب له .

هكذا نستعيد المؤلف الجاد الذى يحترم نفسه وكلمته ونقطع الطريق على الذين يتعيشون فى مجال الفن بكتابة اى شيء نظير اى اجر ، ونوفر له العيش الكريم الذى يتيح له مزيدا من الوقت للتعمق والابداع الجاد ، فيرتفع مستوى الأعمال الفنية التى تسهم فى اعادة صنع الانسان المصرى اجتمـاعيا وفـكريا بمـا يواكب نهضـة مصر الحديثة .

المراجع

الفكاهة فى مصر	الدكتور شوقى ضيف
سيكولوجية الفكاهة والضحك	الدكتور زكريا ابراهيم
الضحك	بيرجسون
علم المسرحية	الاردوس نيكول
المسرحية العالمية	الاردوس نيكول
تاريخ المسرح فى ثلاثة الاف عام	شلدون تشيني
فن كتابة المسرحية	لاجوس اجرى
الكوميديا المرتجلة	الدكتور على الراعى
الصحفى الثائر	الدكتور ابراهيم عبده
المسرحية نشأتها وتاريخها واصولها	عمر الدسوقى
المسرح العربى	الدكتور فؤاد رشيد
المسرح	الدكتور محمد مندور
الفن القصصى فى الادب المصرى الحديث	الدكتور محمود حامد شوكت
ذكريات فاطمة اليوسف	فاطمة اليوسف
مذكرات نجيب الريحانى	نجيب الريحانى
نجيب الريحانى وتطور الكوميديا فى مصر	الدكتورة ليلى أبو سيف
خطوات فى النقد	يحيى حقى
قصة الضمير المصرى الحديث	صلاح عبد الصبور

فهرس

رقم الايداع ٥١٤٨ ـ ٨٠

الترقيم الدولى ٨٤ ـ ٧٠٣١ ـ ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة ـ ص ٠ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
7. Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND

البرازيل :

M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.

اسعار البيع للجمهور في البلاد العربية للاعداد العادية من « كتاب الهلال » الشهرى بسعر ٢٠ قرشا للقارىء في مصر ٠

سوريا : ٣٠٠ ق٠س ثلاثمائة قرش سورى
لبنان : ٢٥٠ ق٠ل « مائتان وخمسون قرشا لبنانيا »
الاردن : ٢٥٠ فلسا «مائتان وخمسون فلسا اردنيا»
الكويت : ٣٥٠ فلسا « ثلاثمائة وخمسون فلسا كويتيا »
العراق : ٤٠٠ فلس « اربعمائة فلس عراقى »
السعودية : ٤½ ريال « اربعة ريالات ونصف ريال »

هــذا الكتاب

ولد المسرح المصرى الجـديد فى العشرينات ، وبدأ بداية عظيمة على ايدى رجال فن مخلصين ، عشقوا المسرح وعاشـــوا له وقدموا للأمة العربية مسرحا عربيا قوى الدعائم راسخ التقاليد •

وأعمدة هـــذا المسرح يوسف وهبى ونجيب الريحانى وجورج أبيض وزكى طليمات وأحمد علام وحسين صدقى وزكى رستم وسراج منير وفتوح نشاطى وعزيز عيد وفاطمة رشدى وروز اليوسف ودولت أبيض وزينب صـــدقى وغيـرهم كثيرون ، ومن مصر تفرعت شجرة المسرح العربى الى كل بلاد العروبة ، وحسبنا فى اواخر الثلاثينـــات اننا نجحنا فى ادخال عنصر جديد فى الادب العربى والفن العربى •

ثم فوجئنا خلال العقدين الاخيرين : الستينات والسبعينات بان هـــذا الازدهار كله يتضاءل وان شجرة المسرح والادب المسرحى تذبل وتموت فعلا ، وبدأ الناس يكتبون فى هذه المأساة ، وبذلت محـاولات لانعاش المسرح المريض دون جدوى •

وقد تعددت اراء الكتاب والنقاد ومنهم من قال : ان ســـيطرة الدولة على المسرح كانت بداية تدهوره • ربمـــا كان هذا صحيحا • ومن المؤكد أنه لم يكن لدينا من نحو ثلاثين سنة نقاد من طراز مثل محمد عبد المجيد حلمى • وأصبح الناقد داعية أو فردا فى حاشية ، ويبدو أن انشاء معاهد المسرح وأقسام النقد كان نهاية المسرح والنقد •

وهذا الكتاب يقدم تصورا صريحا لمشـــكلات المسرح المصرى ، ويقدم وجهة نظر متخصصة فى امكا[illegible] بعث المسرح من جـديد • وهو يتتبع الكوميديا المصرية فى [illegible] اليوم •

كتاب الهلال

سلسلة ثقافية شهرية

تجارة الرق والرقيق

● جون هنريك كلارك ● فينسنت هاردنج

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

نائب رئيس مجلس الإدارة : صبرى أبو المجد

رئيس التحرير . د. حسين مؤنس

سكرتير التحرير : عايد عباد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

KITAB AL-HILAL

العدد ٣٦٢ – ربيع الاول ١٤٠١ – فبراير ١٩٨١

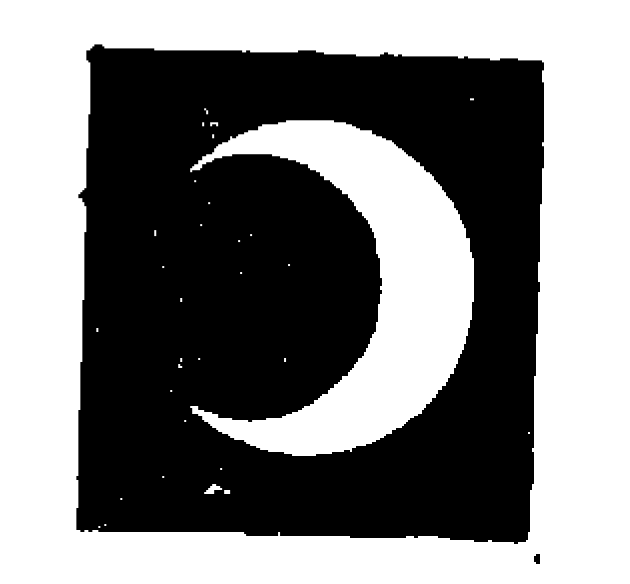
No. 362 February 1981

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى – ١٢ عددا – فى جمهورية مصر العربية جنيهان مصريان بالبريد العادى • وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان ثلاثة ونصف جنيه مصرى بالبريد الجوى • وفي سائر انحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادي وخمسة عشر دولارا بالبريد الجوى •

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج٠ م٠ ع٠ بحوالة بريدية غير حكومية وباقى بلاد العالم بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب •

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

تجارة الرق والرقيق

●

تأليف

جون هنريك كلارك وفينسنت هاردنج

●

ترجمة

مصطفى الشهابى

●

دار الهلال

مقدمة المترجم

استعبد الانسان القوى من قديم الزمان أخاه الانسان الضعيف واتخذه رقيقا يخدمه ويسخره ويملكه ويبيعه ويشتريه وعندما انتشرت الحروب عم الاسترقاق جميع انحاء العالم وصار المنتصرون يبقون على حياة الأسرى لاستخدامهم ، وبذلك اصبح الرق نظاما مسلما به فى العالم ، بل كان بعض الفلاسفة يقرر أن الناس صنفان صنف خلق ليكون سيدا ، وصنف خلق ليكون عبدا ، وانهم لم يخلقوا من طينة واحدة : فالسادة والأمراء خلقوا من طينة قوامها تبر الذهب ، والعبيد والأجراء خلقوا من طينة أخرى لا قيمة لها .

وكانت المجتمعات الانسانية قبل الاسلام تفرق فى الحقوق بين السادة والعبيد فلم يكن من حق الأرقاء أن يتولوا الوظائف العامة وكانت أفظع العقوبات تحل بهم اذا ارتكبوا أقل الأخطاء فى حق أسيادهم ، واذا اعتدى سيد على عبد لم يعاقب على اعتدائه ، واذا اعتدى عبد على سيد حقت عليه العقوبة أضعافا مضاعفة ، ومنها فى الهند مثلا عقاب العبيد بانتزاع الألسن وصب الزيت المغلى فى الأفواه أو دس الأسياخ الحديدية المحماه فيها . اما فى مصر والصين وبلاد الفرس فكانت الشرائع تعطى الأرقاء بعض الحمايه من تعسف أسيادهم .

وفى بلاد الاغريق كان يساء الى الأرقاء أشد الاساءة ، وخاصة فى أسبرطة ، التى قال عنها (بلو تارك) « ان الحر فيها كان أكثر الناس حرية ، فى حين كان الرقيق فيها أشد الناس استرقاقا » . لكن هذه المعاملة لم تكن أسوأ من معاملة الرومان لأرقائهم .

الرق فى العصور الوسطى :

وفى العصور الوسطى ، أى بعد ظهور المسيحية ، كان الأرقاء يعانون تلك المعاملة القاسية ، وكان سبب كثرة الأرقاء عند الجرمان مقامرتهم بنسائهم وأولادهم ، وكان القـــانون فى فرنسا يحرم التزاوج بين الأحرار والأرقاء ، ويوقع الأحرار فى العبودية ، اذا ارتبطوا بمثل هذا الزواج ..

وفى أسبانيا كانوا يحرقون المرأة الحرة ومن تقترن به من الأرقاء ، وهما على قيد الحياة ، كما كان يحكم على مثل هذه المرأة فى ايطاليا بالاعدام .

وفى انجلترا كان الأرقاء نوعين ، أحدهمـــا شبيه بالمنقولات ، وهؤلاء يجوز بيعهم ، والثانى شبيه بالعقار ، وهم المكلفون بخدمة الأرض ، وهؤلاء لا يباعون الا معها .

موقف المسيحية من الرق :

أمر الانجيل الناس أن يحبوا بعضهم بعضا ، ولكن لم يرد به ــ كما لم يرد فى غيره من الكتب السماوية نص صريح يحرم الاسترقاق ، كمــا لم يقل بتحريمه

الحواريون ، أي أي من الطوائف المسيحية المختلفة ، فيما بعد .

وقد أوصي بولس الأرقاء في رسالته الى أهل افسس بآسيا الصغرى ، أن يطيعوا أسيادهم كما يطيعوا السيد المسيح . وأمرهم في رسالته الى أحد تلاميذه أن يعتبروا أسيادهم أهلا لكل تشريف وتبجيل ، ولكنه من وجهة أخرى أوصى الأسياد بالانصاف في معاملة أرقائهم ، وفي رسالة أخرى أوصى بالحرص على رضاء أسيادهم .

وأوصى بطرس الأرقاء في رسالته الأولى بأن يخضعوا لأسيادهم وان يخشوهم .

وسار من جاء من آباء الكنيسة على أثر الحواريين ، على سننهم ، فأباحوا الاسترقاق وأقروه ومنهم البابا القديس جريجوريوس الأكبر .

من ذلك يتضح أن الديانة المسيحية لم تحرم الاسترقاق نصا ، ولم تلغه عملا .

الاسلام والرق :

فلما جاء الاسلام لم يرض عن هذا الوضع المهين لكرامة بني آدم ، والذى كان ضاربا أطنابه في أرجاء العالم ومنها الجزيرة العربية ، وكان منطقيا مع مبادئه السامية في تحقيق المساواة والحرية والعدالة الاجتماعية للناس جميعا دون تمييز ولا تفرقة . فالاسلام لم يرد للناس الا تخليص انفسهم من الرذائل وتحرير الأرقاء منهم من ذل العبودية .

ولما كان الرق سائدا في الجزيرة العربية كما قدمنا ،

فان الاسلام يامر بتحريمه مرة واحدة ، ولكنه لم يقره ايضا بل عمل على حصره فى أضيق الحدود ، والقضاء على أسبابه .

وقد حصر الاسلام مصدر الاسترقاق فى الحرب فقط ، بشرط أن تكون حربا قانونية منظمة ، يسبقها الانذار والاشهار ، وأن تكون قتالا مع القوم الكافرين . فى حين كانت مصادر الاسترقاق عند سائر الأمم كثيرة ومتنوعة .

الرقيق فى ظل الاسلام :

أعلن الاسلام فى صراحة ووضوح « أنه لا فضل لعربى على عجمى أو لأبيض على أسود الا بالتقوى أو بعمل صالح » ، اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس » ، « لا يقل أحدكم عبدى ولا أمتى ولكن ليقل : فتاى وفتاتى وغلامى » .

كما أعلن الاسلام فى صراحة ووضوح أنه يحب الحرية ويمجدها ويحرص على تحقيقها ، وأنه يعتبر تحرير الرقاب من أعظم القربات التى يتقرب الناس بها الى ربهم ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم بعد أن بين نعمة الله على الانسان فى خلقه وتكوين أعضائه ، وتكريمه بالعقل ، وهدايته الى النجدين ــ وهما معرفة الخير والشر ، يقول القرآن الكريم بعد الامتنان على الانسان بهذا كله : « فلا أقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة . أو اطعام فى يوم ذى مسغبة . يتيما ذا مقربة . أو مسكينا ذا متربة » فهو يعد العقبة الكبرى

التى يجب على الانسان ان يعمل لاجتيازها ، هى احترام الانسانية في جميع افرادها ، بتحريرهم من العبودية يملك الرقبة ، ومن العبودية للفقر أو المسكنة أو اليتم ، التى من شأنها أن تجعل الانسان ذليلا مستضعفا قابلا لما يفرضه عليه غيره .

وبهذا أعلن كرامة الانسان وحقه فى الحرية ، ثم وضع الخطة المحكمة لتصفية الرق على سبيل التدرج تصفية نهائية بغير أن يفاجىء المجتمعات بالغائه دفعة واحدة ، حتى لا تهتز بذلك اهتزازا عنيفا يصيب المتحررين كما يصيب غيرهم .

الاسلام وتصفية الرق :

وقد عمل الاسلام على تضييق المسالك التى تؤدى الى الرق وتوسيع التى تؤدى الى الحرية .

فمن المنافذ الكثيرة أنه جعل العتق كفارة لبعض ما يرتكب من الأخطاء والتقصير ، « ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة » . ومن فطر عامدا فى رمضان فعليه أن يكفر عن ذلك بعتق رقبة أو صوم ستين يوما متتابعة . ومن حنث فى يمينه فمما يكفر به عن حنثه عتق رقبة . واذا ظاهر الزوج من زوجته ، أى قال لها كما كان يقول العرب قديما : أنت على كظهر أمى ، أى لا تحلين لى ، ثم أراد أن يعود اليها ، فعليه أن يحرر رقبة من العبودية تحقيقا لقوله تعالى : « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا » أى يراجعون انفسهم فى شأنه ، ويريدون اصلاح خطئهم فيه — فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا » أى من قبل أن

يمس الرجل المظاهر زوجته أو تمسه هذه الزوجة ، وتلك رغبة بادية من المشرع فى العتق والتحرير ، ووضع الزوجين فى موضع يحملهمـــا على ذلك حملا ، تلبية لرغبتهما الطبيعية فى المراجعة واعادة الحياة الزوجية .

ومن مثل بعبده أو ضربه فكفارته أن يعتقه ، عملا بقول الرســـول : « من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته عتقه » .

وروى الامام على عن الرسول قوله : « اتقوا الله فيما ملكت ايمانكم » . كما روت عنه ام سلمة : « اتقوا الله فى الصلاة وفيما ملكت ايمانكم » أى مراقبة الله وخشيته فى معاملة عبده بمنزلة مراقبته وخشيته فى الصلاة ، التى هى عماد الدين ومن أهم أركان الاسلام .

وروى عنه صلى الله عليه وسلم : « الصلاة وما ملكت ايمانكم » ويقال ان هذه الجملة كانت آخر ما نطق به الرسول الكريم ، عند وفاته .

وروى ابن عمر عنه عليه الصلاة والسلام : « اتقوا الله فى الضعيفين المملوك والمرأة » ، وفى الأثر الكريم « لقــد أوصــانى حبيبى جبرائيل بالرفق بالرقيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم » .

وقد فتح الاسلام أبوابا أخرى للعتق ، منها أنه اذا صــار الرجل عبــدا لآخر تجمعه واياه رابطة القرابة والنسب ، سواء أكان من الأصول أو الفروع لاية درجة كانت ، فانه يعتق حتما . واذا هرب العبد الأجنبى من بلاده وجاء الى دار الاسلام وأسلم نال حريته . وقــد التجأ كثير من العبيد فى واقعتى الطائف والحديبية الى

معسكر الرسول الكريم فأعتقهم ، ورفض اعادتهم الى اسيادهم .

ومن منافذ التحرر أيضا تخصيص جزء من مال الزكاة لعتق العبيد والاماء ، قال تعالى : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » فقوله تعالى « وفى الرقاب » معناه : وفى اطلاق الرقاب من قيود الرق ، لأنه بمثابة الأغلال التى توضع فى الرقاب ، لأن الغل لا يوضع الا فى عنق البهيمة .

ومن المنافذ التى هيأها الاسلام لتصفية الرق وتحرير العبيد والاماء ما يقرره من أن السيد اذا رزق من أمته المملوكة له ، بولد — ذكر أو أنثى — فان وضعها يتغير ووضعها الاجتماعى ينتقل الى منزلة غير منزلة العبودية الصرف ، فتصبح « أم ولد » وهذا هو الوصف الشرعى لها بعد ولادتها من سيدها وهو وصف فيه تكريم ، لأنها أصبحت تشترك مع سيدها فى ولد يناديها بوصف « الأمومة » ويناديه بوصف « الأبوة » ويضفى عليه كل منهما قدرا مشتركا من الحنان والمحبة .

ومن مقتضيات الوضع الجديد ، انه لا يجوز للسيد فى حياته أن يبيعها أو يهبها أو يتصرف اى تصرف يعوق تحررها . كما أنها تصبح مستحقة للحرية بعد موت سيدها ، فتخرج من تركته مهما بلغت قيمتها وتقدم حريتها على كل الحقوق المترتبة على التركة من ديون أو وصايا أو أنصبة للوارثين .

واذن فعلاقتها به أشبه بعلاقة الزوجة بزوجها ، ولذلك

فان الولد الذى جاء ثمرة لهذا الاتصال من السيد بها يولد حرا ، فلا يتبع أمه كما هى قاعدة الرقيق ، ويكون له من الحقوق على أبيه فى حياته ، وبعد مماته ، مثل ما لسائر الأولاد الذين كانوا ثمرة زواج من نساء حرائر ، وهذه القاعدة تسرى على الأمة غير المسلمة ايضا .

وقد تحرر بسبب هذا النظام كثير من الاماء ، وكان لهن أولاد يعيشون احرارا مثل آبائهم ، وقد عرف التاريخ منهم من وصل الى مرتبة الخلافة ـ كالمأمون العباسي بن هرون الرشيد ، وغيره كثيرون .

وقد اتيح لكثير من الأرقاء ، فى ظل الاسلام ، ان يدركوا أسمى المناصب ، ومن هؤلاء كافور الأخشيدى العبد الخصي الذي تولى حكم مصر ، كما تولاه بعده عشرات من المماليك .

وفي التاريخ الحديث لدينا « خليل اغا » الذى كان من أصحاب النفوذ الواسع فى عصر الخديو اسماعيل .

هل اقر الاسلام شراء الجوارى والعبيد ؟

ان شراء الجوارى والعبيد الذى كان يجرى حتى أوائل القرن الحالى ، لا تنطبق عليه القاعدة التى أباحها الاسلام ، فهؤلاء الذين كانوا يباعون من الجوارى والعبيد ليسوا أسرى حرب دينية عدوانية ، لم يفرض استرقاقهم ، وليس هناك وجه ما يخرجهم عن كونهم احرارا ، فبيعهم وشراؤهم باطل والعقود التى كان

يعقدها المتعاقدون لا يترتب عليها آثارها ، اذ يشترط فى البيع أن يكون المبيع صالحا للتملك والحر لا يتملك بحال من الأحوال ، بل ان تملكه واستعباده جريمة من الجرائم التى لعن الاسلام فاعلها ، وهدد مرتكبها بالطرد من رحمة الله .

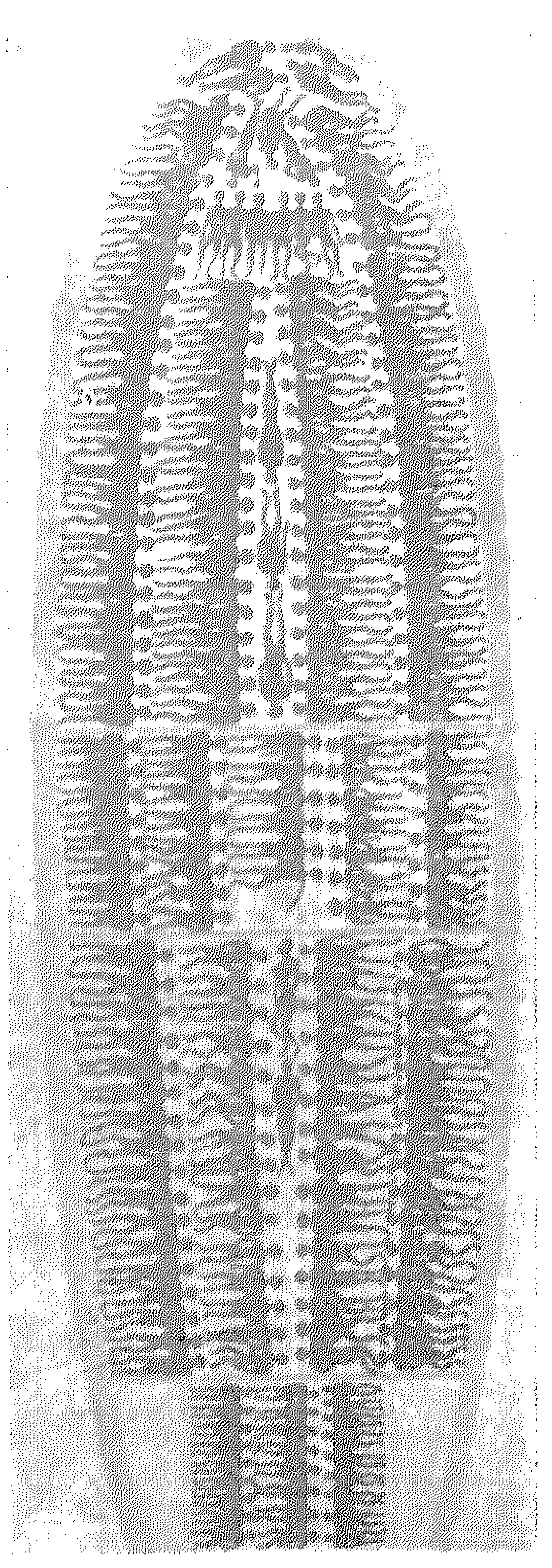
الرق فى العصور الحديثة

البرتغاليون أول المتجرين بالرقيق :

كان البرتغاليون أول من اتصل بالقـــارة الأفريقية وسكانها ، وكانت الجهات التى نزلوا بها مجرد نقط مبعثرة على الساحل ، لا تتعمق فى الداخل ، ولم تكن أقطارا أو مستعمرات بالمعنى المعروف .

ولم تلبث تلك النقط أن حصنت واقيمت بها القلاع والاستحكامات ، ينزل بها – ويحتمى بها عند الحاجه – عدد من الجنود والملاحين والتجار . ومن تلك النقط كان يجرى الاتصال بالأهالى المقيمين الى جوارها ويتم تبادل الســـلع بين الفريقين . وكانت أهم الســـلع الافريقية : الذهب والعاج وأما ما كان يأخذه الافريقيون مقابل ذلك فسلع أهمهـــا الخمور والأسلحة النارية والبارود ، ولم يكن العبيد من السلع الداخلة فى التبادل أول الأمر ولكنها لم تلبث ان أصبحت فى النصف الأول من القـــرن السادس عشر بصفة عامة أهم السلع جميعا .

عنـــدئذ بدات صفحة من افظع وأشنع الصفحات فى تاريخ العالم كله اذ تعرضت افريقية لطوفان من الشقاء



لم يعرف له نظير فى العصور السابقة .

وكان البرتغاليون أول المشتغلين بتجـــارة الرقيق ، وكان اتجاههم فى البداية الى الأســـواق الأوربية فى أسبانيا والبرتغال بصفة خاصة .

ولكن الأسبان لم يلبثوا أن اســـتخدموا الرقيق فى المزارع والمناجم بجزر الهند الغربية ، وتطلب الأمر عددا كبيرا من الأرقاء ، ولفت ذلك أنظار بعض الدول الأوربية فأخذت تتسابق فى هذا الميدان ، ميدان تجارة الرقيق، فدخلته هولندا وفرنسا والدانيمارك وبريطانيا .

الانجليز والرقيق :

ولم تلبث بريطانيا أن احتلت المكان الأول فى تجارة الرقيق ، وبزت سائر الدول فى تلك التجارة ، وممن اشتهر فيهـا « سير جون هوكنس » (١٥٣٢ — ١٥٩٥) وقد شجعته الملكة اليزابيث الأولى وكافأته على نشاطه بمنحه درعا نقشت عليه صورة زنجي مصفد بالأغلال ، وصار هذا شـعارا له ولأسرته . وكان هـذا الرجل يطـوف بسفينته ويختطف العبيد من سواحل افريقيا ثم يبيعهم لأصحاب المزارع فى المستعمرات الاسبانية التى كانت أهم الأسواق لتصريف هذه السلعة البشرية .

الرق فى الولايات المتحدة :

وجد المهـــاجرون الأوربيون أمامهم آلاف الأميال المربعة من الأرض الصالحة للزراعة ولكنهم لا يستطيعون استغلالها لقلة الأيدى العاملة .

لذلك ما كادت أول سفينة ، وكانت هولندية ، ترسو

على سواحل امريكا الشمالية (الولايات المتحدة) عام ١٦١٩ ، وحمولتها شحنة من الرقيق الأسود القادم من افريقية ، حتى باعت كامل شحنتها لأصحاب مزارع الدخان فى ولاية فرجينيا ، وكان ذلك بمثابة افتتاح لسوق جديدة تظلها الراية البريطانية . ولم تلبث أمريكا الشمالية أن أصبحت أعظم الاسواق استيعابا للرقيق .

وكون الانجليز والفرنسيون والبرتغاليون والهولنديون والدانيماركيون شركات رأسمالية تؤلف بموافقة الحكومة (والبرلمان) ويصدر بانشائها قانون يخول لها صراحة الحصول على الرقيق من سواحل أفريقيا الغربية وتبيعه فى الأسواق وكان نصيب الانجليز فى هذه التجارة أكثر من نصفها .

وأصبحت شحنات الرقيق الأسود تتوافد على أمريكا ، ولا يقل عدد الافريقيين ، رجالا ونساء وأطفالا، الذين تصيدهم الأوربيون ونقلوهم الى أمريكا عن عشرة ملايين وقد بيعوا فى أمريكا الشمالية وجزر الهند الغربية وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية ، وذلك فى المدة من منتصف القرن السادس عشر ومنتصف القرن التاسع عشر . ولا يفوتنا ان ننوه بهلاك عدد آخر لا يقل عن العدد السابق ذكره أثناء اقتناص السود فى افريقية واثناء نقلهم فى السفن .

طريقة الاقتناص :

كانت طريقة اقتناص الرقيق تتسم بالوحشية والتناهى فى القسوة وكانت الوسيلة المتبعة هى حرق القرى وقت السحر والسود نيام ، ثم يخطفون وهم

يحاولون النجاة من النيران ، وبعد أن يجمعوا يساقون الى السواحل حيث توجد مستودعات خاصة يحبسون فيها حتى تأتى السفن لنقلهم وفى هذه المستودعات كانوا لا يعطون من الزاد الا بمقدار ما يمسك رمقهم ، ثم يدفع كل رجل او امراة أو طفل ويوسم باسم التاجر الذي اشتراه وكان هذا الوسم شبيها بوسم الماشية بقطعة من الحديد الملتهب . ويظل هؤلاء المساكين فى محبسهم حتى تحملهم السفن . ورغبة فى تقليل نفقات النقل كانوا يرصون رصا ، كما يرص السردين فى العلب ، الواحد لصق الآخر . ونتيجة لقلة العناية الصحية وقلة الغذاء كان يموت من شحنة السفينة نحو ثلاثين فى المائة من السود .

وأخذت شحنات الرقيق الأسود تتوالى على آمريكا الشمالية عاما بعد عام ، يشتريهم السادة البيض فى مزادات علنية وينقلونهم الى المزارع بأسماء جديدة ، هى أسماء سادتهم البيض ، للعمل تحت وطأة الشمس القاسية فى مزارع القطن والدخان فى ولايات الجنوب التى أطلق عليها اسم « الحزام الأسود » وهى ولايات الاباما وتنيسى ولويزيانا وجورجيا .

وأقبل أصحاب المزارع على شرائهم واستخدامهم فى الزراعة وكانت ميناء تشارلستون (الواقعة على ساحل ولاية كارولينا الجنوبية) أكبر سوق لتجارة الرقيق ، وفيها كان الافريقيون الأرقاء يودعون فى حظائر لا يستر أجسادهم شيء ، سوى الخرق البالية ، واذا اشترى أمريكى جماعة منهم قيدهم بالحبال ودفع بهم أمامه كالماشية الى حيث يقيمون فى أكواخ حقيرة ، ثم يساقون كل يوم الى الحقل والسياط تلهب ظهورهم ، حيث

يعملون من الفجر الى غروب الشمس ، وحتى يوم الأحد كانوا يرسلون الى الغابات ليجمعوا الأخشاب ثم يبيعوها ويشترون بثمنها ما يحتاجون اليه ، وكان أبناؤهم يعتبرون ملكا لصاحب المزرعة ، له الحق فى بيعهم .

الرق ورجال الدين فى أمريكا :

عندما اعتنق بعض السود المسيحية كان المفروض أن المسيحى لا يستعبد مسيحيا مثله ولكن بعض الولايات أصدرت قانونا يجعل استرقاق المسيحى جائزاً ومشروعا والمفهوم طبعا هو أن ذلك المسيحى الذى يجوز استرقاقه هو ذلك الافريقى الأسود .

وبرر رجال الدين المسيحيين الاسترقاق بقولهم أن من واجب المسيحيين الأتقياء نشر المسيحية بين الوثنيين ولما كان من غير المتيسر الوصول الى الغابات الأفريقية لنشر المسيحية بين سكانها فمن الواجب احضار الافريقيين الى أمريكا لجعلهم مسيحيين !!

بذلك أصبح استرقاق الافريقيين عملا دينيا يؤيده ويزكيه رجال الدين ويثاب عليه مالك الرقيق .

كما ذهب بعض رجال الدين المسيحى الى أن الجنس الأسود من نسل حام بن نوح ولما كانت التوراة قد ذكرت أن حاما أغضب أباه ، فلعن نسله ودعا عليه بالاسترقاق لنسل يافث بن نوح ، أى النسل الأبيض .

وشاع بين ملاك الرقيق أن الله يبارك لمالك الرقيق اذا تمكن من تحويل الأرقاء الوثنيين الى مسيحيين فاذا اصبحوا مسيحيين كان القسس يعلمونهم أن المسيحية

تؤكد على طاعة العبد للسيد مهما حدث ، فطاعة العبد وأمانته لسيده ضمان للجنة . كما حرم القسس على الزنوج قراءة الكتاب المقدس ووضعت كتب دينية للزنوج تتضمن تلك المبادىء الشاذة وغيرها وخـلاصتها الحث على وجوب الطاعة والرضوخ للأسياد مهما كان اسلوب معاملتهم وأن صـبر الزنجى وتحمله يثاب عليـه فى الآخرة .

بدء استنكار الرق :

وظلت هذه الحال سائدة حتى أوائل القرن التاسع عشر ثم بدأت أصوات استنكار لها فى الدانيمارك ثم فى انجلترا منـادية بأن هذا عمل وحشى يتناقى والدين المسيحى . وحدث مثل هذا فى الولايات المتحدة نفسها . فاما الدانيمارك فلم تكن تشترك فى تجارة الرقيق من قريب أو بعيد وأما انجلترا فربما كان الدافع لها الانتقام من الولايات المتحدة التى ظفـرت بالتحرر من ربقة الاستعمار البريطانى وحرمانها من الأيدى العـاملة الرخيصة ، وأما الولايات المتحدة فكانت أسواقها قـد اكتظت بالرقيق ولم تعد فى حاجة الى بضاعة جديدة وفى التوالد والتكاثر الطبيعى بين زنوجهـا ما يكفى لسد الحاجة ، ولعل الدافع الأساسى هو غرب أفريقيا ـ الذى عرف باسم ساحل العبيد ـ قد استنفد موارده من الرقيق وأصبح كالمنجم الذى نضب ما به .

ومهما يكن من أمر فقد واصلت انجلترا دعوتهـا وأبرمت اتفاقات ومعـاهدات تستنكر تجارة الرقيق وتحرمها . وجـدير بالذكر ان مصر وقعت مع انجلترا

معاهدة لالغاء الرقيق ومنع التجارة فيه عام ١٨٧٧ .

استنكار الرق فى الولايات المتحدة :

منذ بداية القرن ١٩ رثى بعض ذى النفوس الكبيرة لحال الرقيق فى الولايات المتحـــدة فعملوا على تحرير من استطاعوا وارسلوا بهم الى غرب أفريقيا للاقـامة فى مدينة أقيمت هناك باسم « منروفيا » عام ١٨٢٢ وقد توسعت المدينة وضمت اليها أجزاء كبيرة لكثرة الزنوج المحررين العائدين لافريقيا وفى عام ١٨٤٧ أصبحت تلك المناطق جمهورية باسم ليبيريا .

وقد قامت عقب الاستقلال حركة ترمى الى الغـــاء الرق فى الولايات المتحدة وتكونت عدة جمعيات وعقدت عدة مؤتمرات أصدرت قرارات استنكرت فيهـا الرق وطالبت بالغائه ، وأخذت الولايات المتحدة فى تنفيـذ تلك القـــرارات التى تقضى بها أبسط المبـــــادىء الانسانية .

وسرت فى البلاد روح جديدة اذ قام فريق من الكتاب والشـــــعراء ينددون بالاسترقاق وفى طليعتهم الكاتب الأمريكى « رالف أمرسون » (١٨٠٣ — ١٨٨٢) كما زاد عدد الهيئات التى نادت بالغائه ، وهاجم رجال الدين الرق على منابر الـكنائس ، وتحمس الـكثيرون فكانوا يساعدون على تهريب الارقاء من الولايات الجنـوبية الى الشمالية والى كندا .

وانبرت الكاتبة « هاريت بيتشر ستو » (١٨١٢ — ١٨٩٦) لتصوير حال الافريقيين السود بأمريكا فى قصة مسلسلة طويلة نشرتها احدى المجلات وأطلقت عليها اسم

« كوخ العام توم » ثم ظهرت كاملة مطبوعة فى كتاب خلال شـهر مارس ١٨٥٢ . ولقيت تلك القصة رواجا لا مثيل له فأعيد طبعها مرارا .

ولكن جمهرة أبناء الجنوب عارضوا فـكرة التحرير لحاجتهم الى الأيدى العاملة الرخيصة ولا سيما بعد اختراع آلة حلج القطن الميكانيكية عام ١٧٩٣ ، فقد كان الزنجى يمضى يوما بأكمله فى تنقية بضعة أرطال من القطن ، ومن ثم كانت عملية شاقة تحتاج لوقت طويل ولذلك لم تكن للقطن أهميـة تذكر كمحصول لصعوبة الافادة منه .

فلما ظهرت آلة الحلج الميكانيكية غيرت الأوضـاع وأصبح فى اسـتطاعة الزنجى أن يدير دولاب الحليج لحلج خمسين رطلا على الأقل يوميا . وكانت النتيجة الاقبال على زراعة القطن وزيادة انتاجه من ١٠،٠٠٠ بالة عام ١٧٩٣ الى ٧٣،٠٠٠ بالة عام ١٨٠٠ ثم الى ١٧٨،٠٠٠ بالة عام ١٨١٠ ، وفى عام ١٨٦١ كان الانتاج ٤،٥٠٠،٠٠٠ بالة . ولذلك سـادت الجنوب زراعة القطن واتسعت أسواقه واحتاج المزارعون الى أرقاء أكثر .

وعلى الرغم من الجهود التى بذلت لالغاء الرق فقد ارتفع عدد الأرقاء من ١،١٩١،٠٠٠ عام ١٨٠٠ الى أربعة ملايين عام ١٨٦٠ .

ومما ساعد على ازدياد عدد الأرقاء أن الكونجرس ترك امر الاسترقاق الى كل ولاية على حدة ، ممـا أثار الشماليين ودفعهم الى تكوين حزب انضم اليه « ابراهام لنكولن » وتكون فى نفس الوقت حزب معـارض من الجنوبيين بزعامة « جفرسون دافير » (١٨٠٨ — ١٨٨٩).

وحلت انتخابات رياسة الجمهورية وكان لنكولن فى طليعة المرشحين وكانت الخطة السياسية لحزبه (الجمهورى) هى أنه « ليس للكونجرس أو لاى مجلس تشريعي فى المقاطعات التصريح بالرق بصفة قانونية فى أية ولاية من الولايات الأمريكية » .

وشعر الجنوبيون بما فى هذا المبدأ من خطر على اقتصادياتهم ، ولذلك أعدوا عدتهم للانسحاب من الاتحاد الأمريكى اذا ما فاز لنكولن فى الانتخابات .

ولذلك ما كاد يعلن انتخاب لنكولن رئيسا حتى بادرت ولاية كارولينا الجنوبية باعلان الانفصال عن الاتحاد الأمريكى فى ديسمبر ١٨٦٠ وتبعتها ست ولايات أخرى ، وانتخبت هذه الولايات السبع « جفرسون دافيز » رئيسا مؤقتا .

ازاء ذلك أعلن لنكولن فى خطابه الاول سياسته نحو الرق وصرح بوجوب دوام اتحاد الولايات وبطلان الدعوة الى انسحاب أية ولاية منه .

وبات الجميع يترقبون الحرب ولكن كلا من الفريقين بقى محجما عن كل ما يؤدى الى نشوب القتال .

وأخيرا اعتدى الجنوبيون على حامية تابعة للشماليين فى ميناء « تشارلستون » بولاية كارولينا الجنوبية فى أوائل ١٨٦١ ، وفى نفس الوقت أعلنت ولايات أخرى الانفصال عن الاتحاد الأمريكى .

وقامت الحرب التى استمرت حتى ابريل ١٨٦٥ وانتهت بانتصار الشماليين واعلان الغاء الرق نهائيا . واستطاع نفر من الافريقيين أن يشق طريقه الى الثراء

وذلك لتعدد مصادر الثروة هناك فأنشأوا المتاجر والمصانع الصغيرة وأصبحوا بمرور الايام منافسين أشداء للبيض .

وفى الوقت نفسه قام فريق من جنود الجنوب المسرحين بتكوين ناد لهم فى مدينة « بولاسكى » Pulaski احدى مدن الولايات الجنوبية ، ولما كانوا شبانا فقد عمدوا الى الحفلات يقيمونها ليلا حول النيران فى الخلاء ، ثم دفعهم المجون الى ابتكار ملابس تنكرية واتخاذ مصطلحات خاصة ، وجاراهم فى هذا العبث جنود بعض المدن الأخرى وشبانها ، وتفتقت أذهانهم عن هذا اللباس الغريب ذى اللون الأبيض وسموا انفسهم « الكوكلوكس كلان » الذين لاحظوا ان الافريقيين أخذوا يشقون طريقهم فى المجتمع الأمريكى ، ويحلون محلهم ، فأكلت الغيرة صدورهم ، وعمدوا الى مضايقتهم بشتى الطرق ، فرسموا لهم حدودا لا يتخطونها ، فى طليعتها تحريم زواجهم بالبيض ، وتغالوا فى هذا الاتجاه فحرموا على البيض الزواج من الافريقيات .

ثم تطورت الأمور بمضى الأيام ، وغمرت أعضاء هذه الجماعة موهبة من الحماسة للاصلاح الروحى والخلقى فأخذت تنزل العقاب بمن يفرطون فى الخمر أو يقصرون فى التوجه الى الكنيسة أو يظهرون عطفا على الافريقيين وكان هؤلاء يعاقبون بجلدهم بالسياط عادة أو بنهب متاجرهم ، مما أثار الرأى العام فأصدرت مختلف الولايات عام ١٨٧٥ قوانين بالغاء « جماعة الكوكلوكس كلان » وما يشابهها .

ولكن قيام الحرب العظمى الأولى والتحاق عدد كبير منهم بالجيش وترقية بعضهم الى مراتب الضباط ، وتغلغلهم في مختلف نواحي الحياة الأمريكية ، وظهورهم أعضاء عاملين فيها . كل ذلك لفت الأنظار اليهم وزاد الحقد عندما انتشرت البطالة بين البيض عقب الحرب فثارت ثائرة بعض البيض ، وعادت « جماعة الكوكلوكس كلان » من جديد الى اضطهاد السود في شتى نواحي الحياة .

وأصبح اضطهاد السود في أمريكا يختلف عن كل اضطهاد عنصرى ، لأنه كان اضطهادا شبه رسمى تقضى به قوانين بعض الولايات ، فولاية ميسيسيبى وعدد غير قليل من الولايات الأخرى كانت تحتم فصل التلاميذ البيض عن السود في مختلف مراحل التعليم ، كما تعتبر زواج شخص أبيض من شخص افريقى الأصل زواجا باطلا ، بل أن بعضها تغالى في ذلك الى درجة لا يتصورها العقل كتخصيص كنائس وسيارات وغير ذلك لهم .

والويل كل الويل لمن جرؤ على مخالفة الحدود المرسومة أو التقاليد الموضوعة ، فقد كان أبسط عقاب له هو طريقة « لينش » (١) أى التعليق من الرقبة في شجرة .

كما كان الكفيل بتنفيذ تلك العقوبة هم أعضاء هذه الجمعيات .

---

(١) لينش اسم مزارع أمريكى كان يملك مزرعة بعيدة عن العمران ابان السنوات الاولى للهجرة ، وكان يعاقب بنفسه من يهاجمون مزرعته أو يحاولون السطو عليها بتعليقهم من رقابهم على الشجر دون أن يلجأ الى رجال الامن .

وقلما استطاع رجال الشرطة أن يقفوا فى طريق هذا الانتقام الوحشي الذى يقدم عليه البيض دون روية أو تفكير واذا حدث أن تدخلت الشرطة وقبضت على أسود متهم بأية جريمة فى انتظار محاكمته فكثيرا ما يختطفه البيض ليعدموه بهذه الطريقة البشعة دون انتظار لنتيجة التحقيق التى كثيرا ما أسفرت عن براءة السود مما اتهموا به .

وكثيرا ما لقى الشرقيون الذين يقيمون بالولايات متاعب جمة بسبب لونهم من ذلك ما حدث لسفير الهند فى ٢٣ من أغسطس ١٩٥٥ اذ أجبره رجال أحد المطارات الى الانتقال الى القاعة المخصصة للسود لتناول غذائه قبل سفره الى المكسيك مما اضطر الحكومة الامريكية الى الاعتذار رسميا عن هذا الحادث .

ومنذ عدة أعوام اعتدنا أن نقرأ فى بداية كل عام دراسى ما يقوم به الشباب فى الجامعات والمعاهد العليا من حركات عنيفة للحيلولة دون التحاق السود بتلك الجامعات والمعاهد .

وكل ذلك بايعاز وتأييد من جماعة « الشيطان الأبيض » رغم أن السود يشاطرون البيض فى دفع الضرائب المحلية الخاصة بالتعليم .

ومن أكثر ما يروى فى هذا الصدد طرافة أن مجلس احدى المدن الكبرى الجنوبية المعروفة بعدائها للسود جمع من سكانها البيض والسود على السواء مبلغا كبيرا ساهم السود فيه بنحو الربع لتحسين حال مدارسها .

واجتمع مجلس المدينة وبين أعضائه قلة من السود

وقرر باغلبية الأصوات تحويل المبلغ كله للانفـــاق على مدارس البيض .

وهنا تساءل أحد الأعضاء السود : هل تعنون بدفع المبلغ لمدارس البيض أن تخرج شبابا مهذبا ؟

فأجاب الأعضاء البيض : نعم .

وكان تعليق هذا العضـــو : اذن نحن السود على استعدادا لدفع مبلغ آخر يعدل ما دفعناه لكى يكون شبابكم أكثر تهذيبا !

وبعد أن هدأت الحال نسبيا عادت تلك الجماعات ، كوكلوكس كلان الى الظهور فى السنوات الاخيرة وخاصة في الجنوب حيث يكثر الزنوج وأقدم بعض أعضائها على قتل الزنوج وخاصة الاطفال دون ما سبب أو بسبب تافه .

وكان قمة الاعتداء على الزنوج هو مصرع الزعيم الزنجى دكتور مارتن لوثر كنج فى ٤ ابريل ١٩٦٨ بمدينة ممفيس بولاية تنيسى .

ثورات الأرقاء :

ومنذ بدأت تجارة الرقيق تسود امريكا ، لم يستكن الأرقاء للظلم فقاموا بعدة ثورات منها ثورة فى نيويورك عام ١٧١٢ أنتهت بانتحار ستة والحكم بالشنق على واحد وعشرين زنجيا ، كمـــا قامت ثورة أخرى عام ١٧٤١ وأنتهت بشنق ١٣ واحراق ١٣ واعادة ٧١ زنجيا الى افريقيا .

وفى عام ١٨٣١ قاد الزنجى « نات ترنر » ثورة فى

فرجنيا وقتل ٤٧ رجلا أبيض وقد استدعى الجيش لاخمادها وقبض على « ترنر » وشنق مع بعض المشتركين معه .

وفى عام ١٩٦٧ انفجرت اكبر ثورة للزنوج فى الولايات المتحدة بسبب سياسة جونسون العنصرية فاندلعت نيران الغضب المكبوت فى نفوس أكثر من ٢٠ مليون يحملون الجنسية الأمريكية اسما ولكنهم لا يعاملون كمواطنين أمريكيين وانما يعاملون معاملة شاذة باعتبارهم أقل مستوى من البيض وقد امتدت أعمال العنف والتخريب فى ٩ ولايات مما اضطر الجيش الأمريكى للتدخل لانقاذ الموقف .

وانتهى الأمر بالغاء كثير من القوانين الشاذة التى لا تكفل للزنوج المساواة بالبيض ، ولكن بصفة رسمية ، أما العرف السائد بين البيض فيما يختص بمعاملتهم ونظرتهم للسود فسيحتاج الى عشرات الأعوام حتى تسود المساواة الحقيقية .

بعض مشاهير الزنوج :

ولم ينكر المؤرخون المنصفون التنويه بالسود الذين أدوا خدمات جليلة للمجتمع الأمريكى ، بل ووضعوهم فى مصاف الأعلام ومن هؤلاء جورج واشنطن كارفر (١٨٦١ ــ ١٩٤٣) ذلك العلامة الذى قام بعدة أبحاث لتفادى وعلاج أمراض النباتات بصفة خاصة ، مما ضاعف من محاصيل الولايات الجنوبية ومنهم دكتور « رالف بنش » سكرتير عام الأمم المتحدة وكذا « اندرو يانج » سفير الولايات المتحدة فى هيئة الأمم المتحدة

عام ۱۹۷۷ ، يضاف الى هؤلاء جميعا أبطال الدورات الأولمبية فأغلبهم من الزنوج ، وينتمى الى هؤلاء البطل محمد على كلاى وهو غنى عن التعريف .

بعض احصاءات :

يبلغ عدد سكان الولايات المتحدة نحو ۲۱۰٫۰۰۰٫۰۰۰ منهم نحو ۱۸٤٫۰۰۰٫۰۰۰ أبيض و ۲٦٫۰۰۰٫۰۰۰ أسود اى بنسبة ۷ : ۱ ولا شك أن هذه النسبة ستتزايد على مرور الأيام لكثرة تناسل السود .

وأما نسبة التعليم فهى ۸ : ۱ .

وأما الدخل فمتوسط دخل الأسود أقل كثيرا من نصف دخل الأبيض .

وأكثر المناطق ازدحاما بالسود هى مدينة نيويورك .

وبعد فان البعض يعتقد أن ما يحدث للسود انما هو نتيجة لهوس وتعصب بعض الشبان البيض وان الزمان كفيل بردع هؤلاء ، خاصة وان السود أصبح منهم اعضاء فى الكونجرس ومجالس الولايات بل وحكام لبعض الولايات وقضاة ومحامون .. الخ ، مما يدفع الى احترامهم وتقديرهم .

ويوم تسود المساواة الحقيقية ، يومئذ يحق لأبناء الولايات المتحدة أن يزهو بديمقراطيتهم ويفخر تمثال الحرية ، المقام فى مدخل ميناء نيويورك بأن رسالته قد تحققت .

مقدمة

بقلم جون هنريك كلارك (١)

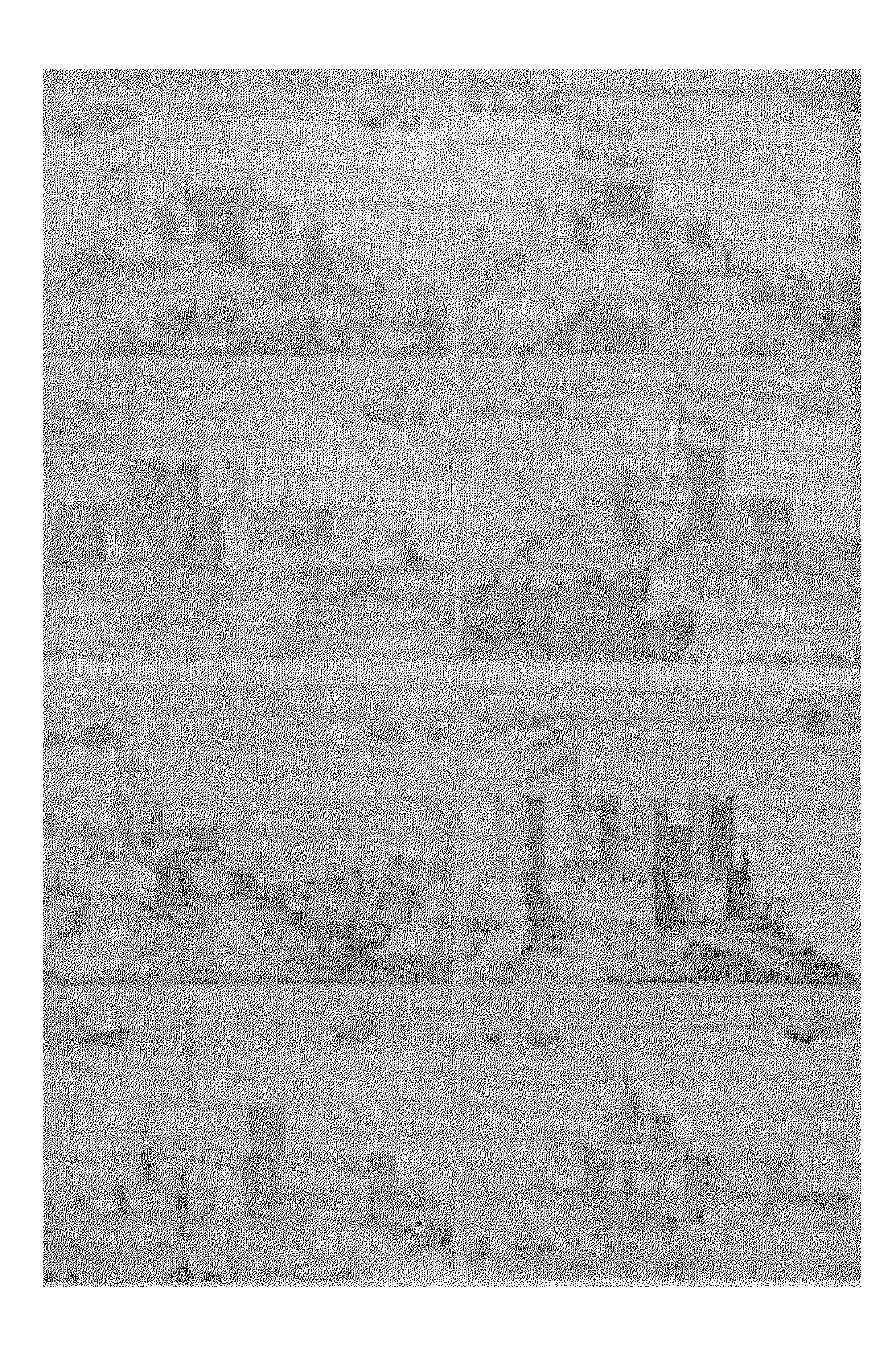
فى هذا الكتاب الثانى من سلسلة « تراث السود » ، قام الكتاب المشتركون فى تأليفه باستئناف واعادة بحث موضوع كتب عنه الكثير ولكنه لا يزال يساء فهمه لدى أغلب الناس . وأساس اساءة الفهم هذه هو أن معظم الدارسين لهذا الموضوع ينظرون الى تجارة الرقيق الافريقى باعتبار أنها كانت نظام الرق الوحيد الذى عرفه الانسان . والواقع ان الرق نظام قديم وليس هناك بين معظم الشعوب من لم يكن فريسة له فى وقت ما .

وتجارة الرقيق الافريقى يمكن فهمها بجلاء اذا ألقينا نظرة موجزة على الجذور التاريخية للرق كنظام عالمى .

لقد كان الرق فى المجتمعات القديمة مختلفا عن نوع الرق الذى أدخله الأوربيون الى أفريقيا فى القرنين

---

(١) هو كاتب ومربى ومحرر ومؤرخ معروف دوليا بكتاباته عن ثقافة السود المعاصرة والتاريخ الافرو أمريكي وهو أحد مؤسسى أكاديمية السود للفنون والاداب ومحرر مجلة « سبل الحرية » وهو مستشار تليفزيونى عن تراث السود . وقد نشر عدة كتب عن حياة أعلام أفريقيا وعن الاقاصيص الافريقية وغيرها . نال شهادة الليسانس من جامعة نيويورك وقد سافر الى غرب افريقيا حيث ألقى عدة محاضرات عن تاريخ افريقيا فى جامعة نيجيريا وجامعة غانا . وقد عين أخيرا أستاذا مساعدا للدراسات الخاصة بالسود فى جامعة نيويورك .



الخامس والسادس عشر .

لقد كان الرقيق فى أغلب المجتمعات القديمة يظل مسترقا لمدة محددة ، وفى أغلب الحالات كان الأرقاء من أسرى الحروب المحلية ، ولم يكن لون الجلد هو العامل الذى يقرر مصير الشخص من حيث الاسترقاق ، كما كانت للأرقاء حقوق يحترمها « أسيادهم » ، ففى مصر وكوش واليونان وروما فى أوائل ظهورها ، كانت هناك قوانين معروفة تحكم العلاقة بين الأرقاء و « أسيادهم » ، وبعض هذه القوانين سجلته شرائع موسى .

وفى كتاب « تاريخ الرق وتجارة الرقيق » ذكر مؤلفه و . بليك عن الرق فى العصور القديمة ما يأتى :

« لقد أجازت الشريعة الموسوية ما كان موجودا ، قبل ظهورها ، فى الأمم المحيطة دون أن تحاول جعله نظاما ثابتا وقد نصت الشرائع اليهودية على تعديلات وتغييرات حسنت أحوال الأرقاء من أبناء هذا الشعب الذى كان يمكن لبعض أبنائه استرقاق البعض الآخر ، فاليهودي يمكنه أن يبيع نفسه اذا كان فقيرا ، كما يستطيع الأب أن يبيع أطفاله ، وكذلك الدائن يمكنه أن يسترق المدين واللصوص الذين لا يستطيعون رد ما سرقوه كانوا يباعون لمصلحة المسروق منهم . أما أسرى الحـــــرب فمصيرهم الى الاسترقاق واذا اشترى يهودى أسيرا يهوديا من شخص غير يهودى فيمكنه بيعه الى يهودى آخر .

وعند حلول عام اليوبيل (١) يطلق سراح جميع الأسرى اليهود ، دون غيرهم .

(١) اليوبيل هو الاحتفال الذى كان يقيمه اليهود كل خمسين عاما لذكرى خروجهم من مصر . « المترجم »

وتقضى شرائع موسى بأنه اذا ضرب سيد خادما أو خادمة من الرقيق وتسبب فى موته فانه يعاقب وهذا لا ينطبق الا على الرقيق اليهودى . ونصت تلك الشرائع أيضا على انه فى استطاعة أى يهودى أن يسترد حريته اذا استطاع ذلك بنفسه أو بمساعدة أصدقائه وله الحق فى ان يأخذ معه زوجته وأطفاله عند تحرره .

وهذا يدل على أن الرقيق فى العالم القديم كان يلقى بعض الانسانية ، وهذا ينطبق على آسيا وأفريقيا قديما . والواقع أنه فى افريقيا ـ خلال العصور القديمة والحديثة ـ سما بعض الأرقاء فوق نير الاسترقاق وأصبحوا ملوكا على الجماعات التى كانوا أرقاء فيها .

واذا كان وجود الرق فى غرب أفريقيا قبل اتصالها بالأوربيين مبررا لتجارة الرقيق فان نظام الرقيق الذى كان موجودا يختلف عما ابتكره الأوربيون ، ذلك لأن النظام الأوربى جرد الرقيق من الصفات الانسانية كلية وهذا التجريد استمر بطرق مختلفة خلال عصور الرق واستمر خلال فترات الاستعمار . وهذا التصرف الصليبى دعمه أساس منطقى خلقته الى حد ما الكنيسة ثم توسع فيه كتاب القرنين السابع والثامن عشر وفى تلك الفترة انبثقت الأسطورة التى تشير الى الزنوج بأنهم قوم بلا تاريخ ولا ثقافة ، واذا وجدت أسطورة واحدة أمكن ايجاد أساطير أخرى . وهذه الحقيقة يمكن فهمها بوضوح إذا أمعنا النظر فى كيفية وأسباب ظهور تجارة الرقيق .

لقد بدأت جروح أوربا فى أوائل القرن الخامس عشر تلتئم مما أصابها من الحروب خلال العصور الوسطى وخلال الحروب الصليبية . ولما كان الأوربيون قد ازدادت معرفتهم ببناء السفن ، فقد بدأوا البحث عن الطعام

لشعوبهم الجائعة ورغبة فى فتح عوالم جديدة . ولذلك تجاوزوا سواحل بلادهم بسفنهم . وهناك أسباب عديدة تعلل عدم قيام الأوربيين برحلات للكشف قبل تلك الأيام منها أن سفنهم كانت صغيرة وغير مأمونة لتحمل رحلات بحرية طويلة ، كما كانت المجاديف تستعمل لتحريك تلك السفن التى كانت تعتمد عادة على الريح ، هذا فضلا عن الحاجة الى خرائط وآلات دقيقة لارشاد البحارة خلال المياه المجهولة .

وكان الأوربيون يومئذ لا يعرفون شكل الأرض وكان البعض يعتقد أنها مسطحة . وقد انبرى البرتغاليون لدحض ذلك الاعتقاد ، وحوالى منتصف القرن الخامس عشر بدأوا التجارة مع أهالى الساحل الغربى لأفريقيا وقد أطلقوا عليه اسم « غينيا » وقد اقتبسوه من اسم « امبراطورية غانة السودانية » . وكان الذهب أهم ما تاجروا فيه ولم يمض زمن طويل حتى بدأوا يتاجرون فى العبيد كذلك .

وقد بدأت الاضطرابات الاجتماعية والسياسية تظهر وتزداد بين شعوب افريقيا فى الوقت الذى بدأت فيه أوربا تسترد قوتها وتتوحد بعض أجزائها . وكان الأوربيون الأوائل الذين قدموا الى الساحل الغربى لأفريقيا فى غير حاجة الى استعمال القوة لينزلوا بتلك الجهات ويتجولوا فيها ، لقد قدموا كضيوف وعوملوا كضيوف ولكنهم لم يلبثوا ، بعد زمن قليل ، أن قرروا البقاء كفاتحين وتجار رقيق ، ولتحقيق تلك الأهداف بدأوا ينحازون الى بعض الأسر الأفريقية المتخاصمة وغالبا ما كانوا يزودون من انحازوا اليهم بالأسلحة ، مستخدمين اياهم كصيادين للرقيق . وقد اندفعت بعض الأمم

الافريقية الى تجـــــارة الرقيق رغبة فى شراء بنــادق ومصنوعات أوربية أخرى .

ولم يكن الحافز الأساسي لقدوم الاوربيين الى أفريقيا هو البحث عن الرقيق ؛ ذلك لأنهم طالما سمعوا عن الثروات الافريقية الطائلة وفي معركة سبتة (١) عام ١٤١٥ التى شنها ضد المراكشيين الأمير هنرى البرتغالى ، الذى عرف فيما بعد باسم الأمير هنرى الملاح ، سمع هــذا الأمير ما قيــل عن الرخاء والازدهار الــذى تتمتع به تمبكتو (٢) والثروات الطائلة للدول التى تقع على الساحل الغربى لأفريقيا ، كما سمع كذلك قصصا عن ملك افريقى مسيحى يدعى « برستر جون » (٣) .

وقبل نهاية القرن الخامس عشر كان البرتغاليون قد عرفوا الشكل العام لأفريقيا وبدأوا يتجرون بانتظام مع الأقطار الافريقية منذ عام ١٤٧١ كما أخذوا فى انشاء الحصون على سواحل أفريقيــا الغربى ، وأشهر تلك الحصون هو حصن « المينا » الذى يوجد فى غانا ، وقد شرع فى بنائه عام ١٤٨٢ قبطان برتغالى يدعى « دون ديجور أزامبوجا » وبسبب الأرباح الطائلة التى جناها البرتغاليون ، أطلقــــوا على ذلك الاقليم اسم « ساحل الذهب » .

وخلال النصف الثانى من القرن الخامس عشر تجلى

---

(١) سبتة مدينة مراكشية تقع شرقى طنجة وتطل على البحر المتوسـط وكانت مراكش يومئذ تحت حكم المرينيين وقد استولى عليها هنرى هذا . « المترجم »

(٢) تقع اليوم فى مالى وكانت مركزا هاما للقوافل التجارية يومئذ . « المترجم »

(٣) شخصية اسطورية ظهرت فى القرن الوسطى ، وقيل أنه كان ملكا لاثيوبيا وأنه كان أغنى ملوك العالم فى عصره . « المترجم »

اتجاه القوميات الأوربية نحو التوسع التجارى فى الرقيق والسلع المصنوعة ، وكان زواج الملكة ايزابلا والملك فرديناند (١) وكلاهما أسبانى ، وتوحيد دولتيهما حتى أصبحت قوة كبرى تمكنت من اجلاء المسلمين عما بقى لهم فى أسبانيا عام ١٤٩٢ وبذلك أصبحت أسبانيا والبرتغال من أقوى الدول سلطانا فى البحر المتوسط .

وفى عام ١٤٤٨ استطاع بارثلميو دياز أن يصل الى الطرف الجنوبى لأفريقيا وبعد عشرة أعوام وصل برتغالى آخر هو فاسكو دى جاما الى المكان الذى وصل اليه دياز واستطاع بمعاونة ملاح عربى (٢) أن يبحر الى الهند ويصلها عام ١٤٩٨ ، وبذلك انفتح الباب امام العالم الغربى للوصول الى الهند .

وكان الأساس المنطقى لتبرير تجارة الرقيق قد وجد فعلا فى أوربا وذلك بمحاولة الأوربيين أسترقاق أوربيين آخرين من قبل . وهذا عامل تاريخى قلما ينظر اليه بعين الاعتبار . وقد بذلت جهود عنيفة للحصول على عمالة اوربية لاقتحام واستغلال المساحات الشاسعة فى العالم الجديد وخاصة فى الولايات المتحدة ومن ثم بدأ استرقاق البيض قبل استرقاق السود ، وقد ذكر الشىء الكثير عن تلك الحقيقة المؤرخ الأفرو أمريكى « ليروتبنيت الأصغر » وذلك بمجلة « ايبونى Ebony » (٣) فى نوفمبر ١٩٦٩ ، اذ قال : عندما ندرس دون تحيز مآسى التاريخ الأمريكى فسندرك لأول وهلة أن الأفرو أمريكى الذى كان الثانى فى التمتع بالتحرر من الرق ، كان الثانى كذلك فى الابتلاء

---

(١) كانت ايزابلا ملكة لقشتالة وكان فرديناند ملكا لاراجون وقد تزوجا عام ١٤٦٩ . « المترجم »

(٢) هو احمد بن ماجد « المترجم »

(٣) نعنى خشب الابنوس الاسود اللون كما تعنى أسود « المترجم » .





بالرق ، بل كان الثالث فى الواقع فقد سبقه الى ذلك الأرقاء من الحمر (١) والبيض » .

لقد كان استرقاق الرجال الحمر والبيض فى بداية استعمار أمريكا مخالفا للقانون الانجليزى اذ أن المستعمرات انما أقيمت دون أن يكون هناك تفكير أو رغبة فى اقامة نظام يحتم تبعية العمال الزراعيين للأرض التى يقيمون عليها ويعملون فيها ، كما كان متبعا فى عصر الاقطاع بأوربا ، ولكن نظام السخرة الذى كان سائدا فى انجلترا انتقل الى المستعمرات وكان مبررا لفرض نوع من الاسترقاق على الرجال الحمر والبيض وبموجبه كان على راغب تعلم أى مهنة أو صناعة ، أن يعمل سبع سنوات وأن يتحمل من العقوبات ، ومنها الجلد ، ما يقرره رب العمل (المعلم أو الأسطى) وأن عليه أن يتم تلك المدة . وكان المحكوم عليهم بسبب جرائم ضد الدولة ، وكانوا غالبا من المجرمين السياسيين ، يعتبرون أرقاء للدولة وكثيرا ما كانوا يباعون لمن يحتاج الى استخدامهم عبر البحار . وقد طبق المستعمرون هذه الأوضاع على بعض مواطنيهم من البيض .

وكان هناك فى انجلترا عدد كبير ممن يرغبون فى الارتحال الى أمريكا ولكنهم لا يملكون مصاريف السفر وهؤلاء كانوا يؤجرون أنفسهم عددا معينا من السنين مقابل الحصول على تلك المصاريف ، مع قبولهم توقيع العقوبات التى توقع عليهم ممن يتعاقدون معهم كالكى والجلد وتشويه أحد الأعضاء كالأرقاء السود تماما . وكانت هذه الأنواع من السخرة محددة المدد ولا تنتقل الى أبناء المسخرين . حدث هذا بينما كان القانون العام

---

(١) يقصد الهنود الحمر « المترجم »

هو أن الانسان الأبيض يولد حرا .

وعندما نزل المستوطنون الانجليز بأمريكا بدأوا فى استرقاق جيرانهم الهنود ، وقد أراحوا ضمائرهم بأن من حقهم أن يستعبدوا الوثنيين . وقد قابل أغلب الهنود ذلك بالهرب أو الموت فى الأسر تاركين عددا قليلا من أبنائهم فى الاستعباد ولذلك ظلت أراضى « انجلترا الجديدة » البكر فى حاجة الى أياد عاملة وهذا اقتضى البحث عن عمال بيض ثم أدى ذلك بعدئذ الى البحث عن عمال سود .

ويستطرد « بنيت » قائلا : « وكان اثنان من كل ثلاثة من البيض المستوطنين يعمل لمدة سنوات محددة فى الحقول أو مزارع الخضر وهم أشبه بالرقيق ... وكان هذا الاسترقاق للبيض هو الأساس الذى قام على أثره استرقاق السود » .

وما أوضحه بنيت يجاو ما رمى إليه المشرفون على تأليف هذا الكتاب ، فقد حاولوا دراسة تجارة الرقيق من وجهة نظر جديدة والقاء الأضواء على النواحى التى أغفلت من قبل ، فقد لعب الأفريقيون دورا أساسيا فى تعبيد الطريق للأوربيين للاقامة فى العالم الجديد ، وكان ما قام به الأفريقيون من أعمال وما أخذ من بلادهم من مواد خام ، عوامل هامة ساعدت على تقدم الثورة الصناعية الأوربية .

وقد أوضح البروفيسور لويد بست وادجار توبين وستوتن ليند (١) ، كيف أن الرق تطور مع النظام الزراعى حيث تحول الأفريقيون الى قوم أشير اليهم بانهم

(١) سنذكر ترجمة موجزة لكل منهم فى الفصول التى سيكتبونها .

زنوج ، وفى أغلب الحالات بذل كل جهد لتحطيم ثقافتهم الافريقية ثم لغتهم فيما بعد ، وكذا كل شيء يمكن ان يتذكروه قبل أن يصبحوا رقيقا . وقد تقدم هؤلاء الكتاب بأسئلة لا يمكن طرحها جانبا دون اجابات واضحة وأمينة . وهذه الأسئلة والاجابات يراد بها بدء دراسة جديدة لتجارة الرقيق والرق بصفة خاصة وفى بداية تاريخ أمريكا بصفة عامة .

جون هنريك كلارك



تجـــارة الرقيـــق

بقلم جون هنريك كلارك (١)

لكى نفهم تاريخ تجارة الرقيق وتطورها فى أفريقيا يجب أن ندرك أن الرق ـ كنظام اجتماعى ـ قديم قدم المجتمع البشرى . ذلك لأن أفراد اى شعب كانوا فى وقت ما عبيدا لشعب آخر .

والواقع أن الأوربيين استعبدوا أوربيين آخرين لمدد أطول من استعبادهم للأفريقيين ، لأن الاسترقاق كان ظاهرة سادت العالم القديم فى مصر وكوش (بلاد النوبة) وروما .

وفترة الرق الأفريقى معروفة لنا جيدا لأن لهـــا وثائقها ، ومع ذلك فهـــذه الوثائق مربكة لأن من قاموا بتدوينها انما أرادوا تبرير تجارة الرقيق . وأغلب من دونوها ، وخاصة الأوربيين ، قصدوا اتهام ضحايا الرق بالاجرام ودافعوا عن تجارة الرقيق ، ومن ثم فليس هناك موضوع أحاط التضليل والخداع بتفسيره مثلما أحاط بهذا الموضوع ، ذلك لأن تجارة الرقيق الأفريقى كتب عنها كثير ، كما كتب عن تاريخ أفريقيا دون فهم وادراك

(١) له ترجمة موجزة مع مقدمة الكتاب .

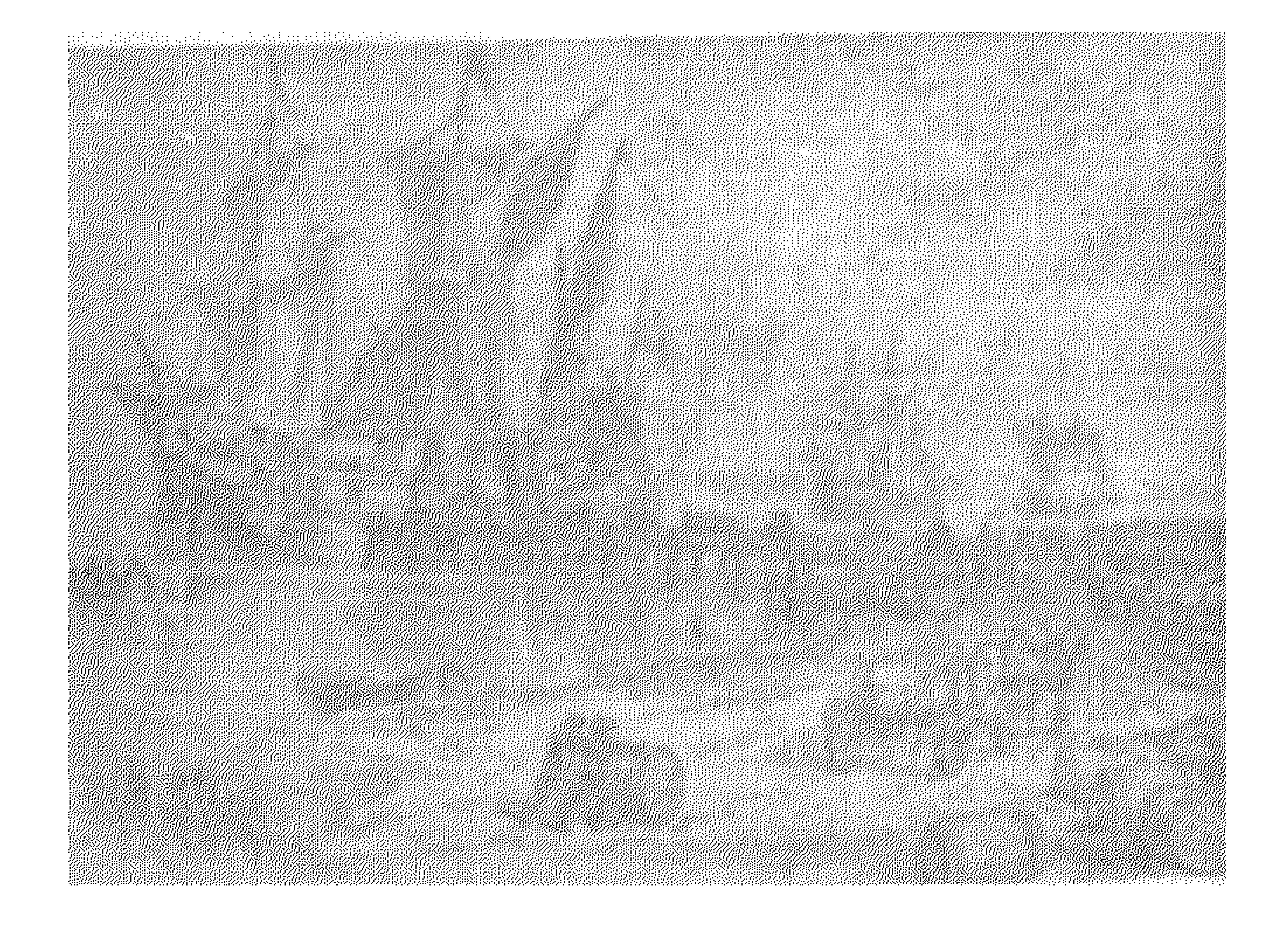
سليمين ، ذلك لأننا دائما نبدأ دراسة تجارة الرقيق الافريقى فى المكان الخطأ أى الذى لم تبدأ فيه .

وقد بدأ الدافع والأساس المنطقى لتجارة الرقيق الأفريقى فى أذهان الأوربيين فى القرنين الخامس والسادس عشر .

ومن البديهى أن تجارة الرقيق ما كانت لتنشأ لو لم يكن لها أسواق ومن ثم فقد بدأت تلك التجارة عندما بدأ الأوربيون ينتشرون فى ذلك العالم الواسع ، يومئذ أقام الأوربيون أسواق الرقيق لأهداف أوربية .

لقد كان الأوربيون قبل القرن الخامس عشر مشغولين بالشئون الداخلية لأوربا فلما اكتشف العالم الجديد وطرد العرب من اسبانيا ، بدأ الأوربيون ينتقلون من دولهم الى العالم الجديد الفسيح ، بحثا عن اسواق جديدة ومواد جديدة وأيد عاملة وأرض بكر للاستغلال ، وكانت تجارة الرقيق هى الوسيلة الوحيد التى تشبع حاجة ذلك التوسع . وفى نفس الوقت كانت اسس الثورية الصناعية قد أقيمت ، كما ظهرت بذور التكنولوجيا ومنها اختراع البندقية وفى السنوات التالية كون الأوربيون أساطيل بحرية كبيرة وحشدوا عليها مجموعات من أحط الجنود والبحارة ، مجموعات لا تشعر بأى عطف أو احترام لغير الأوربيين والهدف هو الاستيلاء على ما يمكن الاستيلاء عليه من العالم الجديد ، وبهذا قضى الأوربيون على شعوب وحضارات أقدم وأعرق مما كان بأوربا .

وكانت المشكلة الأساسية لدى الافريقيين عند اتصالهم بالأوربيين فى تلك الفترة هى سذاجتهم البالغة ، فهم لم يتعاملوا مع هذا النوع من الناس . لقد نشأوا





فى مجتمع الموارد الطبيعية فيه سخية ، تمدهم بما يكفيهم من طعام وارض وكل ما يحتاجونه من أشياء أساسية ليعيشوا عيشة راضية ولذلك كانت تلك المجتمعات الأفريقية يومئذ يسودها الشرف والالتزام الأخلاقى ، فالأرض لا تباع ولا تشترى ولم يكن هناك صراع على ملكية الأرض التى كانت ملكا للجميع .

ولما كان الأوربى قد جاء من مجتمع فيه الطبيعة قاسية ، مما تطلب الصراع مع الآخرين من أجل الطعام والأرض والنساء ، فقد اكتسب طبيعة الصراع ، الأمر الذى لم يستطع الأفريقى أن يجاريه فيه .

ولكي يبرر الأوربى هدم تلك المجتمعات الأفريقية ابتكر مبدأ التمييز العنصرى الرهيب وكانت تجارة الرقيق ونظام الاستعمار التى تلت ذلك هما أساس تلك المحنة المفجعة .

لقد كان الأوربيون — وخاصة البرتغاليين — الذين قدموا الى الساحل الغربى لأفريقيا فى القرن الخامس عشر ، لا يبحثون فى بادىء الأمر عن العبيد ، لأن الذهب وغيره من الأشياء الثمينة هو الذى أغراهم بالقدوم الى أفريقيا . ولم يكونوا فى حاجة الى الدخول للقارة كمقاتلين ولكن جاءوا كضيوف وعوملوا كضيوف . وبمضى الأيام ازدادت قوتهم فقرروا أن يكونوا غزاة وفاتحين وهكذا انقلبوا وغدروا بمضيفيهم .

وهناك أسطورة أو خرافة يجب أن نستبعدها الا وهى ان الأوربيين جاءوا الى أفريقيا لنشر الحضارة ، والواقع أن أغلب الحضارات العظمى التى كانت فى أفريقيا قد زالت بعد قدوم الأوربيين بدليل ما كان يشاع فى أوربا عن وجود مدن أفريقية يغمرها الذهب والنساء

الجميلات ، كما كانت تردد فى أوربا أســـاطير عن امبراطور عظيم فى أثيوبيا يدعى « برستر جون » (١) ولكن عندما نزل البرتغاليون بأفريقيا كان برستر جون هذا قد مات منذ ثلاثمائة عام ، ومن الغـــريب أن البرتغاليون بحثوا عنه فى الجـــانب الغربى لأفريقيا ، بينما كان مقره الجانب الآخر .

لم يكن الأفريقيون فى حاجة الى الأوربيين ليروضوهم كشعوب متوحشة وهمجية لان الاوربيين اعترفوا بأنهم شاهدوا فى بداية نزولهم مدنا أفريقية حسنة التخطيط وأن الأفريقى كان على جانب كبير من الحضارة .

وبعد خمسين عاما ، وعندما أرادوا تبرير تجـارة الرقيق ، أخذوا ينشرون الأكاذيب عن وحشية الافريقيين وأنهم يعيشون فى مجتمعات غير منظمة بلا مدن أو أية معارف عادية .

واذن فلم يأت الأوربى لأفريقيا ليدخل بها الحضارة ذلك أن الواقع يؤكد أنه ما من أمة غزت أمة أخرى الا بهدف استغلال تلك الأمة لفائدتها الخاصة ، وهذا ينطبق على البيض عندما يغزون بيضا آخرين وعلى السمر عندما يغزون سمرا آخرين وكذلك عنـــدما يغزو السود سودا ، ذلك لأن هدف كل غاز ، أيا كان لونه ، انما هو أن يؤسس ويقيم ما يتفق وحاجياته وطرق معيشته ، وفى كل حالة تكون الثقافة المحلية هى الضحية .

وهذا ما حدث عندما غزا الأوربيون الساحل الغربى لأفريقيا . لقد اعترف الأوربيون بأنهم لم يجدوا قوما غير

(١) ذكرنا نبذة عنه فيما تقدم .

متحضرين وانما وجدوا مجتمعات منتظمة يسودها النظام والجمال .

***

فى عام ١٤٣٤ أبحر أسطول برتغالى صغير الى سواحل غرب أفريقيا واقام هناك بعض محطات تجارية ، وفى عام ١٤٤١ حمل البرتغاليون من أفريقيا بعض المحاصيل الاستوائية القيمة وعددا قليلا من العبيد، اشتروهم من قبيلة أفريقية كانت أسرتهم عقب احدى المناوشات المحلية مع قبيلة أخرى . وفى عام ١٤٨٢ بنوا حصن « المينا » وهو بداية الحصون التى بناها الأوربيون على الساحل الغربى لأفريقيا لحماية أنفسهم عندما شرعوا فى تجارة الرقيق ، ذلك لأن الأوربيين فى الواقع لم يبدأوا تجارة الرقيق الا بعد انشاء تلك الحصون . وبينما كانوا يبنون تلك الحصون بمساعدة الأفريقيين كانوا يصرحون لهؤلاء الأفريقيين بأنهم قدموا ابتغاء التجارة ، وصدق الأفريقيون ما سمعوه ولم تلبث تلك الحصون أن استخدمت كمحطات لاعتقال العبيد حتى يتم ارسالهم بالسفن الى العالم الجديد .

وقد حاول الاسكندنافيون — السويد والنرويج والدانيمارك — دخول ميدان تجارة الرقيق ولكنهم لم ينجحوا واكتفوا بأن يكونوا وسطاء فى تلك التجارة .

وعندما طرد المغاربة المسلمون (أى البربر) من اسبانيا ، لجأوا الى أفريقيا بعد أن كانوا سادة البحر المتوسط لمدة ٧٥٠ عاما . ولم تكن لديهم أية رابطة عاطفية نحو أفريقيا ولذلك بدأوا ينقضون على الشعوب التى تقيم جنوب الصحراء وخاصة امبراطورية « سنغاى » فاستولوا على مناجم الملح فى البداية لأن



الملح يومئـذ كان عظيم القيمة لدرجة أن التجـار كانوا يدفعون لكل كمية ملح ضعف وزنها ذهبا ، وبعثوا بجنود الى هناك ليعززوا سلطانهم وأصبح الصراع حول مناجم الملح الموجودة على حافة الصحراء الكبرى صراعا سياسيا واقتصاديا .

وحدث شيء آخر أيضا وهو أن كرستوفر كولمبس بدأ يحاول الوصول الى جزر الهند الشرقية ولكنه اكتشف ما عرف فيما بعد باسم جزر الهند الغربية فانفتح عالم جديد أمام الأوربيين فبادروا باستغلاله .

وبعد أن فشل كولمبس فى محاولته استخدام الهنود الحمر فى الزراعة جالت بخاطره فكرة استخدام عبيد من أفريقيا ، ذلك لأنه كان قد نزل بالسـاحل الغربى لأفريقيا ، قبل رحلته الى العالم الجديد ، وأدرك تماما ما بين الشعوب الأفريقيـة من منازعات ، فأوحى الى الأوربيين بفكرة استخدام الأفريقيين للعمل فى العـالم الجديد .

وفى نفس الوقت كان البرتغال والأسبان قد كسروا شوكة البربر فى البحر المتوسط وبدأت بينهم منافسة على مناطق ينفرد كل منهما بالنفوذ فيها، وكأمم كاثوليكية اتجهوا للبابا ليحكم بينهم وقضى البابا بأن تتجه احداهما للغـرب والأخرى للشرق ونتيجة لذلك الحكم أخذت أسبانيا تتوغل فى الغـرب بينما البرتغـال اتجهت الى الشرق .

وظهر يومئذ فى البرتغال أمير يدعى « هنرى الملاح » الذى لم يركب البحر فى حيـاته ، ولكنه أخذ يبعث بحملات بحرية برتغالية الى الساحل الغربى لأفريقيا ، مستعينا بخرائط وضعها يهود اتجروا بالذهب فى شمال

وغرب افريقيا ، وكانت حملات هنرى فى البداية للتجارة ثم تحولت لانشاء محطات فى تلك الجهات .

ولما طرد العرب من آسبانيا ، وعادوا الى مراكش ، اتفق معهم سلطانها المنصور على غزو أفريقيا الاستوائية حيث توجد امبراطورية سنغاى . وكانت هذه الغزوة المعول الذى هدم آخر امبراطورية عظمى فى غرب أفريقيا وكانت الفوضى التى أعقبت ذلك هى التى أفسحب الطريق فى أفريقيا لقيام الأوربيين بتجارة الرقيق فيها .

أما الانجليز قد دفعهم السير جون هوكنز (١) الى تجارة الرقيق وجعلها عملية كبيرة مربحة ومنظمة وأنشأ مناطق للنفوذ وعقد اتفاقيات مع تجار الرقيق تعهدوا فيها بعدم التعدى على مناطق نفوذ أحدهم .

حدث هذا بينما كان البرتغاليون يطردون من بعض محطاتهم فى الجزء الشمالى من الساحل الغربى ولذا نقلوا تجارتهم جنوبا الى الكنغو ثم الى مملكة ماتامبا الصغيرة التى عرفت فيما بعد باسم انجولا ، واخيرا اتجه البرتغاليون جنوبا وأقاموا بمدينة لواندا التى بناها الأفريقيون قبل قدوم الاوربيين وكانت مدينة حديثة بمعنى الكلمة بالنسبة لذلك العصر .

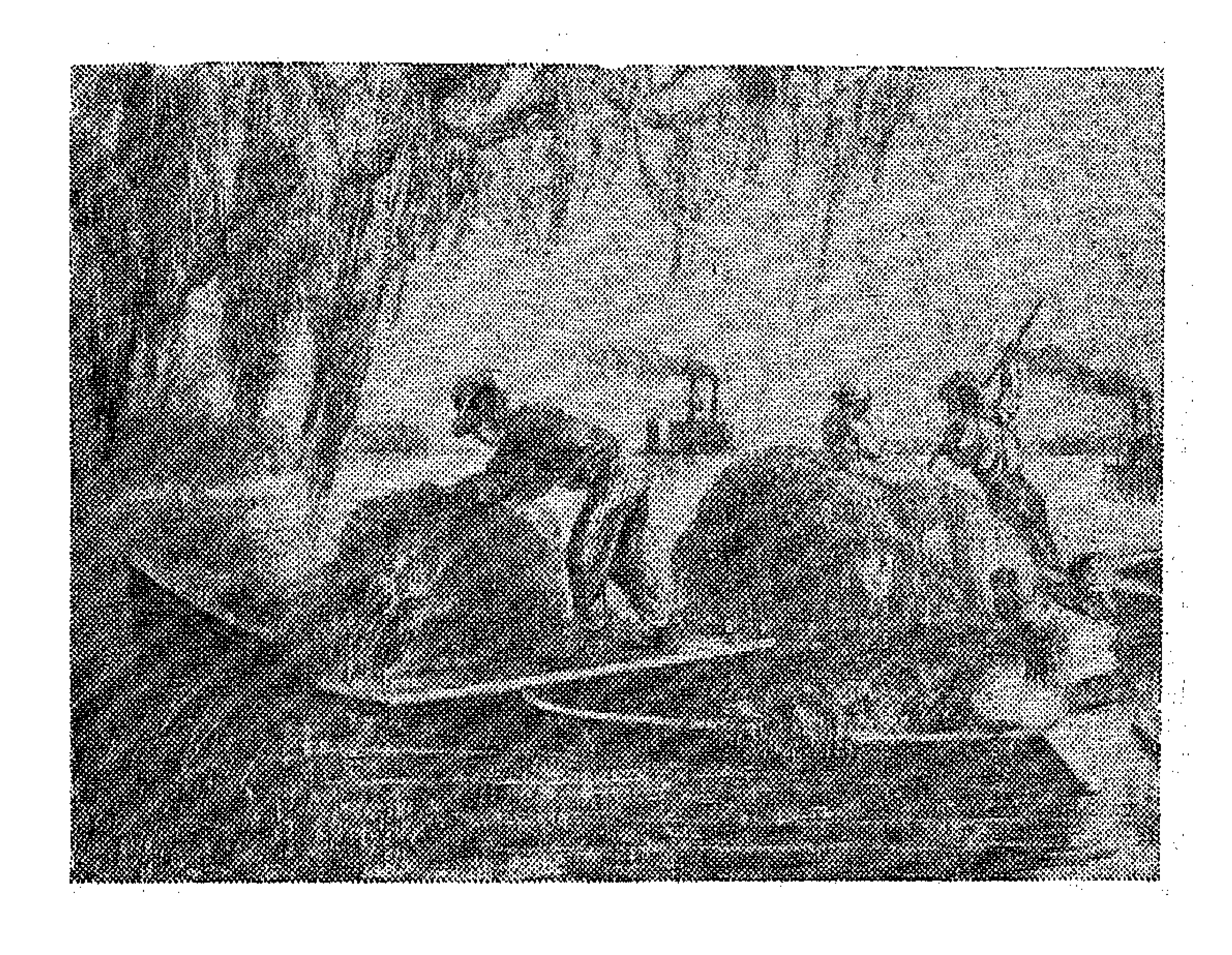
ثم اتجه البرتغاليون الى أفريقيا الشرقية ووطدوا أقدامهم فيما كان يعرف باسم مونوماتابا التى سميت باسم الملك الذى حكم اقليما فى شرق أفريقيا ، أطلق عليه الأفريقيون زيمبابوى . ولم يجد البرتغاليون

---

(١) من أبطال البحرية البريطانية فى عهد الملكة اليزابيث وكان يتجر بالرقيق فى جزر الهند الغربية واشترك فى هزيمة أسطول الارمادا الاسبانى وقد عاش من ١٥٣٢ ـ ١٥٩٥ . « المترجم »

صعوبة فى جعل ذلك الملك يعتنق المسيحية .

ونجحت تجارة الرقيق واستمر الأفريقيون ينهمرون على العــالم الجــديد وعلى الرغم من اختلاف الأرقام الخاصة بتلك التجارة فقد قدر ما خسرته أفريقيا بمــا يتراوح بين ٦٠ الى ١٠٠ مليون شخص . وكانت تلك هى الجريمة الكبرى الفريدة فى تاريخ العالم التى ارتكبت ضد قوم ، لقد كانت أفجع مأساة خططت للابادة الجماعية لبعض شعوب أفريقيا .



تجـــارة الرقيــق
فى العــالم الجديــد

بقلم جون هنريك كلارك

لم يكن الأفريقيون غرباء بالنسبة للعـــالم الجديد اذ يبدو انهم اقاموا فى أمريكا الشمالية الجنـــوبية فترة طويلة قبل ظهور الاسترقاق والدليل على ذلك هو تلك المعالم الأفريقية الواضحة على بعض التماثيل في المكسيك وأمريكا الجنـــــوبية مما يدل على أن الأفريقيين كانوا موجودين بالأمريكتين قبل كولمبس بمئات السنين ، وهذا الرأى أكثر من مجرد افتراض وقد اثبتته البحوث التى نشرها البروفسور ليو وينر فى كتابه « أفريقيا واكتشاف أمريكا » وما كتبه هارولد لورنس فى كتاب آخر يسمى « رواد أفريقيون للعالم الجديد » .

ولم يكن الافريقيون الأوائل الذين جاءوا الى العالم الجديد من الرقيق عكس ما هو شائع ، فقــد ساهم هؤلاء فى بعض الحملات وخاصة الأسبانية واشهر هؤلاء الأفريقيين الرواد « استيفانيكو » الذى يعرف أحيانا باسم « ستيفن الصغير » الذى صحب حملة « فاكا » خلال تجوالها ستة أعوام من فاوريدا الى المكسيك . والشيء الجديد بالنسبة لاستيفانيكو الذى قــدم الى امريكا عام ١٥٢٧ ، أنه كان يتقن عدة لغات فقد تعـلم

لغة الهنود الحمر فى أسابيع قليلة ولمعرفته بخصائص الأعشاب وبعض النواحى الطبية اعتبرته بعض القبائل الهندية الها .

وفى عام ١٥٣٩ صحب جماعة بقيادة فراى ماركوس دى نيزا » بحثا عن مدن سيبولا السبع الخرافية ولم تلبث تلك الجماعة أن منيت بالمرض بما فيهم فراى ماركوس ، ولكن استيفانيكو سار وحده واكتشف ما يعرف اليوم باسم مكسيكو الجديدة واريزونا .

وقد ذكر بعض المؤرخين أن بدرو نينو Pedro Nino أحد المرشدين على السفينة القيادية لكرستوف كولمبس ، كان أفريقيا . وفى محاولة اكتشاف المحيط الهادى عام ١٥١٣ كان مع بالبوا ثلاثون أفريقيا ، ساعدوا فى كشف الطريق عبر البرزخ الذى يفصل بين المحيطين . وفى فتح المكسيك كان يصحب كورتز عدد من الافريقيين، ومن الغريب أن أحدهم كان رائدا لزراعة القمح فى العالم الجديد .

وفى جواتيمالا وشيلى وبيرو وفنزويلا وصل اليها جميعا الأفريقيون بنحو مائة عام قبل كشف الأوربيين لها فلما قدم الأوربيون أصبح هؤلاء عبيدا فى جيمس تون وفرجينيا عام ١٦١٩ .

واذن فقد ساهم الأفريقيون فى تكوين العالم الجديد الذى لم يأتوا اليه فارغو الأيادى من النواحى الفنية ، بل نقل عدد كبير منهم مهارات عديدة للعالم الجديد كاشغال الحديد والجلد والنجارة . لأن دول أفريقية الغربية كغانا وسنغاى عاشت فى مجتمع كانت الحياة الجامعية فيه أمرا عاديا وكان طلاب العلم موضع الاجلال ، وذلك قبل تحطيم الهيكل الاجتماعى لتلك



الدول والصراع الداخلى الذى ساعد على قيام تجـــارة الرقيق .

فى تلك الفترة من تاريخ غرب أفريقيا ازدهرت جامعة ســـانكور فى تمبكتو وكان مديرها « أحمد بابا » آخر جهابذة العلم فى غرب أفريقية اذ ألف ٤٧ كتابا ، كل منها فى موضوع خاص ، ومما يزيد تقديرنا له أنه تلقى تعليمه داخل أفريقيا ولم يغـــادر السودان الغربى الا عنـــدما نفى الى مراكش خـــلال غـزو ذلك الاقليم عام ١٥٩٢ .

لذلك يمكن القول أنه كان فى افريقيا ، قبل بدء تجارة الرقيق ، حياة ثقافية تعادل ان لم تتفوق على الثقافات الأوربية الموجودة فى أوربا يومئذ وأن تجارة الرقيق قد أودت بتلك الثقافة الأفريقية وخلفت محنـــة لم يستطع الأفريقى أن يتخلص منها حتى الآن .

لقد كان بأفريقيا فيما مضى حكام توسعوا بممالـــكم حتى صـــارت امبراطوريات ، وجيوش كبيرة أخضعت أمما بأكملها وقواد نهضوا بالفنون الحربية وعلماء اتصفوا بالحكمة وأصالة الرأى ، ورجال دين تحدثوا عن آلهة رحيمة ذات بأس شديد ، غير أنه ويالاأسف بذلت كل الجهود لمحو أى ذكرى تتصل بهذا الماضى المجيد فى ذهن الافريقيين المجلوبين الى أمريكا .

وكانت الزراعة فى العالم الجـــديد هى أكبر محطم للثقافة الأفريقية وأفظع مستغل للأفريقى الذى أصبح يسمى « زنجى Negro » يعامل باحتقار ويجرد من انســـانيته ، الأمر الذى لم يكن له وجـود الا على يد الأوربيين . ولتحقيق ذلك الهـــدف أخذ الأوربيون ينشرون من الأساطير والخرافات ما يؤدى الى الاعتقاد

بأن الأفريقي خارج عن نطاق التاريخ الانساني ، واتخذ الأوربيون من الكنيسة الكاثوليكية مؤيدا لهم فتطوعت لتبرير الرق بزعم أن الأفريقي ، بفضل الرق ، قد اهتدى للمسيحية واستظل بها وأصبح أهلا لأن ينال بركاتها .

وكانت هناك عدة نظم يخضع لها الرقيق في العالم الجديد ، ولكي ندرك أثر هذه النظم المتباينة على شخصية الأفريقيين فعلينا أن نلقى نظرة على كل منها .

في كوبا وهايتي كان الأفريقيون أغلبية السكان وهذا ينطبق على مناطق في البرازيل ولذلك كان نظام المعاملة يختلف من منطقة لأخرى في تلك الجهات ، ولو أنه لم يخرج عن حدود الرق الا أن الأفريقي كانت لديه بعض الحرية للتمتع بما ورثه من تراث أفريقي . ففي جنوب أمريكا وفي جزر الهند الغربية لم يحظر صاحب العبيد الطبل الأفريقي أو أدوات الزينة أو الدين أو الأشياء الأخرى الحبيبة الى الأفريقي والتي لا يزال يذكرها . وهذا أتاح وجود صورة من صور الاتصال الثقافي بين العبيد في الهند الغربية وكوبا وأمريكا الجنوبية ، مما لم يوجد في الولايات المتحدة .

وفي المناطق البرتغالية في الهند الغربية ، وغالبا في أمريكا الجنوبية كان صاحب المزرعة يشترى حمولة أو نصف حمولة سفينة من العبيد وهؤلاء يجلبون عادة من نفس المناطق في أفريقيا ، ويتكلمون بطبيعة الحال نفس اللغة ولديهم نفس الثقافة . وجرت العادة على عدم تفريق أفراد الأسرة الواحدة واذا بيع عبد الى صاحب مزرعة في الطرف الآخر من الجزيرة ، كان في استطاعته أن يأتي ليزور أقاربه في المزرعة الأولى . مما ساعد

على جعل ثوراتهم في أمريـكا الجنوبية وكوبا وتاهيتي اكثر نجـــاحا من الثورات التي قـامت في الولايات المتحدة .

ففي الولايات المتحدة ، كانت الطريقة التي استعملت لتحطيم كل عنصر ثقافي لدى العبيد طريقـة وحشية أزرت بكيانه وأنكرت شخصيته ونزلت الى حد بيع أفراد من الأسرة ، الواحد بعيدا عن الآخر ، دون اكتراث . فاذا اشترى شخص عشرين عبـــدا في بداية الأسبوع وشعر بحاجته الى نقود في نهاية ذلك الأسبوع فقـد يبيع عشرة عبيد اذا وجد الثمن مناسبا وقد يباع هؤلاء العشرة خلال أيام قلائل وبذلك تحطم نظام الأسرة الذي قامت عليه الحياة الأفريقية ، بعكس الحال في جنوب أمريكا حيث أتيح للرقيق أن يبقى مع جماعته وأسرته ، وبذلك احتفظ ببعض تراثه الافريقي .

وعلى الرغم من تلك المخازي المفجعة فان الأفريقيين في الأمريكتين ، بما في ذلك الولايات المتحدة ، قـد ساهموا في تدعيم الأقطار التي كانوا بها عبيدا .

وهنالك ناحية تفـــوت الكثيرين الا وهي دور المرأة الأفريقية في العالم الجديد . ذلك أنه في المـائة سنة الأولى بعد اكتشاف أمريكا ، كان عـدد النساء البيض المهاجرات اليهـا قليلا نسبيا ولذلك تكونت أسر عديدة في العالم الجديد من « السيد » الأبيض والمرأة الأفريقية ، غير أن هذا « السيد » الأبيض نفسه ، لم يلبث أن سن قوانين تحرم التعليم على طفله وتحظر جلوسه بجـواره في وسائل الانتقال العـامة . وفي هايتي كان للمرأة الأفريقية وضع شبه شرعي ، بينما كانت الأفريقية في أمريكا الجنوبية وخاصة في البرازيل تتحرر من الرق اذا



تزوجت « السيد الأبيض » . وتلك الزوجات الافريقيات بدأن فى توجيه أنظار أزواجهن الى العمل على تخفيف ويلات نظام الرقيق . وعلى العكس لم تقسم بالولايات المتحدة أية محاولات مماثلة .

وفى بداية تلك الفترة سيطرت على العبيد فى هايتى وكوبا نزعة الحرية التى تمتعوا بها فى أوطانهم الأصلية ولذلك بدأت الحروب فيهما للتحـــرر من سادتهم الأوربيين ، وساهم الأفريقيون فى تحرير كوبا وهايتى وبعض جهات أخرى فى أمريكا الجنوبية ، كما قاتلوا الى جانب سيمون بوليفار لتحـــرير أمريكا الجنوبية واستبسلوا فى سبيل تحرير هايتى من ســيطرة الفرنسيين .

وعندما ثار الأمريكيون بالولايات المتحدة ضد الانجليز قاتل كثير من العبيد بعـــد أن وعدوا بتحريرهم فيما بعد . وجدير بالذكر أن فريقا آخر من العبيد قاتل مع البريطانيين بتأثير نفس الوعـــد ، وصـــدق العبيـــد فى المعسكرين المتحاربين هذا الوعد .

لقد ساهم الأفريقي بأكبر جهـــد فى بناء العـــالم الجديد الذى اعتمد فى كيانه الاقتصادى الى حد كبير على اليد العاملة الأفريقية ، يؤيد ذلك أن ثلث تجـــارة العالم الجديد كان يقتصر على جزيرة سانتو دومنجو التى سميت هايتى فيما بعـــد ، والتى أثرت مع بعض جزر الكاريبى الأخرى على النظام الاقتصادى فى أوربا .

لقد كانت تجارة الرقيق أول استثمار دولى لرأس المال على نطاق واسع وقد أثرى كثير من الأوربيين نتيجة استثمار أموالهم فى شراء السفن لنقل العبيـــد والسلع الأفريقية .

ولكن ثورات العبيد استمرت وبدأت صورة الرق تتغير بشكل واضح ذلك لأن ضروريات الاقتصاد وليس التعصب الجنسي هي التي تحكمت منذ البداية في توجيه تجارة الرقيق في العالم الجديد . وكانت أولى الثورات في الولايات المتحدة ، هي انضمام بعض العبيد الى بعض الخدم البيض الثائرين عام ١٦٦٣ . ومرت عدة سنوات اطلع خلالها بعض العبيد على ما ورد في التوراة من نصوص تؤكد أن الله خلقهم ليكونوا احرارا . وكان ممن تمسكوا بتلك النصوص ونادوا بها جبرائيل بروسر في فرجينيا ، الذي تزعم ثورة من ٤٠٠٠٠ عبد في سنة ١٨٠٠ . وتلاه في عام ١٨٢٢ نجار يدعى دنمارك فيسي في كارولينا الجنوبية الذي دبر احدى الثورات العامة ولكنه وشي به فاعدم مع كثير من اتباعه . وفي عام ١٨٣١ قاد نات ترنر أعظم ثورة للعبيد في فرجينيا .

من ذلك يتبين أن العبيد لم يقفوا موقفا سلبيا من محنتهم فقد ذكر دكتور « هربرت ابتكر » ٢٥٠ ثورة لهم في كتابه « ثورات العبيد الزنوج في أمريكا » فالأفريقي في الامريكتين ، فضلا عن معاونته في استقلالها وتدعيم أقتصادها قام بدور كبير في سبيل استرداد حريته .

وفي قصة قيام وسقوط الدول الأفريقية الكبرى وما تبع ذلك من تجارة الرقيق ، نعالج موضوعا أكبر بكثير من التاريخ نفسه ، نعالج موقفا قديما وآخر جديدا ، موجهين الحديث الى المطالبة بالمام بتاريخ السود وقوة السود .

وهدفنا الأساسى هو أن نوضح ان الافريقيين الذين اصبحوا عبيدا في الولايات المتحدة كانوا أفرادا عديدين منهم الصالح والطالح ، وهم قد حكموا أمما كبرى

وحطموا دولا عظمى وهم فى سماق أنفسهم بشر ، قاموا بكل ادوار البشر فى الدراما البشرية ، وكان من بينهم القديس والمهـــــج ولذلك فان الرق لا يمثل تاريخ الأفريقيين بصفة عامة .

اننا نحاول أن نوضح معنى « تراثنا الأسود » وان نبين ما يقصد به لقوم خرجوا من ظلام الرق الى نور الحرية وبذلك عادوا ليشاركوا فى تكوين تاريخ العالم .

وخير تعريف للتراث أو التاريخ هو أن التراث شيء يكتسب أو ينقل عن الأسلاف ولكنا عندما نتحدث عن قومنا (السود) وجدنا تعريفا جديدا أفضل مما سبق .

قال « جود فاندر كوك » فى كتـــــابه « توم توم » « الجنس أشبه بالانسان ، لا يمكن أن يؤدى دوره كاملا الا اذا استغل مواهبه واعتز بتاريخه » فالتراث فى جوهره هو كيف استفاد الناس من مواهبهم فى اكتساب احترام الآخرين ، وان الهدف الأقصى لتراثنا والالمام به انما هو أن نبين لقومنا كيف أنه من خـلال تمسكهم بذاتيتهم واحترامهم لانفسهم ، يمكنهم العمل على تحرير أنفسهم من قيود الاستعباد القـــديمة ، لأن ارتباط الشخص بتراثه هو كالصلة بين الطفل وأمه .



النظام الاقتصادى للتعمير

بقلم لويد بست (١)

سأقدم فيما يلى صورة كاريكاتورية تبين كيف نهض النظام الاقتصادى للتعمير فى الكاريبى (٢) وكيف فشل .

لنبدأ برحلة خيالية ولنتخيل أننا رجعنا الى القرن الخامس عشر وأننا فى مكان ما على الساحل الشمالى للمحيط الأطلنطى حيث يحيط بنا عالم صاخب وحضارة نشأت منذ العصور الوسطى وعلماء يتبادلون المعلومات القيمة ويعملون على احياء المعارف الكلاسيكية ، ويتناقشون بصراحة ووضوح ، مما اضطر الكنيسة أن

---

(١) لويد بست من أبناء جزيرة ترنداد وهو ثقة فى التقدم الاقتصادي لمنطقه الكاريبى ، تعلم فى جامعات الولايات المتحدة وهو مستشار دائم لاقتصاديات جزر الهند الغربية • عمل زميلا بمعهد البحوث الاجتماعية والاقتصادية بجامعة جزر الهند الغربية بترنداد وهو الان يحاضر بها ، وهو مستشار اقتصادى للتعمير فى ترنداد وتوماجو وغينيا البريطانية ومستشار لبرامج الاسعار العالمية للطعام بهيئة الامم المتحدة • وقد شارك فى عدة دراسات بجامعة « ماكجيل » بكندا ومدرسة الدراسات العليا بجامعة باريس ، كما نشر عدة مقالات عن اقتصاديات البحر الكاريبى وهو منشىء ومحرر مجلة « العام الجديد » التى تصدر كل ثلاثة شهور •

(٢) البحر الذى يقع جنوب جزر الهند الغربية وشمال شرق أمريكا الوسطى « المترجم » .

ترخي من تشددها ازاء تلك العقـــول المتطلعة للمعرفة والتي خطت خطوات واسعة في الجغـــرافيا والهندسة واقامة حضارة تكنولوجية .

وها هم مختلف التجار يحررون أنفسهم من مضايقات النظام الاقطـــــاعي ويندفعون نحو التكنولوجيا التي ستزودهم بما يجعل تجارتهم أكثر ربحا ، فضلا عما توفر لديهم من خرائط ورسوم أكثر اتقانا وسفن أكبر وأسرع وأسلحة نارية أعظم فتكا .

وبعد مرور قرون كلهـــــا فشل ، بدأ الأمل يتحقق وانحسر الاسلام (عن أسبانيا) واندمجت الاعتبارات الاخلاقية والتجارية والفنية بعضها البعض عندما ولج القوم في البحر ، انها الكشوف والحرب والتجارة مما دفع بالرواد للتزاحم حبا في الثراء .

لندعو البابا ليحكم في الصراع على الشرق والغـرب ولنتتبع ثروات الغرب ، وتبعا لقصص البحارة يوجد وراء الأفق جهة الغرب عدة جزر ، كجزر الأزور (التي تقع في المحيط الاطلنطي غرب أسبانيا) ونخص بالذكر منها جزر الانتيل (مجموعة الجزر الواقعة بالبحـــر الكاريبي وأهمها كوبا وهايتي وجمايكا ... الخ (والجزر المفقودة التي كانت بها المدن السبع .

لقد كان لأحد البحارة وهو كولمبس مهمة خاصة ذلك أنه أراد ان يذهب الى الشرق عن طريق الغرب ، أن يذهب الى الهنـــد ، فاذا لم يتيسر له ذلك فسيكتشف على الأقل أراضي جديدة .

ونبدأ الآن بافتراضنا الشكلي الأول وهو ذلك الجزء من التكوين التاريخي المسرحي لتلك الجهات في اطـــار الاقتصاديات .

كانت توجد فى البداية تلك الأراضى البعيدة العامرة بالخيرات بينما تقع وسط العالم مدن كبرى هى مراكز للمشروعات التجارية والهيئات الاقتصادية والتكنولوجيا والمال وكل الوسائل المطلوبة للانتاج والتجارة .

ثم كان هنـاك الشرق والغـرب لاستغلالهما ، وفى استطاعة رءوس الأموال أن تتولى مهمة الحصول على الحاجيات التى يمكن أن تحقق التجارة فيها ربحا فى تلك المدن الكبرى . ولا يهم كثيرا نوع تلك الحاجيات سواء أكانت معادن ، منتجات الغـابات ، فراء أو منتجات زراعية كالسـكر والقطن والتبغ ، بل المهم أنه أمكن الحصول عليها .

وافتراضنا الثانى هو أن هدف التجـارة مع تلك الأراضى الغنية هو الحصول على ربح تحصل عليه تلك المدن الكبرى .

والافتراض الثالث يتصل بالمدة التى يتحقق فيهـا الربح ، ذلك ان أى مشروع تجارى بين مدينة كبرى وبين منطقة بعيدة يحيط الغموض بطبيعتها يجب أن يستغرق زمنا طويلا وأن الربح يجب أن يكون مجزيا وعاجلا . والذى يستخلص من تلك الافتراضات الأساسية الثلاثة هو أن المبادرين الى تلك المشروعات لا يرون من الضرورى أن تـكون لهم اقامة دائمـة فى تلك الاراضى أو انشاء مستوطنات يستطيعون العيش بها .

والفرض الرابع يتعلق بالطريقة التى يمكن بها انشاء مثل تلك المستوطنة ذات الهدف الاقتصادى . ولتحقيق أكبر ربح فى أقصر مدة فان النظام المثالى لذلك هـو اقامة مؤسسة أو منشأة كمزرعة مستكملة لكل ما تحتاجه، تتوفر فيهـا القوى العاملة المقيمة التى تضم ارقاء أو

بعض عمال بعقود لمدة معينة .

فاذا استطاعت تلك المستوطنة أن تكفي نفسها بنفسها من المواد الاستهلاكية والمعدات وكل الاحتياجات الأخرى ، فان مديرها وكبار موظفيها يمكنهم التقليل من تكاليف اعاشة العاملين (العبيد فى تلك الحالة) وتوجيه ما يتوفر الى زيادة الربح . وهذا بالطبع لا يتيسر تحقيقه الا فى المناطق غير المأهولة بالسكان أو فى المناطق التى تكون فيها القوة الحربية والمقاومة الثقافية من الضعف الشديد بحيث يمكن حشد السكان فى منشآت جماعية كالمزارع .

وهذا ينطبق تماما على ما كان عليه الحال فى بحر الكاريبى ، فجزر الأنتيل التى وجدها كولمبس أثبتت أنه لا توجد بها المدن الخلابة التى تخيلوها ولكن ما وجده كولمبس هو عدد قليل جدا من الهنود الحمر فى حالة فوضى نسبيا .

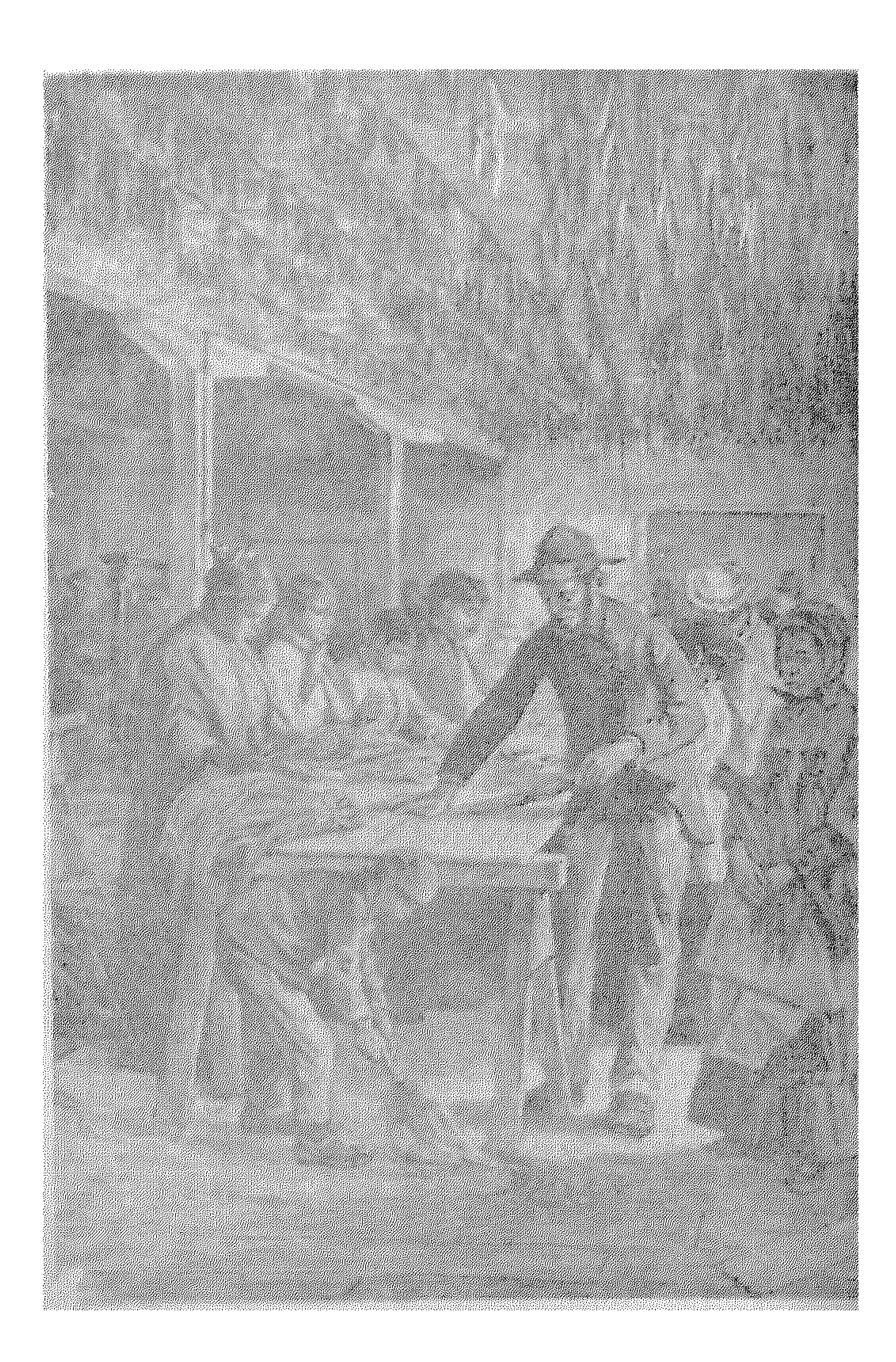
ولتحقيق التعمير هنا ، كان لابد من جلب اليد العاملة من الخارج حيث يمكن السيطرة عليها ومراقبتها لسببين : أولهما أنه لا توجد أية جذور ثقافية فى تلك الجهات وثانيهما أن تلك الأقاليم كانت جزرا ، مما يحول دون هروب عدد كبير من الأيادى العاملة . ولم يكن لتلك المزارع سوق للعمالة أو للسلع أو راس المال ، بل ان كل مزرعة كان اتصالها مع البيت التجارى أى الشركة الموجودة بالمدينة الكبرى التى يشرف عليها ويديرها ، ويقدم لها ما تحتاجه من أموال وقواعد الانتاج والخبرات الادارية والفنية لضمان استمرار الانتاج . وعندما بدأ الانتاج ، أخذ البيت التجارى فى تسلم ما يفيض ونظم طرق نقله ودبر أمر بيعه . وعندما

توطدت العلاقات بين كل مزرعة أو مزارع وبين أصحابها الأصليين فى المدن الكبرى ، أصبح من الضرورى أن يكون اقتصاد تلك المنشآت مدعما من النواحى القانونية والسياسية بما يمكن مديرو المزارع من بسط السيطرة الاجتماعية والمعنوية على تلك المزارع ، ومن ثم كان لابد لتلك المزارع من نظام حكومى .

والافتراض الخامس يتصل بطبيعة الحكومة فى هذا النوع من المجتمعات أى المجتمع الذى يتكون أساسا من مزرعة . ان عمل الحكومة هنا هو المحافظة على القانون والنظام فى الحدود التى تضعها المزرعة ذلك لانها تزود بالأيدى العاملة والمعدات حسب حاجتها . وباعتبار المزرعة هى السلطة العليا فعليها واجب عسكرى أيضا . ولكن مهماتها المدنية واضحة ومعينة وفى أضيق الحدود . والعبء المدنى الواقع على حكومة المزرعة إنما هو تنظيم ملكية واستغلال الارض . وفى نظام المزارع لا يوجد للسكان العاملين أى حق فى تملك الارض ، ذلك لأن الأرض ملك للحكومة واستغلالها حق لها وحدها .

وقبل أن ندرس كيفية تطبيق مثل هذا النظام الاقتصادى فمن الضرورى أن نوضح دون لبس بعض الافتراضات الأخرى . فالاستقرار الداخلى لأية مزرعة وبالتالى المجتمع الذى تتكون منه يحتاج الى التقارب بين العبيد أو العمال ذوى العقود وبين السلوك المطلوب منهم .

واغلب أفراد القوة العاملة يكيفون أنفسهم حسب نظام المزرعة وهذا هو ما ينتظر منهم غالبا ، كما فى حالة الكاريبى اذ انهم يختارون أساسا من جهات اخرى وبذلك ينقطعون عن ثقافاتهم الأصلية دون أن تكون لديهم



فرصة للاندماج مع الثقافات الوطنيـــة بينما النواحي البيولوجية والاجتماعية والنظم الاقتصـــادية داخـــل المزرعة ومجتمعها من المرونة بحيث تسمح بالاتصـــــال الاجتماعي بشرط الا يكون فى ذلك تهديد للنظـــــام القائم .

والذى يحدث فعلا يتوقف على عدد من العوامل ، من بينها حدة الصراع الثقافى والأيدلوجى بين السكان العاملين والموظفين وتأثير القيود الاجتماعية ومدى ملاءمة الأرض للأعمال الحربية وهكذا . فاذا حدث تسيب فى القوى العاملة ، كما فى حالة فرجينيا فان ذلك سيؤدى الى انهيار النظام الأساسى .

وعلى أية حال فمن المحتمل أن روحا من الاستياء ضد السلوك المطلوب التزامه ستعم وتعبر عن نفسها بسلوك عكسى ، وحتى لو بقى النظام الموضوع ، فسيكون هناك توازن بين السلوك وسينفسح المجال للملتزمين بالعرف والعادة ولمن سيحاربون الخروج على تلك النظم بطريقة سرية . ومن ثم سيتوقف سلوك الرقيق العـادى على الوضع الذى سيجد نفسه فيه ، فالذين سيخرجون على النظام علنا فسيضرب على أيديهم بشدة وقـد يستطيع بعضهم الهرب فاذا نجحوا فستكون لدينا ظاهرة العبيد الآبقين (الفارين) .

وفى داخل المســـتعمرات نفسها كانت متطلبـات المحافظة على النظام الاجتماعى تحول دون اى تغيير ، لأن الأوضاع القائمة كانت كفيلة بالمحافظة عليه .

وبذلك نصل الى الافتراضين السابع والثامن ، ذلك أن أذواق المستهلكين من العمال يجب أن تخضع لما يستورد ، كما أن نظم الانتاج يجب أن تظل ثابتة ، فحيثما

كانت الرغبة شديدة فى الربح السريع ، بينما عملية الانتاج تعتمد على عمال مهرة فى الزراعة وتغذيتهم بأقل قدر من المؤن لتوفير وكسب أكبر قدر من المال ، فان المزرعة سترتكز على عاملين للانتاج : الأرض ورأس المال الذى هو أساس ذلك العدد من العبيد الموجودين .

والخلاصة أن لدينا نظاما اقتصاديا يتكون من مجموعة من المزارع تنتج محصولا واحدا للتصدير وأن هذا النظام مرتبط بالدولة الكبرى اى انجلترا ، بالعلاقة القائمة بين المشرفين على المزرعة وبين البيوت التجارية التى تملكها .

والآن لنرى كيف يسير اقتصاد المزارع . انه بطبيعة الحال اقتصاد تجارى فكل ما لا يستهلك بالمزرعة يصدر وكل ما تحتاجه المزرعة ولا تستطيع انتاجه يستورد والعامل الحاسم فى ازدهار أية منشأة انما هو القواعد التى تتبعها التجارة . ومن العبث أن نطوع عوامل الازدهار تبعا للمستوى الاقتصادى للمزارع ، اذ يجب أن نأخذ فى الاعتبار مصلحة أصحاب المزارع الاصليين وشركائهم ، كما أنه من العبث أيضا بالنسبة للمشرفين على الزراعة أن يكون انتاجهم قاصرا على الاستهلاك المحلى ، اذ فى هذا اغفال للدافع الحقيقى من انشاء المزارع ، كما أنه لن يثمر فائضا يرسل الى أصحاب المزارع لمواجهة المتطلبات المالية المتزايدة فى مقدار أعمالهم .

فاذا تعقدت الأمور بالنسبة للمشرفين على المزارع فانهم يتحولون من زراعة محصول معين الى زراعه محصول آخر مطلوب للتصدير وكذلك يمكنهم انتاج محاصيل استهلاكية اكثر لتحل مشكلة الاستيراد وأخيرا

فى استطاعتهم رفع كفـــاءة الانتـــاج لزيادة المحاصيل المصدرة .

فاذا ازدادت الحالة سوءا فان المشرفين على المزارع يستهلكون رأس المال ، ذلك لأنهم سيقترضون لاطعـــام العبيد وغالبا ما تكون الوجبات أقل مما يقيم أودهم ، أو يقللون من المصروفات بتشغيل العبيد مددا أطول مع تقديم نفس الوجبات الناقصة .

ولكن تشغيل العبيد فوق طاقتهم وتقليل مقـــادير وجباتهم سيؤدى الى تأخير اصلاح الاوضاع والتقليل من هيبة القانون والنظام .

والاقتراض لاطعام العبيد قد يكون أمثل الحلول حتى لو تطلب الأمر رهن الايرادات المقبلة .

وأحد نتائج الأرباح الوفيرة من انتاج المزارع هو ظهور طبقة من الأثرياء ، سواء من اصحابها أم من مديرى المزارع والنتيجة الثانية هى انتقال ملكية المزارع بمـــا عليها من أصحابها الى مديريها بالشراء ، لأن أصحابها يفضلون توفر المال لديهم لاستثماره فى مشاريع جديدة . ويبدأ مديرو المزارع أو أصحابها الجـــدد حياة ذات مستوى رفيع مما يضيف مبالغ جديدة الى المصروفات .

وقد تظهر عوامل محبطة منها اجهاد الارض الذى يزيد التكاليف ، لما تحتاج اليه من مخصبات ، كما أن الانتقال الى أرض بكر جديدة واعدادها ليس أمرا سهلا وخاصة على جزيرة .

لذلك كان لابد لزيادة الانتاج من استخدام عبيد اكثر عددا فى مساحة محددة من الارض الجيدة ، وزاد المشكلة تعقيدا صعوبة الحصول على العبيد لأن التوسع فيما

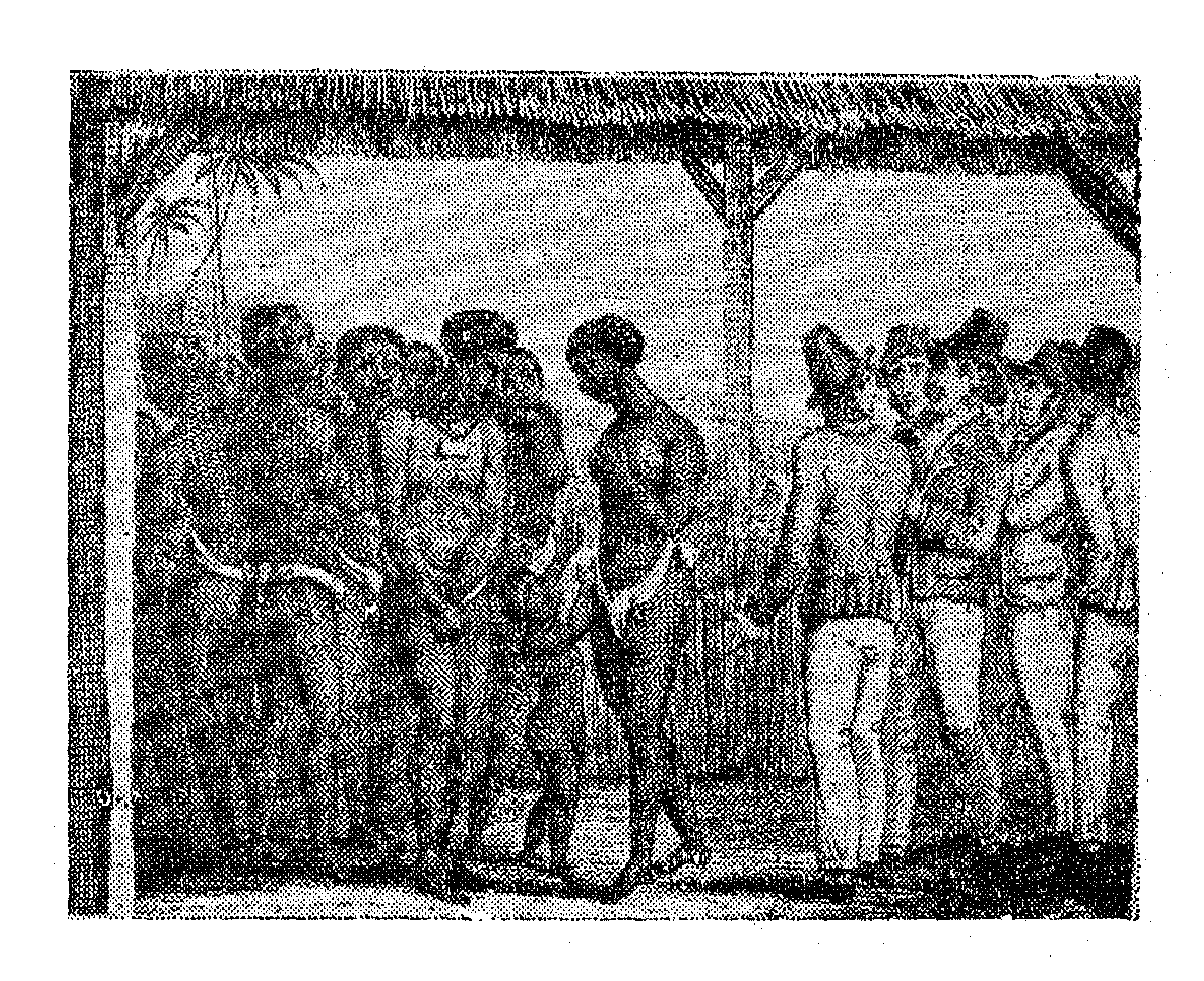
مضى رفع من اثمانهم مما يزيد فى التكاليف . وكان ظهور الطبقات الصـــناعية وازدياد الثروة فى الدول صـــاحبة المستعمرات عاملا على اضطراب المجتمع فى تلك الدول اكثر من ذى قبل وأصبح لا مفر من الحرب وكشوف جديدة ومزيد من التجارة .

ونتيجة لكل ذلك بدأت أسعار الصادرات تهبط بسبب وفرة المحـاصيل فى العـــديد من المستعمرات وتسوء الحـالة ويصبح البيع عسيرا والاقتراض صعبا ويبدأ أصحاب المزارع فى استهلاك رووس الأموال بطريقتين أولاهما بالاقتراض للمحـــافظة على مستوى معيشتهم وثانيتهما بانقاص المقادير المخصصة لتغذية العبيد وزيادة ساعات عملهم ، والكساد الاقتصادى يتبعه تقلقل اجتماعى وسياسى .

ولما كان اعطاء العبيد ارضا وفرصا للاشتراك فى ذلك النظام على قدم المساواة مع منحهم وقتا كافيا لانتـاج طعامهم ، فيه اهدار للنظام القائم وتشجيع على الخروج عليه ، وحرمانهم من ذلك هو تحريض على العصـــيان والثورة ، هذا فى الوقت الذى يضاعف فيه الاقتراض من عدم الاستقرار ... كل ذلك يوقع المزارعين فى حرج ولا يجدون لهم معينا الا فى الدولة التي يتبعونها وحيث تحول الرغبة فى النهوض بالأحياء الفقيرة دون أمدادهم بما يحتاجون اليه من مال .

ومهما يكن من أمر فـان العون المطلوب قد يـكون بتنظيم البيع ولكنه يتعارض مع مصالح طبقة المشتغلين بالصناعة وقد يكون بالعمل على استقرار القانون والنظام ولـكن هذا يضيف الى أعباء حكومة الدولة التابعة لهـا المستعمرة ويفرض عليها التدخل لاعادة الاستقرار والا انهار نظاع المزارع .

من ذلك يتضح ان النظام الاقتصادى الجامد للمزارع هو سبب ما حدث من اضطراب فى الكاريبى وأجزاء أخرى من القارة مما دفع الى تحويل المزارع أخيرا من زراعة قصب السكر الى استخراج البوكسيت (الحجر الذى يستخرج منه الألومنيوم) والبترول .



الرق في المستعمرات الجنوبية

من ١٦١٩ – ١٧٦٧

بقلم ادجار تورين (١)

يعتبر عام ١٦١٩ أحد الأعوام الهامة فى تاريخ أمريكا ، وفى ذلك العـــام وصلت الى فرجينيا أول جماعة من النساء ، كما صدر تشريع يخولها الحكم الذاتى وفى نفس الوقت وفدت أول جماعة من الأفريقيين . وهذا العام يسبق عام ١٦٢٠ الذى جاءت فيه السفينة « ماى فلور » . وتاريخ قـــدوم الأفريقيين الى مســـتعمرة « جيمس تون » (٢) ورد فى خطاب كتبه « جون رولف » الى سير « أدوين سانديز » بلندن ، وهو أمين صندوق الشركة التى تولت ادارة مســـتعمرة جيمس تون وكان مقرها بلندن . وجـــون رولف هذا هو الذى تزوج بوكاهونتاس (٣) وأدخل التبغ الى انجلترا .

---

(١) اشـــتغل بالبحث وامتاز ، لا بمؤلفاته القيمة بل باهتمامه بحقوق وتاريخ الافرو امريكيين وهى تتناول تراث الامريكيين السود وأحدها يصف حياة ستة من السود فى عهد الثورة والاخر يبين ماساهم به السود فى الثقافة الامريكية ، وقد حصل على الدكتوراه فى تاريخ أمريكا عام ١٩٥٠ واشتغل بالتدريس فى جامعة الباما ثم فى جامعة اكرون وفرجينيا وقد حصل على درجة الزمالة من مؤسسة راندولف هيرست وغيرها .

(٢) تقع غربى ولاية نيويورك وشرقى بحيرة ايرى . « المترجم »

(٣) ابنة أحد زعماء الهنود الحمر فى فرجينيا وكانت تجامل الانجليز فيها وأنقذت حياة كابتن سميث المســـتعمر ثم تزوجت جون رولف وقدمت الى انجلترا ، وبعض الاسر فى فرجينيا من نسلها « المترجم »

فى هذا الخطاب ذكر أنه فى أغسطس عام ١٦١٩ وصلت الى « بوينت كومفرت » سفينة هولنــــدية عليها نحو عشرين زنجيا فاشتراها الحاكم بأحسن سعر ممكن .

لقد أكد الخطاب ان السود جاءوا الى جيمس تون فى عام ١٦١٩ ولكن السـؤال هو : كيف كان وضع هؤلاء الأفريقيين يومئذ . ان كثيرا من الناس يفترض خـطأ أنهم عوملوا كعبيد منذ البداية ولكن الظاهر أنهم اعتبروا كخدم بعقود . ولعل ذلك راجع الى أن الانجليز لم تكن

لديهم الخبرة الكافية التى كانت لدى البرتغـــاليين والأسبان من حيث معاملة الرقيق ، ولذلك لم تكن لديهم قوانين موضوعة فعلا فى هذا الشأن للعمل بها فى العالم الجديد . فالرق قد انتهى فى انجلترا حوالى عام ١٠٠٠ وبذلك لم تعد هناك قوانين خاصة بالرق ، فكان على المستعمرين أن يدبروا أمورهم عن طريق التجربة والخطأ وهكذا بدأ نظام الرقيق يتطور تدريجيا ، ولمواجهـــة العمالة حاولوا الاســـتعانة بالهنـود الحمر وبأوربيين بعقود وسرعان ما وجدوا ان الهنود الحمر لا يصلحون للعمل لأنهم لم يعتادوا على العمل الشاق الـذى تتطلبه الزراعة ، لأن الرجل الهنـدى قد ترك العمل للمرأة وتفرغ للصيد والحرب .

وكان من الضرورى الاستمرار فى اسـتخدام البيض بعقود لعدة سنوات ، استمرت حتى عام ١٦٧١ حيث كان عدد البيض نحو ٦٠٠٠ فى فرجينيا والى جانبهم ٢٠٠٠ افريقى . وهكذا بدأ نظام العبيد تدريجيا يقوم كبديل للبيض ، لأن العبيد تعلموا الزراعة فى أفريقيا وكانوا أكثر انتاجا من غيرهم فيمـــا يتصل بالحقول والمزارع .

وفى عام ١٦٢٤ كان فى المستعمرة ٢٥ افريقيا ، بعضهم كان يعمل بعقد فلما انتهت مدة عقودهم أصبحوا أحرارا وملاك أراضى بل ويستخدمون عمالا بعقود فى أراضيهم .

ويظن البعض أن نظام الرقيق فى فرجينيا لم يظهر حتى صدرت القوانين الخاصة به ولكن الحقيقة أنه كان يوجد عرف وأحكام قضائية تبين أن بعض الافريقيين بدأوا يعتبرون عبيدا منذ عام ١٦٤٠ وأن بعضهم اعتبر ملكا لأبيض آخر مدى حياته واذا امتلك رجل رجلا آخر مدى الحياة فان الأخير يدخل فى دائرة العبيد .

وهناك اثنان من بين الأفريقيين الأوائل فى العالم الجديد لهما صلة بأول قضية وضعت أساس الرق فى فرجينيا وأحدهما هو « انتونى جونسون » الذى قدم على احدى السفن عام ١٦٢٢ وسلك طريقه كشخص حر بعد أن استوفى مدة عقده ، ثم بدأ بعدئذ يستخدم عمالا بعقود فى مستعمرة مع عمال سود آخرين فى فرجينيا . وفى نفس الوقت كان هناك عامل آخر يدعى « كاسور » يعمل بعقد لدى « انتونى جونسون » فلما انتهت مدة عقده احتفظ به جونسون ، فاشتكى « كاسور » لبعض البيض فى المستعمرة من احتفاظ جونسون به ليعمل لديه بينما الواجب أن يطلق سراحه كما أطلق سراح جونسون نفسه ، وطلب كاسور الى البيض أن يستعملوا نفوذهم ضد جونسون ليتركه وانتهى الأمر بترك جونسون له .

ولكن البيض أخذوا « كاسور » كعامل لديهم وعندئذ قال جونسون : « اذا كان كاسور سيكون عاملا بعقد فيجب أن يعمل لدى » ، ولم يعبأ البيض بقوله

فالتجأ للمحكمة التى قضت بأن يعود « كاسور » الى « جونسون » وأن يعمل لديه طول حياته . وهذه أول قضية مدنية فى تاريخ فرجينيا يصدر فيهـــا حكم بالاسترقاق مدى الحياة . وقد حدث ذلك فى منتصف عام ١٦٥٠ .

وقبل ذلك كانت هناك قضية أمام محكمة الجنايات حوكم فيها اثنان من العمال البيض بعقود وزنجى بتهمة الفرار ، وبعد الامساك بهم ومثولهم أمام القاضى كان حكمه : « ان البيض يلزمون بالعمل لمدة أطول عقابا لهم على الفرار ، ولما كان الرجل الأسود لا يمـــكن الزامه بالعمل لمدة أطول لأنه بالفعل عامل مدى الحياة ويستحيل اضافة مدة أخرى له ، فعقابه الجلد » .

من ذلك يظهر انه لم تكن هناك قوانين صريحة للرق فى فرجينيا .

والآن لنلق نظرة على الاجراءات التى اتخذت لاصدار تشريعات لتوطيد نظام الرق فى فرجينيا . وأول هذه التشريعات صدر فى عام ١٦٦١ وهو يقضى بأنه اذا هرب رجل أبيض ، يعمل بعقد ، بصحبة أى زنوج فان هذا الأبيض يعاقب باضافة مدة أطول لفترة عمله . لأن هؤلاء الزنوج لا يمكن اضـــافة مدد لهم لأنهم يعملون مدى الحياة . وهذا التشريع يعتبر أول تشريع يشير الى وجود الرقيق الأسود فى فرجينيا .

وفى عام ١٦٦٢ صـــدر قانون آخر ، نص على أن الأطفال المولودين فى فرجينيا يتقرر مصـــيرهم حسب الوضع الاجتماعى لأمهاتهم ، بينما كان القانون فى انجلترا يقضى بتبعية الأبناء لوضع آبائهم . وبذلك فقد كان فى مقدور البيض أن ينجبوا من النساء السوداوات ولـكن

أطفالهم يعتبرون عبيداً وبذلك كان فى استطاعة البيض ان ينجبوا ممن لديهم من سوداوات لزيادة الأيدى العاملة .

وفى عام ١٦٦٧ صدر قانون حل مشكلة ما اذا كان اعتناق المسيحية يحرر العبد من الرق أم لا ، فقد قضى بأن المسيحية لا تغير من وضع الشخص من حيث الحرية أو الرق . وبذلك أصبح « السيد » يستطيع أن يبشر بالمسيحية بين من لديه من عبيد ، ومع ذلك يستطيع الاحتفاظ بهم كعبيد ولو اعتنقوا المسيحية .

وفى عام ١٦٧٠ صدر قانون آخر نص على أن جميع العمال غير المسيحيين المجلوبين الى فرجينيا بحرا يعتبرون عبيدا مدى الحياة وكان المجلوبون الى فرجينيا من غير المسيحيين هم سود من أفريقيا ونص القانون كذلك على ان العمال الذين يأتون برا يتحتم عليهم اذا كانوا أولادا وبناتا أن يعملوا حتى سن الثلاثين واذا كانوا رجالا أو نساء فيعملون اثنا عشر عاما فقط .

وكانت هناك خطوة أخرى لتجريد السود من آدميتهم فقد صدر فى عام ١٧٠٥ قانون ينص على أن كل الزنوج والمولدين والرقيق من الهنود الحمر سيعتبرون ضمن الممتلكات ، شأنهم شأن الماشية والأثاث والعربات والسلع .

وهذه القوانين توضح أن فرجينيا كانت تخطو سريعا نحو تثبيت نظام الرقيق ، وكان أحد العوامل الدافعة لذلك هو قلة العاملين بعقود ، وقد قدمت أوربا عمالا بعقود للمستعمرات لا بطريق التطوع بل باختطاف الأشخاص من الشوارع ، فكان الوالدان يبعثان بطفلهما الى أحد

المحـــلات ثم لا يرونه ثانية لأنه اختطف وارسل الى المستعمرات .

وكان القضاة يخيرون المجرمين بين السجن أو الذهاب الى أمريكا (كان البعض يفضل السجن) . ولكن فى عام ١٦٧٠ صدرت فى انجلترا قوانين قللت من عمليـه الاختطاف للبيع كعمالة بعقود ، يضاف الى ذلك زيادة المبالغ التى كان يدفعها العبيد لتحرير أنفسهم ، وكذا المبالغ التى كانت تدفع للعمال عند انتهاء عقودهم وذلك لانخفاض عـدد من كانوا يعملون بعقود ممـا رفع من أجورهم .

لذلك بدأت المستعمرات تتجـه الى الأفريقيين فزاد عددهم فى القرن الثامن عشر فى فرجينيا حتى أصبح علم ١٧١٢ نحو ١٢٫٠٠٠ أسود و ١٨٫٠٠٠ أبيض وكان أغلب السود رقيقا وبهذا أصبحت فرجينيا تضم أكبر عدد من السكان السود . وفى عام ١٧٥٦ كان هناك ١٧٠٫٠٠٠ أبيض و ١٢٠٫٠٠٠ أسود ، أى ان الســـــود بلغوا ٤١ فى المائة من عدد السكان . والواقع ان فرجينيا كمستعمرة وكولاية ظلت أكبر المناطق من حيث عدد السود عشرات السنين . وقد أظهر تعداد سنة ١٨٦٠ أنه كان بفرجينيا من السود أكثر مما كان بأية مستعمرة أو ولاية ، فيما أصبح الولايات المتحدة الأمريكية . وظل الحال كذلك حتى عام ١٨٧٠ ، اذ ظهر من احصاء ذلك العام أن ولاية جورجيا أصبحت أكثر الولايات من حيث عدد السود .

وفى ولاية ميريلاند وجد الرق منذ بداية تكوينها عام ١٦٣٤ كدار هجرة للـكاثوليك ، يومئــذ أباح أصحاب الأملاك والمقيمين بها نظام الرقيق ، وقد ثبت أن السود الذين وصلوا اليها فى عام ١٦٣٠ كانوا معتبرين عبيدا .

والمستعمرات التالية التى سنتناولها هى «كارولينا» ونقول « كارولينا » لأن كارولينا الشمالية وكارولينا الجنوبية كانتا مستعمرة واحدة ، أعطى امتياز استغلالها لثمانية ملاك بقرار من ملك انجلترا عام ١٦٦٣ . وقد انتقل بعض الناس من فرجينيا الى ما يعرف الآن باسم « كارولينا » وذلك حوالى عام ١٦٥٤ . وكان أول المقيمين بها هم من أرسلوا وفق نصوص صك الامتياز عام ١٦٧٠ الى مدينة « تشارلزتون » أى ما أصبح كارولينا الجنوبية .

وقد اختير جون لوك الفيلسوف الانجليزى الكبير (١٦٢٣ – ١٧٠٤) من قبل الملاك ليعد دستورا للكارولينيين ، وفى هذا الدستور نص على أن الأفريقيين خاضعون للسيادة المطلقة لأسيادهم .

وقد عملت كارولينا الجنوبية على زيادة عدد العبيد بها وخاصة من الأفريقيين لعدة أسباب : أولها الاهتمام بزراعة الأرزالذى تطلب عددا أكبر من العبيد ، وثانيهما أن الملاك كانوا هم انفسهم مديرو الشركة الأفريقية الملكية التى كانت الشركة الانجليزية الرئيسية الرقيق وبذلك كان هؤلاء الملاك يتمتعون بميزتين فهم كملاك للمستعمرين يهمهم النهوض بها وكمديرين للشركة الأفريقية الملكية كان يهمهم الاتجار بالعبيد . وعلى ذلك فقد ضمت المساحة التى أصبحت كارولينا الجنوبية ، عددا كبيرا من السكان ، اذ كانوا فى عام ١٧٦٣ نحو ٣٠٫٠٠٠ أبيض مقابل ٧٠٫٠٠٠ أسود أى ٧٠ فى المائة من السكان . وبذلك كانت هى المستعمرة الوحيدة التى يزيد فيها عدد السود عن البيض . وبدأ الخوف فى كارولينا الجنوبية من زيادة عدد السود ولذلك وضعت قوانين

صارمة ، قوانين تمنع السود من احراز الأسلحة النارية ومن مقاومة سادتهم أو عصيانهم . وحتى تلك القوانين لم تمنع حدوث ثورة فى كارولينا الجنوبية وكانت أعنف ثورة فى الفترة الاستعمارية .

وقد قامت تلك الثورة عام ١٧٣٩ فى مزرعة (ستونو) على مقربة من تشارلز تون فى جنوب كارولينا ، وعرفت باسم « مؤامرة كاتو » ، اذ اقتحم بعض العبيد مخزنا للأسلحة والذخيرة واستولوا على ما فيه ثم انطلقوا نحو فلوريدا وكانوا يسطون على البيوت وينهبون ما فيهـا خلال مسيرتهم ، الأمر الذى استثار السكان جميعـا فهبوا يقاومونهم وانتهى الأمر بهـزيمة العبيد والقبض عليهم . وفى تلك الثورة قتل نحو ٣٠ من البيض و ٤٤ من السود .

أما فى كارولينا الشمالية الحالية فلم يتسع المجال لعدد كبير من العبيد لصغر المزارع ، اذ كانت مزارع تبغ صغيرة لا مزارع أرز كبيرة . ولم يكن السكان فيها على نفس القدر من الرخاء والثروة أو الارستقراطية . ولذلك كان فى كارولينا الشمالية أقل عدد من العبيد ، وقد بلغ عدد سكانها عام ١٦٧٠ نحـــو ٧٧٫٠٠٠ أبيض و ١٦٫٠٠٠ أسود أى بنسبة ١٧ فى المائة من السكان .

أما مستعمرة جورجيا فقد انشئت عام ١٧٣٣ كمأوى لنزلاء السجون الأوربيين بسبب الديون ، الذين اهتم بأمرهم جيمس أوجلثورب وملاكها الآخرين ، كما اختيرت لتكون مســـتعمرة تحمى كارولينا الجنوبية من غارات الهنود الحمر والأسبان فى فلوريدا .

ولتحقيق المساواة بين سكان جورجيا قرر أصحابها تحريم الملكية الفردية للأرض ومنع بيع المشروبات الروحية

بتحريم الرقيق . وكانت تلك الممنوعات الثلاثة لا تتفق والاتجاه الامريكى يومئذ ، ولذلك فان المستعمرين هناك بدأوا يحتجون على تحريم الملكية الفردية وعلى تحريم الخمور والرقيق .

وكان أصحاب تلك المستعمرة يتوهمون أن السكان بمكنهم أن يشتغلوا بصنع الحرير والسلع التى تستورد خاماتها ولكن التجربة باءت بالفشل اذ أخذ سكان جورجيا يتحايلون على تحريم الرقيق باستئجار عبيد ممن يملكونهم فى كارولينا الجنوبية بعقود مدتها مائة سنة !

وفى عام ١٧٤٢ الغى تحريم الملكية الفردية وفى عام ١٧٤٩ ألغى حظر اقتناء العبيد وفى عام ١٧٥٠ انتهى الحظر على المسكرات ، وهكذا بدأ سكان جورجيا ينعمون بتلك المحظورات الثلاثة كسكان باقى المستعمرات .

وكانت تلك اذن هى بداية الرق فى المستعمرات الجنوبية .

الرق فى المستعمرات الشمالية
من ١٦٢٤ — ١٧٧٦

بقلم ادجار توين

يعتقد الناس خطأ أن الرق وجد فى الجنوب فقط ، والواقع أنه كان فى الشمال رق كذلك .

لناق نظرة على نيو انجلند (١) والمستعمرات التى تقع جنوبها وتطل على الاطلانطى ونرى كيف تطور الرقيق فى تلك المناطق وكيف ان اقتصاديات ذلك الاقليم وجغرافيته ومناخه أثرت فى ذلك التطور .

سنبدأ بالمستعمرات الأربع فى نيو انجلند وهى : ماساتشوستس ، نيو هامشير ، كونكتيكت ورود ايلند .

ان ما يعرف الآن باسم مين (٢) كان جزءا من ماساتشوستس حتى سنة ١٨٢٠ . وفى تلك الفترة الاستعمارية لم تكن فيرمونت مستعمرة منفصلة ، ولم تنفصل الا فى عام ١٧٧٧ ، وفى ذلك الوقت كانت تطالب بها كل من نيوهمشير ونيويورك ولهذا لن نتناول الا

(١) نيو انجلند اسم لايستعمل اليوم وكان يطلق فى البداية على القسم الشمالى الشرقى وكان يشمل المستعمرات الاربع التى سبق ذكرها « المترجم »
(٢) تقع فى أقصى الشمال الشرقى للولايات المتحدة « المترجم »

المستعمرات الاربع : ماساتشوستس التى شملت : مين ، نيوهمشير التى شملت : فيرمونت ، كونكتيت ثم رود ايلند .

والرقيق فى مستعمرات نيو انجلند يرتبط من البداية بماساتشوستس ، ولو ان رود ايلند كان بها أكبر نسبة من السود طوال فترة الاستعمار . وكان فى ماساتشوستس عبيد أكثر ولو انهم لم يكونوا أكثر مما بالمستعمرات الأخرى .

أنشئت ماساتشوستس عام ١٦٢٠ عند قدوم « المهاجرين » أو « المنشقين على الكنيسة الانجليزية » الى بليموث على ظهر السفينة « ماى فلور « وقد جاء عدد أكبر من البيوريتان (١) (المتطهرون) الى اقليم خليج ماساتشوستس عام ١٦٣٠ . ومن ماساتشوستس أول مستعمرات نيو انجلند ، تكونت المستعمرات الأخرى .

ولا نعرف على وجه اليقين متى أحضرت أول جماعة من السود الى ماساتشوستس ولا متى بدأ وجود الافريقيين بها . وبعض المؤرخين يعتبر عام ١٦٣٨ بداية لذلك لأنه كان هناك بعض العبيد الأفريقيين ، ومن المحتمل انه كان هناك عبيد أفريقيون فى ماساتشوستس منذ عام ١٦٢٤ أو ١٦٢٥ لأن أحد المستعمرين المقيمين بها يومئذ كان يعرف عنه أنه تاجر ومالك للعبيد ولو أن السجلات غامضة بالنسبة لذلك الموضوع .

وقد ظهرت أمام أهالى ماساتشوستس مشكلة

---

(١) البيوريتان جماعة بروتستانتية نشأت فى انجلترا فى القرنين ١٦ ، ١٧ وطالبت بتبسيط طقوس العبادة وبالتمسك الصارم بالدين والاخلاق الفاضلة .

بالنسبة لامتلاك العبيد ، ذلك لأن رجال الدين البيوريتان بتزمتهم الدينى اثاروا الشك فى جواز امتلاك العبيد ولكن تلك المشكلة حسمت بتقرير أن الأفريقيين « كانوا » جنسا منحطا وملعونا ومحتقرا وأنهم يمكن الأخذ بأيديهم نحو المدنية بالاحتفاظ بهم كعبيد وتعريفهم بثمار الثقافة الغربية .

ولكن ذلك الحل الذى اعتبره البعض منطقيا لم يجد استجابة لدى بعض آهالى ماساتشوستس ، « فجون ونثروب »[1] عارضه بحجة أن مستعمرة خليج ماساتشوستس لا يمكن أن تزدهر كباقى المستعمرات دون قيام العبيد بالعمل لتوفير المال للمستعمرين المقيمين بها . وبذلك دفعت الرغبة فى المال الى ايجاد الرقيق فى ذلك الاقليم . وقد اضطرت الظروف الجوية وبرد الشتاء القارص والتربة الصخرية نوعا ، الا فى بعض اماكن قليلة مثل وادى نهر كونكتيكت ، اضطرت المستعمرين لاستغلال مساحات صغيرة . ولذلك كانوا كلما نزحوا الى مواطن جديدة ، نقلوا معهم فى نفس الوقت مدنا بأكملها وكانت المزارع الصغيرة حول المدن الصغيرة لا تحتاج الى عبيد للعمل بها بقدر ما كانت تحتاجه المزارع الكبيرة فى الجنوب ولذلك كان العبيد فى ماساتشوستس يستخدمون فى أحواض السفن وكخدم بالبيوت واستخدام البعض فى الزراعة ولكن عدد هؤلاء كان قليلا ولذلك لم يتخذ الرق مظهرا صارخا ، لا لأن الأهالى كانوا مؤمنين بالانسانية . متصفين بالشهامة أو لديهم مثل عليا تجاه الرق ، ولكن الأن الحاجة

---

(١) كان ونثروب (١٦٤٩) حاكما لمستعمرة ماساتشوستس وكان لايؤمن بالديموقراطية بحجة أنها لم يرد لها ذكر بالتوراة « المترجم » .

الاقتصادية الى العبيد لم تكن بالقدر الذى كانت عليه فى المناطق الأخرى . ومن ثم كان فى ماساتشوستس عام ١٧٥٥ نحو ١٩٥٫٠٠٠ من البيض و ٤٨٠٠ من السود ، اى ٢ فى المائة من السكان بينما كانت اقل نسبة للسود فى الجنوب هى ١٧ فى المائة وذلك فى كارولينا الشمالية .

أما كونيكتيكت فقد أصبحت مستعمرة عندما انتقل اليها بعض سكان خليج ماساتشوستس واقاموا فى وادى نهر كونيكتيكت ، حيث كانت التربة خصبة جدا . وعلى الرغم مما قام بينهم وبين الهولنديين من مناوشات فقد أقاموا مدنا عديدة منذ عام ١٦٣٥ كمدينة وندسور ، هارتفورد ، وذرزفيلد ونيوهافن . وقد وجد أبناء كونيكتيكت أنه يمكن الافادة من العبيد فى الأعمال الزراعية ولذلك كان لديهم منهم نسبة أكبر مما كان فى ماساتشوستس بالقياس الى مساحة مستعمرتهم فكان لديهم ١٢٨٫٠٠٠ من البيض و ٣٦٠٠ من السود اى بنسبة ٣ فى المائة من السكان .

وفى منطقة نيو انجلند كانت المستعمرة التى بها نسبة كبرى من الافريقيين هى رود ايلند التى انشأها وانتقل اليها جماعة ممن لم يقبلوا تسلط البيوريتان فى ماساتشوستس ، الذى وصل الى حد التدخل فى المسائل الحكومية والعلاقات مع الهنود . وكان من هؤلاء « روجر وليمز » (١) الذى طرد من المستعمرة وانتقل الى رود ايلند عام ١٦٣٦ وكذا « آن هتشنسون » (٢)

(١) قس كان ينادى بفصل الدين عن الدولة وعدم تدخل القسس فى السياسة والمسائل العامة « المترجم »

(٢) دعت للخلاص من الخطيئة عن طريق البداهة الشخصية أو «الحدسية» التي تقول بأن القيم والواجبات الاخلاقية يمكن ادراكها بالبداهة « المترجم »

التى طردت أيضـا لأنها أصرت على التفسير الشخصى أو الذاتى للتوراة ، ايمانا منها بأنها بهذا تكون علاقتها أكثر اتصالا بالله عما تكون عليه عن طريق رجال الدين البيوريتان .

لهذا ترك الكثيرون خليج ماسوتشوستس باعتبارهم منشقين وأقاموا فى أماكن اخرى مثل نيوبورت (١) وبرفيدنس (٢) واقليم خليج ناراجانست . وأقام آخرون فى رود ايلند أمثال « روجر وليمز » الذى امتاز بفهمه العميق للديمقراطية وبأمانته . ويعتبر من الأمريكيين الأوائل النبلاء فيما يختص بموقفه الانسانى تجاه الهنود . اذ كان يؤمن بأنهم يجب أن يعاملوا بدون تحيز وأن يعتبروا اخوة . ومع ذلك فان هذا الرجل وهو المؤسس الأول لرود ايلند سمح بالرق فى تلك المستعمرة . وسرعان ما أصبح فى رود ايلند نسبة مئوية من العبيد اكبر مما فى مستعمرات نيو انجلند الأخرى .

ويرجع هذا أساسا لرود ايلند التى أقبلت بشدة على تجارة العبيد فكانت السفن تقلع من موانيها كنيو بورت متجهة الى الساحل الافريقى حيث تشحن بالعبيد ثم تحملهم الى جزر الهند الغربية للبيع ومن الأخيرة تحمل ثمن ماباعته مضافا اليه ما تشتريه من السكر والعسل الأسود اللذين كانا يستعملان فى صناعة الروم . وهذا الروم كان يشحن الى أفريقيا لأنه كان احدى المواد التى يقدمونها لرؤساء القبائل الأفريقية مقابل العبيد .

ولكن سفن العبيد كانت تعود من جزر الهند الغربية وعليها بعض العبيد ممن لم يتيسر بيعهم ولذلك كانوا

---

(١) ميناء فى رود أيلند

(٢) مدينة فى رود أيلند وهى حاضرتها « المترجم »

يتركون في رود ايلند وبالتدريج كبر عددهم وأصبح في رود ايلند عام ١٧٥٥ نحو ٤٥٠٠ عبد ، بينما كان عدد البيض ٣٦٠٠٠ وهذا يعادل ١٢ في المائة وتلك نسبة تجاوزت اية نسبة أخرى في نيو انجلند .

أما نيو هامشير فكانت نسبة السود فيها قليلة نسبيا وذلك لقلة الموانى الصـــالحة لاستمرار تجارة الرقيق ولذلك كان عمل العبيد بها هو صيد الأسماك كما ساعدت شدة البرد وفقر التربة على التقليل من الحاجة للعبيد . لهذا كان عدد العبيد ضئيلا ، لا لاعتبارات انســانية ولكن لعدم أهميتهم بالنسبة للنظام الاقتصادى . وبذلك كان فى نيو هامشير عام ١٧٦٧ نحو ٥٢٠٠٠ بيضا مقابل ٦٣٣ سودا أى بنسبة ١ فى المائة من السكان .

وفي اقليم نيو انجلند كان الرق فى اكثر أوضاعه اعتدالا وانصافا اذ كان العبيد يعاملون معاملة أفضل منها فى اى اقليم آخر وكان أمام العبيد فرص أوسع للتوفيق الى أسياد رحماء ، قد يكفلون لهم بعض التعليم أحيانا . وكانت هنــاك فرص أوسع أمام السود الأحرار المقيمين هنا أن يصيبوا بعض النجاح فى حياتهم . ورغم كل هذا فقد كانت هناك بعض المؤامرات والثورات فى نيو انجلند كما فى الأجزاء الأخرى لهذا الاقليم . ففى كونكتيكت كانت هناك مؤامرة فى منتصف ١٦٥٠ فى «هارتفورد» وفى ماساتشوستس كانت هناك مؤامرات فى « نيو برى » عام ١٦٩٠ وفى « تشارلزتون » عام ١٧٤٠ .

والآن لنتناول الرقيق فى المستعمرات الوسطى المطلة على الاطلانطى : فى نيويورك وبنسلفانيا ونيو جرسى . ولنبدأ بايضاح الكيان الخاص « لديلاور » فهى جغرافيا يجب أن تكون احدى المستعمرات الوســــطى اما من

الناحية السياسية فقد تبعتها لأن « بنسلفانيا » كانت تديرها حتى أوائل القرن الثامن عشر ، ومع ذلك فان « ديلاور » كانت جنوبية من حيث المناخ والطبيعة اذ كان اقتصادها يعتمد على التبغ ولذلك كان بها عام ١٧٩٠ نحو ٤٦٫٠٠٠ بيضا ونحو ١٢٫٨٠٠ سودا اى بنسبة ٢٢ فى المائة من السكان .

ولنلق نظرة على نيويورك حيث حدثت أمور طريفة ، لقد كان الهولنديون أول من أقام بها وذلك عام ١٦٢٤ ، ويومئذ أنشأت شركة الهند الغربية الهولندية مستوطنة فى جزيرة مانهاتن (١) التى عرفت بعدئذ باسم أمستردام الجديدة وأطلق على كل تلك المستعمرة أسم « هولندة الجديدة » . وخلال فترة الحكم الهولندى جرت تجربة طريفة فيما يختص باستخدام العبيد اذ أنشأ الهولنديون نظاما عرف باسم « نصف الحرية » وتبعا لذلك النظام كان السيد أو المالك للعبد يطلق سراحه ليكسب عيشه وفى مقابل ذلك كان يدفع مبلغا معينا كل عام لسيده حسب عقد يبرم بينهما ، فاذا لم ينفذ العبد هذا الاتفاق عاد الى وضعه القديم كعبد .

وقد بدأت الشركة الهولندية بهذا النظام لوجود عدد كبير من العبيد تابعين لها مما كان يكلفها مبالغ أرادت توفيرها . ولذلك وجدت أن من الأفضل اطلاق سراحهم ، بينما هم مرتبطون بها حسب نظام « نصف الحرية » المشار اليه وملزمون بأن يدفعوا لها مبلغا مقابل تمكينهم من كسب عيشهم ودفع أجر السكن وثمن الملابس والطعام .

---

(١) وتتكون منها أهم أجزاء مدينة نيويورك « المترجم »

وكان سر نجاح ذلك النظام العملى هـو أن الشركة جنت أرباحا أكثر بفضله ، ذلك لأن أى رجل لديه فرصة ليكسب شيئا لنفسه ، ولو كان قليلا ، فسيعمل بجهد أكبر ممن يعمل لسيده فقط . اذ المشكلة فى نظام الرق هو عدم وجود حافز حقيقى للعمل لدى الرقيق . ولذلك نجح ذلك النظام نجاحا فريدا وقلمـــا حرم عبد من « نصف حريته » وعاد للرق ، لأن العبد تمتع بحريته فى عمل ما يشاء ولذلك كان يجاهد فى سبيل الوفاء بما تعاقد عليه .

ولم يستمر هذا النظام ، لسوء الحظ ، بسبب انتزاع الانجليز لنيويورك (أى هولندة الجديدة) من الهولنديين عام ١٦٦٤ ، عنـدما أرسل الملك شـارل الثـانى حملة على رأسها أخيه ، دوق يورك ، الذى أصبح فيما بعد الملك جيمس الثانى . وأصبحت هولندة الجديدة تسمى نيويورك .

وفى عهد الانجليز تغير نظام الرقيق تغيرا كبيرا ، فبعد أن كان الهولنديون يعاملون العبيد معاملة طيبة ، ذلك انهم وان كانوا عبيدا ، الا أنه لم يكن هناك ما يذكر العبد بأنه أقل منزلة أو انسانية . لقد تغير كل ذلك فقد أصبح نظـام الرق فى عهـدهم صارما ، والسر فى ذلك أن دوق يورك ومن عمـلوا معــه فى ادارة تلك المستعمرة ، كانوا جميعا شركاء ومديرين فى الشركة الأفريقية الملـكية ، ولذلك فقد كان من مصلحتهم أن يتشددوا فى نظام الرق ، كما هو الحال مع مديرى الشركة الأفريقية الملـكية الذين امتلكوا جنوب كارولينا . ولذلك سرعان ما أصبحت نيويورك المستعمرة الشمالية التى بها أكبر عدد من العبيد .

وباكثار الشركة الافريقية الملكية من الرقيق ظهرت في نيويورك المخاطر التى سبق ظهورها فى كارولينا ، اذ قام الرقيق بأعمال ثورية ففى عام ١٧١٢ قامت ثورة ، اذ تجمع بعض العبيد وهم مسلحون بالأسلحة والذخيرة، فى الغابات القريبة من مدينة نيويورك وهناك أشعلوا النار فى أحد المبانى . ولما جاء البيض للبحث عن سبب الحريق واطفائه جرى قتال انتهى باستسلام السود ثم محاكمتهم وشنقهم ومعهم عدد من السود الأبرياء بسبب ما ثار من ذعر واضطراب .

وقد اصبح فى نيويورك عام ١٧٥٦ نحو ٨٣٫٠٠٠ من البيض ، ١٣٫٥٠٠ من السود اى بنسبة ١٦ فى المائة وهذا كان أكبر عدد من العبيد فى أية مستعمرة فى الشمال .

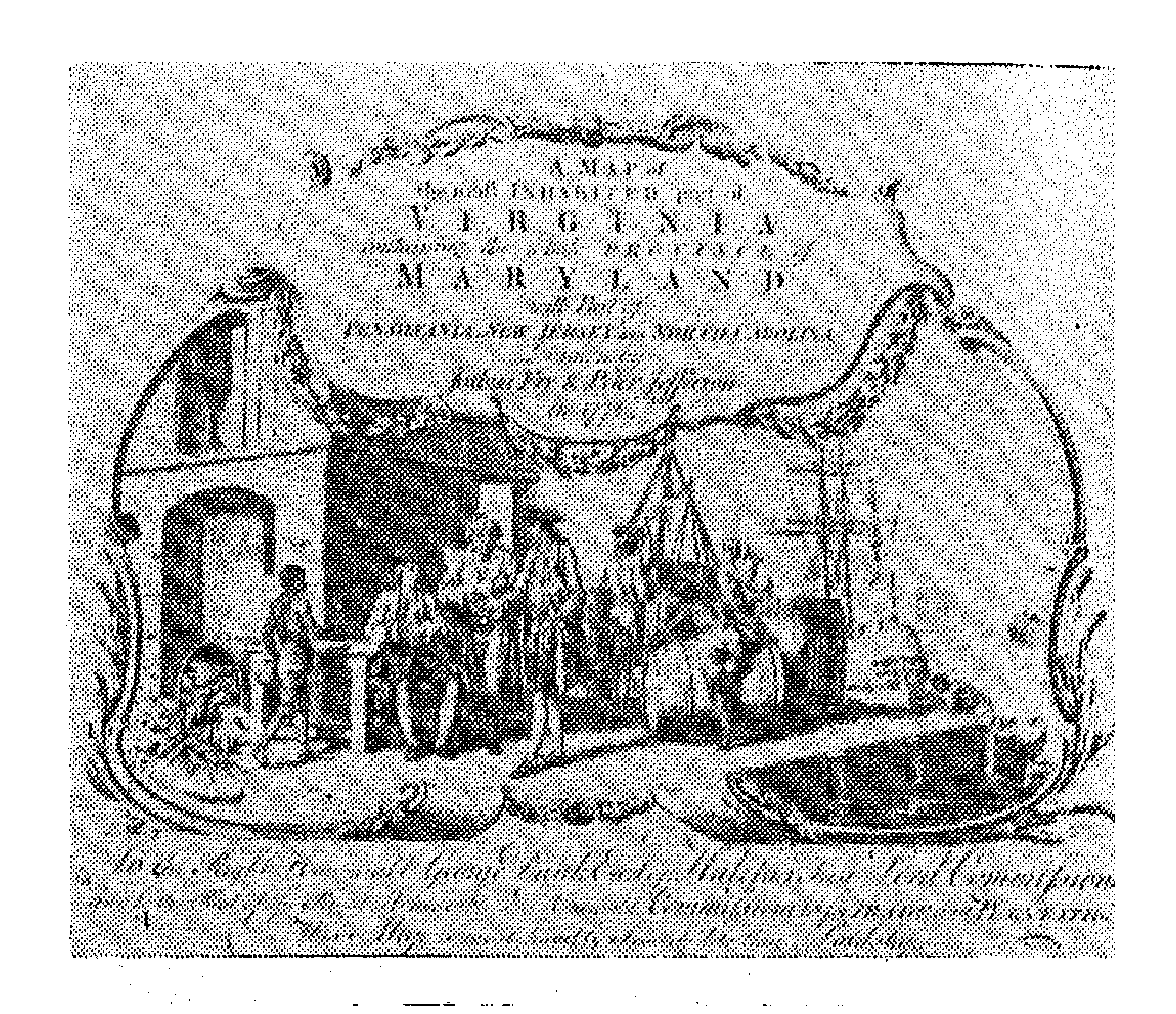
وكان فى « نيو جرزى » عدد كبير من السود ، بلغوا عام ١٧٤٥ نحو ٤٫٧٠٠ مقابل ٥٧٫٠٠٠ من البيض اى بنسبة ٨ فى المائة ولكنها جلبت فى عام ١٧٥٠ عبيدا كثيرين وبذلك زاد عددهم فيها .

وأخيرا كانت هناك بنسلفانيا ، التى أقامها وليم بن ، أحد رجال الكويكرز (١) ، الذى أيد نظام الرقيق رغم تمسكه الشديد بالمبادىء الدينية ونزعته الانسانية ، زعما منه بأن العبيد أفضل ممن يعملون بعقود لأنهم مستعبدون طول حياتهم ولذا أدخل نظام الرق فى مستعمرته .

ولكن بنسلفانيا أصبحت المستعمرة التى بدأ فيها أول

(١) الكويكرز : جماعة الاصحاب أو المهتزين ، تكونت خلال القرن السابع عشر وقد اشتهر أعضاءها بكراهيتهم للحرب .

احتجاج على الرق . وفى عام ١٧٩٠ كان فيها ٤٢٤٫٠٠٠ من البيض و ١٠٫٠٠٠ من السود أى بنسبة اثنين فى المائة وبذلك كان بها أقل نسبة من العبيد ، دون باقي المستعمرات الشمالية الكبرى .



لماذا لم تُلغ الولايات المتحدة الرق؟

بقلم ستاوتون ليند (١)

لماذا لم تلغ الولايات المتحدة الرق ؟ لقد الغته فى عامى ١٨٦٣ و ١٨٦٥ . ولكن لماذا لم تلغه عام ١٧٧٦ عندما أعلنت استقلالها ؟ أو عندما اجتمع المؤتمر الدستورى فى فيلادلفيا لوضع دستور الولايات المتحدة ؟

لماذا لم تلغ الولايات المتحدة الرق عند قيام ثورتها عندما كان بها نحو ٥٠٠٫٠٠٠ عبد ، بينما كان بها اربعة ملايين من العبيد عندما قامت الحرب الأهلية ؟

ولماذا لم تلغ الولايات المتحدة الرق عندما قرر اعلان استقلالها بأن كل الناس يولدون أحرارا ؟

عندما قال ابراهام لنكولن فى خطابه بمناسبة اعادة انتخابه رئيسا إن الحرب الأهلية ستستمر حتى يدفع مقابل كل قطرة دم نزفت بسبب الكرباج قطرة أخرى تنزف بالسيف ، يومئذ كان يتكلم بحكمة أكثر مما

---

(١) امتاز كمدرس للتاريخ وخاصة فترة الاستعمار ثم الثورة الامريكية وقد حصل على الدكتوراه من جامعة كولومبيا سنة ١٩٦٢ وقاد مسيرة الاحتجاج على حرب فيتنام وله عدة مؤلفات عن الرق وتجارته ،

يتصور . لقد كان هناك نصف مليون عبد في سنة ١٧٧٦، بينما قتل في الحرب الأهلية أكثر من نصف مليون ، قبل أن يلغى الرق . أكان ذلك ضروريا ؟ لماذا انتظرت الدوله الجديده ثلاثة أرباع قرن حتى تلغى الرق ؟ وليس هذا ببساطة سؤالا أكاديميا ولكنه من الأسئلة التى تحتاج الاجابة عليهـا الى الادراك والبـديهة . وهو ككثير من المشكلات المتصلة بالتاريخ الأفرو أمريكى ، فيه اختلاف كبير فى الرأى بين دارسيه من البيض أو السود .

لنقارن بين ما انتهى اليه عالمان فاضلان اولهما ابيض والثانى اسود ، فالبروفسور ونثروب جـوردان وهو مؤرخ من البيض المعـروفين نشر اخيرا دراسـة قيمة عنوانها « الأبيض فوق الأسود » وهى تتناول الاوضاع العنصرية فى الولايات المتحدة منـذ انشاء المستعمرات حتى حرب عام ١٨١٢ (١) ولنقتبس من دراسته ، فيما يتصـل بالمؤتمر الدستورى عام ١٧٨٧ قوله : « من الواضح ان المؤتمر لم يأخذ فى الاعتبار القضاء نهائيا على الرقيق فى الولايات المتحدة ، لأن أحدا لم يفكر بطبيعة الحال فى احتمال رد فعل ثورى » . ويقول عن التباين بين فلسفة الحقوق الطبيعية فى اعلان الاستقلال وبين الفلسفة الواقعية فى الدستور : « خلال السنوات التى أعقبت انتهاء الثورة الأمريكية ، وجد الأمريكيون أن فلسفة الحقـوق الطبيعية لا يمكن أن تـكون الركن الأساسى الذى يسلم بفشل الثورة الامريكية فى القيام بعمل شىء بصـدد الرق ، سأقتبس من العلامة الأسود « دى بوا » ، ما ورد فى رسالته للدكتوراة ، عن الغـاء

(١) المقصود الحرب الثانية التى قامت بين انجلترا والولايات المتحدة بعد استقلالها وانتهت أواخر عام ١٨١٤ وفيها أحرق الانجليز الكابيتول والبيت الابيض بمدينة واشنطن .

تجارة الرقيق الأفريقى ، فهو بعكس اعتراف بروفسور جوردان الصريح بعجز الثورة الأمريكية عن اتخاذ اجراء حاسم فى هذا الأمر ، نجده يستعمل عبارات مثل : « كانت هناك حاجة الى جهود جبارة » . و « كان هناك قدر من اللامبالاة الأخلاقية » ، رغبة فى مسايرة الظروف . وفيما يلى كيف لخص دى بوا أفكاره عن الموضوع ، يقول :

« يجب أن نواجه حقيقة أن هذه المشكلة نشأت أساسا نتيجة جشع واهمال اسلافنا . لقد كان أظهر واجبات المستعمرات هو أن تسحق هذه التجارة ونظامها منذ بدايتها . انهم آثروا أن يجمعوا المال لأنفسهم من أرباحها .

لقد كان من واجب ثورة قامت على أساس الحرية أن تتخذ خطوات الغاء الرق لكنها فضلت الوعود على الاجراء الصريح .

لقد كان من واجب المؤتمر الدستورى عند تكوين أمة جديدة أن يضع حلا وسطا ازاء تهديد خطر اجتماعى ، اللهم الا اذا كانت تسويته أو حسمه سترجأ الى فرصة مناسبة قادمة . ذلك أنه لم تكن هناك فى تاريخ أمريكا فترة كان فيها تبرير الرق اقتصاديا وسياسيا وأخلاقيا، أمرا يسيرا مثلما فى علم ١٧٨٧ . ومع ذلك فبالرغم من وجود الرق الفعلى وأضراره المتزايدة تحت أنظارهم ، بالرغم من كل ذلك فان صفقة جلها دولارات وسنتات أفسحت الطريق الى الحرب الأهلية » .

وانى أتفق ازاء هذا الخلاف العلمى فى الرأى ، مع دكتور دى بوا دون الدكتور جوردان . وأظن أن الرق

كان يمكن الفاؤه أثناء الثورة الأمريكية ، وهناك تعليلات تقليدية أو اعتذارات لفشل الآباء المؤسسين لأمريكا فى اتخاذ أى اجراء نحو الرق .

والتعليل الأول هو أن الرق لم يكن يعتبر يومئذ مشكلة ، أى أنه لم يبق مشكلة بالنسبة للسكان حتى القرن التاسع عشر .

والحجة الثانية تكاد تكون عكس ذلك ، وهى تذهب الى أن الآباء المؤسسين أدركوا ان الرق مشكلة ولكنهم اعتقدوا أنه فى طريق طبيعى للزوال ، وسيهوى من ثقله ويموت حتف أنفه ، ولذلك فلا ضرورة لخطوات سياسية أو تشريعية ازاءه .

ولندرس كل من هاتين الحجتين وأولادهما أن الرق لم يؤخذ على أنه مشكلة . ويمكننا أن نبين مغالطة هذا الفرض بالقول بأنه فى الأماكن الاخرى من العالم المتمدن يومئذ ، كانت الأمم تتخذ اجراءات نحو الفاء الرق . ففى انجلترا مثلا ، وقبل الثورة الامريكية ، أثار من يدعى جرانفيل شارب قضية عارض فيها نظام الرق ، وهى تعرف باسم « قضية سمرست » . وسمرست هذا رجل ادعى استرقاقه تاجر من الهند الغربية يقيم فى بريطانيا . وعرض شارب القضية على المحكمة وقال كموكل عن سمرست أنه عندما ينزل أى مخلوق بشرى بسواحل بريطانيا فانه يصبح حرا . وان هواء انجلترا ، كما قرر فى مذكرته القانونية ، به من الحرية ما لا يسمح بوجود أى رقيق ، وقد أيدت المحكمة دفاع شارب وأعلن

ان الرق امر غير قانوني فى بريطانيا العظمى (١) (ولو أنه لم يكن كذلك فى الأمبراطورية البريطانية) .

وبعد قيـــام الثورة الفرنسية بقليل ، قامت فرنسا باخماد ثورة العبيد التى قادها توسان الفاتح (٢) فى هايتى عام ١٧٦٠ ولكنها لم تلبث ، أى فرنسا ، فى حماسة الثورة الفرنسية أن ألغت الرق فى جميع أرجاء الأمبراطورية ، وهذا الاجراء ، ولو أن نابليون سار على نقيضه ، بين أن الرق كان مشكلة بالنسبة للفرنسيين كما كان بالنسبة للانجليز أيام الثورة الأمريكية .

ومثال ثالث لاتخاذ اجراء ضد الرق وقد حـدث قبل الحرب الأهلية الأمريكية بمدة وهو أن المكسيك ودولا أخرى فى أمريكا اللاتينية ، اسـتقلت عن أسـبانيا عام ١٨٢٠ وكان أول اجراءاتهم الغاء الرق .

ومن ثم فلدينا حجة قوية ضد القول بأن الرق ما كان ليعتبر مشكلة أمام الأمريكان الثائرين ، فاذا كانت دول كثيرة رأته مشكلة يومئذ فلماذا لم تره الولايات المتحـدة كذلك ؟

والسبب الثانى للاعتقاد بأن الرق اعتبر كمشكلة وكان يمكن الغاؤه أثناء الثورة الأمريكية ، هو أنه ولو أن الأمة الجديدة فشلت فى أن تقف موقفـا حاسما ضد الرق ، الا أنه اتخـذت خطوات كافية لتوضح بجـلاء أن الرق يعتبر مشكلة . وهذه الخطوات ثلاث :

---

(١) المقصود الجزر البريطانية التى تضم انجلترا وويلز واسكتلندا وقد بدأ استعمال هذه التسمية فى عهد جيمس الاول (١٥٦٦ ـ ١٦٢٥) للتمييز بينها وبين مقاطعة بريطانى الفرنسية .

(٢) بطل زنجى حرر سان دومنجو من الحكم الفرنسى عام ١٧٩١ ثم أسر ومات فى فرنسا .

الأولى : أن الولايات الشمالية ، أثناء وبعد الثورة ، عملت من خلال تشريع الولاية ، على الاتجاه نحو الغاء الرق ، كما فى دستور فرمونت عام ۱۷۷۷ ، وفى ماساتشوستس فى سلسلة من القضايا القانونية فى أوائل عام ۱۷۸۰ وفى بنسلفانيا ورود ايلند وكونكتيكت ونيويورك ونيوجرسى من خلال قوانين صدرت فى ۱۷۸۰ ، ۱۷۸٤ ، ۱۷۹۹ ، ۱۸۰٤ .

ومن واقع تحرك تلك الولايات الشمالية ضد الرق ، خلال تلك الفترة ، يتبين أن الأمة كلها كان يمكنها أن تقوم بذلك .

الثانية : كان هناك اجراء ضد تجارة الرقيق باعتبارها تختلف عن الرق . ففى عام ۱۷۷٤ كتب المؤتمر الدستورى الأول فى احد قراراته : « نحن لن نستورد أو نشترى اى عبد استورد بعد اليوم الأول من ديسمبر التالى ، فبعد ذلك التاريخ سنبطل تجارة الرقيق ولن نشترك فيها بأنفسنا ولن نؤجر سفننا أو نبيع سلعنا او مصنوعاتنا لمن يقومون بها » . وهذا بالطبع لم يستمر ولم ينفذ ، ففى نهايه الثورة الأمريكية استانفت الولايات فى أقصى الجنوب ، وخاصة كارولينا الجنوبية وجورجيا ، استيراد العبيد . وبقيت الحقيقة ماثلة وهى أن المؤتمر الدستورى بما قرره ، انما دل على أن الرق كان مشكلة فى ذلك الوقت .

وأخيرا ولنوضح أن الرق كان يعتبر مشكلة ، نقول ان بعض الولايات المتحدة كفرجينيا عام ۱۷۸۲ ، ديلاور عام ۱۷۸۷ ، ماريلاند عام ۱۷۹۰ وكنتكى عام ۱۷۹۸ وتنيسى عام ۱۸۰۱ ، هذه الولايات أصدرت قوانين لتسهيل العتق الفردى وهذا بعكس القوانين فى الولايات

الشـــمالية ، التى جعلت فى امكان الأفراد الذين يملكون عبيدا ، أن يعتقوهم اذا شاءوا . وكان من نتائج هذا التشريع أن السود المحررين فى فرجينيا زاد عددهم من ٣٠٠٠ عام ١٧٨٠ الى ٣٠٫٠٠٠ عام ١٨١٠ ، ولكن صدر فى فرجينيا عام ١٨٠٦ قانون قلب أوضاع التشريع السابق الذى يبيح العتق وجعل من العسير على الملاك الأفراد أن يحرروا عبيدهم .

ومن هذه الشواهد : موقف الولايات الشمالية تجاه الالغاء ، والخطوات الأولى نحو الغاء تجارة الرقيق ، تشريع الولايات المتحدة بشأن العتق الفردى ، من هـذا كله يتضح كيف كان ينظر الى مشكلة الرق بجدية ولكن — كما قال المؤرخ فون هولتز — « كان لابد من حافز أكبر » لالغاء تلك المشكلة .

والاعتـذار التقليدى الثانى لتراخى الآباء المؤسسين هو أنهم ظنوا أن الرق سيزول تلقائيا .

وللدفاع عن ذلك توجد ثلاثة اعتبارات :

أولا : ان الرق ألغى فى الولايات الشمالية لأنه عملية غير مربحة .

ثانيا : أنه أصبح كذلك غير مربح فى الولايات الوسطى لزراعة القمح بدلا من التبغ ، والقمح لا يحتاج فى زرعه الى رقيق مثلما يحتاج التبغ ، وأول من بدأ ذلك التحول، من التبغ الى القمح ، هو جورج واشنطن فى مزرعته بمونت فرنون .

ثالثا : أن الرق كان يمكن أن يكون غير مربح كذلك فى الولايات الجنوبية لولا اختراع آلة الحليج فى أوائل عام ١٧٩٠ وهو الأمر الذى لم يكن يدور بخلد الأسلاف

فى عامى ١٧٧٦ أو ١٧٨٧ .

واظن ان تلك الحجة باطلة فالقول بأن الرق ألغى فى الشمال لأنه كان غير مربح يدحضه ما جمعه دكتور زيلقر سميث من بيانات اثبتت أن أسعار الرقيق ظلت مرتفعة حتى ألغى ذلك النظام .

أما القـــول بأن الرق أصبح غير مربح فى الولايات الوسطى بدعوى ادخال زراعة القمح فيها فليس صحيحا لأنه ولو أن الرقيق أصبحوا فيها لا يعملون فى الانتاج الا أن تجار الرقيق فى فرجينيا وميريلاند كان باستطاعتهم بيع الرقيق الى أصحاب المزارع فى الجنوب .

لذلك عارض مندوبو الولايات الجنوبية ومنـــــدوبو فرجينيا ومريلاند فى البند الخاص بالغـــاء الرق فى الولايات الغربية وذلك فى القـــــانون الذى اقترحه جفرسون عام ١٧٨٤ . كما أن جورج ماسون ابلغ المؤتمر الذى عقد عام ١٧٨٧ لوضع دستور الولايات المتحدة ، ابلغه أن اذا لم يلغ الرق فورا فان الولايات الجديدة فى الغرب ستطالب بدورها بحقها فى اســتخدام الرقيق ، وبذلك تتسع وتنشط تجارته .

وأخيرا فان القول بأن تجارة الرقيق كان يمكن أن تتلاشى من الولايات الجنـــوبية لولا اختراع آلة حلج القطن ، قول غير صحيح لأنه عند عقد المؤتمر الدستورى، لتعديل مواد الاتحاد بين الولايات عام ١٧٨٧ ، أظهرت ولايتا كارولينا الجنوبية وفرجينيا تمسكهما ببقاء تجارة الرقيق . كما أن اختراع آلة حلج القطن زاد فى الاقبال على تلك التجارة .

والخلاصة أن عدم اتخاذ الأسلاف خطوات ايجـابية

لالغاء تجارة الرقيق ، مع بغضهم لها ، يرجع الى انهم خطوا بعض خطوات كالغاء الرق في الولايات الشمالية كبداية لالغاء الرق نهائيا ، وهم يدركون أن عليهم اتخاذ خطوات أخرى ضرورية اذا أريد الغاء نظام تجـــارة الرقيق ، ولكنهم لم يخطوا تلك الخطوات .

فلماذا اذن فشل من وضعوا ووقعـــوا وثيقة اعلان استقلال الولايات المتحدة في القيام بأى اجراء في هذا الصدد ؟

هناك ثلاثة أسباب :

أولا : خوف هؤلاء على الملكية الخاصة والرقيق نوع منها . والمطلع على مناقشات المؤتمر الدستورى يتضح له أن من بين الأسباب التى منعت رجلا مثل « الحاكم موريس » أحد المنتقدين لنظام الرقيق من الموافقة ، اعتقاده أن تحريم ملكية الرقيق في الجنوب قد يدعو الى تبرير تحريم تملك أشياء أخرى في الولايات الشـمالية ولذلك تردد معارضو نظام الرقيق في الغائه حتى لا تتسع دائرة التحريم .

ثانيا : التحيز للبيض ، فرجل مثــــــل توماس جفرسون (١) ، أدرك ما في الرق من أضرار وجاهد ليقوم بشيء ضد الرق في مراحل مختلفة من حياته ، نجده رغم كل ذلك لا يستطيع أن يتصور انه في الامكان أن يعيش البيض الأحرار والسود الأحرار كمواطنين على قدم المساواة . ويتجلى هذا التحيز فيما كتبه عن فرجينيا عام ١٧٨٠ وفيها ناقش الخصائص البيولوجية للسود ، قال :

---

(١) أحد قواد الثورة الامريكية وكان رئيسا للولايات المتحدة من ١٨٠١ ــ ١٨٠٧ .

ان التحيز ضد السود أمر متأصل في نفوس البيض، كما أن عشرات الآلاف من ذكريات ضروب الظلم والاذى الذي تحمله السود وكذا الفروق التي أوجدتها الطبيعة، وعوامل أخـــرى ، كل ذلك سيقسمنا الى قسـمين وستتسبب عنه اضطرابات لا يتوقع أن تنتهي الابفناء أحد الجنسين .

يضاف الى ذلك عوامل أخرى جسمانية ومعنــوية وأول اختلاف يستلفت أنظارنا بين الجنسين هو اللون ، وهو ليس بالأمر الهين أليس هو أساس وجود قدر كبير أو قليل من الجمال في الجنسين ؟ أليس امتزاج الأحمر والأبيض والتعبير عن كل انفعال بما يظهر على الوجه من احمرار لدى البيض ، أليس هذا بأفضـــل من ذلك الجمود الدائم الذي يبـــدو على وجوه السود وذلك القناع الأسود الذي يخفي كل انفعالاتهم ؟ هذا فضلا عن الشعر المتهدل والتناسق الرائع في القوام .

ان الجمال الفائق يلفت النظر الى الخيل والـكلاب وغيرها من الحيوانات الأليفة ، فلماذا لا يكون في الانسان ايضا ؟ وبمقارنة الســـود بالبيض من حيث الذاكرة والتفكير والخيال نجد أن السود يتســاوون مع البيض في التذكر وهم أقل من حيث التفكير اما عن الخيـــال فهم أغبياء ، عديمو الذوق ، مصابون بالشذوذ .

واذا كانت الأقــدار قــد حتمت وجوب تمتع السود بالحرية فانها قد قررت أن السود والبيض لا يمكن أن يتعايشا وكان العجز عن ادراك الحقيقة الأخيرة هو ما منع الأسلاف المؤسسين من اتخاذ اى اجراء .

وسبب ثالث وأخير يضاف الى حب التملك والتحيز

وهو السلبية وعدم الاستشراف العملى لحل تلك المشكلة وتناولها بكل برود ، وهو على نقيض الوازع الدينى الذى سيطر على المطالبين بالغـــاء الرقيق فى القرن التاسع عشر .

وفى دراسته عن الرقيق فى فرجينيا قارن روبرت ماكوللى بين الطرق التى تناول بها هذه المشكلة كل من الأسلاف المؤسسين وساسة الثورة الأمريكية والكويكرز(١) Quakers ثم المتعصبين من رجال الدين أمثال جون وولمان ، قال ماكوللى :

« ان فكرة تحرير العبيـــد لم تنشأ لدى الطبقـــة الارستقراطية المستنيرة ولا من النظـــــريات البارعة للجمهوريين ولا من الحماس الدافق نحو الحرية ، بل صدرت عن الطـــوائف الدينية المنشقة وخاصة طائفة الكويكرز والميثوديون (٢) .

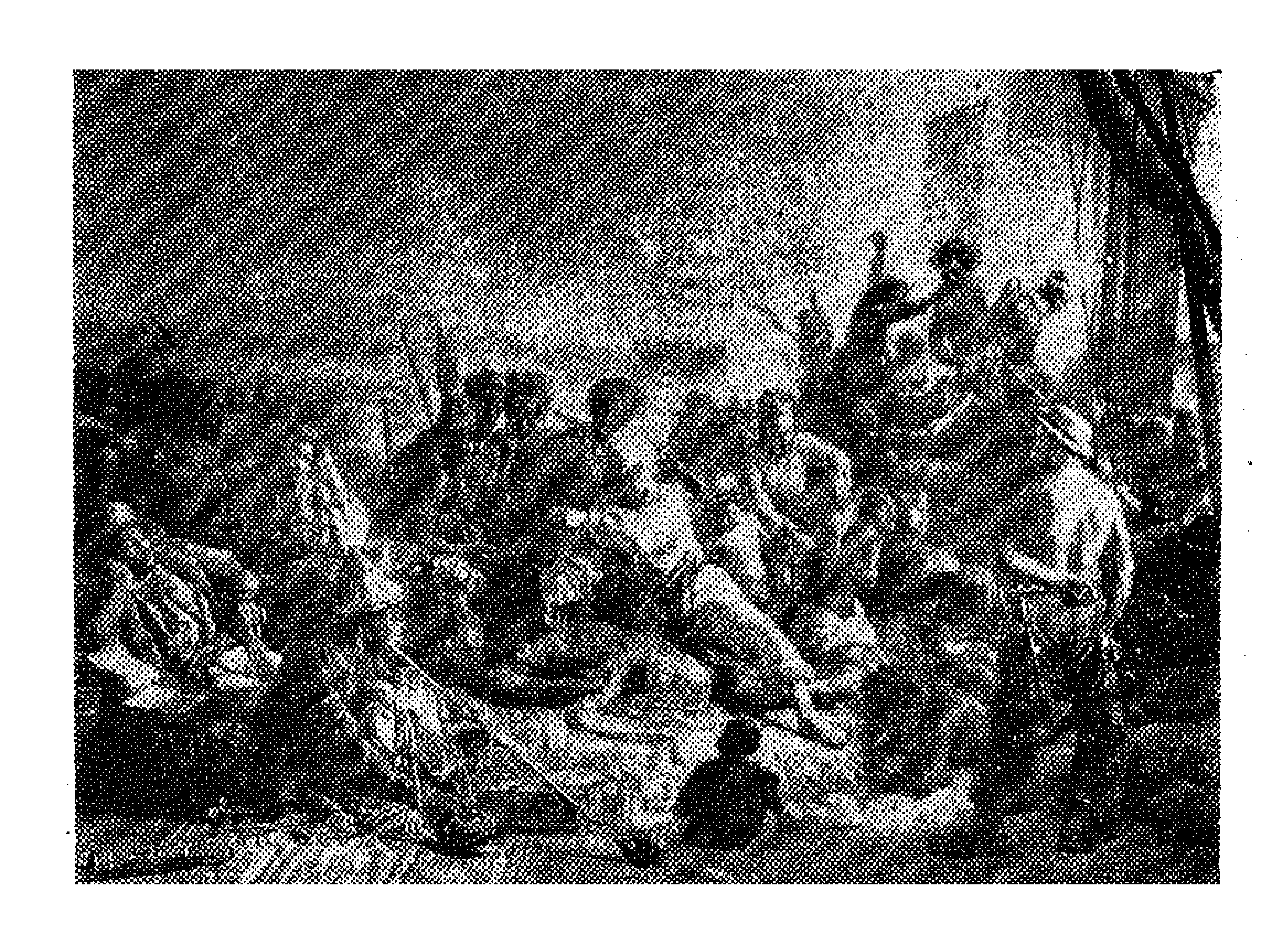
ويفسر ماكوللى هذا الخلاف البين بين سلوك الأسلاف المؤسسين وبين الكويكرز ودعاة الألغاء من رجال الدين بأن الكويكرز كانوا يؤمنون بامكان الالغاء عن طريق الوازع الأخلاقى بينما تمسك رجال السياسة بمبادىء رجعية لا يمكن للانسان أن يغيرها ، اذ اعتقـــدوا ان الزنوج بطبيعتهم أعداء للبيض وأنهم أقل ذكاء من البيض ، بينما آمن الكريكرز بأن الزنوج قابلون للتعليم ولذا كانوا يقومون بتعليمهم فى الأماكن التى كانوا يجتمعون بها .

---

(١) الكويكرز طائفة دينية أنشاها جورج فوكس الانجليزى عام ١٦٥٠ ويسمون « الاصحاب » ومن عقائدهم الاهتزاز والارتجاف عند ذكر اسم الله

(٢) طائفة دينية نشأت فى انجلترا عام ١٧٢٩ ويسمون أيضا المنهجيون .

وذهب رجال السياسة الى أن التحرير يجب أن يصحبه اجلاء فورى للزنوج خشية قيام علاقات جنسية بينهم وبين البيض وظهور طوائف من الملونين . ورد الكويكرز على ذلك بأن التحرير له الأسبقية على كل اعتبار آخر ، ولهذا الخلاف فى الرأى لم تلغ الولايات المتحدة الرقيق عندما استقلت .



مقررات الشمال الغربى (١) والمؤتمر الدستورى

بقلم ستوتون ليند

فى مايو عام ١٧٨٧ أنشئت فى انجلترا جمعية تطالب بالغاء الرق وذلك فى نفس الوقت الذى اجتمع فيه « المؤتمر الدستورى » (٢) بفلادلفيا فى يوليو ١٧٨٧ ، وقرر مادة « الثلاثة أخماس » (٣) التى جعلت العبيد ٦٠ فى المائة من البشر ، وذلك من حيث التمثيل السياسى ، ولكنهم من الناحية الاقتصادية استمروا معتبرين « أشياء » كالأمتعة الخاصة .

وفى نفس اليوم وعلى بعد تسعين ميلا وفى مدينة نيويورك عقد مؤتمر آخر للحكومة الائتلافية فيها وأصدر « قانون الشمال الغربى » الذى حرر تجارة الرقيق

(١) المقصود الشمال الغربى للولايات الثلاث عشرة التى تكونت منها الولايات المتحدة فى بادىء الامر « المترجم »

(٢) هو المؤتمر الذى عقد فى فيلادلفيا عام ١٧٨٧ لوضع دستور للولايات المتحدة لان نظام الحكم فيها منذ اعلان استقلالها عام ١٧٧٦ كان قائما على أساس « قانون الائتلاف بين الولايات المتحدة » وقد واجه الكونجرس ، الذى كان يضم ممثلين للولايات المؤتلفة ، مشاكل جديدة بسبب اختلاف وجهات النظر بين الولايات وقد تم وضع ذلك الدستور عام ١٨٨٧ « المترجم .

(٣) أى من حيث الانتخاب للكونجرس وستوضح فيما بعد .

مســتقبلا فى ولايات وسكنسن وميشجن . والللينوس وانديانا وأوهيو .

فما هو اذن معنى التوافق الزمنى ؟ وكيف نفسر تأييد الدستور للرق بينما قانون الشمال الغــربى يعمل على الغائه ؟ وما هو دور دستور الولايات المتحدة ازاء ذلك الرجل الأفرو أمريكى ؟ وأخيرا ما هو دستور الولايات المتحدة ؟ من وضعه ، ولمن ولأى هدف وضع ؟

ولفهم المشكلات التى واجهت مؤتمر الحكومة الائتلافية بنيويورك والمؤتمر الدستورى عام ١٧٨٧ والكيفية التى عالجا بها هذه المشــكلات بطريق التسوية بين الدستور وبين « قانون الشــمال الغربى » ، لفهم ذلك يجب أن نضع موضع الاعتبار الموقع الجغرافى للأمة الجديدة كما كان يبدو عام ١٧٨٠ .

لقد كان نهر المسيسبى هو الحد الغربى للأمة الجديدة ، كما نصت عليه المعاهدة مع انجلترا عام ١٧٨٣ ، بينما الحد الجنوبى ينتهى فى شمال فلوريدا . وهذه المساحة لم يكن اغلبها قد تحول الى ولايات بالمعنى المفهوم اذ ظلت أجزاء منها مقاطعات متمسكة باستقلالها .

والى الشرق من جبال ابلاشيان تقع الثلاث عشرة ولاية التى تكونت منها النواة الأولى للولايات المتحدة ، وثمان منها فى الشمال وهى : ماساتشوستس ، رود أيلند ، كنتيكت ، نيوهامشير ، نيويورك ، نيو جــرسى ، بنسلفانيا ثم دلوير ، التى الغت أو اتجهت نحو الغــاء الرقيق فى عام ١٧٨٧ . أما الولايات التى تمســكت بالرقيق فهى جورجيا ، سوث كارولينا ، نورث كارولينا ،

فرجينيا ثم ميريلاند وقد اعتبرها المؤتمر الدستوري ولايات جنوبية .

وبين جبال الأبلاش ونهر المسيسيبى توجد مساحات واسعة اعتبرت جزءا من الولايات المتحدة عام ١٧٨٧ ، ولكنها كانت من الوجهة السياسية معتبرة كأقاليم لم تتحول بعد الى ولايات . وهذه المساحات الواقعة شمال وجنوب نهر أوهيو ، قسمت الى خمس ولايات شمال النهر وهي ويسكنسن ، مشجن ، الينوى ، انديانا ثم أوهيو ، وتقرر أن تكون ولايات الرق ممنوع فيها ، أما الولايات التي تقع جنوب نهر أوهيو فقد اعتبرت ولايات يباح فيها الرق .

والآن لنلخص مواد دستور الولايات المتحدة فيما يتصل بنظام الرق : ان المادة ١ ، البند الثانى ، المسماة « مادة الثلاثة الأخماس » زادت من التمثيل السياسى للجنوب فى مجلس النواب باضافة ثلاثة أخماس السكان الزنوج الى السكان البيض لتحديد عدد النواب عن كل ولاية بالكونجرس . ومادة « الثلاثة الاخماس هذه اعتبرت الزنجي كثلاثة أخماس الانسان الأمريكى الأبيض ! واذن فبينما اتسع التمثيل السياسى للبيض السادة ، ظل السود فى عبودية اقتصادية . ومادة « الثلاثة الأخماس » هذه هى أول وأهم تسوية تتصل بالرقيق فى المؤتمر الدستورى .

وقد خولت المادة ١ ، القسم الثامن ، حكومة الولايات المتحدة أن تعاون الولايات المختلفة على اخماد أى عصيان مسلح من قبل العبيد فى أى مكان ، كما ان المادة ١ ، البند التاسع ، خولت للكونجرس ، اذا شاء ، بعد عشرين عاما اي ليس قبل ١٨٠٧ أن ينظر فى الغاء تجارة الرقيق

وليس فى نظام الرقيق نفسه ، وهذا الامر قد حدث فعلا عام ١٨٠٧ .

واخيرا نصت المادة ٤ البند الثاني وهى الخاصة بالعبيد الهاربين على ان الولايات الشمالية ملزمة باعادة العبيد لسادتهم فى الولايات الجنوبية .

وهذه البنود كان لهـــا أكبر الأثر فى زيادة وتقوية وحماية نظام الرقيق ، فلماذا صدرت ؟

لقـــد ناقشنا بعض الأسباب التى دعت الى فشل الولايات المتحدة فى الغاء الرقيق ابان الثورة ، ولكن لماذا قام المؤتمر الدستورى المنعقـد فى فيلادلفيا عام ١٧٨٧ بالتسوية التى أشرنا اليها ، وكيف نفسر تدعيم ذلك المؤتمر لنظام الرق بينما مؤتمر المستعمرات المنعقد على مسافة تسعين ميلا بنيويورك يخطو خطوة ضد الرق فى الولايات الخمس التى تكون منها الشمال الغربى يومئذ .

وللاجابة على ذلك اكد المؤرخون أن أهم أعمال المؤتمر الدستورى حتى عام ١٩٠٠ كانت هى تسوية الخلاف بين الشمال والجنوب ما يتصل بالرقيق . وقد كان الاعتقاد أن مشكلة الصراع بين الشمال والجنـوب بشأن الرقيق كانت فى مؤتمر المســـتعمرات مسألة ثانوية وان اغفال الاشارة الصريحة الى نظام الرقيق فى الدستور ، كان من نتائجه اهمال أمر الرجل الأسود فى السياسة العــامة للولايات المتحدة خلال تلك المدة ، التى منح فيها حق الاقتراع اى الانتخاب فى الولايات المتحدة .

وجدير بالذكر أنه عند عقد المؤتمر الدستورى وردت

(١) يسمى المؤتمر القارى أو مؤتمر المستعمرات التى تشكلت منها بعض ولايات الولايات المتحدة .

ممه رق ورقيق فى المناقشات كثيرا وأن مندوبا ولاية كارولينا الشمالية وجورجيا بصفة خاصة ، كانا يقفان على أقدامهما قائلين انهما لا يمكن أن يتخليا عن حق تملك الرقيق وجرت المناقشات صريحة نحو التساؤل عما اذا كان نظام الرق نظاما شرعيا أم غير شرعى ، وهل يجب الغاؤه أم الابقاء عليه ؟ وكان الصراع حول هذه المسائل شديدا بين الولايات الخمس الجنوبية والولايات الثمان الشمالية لأن نظام الرقيق كان سائدا فى الجنوب وليس فى الشمال ، وكما أعلن جيمس ماديسون (١) فى المؤتمر « أن نظام الرقيق وما ينتج عنه هو جوهر الخلاف بين الفريقين وأنه من الواجب تسوية ذلك الخلاف » .

والواقع أن ذلك الخلاف يرجع الى ما قبل المؤتمر الدستورى عام ١٧٨٧ عندما قال باترك هنرى (٢) فى مؤتمر المستعمرات الأول عام ١٧٧٤ ، « نحن جميعا أمريكيون » وذلك عندما تعرض المؤتمر لتمثيل الرقيق كأعضاء فى الكونجرس . فلما انتهت الثورة الأمريكية عام ١٨٧٣ كتب توماس جفرسون (٣) ، الذى لا يمكن وصفه بالتعصب ، كتب الى حاكم فرجينيا يذكر ان خلافا قد احتدم فى الكونجرس بشأن ضم الولايات الشمالية والولايات الجنوبية الى الولايات الثلاث عشرة الأصلية : أيها يضم أولا ؟ ذلك الأن كلا من الاقليمين بدأ يدرك أهمية الادلاء بأصواته .

وعند انتهاء الحرب عام ١٧٨٢ ، بعثت الولايات

(١) رابع رؤساء الولايات المتحدة (١٧٥١ ـ ١٨٣٦)

(٢) سياسى أمريكي وخطيب وقائد من قواد الثورة وكان من أبرز أعضاء مؤتمر المستعمرات سنة ١٧٧٤ وهو من أبناء ولاية فرجينيا « المترجم » .

(٣) ثالث رؤساء الولايات المتحدة (١٧٤٣ ـ ١٨٢٦) .

المتحدة الى باريس بمندوبيها لتوقيع اتفاقية السلام ، وكان هؤلاء هم جون آدمز وبنجامين فرانكلين وجون جاى . وقد وجه الجنوبيون الأنظار الى أن هؤلاء المندوبين من الشماليين الذين لا يمكن الاطمئنان الى تمثيلهم لمصالح الجنوبيين ولذلك عين جفرسون سفيرا بفرنسا ليكون للجنوبيين ممثلا فى أوربا .

والواقع أن النزاع الاقليمى بشأن الرقيق لم يكن نزاعا جديدا بل نزاع تناوله مؤتمر المستعمرات منذ بدأ عام ١٧٧٤ .

والآن ، مع التسليم بأن الصراع الاقليمى كان شديدا ، وكان الجنوبيون اقلية من حيث عدد الولايات التى تمسكت بنظام الرقيق ومن حيث عدد السكان ، فلماذا وافقوا على دستور الولايات المتحدة ؟ وعلى السلطات التى منحت للحكومة المركزية ؟ وهل تجاهل ماديسون وواشنطن المصالح الاقليمية الخاصة للجنوبيين أم كانت لديهما فكرة عن المستقبل جعلتهما يجاملان الجنوبيين والشماليين ؟

لقد برر ماديسون ذلك الموقف بقوله أنه رأى أنه اذا أريد من الجنوب أن يعمل على تقوية دعائم الكونجرس فان مشروع اعطاء صوت واحد لكل ولاية جنوبية يجب تغييره لصالح الجنوب . وأن أساس تمثيل الجنوب يجب أن يكون عدد السكان فى مجلس النواب . ولم يكن ذلك ليضير الولايات الشمالية لكثرة عدد سكانها وما كان ليضير الولايات الجنوبية لتوقعها زيادة عدد سكانها ومن ثم يمكن الجنوبيين أن يؤيدوا الحكومة المركزية أملا فى زيادة نفوذهم مستقبلا .

وأصبح المتفق عليه لدى أعضاء المؤتمر الدستورى أنه

عندما يزداد عدد سكان الجنوب والغرب ، الأمر المتوقع بعد سنوات قلائل ، فان الجنوب سيعوض عما استأثر به الشمال من امتيازات فى نفس الوقت .

وقد عارض أحدهم ذلك الاتجاه بقوله « انه لمن قصر النظر الا نتنبأ بأنه عندما تصبح الولايات الجنوبية أكثر سكانا من الولايات الشمالية فانها سترغمها على الرضوخ لمطالبها . واذا هددت بالانفصال اذا ما أحست بعدم الاستجابة لمطالبها ، فان قوتها ستؤيد تلك المطالب » .

وقال آخر « لقد قيل أن كارولينا الجنوبية وجورجيا سيكون لديهما فى وقت قصير أغلبية سكانية وفى تلك الحالة ستكونان من أعظم الولايات » .

ومن ثم كان هذا سبب التسويات التى أجراها المؤتمر الدستورى ، فالشمال وافق على تأييد الحكومة الاتحادية لأنه كانت لديه أغلبية سكانية والجنوب وافق على تأييدها لتوقعه زيادة عدد سكانه . وهكذا سويت مشاكل تجارة الرقيق بالاتفاق على بند الثلاثة الأخماس وتجارة الرقيق والعبيد الهاربين وكذلك البند الخاص باخماد أى عصيان من جانب الرقيق .

وهذا يعطينا فكرة عامة ، على الأقل ، عن اتجاهات المؤتمر الدستورى . والآن لنتساءل : لماذا تساهل الشمال مع الجنوب فى المؤتمر الدستورى بفيلادلفيا ، وفى نفس الوقت ، تقرر بموجب قانون الشمال الغربى الغاء الرق فى الولايات التى ستنضم مستقبلا الولايات المتحدة وهى وسكنسن ومتشجن والينوس وانديانا ثم أوهايو ولماذا وافق مندوبو الجنوب على ذلك القانون ؟

هناك ثلاثة أسباب أولاها هو : ولو اننا نظن اليوم أن

تلك الولايات الخمس الشمالية الغربية كانت ستكون ولايات ليس بها رق ، الا أن ذلك لم يكن واضحا كل الوضوح عام ١٧٨٧ ، ذلك لأن الأمواج السكانية عبر جبال الابلاش فى ذلك الوقت كانت قادمة من فرجينيا ونورث كارولينا الى ما أصبح فيما بعد ولايات كنتكى وتنيسى . وقد توقع الجنوبيون أن تلك الموجات السكانية التى حملت عائلات ابراهام لنكولن وجفرسن دافيز ستتجه أيضا نحو الشمال عبر نهر أوهايو الى ولاية أوهايو وانديانا واللينوس وان تلك الولايات قد تنحاز فى التصويت الى جانب الجنوب ، ولو أن هذا التوقع لم يتحقق الا أنه كان يقيم بها عدد كبير من الجنوبيين ولذلك قام نزاع فى اللينوس عام ١٨٢٠ بشأن الغاء قانون الشمال الغربى أو الابقاء عليه حرصا على مصالح هؤلاء الجنوبيين . بتلك الولايات واذن فأحد أسباب موافقة الجنوب على قانون الشمال الغربى هو الاعتقاد بأن تلك الولايات الشمالية الغربية ستضيف أصواتا فى صالح الجنوب بالكونجرس .

وثانى تلك الأسباب هو أنه حتى عام ١٧٨٧ كان مؤتمر المستعمرات يجاهد فى سبيل ايجاد تشريع للأجزاء الغربية كلها ، ولم يكن نهر أوهايو قد تقرر كحد فاصل بين ولايات الشمال الغربى والولايات الجنوبية الغربية ولكن ما حدث هو أن ذلك المؤتمر قرر عام ١٧٨٧ أن تلك الولايات ستكون حرة وفهم الجنوبيون أن تلك الولايات ستبيح الرق . وعندما طلبت الولايات بعد سنوات قلائل الانضمام للولايات المتحدة وافق الشماليون على انضمامها باعتبار أنها تجيز الرق .

والسبب الثالث أن الجنوبيين وافقوا على قانون الشمال الغربى على الرغم من الغائه الرق هو أن أحد بنود ذلك

القانون قلل من حجم عددالسكان المطلوب للانضمام الى الاتحاد وقد توقع الجنوبيون أن تلك الولايات ستؤيد الجنوب فى الكونجرس عند انضمامها .

وقد وافق المؤتمر الدستورى على ما تقرر بشأن الرق ، أى بند الثلاثة أخماس وتجارة الرقيق لتلافى تحرير العبيد ووجود اغلبية للجنوب فى الكونجرس وهكذا أرضى الشماليون الجنوبيين .

ومن عجائب الأقدار ان ينتخب توماس جفرسن رئيسا للولايات المتحدة ، بينما هو أحد ملاك العبيد وكان من المحتمل أن يسقط فى الانتخابات أمام منافسه جون آدمز من أبناء الشمال لولا بند الثلاثة أخماس الذى أكسبه أصوات الجنوبيين ، ولافساح المجال لنظام الرق غرب نهر المسيسبى قام بشراء منطقة لويزيانا من فرنسا .

وفى عام ١٨٠٠ أوقفت انجلترا وفرنسا حربهما مؤقتا لتتفرغا لمواجهة رجل اعتبراه عدوا مشتركا ، ذلكم هو توسان الفاتح الذى قام بثورة فى هايتى .

وفى ذلك العام ايضا قاد جبرائيل بروسر أول عصيان مسلح قام به العبيد فى الولايات المتحدة ، وقد حمل الثائرون علما كتب عليه « الموت أو الحرية » ولكن حاكم فرجينيا ، جيمس مونرو ، أخمد تلك الثورة واعدم العبيد الثائرين .

وقد أظهر ذلك العام أن القرن التاسع عشر لن يكون عاما يبشر بالخير للسود فى أمريكا .

الرق والسود فى أمريكا

بقلم ستيرلنج ستكى (١)

ان السود الذين شحنوا الى العالم الجديد لم يأتوا من مجتمعات خالية من الثقافة والمنجزات والواقع أن هؤلاء السود جاءوا من مجتمعات وصل فيها التقدم الدينى والسياسي والاقتصادى والفنى مستوى عظيما . ومن الصعب أن نتخيل مدى الكرب والألم والمشاكل التى جلبتها تجارة الرق والرقيق على هؤلاء الأفريقيين . ومن دراستنا للماضى نعرف أن هؤلاء السود قد انتزعوا من قبائلهم وسيقوا كالماشية من داخل البلاد الى سواحل الأطلنطى ثم وسموا بالحديد المحمى ، بعلامات ثم حشدوا كالسردين فى سفن تعبر المحيط وفى فترة العبور قاسى هؤلاء المساكين من الأهوال ما لا يخطر على بال .

وعندما كانوا يصلون الى العالم الجديد تبدأ عملية « الأقلمة » أى تطويعهم للحياة الجديدة ، وتلك عملية تتسم بالشدة والقسوة ، والهدف منها هو جعلهم أتباعا خانعين ، انقطعت صلتهم بأفريقيا نهائيا وحطم كل

---

(١) عرف باهتمامه بالتاريخ الافرو أمريكى والمطالبة بتدريسه ونشرت له جامعة متشجين بحثا عنوانه « أهمية دراسة السود فى المناهج الدراسيه » وهو مستشار لبعض الجامعات الامريكية فى تلك الموضوعات .

ما يربطهم بمعتقداتهم وسلوكهم الذى ورثوه منذ نحـــو ألف عام ، وكانت تلك العملية هى حجر الأساس الذى قام عليه اخضاع الرقيق ، وهى دون شك لهـــــا صلة مباشرة للاضطهاد الذى يلاقيه السود حاليا فى الغرب .

ان تلك الحرب النفسية ضد السود ، التى استهدفت تحطيم ثقافتهم ومعنوياتهم للسيطرةعليهم ماديا وجسمانيا، لقيت تأييدا كاملا من النظام القضائى فى أمريكا الشمالية، فقد كانت تحركات الرقيق مقيدة وكان فى استطاعة اى شخص أبيض أن يطالب الأسود بابراز التصريح الذى يوضح خط سيره ، كما كان محرما على السود اجراء أى تعاقد أو امتلاك أى شيء وما كان فى استطاعة أحدمنهم أن يتزوج أو يتلقى أى تعــــليم الا فى حالات نادرة . والأعجب من كل ذلك أن دفاع الأسود عن نفسه ضـــد اى عدوان من الأبيض ، اعتبر جريمة ، كذلك كان اجتماع اكثر من ثلاثة من السود جريمة ، الا اذا كان بينهم رجل أبيض .

باستقرار نظــــام الرق خلال القرن التاسع عشر ، اشتدت وطأة القوانين وأصبحت لقاءات السود الارقاء بالسود المحررين أمرا بغيضـــا لدى ملاك العبيد يمنعونه بكل وسيلة . وهذا بايجاز « القانون والنظام » الخاص بالعبيد ، وهـــو ما قضت به تشريعات الرجـــل الأبيض وأقرته الكنيسة والدولة والمحامون والوعاظ والسياسيون والأساتذة ، كما أجازته الديمقراطية الأمريكية .

وقد عرض البروفسور كنيث ستامب فى كتابه « النظام الفريد » الطرق الخمس التى استخدمها الـكثيرون من « الأسياد » لتكوين عبد مطيع وهى : الحرص على النظام الدقيق ، غرس الشعور بالضعة بسبب اصله الافريقى ،

ارهابه باقناعه بسلطان البيض وقوتهم ، تدريبه على الايمان بأن مصلحته هى مصلحة سيده واخيرا ان تغرس فى نفسه روح اليأس وقلة الحيلة والاستسلام .

ولو ان القوانين الخاصة بالرق كانت تطبق حرفيا فى المزارع الكبرى ، الا أنه كان من الصعب السيطرة على العبيد فى المدن ، لوجود سود محررين فيها وهؤلاء كانوا يشجعون المستعبدين على المطالبة بالتحرر . يضاف الى ذلك أن العبيد فى المدن ما كانوا يقيمون مع أسيادهم فى مسكن واحد ، بل كانوا يقيمون فى مساكن بعيدة أحيانا ومن ثم كانوا يعيشون فى عزلة الى حد ما ، كما كان فى استطاعة الواحد منهم أن يؤجر نفسه فى مكان آخر ليكسب أجرا يمكنه بمضى الأيام من شراء حريته .

وقد كانت حالات شراء الحرية قليلة بين عامى ١٨٣٠ و ١٨٦٠ عندما ازداد الصراع بين السود والبيض فى الجنوب .

فهل كان السود بليدى الاحساس تجاه ما يقاسونه ،كما يذهب بعض المؤرخين البيض ؟ ان الرق لم يكن محنة انسانية أغفلها التاريخ كما أن العبيد لم يقابلوا محنتهم بالصمت والاستسلام بل كانوا يروون لبعضهم البعض ولصغارهم ما حل ببعضهم من آلام ، عندما كان أبناؤهم يؤخذون منهم قسرا ، وليس من السهل ان نعرف مقدار ما عاناه السود بسبب الرق .

وقد وصف أحدهم الآلام والأشجان التى كانت تحيق بالأمهات السود قائلا :

« الموقد لا يستعمل والأطفال الأبرياء الذين كانوا يغنون ويرقصون حولها قد رحلوا وهى تتحسس طريقها فى ظلام

الشيخوخة بحثا عن جرعة ماء .. والقبر عند الباب ... والآن وفى الوقت الذى تحتـــاج فيه والدة ، فى أواخر أيامها ، الى عطف وحنان أبنائها ، تقيم جدتى العجوز البائسة وحدها بعد أن حرمت من اطفالها الاثنى عشر ، فى كوخ حقير أمام جمرات قليلة تكاد لا تلتهب » .

ولو أن نظام الرق لم يعترف بالزواج بين السود ولم يعترف بالأسر التى تنشأ بينهم ، الا أن ذلك لم يمنع من وجود روح تراحم وتعاطف بين السود ، ودليل ذلك ما كانوا يكتبونه أو ينشدونه من أغنيات تجلت فيها تلك الروح، يضاف الى ذلك أنه عند الغاء الرق نهائيا أخذ الآلاف من السود فى البحث عن أقاربهم وأصحابهم ممن ابعدوا عنهم قبل الالغاء .

لقد قام ملايين السود فى الواقع ببناء أمريكا البيضاء اذ عهد اليهم بأشق واحط الأعمال وكان لسواعدهم القوية فضل تحويل مساحات واسعة من البرارى الى اراض تزرع وتسكن ، اضطلعوا بـكل ذلك بينما كانوا يعاملون كمجرد أدوات أو أشياء تستعمل وتساق حتى تستهلك ولا يمكن الافادة منها ، وليس من المبالغة القول بأن أمريكا البيضاء عملت على أن تسلب من السود انسانيتهم وتحطم معنوياتهم .

وقد قاوم السود بما لديهم من معدات قليلة وبسيطة وهاجموا البيض مرارا وقاموا بثورات ، كما كانت هناك مقاومات من يوم لآخر كادعاء المرض والتخريب وبتر الساعد أو الكف ، ولكن سلطان البيض لم يمكن قهره وكان الخضوع ملاذ السود .

فما هى القيم والعوامل والظروف التى ساعدت السود

على اجتياز محنتهم ؟ وهل حاولوا بطريقة ما تشكيل قيمهم حسب الظـروف وحسب البيئة التى يقيمون فيهـا ؟

لم يتناول أى مؤرخ بالتفصيل موضوع قيام عالم خفى للسود ولكن بعض السـود قـد حظى بمكان مرموق فى الموسيقى والدين . نحن نعلم اليوم أن الموسيقى والقصص الشعبية للرقيق قد تأثرت بأفريقيا تأثرا ظاهرا وكذلك الديانة ، وتلك الاعتبارات مضافا اليها تجاربهم فى العالم الجديد ، كل ذلك يفسر لنا السبب فى وجود خلافات من حيث الفن والدين بين السود والبيض والسبب فى اختلاف نظرة كل من الفريقين الى أمريكا والعالم .

ويذهب دكتور « دى بوا » (١) الى أن الزنوج فى أمريكا الشمالية اعتبروا أنفسهم افريقيين لمدة قرنين ، وقد يكون فيما رآه شيئا من المغالاة ، ولكنه أقرب الى الواقع بعكس بعض الباحثين الذين لا يعترفون بوجود أى تأثير افريقى على الرقيق . ومما يؤيد ما ذهب اليه دكتور « دى بوا » ان السود المحررين فى شمال أمريكا ظلوا نحو مائتى عام يعتبرون أنفسهم أفريقيين أو افريقيين محررين ، بل كانوا يصفون منظماتهم بأنها افريقية ويظهرون منتهى الاهتمام والولع بكل ما هو افريقى . ويتجلى هـذا الوعى من قبل السود فى بحثهم عن أقاربهم بعد الغـاء الرقيق وتخلص عدد كبير منهم من الأسماء التى أطلقهـا عليهم أسيادهم . وكما يتفاهم السود اليوم مع بعضهم البعض بطرق لا يدركها أغلب البيض ، فمن المحتمل أنهم كانوا يتفاهمون بنفس الطرق ، وربما بطرق أخرى أكثر

---

(١) أمريكى من أصل زنجى ، اشتغل بالتعليم وألف قصصا وكان عضوا بالجمعيات التى تناهض التفرقة العنصرية .

في عهد الاسترقاق . وقد قام أحد مشاهير الزنوج وهو « بوكر واشنطن » (١) بذكر الكثير من هذه الطرق في كتابه « التحرر من الرق » .

وعندما انتهى نظـــام الرق ، جثم كابوس التفرقة العنصرية على صدور الأمريكيين البيض ، مما دفع أغلبهم الى الاصرار على اعتبـــار السود « أشياء » تستعمل وتستغل ، على كافة مستويات الاتصـــال بين الاثنين ، سواء أكان ذلك في التعليم أو السياسة أو الاقتصاد أو في الفن ، كمـــا اعتبر السود أساس كل الشرور وجماع الشهوات الجنسية .

وقد كان من أثر تملك البيض للسود وحرمانهم من حريتهم مدة طويلة ، ان انفرس في نفوس البيض التعصب ضد السود حتى بعد الغاء الرق بنحو قرن ، ويظهر هذا في ميدان التعليم اذ يصر البيض على الهيمنة على تعليم السود ، كما يظهر في ميدان السياسة اذ ليس للسود من الناحية العملية أي دور في سن القوانين التي يجب عليهم اتباعها ، أما في المجال الاقتصادي فليس لهم نشاط يذكر ، الا فيما يتفضل به عليهم البيض .

والواقع ان أغلب الأمريكيين البيض يؤمن باخلاص ، أن الأمريكيين البيض أفضل الشعوب وأن أرواحهم أغلى بكثير من أرواح الآخرين في أي مكان حتى في أمريكا ، وهذا طبعا ضرب من الجنون مرجعه الى عهـــد الرقيق

---

(١) من مشاهير الزنوج ولد في فرجينيـا عام ١٨٥٦ وجاهد حتى أتم تعليمه ثم عين مديرا لاحد معاهد تدريب الزنوج واعتبر من رواد هذا الميدان وتوفي عام ١٩١٥ ، وفي ١٩٤٦ أزيح الســـتار عن تمثال نصفي ولوحة تذكارية في « رواق المجد » بجامعة نيويورك ، الى جوار عظمـــاء أمريكا الراحلين .

والى الابادة الجماعية للهنود الحمر والى اعتقاد الكثيرين من البيض انه من الجرم التسامح مع الزنوج مثلمـــا يتسامحون مع المهـــاجرين من شتى الأمم بسبب تلك الرواسب القديمة .

لقد قاسى السود فى عهد الاستعباد صنوفا من الاضطاد والتعذيب لانظير لها فى التاريخ القديم والحديث وان جهاد السود للتخلص من كل ذلك هو فى حد ذاته انتصار لهم وان استمرارهم فى هــذا الجهاد حتى تحرروا هو أكبر دليل على حيوتهم وأكبر نصر فى تاريخ الانسانية .

واذا عرف العالم ما قام به السود من جهود ضخمة فى سبيل بناء أمريكا الحديثة ، فانه لا شك سيعمل على علاج ذلك السرطان الــذى يهدد الحياة والطمأنينة على ظهر الأرض .

الرق وأمريكا البيضاء

بقلم ستيرلنج ستكى

اذا فكرنا فى العلاقة بين الرق والمجتمع الأمريكى وبين هؤلاء المستعبدين ومن استعبدوهم ونزلوا بهم الى تلك الحالة الفظيعة ، اذا فكرنا فى ذلك فمن واجبنا ان نتذكر أن مؤسسي الجمهورية وفلاسفة الحرية والديمقراطية الأمريكيين أمثال توماس جفرسن وجورج واشنطن كانوا أنفسهم ممن يملكون عبيدا ، ورغبة من هؤلاء فى عدم الغاء نظام الرقيق فقد وافقوا على قيام امة بين أفرادها مئات الآلاف من الأرقاء وبذلك كان ارتباط الحرية بالرق زواجا غير شرعى وغير مستساغ . ولم يسبق فى التاريخ ان كون الناس أمة بمثل هذا الزيف والنفاق (ولا ننسى انه قبل قدوم الرجل الأبيض الى سواحل أمريكا كانت الارض ملكا للهنود ، وأن الهنود عند ميلاد الأمة الأمريكية كانوا يذبحون ويطردون من أراضيهم ، وان هؤلاء الهنود الذين امتلكوا أراضيهم عدة قرون كانوا يعتبرون متوحشين فى نظر من كانوا يقتلونهم ويسلبونهم ويسلخون جلد رءوسهم) .

وقبل ان يصل الآباء المؤسسون الى التسويات التى اشرنا اليها ،حاول أسلافهم من عام ١٦١٩ الى ١٦٦٠

الاستفادة جهد الطاقة من السود وقرروا أن الاسترقاق مدى الحياة ، لا العمل لمدة معينة هو الحل الأمثل . وقد استغلت المسيحية لتبرير استرقاق هؤلاء الافريقيين الذين جلبوا الى امريكا عنوة وهكذا كانت الكنيسة أولى الهيئات التى باركت استعباد السود . ثم عمل القادة السياسيون بمرور الوقت على تقنين الاستعباد الذى كان يجرى فعلا بحكم العرف والضرورة الاقتصادية ولكن الواقع أن الضرورة الوحيدة ، اذا كانت هناك ضرورة ، كانت هى الدافع النفسى لبعض الأمريكيين البيض لاستخدام آخرين لينعموا بحياة هانئة رخية .

وقبيل قيام الثورة الأمريكية كانت جميع الهيئات فى المجتمع الامريكم سواء أكانت دينية أم تعليمية أم سياسية، أم اقتصادية أم قانونية أم اجتماعية تؤيد نظام الرقيق مما ساعد أمريكا على توطيده وترسيخه . فلما قامت الثورة كانت نتائجها حافلة بالمتناقضات ، فبينما حرم الرق فى الشمال وأعلنت الحرية للبلاد والسكان ، كان هناك فريق من السكان يعانى أقسى وأبغض أنواع الاستعباد فى تاريخ البشر وبينما أصبحت الحرية هى النشيد المحبب للأمريكيين البيض ، كان التمييز العنصرى أى الاعتقاد بأن فريقا من الناس بسبب لون جلدهم أرقى من غيرهم من ذوى اللون المختلف عن لون جلودهم ومن ثم كان من حقهم بسبب ما لديهم من سلطان اقتصادى ونفوذ سياسى واجتماعى أن تكون لهم الكلمة العليا ، ولكثرة عدد البيض سيطر هذا الاعتقاد على غالبيتهم .

ومن الواجب دراسة كيف انتقلت الروح العنصرية من جيل الى آخر ، والواقع أن مجموعة نظم عامة وخاصة عملت على دفع تلك الروح بحيث أصبحت أمرا جوهريا فى

الحياة الأمريكية . ولذلك فان الحرية التى نادى بهـا المؤسسون وأيدتها الثورة الأمريكية ، تحولت الى حرية اخرى ، حرية لتسلط فريق من الناس على فريق آخر ، يسلبه حريته ويسومه العذاب . وزاد الطين بلة أن الامواج المتتالية من المهاجرين الى امريكا لم تحـاول تغيير تلك الأوضاع المزرية بالانسانية وكأن فشل الذين أسسوا تلك البلاد فى الغـاء الرق كان يعنى بمرور الأيام أن الرق أصبح أحد الأسس الراسخة وأن على القادم اليها أن يتقبل هذا الوضع أو يعود من حيث أتى ، وأن يؤمن بأن السود قوم متوحشون يجب معاملتهم بمنتهى الشدة وأن من لا يخضع للوائح والقوانين الخاصة بالرقيق فهو خارج على القانون وثائر .

وقد وصف الزنوج بالكسل على الرغم من انهم هم الذين قطعوا أشجار الغابات وزرعوا الأرض ومدوا خطوط السكك الحـديدية وبنوا أرصفة الموانى .. كما عنيت نساؤهم بحضانة الأطفال وتربيتهم الى غير ذلك من مختلف الانجازات والأعمال .

ولقد عاش السود قرابة قرنين ونصف فى أغلال الرق ونحو قرن يعانون من العنصرية والتفـرقة والعزلة وهم يدركون ان تجربتهم فى أمريـكا كانت مأساة لم يدركها الأمريكيون الا خلال الحرب الأهلية التى قتل فيها البيض بعضهم بعضا بسببهم ، حتى لقد اتهم أنصار تحرير العبيد بالتهور والجنون .

ويروى بعض المؤرخين ان الافرو أمريكيين سلكوا طرقا مختلفة وشاذة أحيانا فى سبيل المحـافظة على بقائهم واشباع غرائزهم الجنسية ، من ذلك الاتصال الجنسى بالهنود الحمر ، الأمر الذى نتج عنه حنق البيض وتغلغل

العنصرية وتوارثها من جيل الى آخر خلال ثلاثة قرون ونصف .

ولقد عملت العنصرية ، مضافا اليها جشع أصحاب الرقيق والمستفيدين منه ، على رواج الاتجار بالرقيق والانتقال بالأرقاء من الأماكن التى قلت الحاجة فيها اليهم الى مواطن جديدة فى الجنوب الغربى ، لاصلاح وزرع الأراضى وزيادة النفوذ السياسى للولايات التى تتمسك باستمرار الرق . وأصبحت واشنطن العاصمة مركز اشعاع لتلك العملية البشعة ، يضاف اليها عدة أماكن أخرى وكانت البنوك والسجون وشركات الرهن تقدم التسهيلات علانية للمتجرين فى البشر .

وشبيه بتجارة الرقيق فى الخسة ، بل اشد خسة ما كان يقوم به بعض البيض الذين كانوا يجمعون بين ذكور واناث السود ثم يستولدونهم ويربون مواليدهم حتى اذا شبوا عن الطوق باعوهم كما تباع صغار العجول ، وذلك كان يحدث غالبا فى الجهات الشمالية للولايات الجنوبية ، وقد نشطت هذه العملية فى فرجينيا وكان يكتنفها آثار تحرمها الشرائع السماوية وتتقزز منها الانسانية كالاتصال الجنسى بين الأخوة والأخوات بل والاستعانة ببعض الرجال البيض أحيانا حتى أصبح بين زنوج الولايات المتحدة عام ١٨٦٠ ، البالغ عددهم يومئذ نحو اربعة ملايين ، مئات الآلاف من الخلاسيين (اى المولدين من البيض والسود) لأن الرجال البيض وجدوا فى النساء السود مجالا لاشباع غرائزهم الجنسية وشهواتهم ، دون أية التزامات أو مسئوليات ، الامر الذى كان موضع حيرة واستهجان لدى النساء البيض .

لقد كان عدد سكان ولايات الرقيق عام ١٨٦٠ نحو ثلاثة

عشر مليونا سودا ٠٠٠ر٨٩٨ر٨ بيضا و٠٠٠ر٩٥٤ر٤ عبيد و ٠٠٠ر٢٨٠ سودا احرار . اى ان عدد السود المستعبدين كان اكثر من نصف عدد البيض . وهؤلاء السود المستعبدون حملوا أعباء أشق الأعمال في امريكا ، ومن ثم كان لدى البيض من أوقات الفراغ الشيء الكثير ، ولكن أغلبهم لم يحسن استثمارها وكانت منجزاتهم الفنية والأدبية في تلك الفترة لا تتلاءم مع ما كانوا يستمتعون ، من رفاهية ورخاء ، بينما انصرف السود الى الموسيقى التي عبروا بها عن آلامهم وأشجانهم .

لقد أنزل الرق مكانة السود الى الدرك الأسفل ولكنه في نفس الوقت حط من منزلة مالكي الرقيق من البيض لأنهم تجردوا من انسانيتهم وأسترخصوا حياة فريق من البشر بوحشية في سبيل تنمية ثرواتهم وتحقيق أطماعهم الدنيوية وأورثوا تلك الروح كثيرا من البيض في مختلف انحاء العالم ووضعوا الأساس لما يلاقيه السود اليوم من ظلم وعسف في أمريكا وفي أجزاء أخرى من العالم .

الرق وبناء أمريكا

بقلم ستيرلنج ستكى

قام السود فى أمريكا بانجازات عظيمة وأعمال رائعة ولكن ذلك كلفهم ثمنا غاليا فالآلاف ومئات الآلاف وربما الملايين من السود قد حطمتهم محنة الرق وقصمت ظهورهم مدة تزيد على قرنين ونصف . ولكن السود على الرغم مما قاسوه من وحشية البيض استطاعوا أن يكونوا لأنفسهم عالما خفيا خاصا بهم وابتكروا أسلوبا للحياة ومعيارا لتقييم الأشياء وزاوية خاصة لرؤية العالم ، دون أى تدخل ممن كانوا يضطهدونهم من البيض .

لقد حظى السود بموهبتين : موهبة الغناء وموهبة القوة العضلية ، وقد ساهم بهما السود فى بناء أمريكا . وقد عاونت القوة العضلية فى بناء أمريكا بأسرع مما كان متوقعا ، لأن السود عملوا كأرقاء لا يتناولون اجرا عما يقومون به وهم الذين زرعوا وحصدوا المحاصيل الرئيسية فى الولايات المتحدة كالقطن والدخان والنيلة وقصب السكر والأرز ، وقاسوا فى ذلك المجال مشاق كثيرة أودت بحياة الكثيرين منهم .

والسود هم الذين مدوا خطوط السكك الحديد

وبناء السدود فى الجنوب وفى اصلاح وزراعة مساحات واسعة فى الجنوب والجنوب الغربى واضطلعوا بالأعمال القذرة التى ترفع عن مزاولتها البيض ، كغسل الثياب وطهى الطعام ومسح البلاط ، وبذلك أفسحوا للسادة البيض منتهى الراحة والهدوء ثم جمع المال .

واشتغل السود فى المصانع والمسابك وأحيانا فى المناجم وأظهروا المهارة فى الأجزاء الجنوبية الزراعية ، كما كان شأنهم فى المدن وكانوا يكونون اربعة أخماس العمال الفنيين .

وقضى السود نحو قرنين ونصف فى العمل دون اجر يذكر وهم يقومون بدور بارز فى بناء أمريكا ، وهو دور لم تصل الى مستواه اية أقلية أخرى ، بل دور لا يتناسب مع عددهم .

وقدر « بيشوب تيريز » هذا الجهد وذلك الشقاء ولذلك قال « ان السود لهم الحق الف مرة أكثر من أى قوم آخرين ، فى أن يكونوا سادة فى أمريكا » .

والموهبة الأخرى التى منحها السود لأمريكا هى موهبة الغناء ، وهى موهبة أسىء فهمها ومنيت بالاحتقار والتشويه ومما يؤسف له أن المؤرخين لم يقدروا اهمية الفولكلور لدى الرقيق بالنسبة للأرقاء أنفسهم وبالنسبة للثقافة الأمريكية وهذا الفولكلور كما تعكسه اغانى الأرقاء وشعورهم بأحوالهم وكانت تلك الأغانى رسائل معبرة ، موجهة للعالم ينفسون بها عما بداخلهم من آلام وأشجان .

من الغريب أن البيض ظلوا حتى عام ١٩٠٣ يعتقدون ان تلك الأغانى انما هى تعبير عن السرور والسعادة وان

السود قوم طبعهم الاهمال والمرح .

وقد فند هذا الزعم « دى بوا » (١) فى كتابه « نفسية السود » بقوله فى الفصل الخاص بالجهاد الروحى للسود : « قد يصدق هذا الزعم على البيض ولكن تلك الأغانى موسيقى قوم تعساء خلقوا لليأس والبؤس ، اذ تتناول الموت والشقاء وتنشد عالما أفضل » .

وقال آخر عن تلك الأغانى أنها تمثل آلام قلوبهم المكلومة وانها كانت كالدموع يذرفونها تنفيسا عن أنفسهم وأنها لم تكن تعبيرا عن المرح والحبور لأن هذا النوع من الأغانى ، أى الأغانى المرحة ، لم يعرفه السود الذين كانوا بين براثن الرق وانما عبرت أغانيهم عن افكارهم وأمانيهم وايمانهم بنهاية استعبادهم . وتطلع فيها هؤلاء البؤساء الى السماء وناشدوها الصبر والنصر ، دون أن يغمضوا أعينهم عما يلاقونه فى هذه الحياة الدنيا من جور وعسف مما يدفعهم دائما الى التفكير فى الهروب . وفيما يلى سطور من أناشيدهم الدينية تؤيد ما ذهب اليه :

أواه ، فى مستقبل الأيام ، فى مستقبل الأيام ،
سأنزل عن كاهلى هذا الحمل الثقيل ،
ان طريقى ملىء بالسحب ،
وعلى أن أواجه العاصفة ، فلن يطول بى الوقت
وسنرسو على بر الأمان قريبا .
يارب ساعدنى على النجاة من الغرق ،
اننى لا أعلم لماذا تريد أمى البقاء هنا

(١) ذكرنا نبذة عنه فيما تقدم .

فهذا العالم لم يكن حبيبا اليها !

والمطالع للأناشيد الدينية لدى الزنوج يتجلى له ان السود اتجهوا الى الله بفطـــرة سليمة وروح صافية وبساطة محمودة ، كتب أحدهم يقول :

عندما أصعد الى السماء

سأكون فى منتهى الطمانينة

سأعمل انا والله ما نريد .

سأثرثر مع « الأب »

وأتناقش مع « الابن » .

واحدثهم عن الدنيا

التى قدمت منها .

ومما يلفت النظـــر أنشودة « شمشون » (١) التى تضمنت من الايحاءات أكثر مما ورد بالتوراة وعباراتها :

قال : « لو كان لى أن أفعل ما أريد » ،

قال : « لو كان لى أن أفعل ما أريد » ،

قال : « لو كان لى أن أفعل ما اريد لهدمت هذا البناء » .

قال : « والآن ، لقد نلت ما أريد » .

لقد نلت ما أريد ،

لقد نلت ما أريد

وسأهدم هذا البناء » .

(١) هو شمشون الجبار صاحب العبارة المشهورة : « على وعلى أعدائى » .

وقد قصد بعض من أنشدوا تلك السطور هدم نظام الرق .

وكان السود أحيانا يصوغون شعرا عظيما كما كانوا يؤلفون موسيقى شجية . وقد عبر أحد نوابغهم عن رغبتهم فى الحرية بقوله :

بعد أن دوى صوت الله خلال السماء وتردد فى الجحيم (١) ،
اهتز سجنى وسقطت اغلالى .

وقد أنشد الأرقاء أيضا أغانى تهكمية عن الرق توارثوها منها :

نحن نزرع القمح
وهم يعطونا الذرة .
نحن ننخل الدقيق
وهم يعطونا النخالة .
نحن نسلخ اللحوم
وهم يعطونا الجلود .
وبهذه الطريقة يخدعوننا .

وكثيرا ما فكر الأرقاء فى وضعهم المضحك المبكى وادركوا أن الرق سخافة لا يقبلها العقل والضمير .

والتفرقة العنصرية فى أمريكا سخافة ممقوتة يضا وبعض السود لا يزال فى مقدورهم السخرية منها . ولكن ما لم يدركه البيض أن تلك السخرية انما هى تعبير

---

(١) المقصود بالجحيم الاماكن التى كان يعيش بها العبيد « المترجم » .

عن العذاب الأليم ، كما تبينه تلك الأغنية :

اجر أيها الزنجى ، اجر
الخفراء سيقبضون عليك
اجر أيها الزنجى ، اجر
لقد اقترب النهار
عندما جرى هذا الزنجى .
لقد انطلق هذا الزنجى بسرعة ،
ومزق هذا الزنجى قميصه
لقد قام هذا الزنجى بعمل رائع هو الهروب .

وها هى أغنية أخرى :

وعدتنى سيدتى المتقدمة فى السن انها عندما تموت
ستطلق سراحى ،
لقد عمرت طويلا حتى أصبحت رأسها صلعاء
وتخلت عن نية الموت بتاتا .

وعبرت بعض الأغانى عن كراهيتهم للرق وادراكهم لما يجرى ، من ذلك :

جلس سيدى وسيدتى فى الردهة
يفكران ويخططان كيف يزيدان فى عمل الزنجى .

وها هى سطور تتجلى فيها المرارة :

السيدة فى البيت الكبير ، وامى فى الفناء ،
السيدة تمسك بمنديل فى يدها البيضاء وامى تعمل بجد ،

والزنوج يعزقون الأرض ، والزنوج يعزقون الأرض

وهذه سطور أخرى :

عندما كنت صغيرا وفى مقتبل عمرى .

كنت أغوص بفأسي فى الأرض كل مرة .

وقد ألمح السود الى انهم بخبرتهم ادركوا ان الرجل الأبيض ضعيف بنفسه قوى باخوانه وأنهم كانوا لا يفاجئون السود الا اذا كانوا عشرات .

ومن أغانيهم كذلك :

الرجل بمفرده ليس الا رجلا واحدا ،

ولكن قبل أن يضربنى سائق الآلة البخارية .

سأموت ومطرقتى فى يدى .

وكان هناك أرقاء يغنون أغانى تنم عن وعيهم الأفريقى ، ومنها :

اهلا ، أهلا بكم جميعا أيتها العشيرة الافريقية ،

أهلا ، أيها المظلومون ، أيتها العصبة الافريقية ،

الذين يكدون ويعرقون فى أغلال الرق .

وعندما تضعف صحتكم وتذهب قوتكم ،

تتركون للجوع وللحزن .

ليكن التحرر هدفكم .

ذاكرين ما يجب عمله .

ضحوا بأجسادكم ، فالحرية جديرة بالنضال ،

حتى ولو بلغت اكوامها عنان السماء .

وها هى اغنية عن نات تيرنر (١) أحد الزعماء الثائرين من السود :

قد تكون فى غاية الثراء
تركب عربة تجرها أربعة جياد
ولكنك لن تستطيع أن تمنع العالم من الحركة
ولا نات تيرنر من الانتصار
وقد تكون بالتأكيد مثل قيصر
ولديك مدفع يصيب على مسافة ميل أو أكثر
ولكنك لن تستطيع أن تمنع العالم من الحركة
أو تحول دون انتصار نات تيرنر .

وعندما اشتعلت نيران الحرب الأهلية ادرك كثير من الأرقاء لأول مرة أن فى مقدورهم أن يتخذوا قرارا يكفل تحريرهم ، وبالطبع ، وفى أوائل تلك الحرب كيف كان يتسنى لأى رقيق أن يعـــرف ما اذا كانت أية ثورة للرقيق ستظفر بالنجاح ؟ ولذلك فان غالبية الأرقاء قاوموا الرق بالوسائل التى تمكنوا منها والتى لم تكن كافية لتحريرهم .

ولكن عندما ظهرت فى الأفق بشائر التحرر ، اتخذ الأرقاء قرارا حاسما . لقــد كانت جموعهم وجيوشهم لا يعرف عنها أحد شيئا ، بينما الشقاء وراءهم وأمامهم والاشاعات عن بقاء تجارة الرقيق تتناقلها الأفواه . ولكن

---

(١) زنجى قاد ثورة للسود فى فرجينيا سنة ١٨٣١ ، وقتل خلالها ٤٧ رجلا أبيض وقد استدعى الجيش لاخمادها فتمكن من ذلك ، تم قبض على تيرنر وحوكم وشنق . « المترجم »

فى بطء بدات الحقيقة السافرة تبدو للعيان : ستكون هناك حرية ! وتحركت أمة من السود خلف الجيوش غير عابئة بما كانت تقاسيه من مشاق ، ولا مكترثة بما تلاقيه من عنت ودون اى خوف من الموت مهما كانت وسيلته .

وسار آلاف السود وراء قوات شيرمان (١) فى مسيرته نحو البحر (الساحل الشرقى) .

وقد عبر أحدهم بانصاف عما كان يخالج الأرقاء لحظة اعلان التحرير بقوله :

لقد عم السرور الجنوب ، وكان ذلك السرور أشبه بالعطر بل بالصلاة ، اذ وقف الرجال (السود) وبكت الفتيات النحيفات ذوات الشعر المجعد بينما رفعت الشابات أيديهن ابتهاجا . أما الأمهات العجائز والثكلى صاحبات الشعر الأسود والرمادى فقد أطلقن صيحات عالية حامدات لله فى كل مكان ، وهن يسرن فى الحقول وعلى الصخور والجبال ، وكان بعض هؤلاء جميعا يغنى :

لقد تحطمت أغلال الرق فى النهاية

لقد تحطمت أغلال الرق أخيرا وسأحمد الله حتى أموت

لقد شكوت اليه ما كنت أعانيه فى سجنى واغلالى

والأيام التى مشيت فيها منكس الرأس ،

---

(١) وليم شيرمان (١٨٢٠ - ١٨٩١) أحد كبار القواد الامريكيين فى الحرب الاهلية ، استولى على مدينة اتلانتا بولاية جورجيا ثم أخلاها من سكانها وأحرقها عام ١٨٦٤ ثم بدأ مسيرته الشهيرة شرقا نحو البحر حتى ميناء سافانا التى استولى عليها ، كما استولى على مدينة كولومبيا واضطر مدينة تشارلستون بولاية كاروليتا الجنوبية للاستسلام . كل ذلك قام به ليقطع الاتصال بالجنوب « المترجم »

أغانى من الآلام الشيء الكثير
لقد تحطمت أغلال الرق فى النهاية
لقد تحطمت اغلال الرق فى النهاية
وسأحمد الله حتى اموت .

ويذهب بعض المؤرخين الى أن الحرب الأهلية هى التى دفعت الأرقاء الى الاهتمام بالتحرر ، ولكن قراءة متأنية لأغانى الأرقاء أثناء العمل وكذا اناشيدهم الدينية تدحض هذا الراى ، ذلك انه قبل شبوب حرب التحرير كان الأرقاء يغنون :

تعالوا أيها الأخوة ، ودعونا نستريح
بينما القمر يتلألأ ضوءه
لقد مات السيد العجوز وتركنا أخيرا
وذلك ليحاسب على ما أنزله بنا .
لقد مات السيد العجوز وهو يرقد الآن فى قبره .
وستكف دماؤنا عن النزيف
ولن يدوس على رقبة الرقيق .
لقد ذهب الى حيث يذهب ملاك العبيد
سأترك الجاروف والفاس ،
فلم أعد أهتم اذا اشتغلت أو لم أشتغل .
لقد ذهب الى حيث يقيم ملاك العبيد .
لقد ذهب الى حيث يجب ان يذهبوا .

فكيف يمكن أن نسمى من ينظمون مثل هذا النوع من

الشـــعر وهـذا النـوع من الموســـيقى ، نسميهم « خلاسيين » (١) وكيف يمكن المرء أن يقول أنهم لم يكونوا على وعى بكيانهم وأنهم لم يمعنوا التفـــكير فى وضعهم الذميم .

أنا نحس بالموسيقى لوضوح التعبير وصـــدوره من القلوب المكلومة .

ولا يتسع الوقت لتناول القصص الشعبية ، غير انه تجب ملاحظة أن القصص الشعبية الأفرو أمريكية تروى دائما أن الحيوانات الضعيفة تتفوق بذكائها على الحيوانات القوية . وكذلك كان يفعل الرقيق مع سيده . وهذا يدل على أن عددا كبيرا من الأرقاء كانوا على ادراك بحالتهم ولم يقبلوا نظرة « الأسياد » اليهم .

وليست هناك شهادة ابلغ فى الدلالة على معنى ومغزى اغانى العبيد من أنه أثناء حركة التحرير خلال السنوات الأخيرة الماضية ، كان السـود الذين يجلسون لتناول الغذاء على المناضد ، والسود الذين انهمكوا فى المواكب للمطالبة بالتحرر والسود الذين اهتموا بتسجيل اسمائهم فى قوائم الانتخابات بالجنوب ، هؤلاء جميعا انشدوا اغانى الرقيق ، وكان مما أنشدوه :

لقد جدف ميكل بقاربه حتى الشاطىء

وسنقف كشجرة بجانب المياه ،

ولن نتزحزح عن مكاننا .

وقد عبر دى بوا (٢) عن هذا أحسن تعبير بقوله :

---

(١) Sambo أى خلاسى ، أحد ابويه زنجى او من الهنود الحمر

(٢) سبقت الاشارة اليه .

« لقد اعطينا هذا البلد مواهبنا فى الفناء والعضلات والحيوية واقمنا واحة صغيرة للايمان فى صحراء كثيرة الغبار ملأى بالدولارات والمكر » .

وقد يحسن المؤرخون صنعا بالاستماع « لدى بوا » الذى كان المؤرخ الأول والوحيد فى الأجيال الحديثة ، لأنه تناول القصص الشعبى للسود بتفهم صادق واحساس مرهف وكان على حق عندما قال : « ان أغانى الأرقاء تؤكد أملهم فى التخلص ممـا ألقى بهم فيه من أقـذار وأوحال والتحرر مما نكبوا به من محن وآلام » .

رقم الايداع بدار الكتب : ١٩١٩ ـ ٨١

الترقيم الدولى : ٨ ـ ٨٥ ـ ٧٠٣١ ـ ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة ـ ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :

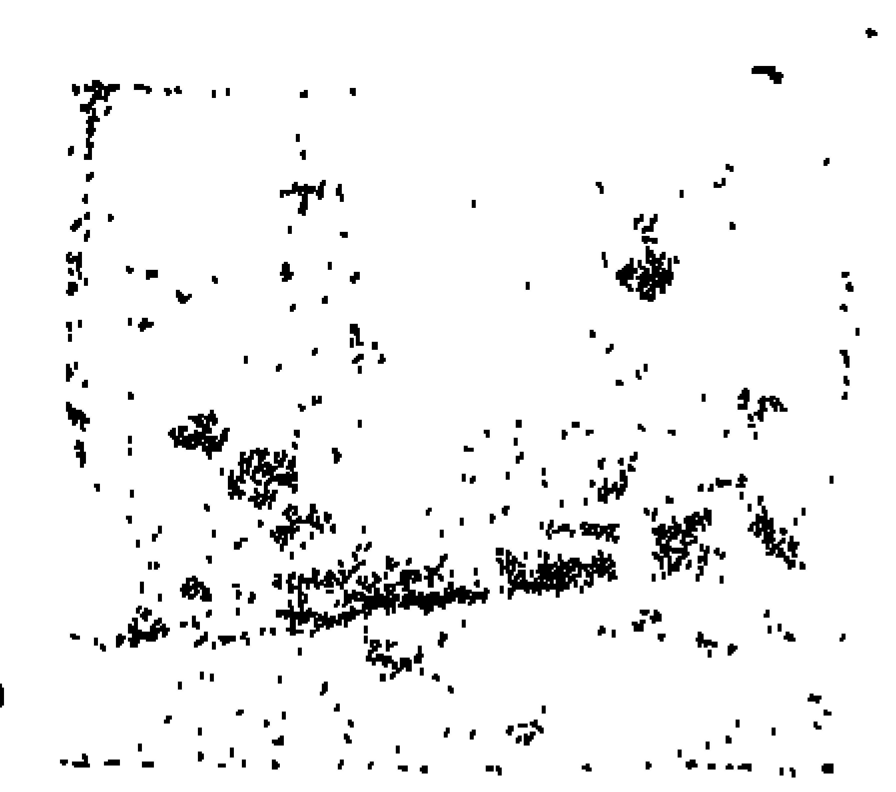
THE ARABIC PUBLICATIONS
7. Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND

البرازيل :

M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.

اسعار البيع للجمهور في البلاد العربية للاعداد العادية من « كتاب الهلال » الشهرى بسعر ٢٠ قرشا للقارىء في مصر .

سوريا : ٣٠٠ ق.س ثلاثمائة قرش سورى
لبنان : ٢٥٠ ق.ل « مائتان وخمسون قرشا لبنانيا »
الاردن : ٢٥٠ فلسا «مائتان وخمسون فلسا اردنيا»
الكويت : ٣٥٠ فلسا « ثلاثمائة وخمسون فلسا كويتيا »
العراق : ٤٠٠ فلس « اربعمائة فلس عراقى »
السعودية : ٤½ ريال « اربعة ريالات ونصف ريال »



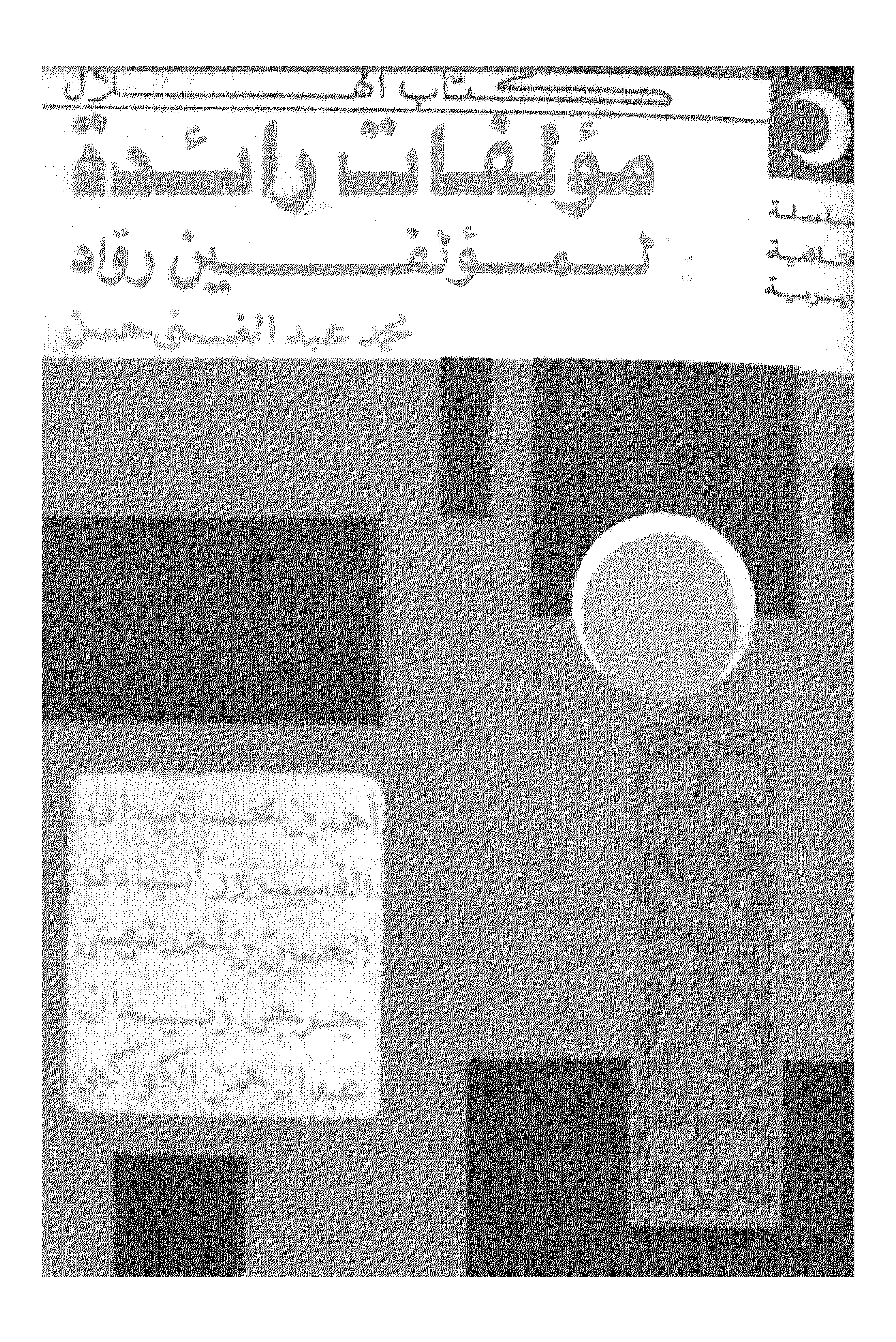
هـــذا الكتاب

من اكبر الفتوح في ميدان حقوق الانسان استقرار حقوق الجنس الاسود والاعتراف بملكاته ومواهبه التى اثبت بالفعل انه جدير بهـا كل الجدارة ، وانه يستطيع ان يصل الى أعلى مستويات الابداع فى كل ميدان · وقد وصل السود الى هذا النصر بعد كفاح طويل مع الاوروبيين والامريكيين بصورة خاصة فقد كان أهل الغرب يعتبرون السود جميعـا بشرا تحت مستوى الناس أو كانوا يصطادونهم كما تصطاد الوحوش ويستانسونهم لاستخدامهم فى اقسى الاعمال واحطها دون ان يعترفوا لهم باى حق انسانى ·

وهذا الكتاب الفه اثنـان من ابناء الجيل المعاصر من الســود الامريكيين ، انهما استاذان فى جامعتين امريكيتين ، وهما يعرضـان موضوع الرق وتجارة العبيد التى كان يقوم بها الاوروبيون والامريكيون ويتحدثان عن أسـاليب صيد السـود الافريقيين ونقلهم الى أمريكا وبيعهم هناك فى المزادات كانهم حيوانات ·

وقد ترجم هذه الوثيقة وأضاف اليهـا تعليقـات ذات قيمـة كبيرة الاسـتاذ مصطفى الشهابى بتكليف من تحرير كتاب الهلال وذلك حتى نضع فى يد القارىء العربى وثيقة عظيمة الاهمية بالنســبة لتاريخ البشر والجنس الاسود بصورة خاصة ·· ونرجو ان يلاحظ القارىء ان الكتاب لا يضم اى كلام عما زعمه الا[illegible]بيون من ان العـرب كانوا يصطادون الزنوج ويتاجرون فيهم ··

! قــرشـــا


كتاب الهلال
مؤلفات رائدة
لمؤلفين رواد
محمد عبد الغني حسن

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

نائب رئيس مجلس الإدارة : صبري أبو المجد

رئيس التحرير : د. حسين مؤنس

سكرتير التحرير : عايد عباد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

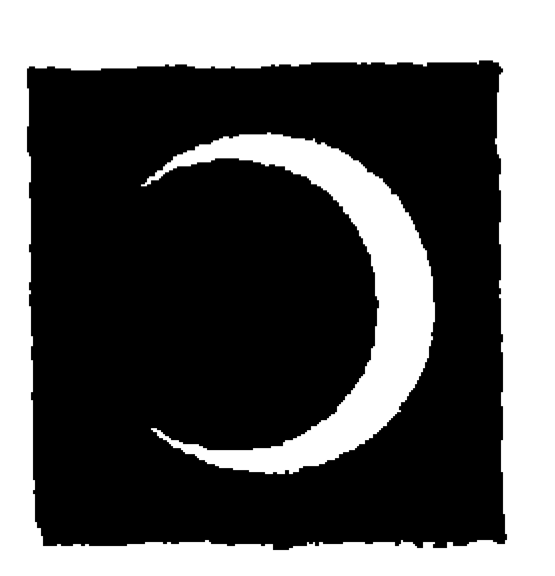
KITAB AL-HILAL

العدد ٣٦٣ ـ ربيع الثاني ١٤٠١ ـ مارس ١٩٨١

No. 363 — March 1981

الاشتراكات

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنانة
سميحة حسنين

محمد عبد الغنى حسن

مؤلفات رائدة

لمؤلفين روّاد

دار الهلال

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

المؤلفات الرائدة فى التراث الفكرى عند العرب كثيرة متنوعة . ففى أى فرع من فروع التأليف فى الفكر العربى تجد كتبا كان لها فضل الارتياد فى ميدانها ، وفضل المبادرة الى التأليف فيها ، على مدى التاريخ الطويل للتأليف عند العرب .

ورواد المؤلفين فى المكتبة العربية ، منذ ظهر للعرب والمسلمين انتاج فكرى مسطور مدون ، لا يحصون كثرة . فلكل واحد منهم مجال اشتهر به ، ونبغ فيه ، وكان فيه أولا ، جاء بعده أخلافه فزادوا عليه ، وعمقوا موضوعاته ، ووسعوا مجالاته . ولكن فضل الرائد بقى كما هو لم يحجبه من جاءوا بعده ، وساروا فى الدوب الذى سار فيه .

وليس المجال مجال احصاء وحصر لهذه المؤلفات الرائدة وهؤلاء المؤلفين الرواد ، فان هذا العمل يبهظ الكاهل ، وتنوء أثقاله بالعصبة أولى القوة . ولكننى عشت فى هذا الكتاب مع خمسة فقط من الرواد فى التأليف العربى والفكر العربى ، يمثلون عصورا مختلفة

من تاريخ العرب والاسلام ، ويمثلون الوانا مختلفة من الثقافة والفكر فى مجالات الأمثال ، واللغة ، والأدب ، وتاريخ الأدب العربى ، واصلاح العرب والمسلمين وايقاظهم من سباتهم . وهؤلاء الخمسة هم الميدانى صاحب كتاب « مجمع الأمثال » ، والفيروز ابادى صاحب «القاموس المحيط» ، والشيخ حسين المرصفى صاحب « الوسيلة الأدبية » ، وجرجى زيدان صاحب « تاريخ آداب اللغة العربية » ، وعبد الرحمن الكواكبى المصلح الاسلامى صاحب « طبائع الاستبداد » .

وأرجو الا يستقل القارىء هذه الحفنة القليلة الكريمة من هؤلاء الرواد المؤلفين ، فان الجولة مع هؤلاء الرواد ومع مؤلفاتهم الرائدة قد تتبعها جولات مع مؤلفات رائدة أخرى . ولا يحمل تخصيص هذا الكتاب بهذه المؤلفات وأصحابها اى معنى من معانى الأفضلية والتمايز فى الاختيار ، فلقد كان هذا المعنى ابعد ما يكون عن خاطرى وأنا أختار هذه المؤلفات ! ولكن الحق أن هذه المؤلفات سبقت الى ذهنى لبعض الاعتبارات التى جعلتنى أوثرها بالتقديم ، فكتاب « مجمع الأمثال » للميدانى ، هو أضخم وأبقى كتاب صان لنا الأمثال العربية والمولدة على مدار قرون من العصر الجاهلى الى يوم تأليفه . فهو موسوعة حافلة للأمثال العربية تذكرنا بمجموعة « الأستاذ سلوين تشامبيون » العالمية ، الا أن هذه تسجل أمثال الشعوب والامم بنصوصها المترجمة الى الانجليزية ، أما مجموعة أمثال الميدانى فتحكى قصة كثير من الأمثال العربية ومضاربها القديمة فى قصص أدبى جميل ...

و « القاموس المحيط » للفيروز ابادى كان رائدا فى

تدوينه للألفاظ الاصطلاحية الطارئة التي كونها التطور العلمي والفكري والاجتماعي للأمة العربية ، فلم يهمل هذه الألفاظ الكثيرة بل قيدها لأنها دخلت رصيد اللغة العربية.

و « الوسيلة الأدبية » للشيخ حسين المرصفي كانت فتحا فى دراسة الأدب العربى فى القرن التاسع عشر الميلادى على نهج يعد هذا الرائد ابن بجدته .

و « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجي زيدان يعد رائدا فى دراسة تاريخ الأدب العربى على نحو جديد ، افاد فيه من دراساته لكتب بعض المستشرقين الرائدة فى هذا الميدان ، وجاء بعده العرب المؤرخون للأدب العربى فنسجوا على منواله ، وان كانوا لم يبلغوا مبلغه فى الاحاطة والسعة وتشعب الدراسة .

أما كتاب « طبائع الاستبداد » للكواكبي فهو من الكتب الرائدة فى موضوع لم يكن للمكتبة العربية به عهد ، حتي لقد استكثر الناس على صاحبه المصلح المفكر الجريء ان يصدر عنه مثل هذا البحث الرائد ، وكادوا ينسبونه الى الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، أو الى مفكر ايطالى ، استأنس الكواكبي ببعض آرائه ، مع أنه لم يعرف لغة أوربية واحدة ... وعللوا وصول هذه الآراء الجديدة الطريفة اليه بأنها قد تكون مما ترجم الى اللغة التركية التى كان يتقنها .

وما أحوج المكتبة العربية الى كتب تصدر من أمثال هذه المؤلفات الشامخة الرائدة .

فليكن كتابنا هذا أول بذرة تلقى فى هذه الأرض الطيبة .

وبالله التوفيق .

محمد عبد الغنى حسن

مجمع الأمثال

لأحمد بن محمد الميداني

المتوفى سنة ٥١٨ هـ

● **سيرة حياة**

اشتهر مؤلف كتاب « مجمع الأمثال » بالميداني ، وهي شهرة النسب التي يعرف بها كثير من الأعلام في أدب العرب وتاريخهم ، كشهرة المعرى الشاعر ، والمتنبي ، والزمخشري المفسر اللغوي ، والغزالي صاحب « احياء علوم الدين » ، والشهرستاني صاحب « الملل والنحل » ومئات ومئات غيرهم ممن يعرفهم الناس — حتى رجال العلم والأدب — بأنسابهم وألقابهم ، لا بأسمائهم وأسماء آبائهم .

فالمعرى — مثلا — هو احمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد ، ولكنه نسب الى « المعرة » وهي البلدة الشامية التي ولد فيهـــا . وأبو الطيب المتنبي هو احمد بن الحسين بن عبد الصمد ، وقد لقب بالمتنبي ، وكنى بأبي الطيب ، واشتهر في تاريخ الأدب بكنيته ونسبته . والزمخشري هو محمود بن عمر بن محمد بن عمر ، وقد كنى بأبي القاسم ، ونسب الى بلدة زمخشر من بلاد خوارزم . والامام الغزالي اسمه محمد بن محمد بن أحمد ، وقد كنى بأبي حامد ، ونسب الى «غزالة» — بتخفيف الزاي —

وهى احدى قرى مدينة طوس . والشهرستانى الامام الفقيه المتكلم ، وصاحب كتاب « الملل والنحل » هو محمد بن عبد الكريم بن أحمد ، وقد كنى بأبى الفتح ، ونسب الى شهرستان .

والميدانى ـ صاحب كتاب مجمع الأمثال ـ هو واحد من هؤلاء الأعلام الذين يجهل الكثيرون من الناس اسمهم، ويعرفونهم بما اشتهروا به من النسبة . وهذه الشهرة بالنسبة أو الكنية أو اللقب كثيرا ما عطلت الباحثين وعوقتهم عن التهدى الى مصادر السيرة والترجمة فى مواطنها .

فلو انك حاولت البحث فى كتاب مثل « وفيات الأعيان » عن ترجمة الحريرى صاحب المقامات لأعياك البحث ما لم تكن تعرف ان اسمه : القاسم بن على ، وانه لهذا قد جاءت ترجمته فى حرف القاف ـ وهو الحرف الأول من اسمه ـ لا فى حرف الحاء وهو الحرف الأول من لقبه « الحريرى » الذى اشتهر به .

ومن هنا عمد مصنفو كتب التراجم والطبقات من المحدثين والمعاصرين الى ذكر اسم الشهرة فى موضعه من حروف الهجاء ، مع الاحالة على موضع الترجمة استنادا الى اسمه واسم أبيه . وقد فعل ذلك الأستاذ خير الدين الزركلى فى كتابه « الأعلام » ، وفعل مثل ذلك الأستاذ عمر رضا كحالة فى الاجزاء الخاصة بالاحالة على معجمه المسمى « معجم المؤلفين » .

والميدانى ـ بعد هذا ـ هو « أحمد بن محمدبن احمدبن ابراهيم أبو الفضل الميدانى النيسابورى » كما جاء فى كتاب « انباه الرواة على أنباء النحاة » للقفطى الأديب المصرى مؤرخ السير ، والقفطى هنا ليس الا ناقلا عن

كمال الدين الانبارى صاحب كتاب « نزهة الالباء » ، فهو اقدم من ترجم للميدانى حيث كان قريبا جدا من عهده (توفى الميدانى سنة ٥١٨ هـ ، وتوفى الانبارى سنة ٥٧٧ هـ) . كما نقل القفطي عن ياقوت الحموى صاحب « معجم الأدباء » المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ، وعن ابن خلكان صاحب « وفيات الاعيان » المتوفى سنة ٦٨١ هـ .

واذا كان « النيسابورى » هنـــا نسبة الى مدينة نيسابور عاصمة خراسان التى ازدهرت فيها الحضارة العربية الاسلامية زمانا ، وأنجبت الشاعر عمر الخيام صاحب الرباعيات ، والصوفى فريد الدين العطار ، فان « الميدانى » نسبة الى « ميدان زياد بن عبد الرحمن » وهو موضع بنيسابور كان يسكنه المترجم له .

الذين ترجموا للميدانى

ومن حسن الحظ ان الميدانى لم تضع ترجمته فيماضاع من تراجم الاعلام فى الاسلام . واذا كان القدر الذى وصل الينا من سيرته قليلا ومتكررا فى أكثر من مرجع ــ كمـــا سيجىء ــ فانه يعطينا على أية حالة صورة تجعل الرجل قريبا الينا : وهى صورة ــ على ايجازها ــ فيها من ملامح الشخصية ما يمكن به الحكم على الرجل . ولا شك ان صاحبى الفضل الأول فى تسجيل سيرة « الميدانى » اثنان من تلاميذه الادنين : وهما عبد الغافر بن اسماعيل الفارسى ، وقد شهد له ياقوت الحموى بالأدب والعلم ، وترجم له ابن خلكان فى وفيات الأعيان ، ووصفه بأنه كان اماما فى الحديث والعـــربية . وثانى الشاهدين والمترجمين الأولين للميدانى هو « أبو الحسن البيهقى » صاحب كتاب « وشاح الدمية » الذى وضعه ذيلا لكتاب

« دمية القصر » للباخرزى . والبيهقى هذا هو على بن زيد المتوفى سنة ٥٦٥ هـ . وهو غير البيهقى الحنفى المتوفى سنة ٤٠٢ هـ ، والبيهقى الشافعى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ ، والبيهقى المؤرخ محمد بن الحسين الذى كان كاتب الانشاء فى دولة السلطان محمود الغزنوى وتوفى سنة ٤٧٠ هـ .

ونضيف الى كتاب «وشاح الدمية» الذى ألفه صاحبنا البيهقى كتاب « تاريخ حكماء الاسلام » الذى نشره المجمع العلمى العربى بدمشق بتحقيق المرحوم محمد كرد على ، كما أن له كتبا أخرى كثيرة فى الأدب والحكمة والعلوم الدينية .

ولقد أفاد من عبد الغافر الفارسى ومن البيهقى كل من جاء بعدهما وكتب فى سيرة الميدانى ، فنجد له ترجمات تقصر جدا ، أو تطول قليلا فى الكتب الآتية :
وفيات الأعيان ، ومعجم الأدباء ، ونزهة الألباء ، وانباه الرواة ، وسلم الوصول ، والبداية والنهاية لابن كثير ، وبغية الوعاة للامام السيوطى ، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلى ، وطبقات ابن قاضى شهبة ، والأنساب للسمعانى ، والفلاكة والمفلوكون للدلجى ، وروضات الجنات لمحمد باقر الخوانسارى ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ، وسير النبلاء للذهبى ، والوافى بالوفيات للصفدى ، وتذكرة الحفاظ للذهبى ، ومرآة الجنان لليافعى ، ومفتاح السعادة لطاشكبرى زادة .

كما ترجم له فى عصرنا الحاضر اثنان من مصنفى كتب الاعلام ومعاجم المؤلفين ، وهما خير الدين الزركلى ، وعمر رضا كحالة . ولم يفت بروكلمان المستشرق الالمانى

أن يكتب له ترجمـــة دقيقة فى « دائرة المعـــارف الاسلامية » .

ومن أطول التراجم للميدانى ما جاء فى انباه الرواة للقفطى ، ومعجم الأدباء لياقوت الحمـــوى ، وكشف الظنون لحاجى خليفة. وأوجزها ما جاء فى تاريخ البداية والنهاية لابن كثير ، فقـد ترجم له الرجل فى سطرين اثنين لا يزيدان ...

ولعلنا بعد هذا نتساءل : لماذا ترجم الامام الدلجى — من علماء القرن التاسع الهجرى — للميدانى فى كتابه الذى عنوانه « الفلاكة والمفلوكون » ، وهو كتاب لم يترجم الا للعلماء والأدباء ورجال الفكر العـربى الذين تقلصت عنهم دنياهم ، ولم يحظوا منهـا بطائل .. ؟ والجواب عن ذلك لا يحتاج الى مشقة . فان « الميدانى » هو أحد ثلاثة وثلاثين ومائة عالم وأديب وشاعر رآهم الدلجى من « المفلوكين » الذين فارقتهم الحظـوظ فى الدنيا فلم يظفروا فيها بنصيب ، وكان ادبار الزمان عنهم ، ونفور الحظ منهم مقابل رجحان كفتهم من العلم والفضل ... وقد يكون من الاستطراد الجميل أن نوصى هنـا بقراءة كتاب « الفلاكة والمفلوكون » ، وأن نوصى بنشره محققا فى المكتبة العربية ، فهو كتاب جليل فى التراجم ، على الرغم من وجازته ، وفيه فـوق ذلك تأساء وتعزية لمن تفوتهم من زمانهم بعض الحظوظ ...

ويشير البيهقى — تلميـــذ الميدانى — الى ادبار حظ أستاذه قائلا فيما نقله عنه ياقوت الحموى صاحب معجم الأدباء : (قد صاحب الفضل فى أيام نفد زاده ، وفنى عتاده ، وذهبت عدته ، وبطلت أهبته ... وكان هـذا الامام يأكل من كسب يده ...) .

شيوخه وأساتذته

كانت نيسابور في النصف الثانى من القــرن الخامس الهجرى تموج بحفنة من العلماء والأعلام ، وما منهم الا له فى التفسير والحديث واللغة مقام مشهود . فقد كان فيهــــا الامام عــلى بن أحمـــد الواحـــدى المفسر المشهور ، والامام على بن فضال المجاشعى النحوى ، ويعقوب بن أحمد النيسابورى الأديب اللغوى وغيرهم . وقد أخذ الميدانى العلم من هؤلاء الثلاثة ، وقرأ عليهم وافاد منهم .

أما الواحدى فقد كان ــ بشهادة المؤرخ ابن خلكان ــ استاذ عصره فى النحو والتفسير ، ورزق السعادة فى تصانيفه ، وأجمع النـــاس على حسنهـــا ، وذكرها المدرســـون فى دروسهم . وهو صاحب البسيط ، والوسيط ، والوجيز فى تفسير القرآن الكريم . وقــد أخذ الامام الغزالى منه أسماء كتبه الثلاثة السابقة لبعض مؤلفاته . كما له كتـــاب « أسباب نزول القرآن » ، و « شرح ديوان أبى الطيب المتنبى » . وقـــد اختلف الناس فى تعليل نسبته : الواحـــدى ، فلم يذكرها السمعانى صاحب كتاب « الأنساب » مع ما نعلمه من حرصه على رد الأنساب الى أصولها وأسبابها . ووقف ابن خلكان صاحب وفيات الأعيان موقف غير العالم بهذه النسبة ، فقال عنها : لم أعرف هذه النسبة الى أى شىء : وذكر أبو أحمد العسكرى أنها نسبة الى الواحد بن الدئل بن سهرة .

وذكر أستاذنا المرحوم الشيخ عبد الخالق عمر ــ فى تعليقاته على كتاب معجم الأدباء لياقوت الرومى طبعة

الدكتور أحمد فريد رفاعي ـ أن « الواحدي » نسبة الى جبل لبني كلب اسمه « جبل واحد » ، واستظهر ـ رحمه الله ـ ذلك من قول الشاعر عمرو بن العداء الكلبي :

ألا ليت شعري ! هل أبيتن ليلة
بأنبط ، أو بالروض شرقي واحد ؟!

وأما المجاشعي ـ ثاني شيوخ الميداني ـ فهو القيرواني المعروف بالفرزدقي ، لأنه من أحفاد الفرزدق الشاعر الأموي المشهور ، وقد كان اماما في النحو واللغة والتصريف والتفسير والسير ، بشهادة الامام السيوطي الذي ترجم له في « بغية الوعاة » ، كما شهد له شهادة عرفان ـ عن قرب وتلمذة ـ تلميذه ابن عبد الغافر الفارسي الذي قال فيه : (.. ورد ابن فضال نيسابور ، فاجتمعت به فوجدته بحرا في علمه ، ما عهدت في البلديين ـ يعني أهل البلد المواطنين ـ ولا في الغرباء مثله ...) وله مصنفات كثيرة منها « الأكسير » في التفسير ، ويقع في عشرين مجلدا و «شرح عنوان الادب» و « شجرة الذهب ، في معرفة أئمة الأدب » ، وروى له ياقوت الحموي ، ونقل عنه السيوطي وغيره الابيات الثلاثة التالية ، وهي من الشعر المتداول المحفوظ :

واخوان حسبتهم (١) دروعا
فكانوها ، ولكن للأعادي
وخلتهم سهاما صائبات
فكانوها ... ولكن في فؤادي
وقالوا قد صفت منا قلوب
لقد صدقوا ! ولكن عن ودادي

(١) في بعض الروايات : واخوان تخذتهم بدلا من حسبتهم

وأما النيسابورى ثالث شيوخ الميدانى فهو يعقوب بن احمد الذى اشتهر بالأدب واللغة ، وقال فيه ابن قاضى شهبة : (له نظم وتصانيف وفوائد ونكت وطرف) . وقد ذكره العماد الكاتب فى « الخريدة » كما ترجم له السيوطى فى « بغية الوعاة » والباخرزى فى « دمية القصر » . ومن كتبه « البلغة المترجمة فى اللغة » وهو مخطوط و « جونة الند » .

صورة خلقية نفسية

ان التراجم الوجيزة التى وصلت الينا عن الميدانى صاحب مجمع الأمثال تعطينا صورة واضحة — على الرغم من ايجازها — تدل على ذكاء الرجل وشهامته وفضله . كما أنها تدلنا على ماكان يتمتع به من عزة النفس والترفع ، فلم يحاول الميدانى أن يتزلف الى أمير من أمراء السلاجقة فى خراسان ، أو الى ملك من ملوكهم فى نيسابور . ولو شاء الرجل أن يرخص من نفسه قليلا ، ويطاطىء من طماح رأسه لكان له عندهم مجال للحظوة والجاه . ولكنه لم يفعل ، حفاظا على عزة نفسه أن يسومها الأمراء فى سوق الشراء ... أما ذكاؤه فقد شهد له به بعض مترجميه وكاتبى سيرته ، كما شهد له بذلك كتابه « مجمع الأمثال » الذى أراد أن يصون به تراثا عربيا عظيما فى الجاهلية والاسلام وعصر المولدين . وهو تراث الأمثال العربية التى يقف المؤرخون منها على تاريخ هذه الامة وفلسفتها ونظرتها الى الحياة وطرائقها فى السلوك ، وفضائلها النفسية ، ومعاييرها الخلقية التى كانت تحتفظ بالقيم الرفيعة فى عصور القوة والسيادة والعزة والاستقلال ، ولكنها تساير الزمان وتداور الايام

والحكام فى عهود التبعية والتفرق وغلبة العناصر الأجنبية الطارئة على العرب من ترك وفرس وغيرهم ...

وأما فضل الرجل وشهامته فيؤكده ما ذكره محمد بن أبى المعالى بن الحسن الحوارى فى كتابه « ضالة الاديب من الصحاح والتهذيب » حيث يقول فى معرض الحديث عن الميدانى : (وسمعت غير مرة من كتـــاب أصحابه يقولون : لو كان للذكاء والشهامة والفضل صورة ، لكان الميدانى تلك الصورة . ومن تأمل كلامه ، واقتفى أثره علم صدق دعواهم) . فالدعوى هنا مؤيدة من ناحيتين : من ناحية أقوال الميدانى وكلامه هو نفسه : ومن ناحية أفعال الميدانى التى حرص على أن يسجلها مترجمو حياته المعاصرون له ، القريبون منه .

بعض تلاميذه

لقد سبق منا الحديث عن بعض أساتذة الميدانى الذين اخذ منهم ، ونقل عنهم ، وتتلمذ عليهم . وهم ثلاثة من الرجال كانت تزهى بهم مدينة نيسابور عاصمة خراسان فى القرن الخامس الهجرى . وكما تأثر الميدانى ببعض الأعلام فى عصره ، أثر فى بعض النجبــاء من التلاميذ الذين أخذوا منه ، ونقلوا عنه ، وانعقدت لهم شهرة فى زمانهم وبعد زمانهم . وقد نقل ياقوت الحموى فى معجمه أن الامام أبا جعفر أحمد بن على المقرىء البيهقى هو ممن قرأ على الميدانى وتخرج به . ولا يعوزنا البحث عن البيهقى هذا ، فهو بيهقى آخر غير من ذكرناهم قبلا ، وهو لغوى عالم بالقراءات حتى غلب عليــه فى التسمية الوصف بالمقرىء . وأصله من « بيهق » ، وكان نزيلا بنيسابور ،

ولم يكن من أهلها كما ذكر ذلك وأهما الأستاذ خير الدين الزركلى صاحب « الأعلام » . وقد ترجم له القفطى فى انباه الرواه ترجمة وجيزة ، كما ترجم له السيوطى فى « البغية » ، وياقوت فى « معجم الادباء » ، وصاحب « سلم الوصول » ، وصاحب « طبقات المفسرين » .

ومن كتبه : « ينابيع اللغـــة » ، و « المحيط بلغات القرآن » و « تاج المصـــادر » الذى قال عنه صاحب « كشف الظنون » : (جمع فيه مصـــادر القرآن ، ومصادر الأحاديث ، وجردها عن الأمثال والاشعار ، واتبعها الافعال التى تكثر فى دواوين العرب) .

اما ثانى تلاميذ الميدانى فهو يوسف بن طاهر الخويى — نسبة الى مدينة خوى من اعمال أذربيجان — وقد ولى نيابة القضاة فى احدى عاصمتى طوس ، وحمدت سيرته هناك . وفى قصبة طوس لقيه السمعانى صاحب كتاب « الأنساب » وكتب عنه اقطـــاعا من شـعره . ومن تصانيفه : « شرح سقط الزند للمعرى » وهو مطبوع فى مجموعة شروح سقط الزند التى أصدرتها دار الـكتب المصرية فى العقد الخامس من هذا القرن العشرين للميلاد، واعيد طبعها مصورة فى مشروع المكتبة العربية ١٩٦٤ — ١٩٦٥ . ومن كتبه أيضا رسالة عنوانها : « تنزيه القرآن الشريف ، عن وصمة اللحن والتحريف » . وقد أشار اليها ياقوت فى كتابه « معجم البلدان » مادة (خوى) ، كما أشار اليها السمعانى فى كتابه « الأنساب » . وقد ذكر حاجى خليفة صاحب « كشف الظنون » أن الخويى هذا قد اختصر كتاب أستاذه « مجمع الامثال » .

اما ثالث تلاميذ الميدانى فهو ولده « سعيد » ، وقد نقل ياقوت الحموى فى المعجم أن سعيدا هذا كان اماما

بعد والده ، كمـــا ترجم له ابن خلكان فى « وفيات الأعيان » ترجمة وجيزة جدا جاءت عقب ترجمته لأبيه مباشرة — دون مراعاة للترتيب الهجائى للاعلام — قال فيها : (وابنه أبو سعد سعيد بن أحمد كان أيضا فاضلا دينا ، وله كتاب « الأسماء فى الاسماء » وتوفى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، رحمه الله تعالى) . أما السيوطى فقد ترجم له فى ثلاثة أسطر فى « بغية الوعاة » ، وزاد على الكتاب الذى ذكره له ابن خلكان كتابين آخرين ، هما : « غرائب اللغة » و « نحو الفقهاء » ، ثم زاد تعليقا على كتاب « الاسماء فى الأسماء » بأن الابن اشتقه من كتاب أبيه الذى عنوانه « السامى فى الأسامى » . وقد فعل ابن العماد الحنبلى صاحب « شــذرات الذهب » فى الترجمة لسعيد ابن الميـــــدانى ما فعله ابن خلكان فى « وفيات الأعيان » ، فترجم للابن فى سطرين جاء بهما عقب الترجمة لوالده مباشرة ، وهى ترجمة منقولة بالنص عما كتب ابن خلكان فى الوفيات .

الميدانى الشاعر

لقد غلبت على الميدانى ناحية اللغة والأدب والنحو . ولكن الرجل كانت فيه « شاعرية » كما كان يفهم الشعر عند القــدماء . وقد نقل ياقوت الحموى عن الميدانى شعرا رواه عنه تلميذه أبو الحسن البيهقى صاحب كتاب « وشاح الدمية » ، وقال عنه انه مما أنشده اياه . ونرى أن شعر الميدانى يجود حين يرسل فيه نفسه على سجيتها بلا تكلف ، ولا محاولة للزخرف اللفظى ، ولا اغراق فى الاغراب . ومن شعره اللطيف ما قاله ليعزى نفسه حين لاح الشيب بعارضيه وجللهما بالبياض :

تنفس صـــبح الشيب فى ليل عارضى
فقلت : عســــاه يكتفى بعــذارى

فلمـــا فشــــا عاتبته فأجابنى
الا هل يرى صبح بغير نهـــــار ؟

والشاعر هنا خائف من فشو المشيب فى شـــعره ، وانتشار بياضه فى سواد شعر الشباب . وهو خوف طالما أرق الشعراء الوجلين من المشيب . ولكن اعتذار المشيب فيه من دواعى التسلية والتصبير قدر ما فيه من الملاحة وسلامة المنطق والاستشهاد بالواقع من الحياة فى الطبيعة . فاذا صح أن يرى صبح بغير نهار ، صح أن يرى شباب بلا مشيب ... وهو تعليل بالواقع ، يذكرنا بالتعليل الحسن الذى زين به شاعر قديم ظهور الشعرات البيض فى خلال الشعر الأسود قائلا :

لا يرعك المشـــيب يا ابنة عبـــد الل
ـه فالشـــــيب زينة ووقــــار

انمـــا تجمـــــــل الرياض اذا ما
ضحكت فى خلالهـــــا الأزهار !

فقد جعل هذا الشـــاعر بياض المشيب ضحكة مثل ضحك الزهر فى الروض ، كمـــا جعل الميدانى انتشار بياض المشيب ضرورة طبيعية كضرورة انتشار النهار فى أعقاب الصباح ...

واذا كان الميدانى الشاعر قد أخذ معنى تعاقب النهار والليل فى موضوع الشيب والشباب من شعراء قبله ، فانا نرى له فى قصيدة أخرى معنى قد أخذوه من شاعر قديم أخذا ظاهرا غير مستور ولا خفى . يقول الميدانى من بعض غزلياته :

شئنت اليهـــم والديار قـــريبة
فكيف اذا ســـار المطى مراحــلا ؟

والبيت مأخوذ — حتى فى كثير من اللفظ — من قول الشاعر :

أشـــوقا ولمـــا يمض لى غـير ليلة
فكيف اذا خب المطى بنا عشرا ؟ (١)

والحق أن بيت الميداني أضعف نســـجا ، وأقـل اشراقا ، وأدنى عبارة من البيت الذى أخذ عنه ، ومتح منه .. وأين بناء هذا من ذاك ؟ مع عورة الأخذ وضعف المحاكاة ؟

ولنا أن نسأل : ما لهذا الشيخ الفاضل المتدين وللغزل الذى لا يحسن الـكلام فيه ؟ لقد كان كثيرون من الشعراء السابقين الذين لم يعرفوا بخفقـات قلب ، ولا حرارة حب ، يروضون القول فى الغزل تبيانا للقدرة على القول، لا استجابة لدواعى الهوى ، فيخرج شـعرهم باردا غثا متكلفا ، لا حياة له ولا روح فيه ، فاذا أضيفت الى هــذه الرياضة القـولية دواعى الزخرف والحلية اللفظية جاء شعرهم الغزلى شـــيئا مضحكا . وكذلك كان الميدانى النيسابورى فى أشـعاره الغزلية . اقرأ قوله فى هــذا الباب :

شـــفة لمـاها زاد فى آلامى
فى رشف رتقيهـــــا شفاء سقامى
قـد ضـمنا جنح الدجى ، وللثمنـــا
صوت كقطك أرؤس الأقـــــلام

(١) البيت لشاعر من بنى عقيل لم يذكر ابن قتيبة اسمه فى « عيون الاخبار » . وجاء فى جرجى زيدان للشاعر الجاهلى سحيم ، وهو فى ديوانه ص ٥٦

لقد يشبه صوت اللثمات بين شفاه الأحباب بأى شيء، وبأى صوت ، الا أن يشبه بصوت القط لرءوس الأقلام . وقد يكون الميدانى هنا معذورا فى تشبيهه ، لأنه استمده من الجو الـذى كان عائشا فيه ، وهو جو التصنيف ، والكتابة ، وبرى الأقلام ، وقط رءوسها ! ولكن ما كان أغناه عن أن يخوض ميدانا لا يحسن الكلام فيه .. !

واذا كانت صناعات الشعراء وحرفهم تتسرب بلا وعى الى تعبيراتهم ، فان هذه المقولة تنطبق بحق على الميدانى الكاتب الناسخ بارى الأقلام ، كمـا دل بيت شعر فى مفتتح قصيدة على أن قائله نحوى حيث يقول :

لم أدر حين وقفت بالأطـــــلال
ما الفرق بين جديدها والبالى ؟!

وقد كان المستنتج على حق حين استنتج أن صاحب هذا البيت نحوى ــ فقد كان الناظم حقيقة نحويا ــ لأن لغة « ما الفرق » هى لغة الفقهاء والنحاة ، لا لغة العشاق المتيمين ...

ولم يصل الينا من شعر الميدانى ــ الذى قال مؤرخوه انه كثير ــ الا قدر يسير جدا ، لا يكفى للحكم الصحيح العادل على شاعرية الرجل . ففى القدر الذى بلغنا منه تكلف وتصنع ، ومحاكاة وتقليد . ويبدو على صاحبنا الولوع بالمحسنات البديعية ، وخاصة حين لا ينطق عن عاطفة . فاذا نظم شعرا عن شعور خاص بدا الصدق فى تعبيره . وما أصـدقه وأظرفه حين يهجو شخصا كثير الكذب ، فيقول :

يا كاذبا أصـــبح فى كـذبه
أعجـــوبة أية أعجـــوبه

وناطقا ينطق فى لفظة
واحدة سبعين أكذوبه
شبهك الناس بعرقوبهم (١)
لما رأوا أخذك أسلوبه
فقلت : كلا ! انه كاذب
« عرقوب » لا يبلغ عرقوبه .. !

وفاته

اتفقت المصادر كلها على أن الميدانى توفى فى شهر رمضان سنة ٥١٨ هـ . وقد كان تلميذه عبد الغافر بن اسماعيل الفارسي هو أول من سجل هذا التاريخ فى كتابه « السياق » الذى صنفه فى تاريخ نيسابور . كما ذكر هذا التاريخ تلميذه الآخر أبو الحسن البيهقى فى كتابه « وشاح الدمية » الذى ضمنه كثيرا من التراجم التى أكمل بها كتاب « دمية القصر » فى تراجم أهل عصره ، وعن هذين الكتابين أخذ كل من ترجم للميدانى . وهم مجمعون على تاريخ وفاة صاحبنا كما ذكرناه . الا أنه صادفنا فى كتاب « الفلاكة والمفلوكون » نص فى نهاية ترجمة الميدانى انه توفى سنة ٥٣٩ هـ . والدلجى صاحب « الفلاكة والمفلوكون « هو الوحيد الذى انفرد من بين مؤرخى سيرة الرجل بهذا التاريخ . ولما كان هذا التاريخ هو تاريخ وفاة سعيد بن الميدانى لا تاريخ وفاة والده ، فقد رجح لدينا ــ بل تأكد ــ أن صاحب « الفلاكة والمفلوكون » بين احتمالين لا ثالث لهما : فاما

(١) عرقوب : هو الذى يضرب به المثل العربى فى كذب المواعيد واخلافها فيقال : مواعيد عرقوب .

ان يكون واهما فاختلط عليه تاريخ وفاة الابن وتاريخ وفاة الاب ، واما أن يكون قد سقط من النسخة المطبوعة لكتاب الدلجي كلام حول سعيد بن الميداني ، فجاء تاريخ الوفاة سنة ٥٣٩ هـ منصبا على الأب ، والحقيقة انه خاص بالابن .

مؤلفات اخرى للميداني

يشير عبد الغافر بن اسماعيل الفارسي ـ فيما نقله عنه ياقوت الحموي صاحب معجم الأدباء ـ الى مجموعة من الكتب التي صنفها الميداني ، فيذكر له ثمانية من الكتب . وذكر القفطي له تسعة من الكتب . وهو اكثر الأعداد التي وصلت الينا من مصنفات صاحب «الأمثال». على أن القفطي نفسه في موضع آخر من الترجمة نقل عن بعض المؤرخين اسم ثلاثة كتب لا غير ، وصفها بأنها جليلة ، وذكر من بينها كتاب « مجمع الأمثال » الذى اشتهر به الميداني .

أما ابن خلكان فقد ذكر له في « وفيات الأعيان » كتابين اثنين فقط ، هما « الأمثال » و «السامي في الأسامي». ووقف السيوطي موقفا وسطا بين الكتابين والتسعة ، فذكر له ستة من الكتب . ويرجع الفرق بين عدد مؤلفات الميداني عند كاتبي سيرته الى عدم اهتمامهم بالحصر أو الذكر على سبيل الشمول ، ولكن كل كاتب يذكر من كتب الرجل ـ على سبيل المثال ـ ما يعن له أو ما يراه ـ في تقديره هو ـ موضعا للذكر ، ومحلا للاهتمام ، ولا شك أن كتاب التراجم الوجيزة جداللميداني كالدلجي، وابن كثير ، وابن العماد الحنبلي ، والسيوطي في « بغية

الوعاة « لم يكونوا ليكلفوا أنفسهم مشقة الاهتمام بذكر كتب الرجل كلهـــا محصورة فى مقام ضيق لا يسمح بالاطالة والحصر والاستيعاب .

على أن الذين يذكرون مؤلفات الميـداني او يشيرون اليها أو الى بعضها ، يكادون يجمعون على وصفها بما يضفي عليها القيمة والجلال والفائدة . فالقفطى يقول عنه : « وصنف التصانيف الجليلة » ، وابن خلكان يقول عنه : « واتقن فن العربية خصوصا اللغة وأمثال العرب، وله فيهـا التصانيف المفيدة » . وابن كثير المؤرخ يقول عن كتابه « مجمع الأمثال » : (ليس له مثله فى بابه) . وهكذا نرى أنهم لا يكتفون بسرد مصنفات الرجل ، بل يعطونها حقها من التقدير والوزن .

أما الكتب الثمانية التى ذكرها ياقوت الحموى نقلا عن عبد الغافر الفارسى فهى :

١ ــ كتاب « جامع الأمثال » ، وهو مجمع الأمثال كما سيجيء ، ونعته بأنه جيد بالغ .

٢ ــ كتاب « السامى فى الأسامى » ، وقد نعته ابن خلكان بأنه جيد فى بابه ، وقسمه الى أربعة أقسام : فى الشرعيات ، والحيوانات ، والعلويات ويدخل فيهـا الفلك والظواهر الجوية ، والسفليات وتدخل فيهـا الجغرافية الطبيعية وغيرهما مما على الأرض . وطريقته فى هذا الكتاب أن يذكر الاسم ويترجمه بالفارسية ، ويذكر مقابله عند العامة ، والمراد منه فى اللغة ، والاسم الذى يناقضه . وفى الكتاب فوائد لغـوية كثيرة ومرادفات متنوعة . وقد لخصه ابنه سعيد ــ لا عبيد كما يقول جرجى زيدان ــ فى كتاب عنوانه « الأسماء فى

الأسماء » . وكتاب السامى مطبوع على الحجر فى ايران .

٣ ـ كتاب « الأنموذج » فى النحو . ومن عجب أن بعض المعقبين على سيرة الميدانى من المعاصرين قد أصلحوا لفظة الانموذج ، فجعلوها : النموذج ! بحجة ان الأنموذج خطأ لغوى ، وانها لحن لا يعتد به ! ولو صح هذا المذهب فى تغيير أسماء الكتب لجاز لنا أن نغير اسم كتاب « البؤساء » الذى عربه الشاعر محمد حافظ ابراهيم الى « البائسين » لأن البؤساء لم ترد فى اللغة جمعا لكلمة بائس ! ولجاز لنا أن نغير اسم مجلة « الزهور » التى كان يصدرها أنطون الجميل فى آخر العقد الأول من القرن العشرين الى « الأزهار » لأن لفظ زهر لا يجمع على زهور !

والحق أن هذه الأسماء والأعلام تبقى على حالها بدون تغيير ، ويشار الى ما فيها من موافقة للغة أو مخالفة ...

٤ ـ كتاب « الهادى للشادى » وهو كتاب فى النحو مع التعليق باللغة الفارسية . وقد ترجم المستشرق الفرنسي كاترمير جانبا منه الى اللغة الفرنسية .

٥ ـ كتاب « النحو الميدانى » .

٦ ـ كتاب « نزهة الطرف ، فى علم الصرف » ، وقد رتبه على عشرة أبواب ، وطبع بالآستانة سنة ١٣٠٢ هـ .

٧ ـ كتاب « شرح المفضليات » ، وهى القصائد التى اختارها المفضل الضبي من عيون الشعر العربى . وممن شرحها فى القديم : الأنبارى ، وابن النحاس المصرى ، والمرزوقى ، والتبريزى . وجاء الميدانى فدخل ميدانها

مع الداخلين . ثم جاء في عصرنا الحديث المرحوم الشيخ أحمد محمد شاكر والأستاذ عبد السلام هارون فشرحاها شرحا أربى بالفائدة والتحقيق على ما سبقها من شروح .

٨ ـ كتاب « منية الراضي » في رسائل القاضي » ، وقد ذكره القفطي باسم « منية الراضي » في مسائل القاضي » . ولم أهتد الى موضوعه ، ولم يذكره صاحب كشف الظنون في موضعه من حروف الهجاء .

أما الكتاب التاسع الذي ذكره القفطي في «أنباه الرواة» زيادة على ما ذكره ياقوت ، فهو كتاب « المصادر » وقد ذكره السيوطي في البغية ضمن المصنفات الستة التي ذكرها للميداني ، ولم يحدد لنا موضوعه . وذكره حاجي خليفة صاحب كشف الظنون مع حفنة من الكتب تحت عنوان : « المصادر » لمؤلفين مختلفين ، منهم يحيى بن أبي بكر ، وابوزيد الأنصاري ، والأصمعي ، والباراني اللغوي ، والزوزني شارح المعلقات . ولا ندري ان كان كتاب الميداني في المصادر بمفهومها اللغوي الصرفي ، أم « مصادر القرآن » التي الف فيها اليزيدي ـ من علماء القرن الرابع الهجري ـ كتابا ، وألف فيها يحيى بن زياد الفراء كتابا آخر ، وألف فيهـا البيهقي تلميذ الميداني كتابا عنوانه « تاج المصادر » أشرنا اليه ونحن في معرض الحديث عن تلاميذ الميداني .

وقد كان العلماء والأدباء والطلاب يتلقون كتب الميداني بالقبول الحسن ، ويقبلون على حفظها ومدارستها والنقل عنها والتلخيص لها ، ويمدحونها بما هي جديرة به ، ويصفونها شعرا ، حتى لنجد أحد تلاميذه الأدباء وهو أسعد بن محمد المرساني يقول في كتابه : « السامي في الأسامي » :

هذا الكتاب الذى سـماه بالسامى
دوج من الدر ، بل كنز من السام(١)
ما صنفت مثـــله فى فنــه أبدا
خواطر الناس من حام ومن سام
فيه قلائد ياقـــوت مفصــــلة
لكل أروع ماضى العــــزم بسام
فكعب احمـــد مولاى الامام سما
فوق السماكين من تصنيفه السامى

وعلى الرغم ممـــا فى هذه الأبيات من حليــــة لفظية ومحسنات بديعية ـ كالجناس فى لفظة سام ـ فان فيها دلالة على شعور الشاعر بقيمة هذا الكتاب .

مجمع الأمثال

قبل المضى فى عرض كتاب « مجمع الأمثال » يجمل بنا أن نقف وقفة قصيرة عند تحقيق اسمه ، فانا نصادفه فى مراجع مختلفة بأسماء مختلفة . ولكن محورها كلهــا حول « الأمثال » التى هى موضوع الكتاب ومادته .

والفروق فى أسماء الكتاب الواحد ظاهرة نجدها كثيرا فى تراثنا العـــربى من المصنفات . ونذكر على سبيل المثال فقط كتاب « أنباه الرواة » للقفطى الذى كان أحد مصادرنا عن سيرة الميـدانى . فقد تقلبت على هــذا الكتاب أسماء مختلفة ، ما بين أخبار النحاة ، وتاريخ النحاة ، وأخبار النحويين ، وأنباه الرواة على أخبـــار النحاة . وهذه الاختلافات فى أسماء الكتب وعناوينها ،

(١) السام : سبائك الذهب والفضة

قد ترجع الى اهمال الناسخين من ناحية ، والى عدم الاهتمام بحفظ الاسم الصحيح للكتاب من ناحية أخرى. فهو نوع من التساهل عند العلماء حين تزدحم الكتب أمامهم فلا يتحرون الدقة فى ذكر أسمائها ، بل يكتفون من محفوظ الاسم فى ذاكرتهم بما يدل على موضوع الكتاب ، ولا يهتمون بحفظ الاسم دقيقا .

وقد جرى على كتاب « مجمع الأمثال » للميدانى هذا القدر المغير .. فتارة نجد اسمه « جامع الأمثال » ، كما جاء فى أنباه الرواة ، وفى معجم الأدباء لياقوت ، وتارة نجد اسمه « الأمثال » فقط ، كما جاء فى بغية الوعاة للسيوطى ، وفى الفلاكة والمفلوكون للدلجى ، وفى شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى ، وفى وفيات الاعيان لابن خلكان ، وتارة نجد اسمه « مجمع الأمثال » كما جاء فى كتاب « كشف الظنون » . وهذا الاسم الأخير هو الذى اشتهر به الكتاب وتدوول به بين الناس، ولعل هذا هو الاسم الذى اختاره له مؤلفه . ويؤكد لنا حاجى خليفة صاحب كشف الظنون هذا الافتراض بقوله : « مجمع الأمثال . كذا سماه مؤلفه » . وقد جمع جرجى زيدان فى « تاريخ آداب اللغة العربية » بين الاسمين : الأمثال ، ومجمع الأمثال . ولكنه لم يشر الى اسم (جامع الأمثال) الذى ورد عند ياقوت الرومى ، وعند القفطى .

ويكاد العلماء والمؤرخون يجمعون على قيمة كتاب « مجمع الأمثال » وجلال خطره ، واتساع ميدانه فى باب جمع الأمثال وتقصيها فى الجاهلية والاسلام بما لم يتح لرجل قبله . ولعل التمهيد بذكر آراء بعض علمائنا فى الكتاب يمهد لنا ابداء الرأى فيه على حقيقته . فنرى

مؤرخا دقيقا فى الأحكام مثل ابن خلكان يقول عنه : (... ولم يعلم مثله فى بابه) . ونرى عبد الغافر بن اسماعيل الفارسي يقول فى كتابه « السياق » : (كتاب جامع الأمثال كتاب جيد) . ويقـــول القفطى عن هذا الكتاب : (انه من التصانيف الجليلة) . ويقول ابن العماد صاحب شذرات الذهب : (أن كتاب الأمثال لم يعمل مثله) . ويصفه صاحب كشف الظنـــون بأنه (كتاب حسن ، وقف الزمخشرى عليه فحسده) . ويصف هو كتابه ــ كما أشار به الأمير أبو على محمد بن أرسلان السلجوقى ، بأنه (مبرز على ماله من الأمثال ، مشتمل على غثها وسمينها ، محتو على جاهليتها واسلاميها) . ويصفه من علمائنا المعاصرين جرجى زيدان فيقـول ان الميدانى اشتهر به ، وانه (حوى من أمثال العرب ما لم يحوه كتاب قبله ، وهو مرجع طلاب الأمثال العربية الى الآن) .

والأمثال ظاهرة استعمالية تبدو فى الحديث وفى الـكتابة عند أكثر الأمم ، حتى الأمم الأمية التى ليس لها من الـكتابة نصيب . وانك لتسمع بالمثل يستشهد به المتكلم فى تضاعيف الكلام ، فتحس للكلام قوة وتجسيدا للمعنى عن طريق المثل . ويؤكد لنا صاحب « صبح الأعشى » ضرورة احتياجنا الى الأمثـال الواردة عن العرب نثرا ونظما ، وضرورة النظر فى الكتب المصنفة فى ذلك ، كأمثال الميدانى ، وأمثال المفضل بن سلمة الضبى ، وأمثال حمزة الأصبهانى . ويصفهـــا لنا ابن عبد ربه صاحب « العقد الفريد » بقوله : (والأمثال هى وشى الـكلام ، وجوهر اللفظ ، وحلى المعانى والتى تخيرتها العرب ، وقدمتها العجم ، ونطق بها فى كل زمان على كل

لســـان . فهي أبقى من الشعر ، وأشرف من الخطابة ، لم يسر شيء كسيرها ، ولا عم عمومها ، حتى قالوا : أسير من مثل) .

واستدل الباحثون على قيمة الأمثال فى ذاتها بأن الله تعالى ضرب الأمثال فى كتابه العزيز ، فقال : (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون) . (وضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء) ، وبأن النبى عليه السلام ضرب الأمثال فى حديثه ، كقوله : (ضرب الله مثلا صراطا مستقيما ، وعلى جنبى الصراط أبواب مفتحـــة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى رأس الصراط داع يقول : ادخلوا الصراط ولا تعرجوا ! فالصراط الاسلام ، والستور حدود الله ، والأبواب محارم الله ، والداعى القرآن » .

وقد رأى الميدانى أن يبدأ الكلام فى مقدمة كتابه عن معنى « المثل » وما قيل فيه ، فنقل عن المبرد صاحب كتاب الـكامل أن المثل مأخوذ من المثال ، وهو قول سائر يشبه به حال الثانى بالأول . وقد لوحظ فى المثل معنى المشابهة أو التشبيه . فاذا قلت : مثل بين يدى فلان ، أى انتصب قائما ، فمعناه أنه أشبه الصورة المنتصبة ... فحقيقة المثل ما جعل كالعلم للتشبيه بحال الأول ، كقول الشـــاعر كعب بن زهير فى قصيدته المشهورة « بانت سعاد » :

كانت مواعيد عرقوب لهـــا مثـلا
وما مواعيـدها الا الأباطيل

فمواعيد عرقوب : علم أو مثل لكل ما لا يصح من المواعيد . وعندنا فى المثل حالتان : الحالة الأولى التى

قيل فيها المثل ، والحالة الجديدة الطارئة على سلوكنا في الحياة ، والتي تشبه الحالة القديمه في المعنى والموضوع وتختلف عنها في اللفظ .

والحق اننا كنا نتوقع من الميداني أن يطيل في مقدمته للكتاب في بحث الأمثال واصل استعمالها . وضروبها من حيث ظهور معناها وقربها من الفهم وكثرة دورانها ، ومن حيث بعد فهمها لخفائها وقلة دورانها بين الناس . وأن يحدثنا عن الأمثال الشعرية ، والأمثال الموضوعة على السنة الحيوانات وكيف دخلت الى الاستعمال ، ومن أين اتت ؟ أهي من أصول عربية أم ترتد الى أصول اجنبية ، وكيفية استعمالها في الكتابة ، والاستشهاد بها في مواضعها اللائقة بها . ولكن الميداني لم يفعل شيئا من هذا في المقدمة ، مع أن كتابه كان أولى المواطن وأحقها بمثل هذا الكلام ، وترك مثل هذا البحث لكاتب آخر من كتاب الانشاء متأخر في العصر هو القلقشندي صاحب كتاب « صبح الأعشى » الذي خص موضوع الأمثال ببضع عشرة صفحة من كتابه . على أن الدراسات الجديدة المتطورة للأمثال العربية قد دخلت ميدانا آخر من البحوث الفيلولوجية والتاريخية والدراسات المقارنة ، وخاصة مع الأمثال عند الأمم السامية (١) .

نعم ! كنا نتوقع من الميداني دراسة تحليلية لغوية تاريخية للأمثال العربية في مقدمة كتابه عن الأمثال ، وخاصة أن ثقافته اللغوية والأدبية الواسعة ، ومعرفته

---

(١) ظهر في هذا المجال كتاب جيد بعنوان « الامثال في النثر العربي القديم ، مع مقارنتها بنظائرها في الآداب السامية الاخرى » للدكتور عبد المجيد عابدين وهو ضروري لمن يريد أن يعرف شيئا عن الامثال العربية وبنائها وتطورها وصيغها الادبية والحكائية .

الوثيقة باللغة الفارسية كانت تتيح له مثل هذه الدراسة ، ولكن يظهر ان الرجل عني نفسه بجمع الأمثال وتبويبها والاحاطة بهـا ، وتتبعها ، ومعرفة مضاربهـا الأولى ، والتفتيش عن ضوالها فى مختلف المصادر والمنابع اكثر مما عني بدراسة الأمثال ونشأتها وتطـورها وصيغها وضروبها . فصنع هنا كالذى صنعه اصحاب الحديث من الجمع ، أو كالذى صنعه رواة الشعر وجامعوه فى امثال « المفضليات » و « الاصمعيات » ، و « جمهرة اشعار العرب » ، و « مختارات ابن الشجرى » وغيرها . وهو عمل فيه فضل الجمع وجهده ومشقاته . فان من طبائع الأشياء أن تأتى خطوة الجمع أولا ، ثم تأتى بعـدها خطوات الدرس والبحث والدراسة والتحليل .

وقد ظهرت فى جمع الأمثال العربية جهود سابقة على جهد الميـدانى ، فلم يكن صاحبنا أول رائد فى هـذا الميدان ، ولا اول طارق بابه ، لقد اعترف فى مقـدمة كتابه بأنه تصفح أكثر من خمسين كتابا ، ونخل ما فيها فصلاً فصلاً ، وبابا بابا ، حتى يخرج آخر الأمر بهـذه الحصيلة العظيمة الهائلة من أمثال العرب ، التى بلغت فى كتابه ستة آلاف مثل ونيف ، وهو قدر هائل نجده مبعثرا هنا وهناك فيما ظهر قبل الميدانى من كتب فى الأمثـال والأخبار والنوادر والقصص والشعر والتاريخ والمحاضرات والأسمار وغيرها . فاستطاع الرجل — بما أوتيه من جميل الصبر — ان يتتبع كل هـذه الضوال فى كل مظنة تكون فيهـا ، وأن يجملها لنا كلها فى كتاب واحد ، انفرد فى التراث العـربى بأنه المصدر الوحيد الجامع لأمثال العرب حتى اوائل القرن السادس الذى عاش المؤلف منه شطرا . وقد احسن المؤلف نفسه بانفراده

فى جمع أعظم قدر من الأمثال فى كتابه هذا ، فقال : (وسميت الكتاب مجمع الأمثال لاحتوائه على عظيم ما ورد منها ، وهو ستة آلاف مثل ونيف) ، وكأنه مهد لنفسه العذر فيما قد يكون فاته من الأمثال فقال : (والله أعلم بما بقى منها ، فان أنفاس الناس لا يأتى عليها الحصر ، ولا تنفد حتى ينفد العصر) .

ومن السابقين الأولين الى وضع الكتب فى الأمثال ابن عياش ، وقد كان معاصرا لمعاوية ، واسمه صحار ، وقد سكن البصرة ومات فيها قريبا من سنة ٤٠ هـ . وقد الف عبيد بن شرية كتابا فى الأمثال ذكر ابن النديم صاحب الفهرست انه رآه ، وانه نحو خمسين ورقة . وقد ضاع هذان الكتابان فيما ضاع من الكتب .

وأقدم ما وصل الينا من كتب الأمثال كتاب المفضل الضبى من رجال القرن الثانى الهجرى – توفى سنة ١٦٨ هـ . ويشتمل الكتاب على حوالى خمسين ومائة مثل لا غير تصور لنا ألوانا من الحياة فى العصر الجاهلى .

وتذكر الأمثال فى كتاب المفضل الضبى مقرونة بقصصها وحكاياتها . مما يدلنا على أن الناس كانوا يجمعون بين المثل وقصته فى معرض واحد . وهنا يقفز الى البال سؤال : من الذى وضع هذه القصص ؟ وهل وضعت فى الجاهلية أم فى الاسلام فى عصر الجمع والتدوين ؟ وأى خيال عربى زوقها ؟ أهو خيال الجاهلية أم خيال العصر الاسلامى . وقد طبعت أمثال المفضل الضبى فى الآستانة منذ نيف وتسعين عاما .

وهناك مفضل آخر هو المفضل بن سلمة بن عاصم من رجال القرن الثالث (توفى سنة ٢٩١ هـ) له كتاب فى

الأمثال اسمه « الفاخر » وقد أفاد الميدانى من كتابى المفضلين .

ولا شك أن كتاب « الفاخر » يدخل فى كتب الأمثال أكثر مما يدخل فى أى شىء آخر ، وقد وصفه حاجى خليفة بأنه ألفه صاحبه المفضل بن سلمة فيما دار واشتهر بين الناس وسار كالأمثال . على ان كتاب « الفاخر » هو بين أيدينا الآن فى طبعته التى صدرت فى سلسلة « تراثنا » بتحقيق الأستاذ عبد العليم الطحاوى ، وفيه من الامثال العربية قدر كبير ، مما جعله من المصادر التى رجع اليها الميدانى وأشار اليها فى مقدمة كتابه .

ولحمزة بن الحسن الأصفهانى الاديب المتوفى سنة ٣٦٠ هـ كتاب فى الأمثال حققه الأستاذ عبد المجيد قطامش وقد أفاد منه الميدانى ونقل عنه ، بل نقلَ ما فيه الى كتابه ، كما يصرح بذلك بنص عبارته فى مقدمة كتابه قائلا : (ونقلت ما فى كتاب حمزة بن الحسن الى هذا الكتاب) .

وأغلب الظن أن الميداني قد أفاد من كتاب أبى هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ هـ المسمى «جمهرة الأمثال»، وان كان لم يشر اليه ولم يذكره فى المقدمة بالاسم ، ولكنه لا شك من « الخمسين كتابا وأكثر » التى نخلها الميدانى بابا بابا ، وأشار الى عددها ـ لا الى أسمائها ـ فى المقدمة . وكتاب « جمهرة الأمثال » مطبوع فى مصر منذ أكثر من تسعين عاما على هامش كتاب مجمع الأمثال للميدانى سنة ١٣١٠ هـ كما طبع أخيرا سنة ١٩٦٤ بتحقيق المرحوم محمد أبو الفضل ابراهيم .

ولقد كان الامام المفسر اللغوى الزمخشرى معاصرا

للميداني . وقد شارك في التصنيف عن الأمثال العربية وهو لا يعلم ان الميداني كان قائما بهذا العمل ، فلما انتهى الزمخشرى من كتابه الذى أسماه « المستقصى فى الأمثال » أتيح له أن يطلع على كتاب مجمع الأمثال للميدانى فوجده دون كتابه .

وهنا تلعب الروايات والخيال دورا كبيراً ، فمن قائل أن الزمخشرى حسد الميدانى على كتابه هذا ، فعمد الى النيل منه ، فزاد على اسمه قبل الميم نونا ، فصار الاسم « النميدانى » — ومعناه بالفارسية الذى لا يعرف شيئا أو الجاهل بالأشياء — وأراد الميدانى أن يرد الكيل لصاحبه ، فعمد الى بعض كتب الزمخشرى ، فجعل الميم نونا ، فصار الاسم هكذا : « الزنخشرى » ، ومعناه الرجل الذى يبيع زوجته ! وقد روى هذه الحكاية الطريفة ، المبنية على تلاعب فى الحروف يؤدى الى تبادل الشتائم ، ياقوت الرومى صاحب معجم الأدباء ، والقفطى فى الأنباه ، والسيوطى فى بغية الوعاة . اما ابن خلكان فلم يشر اليها من قريب ولا بعيد . وقد نقلها صاحب كشف الظنون ، ولكنه روى فى أعقابها حكاية أخرى تنفى الحسد ، وتغير القلب ، وتبديل الأسماء للهجاء ، وتثبت للزمخشرى الامام فضل العالم وأخلاق العلماء وتقول هذه الحكاية ان الزمخشرى بعد ما ألف « المستقصى فى الأمثال » وقع له « مجمع الأمثال » الميدانى ، فأجال نظره فيه وأعجبه جدا . ويقال انه ندم على تأليفه المستقصى لكونه دون مجمع الأمثال فى حسن التأليف والوضع وبسط العبارة وكثرة الفوائد .

والحق أن هذا الخلق الذى تعرضه الحكاية الثانية هو أشبه بأخلاق الزمخشرى الذى ما نظن أن الحسد قد

أكل قلبه لأن انسانا آخر أربى عليه فى تأليف كتاب . ثم كيف يبلغ الحسد حد المعابثة والمشاتمة بتبديل الأسماء وقد كان كل واحد من الرجلين بعيــدا عن صاحبه ، تفصل بينهما مفاوز وأنجاد ؟ فلا محل لغيرة ، ولا موضع لمنافسة كما يقع غالبا بين الأنداد . ولا نشك ان حكاية الحسد هى من وضع الرواة المزينين للأخبار ...

ولا شك أن الزمخشرى لم يندم على كتابه « المستقصى فى الأمثال » الا حين رأى كتابا آخر أحسن من كتابه تصنيفا وترتيبا . وأكثر جمعا للأمثال ، وأعمق تتبعا لها ، وأطول تهديا اليها ، وجمعا لشواردها وضوالها . وهى المزايا التى جعلت كتاب الميدانى يقف وحده فى ميدان الأمثال ، على الرغم من كثرة ما صنف فيها من الـكتب والرسائل التى قرأ فيها الميدانى اكثر من خمسين كتابا . ومن كتاب « المستقصى » نسخة خطية فى دار الكتب المصرية فى ١٧٨ صفحة ، كما أن منه نسخا أخرى فى بعض المكتبات الاوربية .

من هنا يتبين أن كل جهـــد بذل فى سبيل الأمثال العربية وتصنيفها وجمعها حتى يومنا هذا هو دون الجهد العظيم الذى بذله الميدانى فى هذا الكتاب ، الذى يقوم وحده فى الأدب العربى يتحدى كل مجهود .

وحسبك أن تعرف أن كتاب الأمثال للمفضل الضبى قد جمع قرابة مائة وخمسين مثـــلا لا تزيد ... وأن مخطوط أبى عبيد القاسم بن سلام فى الأمثال يقع فى تسعين ورقة وحسب ، وأن مجموع ما جاء فى كتاب « الفاخر » للمفضل بن سلمة بن عاصم لا يتجاوز سبعين ومائتى مثل ، على حين يبلغ مجموع الأمثال فى كتاب الميدانى ستة آلاف مثل ونيف ، وهو عدد لا يستهان

به . ولا يتصور كيف استطاع هذا الرجل أن يجمعه وهو بعيد فى نيسابور عاصمة اقليم خراسان .

وقد رتب الميداني هذه الذخيرة الوافرة من الأمثال العربية على حروف المعجم ، حتى يسهل الرجوع اليها ، ولا يصعب منالها على مريدها من الكتاب . ويقول هو في ذلك : (وجعلت الكتاب على نظام حروف المعجم في أوائلها ، ليسهل طريق الطلب على متناولها) . ولم يعد « ال » التعريفية من صلب الكلمة بل يجعلها كأنها لا وجود لها . فالمثل الذى أوله : الحرب سجال ، يأتى في حرف الحاء ، كما لم يعد ألف القطع والوصل والأمر ، والاستفهام ولا ألف المخبر عن نفسه من صميم الكلمة ، بل جعلها زائدة فى ترتيب حروف الهجاء . فالمثل القائل : « أساء رعيا فسقى » يأتى فى حرف السين بدون نظر الى الهمزة لأنها زائدة . والمثل القائل : « أسائر اليوم وقد زال الظهر » يأتى فى حرف السين أيضا ، لأن الهمزة التى فى أوله للاستفهام ، وهى ليست من صلب الكلمة . والمثل القائل : « اسع بجدك لا بكدك » يأتى فى باب السين أيضا لأن همزة الوصل فى كلمة اسع هى للفعل الامر ، وهى زائدة على الفعل الذى يبدأ بحرف السين .

هذا الترتيب للأمثال على حروف المعجم هو أحسن الطرق وأسهلها للاهتداء اليها . ويفيد هذا الترتيب كثيرا ، وخصوصا متى ما عرف أول المثل ، فمن السهل الاهتداء اليه في موضعه بأدنى نظر ، وأيسر جهد . وقد لجأ بعض مصنفى كتب الأمثال الى ترتيبها حسب الوقائع التى جرت فيها الأمثال . ومن ذلك ما صنفه أبو عبيد فى كتابه الذى لا يزال مخطوطا . وقد أشار

صاحب صبح الأعشى الى طريقة الميـــــداني فى ترتيب الامثال ، كما أشار الى طريقة أبي عبيد . أما الطريقة التى اتبعها المفضل بن سلمة فى كتابه « الفاخر » فى ترتيب الامثال فلم نستطع الاهتداء اليها ، ولم نتبين للرجل في ايراد الأمثال طريقة ولا مذهبا ، ولم يقل لنا هو في مقدمته الوجيزة شيئا عن هذا . وأول مثل جاء به هو : « حياك الله وبياك » ، وجاء بعده مباشرة : « مرحبا وأهلا » ، وبعده : « ملحه على ركبته » ويضرب للضيق الخلق الذى يغضب من كل شيء ، أى ادنى شيء يبدده ... وبعده : « جاء بالضح والريح » أى جاء بكل شيء ، وبعده : « برح الخفاء » أى ظهر المستور الخافى . فأنت ترى امثالا تتوالى بلا ترتيب ولا نسق يربط بينها ، فهى ليست مرتبة على حروف المعجم ، وليست مرتبة وفق المعانى .

واذا كان الميدانى قد اتبع طريقة الترتيب على حروف المعجم بالنسبة الى الحرف الأول الاصلى من المثل ، فانه لم يتبع هذه الطريقة فى الحرفين الثانى والثالث للكلمة ، وهى الطريقة الدقيقة التى يتبعها اليوم مصنفو الاعلام والفهــــارس . بل اكتفى بمراعاة الترتيب في الحرف الأول للكلمة فقط ، أما فى الحرف الثانى فلم يتبع ترتيبا معجميا ، فقد تأتى الهاء قبل الراء ، أو قبل العين مثلا ، كما يلاحظ فى ترتيبه للأمثال الآتية : عند التصريح تريح . عرفت الخيل فرسانها . العبد من لا عبد له . وكان الترتيب الصحيح على الحرف الثانى يقتضى أن يأتى المثل الثالث أولا ، والمثل الأول ثالثا .

ومثل هذا الترتيب الناقص فى كتاب « مجمع الأمثال » قد أشاع شيئا من الاضطراب فى ايراد الأمثال ، وخلق

للباحث بعض الصعوبة فى البحث . ولو انه اتبع طريقة الترتيب المعجمى بالنسبة الى الحـــرف الأول فالثانى فالثالث من الـكلمة لجنبنا بعض العناء فى البحث عن مثل نريده .

وانظر الى الأمثال الآتية فى حرف الطاء وما فيهـا من اضطراب : طارت عصا بنى فلان شققا ــ طرفته أم قشعم ــ طعن اللسان كوخز السنان ــ طرائيث لا أرطى لها ــ طالب عذر كمنجح ــ طلب أمرا ولات أوان ــ طار طائر فلان ــ طحت به البطنة ــ طعم ذكرك معسول بكل فم . وكان ترتيبها الصحيح على وفق الحرفين الأول والثانى هكذا :

طار طائر فلان ــ طارت عصا بني فلان شققا ــ طالب عذر كمنجح ــ طحت بك البطنة ــ طرائيث لا أرطى لها ــ طرقته أم قشعم ــ طعم ذكرك معسول بكل فم ــ طعن اللسان كوخز السنان ــ طلب أمرا ولات أوان .

وقد وقع هذا الاضطراب فى ترتيب الأمثال التى جاء أولهـا على وزن أفعـل . ففى الجيم ــ مثلا ــ جاءت هذه الأمثال ، علما بأن الف « افعل » زائدة فلا تدخل فى الاعتبار : أجهل من حمار ــ أجفى من الدهر ــ أجدى من الغيث . وكان الترتيب الصحيح هكذا : أجدى من الغيث ــ أجفى من الدهر ــ أجهل من حمار .

ومهما يكن من ملحـوظات على بعض الاضطراب فى الترتيب على حروف المعجم لأمثال الميدانى ، فان الكتاب فى جملته لا يزال على قدره من الشـــمول والاحاطة والتدوين للأمثال العربية التى كانت معروفة حتى القرن السادس ، الا ماند من الرجل فلم يستطيع أن يأتى به به ويسجله وهو قليل نادر . ولا شك أنه أنصف كل

الأمثال التى جاء أولها على وزن « افعــــل » . ولو أن الظاهر أن هذه الأمثال هى من موضوعات الرواة وليست من الأمثال العربية الأصيلة ، ويلاحظ الدكتور عبد المجيد عابدين أن هذه الأمثال على صيغة « افعل » هى مما تنفرد به اللغة العربية دون اخواتها السامية .

أما أمثال المولدين فقد أتى بها الميدانى فى كل حرف عقب الأمثال التى على وزن أفعل . وقد فعل خيرا كثيرا بتدوينها ، فهى تصور ألوانا مختلفــة من حياة المجتمع العربى وأفكاره وسـلوكه وفلسفته فى الحيـاة بعد أن اختلط العرب بالأعاجم ، ونشأ عن هذا الاختلاط ألوان من الفكر الاجتماعى تعبر عنهــا أمثال المولدين اصـدق تعبير . وما أصدق الأمثال الآتية للمولدين فى دلالتهــا على روح المجتمع العربى الاسلامى الجديد :

الدراهم بالدراهم تكسب ــ رأس المال أحد الربحين ــ ركوب الخنافس ولا المشى على الطنافس ــ زاد فى الطنبور نغمــة ــ الزريبة الخــالية خير من ملئها ذئابا . سـلطان غشوم خير من فتنــة تدوم ــ السـلف (يعنى الاقتراض) تلف ــ اسجد لقرد السوء فى زمانه ــ شر السمك يكدر الماء ــ طريق الحافى على أصحاب النعال ــ عناية القاضى خير من شاهدى عدل ــ الغائب حجته معه ــ فر من المطر وقعد تحت الميزاب !

هذا هو كتاب « مجمع الأمثال » فى أصله . وقد اهتم به قوم فاختصروه ولخصوه ، كما فعل قوم فى كتاب الأغانى ، ومعجم البلدان ، وتفسير ابن كثـير وغيرها . والتلخيص قديم فى تاريخ التراث العربى . وقد ذكر صاحب كشف الظنون أن الذى اختصر مجمع الأمثــال اثنان : أولهما شهاب الدين محمد بن أحمد القضاعى ،

وثانيهما الامام يوسف بن طاهر الخويى من تلاميـــذ الميدانى كما سبق القول . كمـــا ذكر أيضا أن بعض فضلاء الدولة العثمانية نظم الأمثال التى فى كتاب « مجمع الأمثال » شعرا . ووافق ذلك سنة ١٠٧٩ هـ والجنود العثمانيون محاصرون قلعة « قندية » من جزيرة افريطش « كريت » وأول المنظومة هكذا :

نحمد من علمنـــا الأمثـــالا
يسوقها فى قوله تعـــالى
ظاهرة ، طاهرة من نبوه
زاهرة كجنـــة من ربوه

ويذكر جرجى زيدان أن طبعة بيروت من كتاب « مجمع الأمثال » أتقن الطبعات (لأنها عبارة عن نظم الأمثال فى أرجوزة عليها شروح للشيخ ابراهيم الأحدب المتوفى فى بيروت سنة ١٣٠٨ هـ . وقد سماه « فرائد اللآل ، فى مجمع الأمثال » صدر فى مجلدين ضخمين ، يليهمـــا فهـــارس هجائية فى مائة صفحة ممـــا يجعـــل فـــوائده مضاعفة) . وزيدان صادق فى هذا الوصف فقد أطلعنا على هذا الـــكتاب فى هذه الطبعة النادرة ، وقلبنا النظر فيه ، وتمنينا لو كانت كتبنا فى التراث العربى مخدومة هذه الخدمة الصادقة .

القاموس المحيط

للفيروز أبادى

٧٢٩ هـ - ٨١٧ هـ

رجل فى عصره

عاش محمد بن يعقوب الفيروزابادى - الملقب بمجد الدين والمكنى بأبى الطاهر - فى القرن الثامن الهجرى ، وأدرك بضعة عشر عاما من القرن التاسع ، حيث توفى بمدينة زبيد من بلاد اليمن ، حيث استقر بها العشرين عاما الأخيرة من عمره ، مقربا من الملك الأشرف اسماعيل ابن رسول ملك اليمن ، وأحد ملوك الدولة الرسولية ، وموضع الاجماع من الثناء على علمه وحلمه وسياسته من جميع المؤرخين .

وقبل المضى فى حديثنا عن مؤلف كتاب القاموس المحيط يجدر بنا أن نلقى بعض الضوء على القرن الثامن الهجرى وأوائل القرن التاسع حيث عاش صاحبنا ثمانية وثمانين عاما . وحيث انتقل الى جوار ربه بعد هذا العمر الطويل ممتعا بحواسه وسمعه ، متميزا بحافظته القوية النادرة ، التى كانت تحفظ الأشياء بسرعة عجيبة ، وتستبقيها زمنا طويلا لا تكاد تفلت منها أو تند عنها . حتى لقد روى عنه مؤرخو سيرته ومترجمو حياته - وعلى رأسهم السخاوى صاحب « الضوء اللامع » ،

المقرى صاحب « ازهار الرياض » ، وابن حجر صاحب « أنباء الغمر » — انه كان يقول عن نفسه : (لا أنام حتى حفظ مائتى سطر) .

والقرن الثامن الهجرى وأوائل القرن التاسع اللذان عاش الفيروزابادى فيهما يمثلان فترة من الزمن ظهر فيها فى مصر الملك الناصر بن قلاوون حيث تولى سلطنته الثانية سنة ٦٩٨ هـ ، كما ظهر فى آخرها السلطان فرج بن برقوق السلطان المملوكى المصرى الذى حكم عليه مجلس الأئمة والفقهاء بالاعدام لاتهامه باختلاس الأموال وتخريب البلاد ، فقتل سنة ٨١٥ هـ ، اى قبيل وفاة الفيروزابادى فى اليمن بعام أو عامين .

وقد اجتمعت فى هذه الفترة الحافلة بالأحداث الجسام فى الامة العربية الاسلامية شخصيات سياسية هامة ، منها منصور بن شجاع صاحب تبريز ، والسلطان بايزيد العثمانى ، وأحمد بن أويس الجلائرى صاحب الدولة الجلائرية فى بغداد ، وهو مغولى مستعرب ، وقد جمع بين الظلم والعلم والأدب ، والطاغية التترى المسلم تيمورلنك الذى شن غاراته على البلاد العربية والإسلامية رغبة التوسع فى الفتوح ، والأشرف اسماعيل ملك اليمن . كما كان فى مصر الناصر بن قلاوون ، والأشرف شعبان حفيد الناصر ، من سلاطين دولة المماليك البحرية ، والظاهر برقوق وابنه السلطان فرج من سلاطين دولة المماليك الثانية المعروفة بدولة المماليك الشراكسة .

وعلى الرغم من ضعف الحركة العلمية والادبية فى هذه الفترة التى تدخل فى العصر الذى يسميه مؤرخو الادب العربى بالعصر المغولى ، ظهرت فيها حفنة من العلماء

الرؤساء والأئمـة الـكبار الذين برعوا فى علوم الفقه والحديث واللغـة ، واشتهروا بكثرة التصانيف وتنوع موضوعاتها . ومن هؤلاء الشيوخ «سراج الدين البلقينى» المولود بقرية بلقينة من أعمال الغربية بمصر ، وقد كان اماما فى فقه المذهب الشافعى ، والشيخ « زيد الدين العراقى » الذى اشتهر فى علوم الحديث ، والشيخ « سراج الدين بن الملقن » الذى برع فى الحديث والفقه، وكان فيهما على منزلة سواء ، والشيخ « شمس الدين الفنارى » الذى كان حجة فى المنطق والأصول والعلوم العقلية ، وكان مقربا من السلطان بايزيد العثمـانى ، ومعدودا من أكبر علمـاء وقته ، والشيخ « عبد الله محمد بن عرفة » صاحب المبسوط والمختصر فى فقه المالكية الذى كان اماما فيه ، والامام المؤرخ « عبد الرحمن ابن خلدون » صاحب التاريخ الـكبير والمقدمة المشهورة بمقدمة ابن خلدون ـ وقد فطن فى اضافته الى أئمة ذلك العصر « المقرى » المؤرخ صاحب نفح الطيب ، وأزهار الرياض ـ والشيخ مجد الدين الفـيروزابادى صـاحب القاموس المحيط ، الذى كان اماما وحجة فى اللغـة فى وقته .

من هنا نرى ان محمـد بن يعقوب الفيروزابادى كان واحدا من حفنة كريمة قليلة من العلماء الأكابر الذين ملأوا الدنيا بعـلمهم فى عصرهم . والى هـذه الحقيقة يشير المؤرخ طاشكبرى زاده فى كتـابه « الشقائق النعمانية » الذى ترجم فيه لصاحب القـاموس المحيط ترجمة نقلها عنه المؤرخ المقرى فى « أزهار الرياض » ، واستدرك عليهـا باضافة ابن خلدون المؤرخ الى حفنة العلماء والرؤساء كما سبق القول .

وقد التقى الشيخ مجد الدين الفيروزابادي بأكثر أولئك السلاطين والملوك الذين ذكرناهم قبلا ، ولقى الحظوة عندهم جميعا كما سيجىء فى موضعه .

من هو الفيروزابادي ؟

اشتهر صاحب القاموس بالفيروزابادى ، كما اشتهر باسم الشيخ مجد الدين الشيرازى ، فهنا نسبتان الى بلدين : أولهما فيروزاباد ، والثانى شيراز ، كما ان هناك نسبة الى كارزين ، وهى ايضا بلدة بفارس ولد بها صاحبنا ، كما يصرح هو بذلك فى مادة (كرز) من القاموس المحيط . فيقول (وكارزين بلد بفارس منه محمد بن الحسن — أو الحسين — مقرىء الحرم ، وبه ولدت) أما فيروزاباد فبلد بفارس كما يقول فى القاموس، وهى بفتح الفاء وقد تكسر . وفيها والده وجده . أما النسبة الى شيراز ، فلأنها البلد الذى انتقل اليه من كارزين وهو ابن ثمانى سنين ، فتعلم فيه وأخذ الأدب واللغة عن والده ، وعن « القوام بن النجم » وغيرهما من علماء شيراز . على أن نسبة الشيرازى جاءته أيضا من انه كان يرتفع بنسبه الى الشيخ « أبى اسحاق الشيرازى » الذى كان امام وقته فى بغداد فى القرن الخامس الهجرى ، والذى سأله الوزير نظام الملك حين بنى مدرسته النظامية ببغداد أن يتولاها فلم يفعل أول الأمر ، ثم قبل بعد ذلك . فكان يديرها ويدرس فيها الى أن توفى سنة ٤٧٦ هـ . وقد اجتمعت له امامة الأمة العربية وافتاؤها ، كما اشتهر بقوة الحجة فى الجدل والمناظرة ، وهو صاحب كتاب « التنبيه » فى الفقه الشافعى .

ومن الأوهام التي جاءت حول مولد الفيروزابادي ما جاء في النسخة المطبوعة من « الضوء اللامع » للسخاوي من أن الفيروزابادي ولد بكازرون من أعمال شيراز . وظاهر أن هذا تحريف من النساخ ، وتصحيف من الطابع . فان الفيروزابادي نفسه قد صرح في مادة (كرز) من القاموس المحيط بأنه ولد في « كارزين » لا « كازرون » . وقد وقع الوهم أيضا في كتـــاب طاشكبري زاده المعروف بالشقائق النعمانية ، والمطبوع على هامش كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ، فقد ذكر فيهـ ص٩٣ـ انه ولدبكازرين ـ أي بتقديم الزاي المعجمة على الراء المهملة ـ والصواب ما حققناه من أن البلدة التي ولد فيها صاحب القاموس هي « كارزين » بتقديم الراء المهملة على الزاي المعجمة .

واسمه ـ كمـــا جاء في الضوء اللامع ـ محمد بن يعقوب بن محمد بن ابراهيم بن عمر بن أبي بكر بن أحمد ابن محمود بن ادريس بن فضل الله بن الشيخ ابي اسحاق ابراهيم . وقد قيل في نسبة صاحب القاموس المحيط الى الشيخ أبي اسحاق الشيرازي كلام يرمي الى الطعن في هذه النسبة ، بحجة أن الشيخ ابا اسحاق لم يعقب حتى يجيء من ولده صاحب القاموس . واول من قاد حملة الطعن هذه تلميـــذه المؤرخ المصري المولد والوفاة الامام ابن حجر حيث قال في كتابه « أنباء الغمر ، بأبناء العمر » : (كان يرفع نسبه الى الشيخ ابي اسحاق الشيرازي صاحب « التنبيه » ، ويذكر أن بعد عمر أبا بكر بن أحمد بن أحمد بن فضل الله بن الشيخ أبي اسحاق . ولم ازل اسمع مشـــاهير مشايخنا يطعنون في ذلك ، مستندين الى أن الشيخ ابا اســحاق لم يعقب) ويزيد المؤرخ ابن حجر في الطنبور نغمة فيذكر أن الشيخ مجد الدين

الفيروزابادي ارتقى درجة ! فادعى — بعد أن ولي قضاء اليمن بمدة طويلة — أنه من ذرية أبي بكر الصـــديق رضي الله عنه ، وزاد الى حد أنه كان يوقع بخطه لبعض نوابه في القضاء في بعض كتبه : « محمد الصديق » . وقد شاهد مؤرخنا ابن حجر الخطوط والتوقيعـات بنفسه ، ولم يكن عنده من الأدلة القـاطعة ما يدفـع به نسبة صاحب القاموس المحيط الى أبي بكر الصديق ، فما كان عنده من أدلة الانكار لهذا النسب الا قوله : (ان النفس تأبى قبول ذلك) .

لمحة من حياة

ولد صاحب القـاموس المحيط بكارزين احدى قرى فارس — كما سبق القول — سنة ٧٢٩ هـ ، وكانت ولادته بعد وفاة « ابن منظور الافريقي » صاحب لسان العرب بثمـاني عشر سنة . فقـد توفى ابن منظور سنة ٧١١ هـ . ولا خلاف بين مؤرخي سيرة الفيروزابادي على تاريخ مولده ، فهو متفق عليه ، أما الخلاف ففي تاريخ وفاته كما سيجيء . ويذكر مؤرخنا المصري ابن حجر في « أنباء الغمر » أنه تفقه ببلاده ، وسمع صحيح البخاري على محمد بن يوسف الزرندي ، وعلى بعض اصحاب الرشيد بن أبي القاسم ، ونظر في اللغة ، فكانت جل قصده في التحصيل ، فمهر فيها ، الى أن تميز وفاق أقرانه. ودخل الديار الشامية بعد الخمسين، فسمع بها وظهرت فضائله ، وكثر الآخذون عنه ، ثم دخل القاهرة ، ثم جال في البلاد الشمالية والشرقية ، ودخل الهند ، وعاد منها على طريق اليمن قاصدا مكة ، ودخل زبيد — بفتح الزاي — فتلقـاه الملك الأشرف اسماعيل

بالقبول ، وكان ذلك بعد وفاة « جمال الدين الريمى » قاضي الأقضية باليمن كله ، فقرره الملك الأشرف مكانه، وبالغ في اكرامه ، فاستقرت قدمه بزبيد ، واستمر في ذلك الى أن مات . ويذكر مؤرخنا ابن حجر أنه اجتمع بالفيروزابادى فى مدينة زبيد باليمن وفى وادي الخصيب، وان المترجم له ناوله جل القاموس وأذن له فى المناولة أن يرويه عنه ، وأنه قرأ عليه من حديثه عدة أجزاء ، وأنه سمع منه المسلسل بالأولية لسماعه من السبكى ، وأنه كتب له تقريظا على بعض تخريجاته ، وانه أنشده لنفسه فى سنة ثمانمائة بيتين من شعره كان شاعرنا المصرى الصلاح الصفدى قد كتبهما عنه فى سنة سبع وخمسين وسبعمائة بدمشق . وقد ذكره ابن حجر فى وفيات سنة ٨١٧ هـ - وهذا التاريخ لوفاة الفيروزابادى وفق رواية ابن حجر ، يطابق ما ذكره السخاوى صاحب « الضوء اللامع » ، وهما موثقان فى هذا التاريخ ، فقد كان المؤرخ ابن حجر تلميذا لصاحب القاموس وراويا عنه، كما كان السخاوى تلميذا لابن حجر . وهناك مؤرخ ثالث متأخر فى الزمن عن ابن حجر والسخاوى هو احمد مصطفى طاشكبرى زاده صاحب كتابى « الشقائق النعمانية » و « مفتاح السعادة » يذكر أن وفاة الفيروزابادى كانت (سنة ست أو سبع عشرة وثمانمائة) . وقد نقل المرحوم جميل بك العظم هذه الرواية حين ترجم لصاحب القاموس المحيط فى كتابه « عقود الجوهر ، فى تراجم من لهم خمسون تصنيفا فمائة فاكثر » .

ملامح نفسية

تكشف لنا التراجم التي تناولت حيـــاة صـــاحب القاموس المحيط عن جوانب من الرجل ، كما ترسم لنا وجوها من ملامحه النفسية التي صاحبته خلال الأعوام الثمانية والثمانين التي عاشها ، والتي لم يفقده الكبر والشيخوخة العالية واحدا منها .

وأول ما يلفت النظر في سيرة مجد الدين الفيروزابادى هو ذلك التواضع الشديد الذى جمله الله به . وقد بلغ من تواضعه أنه لم يذكر اسمه فى أول القــاموس المحيط ، وانما ذكره فى آخره ـ على ما جاء فى بعض النسخ الخطية ـ قائلا (قال مؤلفه الملتجىء الى حرم الله محمد بن يعقوب الفيروزابادى : هذا آخر القـــاموس المحيط ، والقابوس الوسيط ، عنيت بجمعه وتأليفه ، وتهذيبه وترصيفه ، ولم آل جهدا فى تلخيصه وتخليصه واتقانه ، راجيا أن يكون خالصـــا لوجه الله الكريم ورضوانه . وقد يسر الله اتمامه بمنزلى على « الصفا » بمكة المشرفة تجاه الكعبة المعظمة ، زادها الله تعظيما وشرفا) .

وكان الفيروزابادي شديد الافتخار بقربه من المشعر الحرام ، وباتمامه القاموس المحيط فى الدار التى بناها بالصفا . ولم يفته فى مادة (ص . ف . و) من معجمه الشهير أن يشير الى هـــذه الدار قائلا : (والصفا من مشاعر مكة ، بلحف أبى قبيس ، وابتنيت على متنه دارا فيحاء ..) وورود هذا الخبر فى مادة لغوية لا يفيـد قضية اللغة بشىء قدر ما يفيد الاخبار عن نفسه ، فان اللغوى لا يهتم بمثل هذه الأخبار الشخصية . ولـكن

الفيروزابادي كان مدفوعا هنا بعامل الافتخار بالقرب من بيت الله الحرام ، الذى كان دائما شديد التوق اليه ، والشوق الى السكن في رحابه .

وكان عند الفيروزابادى غرام شديد بتحصيل الكتب مهما كانت أثمانها ، ومهما عزت نسخها ، فهو لا يضن على اقتناء كتاب بأى ثمن مهما ارتفع . وقد روى بعض مترجمي سيرته أنه كان لا يفارق الكتب فى ظعن ولااقامة، ولا يبتعد عنها فى مقام ولا سفر . فكان لا يسافر الا وصحبته عدة أحمال كثيرة من الكتب . فاذا نزل منازل على الطريق أخرج الكتب من أماكنها ونظر فيها ، وقضى منها لبانته . فاذا فرغ من ذلك أعادها واستأنف رحلته على الطريق .

على أن هذا الولوع الشديد بجمع الكتب ونفائس المؤلفات وثمين المخطوطات كان يجتمع معه ـ من ناحية اخرى ـ غرام شديد بالانفاق ، وميل بالغ الى التبذير، فما كان الرجل يمسك فى راحتيه مالا ، ولا يبقى فى كفه دينارا ، فاذا ضاع ماله بكثرة الأنفاق والتبذير عمد الى كتبه يبيعها وينفق مما اجتمع له من ثمنها . وندع المؤرخ المصرى السخاوى يقول عن ناحية عدم أمساك المال فى راحتيه : (وكذا كانت له دنيا طائلة ، ولكنه كان يدفعها الى من يمحقها بالاسراف فى صرفها ، بحيث يملق أحيانا ويحتاج لبيع بعض كتبه ، فلذلك لم يوجد له بعد وفاته ما كان يظن به ...) .

ويبدو أن مؤرخنا السخاوى قد نقل بعض هذا الخبر عن الامام ابن حجر الذى ترجم للفيروزابادى فى « أنبائه » أو سمعه منه مشافهة ثم زاد عليه بغبارته ، فان عبارة ابن حجر لا تتجاوز هذا النص : (وحصل

ـ يعنى صاحب القاموس ـ دنيا طائلة وكتبا نفيسة ، لكنه كان كثير التبذير ، وكان لا يسافر الا وصحبته عدة احمال من الكتب ، ويخرج أكثرها فى كل منزل ينظر فيها ويعيدها اذا رحل ، وكان اذا املق باعها ..) . وقد حفظت لنا هذه العبارة فى الترجمة التى اوردها المقرى فى ازهار رياضه نقلا عن « أنباء الغمر بأبناء العمر » .

وكان للفيروزابادى ابنة مفرطة الجمال ، فتزوجها الملك الأشرف اسماعيل بن رسول ملك اليمن لمزيد جمالها . ومن هنا كانت دالة صاحب القاموس المحيط على الملك الأشرف . فقد نال بهذا الزواج عنده برا ورفعة ، وبلغ من بر الأشرف به أن الفيروزابادى صنف كتابا وأهداه الى الأشرف على أطباق فملأها الملك له دراهم . وهذا الخبر قد نقله السخاوى أيضا عن الحافظ المؤرخ ابن حجر . وبلغ من اعتزاز الأشرف بالفيروزابادى وحرصه على أن يكون دائما قريبا منه أن صاحبنا رام أن يخرج من اليمن قاصدا مكة لمجاورة بيت الله الحرام بعد أن زاد شوقه اليه ، فكتب الى الملك الأشرف رسالة يستأذنه فيها بالخروج . ونثبت هنا نص الرسالة لما فيها من دلالة على طريقة الفيروزابادى فى النثر ، وأدبه فى المراسلة ، ولطفه فى المداخلة : (ومما ننهيه الى العلوم الشريفة ضعف العبد ، ورقة جسمه ، ودقة بنيته ، وعلو سنه . وقد آل أمره الى أن صار كالمسافر الذى تحزم وانتعل ، اذ وهن العظم والرأس اشتعل ، وتضعضع السن ، وتقعقع الشن ، فما هو الا عظام فى جراب ، وبنيان قد أشرف على الخراب ، وقد ناهز العشر التى تسميها العرب « دقاقة الرقاب » . وقد مر على المسامع الشريفة غير

مرة في صحيح البخاري قول رسول الله صلى الله عليه وسلم . « اذا بلغ المرء ستين سنه فقد أعذر الله اليه » . فكيف من ينيف على السبعين وأشرف على الثمانين ؟ ولا يجمل بالمؤمن أن يمضي عليه أربع سنين ، ولا يتجدد له شوق وعزم الى بيت رب العالمين ، وزيارة سيد المرسلين .

وقد ثبت في الحديث النبوى ذلك ، والعبد له ست سنين عن تلك المسالك ، وقد غلب عليه الشوق ، حتى جل عمره عن الطوق . ومن أقصى أمنيته أن يجدد العهد بتلك المعاهد ، ويفوز مرة أخرى بتلك المشاهد ، وسؤاله من المراحم العلية الصدقة عليه بتجهيزه في هذا العام ، قبل اشتداد الحر وغلبة الأوام ، فان الفصل أطيب ، والريح أزيب . وأيضا كان من عادة الخلفا ، سلفا وخلفا ، أنهم كانوا يبردون البريد لتبليغ سلامهم لحضرة سيد المرسلين ، صلوات الله وسلامه عليه ، فاجعلني — جعلني الله فداك — ذاك البريد ، فلا أتمنى شيئا سواه ولا أريد :

شوقي الى الكعبة الغراء قد زادا
فاستحمل القلص الوخادة الزادا
واستأذن الملك المنعام زيد علا
واستودع الله أصحابا وأولادا . .

فلما بلغ هذا الكتاب حضرة الأشرف كتب على طرته هذه السطور : (ان هذا الشيء ، ما ينطق به لساني ، ولا يجرى به قلمي . فقد كانت اليمن عمياء فاستنارت ، فكيف يمكن أن نتقدم — أى نعطي لك الأمر بالخروج — وأنت تعلم أن الله قد أحيا بك ما كان ميتا من العلم ؟ فبالله عليك الا ما وهبت لنا بقية هذا العمر . والله

يا مجد الدين ! يمينا بارة ، انى ارى فراق الدنيا ونعيمها ولا فراقك . أنت اليمن وأهله ...) وهكذا كتب صاحب القاموس المحيط الى الملك الأشرف يستأذنه فى الخروج ... الخروج الى أشرف البقاع ، فكتب له الملك يطلب منه البقاء فى اليمن التى كانت مظلمة فأضاءها بنور علمه .

وقد رزق الفيروزابادى حظا عظيما فى علاقاته مع الناس ؛ وصلاته مع الكبراء والرؤساء ، وجمع الى فضيلة الحظ العظيم مزية الخط الجميل . فكان — كما يقول الفاسى — له خط جيد مع السرعة . فاذا تأنى بلغ من الجودة والجمال شيئا كثيرا . وبلغ من حظه أنه — كما قال صاحب الضوء اللامع — لم يقدر له أنه دخل بلدا الا واكرمه متوليها وبالغ فى اكرامه . فقد لقى كل اكرام وترحيب من ابن شجاع صاحب تبريز ، والأشرف شعبان سلطان مصر ، والأشرف اسماعيل ملك اليمن ، وبايزيد العثمانى سلطان الدولة العثمانية ، وأحمد بن أويس الجلائرى صاحب بغداد — وقد وهم أحمد عبد الغفور عطار مؤلف كتاب الصحاح فجعله ابن ادريس (١) . وتيمور لنك التترى . وقد بلغ من احسان تيمورلنك الى الفيرزابادى أنه حين اجتمع به عظمه وأنعم عليه بمائة ألف درهم كما يقول التقى الكرمانى .

لقاءات

لقد التقى الفيروزابادى بشخصيات سياسية هى التى ذكرناها هنا قبل أسطر ، على أنه فى كل الأقطار العربية

---

(١) لقد جاء هذا الوهم من ورود هذا الاسم هكذا فى مقدمة القاموس المحيط ص ٢ . وهو تصحيف مطبعى وقع فيه الناقل وجاراه بدون تحقيق .

والاسلامية التى نزلها قد التقى بكثير من العلماء والأدباء والشعراء . فأخـذ عن كثير من الشيوخ فى كل أرض عربية ، واخذ عنه تلاميذ كثيرون من مشهورى الرجال في عصرهم ، ومن الشيوخ الذين سمع عنهم الفيروزابادى وأخذ منهم فى دمشق : ابن الخباز ، وابن القيم ، وابن الحموى ، واحمد بن مطر النابلسى ، والشيخ تقى الدين السبكى . أما فى القدس فقد أخذ عن العلائى والبيانى ، وفى مصر أخذ من القلانسى ، وناصر الدين التونسى ، وابن نباتة ، والفارقى ، والعرضى ، والعز بن جماعة . وفى مكة أخذ عن خليل المالكى الفقيه المشهور صـاحب « المختصر » فى فقه مالك ، والتقى الحرازى .

وفى مصر ايضا التقى صاحبنا بالأديب الشاعر المؤرخ الصلاح الصفدى الذى أخذ عنه ، كما اخذ عنه فيها البهاء بن عقيل ، والجمـال الأسنوى ، وابن هشـام النحوى . اما ابن حجـر العسقلانى المؤرخ المصرى المشهور فقد اجتمع به فى مدينة زبيد باليمن وفى الوادى الخصيب ، وناوله جل القـاموس كما ذكر ذلك فى « انبائه » ، وفى « رفع الأصر عن قضاة مصر » حـ ١ ص ٨٧ .

الفيروزابادى بين الشعر والنثر

اذا كان صاحب القاموس المحيط قد اشتهر بكثرة محفوظه من الرصيد اللغوى الذى ملأ به معجمه ، فان كتبه ومصنفاته الكثيرة تدل على تمكنه من علوم مختلفـة ، وخاصة فى الحديث والتفسير والفقه . وتعطينا الرسالة التى كتبها الى الملك الأشرف بن رسول مستأذنا فى السـفر الى مكة ، كما تعطينا المقدمة التى كتبها للقـاموس المحيط

نموذجا من نثره . وقد كان فى الرجل ميل الى استعمال الغريب غير المأنوس من الألفاظ ، كما كان يجرى فى السجع وصناعة البديع على مذهب عصره .

وبلغ من استحضار الفيروزابادى للغريب من اللفظ أنه روى عنه غير واحد أنه لما سئل عن معنى قول الامام على ابن أبى طالب لكاتبه : « الصق روانقك بالجيوب ، وخذ المزبر بشناترك ، واجعل حندوريتك الى قيهلى ، حتى لا أنفي نفية الا أودعتها حماطة جلجلانك » أجاب على الفور : ان معناه : « الزق عضرطك بالصلة ، وخذ المسطر بأباخسك ، واجعل حجمتيك الى أثعبانى ، حتى لا أنبس بنسبة الا وعيتها فى لمظة رياطك » . فتعجب الحاضرون من سرعة جواب الفيروزابادى بما هو أبدع وأغرب من السؤال .

وتصادفنا فى مقدمة القاموس المحيط ألفاظ كثيرة جدا بالغة الحد فى الاغراب ، مما حدا بكثير من العلماء أن يتناولوا هذه الديباجة أو المقدمة بالشرح ، من أمثال العلامة المناوى ، والسيد مرتضى الزبيدى صاحب تاج العروس فى شرح القاموس، والقرافى الذى شرحها فى خمسة كراريس صغار أسماها « القول المأنوس » ، وعيسى بن عبد الرحيم الكجراتى ، وابن الطيب ، والشيخ نصر الهورينى من علماء مصر فى القرن الماضى ، وقد جمع بين شروحها المختلفة وشرح لطيف صدرت به احدى طبعات القاموس .

ومن غريب الألفاظ فى هذه المقدمة : العبهر ، والثوادى ، والخوادى ، والكوادى وأشباهها ؟!

ويؤكد التقى الكرمانى أن الفيروزابادى كان عديم النظير فى زمانه نظما ونثرا ، وكان يكتب وينظم بالفارسية

والعربية . كما يذكر الفاسى ان له شعرا كثيرا ، وأن نثره أعلى من **شعره** .

على أن ما وصل الينا من شعره قليل جدا يبلغ حد الندرة ، ولا ندرى أين ذهب البلى به ؟ فما ذكر واحد من مؤرخى حياته ان له ديوانا مجموعا من الشعر على كثرة ما سجلوا له من المصنفات .

وقد كتب عنه المؤرخ الشاعر الأديب صلاح الدين الصفدى بيتين من الشعر كان قد أخذهما عنه فى أثناء لقائهما بدمشق . والبيتان هما :

أحبتنا الأماجد ان رحلتم
ولم ترعوا لنا عهدا والا
نودعكم ونودعكم قلوبا
لعل الله يجمعنا ... والا ...

ولا يخلو هذا النظم من الصنعة البديعية . كالجناس التام بين لفظتى « والا » ، فهى فى البيت الأول اسم بمعنى العهد والذمة المرعية . وفى البيت الثانى مكونة من ان الشرطية ، ولا النافية ...

وقد روى المقرى فى « أزهار الرياض » ثلاثة أبيات للفيروزابادى قالها حين قرأ بدمشق بين بابى النصر والفرج على ناصر الدين بن جهبل صحيح مسلم فى ثلاثة أيام ، فقال على سبيل الافتخار :

قرأت بحمد الله جامع مسلم
بجوف دمشق الشام جوفا لاسلام
على ناصر الدين الامام بن جهبل
بحضرة حفاظ مشاهير اعلام
وتم بتوفيق الاله بفضله
قراءة ضبط فى ثلاثة أيام ...

ويعلق المقرى على هذا قائلا : (ان هذا من أغرب ما منح الله تعالى المجد مؤلف القاموس المذكور ، فسبحان الذى يؤتى فضله من يشاء) . ولم يقل لنا المقرى من اين روى هذه الأبيات ؟

ومن النظم الذى يضبط الحفظ ذكروا أن الفيروزابادى كتب على احدى نسخ القاموس المحيط بخطه لنفسه :

اذا رمت فى القاموس كشفا للفظة
فآخرها للباب والبدء للفصل
ولا تعتبر فى بدئها وأخيرها
مزيدا ، ولكن اعتبارك بالأصل

كما قالوا انه صاحب البيتين الآتيين فى رموز القاموس المحيط ، وهى (ع ــ د ــ ة ــ ج ــ م) وهى رموز استعملها صاحب القاموس على سبيل الاختصار ، وجعل مفتاحها هذين البيتين :

وما فيه من رمز فخمسة أحرف
فميم لمعروف وعين لموضع (١)
وجيم لجمع ، ثم هاء لقرية
وللبلد الدال التى أهملت ، فع

ويظهر ان نظم الفيروزابادى صاحب القاموس المحيط من هذا الضرب التعليمى أو التقليدى ، وان ملكة الرجل فى اللغة وفى الثروة اللغوية الواسعة وجمع مواد الكلمات قد غلبت على ملكة الشعر عنده وزاحمتها ، فبدا ما أثر لنا من نظمه هزيلا لا يتفق مع ما قيل من أنه كان عديم النظير فى زمانه نظما ونثرا .

---

(١) ينسب المقرى هذين البيتين الى عبد الرحمن بن معمر الواسطى ، مع أنهما فى تاج العروس للزبيدى منسوبان الى الفيروزابادى نفسه .

آثار الفيروزابادى فى التصنيف

ما لقى كتاب من القبـــول والرواج بين القراء مثل ما لقيه القاموس المحيط للفيروزابادى . ويقول ابن الطيب الفاسى فى هذا الصدد : (وقد سارت الركبان بتصانيفه – لا سيما القاموس – فانه أعطى قبولا كثيرا) . ويقول جرجى زيدان : (أما القاموس فانه من أكثر المعاجم تداولا بين أيدى الكتاب ..) . وقد دارت حول القاموس المحيط مناقشات كثيرة ، ودراسات متعددة ، ظهرت فى كتب مستقلة كبيرة أو صغيرة،مابين شروح ونقود واستدراكات وتصويبات وتهذيب واختصار . ولم يكن الفيروزابادى مقلا فى التأليف ، أو متخففا فى التصنيف ، بل كان طويل الباع فى هذا الميدان ، ورزقت كتبه كلهـــا عند القراء حسن القبـــول فى عصره ، وسارت بتصانيفه الركبان ، كما يقول الفاسى ، وعنه نقل المقرى صاحب ازهار الرياض .

ولم يبق لنا الزمان من كتب الفيروزابادى المطبوعة غير القاموس المحيط فى أجزائه ، وكتـــاب « بصائر ذوى التمييز ، فى لطائف الكتاب العزيز » الذى نشره المجلس الأعلى للشئون الاسلامية من سنوات بتحقيق الأســتاذ المرحوم الشيخ محمد على النجار . أما الكتب التى ذكرها صاحب الضوء اللامع فمـــا تزال مخطوطة أو مجهولة المكان ، ومنها « تنوير المقياس ، فى تفسير ابن عباس » ، و « الدر النظيم ، المرشد الى مقاصد القرآن العظيم » و « شرح خطبة الكشاف » و « منح البارى ، بالسيل الفسيح الجـارى ، فى شرح صحيح البخارى » ، و « المرقاة الوفية ، فى طبقات الحنفية » ، و « البلغة ، فى تراجم أئمة النحو واللغة » و « نزهة الأذهان ، فى

تاريخ أصبهان » ، و « منية السـول ، فى دعوات الرسول » ، و « المتفق وضـعا ، المختلف صقعا » ، و « مقصود ذوى الألبـاب ، فى علم الاعراب » ، و « تحبير الموشين ، فيما يقال بالسين والشين » ، و « الروض المسلوف ، فيما له أسمان الى الألوف » ، و « أنواء الغيث ، فى أسماء الليث » ، و « زاد المعاد ، فى وزن بانت سعاد » ، و « اللامع المعلم العجاب ، الجامع بين المحكم والعباب » ، وهو الكتاب الضخم الذى لم يتمه واختصر منه القاموس المحيط . وقد ذكر المرحوم جميل العظم (١) مؤلفات الفيروزابادى مرتبة على حروف المعجم ، فبلغ عددها ستين مصنفا ، ولولا ضيق المقام لأتينا هنا بأسمائها .

ويمكننا أن نقـول كلمـة موجزة عن « بصائر ذوى التمييز » بعد أن تم طبعه وتيسر الانتفاع به ، فهو الأثر الذى قدر له الظهور من مؤلفـات الفيروزابادى بعد القاموس المحيط . وقد صدره مجد الدين بمقدمة فى علوم القرآن والمباحث الهـامة المتصلة به ، كالنسخ ، والاعجاز ، ووجوه المخاطبات ، وترتيب نزول السور ، ويلى ذلك فصول تتعلق بالسور على وفق ترتيبها فى المصحف ، وعدد آى القرآن وكلماته وحروفه ، وتفسير مفرداته ، أو الأنبياء المذكورين فيه ، وقصصهم .

القاموس المحيط

هـذا الكتاب هو أهم ماتركه لنـا الفيروزابادى من مؤلفات ، واسمه الكامل : « القاموس المحيط ، والقابوس

(١) أنظر كتاب « عقود الجوهر » لجميل العظم ، ص ٣٠٢ وما بعدها

الوسيط ، فيما ذهب من لغة العرب شماطيط » . وقد اقتصر المؤلف نفسه في مقدمة الكتاب على اسم « القاموس المحيط » وان كان الاسم قد جاء بطوله كاملا فى مقدمة بعض النسخ التى كتبها كتاب متاخرون . على أنه قد جاء فى آخر الكتاب من كلام المؤلف قوله : (هذا آخر القاموس المحيط ، والقابوس الوسيط) فاقتصر على نصف التسمية الكاملة . وكلمة شماطيط من الأدلة على ميل المؤلف الى الاغراب بغرائب الألفاظ ، ومعناها : متفرقة . يقال : قوم شماطيط أى متفرقون .

ويوضح لنا مجد الدين غرضه من تاليف هذا الكتاب بقوله : (وكنت برهة من الدهر ألتمس كتابا جامعا بسيطا ،ومصنفا على الفصح والشوارد محيطا ،ولما اعيانى الطلاب ، شرعت فى كتابى الموسوم باللامع المعلم العجاب، الجامع بين المحكم والعباب ، فهما غرة الكتب المصنفة فى هذا الباب) والمحكم اللغوى لابن سيده من علماء القرن الخامس بالأندلس ، وهو صاحب كتاب«المخصص» المشهور ، والعباب هو المعجم الذى صنفه الصغانى من علماء القرن السابع الهجرى .

ويكشف لنا هذا عن هدف المؤلف من قاموسه ، وهو جمع الفصيح والغريب من الفاظ اللغة العربية ، وضم شوارد الكلمة مع التبسيط فى العرض ، والعدول عن الافاضة التى كان قد أرادها فى كتابه المطول الموسوم باللامع . فالقاموس المحيط هو تلخيص أو إيجاز لمعجم لغوى مطول كان الفيروزابادى شرع فى تصنيفه ولم يتمه . وقد راعى المؤلف الا يكون هذا التلخيص مخلا بالمعانى والمبانى ، فقال : (وسئلت تقديم كتاب وجيز ـ يعنى القاموس المحيط ـ على ذلك النظام ، وعمل مفرغ

فى قالب الايجاز والاحكام ، مع التزام اتمام المعانى ، وابرام المبانى ، فصرفت صوب هذا القصد عنانى ..) .

منهج تصنيف القاموس المحيط

لقد وضع الفيروزابادى لنفسه منهجا فى تصنيف القاموس المحيط ورسم خطة ، وقد سماها هو : فرائد وفوائد . وقد يسميها بعضهم مزايا ومحاسن . على اننا نؤثر أن نسميها : المنهج . ويشتمل على ما يأتى :
(١) حسن الاختصار . ومن بديع هذا الاختصار أنه اذا ذكر صيغة المذكر اتبعها المؤلف بقوله : « وهى بهاء » ، فلا يعيد الصيغة المؤنثة . وأنه اذا ذكر المصدر مطلقا او الماضى بدون المضارع فالفعل على مثال : كتب . واذا ذكر المضارع بلا تقييد فالفعل على مثال : ضرب ،اى بكسر العين فى المضارع . واذا عرى الكلمة عن الضبط فانها بالفتح الا ما كان مشتهرا بخلاف ذلك . ولجأ الى الرموز طلبا للايجاز الشديد ، فجعل حرف ع رمزا للموضع ، وحرف د رمزا لبلد ، والهاء أو التاء المربوطة رمزا لقرية، وحرف ج رمزا لكلمة جمع، وحرف م رمزا لكلمة معروف
(٢) تهذيب الكلام وايراد المعانى الكثيرة فى الألفاظ اليسيرة . ويتصل هذا بالبند السابق من المنهج
(٣) تخليص الواو من الياء ، وذلك بأن يقع فى آخر الكلمة همزة أو ألف يحتمل كونها مبدلة من واو أو ياء ، مثل سماء ، فالهمزة هنا أصلها واو . ومثل سعى ، فالألف هنا مبدلة من ياء . ومثل غزا فالألف أصلها واو . وهذا باب من الصرف يعجز الطالبين (٤) لا يذكر ما جاء من جمع « فاعل » المعتل العين على وزن « فعلة » الا أن يصح موضع العين منه ، مثل جائل وجمعها : جولة .

أما ما جاء معتلا كباعة ، وسادة ، وقادة فلا يذكره لكونه مطردا . ولم يكن الفيروزابادي سابقا فى هذا ، فقد سبقه اليه الازهرى وابن سيده (٥) اهتمامه بالصيغ القياسية المطردة ، فلا يهمل الاشارة اليها لاشتهارها ، بل كثيرا ما يعنى بها ويقدمها على غيرها .

واذا كان الفيروزابادى قد صرح فى مقدمة القاموس بأنه موجز لكتابه المطول : اللامع ، وأن اللامع جامع لما فى المحكم والعباب ، فليس معنى هذا انه وقف أخذه المادة اللغوية على هذين المعجمين ، فاننا نراه فى مواطن كثيرة يأخذ من « التهذيب » للأزهرى ، ومن « الصحاح » للجوهرى ، ومن « الجمهرة » لابن دريد ، ومن كتاب « العين » للخليل بن أحمد . وسواء أخذ الفيروزابادى عن هذه الكتب اللغوية مباشرة ، أو نقل منها عن طريق المعاجم الاخرى التى كان يأخذ بعضها عن بعض ، فانه ــ ولا شك ــ قد أحسن الأخذ وتصرف فى النقل بما يتفق ومنهجه فى تصنيف القاموس المحيط ، بل كثيرا ما كان له موقف خاص مع « الصحاح » للجوهرى تراه واضحا بارزا فى أكثر مواد القاموس بالتعقيب والاستدراك والزيادة عليه ، والكشف عن الأوهام التى يقول انه عثر عليها فيه . ولم يكتف الفيروزابادى بهذا الموقف الواضح المضاد من الجوهرى وصحاحه ، بل رأى أن يشير اليه صراحة فى مقدمة القاموس المحيط ، حتى لا يتهم بالتحامل عليه قائلا : (ولما رأيت اقبال الناس على صحاح الجوهرى ــ وهو جدير بذلك ــ غير انه فاته نصف اللغة أو أكثر ، اما باهمال المادة ، أو بترك المعانى الغريبة الشاذة ، أردت أن يظهر للناظر ــ بادىء بدء ــ فضل كتابى هذا عليه ، فكتبت بالحمرة المادة المهملة لديه ،

وفى سائر التراكيب تتضح المزية بالتوجه اليه ...) .

فالفيروزابادى هنا لا يخفى فى المقدمة تعقبه لصحاح الجوهرى ، ولا يخفى أن يصرح بأنه قد فاته أكثر من نصف اللغة . وقد نصب صاحب القاموس المحيط نفسه لاتمام هذا النقص الذى جاء فى « الصحاح » ، ولكنه لم يبلغ ما يريد ، فان ما جاء فى صحاح الجوهرى أربعون ألف مادة لغوية ، وما جاء فى لسان العرب لابن منظور ثمانون ألف مادة ، أما جهد صاحب القاموس المحيط فقد بلغ ستين ألف مادة لغوية ، ومعنى هذا أنه زاد على صحاح الجوهرى عشرين ألف مادة ، ولكنه نقص عن لسان العرب عشرين ألف مادة . ومن هنا كان « لسان العرب » أضخم المعاجم اللغوية ، وأكثرها اشتمالا على مواد اللغة ، ثم يأتى القاموس المحيط دونه ، ولا يعيب هذا القاموس المحيط وصاحبه مجد الدين الفيروزابادى ، فقد بذل الرجل من الجهد قدر ما وسعته طاقته ، ويظهر أنه لم يطلع على لسان العرب الذى ظهر قبل مولده ببضعة عقود من السنين ، ولو أنه اطلع عليه لأخذ منه ما كان يزيد به مادة اللغة فى كتابه ، مما حدا ببعض المحققين أن يقول فى هذا الصدد : (ولعل المصنف لم يطلع عليه ـ يعنى على لسان العرب ـ والا لزاد فى كتابه عنه ، وفوق كل ذى علم عليم ...) .

والحق أن طبيعة التدرج الزمنى والتطور التاريخى كانت تقتضى أن يكون « القاموس المحيط » للفيروزابادى أكثر وفاء بالمادة اللغوية من « لسان العرب » فابن منظور ـ صاحب اللسان ـ سابق على مجد الدين بعقود من السنين تبلغ قرنا كاملا ، واللاحق دائما يكمل السابق

ويزيد عليه ، وخصوصا أن ابن منظور قد جمع مادة « لسان العـــرب » من خمسة كتب ، وهي : تهذيب الأزهري ، ومحكم ابن سيده ، وصحاح الجوهري ، وحواشي ابن بري ، ونهاية ابن الأثير ، ويزاد عليهـــا جمهرة ابن دريد ، كما استظهر ذلك ابن حجر ، والسيد مرتضى الزبيدي . والمصادر المشتركة بين صاحب لسان العرب وصـــاحب القـــاموس المحيط هي التهـــذيب ، والصحاح ، والمحكم ، والجمهرة ، وينفرد القـــاموس المحيط بالعين والعباب ، كما ينفرد لسان العرب بالنهاية لابن الأثير ، وحواشي ابن بري .

ويلوح لنا أن كتاب « اللامع » المطول الذي لم يمض فيه الفيروزابادي الى نهايته ، والذي جعل القـــاموس المحيط ايجازا وتلخيصا له ، كان يمكن أن يكون في الوفاء بالمـــادة اللغوية مثل لسان العرب ، ولـــكن مجد الدين الفيروزابادي لجأ الى التلخيص في القاموس ، فجاءت مادته اللغوية أقل من مادة لسان العرب بعشرين ألفا .

ولا يفوتنـــا أن نقـــول ان تعقب الفيروزابادي لصحاح الجوهري لم يلاق بالصمت من بعض العلمـــاء الذين حاولوا الرد على صاحب القاموس المحيط ، أو وقفوا بينه وبين صاحب الصحاح موقفا خاصا . ومن الـــكتب التي ظهرت في هذا الباب : « الافصـــــاح في زوائد القاموس على الصحاح » للسيوطي ، و « بهجة النفوس ، في المحاكمة بين الصحاح والقاموس » للقرافي ، و « الدر اللقيط » لداود زاده ، و « مرج البحرين » للقاضي أويس ابن محمد ، و « الوشاح وتثقيف الرماح ، في رد توهيم المجـــد للصحاح » لعبـــد الرحمن التادلي ، و « ضوء القاموس ، في زوائد الصحاح على القاموس » لمؤلف غير

معروف ، و « طراز اللغة للسيد على خان » و « ابتهاج النفوس، بذكر ما فات القاموس » وهو ليس للفيروزابادى كما كتب على صفحة عنوانه المخطوطة . وبهذا يكون مؤلفه مجهولا ، و « اضاءة الراموس وافاضة الناموس على اضاءة القاموس » لابن الطيب الفاسي المتوفى سنة ١١٧٠ هـ . وقد صرح ابن الطيب هنا فى مقدمة كتابه بأنه انتصر لابى نصر الجوهرى صاحب الصحاح لما رأى من صاحب القاموس المحيط انه (أكثر التنديد عليه ، وبالغ في عزو الاوهام اليه ..) .

خصائص ومزايا

يلاحظ على «القاموس المحيط» بعض خصائص يدركها النظر من أول موقع ، كما يلاحظ عليه بعض خصائص يدركها المتعقب المتتبع . وقد يسأل المرء : هل اتبع الفيروزابادى نظاما معينا فى ترتيب الصيغ داخل كل ماده ؟ او بعبارة أخرى : هل يبدأ بالمجرد أولا ، ثم بالمزيد بعده ؟ وهل يبدأ بالفعل ثم يعقبه بالمصدر والاسم ؟ وهل له نظام معين فى ترتيب أعلام الناس ، ثم أعلام البلدان ؟

ونستطيع أن نقول ان الفيروزابادى قد ألزم نفسه بتنظيم معين فى ترتيب الصيغ التى تحتويها كل مادة ، وان كان لم يتقيد دائما بهذا الالزام . ففى مادة « ذمم » ـ مثلا ـ نراه يقدم لفظ « المذمة » ، فى أوائل المادة ، ويأتى بعدها بألفاظ : ذميم ، وذمام ، ثم يعود الى لفظ « المذمة » بمعنى آخر غير المعنى الأول . وينتقل الى لفظة « الذمة » ، و « الذمامة » و « الذم » بكسر الذال و « الذميم » و « الذمامة » بضم الذال ، ثم يعود ثانية الى صيغة « المذمة » بمعان آخر غير ما جاء فى

المرتين السابقتين . ولو انه التزم التنظيم الذى أخذ به نفسه في أكثر المواد ، لجاءت صيغ « المذمة » كلها بمعانيها المختلفة بجانب بعضها بعضــا ، بدون هــذه الفواصل من صيغ أخرى مغايرة .

واذا كان بعض الباحثين المحدثين فى « المعجم العربى » قد لاحظ على القاموس المحيط فى كثير من مواضــعه تأخير الاعلام الى آخر المادة اللغوية ، سواء أكانت أعلام اشخاص أم أعلام مواضع ، وقبائل ، فاننا قد لاحظنا أن هذا التنظيم غير مطرد فى الكتاب كله . فهناك مواطن كثيرة من المواد اللغوية تأتى فيهــا الأعلام فى أول المادة أو فى وسطها لا فى آخرها . والواقع ان الفيروزابادى يضطر الى تقطيع الأعلام وايرادها حسب صيغها وبنائها اللغوى . ففى مادة « س . ل . م » يأتى الأعلام الذين يحملون اسم « سلمة » أولا ، ويليهم من يحملون اسم « سليم » — بضم السين — كزبير ، وسليمة كجهينة ، وسلمان ، وذو سلم ، وسلمى — كسكرى — وسلمى بضم السين — كحبلى — وسلام — كسحاب ، وسلام بتشديد اللام ، وسلامة بتشديد اللام ، ومنه سلامة القس صاحبة عبد الرحمن بن عبد الله بن عمار .

وفى مادة « ح . ل . م » يأتى أولا بالعلم الذى اسمه « ذو الحلم » ، ثم ينتقل الى علم آخر هو : أحلم ، بضم اللام ، ومنه عمر بن حفص المحــدث . وبعــد صيغ مختلفة لمعان مختلفة من الافعـــال والأسماء يأتى باسم العلم : حليم بن داود المحدث ، ويعقبه باسم العلم : حليمة كسفينة ، وهى حليمة بنت أبى ذؤيب الســعدية مرضعة النبى عليه السلام .

فأنت ترى أن الأعلام ليست دائمـــا فى القاموس

المحيط فى آخر المادة اللغوية ، ولكنها تأتى على وفق بنائها وصيغتها فى المادة .

ويمتاز القاموس المحيط بالايجاز والاختصار فيالعبارة. فهو يتخفف كثيرا من التفسيرات المفاضة ، والعبارات الطويلة عند سابقيه من اللغويين . وقد أشار هو فى ديباجة القاموس الى أنه استطال كتابه « اللامع » ووجد أنه سيعجز الطلاب ؛ فسئل تقديم « كتاب وجيز وعمل مفرغ فى قالب الايجاز والاحكام » ، ومن هنا امتاز القاموس المحيط بهذه الوجازة . على ان الفيروزابادى راعى الا تجنى هذه الوجازة على المعنى المراد أو تبتره ، بل يبلغ معها القارىء ما يريد ، بغض النظر عن التطويل فى التفاصيل . وقد رأى أيضا ان قاموسه ليس معجما جغرافيا أو بلدانيا يعرف بأعلام الأمكنة والبلدان ! ومن هنا نجد الفرق بينه وبين معجم كالعباب مثلا للصغانى . فالقاموس المحيط يقول فى مادة (ط . و . د) : « طود بلد بالصعيد » على حين أن العباب يقول عنها : « طود : بليدة بالصعيد الاعلى فوق قوص ، ودون أسوان » ولا نلوم الفيروزابادى على منهج التزم به فى التلخيص والايجاز . وقد تكفل صاحب « تاج العروس » باكمال هذا النقص الذى عده من مستدركاته على القاموس المحيط .

وزاد مجد الدين خطوة أخرى فى الايجاز ، فحذف الشواهد التى يفيض بها معجم مثل « لسان العرب » وحذف كثيرا من أمثال العرب ، وأوجز فى تعريف الأعلام والبلدان والنباتات ، وان كان لم يجر فى الايجاز على خطة واحدة ، فكثيرا ما رأيناه يطيل فى تعريفات وتأويلات واستطرادات لا داعى الى الاطالة فيها ...

ولم يضن الفيروزابادى ـ وهو تحت الحاح الدافع الى الايجاز ـ على اعلام الفقهاء والمحدثين والمفسرين بذكرهم فى معجمه ، فقد ازدحم القاموس المحيط بهم ، كما ازدحم بأسماء الصحابة وبكثير من الاعلام العربيه التى يحفل بها تاريخ العرب فى جاهليتهم واسلامهم . ويستوى عنده فى ذلك الرجال والنساء . فلم يضن على امراة عربية بالذكر متى كان لها شأن فى تاريخ العرب . ففى مادة « سجح » يذكر سجاح التى ادعت النبوه بقوله : (... وكقطام امراة تنبأت) ، وفى ماده « خرق » لا يفوته « خرقاء » التى كان يشيد بها الشاعر ذو الرمة ، بل لم يضن على أعلام الحيوان بالذكر ، فهو يذكر « الزيت » اسم فرس معاوية بن سعد ، و « الزيتية » اسم فرس لبيد بن عمرو الغسانى ، واسم « سكاب » وهى فرس الاجدع بن مالك ، و « العباب » فرس مالك بن نويرة ، و « الصموت » فرس العباس بن مرداس .

وقد اهتم الفيروزابادى فى ايراده للأعلام والبلدان بضبطها حتى يتبين للقارىء وجه الصواب فى نطقها . ولا يكتفى بالضبط بالحركات وحسب ، بل يضبط بالحروف ، فيقول مثلا : بالضم أو بالفتح . وكثيرا ما يأتى بصيغة اخرى مشهورة فيقول ان العلم أو البلد على وزن هذه الصيغة . ففى تعريفه ببلدة أسوان المصرية يقول : « وأسوان بالضم ، ويفتح » . وفى « سيناء » يضع كسرة تحت السين ثم يعقبها بقوله : « ويفتح . وان كان القرآن الكريم جرى على فتح السين من سيناء مما يؤكد أن الفتح أعلى من الكسر . وفى « أشبونة » الاندلسية يقول : « وأشبونة بالضم : بلد بالمغرب » . وفى بلدة « أشمون » المصرية يقول :

« وأشمون جريس بالضم ، قرية بمصر تحت شطنوف »، وفى بلدة جويم الفارسية يقول : «وجويم كزبير بلد بفارس والعامة تضم الياء » . وفى بلدة جهرم الفارسية يقول : « جهرم : كجعفر ، بلد بفارس » . وفى وادى نعمان يقول : « ونعمان كسحبان ، واد وراء عرفة ، وهو نعمان الاراك » .

وليس وراء هذا المذهب مذهب فى تحرى الدقة والتماس الضبط للأعلام .

وللقاموس المحيط عناية خاصة بالنبات والاشجار والأعشاب ، مع ذكر خواصها الطبية مأخوذا عن كتب مفردات النبات ، ومن عجب أن الصحاح للجوهرى الذى تعقبه الفيروزابادي وأخذ عليه كثيرا من الأوهام لم يهتم بالنباتات أو الأعشاب ومنافعها اهتمام صاحب القاموس . وقد أضاف الفيروزابادى هذه المواد بالمداد الأحمر فيما أضافه مما قال انه فات صاحب الصحاح . وقد لفتت هذه الظاهرة نظر أحمد فارس الشدياق فقال : (أول ما يقع عليه نظر الناظر الى الصحاح ، الأبيات التى استشهد بها ، فيحكم بأن المؤلف لغوى أديب ، فاذا وقع نظره على المواد المكتوبة فى القاموس بالحمرة — وهى المادة التى أهملها صاحب الصحاح — حكم بأن المؤلف طبيب ، وذلك نحو قوله : الأشج ، والبرنج ، والبسفايج ، والبابونج ، والبهرامج ، والجسميزج ، والجوزا هنج، والاسفيداج، والشافانج(١) والشهدانج ونحو ذلك .

وأحيانا يعرف الفيروزابادى بالنبات تعريفا لا بأس به ،

---

(١) الشافانج : بفاءين كما جاء فى القاموس : نبت ؟ معرب شاپايك . وقد وهم مؤلف كتاب (المعجم العربى : نشاته وتطوره) فجعله الشافانج بفاء ونون . وأظنه تصحيفا مطبعيا .

ولا أقول تعريفا علميا كما يريد العلماء اليوم ، ثم يصف منافعه للأدواء والعلل . كما فعل مثلا فى مادة «قيصوم» حيث يقول : (والقيصوم نبت ، وهو صنفان ، انثى وذكر . النافع منه أطرافه ، وزهره مر جدا . ويدلك البدن به للنافض ، فلا يقشعر الا يسيرا ، ودخانه يطرد الهـوام ، وشرب سحيقه نيئا نافع لعسر النفس ، والبول ، والطمث ، ولعرق النسا . وينبت الشعر ، ويقتل الدود) . وكمـا فعل فى مادة « نمم » حيث يقول : (والنمام نبت طيب الرائحة مدر ، مخرج الجنين الميت والدود ، ويقتل القمل . وخاصيته النفع من لسع الزنابير شربا مثقالا بسكنجبين) . وكما فعل فى مادة « هرطمان » حيث يقول : (الهرطمان بالضم حب متوسط بين الشعير والحنطة نافع للاسهال والسعال) .

وأحيانا لا يعرف النبات بل يـكتفى بقـوله عنه انه معروف . ويضع لذلك حرف الميم رمزا على « معروف » ، ثم يعقب ذلك بوصف منافعه وصفة خصائصه . كمـا فعل فى نبات الأشنان حيث يقول : (والأشنان بالضم والكسر معروف ، نافع للجرب والحكة ، جلاء ، منق ، مدر للطمث ، مسقط للأجنة) .

وأحيانا يصف الشجرة وصفا يحدد معالمها ، كمـا فعل فى مادة « نارجيل » حين قال : (النارجيل جوز الهند ، واحدته بهاء ، وقد يهمز — اى يقال نأرجيل — ونخلته طـويلة تميد بمرتقيهـا حتى تدنيه من الأرض لينا ، ويكون فى القنو الكريم منها ثلاثون نارجيلة . ولها لبن يسمى الأطراق) ومن تعريفاته النباتية الناقصة التى لا تحدد شيئا قوله فى مادة « حومان » : (والحومان نبات بالبادية) ، ولم يذكر لنا ولو صفة واحدة تحدد ماهيته . وقـوله فى مادة « ذؤنون » : (الذؤنون ،

كزنبور ، نبت) ولم يزد على هذا التعريف شيئا مفيدا في تعريف صفته الا قـوله : وخرجوا يتذأنون ، أى يجنونه !

ومن مزايا القاموس المحيط أنه يولي الالفاظ الاصطلاحية الطارئة على العلوم والفنون المختلفة عناية خاصة ، فلا يهمل هذه المصطلحات التى كونها التطور العلمى والفكرى والاجتماعى للأمة العربية ، بل يقيدها لانهـــا دخلت بالاستعمال فى رصيد اللغة ومدخرها وتراثها ، ويظهـر أن اهتمام صاحب القاموس المحيط بالعلوم ، كمـا أن عقليته الموسوعية المتعقبة كانت تترصد لهذه المصطلحات فتدونها كما هي بمفهومها عند أصحابها . فسجل الفاظا اصطلح عليها أهل الرمل ، كالثقف والعقلة . وسجل فى مادة ركز كلمـــة « الركيزة » وهى فى اصطلاح الرمليين العتبة الداخلة ، وسجل بعض الاصطلاحات الفقهية التى اعترض بها عليه معترض بأنها ليست من اللغة في شيء . ففى تفسـيره لتعبير « فاء المولى من امرأته : كفر عن يمينه ورجع اليها » اعترض عليـه أحد أصحاب الحـواشي بقوله : (ليس هـذا من اللغة فى شيء ، بل هو من الاصطلاحات الفقهيـة ، كـكثير من الالفاظ المستعملة فى الفنون ، فيوردها على أنها من لغة العرب) .

والحق أن هذه المزية فى القاموس المحيط قد أحالتها عين الهوى والغرض الى عيب . فان جامع المعجم يهتم بتدوين كل لفظ أجازه الاستعمال والاصطلاح . وهو الاتجاه الذى مال اليه أخيرا مجمع اللغة العربية (١) فى

---

(١) اتجه بطرس البستاني صاحب « محيط المحيط » الى أن يدرج فى محيطه كل ما استطاع أن يقف عليه من مفردات اللغة واصطلاحات العلوم والفنون وكثير من كلام المولدين واللغة الدارجة . وأدخلت لجنة « المعجم الوسيط » فيه كثيرا من الالفاظ المولدة أو المحدثة أو المصرية أو الدخيلة .

« المعجم الوسيط » . ولن ننزع هذه الالفاظ الاصطلاحية من الرصيد اللغوى للأمة العربية ، فانها داخلة فيه ، سائرة معه الى الى أبد الآبدين .

وكما اهتم صاحب القاموس المحيط بالالفاظ الاصطلاحية وحرص على تدوينها فى معجمه ، فانه اهتم بالألفاظ الأعجمية والمولدة والحوشية الغريبة والمماتة التى لم يحيها الاستعمال . ويتصل بهذا أنه حين يورد لفظا معربا ، فانه يأتى بأصله الأعجمى ، وقد أعانته على ذلك فارسيته ومقدرته الفائقة فى اللغة الفارسية . ولم تسلم هذه الظاهرة من توجيه بعض سهام النقد اليها . فالشيخ أحمد فارس الشدياق يقول فى هذا الصدد : (وقوله فى اللام - أى فى باب اللام - أعطنى شحتلة من كذا بالحاء المهملة والمثناة ، أى نتفة ، مع أن الصغانى نبه على أن هذه الكلمة ليست من كلام العرب ، ونص عبارته فى « العباب » : أهل بغداد يقولون : أعطنى شحتلة ، وليس هو من كلام العرب . ومن ذلك قوله : الكشمخة : بقلة طيبة رخصة . قال الأزهرى : أقمت فى رمال بنى سعد ، فما رأيت كشمخة ولا سمعت بها ، وما أراها عربية) .

ومن الألفاظ المعربة التى أتى صاحب القاموس المحيط بأصولها الأعجمية : الدرواسنج ، بالفتح ، ماقدام القربوس من فضلة دفة السرج ، معرب دروازه‌كاه . والديزج من الخيل ، معرب ديزه بالكسر ، ولما عربوه فتحوه . والدستيج آنية تحول باليد ، معرب دستى . والأرندج ، وبكسر أوله ، جلد أسود معرب رنده ، والسبنجونة فروة من الثعالب ، معرب آسمان كون ، والساذج معرب سادة .

أما الألفاظ الفارسية التى أتى بها فى مقابل الالفاظ العربية ، فمنها : الزمج ، طائر ، وفارسيته دوبرادران. والجيش ـ بكسر الجيم ـ نبات طويل له سنفة طوال مملوءة حبا ، فارسيته شلميز . ومن الألفاظ اليونانية التى أتى بها فى مقابل ألفاظ عربية ما جاء فى مادة : عرصف ، حيث قال : العـــــرصف : نبت ، يونانيته كمافيطوس .

عيب القادرين على التمام

كان مجد الدين الفيروزابادى يتطلب الكمال فى جمعه للمادة اللغوية ، وحاول أن يبلغ ذلك الكمال فى معجمه القاموس المحيط . وقد سلف القول أنه لم يكن راضيا عن « صحاح الجوهرى » لما فيه من نقص واهمال للمادة اللغوية أراد أن يستدركهما بالقاموس المحيط . ولكن هل قدر له ما كان يطمع اليه ؟ لقد وقعت فى كتابه هذا مآخذ لم يسكت عليها نقاده ومتعقبوه ، فاتهموه بالابهام فى العبارة والغموض ، وهو ابهام كان من أسبابه ميله الشديد الى الايجاز ، فاضطر الى حذف التعريفات ، والى التعريف باللفظـــــة المرادفة ، بدلا من التعريف بالعبارة المحددة ، وبهذا صار المعرف والمعرف يحتاجان الى التعريف !! كمـا اضطر الى تأنيث الفعل الواجب تذكيره ، وتذكير الفعل الواجب تأنيثه . وأغرب ما عيب عليه انه أضطر الى الخلط بين الواوى واليائى مع اشارته فى المقدمة الى اهتمامه بتخليص الواو من الياء . وبهذا وقع فيما لام عليه الجوهرى صاحب الصحاح . وانتقدوا

(١) عابوا على الفيروزابادى ادخاله فى معجمه للغة العربية هذه الالفاظ الفارسية فى مقابل كلمات عربية .

الفيروزابادى فى انه لم يلتزم المنهج الذى رسمه لنفسه فى ديباجة القاموس . فقد وعد أنه لا يذكر اللفظة المؤنثة بعد ذكر مذكرها ، بل يكتفى بقوله : وهى بهاء . ولكنه خرج على منهجه هذا . ففى مادة : ثعلب ، قال : وهى ثعلبة . وكان حقه أن يقول : وهى بهاء ، جريا على منهجه . كما عابوا عليه أنه كان يزن اللفظة على لفظة اخرى غير متحققة الضبط فى الميزان . فكان يقول فى بعض الألفاظ : انها على وزن « عباءة » مع أن عباءة فى ذاتها غير متقرر ضبطها : أهى بفتح العين أم بكسرها؟ مع أن الشرط فى الميزان أن يكون متعين الضبط ولا خلاف فى بنائه . ونقدوه فى دعواه الاحاطة فى ميدانه ، مع انه أغفل كثيرا من الصيغ والمعانى والاقوال . ونقدوه فى اكثاره من المادة الطبية . وممن فعل هذا فى القديم ابن الطيب ، وفى الحديث أحمد فارس الشدياق .

يضاف الى هذا ما لاحظتـه فى القاموس المحيط من اهتمام بالناحية الجنسية بوصف اعضاء التذكير والتأنيث ، وذكر مرادفاتها الكثيرة ، ووصف الجماع ، وخواص النبات والاعشاب المقوية للباه . ولا اذكر هنا أمثلة ، بل أحيل — مثلا — على صفحات من الجزء الرابع طبعة بولاق وهى ٣٧ — ٦٤ — ٥٠ — ٩٠ — ٩٣ — ١٠٣ — ١٢٩ — ١٧٢ — ١٧٣ — ١٧٥ — ١٦٠ — ١٨٧ — ٢٣١ — ٢٦٠ .

ونقدوه فى القصور فى التفسير والخطا فيه ، حتى فى الزيادات التى أضافها الى الصحاح ، فانه أخطأ فيها ، ولم يكن دقيقا . ففى تعريفه لـ (أجأ) قال انه جبل لطيىء ومزينة (فزاد مزينة على طيىء ، وهذا أيضا من الغرائب المحتاجة الى نقل ، فان الذى عليه

ائمة اللسان ان أجأ جبل لطيىء فقط) . وهذا النقد الآخير هو نموذج من نقد ابن الطيب الفاسي المتوفى سنة ١١٧٠ هـ ، وهو يبين لنا سوء القصد الذى يعين عليه سوء القراءة . فقد قرأ الفاسى الكلمة هكذا : (ومزينة) ، ورتب عليها أنها خطأ من الفيروزابادى ، مع ان الكلمة هي (وبزنته) أى أن لفظ (اجأ) على وزن كلمة (جبل) : فانظر بالله كيف يحمل التحامل أصحابه الى هذه الأمداء !

ويؤكد لنا المثال السابق أن نقد القاموس المحيط لم يكن صحيحا كله ، وأن سوء القراءة واخطاء النسخ جعلت بعض النقاد يحملون فى غير محل للتحامل .

ولم يكتف ناقدو القاموس بهذا ، بل اخذوا عليه خلطه بين الحقيقة والمجاز والاصطلاحات ، وقالوا ان الاصطلاحات الشرعية — مثلا — التى جاء بها ليست من اللغة فى شىء ، وانما هى حقائق شرعية ، كالصلاة ونحوها . كما أخذوا عليه الخلط بين الهمز والاعتلال ، والتناقض بين أصالة الحروف وزيادتها .

على أن هذه المآخذ والعيوب لا تقلل من قيمة الجهد العظيم الذى بذله الفيروزابادى فى قاموسه ، ولا تؤثر بحال فى القيمة اللغوية لهذا الكتاب الذى قال عنه اللغوى الكبير المعلم بطرس البستانى صاحب « محيط المحيط » : (انه أشهر قاموس للعربية) .

والحق أن القاموس المحيط قد رزق شهرة وتداولا وقبولا قل أن حظى بها معجم لغوى آخر ، حتى أن « لسان العرب » على ضخامته واتساع مادته لا يكاد يدانى القاموس المحيط فى هذه المنزلة .

ويكفى القاموس المحيط فضلا وشهرة انه لم يكن كتابا

خاملا ، أو معجما راكدا ، ولكنه شغل الدنيا كلها فى عصره وفى العصور التى تلته الى يومنا هذا . ويكفى انه قد الفت حوله ـ نقدا او شرحا أو استدراكا ,و تصحيحا أو اختصارا ـ كتب كثيرة مشهورة أوفت على ستين كتابا . ولا نذكر هنا أسماءها تحاشيا للتطويل ، ولكنا نكتفى بأن نذكر أن خمسة منها تحمل عنوانا أصليا واحدا ، وهو : «القول المأنوس» ، ويختلف العنوان الفرعى حسب موضوع الكتاب . فهناك « القول المأنوس » ، فى صفات القاموس » لمحمد سعد الله المفتى . و « القول المأنوس ، بتحرير ما فى القاموس » للقرافى المصرى المتوفى سنة ١٠٠٨ هـ . و « القول المأنوس ، بشرح مغلق القاموس » له أيضا . و « القول المأنوس ، فى حاشية القاموس » لابن شاهين المصرى المتوفى سنة ٩٢٠ هـ . و « القول المأنوس » للمناوى الفقيه الشافعى .

وهناك فى عصرنا الحديث : «الجاسوس على القاموس» لأحمد فارس الشدياق ، و « تصحيح القاموس » لأحمد تيمور ، و « أحكام باب الأعراب ، عن لغة الاعراب » لجبرائيل فرحات المارونى المتوفى سنة ١١٤٥ هـ ـ ١٧٣٢ م ، وهو اختصار للقاموس المحيط ، ولكنه زاد عليه من المادة اللغوية ما عثر عليه فى العهدين القديم والجديد للكتاب المقدس .

ويجرنا الحديث عن اختصار القاموس المحيط الى ما صنعه الشيخ الطاهر أحمد الزاوى الطرابلسى من أهل زماننا هذا ، من تصنيف معجم مختصر للقاموس المحيط سماه « مختار القاموس » . وقد غير ترتيبه ، فلم يجعله على الأبواب والفصول كما صنع مجد الدين الفيروزابادى ، بل جعل ترتيبه على أوائل حروف الكلمات .

الوسيلة الأدبية

للحسين بن أحمد المرصفى

توفى سنة ١٨٨٩ م

سيرة حياة

يخلط كثيرون من غير اهل التحقيق بين أصحاب النسبة الواحدة ، وقد يذهبون فى الخلط الى حد أنهم ينسبون آثار شخص معين الى مشابهه فى النسب . فتراهم يخلطون - مثلا - بين الجرجانى صاحب « الوساطة بين المتنبى وخصومه » والجرجانى عالم البلاغة وصاحب « أسرار البلاغة » و «دلائل الاعجاز» . ويخلطون بين ابن عساكر المحدث وابن عساكر الدمشقى المؤرخ . ويخلطون بين الحصرى القيروانى الشاعر الأديب صاحب كتاب « زهر الآداب » وبين الحصرى القيروانى المقرىء الأديب الشاعر الذى كان قريبا فى المعاصرة من صاحبه ببضع عشرات من السنين ، حتى لا تظهر الفروق بينهما الا لأهل التحقيق والنظر الدقيق .

وهناك مئات ومئات من أصحاب النسب المتشابهة ليس هذا مجال سردها ، ولكنه مجال الاشارة اليها فى معرض الحديث عن « المراصفة » أو « المرصفيين » .

فكثيرا ما يصادفنا اسم « المرصفى » فنجد أنفسنا محتاجين الى تحديد أيهم . وهم جميعا على اختلاف

عصـــورهم ينتسبون الى قرية « مرصفا » من أعمـــال محافظة القليوبية . وكثيرا ما كانت العـــواصم والمدائن والقرى مصدر اشتراك فى النسب يلتقى عليه طائفة من العلماء والأدباء والشعراء والفقهـــاء وأصحاب الفنون والصناعات ، فالبغدادى — وهو نسبة الى بغداد — علم يلتقى عليـــه كثير من الرجال ما بين حافظ ، ومقرىء ، ومحدث ، ومؤرخ ، ومؤدب ، ومتصوف ، ومتكلم ، وفقيه وشـــاعر . والبلنسى — وهو نسبة الى مدينة بلنسية بالأندلس — علم يلتقى عليه طائفة من رجال الفكر العربى تقرب من العشرين عـدا . والسلاوى — وهو نسبة الى مدينة « سلا » بالمغرب — علم يشترك فيه بضعة عشر من الرجال ، على رأسهم السلاوى المؤرخ صاحب كتاب « الاستقصا » المشهور فى تاريخ المغرب الأقصى .

ولقد دخلت قرية مرصفا ميدان انجـاب الرجال من العلماء والأدباء من قـديم . فاليهـــا ينسب الشيخ نور الدين خليل المرصفى المدفون على مقربة من ضريح السيدة عائشة . وقد كان صـــوفيا مشهورا بالزهد والتقـوى . وهو والد الامام الصوفى الشيخ على خليل المرصفى ، الذى يقترن اســـمه باسم « القشيرى » المتصوف المعروف ، الذى كان شيخ خراسان واماما فى القرن الخامس الهجرى . وقد اختصر على خليل المرصفى رسالة القشيرى المشهورة بالرسالة القشيرية .

وقد ظلت مرصفا ، أو مرصفى ، مصنعا لتخريج العلماء والأدباء الى غير بعيد من عهدنا . ففى القرن التاسع عشر ظهر فيها الشيوخ المراصفة محمد بن أحمد المرصفى ، وابنه الشيخ أحمد شلبى المرصـــفى الذى اشتغل بالتـدريس فى المـدارس الأميرية ، والشيخ أحمـــد

شرف الدين المرصفي الذى كان زميلا للشيخ حسين المرصفي صاحب « الوسيلة الأدبية » فى التدريس بدار العلوم فى أول انشائها سنة ١٨٧٢ م . ولقد كان شرف الدين هذا يدرس تفسير القرآن الكريم وعلم مصطلح الحديث ، على حين اضطلع الشيخ حسين المرصفى بتدريس الأدب العربى والنقد على نسق جديد لم يألفه الناس فى ذلك الحين .

على اننا يصادفنا مرصفى آخر نزع الى تعلم اللغة الفرنسية حينما أتيح له أن ينضم الى البعثة التعليمية بفرنسا ، وهو الشيخ زين المرصفى الذى ظفر بترجمة وجيزة فى كتاب « أعيان القرن الثالث عشر » الذى صنفه المرحوم أحمد تيمور باشا ، فدخل ميدان الترجمة للرجال فى القرن الهجرى الماضى .

أما أقرب المراصفة الى زماننا هذا ، فهما اثنان لا يجوز أن يغفلهما تاريخ الأدب المعاصر . أولهما الشيخ سيد بن على المرصفى الذى لا يزال بعض الناس يخلطون بينه وبين الشيخ حسين بن احمد المرصفى صاحب « الوسيلة الأدبية » . وثانيهما الأديب محمد حسن نائل المرصفى الذى كان يعلم اللغة العربية وآدابها فى مدارس الفرير بالقاهرة ، ولم يقنع بعمله فى التدريس لضيق المجال فيه ، فتركه الى الصحافة المصرية التى دخل ميدانها بانشاء مجلة « الجديد » التى كانت بعد « البلاغ الأسبوعى » و « السياسة الأسبوعية » مجتلى لنشاط المصريين فى عالم الصحافة ــ وخاصة الأدبية ــ بعد أن ظن كثيرون أنه وقف على السوريين المتمصرين .

ولا نجد معدى من الوقوف هنا وقفة قصيرة عند الشيخ سيد بن على المرصفى ، حتى يتضح ما بينه وبين

الشيخ حسين المرصفى من ملابسات تدعو الى اللبس .
فالشيخ حسين صاحب « الوسيلة الادبيه » لم يدرك القرن العشرين ، لأنه توفى سنه ١٨٨٩ م ، اى بعد الثوره العرابيه بسبعة اعوام ، اما الشيخ سيد المرصفى فقد ادرك من القرن العشرين اكثر من ثلاثه عقود ، حيث توفى سنه ١٩٣١ . والشيخ حسين المرصفى معروف بكتابى « الوسيلة الأدبية « و « الكلم الثمان » وان كان له كتاب ثالث فى انشاء الرسائل . أما الشيخ سيد بن على المرصفى فقد اقترن اسمه باسم العالم الامام « المبرد » حيث شرح كتابه المعروف باسم « الكامل » فى كتاب يقع فى ثمانية اجزاء باسم « رغبة الآمل ، من كتاب الكامل » ، كما اقترن اسمه بحماسة ابى تمام حيث شرحها فى كتاب أسماه « أسرار الحماسة » .

وعلى كثرة من ذكرناهم من بعض المراصفة الذين امتازوا بالعلم والادب ، فان الشيخ حسين المرصفى كان بلا شك أكثرهم جهدا ، وأوضحهم أثرا ، وابعدهم تأثيرا فى حركة النهضة التى جاء بها القرن التاسع عشر . ويخيل الينا أنه جاء فى وقته المناسب . فالشيخ رفاعة رافع الطهطاوى كان بلا شك رائد حركة الاحياء على عمومها ، وكان لابد من أن يجىء معه أو فى أعقابه من يوطن للتجديد فى نواح مختلفه من الفكر . ولم يطل الزمن بعد رفاعة الطهطاوى حتى ظهر محمود سامى البارودى فى حركة احياء الشعر العربى ، وظهر الشيخ حسين المرصفى فى حركة تطوير الدراسة الادبية ، وكان لابد من هذه الحركة الضرورية فى ابانها ، سواء أجاءت على يد الشيخ حسين المرصفى أم على يد غيره . وقد صاحب هذه الحركة حركة أخرى فى تطوير اساليب

الـكتابة العربية جاءت على يد عبد الله فكري الذي كان له في الشعر مشاركة جعلته من الشعراء المقـدمين في ذلك الزمان . ولكن فضله في احياء النثر ، وفي بعث الـكتابة الديوانية من جـديد كان واضح الاثر . ومن هنا لا يفوتنا ان نشير الى جهود هؤلاء الثلاثة في حركة تطوير الشعر والأدب والنقد والكتابة .

وعلى الرغم مما للشيخ حسين المرصفي من مكان في الأدب والنقد كان حظه من التعريف به في كتب تاريخ الأدب والتراجم أضأل من حظ صاحبيه : محمود سامي البارودي ، وعبد الله فكري . فلم نجد له ترجمة مطولة مفصلة ، ولم يعن واحد من رجال عصره بالترجمة له ، الا المغفور له علي باشا مبارك حين تحدث عنه في بضعة أسطر ، وهو يتناول الحديث عن قرية « مرصفى » في الجزء الخامس عشر من الخطط التوفيقية . ويظهر أن هـذا الاغفال قـد جر اغفال المؤرخين التالين ، فأغفله جرجي زيدان وهو يترجم لما يقرب من تسعين علما من أعلام النهضة في كتـابه المشهور « تراجم مشـاهير الشرق » .

ونحن نعرف أن جرجي زيدان كان يحـاول انصاف الناس في زمانهم ، فلو اسـتطاع أن ينصف الشيخ حسين المرصفي بالترجمة له لفعل . ولـكن يبدو أن الحصول على مواد الترجمة له كان متعذرا عليه ، فأغفله اغفال غير المتعمد . وكذلك فعل المرحوم حسن السندوبي صاحب كتاب « أعيان البيان » الذي ترجم فيه لطائفة من أعلام القـرن التاسع عشر . ولو كان تحت يد السندوبي مادة للترجمة للشيخ حسين المرصفي ما تأخر، فهو حفي بأهل البيان الذين يجيء الشيخ حسين المرصفي

فى مقدمتهم ، ولقد كنا نأمل أن يستدرك المرحوم أحمد تيمور باشا ما فات جرجى زيدان وحسن السندوبى وهو يترجم لأربعة وعشرين علما من أعلام البيان والعلم والأدب والشعر فى كتابه الموسوم « تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر » الذى طبع بعد وفاته .

وكأن المؤرخين الذين جاوءا بعد على باشا مبارك قد استكثروا على الشيخ حسين المرصفى تلك الاسطر التسعة التى جاءت فى « الخطط التوفيقيه » ، فرايناها تنكمش الى سطرين أو ثلاثة عند الأب لويس شيخو اليسوعى فى كتابه « الآداب العربية فى القرن التاسع عشر » ، وان كان المؤرخ عبد الرحمن الرافعى قد نقل الينا الأسطر التى جاءت فى « الخطط » فى كتابه الذى أرخ به لعصر اسماعيل ، ولم يزد عليها شيئا جديدا من عنده .

وقد كان من الممكن أن تطول ترجمة الشيخ حسين المرصفى فى كتاب « الخطط التوفيقية » لعلى مبارك كما طالت تراجم أخرى لبعض معاصريه . ولم يكن على مبارك يضن بالترجمة على أعلام عصره ، بل كثيرا ما كان يطلب منهم أن يمدوه بآثارهم واخبارهم ليدونها فى كتابه وهو فى مرحلة تأليفه . ويظهر أن الشيخ حسين المرصفى لم يشأ أن يمد على مبارك بما يلقى أضـواء قوية على حياته ، فقد كان فيه بعد عن اظهار النفس والحديث عنها ، وكان فيه ميل شديد الى التواضع وانكار الذات . ومن هنا لم يترك لنا ترجمة تفى بحاجة المؤرخ والناقد .

ولقد كان من حظى أن أكتب للشيخ حسين المرصفى ترجمه مطوله . وكانت اول ترجمه مفصله عن الرجل تظهر فى الدراسات الحديثة ، ولم يفت المرحوم الدكتور

محمد مندور أن يشير اليها فى بحث له عن أدب المرصفى الكبير نشر بالعدد التاسع والعشرين من مجلة « المجلة » مايو سنة ١٩٥٩ ، كما لم يفت الباحث الجليل المرحوم محمد عبد الجواد أن يشيد بها ، وأن ينقل منها سطورا كثيرة فى كتابه الذى أصدره عن الشيخ المرصفى بعد ذلك بعنوان « الشيخ الحسين بن أحمد المرصفى » ، والذى صدر عن دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٢ . ومن هنا أسدى الزمان الى المرصفى بعض الانصاف الذى كان قد فاته ، فظهر عنه فى زماننا هذا دراستان وكتاب قائم بذاته بعد أن كان كل حظه من الترجمة بضعة أسطر فى الخطط التوفيقية لعلى مبارك .

ويظهر أن عنصر « التأخير » كان شيئا ظاهرا فى حياة الشيخ حسين المرصفى . فقد تأخرت به الترجمة المطولة لحياته الى ما بعد وفاته بستين عاما ... وقد لحقه « التأخير » فى طلبه للعلم ، فلم يدخل المكتب الا بعد أن كبر عن مرحلة الطفولة . وكان فى هذا اشبه بأبيه الذى لم يدخل كتاب القرية الا بعد سن الثامنة عشرة ، وهى سن ينقطع فيها طلب العلم عند الكثيرين ، ولكن والد المرصفى لم يجعلها نهاية لطلب العلم بل جعلها بداية له .

واذا كان الأبناء فى كثير من الأحيان يحملون مشابه قوية من آبائهم ، فان الشيخ حسين المرصفى كان كثير الشبه بأبيه العالم الأزهرى العزيز النفس ، المترفع عن الناس المسمى بالشيخ أحمد حسين المرصفى المكنى بأبى حلاوة ، وهى كنية لم نقف على تعليل لها . فقد كان الشيخ حسين قليل الالمام بالناس والمخالطة لهم ـ كأبيه تماما ـ وكان قليل الاكثار من الأصدقاء ، الا ما كان بينه وبين عبد الله

فكرى باشا . والحق أن سماحة عبد الله فكرى كانت تحمل الناس حملا على أن يخطبوا مودته ، ويدنوا من رحابه . وكان المرصفى الابن شديد القناعة مثل أبيه الذى كان لا يرى فى وليمة الا نادرا ، وكثيرا ما كان يدعوه الأمراء الى منازلهم فلا يجيبهم . وكان الابن قوى الحافظة كأبيه ، فقل أن يسمع شيئا الا حفظه . ولم يكتف بحفظ المتون التى كان يقبل الناس على حفظها فى ذلك الزمن ، بل زاد عليها المتون التى لم يبال الناس بحفظها ، كمتن « جمع الجوامع » للامام السيوطى فى علم النحو ، ومتن « تلخيص المفتاح » للخطيب القزوينى فى علوم البلاغة .

وما ان أتم الشيخ حسين المرصفى تعليمه فى الأزهر حتى عين فيه مدرسا . وقد أخذت اتجاهاته الأدبية تظهر فى دروسه ، فلم يهتم بعلوم الفقه والاصول والتوحيد والتفسير والحديث والصرف والمنطق والنحو ، بل كان ينزع فى دروسه منزعا أدبيا خالصا ، الى حد أن بعض المؤرخين ذكر أنه كان يقرأ فى دروسه كتب أعلام البلاغة ودواوين متقدمى الشعراء . وظل الشيخ حسين المرصفى يلقى دروسه فى الأزهر الى شهر ربيع الآخر سنة ١٢٨٨ هـ — يوليو سنة ١٨٧١ . ففى ذلك التاريخ وفى عهد نظارة على باشا مبارك الثانية للمعارف نظمت دروس عامة بالمدرج الذى كان يسمى « دار العلوم » بسراى درب الجماميز ، كما يذكر المرحوم أمين سامى باشا فى كتابه تقويم النيل . وكان يحضر هذه المحاضرات طلبة المدارس العالية ، وفريق من طلاب الأزهر الراغبين فى زيادة التحصيل وتنوع المعرفة ، كما كان يحضرها على مبارك باشا نفسه ومعه فريق من كبار رجال المعارف وموظفى الحكومة تشجيعا للناس على شهودها .

ورئى فى هذه المحاضرات أن تزود المستمع بفيض من المعرفة فى مجالات مختلفة من العلم والأدب والفن . واختير لها من المحاضرين نفر من ذوى القدرة والأصالة فى موضوعاتهم . فكان الشيخ حسين المرصفى لتدريس العلوم الأدبية ، وبروكش باشا للتاريخ العام ، والمسيو بكيت لعلوم الطبيعة ، وفرانس باشا لفن الأبنية والعمارة ، وفيدال باشا لعلم السكك الحديدية ، والشيخ أحمد المرصفى - مواطن الشيخ حسين المرصفى - للتفسير والحديث ، واسماعيل باشا الفلكى ناظر المهندسخانة لعلم الفلك ، والشيخ عبد الرحمن البحراوى للفقه الحنفى ، وأحمد ندى بك لعلم النبات .

وظل الشيخ حسين المرصفى مواظبا على القاء محاضراته ، التى وجد فيها المقبلون عليها والمستمعون لها شيئا جديدا لم يألفوه فى المعاهد العالية ، ولم يسمعه الشيوخ فى الأزهر ، فقد كان يعرض نصوصا أدبية وينقدها ، ويوازن بين بعض النصوص القديمة والحديثة موازنات لم يعرفها ذوق ذلك العصر ...

ومن حسن الحظ أن هذه المحاضرات كانت النواة لانشاء مدرسة دار العلوم . ورئى أن تكون هذه الدروس منهجا دراسيا لمعهد جديد اقترحه على مبارك باشا فى يوليو سنة ١٨٧٢ . ومن ذلك التاريخ ترك الشيخ حسين المرصفى التدريس بالأزهر ليكون أول أستاذ للأدب العربى والنقد الأدبى فى دار العلوم ، بل ليكون أول رائد لهما فى العصر الحديث .

ومن مزايا الشيخ حسين المرصفى التى جعلت أحكامه فى الأدب والنقد صحيحة أنه رجل عرف قدر نفسه وعرف طاقته ، فلم يتجاوز بها الى ما وراءها مما ليس

فى قدرته . فقد كان كثير من شيوخ الأزهر وعلمائه فى ذلك الحين يعرفون العــــروض ،ويقرضون النظم على أساسه ويسمونه شعرا ... ولكن الرجل - على الرغم من قدرته على النظم وتمكنه من العروض - لم يجرؤ أن يزعم لنفسه شرفا ليس من أهله ... فكان يرى أن الملكة اذا لم توات شخصا فلا خير من معالجةالقريضحتى لا يجيء غثا باردا . وكثيرا ما حمل فى دروسه - وخاصة بمدرج دار العلوم - على الشعر الغث البارد .

ولقد حملته مرة مناسبة خاصة على أن يمدح صديقه الشاعر محمود سامى البارودى شعرا ، ولكنه أحس أن الشعر ليس من استعداده ولا فى طبعه ، فمهد للأبيات بقوله : (وعلى أن ليس من طبعى أن أقول الشعر ، اما لفوت أوان تحصيل وسائله ، ولم تكن اذ ذاك دواع ترشد اليه ، واما لأن الاستعداد الذى سلف التنبيه على أن لابد منه ، لم يكن فى خليقتى - أنطقنى حبه - يعنى حب محمود سامى البارودى - بأبيات أجملت فيهــــا صفته) ثم أخذ بعد هذا التمهيد يسطر الأبيات التى نظمها ، وهى أبيات ذكرها المرصفى فى الجزء الثانى من الوســيلة الأدبية ص ٥٠٢ . ولم نعثر على أبيات غيرها ، مما يقوى اليقين عندنا بأن الرجل قد عرف طبعه فى الأدب والنثر ، فلم يتجاوزه الى ما ليس من طبعه .

ولقد عرف ولاة الأمور فى مصر فضل الشيخ حسين المرصفى ، فرأوا أن يفيدوا منه ومن آرائه وأفكاره فى « المجلس العالى » للتعليم . وقد كان لعلى مبارك باشا فضل فى اجتلاب الشيخ الى هذا المجلس والمشاركة فى عضويته . وكان على مبارك نفسه رئيسا لهذا المجلس وناظرا للأشغال فى ذلك الحين . وقد يقال أن صداقة

على مبارك باشا للشيخ حسين المرصفى كانت عنصرا فعالا فى هذا الاختيار ، ولكن الحق أن كفاية الشيخ حسين المرصفى ، وآراءه الجديدة بالنسبة الى عصره ، واتجاهاته المجددة فى الأدب والثقافة كانت أرجح كفة من كل اعتبار ، فقد رئى أن يكون المجلس العالى للتعليم ممثلا لعناصر مختلفة ، وكان عنصر الشيوخ ممثلا احسن تمثيل ، حيث اجتمع فى عضوية المجلس أربعة من المع الشيوخ وأوسعهم ثقافة فى زمانهم ، وهم الشيخ حسونة النواوى مدرس الشريعة فى مدرسة الحقوق يومئذ ، والشيخ محمد عبده الذى كان فى ذلك الحين رئيس تحرير « الوقائع المصرية » ، وهى اللسان الرسمى للحكومة ، والشيخ زين المرصفى من علماء الأزهر ، والمترجم له الشيخ حسين المرصفى المدرس بدار العلوم.

وكان الشيخ حسين المرصفى ممن فقدوا نعمة البصر ونور العين فى طفولتهم المبكرة ، فقد أصيب بفقد البصر فى الثالثة من عمره ، كما يذكر المرحوم الأستاذ محمد عبد الجواد نقلا عن رواية لابنه الشيخ عبد العزيز المرصفى ، وبهذا زال الشك حول كونه ولد أكمه . وهى شبهة كنت قد أثرتها فى ترجمتى للشيخ حسين المرصفى ، واختلف فيها المؤرخون ، الى ان جلا المرحوم محمد عبد الجواد غمامها ، وأزاح ظلامها .

وقد دخل الشيخ حسين المرصفى المدرسة التى أنشئت لتعليم من فقدوا البصر طريقة الكتابة والقراءة وتعلم طريقة بريل قبل أن يحاضر فى مدرسة دار العلوم بعامين ، ثم وجد الفرصة مواتية ليتعلم اللغة الفرنسية على الطريقة نفسها ، فأتقنها كتابة وقراءة وكلاما .

ومسألة تعلم المرصفى للغــة الفرنسية ليست محل شك ، فقد رواها الثقات من المؤرخين وعلى رأسهم على باشا مبارك الذى يذكر أنه تعلمها فى أقرب زمن ، وأنه لم يصادف عقبة فى تعلمها . ويدل كلام المرصفى نفسه على هذه السهولة التى تصادف متعلم اللغات الأجنبية ، فيقول فى كتابه « دليل المرشد فى فن الانشاء » فى معرض الحديث عن تعلم اللغات الأجنبية « ..أن يستأنفوا – يعنى الصبيان المبعوثين – اتقان معرفة لغة أسلافهم ، ثم يتعلمون مبادىء اللغات وأوليات قواعدها ، وذلك أمر سهل ليس فيه عسر ، فان عنــاية القوم – يعنى الأجانب – بضبط لغاتهم ، كعنـايتهم بضبط سواها ، قد يسرت وسهلت تحصيلها ، فــاذا مهر المتعلم فى لغة أسلافه ، المعــــروفة المادة ، المجهولة الصورة ، وهو لا يحتاج لزمن طويل ، متى كان المتعلم حاذقا ونصح فى التعليم ، طلب الانتهاء فى معرفة اللغــات ، واستقصى تحصيلها ، وهو أمر يسير أيضــا » . وهكذا نرى ان الشيخ حسين المرصفى كان يرى أن تعلم اللغات شىء يسير سهل التحصيل .

ولعله فى هذا كان يعبر عن تجربته الخاصة فى تعلم الفرنسية .

ولا أدرى لماذا شك الدكتور مندور فى تعلم الشيخ حسين المرصفى للغة الفرنسية واتقانه اياها ؟ لقد علل الدكتور مندور لوجهة نظره بأنه (لم يحس فى كتاب الوسيلة الأدبية الضخم بأى أثر للثقــــافة الفرنسية وآدابها عند مؤلفها) . والحق ان المرصفى تعــلم الفرنسية وأتقنها قراءة وكلاما ، فهى حقيقة لا خلاف فيها ، وخاصة أن مترجم سيرته وصديقه على باشا مبارك

قد ذكرها . ولكننا لا يجـــوز أن نغفـل من حســـابنا ان المرصفى قد تعلم الفرنسية على كبرة من السن ، فلم يستطع أن يقرأ فى أدبها وفى تراثها الفكرى ما يمكن أن يبين فى آثاره . على أنه كان له فى بعض كتبه الآخرى غير «الوسيلة الأدبية» نظرات صادقة ، وآراء صائبة فى الترجمة اللفظية حين تجىء ركيكة يمجها السمع ، وفى ترجمة المضمون حين تظهر للمعنى حسنا وقدرا . ففى كتابه «دليل المسترشد فى فن الانشاء» يأتى بنص فرنسى من نصوص حكايات لافونتين الشـــعرية يشتمل على محاورة بين فقير عالم وغنى جاهل فى تفضيل العـلم أو الغنى ، ثم يورد ترجمته اللفظية فتجىء ركيكة هابطة ، وبعدها يأتى بترجمتها على طريقة ترجمة المضمون ، فتأتى عالية العبارة ، جيدة النمط .

مؤلفات المرصفى

اشتهر الشيخ حسين المرصفى بـكتابه « الوسيلة الأدبية » ، وهو مجموع المحاضرات التى القاها على طلبة دار العلوم فى أول انشائها . وتعد الوسيلة الأدبية — كما سنذكر بعد — أول كتاب فى تدريس الأدب والنقد على طريقة جديدة فى القرن التاسع عشر ، مهدت بعد ذلك لما استحدث من طرائق فى القرن العشرين . واذا كان المرصفى مجددا فى كتابه « الوسيلة الأدبية » على قدر ما سمح به عصره ، فقد جدد فى دراسة التربية الوطنية بكتابه الآخر « الكلم الثمان » ، ويقصد بهذه الثمانية : الأمة ، والوطن ، والحكومة ، والعـــدل ، والظلم ، والسياسة ، والحرية ، والتربية . ويظهر التجـــديد والابتكار حتى فى عنوان الكتاب ، بل تجاوزه الى المقدمة

التى لم يستهلها الشيخ بعبــــارات التحميد والفواتح المعروفة فى الكتب القديمة ، بل بدأها ــ بعد البسملة ــ بالبيتين الآتيين :

أرجو قبــــــول هــــدية
لقبتهــــــا الــكلم الثمـــــان
أهديتهـــــــــــا لاولى النهى
فتيـــــان أبنـــــــاء الزمان

وفى « الكلم الثمان » تظهر ملامح كثيرة من معـــرفة الشيخ المرصفى باللغة الفرنسية ، ففيها عبـــــارات واصطلاحات وتعريفات معربة عن الفرنسية ، كما جرى فيها قلم الشيخ بأسلوب مترسل فى عصر كان السجع والزخرف اللفظى فاشيا فيه . ومن نماذج هذا الـكتاب قوله مشيرا الى منهج الدراسة : (فاذا انتهى التعــلم العام ، وتحصلت الناشئة على المعــارف العامة ، التى لا تخص طائفة دون طائفة ، شرع بهم رؤساؤهم وأهل النظر فى تدبيرهم فى المعارف الخاصة وأعمالها ، كل شخص يلحق بطائفته التى أدى اختيــــــاره والتفرس فيه ، وامتحان ميله ورغبته الى معرفة أهليته لهـــا ، واستحقاق أن يدرج فى عدادها ، ليقوم كل على أتم وجه بما يسند اليه ، ويربى له ، ويرصد لتحصيل ثمرته ، واجتلاب منافعه .. » .

ومن غرائب المفارقات أن الشيخ حسين المرصفى كان يترسل فى نثره فى الوقت الذى كان يجرى فيه معاصره عبد الله فكرى باشا على طريقة السجع والمحسنات . وبهذا سبق المرصفى الى أسلوب الترسل الذى استعمله بعد ذلك بقليل الشيخ محمد عبده الذى يعـــد صاحب فضل فى تخليص الكتابة العـــــربية فى أخريات القرن

التاسع عشر من السجع وبعض المحسنات .

ويبدو الشيخ المرصفى فى كتابه « الكلم الثمان » مصلحا اجتماعيا . ولقد كانت حالة مصر قبيل صدور هذه الرسالة فى سنة ١٨٨١ تدعو الى بعض الاصوات المصلحة الجريئة الداعية الى الحق . فلم تكن الثورة العرابية قد قامت بعد ، ولكن الأفكار فى الأمة كانت تتهيأ لها . فنرى الشيخ المرصفى فى كتابه هذا يحث على التعاون ، ويدعو الى الدفاع عن الوطن ، ويحث على نشر التربية الصحيحة ، وينقد بعض الصور الاجتماعية الواهية ، كمجالس الذكر والذاكرين ، ويعرض بخطباء المنابر فى عصره ، ويرى ضرورة استعدادهم لأداء وظيفتهم ، واختيارهم للموضوعات التي يتكلمون فيها . ولقد كان المرصفى ممن أحسوا الفروق بين الطبقات ، فلاحظ طبقة الملاك وغناهم ، كما لاحظ سوء حالة من عداهم من المسخرين فى خدمتهم ، وكان شديد الاحساس (بما بقى فى نفوس العمد من ظلم الأهالى) ، كما جاء فى صفحة ٢٦ من هذا الكتاب .

وقد أشار أمين سامى باشا فى خطاب القاه بدار العلوم سنة ١٨٩٥ الى كتاب ثالث للشيخ حسين المرصفى ، وقال عنه انه باق بدون طبع ، وهو كتاب « دليل المسترشد فى فن الانشاء » ، ويقع هذا المخطوط فى ثلاثة مجلدات تقرب صفحاتها من الألف ، فالأولى فى ٤٠٩ صفحة ، والثانى فى ٣٥٧ صفحة ، والثالث فى ٢٣٢ صفحة .

ولقد فات المرحوم الأستاذ محمد عبد الجواد أن يشير الى كتاب رابع للشيخ حسين المرصفى ، وهو كتاب « زهرة الرسائل » الذى طبع فى مصر على الحجر فى

تاريخ غير معلوم ، وقد ذكره يوسف اليان سركيس في « معجم المطبوعات العـــــربية » ولم يتح لنا الاطلاع عليه .

الوسيلة الأدبية

قلنا قبل هذا ان « الوسيلة » هي الكتاب الذي اشتهر به الشيخ حسين المرصفي . وقبل أن نقول كلمتنا فيه لا بأس أن نشير الى ما نعتـــه به أديب من أدباء عصر المرصفي هو الشيخ حسن أبوزيد سلامة ، وأغلب الظن أنه كان كاتب هذه المحاضرات املاء عن الشيخ ، وأنه كان المشرف على طبعها . ويقول الشيخ حسن أبوزيد هذا في وصف الوسيلة : (قد تم باسعاف الألطاف الجليلة ، طبع مجموع لفنون الأدب وسيلة ، حوى من كل علم أحسنه ، واشتمل على نفـــاس درر مستحسنة ، بنات فكر اخترعتها فكرة سليمة ، وعرانس خدر ابرزتها محـــاسن كريمة ، فهـــو وسيلة الأدب ، ومبلغ لتمام الأرب ...) والحق ان هذا النعت من النعوت العامة التي تنطبق على كل كتاب في موضوعه ، فهو لم يحـــدد لنا طريقة الكتاب ولا منهجـــه ، ولم يقل لنا مزاياه وخصائصه .

وقد أوجز لنا مؤرخ معاصر للأدب العربي هو المرحوم عمر الدسوقي في كتابه « في الأدب الحديث » صفة « الوسيلة الأدبية » في أسطر قليلة قائلا أن المرصفي فيها : (عرض علوم العربية ، عرضا جديدا بأسلوب جديد ، وبخاصة علوم البلاغة ، مبينا منزلة كل منهـــا في نقد الكلام . ولم يـــكتف بهـــذا بل حاول التطبيق النقدي ، وصحح كثيرا مما أخطأ فيه القدماء ، وكان له ذوق مرهف لمعرفة مواطن الحسن في الكلام) .

على أن « الوسيلة الأدبية للعلوم العربية » قد ظفرت بدراستين جادتين : أولاهما للأستاذ محمد عبد الجواد في كتابه « الشيخ الحسين بن أحمد المرصفي » ، وثانيتهما للدكتور محمد مندور في مقال رصين له بمجلة « المجلة » . وقد خلص الدكتور مندور الى نتيجة لا بأس من ايرادها هنا ، وهى : (أننا لا نستطيع أن نغفل عند حديثنا عن النقد والنقاد فى نهضتنا الادبية المعاصرة مثل الرائد الشيخ حسين المرصفي ، الذى بعث النقد التقليدى ، وساعد فى حركة البعث الأدبى كله وطرائقه مساعدة فعالة ، بل اهتدى بفطرته السليمة الى بعض ما تردى فيه بعض نقاد العرب القدماء مثل قدامة بن جعفر عندما عرف الشعر فى كتابه « نقد الشعر » بقوله : (انه الكلام الموزون المقفى) وجاراه فى هذا التعريف جميع من خلفه ، على حين نرى الشيخ حسين المرصفى بفطرته الأدبية السليمة يقول : « وقول العروضيين فى حد الشعر انه الكلام الموزون المقفى ليس بحد لهذا الشعر باعتبار ما فيه من الاعراب والبلاغة والوزن والقوالب الخاصة . فلا جرم أن حدهم ذلك لا يصلح له عندنا . فلابد من تعريف يعطينا حقيقته من هذه الحيثية ؛ فنقول : ان الشعر هو الكلام البليغ، المبنى على الاستعارة والأوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة فى الوزن والروى ، مستقل كل جزء منها فى غرضه ومقصده عما قبله وبعده ، الجارى على أساليب العرب المخصوصة به . ويكفيه فخرا فى هذا التعريف أنه فطن الى خاصية أساسية تميز الأدب عامة ، والشعر خاصة عن غيره من الكتابات ، وهى التصوير البيانى ، بدلا من التعريف الجاف) .

والحق أن هذا التعريف للشعر الذى أعجب به المرحوم الدكتور محمد مندور وظنــه للشيخ حسين المرصفى ، وأسس عليه ما أسس من أحكام وتقدير واعجاب بالشيخ المرصفى ، هو كله حرفا حرفا للعلامة المؤرخ ابن خلدون. وقد نقله المرصفى فى كتابه « الوسيلة الادبية »، منسوبا الى ابن خلدون ، ولكن الدكتور محمد مندور قد توهم أنه للشيخ المرصفى بسبب تداخل الـكلام بعضه فى بعض فى طبعة الوسيلة الأدبية ! وهذا الكلام لابن خلدون قد جاء فى فصل من مقدمة ابن خلدون عنوانه « فصل فى صناعة الشعر ووجه تعلمه » . وعجيب جدا أن ينزلق الدكتور مندور هذا المنزلق ، ، ولا يتفطن الى كلام ابن خلدون عن الشعر ــ وهو معروف مشهور ــ فينسبه الى الشيخ حسين المرصفى ، ويرتب عليه ما يشاء من أحكام !!

على أن هذا التعريف الخلدونى للشعر الذى حسبه الدكتور مندور من مبتكرات الشيخ حسين المرصفى فى « الوسيلة الأدبية » يذكرنا بتعريف آخر سابق عليـه لابن حازم القرطاجنى من أدباء القرن السابع الهجرى . وهو ممن ترجم لهم المقرى فى « نفح الطيب » و « أزهار الرياض »، وترجم لهم الامام السـيوطى فى « بغيـة الوعاة » . والحق أن تعريف ابن حازم القرطاجنى للشعر يفوق تعريف ابن خلدون بما أودعه من قوة التخيل فى الشعر ، وعنصر الاثارة والانفعـال وتحريك النفس ، وحسن التصوير البيانى . ولا بأس هنا من ايراد تعريف ابن حازم للشـعر ، حتى يتضح وجه المقـابلة بين التعريفين ، وحتى يعرف موقف الشيخ حسين المرصفى منهما . قال ابن حازم : (الشعر كلام موزون مقفى ، من شأنه أن يحبب الى النفس ما قصد تحبيبه اليها ،

ويذره اليها ما قصد تكريهه ، لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه ، بما يتضمن من حسن تخييل له ، ومحاكاه مستقلة بنفسها ، او مصورة بحسن هيئه تاليف الكلام . او قوة صدقه ، أو قوة شهرته ، او بمجموع ذلك . وكل ذلك يتأكد بما يقترن به من اغراب ، فان الاستغراب والتعجب حركة للنفس اذا اقترنت بحركتها الخيالية قوى انفعالها وتأثرها) .

فابن حازم القرطاجني قد سبق ابن خلدون الى التفطن للخواص التى تميز الشعر . ولعله من اوائل الادباء العرب الدين تفطنوا الى ما في الشعر من عنصر الانفعال والتأثير وقوة التخيل ، بالاضافة الى ما فيه من حسن التصوير البياني .

ولقد اضطر الشيخ المرصفي — وهو فى معرض الكلام عن الشعر — الى تعريفه ، ولكنه لم يات لنا بتعريف من عنده كما وهم المرحوم الدكتور محمد مندور ، بل لجأ الى الفصل الذى عقده ابن خلدون فى المقدمة عن صناعة الشعر ووجه تعلمه ، فنقله فى فصل خاص . وكان المرصفى امينا — كشأنه فى أكثر ما نقله — فاشار فى آخر صفحة ٤٦٣ من الجـــزء الثانى من الوسيلة الأدبية الى هذا النقل عن مقدمة ابن خلدون ، ولا أدرى كيف خفى هذا علي الدكتور محمد مندور ، فظن الفصل الخاص بصناعة الشـــعر هو من كلام المرصفى ومن ابتكاراته ، واسس على هذا ما أراد من احكام كما ذكرنا قبلا ، كما رتب عليه أن للشيخ المرصفى رأيا فى « وحدة البيت » لا « وحدة القصيدة » ، مع أن هذا الرأى رأى ابن خلدون بلحمه ودمه وألفاظه وحروفه حرفا حرفا ، ليس للمرصفى فيه كلمة واحدة ، وما هو الا ناقل امين

لم يغفل أن ينسب القول الى صاحبه .

ولقد كان الدكتور محمد مندور واهما حين تحدث عن الشيخ حسين المرصفى قائلا . (فالشيخ حسين نفسه لا يزال يقرر ان للبيت مثلا وحدة شعرية مستقلة بذاتها ، حيث يقول فى مستهل حديثه عن الشعر : انه كلام مفصل قطعا قطعا متساوية فى الوزن ، متحدة فى الحرف الاخير من كل قطعة ، وتسمى كل قطعة من هذه القطعات عندهم بيتا ، ويسمى الحرف الاخير الذى تتفق فيه رويا وقافية . وينفرد كل بيت بافادته فى تركيبه ، حتى كأنه كلام وحده ، مستقل عما قبله وما بعده ، واذا افرد كان تاما فى بابه ...) فليس هــذا كلام المرصفى وانمـــا هو ناقله بالحرف الواحــد عن ابن خلدون وناسبه اليه . ومن هنا كان كلام الدكتور مندور عن « وحدة البيت » عند المرصفى احق ان يكون عن ابن خلدون ...

وهذا التعريف الخلدونى للشعر ـ المنسوب وهمـــا الى الشيخ المرصفى لمجرد انه ذكره فى الوسيلة الادبية ـ يظهر بوضوح قضية «وحدة البيت» فى القصيدة العربية، ويفصح أيما افصاح عن مناهج القـــدامى من شعراء العرب ، من حيث الاهتمام بالبيت من القصيدة ، كأنه وحدة مستقلة قائمة بذاتها . وهى المنــاهج التى سار عليها النقاد من قديم ، والتى يحاول الشعراء اليوم ان يتحرروا منهـــا ، بل نجح كثير منهم فى هذه المحاولة الجديدة، بجعل القصيدة كلها وحدة موضوعية، فان هذه الخطرات الخاطفة المتقطعة فى كل بيت تخرج القصيدة العربية عن الوحدة الموضوعية المنشودة لها ...

ويبدو لنا أن قبول الشيخ حسين المرصفى لرأى إبن

خدون والقـــدماء فى « وحدة البيت » دون تعليق أو محاولة للتجديد ، هو نوع من التمسك بالقـديم ، مع مراعاة اعتبارات الزمن والملابسات ، فان الزمن فى أيامه كان غير ملائم للدعوة الى وحدة القصيدة كاملة . فقد كان الشعر فى أيامه ـ وخاصة على يد محمود سامى البارودى ـ يمضى فى حركة احياء للقـــديم بمحاكاة النماذج العربية القديمة الرائعة . فكان من غير المعقول أن تطفر الحركة من « احياء » الى « تجديد » لم يكن الذوق العام مستعدا لاستقباله فى ذلك الوقت ولا متهيئا له ...

ومن هذا النقل لكلام ابن خلدون فى وحدة البيت يتضح لنا أن الشيخ حسين المرصفى لم يكن فى ذهنه ان يكون « مجددا » فى أصول النقد الأدبى ، وانمـــا كان « محييا » لها .. وما كان له أن يكون غير ذلك ، فان حركة التجديد لم تكن فى القرن التاسع عشر قد تهيأت لها الظروف الملائمة . ولم يشذ الشعر فى هذا عن النثر ولا عن الدراسات الأدبية والنقدية . فان الشعر ـ مثلا ـ بعد أن نفض عنه محمود سامى البارودى أثواب البلى ، وأعاد اليه رواء القديم وقوته ، لم ينزع الى التجديد الا فى القرن العشرين ، حين نهض رجال من امثال عباس محمـــود العقـاد ، وابراهيم المـازنى ، وعبد الرحمن شكرى ، وخليل مطران ، وميخائيل نعيمة بدعواتهم المختلفة الى التجديد فى الشعر ، والى نقد النماذج المعاصرة لهم المقلدة التى كانت تعد فى ذلك العهد قمة لا تطاول ...

وكذلك النثر لم يطفر الى الترسل والانطلاق والتحرر من قيود المحسنات دفعة واحدة ، بل كان لابد أولا من

حركة « احياء » لروائع النثر العربى ، على يد عبد الله فكرى باشا الذى أحيا الكتابة ـ وخاصة الديوانية ـ وأعاد لهـا ديباجتها ورونقها ونصوعها ، ولكن فى اطار السجع وبعض الزخارف التى لم يأت التخلص منها الا فى مرحلة تالية ، على يد رجال من أمثال الشيخ محمد عبده ، وأديب اسحاق ، فى أخريات القرن التاسع عشر، فلما جاء القـرن العشرون كان النثر مستعدا للترسل المطلق ، والانعتاق جملة من زخارف القول .

على أن فضل الشيخ حسين المرصفى فى النقـد الأدبى الذى أحيا حركته فى محاضراته التى جمعت فى كتابه « الوسيلة الأدبية » يظهر جليا فى ذوقه السليم فى الموازنات التى كان يعقدها فى هذا الكتاب الممتع بين الأدباء والشعراء . وقبل أن يكون المرصفى ذيقا بطبعه وفطرته ، كان ذيقا بعلمه واطلاعه وقراءاته الواسعة . فقد اورد فى الجزء الثانى من الوسيلة الأدبية كلاما جيدا لابن خلدون فى تفسير كلمة (الذوق) التى تدور على ألسنة البلاغيين وأصحاب البيان . ولكنه ـ كعادته فى عدم قبول الآراء قضايا مسلما بها مهما كان مصدرها ـ لم يكن راضيا كل الرضى عن تعريف ابن خلدون للذوق، فعقب عليه مستدركا بكلام قال فيه : (وأما قوله فى تفسير الذوق فأبين منه ما سألقيه عليك ، وذلك أن بين الأشياء تناسبا ، بحيث متى استوفت عند اجتماعهـا حظها منه أقامت فيها صورة يتفاوت الناس فى ادراك حسنها طبعا وتعلما . فمنهم من لا يدرك ذلك ولا يلتفت اليه ، وليس مدركوه سواء فيه . فمنهم من يقنع بادراك ظواهر الأشياء ، ومنهم من ينتهى ادراكه الى اعتبـار دقائقها وخوافيها . وتعتبر ذلك بمـا تشاهده من شدة

سرور بعض الناس عنـد رؤيته للأشياء المنـاسبة التى يلائم بعضها بعضا ، وشدة نفرته وانقباضه عنـد رؤية خلافها ، لا يختص ذلك بشيء دون شيء . فنراه يتأمل الأبنية وأوضاعها ، وما اشتملت عليه من مكملات الانتفاع بها ، فاذا أدرك فيها التناسب اللائق بهـا رأيته قد انشرح صدره . وتجدد سروره ، وأخذ فى نعتها والثناء على صناعتها . وذلك مثـل تعتبر به غيره ، وتتأمل تفاوت الناس فى ذلك الادراك . فالادراك الذى يتعلق بتناسب الأشياء ويوجب الاستحسان والاستقباح هو المسمى « بالذوق » . وهو طبيعى ينمو ويتربى بالنظر فى الأشياء والأعمال ، من جهة موافقتها للغـاية المقصودة منها) .

ويكفى المرصفى فضلا فى « الوسيلة الأدبية » أنه نبه الناس فى عصره الى كتب لم يكونوا يقرءونها ، فجاءت نقوله عن هذه الكتب توكيدا لبيان حاجة الأدباء الى القراءة ، ونبهت الناس الى قيمة تلك الكتب التى كاد ينقطع العهد ما بينها وبينهم . لقـد نقل لنا بعض الأراجيز من كتاب « الصادح والباغم » لابن الهبارية ، ونقل كثيرا من ابواب ديوان الحماسة لأبى تمام . ولم يكتف المرصفى بالنقل ، بل أوصى بالاطلاع عليـه وعلى غيره . وقرأ كتاب « الصناعتين » لأبى هلال العسكرى فأعجب به ، ورأى مؤلفه قد رتبه على عشرة أبواب ، فآثر أن يلخص الكتاب كله تلخيصا دقيقا . وأن يودعه « الوسيلة » مصرحا فى ذلك بقوله : (وهاأنذا ملخص لك منه ما تقع الكفاية به فى ذلك الغرض) .

وقد استغرق تلخيص كتـاب « الصناعتين » سبعين صفحة من كتاب « الوسيلة الأدبية » .

وأعجب المرصفى بكلام مؤرخنا ابن خلدون فى صناعة الشعر وتعلمه ، وفى الذوق ، فنقله كله مصرحا بهـذا النقل كعادته فى كثير مما كان ينقله ، مما لا يدع مجالا للخلط بين كلامه وكلام غيره !

ولما بلغ المرصفى موضوع الكتابة والتمكن فى معرفتها نقل عن القلقشندى صاحب « صبح الأعشى » كلامه فى الأصول التى يعتمـدها الـكاتب فى مكاتباته . وبلغ المنقول هنا أربع عشرة صفحة .

ولابد هنا من وقفة قصيرة عند الكتب التى نقل عنها الشيخ حسين المرصفى فى كتابه « الوسيلة الأدبية » حتى تتضح لنا ميول الرجل واتجاهاته فى القراءة وذوقه فى مطالعاته التى جعل منهـا مادة وافرة لـكتابه ، وحتى نستطيع أن نحكم على المصادر والمراجع التى كونت ثقافته فى الأدب والنقد . لقـد نقل الرجل عن كتاب « المثل السائر » لابن الأثير ، وهو كتاب جيد فى البلاغة وصفه ابن خلكان بقوله : (جمع فيه فأوعى ، ولم يترك شيئا يتعلق بفن الكتابة الا ذكره) . ونقل عن مقدمة ابن خلدون فى غير موضع ، وخاصة فى الشعر والكتابة والذوق ، ونقل عن « يتيمة الدهر » للثعالبى ، ونقل عن « صبح الأعشى » للقلقشندى ، وأفـاد كثيرا من « الـكتاب » لسيبويه فى النحو ونقل عنه فى غير موضع . كما نقل عن « المفصل » للزمخشرى ، وعن « عروس الأفراح » لابن السبكى بهاء الدين بن أحمد ، وهو فى شرح كتاب « تلخيص المفتاح » فى علوم البلاغة ، ونقل عن « حسن التوسل ، فى صناعة الترسل » لشهاب الدين الحلبى من أدباء القرن الثامن الهجرى الذين اشتهروا بالبلاغة وحسن الانشاء . أما افادته من كتاب « الصناعتين »

لابى هلال العسكرى فتبدو فى الصفحات السبعين التى نقلها منه فى كتابه ولخصها تلخيصا مفيدا . أما دواوين الشعر العربى وكتب الأمثال والمقامات والرسائل فقد نقل المرصفى من نماذجها الجيـــــاد ما دل على حسن اختياره ، وسلامة ذوقه ، وصحة استشهاده .

ولم يقف المرصفى بالنقل عند القدماء ، فقد جاء عند المحدثين من معاصريه يروى لهم ، وينقل عن بعض كتبهم ، فروى لمحمود ســامى البارودى ، ولعبد الله فــكرى ، ونقل عن طريق التلخيص أربعة أبواب فى فنون الكتابة من كتــاب « المطالع النصرية » للشيخ أبو الوفاء نصر الهورينى الذى كان معــاصرا له ، والذى تولى رياسة التصحيح فى مطبعة بولاق الأميرية بعد عودته من أمامة البعثة العلمية فى باريس .

لقد كان المرصفى امينا فى النقل عن كتب غيره ممن سبقوه أو عاصروه ، فهو يشير الى المنقول عنه فى اكثر حالاته ، ولكنه فى حالات قليلة ــ بل نادرة ــ لا يصرح باسم من نقل عنه أو أخذ منه ، كما فعل فى حديثه عن نقد الشعر وسقوط درجته ــ كيفما كان ــ عن درجة الــكتاب العزيز من البلاغة . فنراه هنا يقول : (وأنا مورد لك من ذلك أنموذجا ، قال أحد المصنفين فى ذلك الغرض ...) .

وقد لا يكتفى المرصفى بذكر اسم المؤلف الذى ينقل ، بل يضيف الى ذلك نعته بما يراه ــ فى تقــديره ــ أهلا له من النعوت . وقد يضيف الى نعت المؤلف المنقول عنه نعت كتابه والحكم عليه حكما صحيحا فى ايجاز ودلالة كافية . وتدل هذه النعوت فى مجموعها على مبلغ اعجاب الشيخ المرصفى بمن ينقل عنهم ، وبمصنفاتهم . اسمعه

وهو يقول فى الجزء الأول من الوسيلة صفحة ١٠٩ عن كتاب « الخلاصة » في النحو المشهور بألفية ابن مالك : (وقد آن أن نمضى معك فى تقرير المسائل النحوية على ترتيب « الخلاصة » لحسنه ، وعموم استعمالها ، والانتفاع بها شرقا وغربا ، منذ نظمها ابن مالك ــ رحمه الله تعالى ــ فلقد كان صادق النية ، صحيح العزم ، شديد الاجتهاد فى تأييد الاسلام ونفع المسلمين ، حتى ان الناس بعده أكثروا من نظم الفيات مختلفة وزادوا فيها على «الخلاصة» ولم يلتفت اليها ، وأسمعه وهو ينقل فى الجزء الأول من الوسيلة ص ١٠٧ نصا عن ابن خلدون فيقول عنه : (قال أحد أكابر عقلاء الأمة ، وقدوة سائر الأمم ، فى اخراج التاريخ عن كونه قصصا وأحاديث يتعجب منها ، أو يضحك عليها ، الى جعله أكثر مرب للعقول ، وأجل مظهر للانسانية : عبد الرحمن بن خلدون ــ رحمة الله تبارك وتعالى عليه ..) فانظر أى وصف يصف به المرصفى مؤرخنا الكبير ابن خلدون ويصف مقدمته .

ويظهر أن اعجاب الشيخ حسين المرصفى بابن خلدون كان لا يقف عند حد ، فقد نقل عنه مرارا فى الجزء الأول من الوسيلة وفى الجزء الثانى منها . وكان لا يكتفى بنقل كلامه ، بل كان يعقب عليه ويعلق ، ويشرح ويفسر ، كأنما يجد لذة كبرى فى مناقشة ذلك العقل العربى الكبير .

ويخيل الينا أن هدف المرصفى من «الوسيلة الأدبية» كان فى أن يجعل منها موسوعة أدبية واسعة الأطراف . ويقول على مبارك باشا ان المرصفى جمع فيها نحو اثنى عشر فنا : ولكننا من طول تتبعنا لها ، وتنقيرنا فيها ، وجدناها تشتمل على فنون كثيرة ، ففيها علوم النحو ،

والصرف ، والبلاغة ، والعـــروض ، والقـوافى ، والـكتابة ، والانشاء ، وقرض الشـعر ، والموازنات الأدبية ، والطرائف ، والأمثال ، والمقامات ، والنقد ، واللغة ، وفن المقولات العشر ، والتاريخ ، وتواريخ نشأة الفنون ، وتاريخ التربية ، والكتاب ، وتدوين العلوم ، ونشأة اللغة العامية وعلاجها ، ومخارج الحروف ، وغير ذلك من المسائل التى توسع دائرة معارف القارىء .

وعلى الرغم من استغراق المرصفى فى الكتب القديمة وطول صحبته لها ، وأخذه عنها ، نراه ينزع الى ترك تقسيماتها ، وهجر تبويبها القديم المألوف . فلا يستعمل فى التقسيم والتبويب ألفاظ : المقـدمة ، والباب ، والفصل ، والكتاب ، ولكنه يعدل عنها عدولا تاما ، ويستعمل بدلا منها ألفاظ : الصــدر ، والجهـة وما اليها ...

ولقد ترك المرصفى نفسه على سجيتها فى « الوسيلة الأدبية » ، فكان كثير الاستطراد ، يخرج من موضوع الى موضوع ، ما دام يرى فى ذلك الخروج أو الاستطراد نوعا من الاهتمامات الأدبية التى كان يراها أحق بالذكر ولو فى غير موضعها ، فقد يكون مثلا فى موضع الحديث عن قاعدة نحوية وشرحها ، ولكنه يجد المجال يدعو الى الاستطراد ، فيخرج من موضوع القاعدة الى موضوع أدبى ساقت اليه المناسبة . وخير مثال يحضرنا على هذا ما صنعه فى الجزء الأول من الوسيلة صفحة ١٣٠ حيث كان يشرح العبارة : (كل امرىء مجزى بعمله ، ان خيرا فخير ، وان شرا فشر) ويتعرض للحديث عن حذف كان واسمها فى مثل هذه العبارة . ولكنه انتقل من القاعدة النحوية الى ايراد مقامة من مقامات الحريرى

عنوانها « المقامة النحوية » ، ومهد لهذا الانتقال او الاستطراد بقوله : (وعلى هذه المسألة بنى أبو محمد الحريرى مقـامته الرابعة والعشرين ، الموسومة بالمقامة النحوية ، ورأيت ايرادها فى هذا الموضع ملتمسا من الطلبة أن ينعموا أنظارهم فى كيفية سياقها ، وتحيـل البلغاء على ايراد المسائل العلمية فى الأساليب الادبية ، عسى ان يلمحوا الغاية التى لها منعى من يعد نفسه ، ويتحامل على قواه ، ويصرف من نفيس عمره فى تعلم الفنون المتعلقة باللغـة العـربية ...) . ولم يـكتف المرصفى بهذا الاستطراد المفـاجىء فى نقل مقـامة للحريرى ، ولكن غلب عليه طبع الأديب ، وواجب المعلم ، فأخذ يفسر ما أودع هذه المقـامة من النـكت العربية والأحاجي النحوية . ولم يكتف بهذا أيضا فأورد قصة ندمانى جذيمة على طولها . وقد استغرق هذا الاستطراد نحو عشر صفحات من كتاب الوسيلة الأدبية ، لم يجدها المرصفى كثيرة فى هذا المقام .

ولم يضن الشـيخ حسين المرصفى فى كتـابه بالاستشهادات الكثيرة ما بين آيات قرآنية ، وحـديث نبوى ، وأشـعار ، وطرائف ، وأمثال ، وحكايات ، ونوادر . وقد كان قصده فى هذا المنحى ظاهرا ، حتى يمد القـارىء والطالب بأكبر قدر مستطاع من الشواهد التى تعين على تربية الملكة ، وتحسين الذوق . وقد كان هو حافظا لكثير من جيد الشـعر والنثر ، ودعا الى الاكثار من الحفظ ـ وخاصة فى الشعر ـ حين يقول فى الجزء الثانى من الوسيلة نقلا عن ابن خلدون : (اعلم أن لعمل الشعر وأحكام صناعته شروطا أولهـا الحفظ من جنسه ، أى من جنس شعر العرب ، حتى تنشأ فى

النفس ملكة ينسج على منوالها ، ويتخير المحفوظ من الحر النقى الكثير الأساليب . وهذا المحفوظ المختار اقل مايكفى فيه شعر شاعر من الفحول الاسلاميين مثل ابن أبى ربيعة ، وكثير ، وذى الرمة ، وجرير ، وأبى نواس ، وحبيب ، والبحترى ، والرضى ، وأبى فراس ، وأكثره شعر كتاب « الأغانى » لأنه جمع شـــعر أهل الطبقة الاسلامية كله والمختار من شـــعر الجاهلية . ومن كان خاليا من المحفوظ فنظمه قاصر ردىء ، ولا يعطيه الرونق والحلاوة الا كثرة المحفوظ . فمن قل حفظه أو عدم ، لم يكن له شعر ، وانما هو نظم ساقط ، واجتناب الشعر أولى بمن لم يكن له محفوظ . ثم بعد الامتلاء من الحفظ وشحذ القريحة للنسج على المنوال ، يقبل على النظم ، وبالاكثار منه تستحكم ملكته وترسخ . وربما يقال ان من شرطه نسيان ذلك المحفوظ ، لتمحى رســومه الحرفية الظاهرة ، اذ هى صادرة عن استعمالها بعينها ، فاذا نسيها وقد تكيفت النفس بها انتعش الأسلوب فيها كأنه منوال يأخذ بالنسج عليه بأمثالهــا من كلمـــات أخرى ضرورة ...) وقد وهم المرحوم الدكتور محمد مندور ــ مرة أخرى ــ فظن أن هذا الـــكلام للشيخ حسين المرصفى ، لا لابن خلدون ، ورتب عليه أن هذه العبارات المرصفية هى جماع الأسس الســليمة للبعث الشعرى المعاصر ، بل لكل خلق شعرى سليم ؟! وأسس ــ رحمه الله ــ على هذا الوهم موازنة بين الناقد الفرنسى ديهامل وبين المرصفى ! وكان حق الموازنة أن تكون بين ديهامل وبين المؤرخ ابن خلدون !!

ويلاحظ أن المرصفى فى ايراده للقصائد والأشــعار الجيدة لفحول الشــــعراء العرب قد راعى التسلسل

الزمنى . وتدرج العصور التـــاريخية من الجاهلية الى وقته . فقسم الشعراء الى طبقات ثلاث : الطبقة الأولى للعرب جاهليين واسلاميين من المهلهل الى بشار بن برد ، الثانية للمحدثين الذين كانوا يحـرضون على موافقـة العرب ويجتهدون فى سلوك طرائقهم من أبى نواس الى من قبل عبد الرحيم المعروف بالقاضى الفاضل ، والثالثة للشعراء الذين غلب عليهم استعمال النكات والافراط فى مراعاة البديع ، وهم من القـــاضى الفاضل الى هذا الوقت ...

ولقــد سبق الشيخ حسين المرصـفى المستشرق الألمانى بروكلمان ، والأستاذ حسن توفيق العدل المتخرج فى دار العــلوم وأحد أساتذتها الى مراعاة تسلسل العصور من الجاهلية الى الاسلام فما بعده ، فى تدريس الأدب العربى . وهى الطريقة التى أصبحت سائدة بعد ذلك فى كتب الأدب العــربى وتاريخـه ، ككتاب المؤرخ جرجى زيدان ، وكتــاب « الوسيط » للشيخ أحمـد الاسكندرى وزميله ، وكتاب محمد حسن نائل المرصفى، وكتاب الأستاذ أحمد حسن الزيات وغيرها .

ومن حسنات الشـيخ حسين المرصفى فى كتــاب « الوسيلة الأدبية » انه خلص القواعد (والأحكام التى اشتملت عليها العلوم الآلية ، من سواقط الشبهات ، وتناقض العبارات ، حتى يسهل عليك ضبطها ، وجودة حفظها ، ويتهيأ لك ملاحظتها متى شئت) ولكى (يبتدىء الطالب بتحصيل الفنون الأصلية صافية نقية من الشبهات والاعتراضات وايراد العبارات المنقوضة) حـ١ ص٢١٤ . وبهـذا التلخيص والتخليص من الشوائب والمـاحكات والمناقضات كانت أبواب النحـــو والصرف والبلاغة فى

كتاب « الوسيلة الأدبية » مطلبا سهل المنال لكل طالب، وخلت من التعقيدات والشبهات التى كانت فى كتب الأقدمين . وبهذا أيضا مهد الشيخ حسين المرصفى السبيل لكتب جديدة فى قواعد اللغة العربية والبلاغة والصرف ألفها متخرجون فى دار العلوم من تلاميذه وتلاميذ تلاميذه ، ككتب « الدروس النحوية » التى تخرج بها كثير من طلبة المدارس حتى العقد الثالث من القرن العشرين .

تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان

١٨٦١ م – ١٩١٤ م

سيرة حياة

ان مصادرنا فى الترجمة لحياة جرجى زيدان – مؤرخ العرب والاسلام والحضارة الاسلامية والأدب العربى – متنوعة ، وان كان لم يصدر فى سيرته كتاب قائم بذاته الا ذلك الكتيب الذى وضعه الاستاذ أنور الجندى ، وكتاب آخر كتبته ونشر فى سلسلة « أعلام العرب » التى تصدرها المؤسسة العامة للتأليف والنشر ، فكان أوفى ما صدر فى سيرة زيدان من كتب .

ولقد تناولته بالدراسة والترجمة والاشارة السريعة بضعة كتب ظهر بعضها فى حياة الرجل ، كمثل كتاب « مرآة العصر » الذى أصدره الياس زخورة سنة ١٨٩٧ فى ثلاثة أجزاء فى مجلد واحد ، فكان أقدم مصادرنا لسيرة هذا الرجل المتعدد الجوانب .

على أن هناك ترجمة مختصرة دقيقة له ملحقة بآخر كتاب (تاريخ آداب اللغة العربية) أو على وجه الدقة ملحقة بذيل الجزء الرابع والأخير من هذا الكتاب الذى لم يكد الرجل ينتهى من تأليفه حتى فاجأته المنية فى

شهر يوليو سنة ١٩١٤ ، فرأى القــائمون على اصدار الكتاب من أسرة دار الهلال أن يختموه (بخلاصة ترجمته وذكر مؤلفاته على ما يقتضيه موضوع الكتاب) .

وتكاد تداني هذه الترجمــة من حيث التاريخ تلك الترجمــة الموجزة الدقيقة التى كتبها الدكتور يعقوب صروف رئيس تحــرير « المقتطف » فى عدد سبتمبر سنة ١٩١٤ من مجلة المقتطف ، فلم تزد على صفحتين اثنتين ، ولكن جاء في متنها وهامشها تصحيح مهم لمـا جاء فى الترجمة الملحقة بـكتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » . خاصا باشــتراك جرجى زيدان فى تحرير المقتطف . فقد جاء فى تلك الترجمــة ان ادارة المقتطف طلبت الى جرجى زيدان سنة ١٨٨٦ (أن يتولى ادارة اشغالها ، والمساعدة فى تحريرها ففعل) . ولــكن الدكتور يعقوب صروف ــ وهو صاحب الــكلمة الفاصلة فى هذا الموضوع بوصفه رئيسا لتحرير المقتطف يومئذ ــ فى ترجمته لجرجى زيدان ــ أو فى تأبينه له على الأصح ــ انكر أن يكون صاحبنا قد حرر فى المقتطف شيئا ، الا خاتمة السنة الحــادية عشرة ، وهى نصف صفحة فقط ، كتبها جرجى زيدان حين كان مشــتغلا بادارة المقتطف لا بتحريره . ومعنى هذا أن الثمانية عشر شهرا التى اشتغل فيها جرجى زيدان بالمقتطف كانت «للادارة» فقط ، ولم يجر قلمه فيهــا بالتحرير الا على نصف الصفحة التى أشار اليها الدكتور يعقوب صروف .

وقد اضطر الدكتور صروف ــ على أدبه وحيائه الجم ــ الى تصحيح هذه الواقعة اظهارا للحقيقة كما قال فى تأبينه وترجمته لزميله وصديقه جرجى زيدان . وعلى الرغم من هــذا التصحيح المنشور فى مجلة المقتطف

سنة ١٩١٤ ظل كثيرون من مؤرخي سيرة زيدان ومترجمي حياته يقعون في الوهم ، ويذكرون وينقلون واحدا عن واحد أن جرجي زيدان قد شـــــارك في تحرير مجلة المقتطف . ومن هؤلاء الأب لويس شيخو اليسوعي الذي ذكر في كتابه « الآداب العـــربية في الربع الأول من القرن العشرين » أن مجلة المقتطف انتدبت جرجي زيدان ليكتب فيها ، فنشر عدة مقالات مستحسنة !!!) مع ان هذا الندب كان للادارة لا للتحرير . وقد جرى على هذا الوهم بغير تحقيق ولا تثبت لفيف من أفاضل الباحثين الذين تكن لهم كل تقدير كالأستاذ عمر رضا كحالة في موسوعته الكبيرة « معجم المؤلفين » ، والأستاذ المرحوم طاهر الطناحي في الفصل الجيد الذي كتبه في كتاب « عصاميون عظماء من الشرق والغرب » ، والأستاذ محمد رجب البيومي في البحث الطيب الذي كتبه عن جرجي زيدان في العدد ٥٢٢ من مجلة الثقافة الصادر في ٢٨ من ديسمبر سنة ١٩٤٠ ، والدكتور محمد يوسف نجم في كتابه « القصة في الأدب العربي الحديث » ، وهو ينقل عن الترجمة المدونة بذيل « تاريخ آداب اللغـــــة العربية » نقلا حرفيا ، والدكتور جمال الدين الشيال في كتابه « التاريخ والمؤرخون في مصر ... » .

وهذه الحقيقة في سيرة حياة جرجي زيدان قد آن لهـــا اليوم أن تتضح بعد أن ظلت منزوية في ركن من الاغفال والنسيان ، منذ قام بتصحيحها والتنبيه اليهـا الدكتور يعقوب صروف في سنة ١٩١٤ .

ولو أن هـذا التصحيح المهم قـد جاء من رجل غير أستاذنا المغفور له الدكتور صروف ، الذي عرفنا الكثير من خلقه العظيم ، لقلنا انه تصحيح ذو غرض ، وغير

برىء ... ولكن الرجل كان صادقا فى تصحيحه ــ كعهده فى أمره كله ــ وما علمنا أن أحدا قام بالرد على الدكتور يعقوب صروف ليناقضه فى هذه الحقيقة التى لا نعلم له مصلحة خاصة فى تصحيحها .

وليست هذه هى الواقعة الوحيدة فى حياة جرجى زيدان التى تحتاج الى تصحيح . فهنـــاك تاريخ وفاته الذى اضطرب فيه بعض من ترجموا له . فقـــد ذكر « معجم المؤلفين » أنه توفى بالقـــــاهرة فى ٢١ ايلول « سبتمبر » سنة ١٩١٤ . وذكر شارحو ديوان شـــاعر النيل محمد حافظ ابراهيم المطبوع سنة ١٩٣٧ أنه توفى فى شهر أغسطس سنة ١٩١٤ ، بل ذكرت مجلة المقتطف فى عدد أغسطس سنة ١٩١٤ أن صاحب الهلال توفاه الله بغتة فى يوم الثلاثاء مساء فى ٢١ يوليو سنة ١٩١٤ . وجاء فى الترجمة الملحقة بذيل الجزء الرابع من كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » أن جرجى زيدان توفى فى ٢٢ يوليو سنة ١٩١٤ .

ولعل السر فى فرق يوم واحد بين التاريخ الذى ذكره صروف فى المقتطف ، والتـــاريخ الذى جاء فى ترجمة زيدان بآخر كتابه فى آداب اللغة العربية يكمن فى أن أهل جرجى زيدان شكوا ساعة الوفاة فى وفاة الرجل . فقد كانت دلائل الصحة بادية عليه قبل وفاته بلحظات ، وقد مات بين كتبه وأوراقه ، ولم يمت بعلة ولا شكوى من مرض ، وكانت ملامح الموت لا تبدو على وجهه ، فحسبها أهله اغفاءة قصيرة أو اغماءة قد يصحو الرجل بعدها ... ويؤكد لنا هذا ما جاء فى الترجمة المطـولة لحياة جرجى زيدان التى نشرت فى عدد اكتـوبر من مجلة الهـــلال سنة ١٩١٤ . فقد جاء فيها : (وبعد أن أقيمت صـــلاة

الجنازة في الـكنيسة لحظ أهله أن هيئة الموت لم تبد على وجه الفقيد ، بل صارت علامات الحياة اظهر فيه مما كانت في الصباح ، ففحصه الأطباء فقـالوا : ان كل الدلائل تدل على حـدوث الموت ... لـكن اهله ظلوا مرتابين ، فعـدلوا عن دفنـه ، واقروا على ابقائه الى الصباح . ولما كان الصباح خاب أملهم الضعيف ، فدفنوا فقيدهم ، وهم يتمنون لو يفدونه بأرواحهم) .

ومن هنا جاء الخلاف في يوم واحد بين ٢١ يوليو سنه ١٩١٤ ، و ٢٢ يوليو ١٩١٤ . اما الخلاف في شهر او شهرين فهو من الاوهام التى نرجو ان يصححها هذا التحقيق .

على أن هذا الاختلاف اليسير الهين في يوم أو شهر وبعض شهر ، يذكرنا بما وقع فيه مترجمو سيرة المفكر الثائر اديب اسحاق ، فقد كادوا يجمعون على ان وفاته سنة ١٨٨٥ ، الا واحدا فقط هو المستشرق المعـروف الدكتـور كارنيلوس فانديك الذى ذكر تأريخ الوفاة صحيحا فى سنة ١٨٨٤ حيث تؤكد هذا قرينة أخرى قوية ، وهى أن نعى أديب اسحاق فى مجلة المقتطف كان فى عدد يوليو سنة ١٨٨٤ ، فليس من المعقول أن تكون الوفاة قد وقعت فى سنة ١٨٨٥ . ومن حسن الحظ أنه كان لنا حظ السبق الى تصحيح تاريخ وفاة أديب اسحاق فى بحث لنا نشر بمجلة « المعرفة » التى تصدرها بدمشق وزارة الثقافة فى عدد شهر فبراير سنة ١٩٦٥ .

هاتان حقيقتان لابد من تصحيحهما والتنبيه اليهمـا فى معرض الحديث عن جرجى زيدان بمناسبة الحديث عن كتابه الرائد « تاريخ آداب اللغة العربية » . وما عدا

ذلك من الحقائق والوقائع مما يتصل بسيرة هذا المؤرخ اللغوى الأديب فلا اعتراض لنا عليه .

واذا كانت بضعة من الكتب قد أمدتنا بمعلومات هامة عن سيرة جرجى زيدان ، كما أن عشرات من المقالات فى المجلات قد امدتنا بحصيلة من المعارف الضرورية لترجمه الرجل ، فان هناك مذكرات خاصة لجرجى زيدان فـقـد رجع اليها ونقل عنها الأستاذ طاهر الطناحى وهو يكتب فى كتاب « عصاميون عظماء من الشرق والغرب » فصلا خاصا بسيرة زيدان . ولا شك أن هذه المذكرات التى كتبها صاحبها فى جو من الصراحة التامة وعدم التحرج من ذكر الفقر وصعوبات الحياة ، تلقى أضواء ساطعة قوية على حياة هذا الرجل الذى تعد سيرته درسا عظيما لـكل من يريد أن يأخذ بأسباب النجاح فى الحياة .

وتدلنا مذكرات جرجى زيدان الخاصة على طراز من الرجال نود أن تقع العين من مثله على كثير . فكثير من الناس — وخاصة من بلغوا شيئا فى الحياة أو نالوا من جاه الأمور قليلا — يتنـكرون لماضيهم ، ويستحون أن يذكر هذا الماضى البئيس أمامهم ، أو يذكروه هم على أطراف السنتهم .. ويحـاولون أن يطمسوه طمسا ، ويودون بجدع الأنوف — لو محى من تاريخهم ... ولكن العصامى جرجى زيدان كان غير هذا .. لقد كان أبوه صاحب مطعم متواضع فى بيروت ، وقد جمع الى الفقر الأمية فى العلم ، فلم يظفر بتعليم ، ولكن ذلك لا يمنع صاحبنا أن يقول فى مذكراته عن أبيه : (نشأت فى صباى وانا أرى والدى يخرج الى دكانه فى الفجر ، ولا يعود الا فى نحو منتصف الليل أو قبيله . وأرى والدتى لا تهدأ لحظة من الصباح الى المساء) .

واضطر الغلام جرجي زيدان — وهو في الحادية عشرة من عمره — ان يجيب دعوة ابيه اياه لمساعدته في ادارة المطعم ، ولو كاتبا للحسابات على الاقل . ووجد الاب من ابنه عونا نافعا ، فحبسه في المطعم وحجزه عن اتمام تعليمه الذى كانت نفسه تتحـــرق اليه .. وحسبت الام وخشي معها ابنها على مستقبله . ويحدثنا جرجى زيدان في هذه المذكرات بعبارته السمحة الطيبة قائلا :

(ولما مضى على اشتغالى فى ذلك المطعم عام وبعض العام ، خافت والدتى ان يطول مقامى ، ويضيع مستقبلى وكانت تكره المطاعم ، وكانت منذ طلبنى والدى لمساعدته تلح عليه أن لا يطول مقامى ، وهو يعدها .. فلما مضت السنة الأولى الحت عليـــه أن يخرجنى ويعيدنى الى المدرسة ، فقال لهـــا : انه قد أتم دروسه ، ولا فائده من كثرة الدرس . الا اذا كنت تنوين أن تجعليه كاتبا أو معلما ، فضـــلا عن ان كثرة التعليم تجعله متفرنجا متأنقا ، لا يأكل الا بالشوكة والسكين ، وربما حدثته نفسه أن يلبس اللباس الافرنجى .. !!) .

على ان هذا المطعم المتواضع كان نعمة كبرى على الغلام جرجى زيدان فيما بعد . فقد كان — بمن يحويهم كل يوم من نخبة الطاعمين — مثارا لطموح الفتى واتساع اهتماماته ، ففيه وعلى موائده المتواضعة التقى بالشيخ اليـــــازجى ، وعبد الله البستانى اللغوى صـــاحب معجم « البستان » وغيرهما ، واستمع الى احاديثهم ومناقشاتهم . وفيه التقى بطلبـــة الطب فى الـكلية الأمريكية فى بيروت سنة ١٨٦٦ . ولا شك أن هؤلاء الطلبة قد أثاروا حماسته لطلب العلم . ولا شك انهم هم الذين دلوه على طريق الدخول فى مدرسة الطب هناك .

فدرس العلوم الاعدادية التى تؤهله للالتحاق بقسم الطب فى الكلية سنة ١٨٨١ . ولم تزد مدة دراسته الاعداديه هذه على شهرين ونصف . وتصور لنا هذه المده القصيره روح العزيمة والجد التى تجلت فى الفتى منذ اول امره . والى هذه الروح يشير الشاعر خليل مطران فى رثائه له بقوله :

الا فى سبيل الله حكمتك التى
جلاها «هلال» مالىء الكون مقمر
وجد به رضت الصعاب فما كبا
الى أن دهاه جـدك المتعثر

ولقد كان لهذا المطعم أثر آخر فى اهتمامات جرجى زيدان التى تجلت بعد هذا فى اطلاعاته الواسعة على عدد من اللغات الأجنبية ، فقد التقى فيه بأحد الحرفاء « الزبائن » المترددين عليه للطعام ـ وهو المعلم مسعود الطويل ـ الذى كان يشتغل بتعليم الشبان اللغة الانجليزية فى مدرسة خاصة فتحها لهذا الغرض . ولم يتوان جرجى زيدان عن الأنضمام الى هذه المدرسة المسائية . وما هى الا خمسة أشهر حتى كان صاحبنا يقرأ « رحلة كوك » باللغة الانجليزية فى سهولة ويسر .

وكان كتاب « رحلة كوك » أول كتاب يقرؤه الفتى بالانجليزية ، الا أن كتبا عربية كثيرة قد سبقت الى يديه ، وحصل عليها بماله الذى كان يقتطعه من مصروفه. والغرام بشراء الكتب واقتنائها ـ مهما كانت أثمانها ـ ظاهرة تلفت النظر فى حياة جرجى زيدان . ويروى هو نفسه لنا فى مذكراته الخاصة كيف اقتنى لأول مرة فى حياته كتاب « مجمع البحرين » للشيخ ناصيف اليازجى، فيقول : (كنت أسمع بكتاب مجمع البحرين ، واحب

اقتناءه ، لكنى كنت استغليه ، لأن ثمنه على ما اظن كان أربعة فرنكات او خمسة . ففى ذات يوم كنت جالسا بالمطعم ، فمر غلام وبيده هذا الكتاب مستعملا ، وهو يعرضه للبيع ، فاشتريته منه بتسعة قروش بيروتيه ، اى أقل من نصف ثمنه ، وفرحت به كثيرا . ولما رجع والدى سألنى عنه ، فأخبرته انى اشتريته بتسعه قروش ، فزعل وقال : أتدفع فى هذا الكتاب تسعة قروش ، وتبدل الدراهم بورق لا فزعلت ولم أجبه . ولما انصرفنا للبيت فى المساء ، وكانت الوالدة قد أعدت لنا العشاء ، اظهرت انى لا أريد الطعام ، وذهبت للنوم ، وأنا أتوقع أن يدعوانى ، ولا يتركانى أنام جائعا . وسمعت والدتى تعنف والدى لاغضابى حتى نمت بلا اكل ، ولكنه أصر على رأيه ... واتفق أن جاء أمين فياض . أحد أصدقاء والدى ، للسهرة عنده فى تلك الليلة ، وكان يتودد الى ، فسأل عنى ، فقيل له انى نمت ، واغتنمت والدتى هذه الفرصة ، وشكت اليه عناد والدى ، فسأله عن سبب غضبه ، فقال : انه يصرف الدراهم فى شراء الورق بلا فائدة ، فأجابه : أشكر الله يا أبا جرجى أن ابنك ينفق الدراهم فى شراء الكتب ، وليس فى السكر ونحوه . انها نعمة يجب أن تشكر الله عليها . وسمعت كلمات هذا الصديق وأنا أتظاهر بالنوم ، وللحال اشتد ساعد والدتى ، وقامت فأيقظتنى ، وأجلستنى الى المائدة ، وطيبت خاطرى ، وكذلك والدى ... ولا تزال هذه الحادثة نصب عينى ..) .

لقد كان الحافز الى التعلم عند جرجى زيدان شخصيا وطبيعيا ، ولكن ظروفا مواتية أعانت على تقوية هذا الحافز ودفعه الى الأمام ، على الرغم من عدم مواتاة

الظروف المادية التى كانت تعيش فيها اسرته ، ولم يبال الفتى بهذه الظروف المعاكسة ، وحاول دائما أن يتغلب عليها .

وعلى أبواب السنة العشرين من عمره ، وفى سنة ١٨٨٠ ، كانت قد ظهرت الطبعة الثانية لكتاب « سر النجاح » لصمويل سميلز الذى ترجمه الى العربية الدكتور يعقوب صروف وأصدرته دار المقتطف .

وفى هذا الكتاب صور لنماذج بشرية نجحت فى الحياة ، وتغلبت على ما فيها من عقبات ، استنادا الى العزيمة والدأب ، والجد والكفاح ، وعدم تسرب الملل واليأس الى النفس ، واقتنى الفتى نسخة من هذا الكتاب ، ورأى بعد قراءته أن المطالب العالية فى الحياة لا يقف دونها ما قد يتوهم الناس حوائل وموانع . وكانت قراءته لهذا الكتاب مما دفعه دفعا الى الالتحاق بقسم الطب بالكلية الأمريكية .

ودخل الفتى جرجى زيدان مدرسة الطب ببيروت سنة ١٨٨١ ، وكان من أحسن طلابها استماعا للأساتذة ، واقبالا على العلم ، وعكوفا على الدرس ، على الرغم من انشغاله فى الوقت نفسه بأمور معاشه . وتشير المصادر الى انه اضطر الى ترك كلية الطب فى العام الثانى من التحاقه بها ، بسبب (الاختلال المشهور الذى حصل فى تلك المدرسة) ويشير مصدر آخر حديث الى انه فى سنة ١٨٨١ وقعت فى الكلية الأمريكية حادثة « الحرية الفكرية » . ويشير الأب لويس شيخو اليسوعى ــ نقلا عن مجلة الهلال ــ الى ما حدث فى المدرسة من المنازعات التى كان لزيدان فيها نصيب وافر ، ثم ما حصل بين المعلمين من الانقسام بسبب التعليم بالانجليزية ، بدلا من العربية .

وقد استطعت — بعد طول تنقير وتنقيب — أن أجد في السنة السابعة من مجلة المقتطف تفصيلا بقلم الدكتور يعقوب صروف نفسه لحادث المدرسة الكلية الطبية ببيروت ، وما لا بسه من استقالة ثلاثة من المشتغلين بالتدريس فيها ، وهم الدكتور كارنيلوس فانديك المستشرق المعروف ، وأستاذ الباثولوجيا بها ، والدكتور أدون لويس أستاذ الطبيعيات ، والدكتور وليم فانديك نجل العلامة المستشرق كرنيلوس ومدرس المادة الطبية والحيوان بالكلية .

واتجه جرجى زيدان بعد ذلك الى دراسة الصيدلة ، بدلا من الطب ، مع لفيف من رفاقه المبعدين من الكلية . وامتحنته لجنة خاصة محايدة من علماء سورية وأطبائها ، منهم الكولونيل مراد بك حكيمباشى العسكر ، والدكتور فانديك الأب ، والدكتور لويس ، فنال شهادة الصيدلة بالنجاح فى العلوم الآتية : اللغة اللاتينية ، والطبيعيات ، والحيوان ، والنبات ، والجيولوجيا ، والكيمياء العضوية والمعدنية ، والتحليل الكيمى ، والمواد الطبيعية ، والأقرباذين العلمى والعملى ، وجاء الى مصر بعد ذلك ، ورغب أن يدخل مدرسة الطب المصرية ، ولكن طول الدراسة فيها صرفه عنها . فاشتغل بالقلم والصحافة محررا فى جريدة « الزمان » . ورافق الحملة النيلية الى السودان سنة ١٨٨٤ مترجما . وقد أكسبته هذه الرحلة كثيرا من التجارب . وأفادته من المعلومات عن الثورة فى السودان ما أودعه كتابه « تاريخ مصر الحديث » .

وفى سنة ١٨٨٥ عاد الى بيروت من مصر ، وكانت قد سبقته الى العاصمة اللبنانية شهرته العلمية واللغوية

التي كسبها بقراءاته الواسعة ، فانتخب عضوا بالمجمع العلمي الشرقي . وهناك تعلم العبرانية والسريانية وأتقنهما واضاف اليهما بعض اللغات السامية والشرقية الأخرى .

وفي سنة ١٨٨٦ زار انجلترا وجال جولة مفيدة في متاحفها ومكتباتها الشهيرة . وفي شتاء العام نفسه عاد الى مصر حيث طلب اليه أصحاب مجلة المقتطف أن يتولى ادارته ، لا تحريره ، كما سلف القول . فنهض بالعبء على خير وجوهه . ولكنه آثر أن يستقل بالعمل وحده ، فاستقال من ادارة المقتطف سنة ١٨٨٨ حيث تفرغ للكتابة والتأليف ، وفي هذه الفترة أتم تأليف كتابه « تاريخ مصر الحديث » .

ولم يكن كتاب « تاريخ مصر الحديث » أول الكتب التي ألفها جرجي زيدان ، فقد سبقه بضعة من الكتب . ولعل أول كتاب ألفه هو « الفلسفة اللغوية » الذي ظهر سنة ١٨٨٥ ، والذي قدمه الى الهيئات والمجامع العلمية الدولية ، فظفر بعضوية المجمع الآسيوي الملكي في ايطاليا ، وتستطيع أن تحكم على العبقرية المبكرة لهذا العالم البحاثة اذا عرفت أنه أتم تأليف « الفلسفة اللغوية » ولم يتجاوز عمره الخامسة والعشرين . أما أولى روايات جرجي زيدان التاريخية فهي رواية « المملوك الشارد » التي أتمها حوالي سنة ١٨٩٠ والتي تصور عصر محمد علي أدق تصوير .

واذا كان كتاب « الفلسفة اللغوية » هو أول كتاب علمي لغوي ألفه جرجي زيدان ، فان كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » هو آخر كتاب علمي أدبي صنفه . فما كاد ينتهي من الجزء الرابع في صيف سنة ١٩١٤ حتى أدركته منيته في شهر يوليو من العام نفسه . على أن أول

جزء من هذا الكتاب ـ الذى هو موضوع بحثنا هنا ـ قد صدر فى صيف سنة ١٩١١ ، فكأنه قضى فى تأليفه ثلاث سنوات ، وان كان قد نشر طائفة من فصوله فى مجلة الهلال سنة ١٨٩٤ أى بعد صدورها بعامين اثنين .

ولقد دخل جرجى زيدان ميدان الصحافة الأدبية بانشائه مجلة الهلال سنة ١٨٩٢ ، لا فى سنة ١٨٩١ كما ذكر ذلك وهما الأب لويس شيخو اليسوعى . وفى أول سبتمبر من سنة ١٨٩٢ صدر أول أعداد الهلال يحمل فيما يحمل من مقالات وبحوث ودراسات مقدمة لمنشئه ، يكشف فيها خطته وأهدافه من اصدارها قائلا : (لابد للمرء فيما يشرع فيه ، من فاتحة يستهل بها ، وخطة يسير عليها ، وغاية يرمى اليها . أما فاتحتها فحمد الله على ما أسبغ من نعمه ، وأفاض من كرمه ، والتوسل اليه أن يلهمنا الصواب ، وفصل الخطاب ، وأما خطتنا فالاخلاص فى غايتنا ، والصدق فى لهجتنا ، والاجتهاد فى وفاء حق خدمتنا . ولا غنى لنا فى ذلك عن معاضدة أصحاب الأقلام من كتبة هذا العصر فى كل صقع ومصر . أما الغاية التى نرجو الوصول اليها ، فاقبال السواد على مطالعة ما نكتبه ، ورضاؤهم بما نحتسبه ، واغضاؤهم عما نرتكبه . فاذا أتيح لنا ذلك كنا قد استوفينا أجورنا فننشط لما هو أقرب الى الواجب علينا ..) .

وعلى الرغم من دخول مجلة الهلال ميدان الصحافة الأدبية منافسة لمجلة المقتطف التى أنشئت قبلها ببضعة عشر عاما (١) ، فقد استقبلت الرصيفة القديمة زميلتها

(١) صدرت مجلة المقتطف أولا فى بيروت سنة ١٨٧٦ عن الدكتورين يعقوب صروف وفارس نمر ، ثم انتقلت الى مصر بعد ذلك بخمس سنوات حيث ظلت توالى اصدارها الى سنة ١٩٥٢ ، وهو العام الذى توقفت فيه عن الصدور .

الجديدة استقبالا كريما فى باب « الهدايا والتقاريظ » من عدد سبتمبر سنة ١٨٩٢ ، معرفة بها وبأبوابها ، مثنية على « منشئها الكاتب الفاضل جرجى افندى زيدان » ، موجزة الحديث عن انسجام عبارتها ، وجمعها لأشتات الفوائد ، متمنية لها أتم النجاح .

وقد ظل اسم الهلال وجرجى زيدان متلازمين حتى بعد وفاة صاحب الهلال سنة ١٩١٤ . وما أغفل شاعر أو كاتب أو خطيب هذا التلازم فى حفل التأبين الذى أقيم لجرجى زيدان فى نادى الاتحاد السورى مساء ٢٨ مايو سنة ١٩١٥ ، أى بعد عشرة أشهر من وفاته . فنجد الشاعر أحمد شوقى يقول :

قد أكمل الله ذياك الهلال لنا
فلا رأى ـ الدهر ـ نقصا بعد اكمال
ولا يزل في نفوس القارئين له
كرامة الصحف الأولى على التالى
فيه الروائع من علم ومن أدب
ومن وقائع أيام وأحوال
وفيه همة نفس زانها خلق
هما لباغى المعالى خير منوال

ونجد الشاعر حافظ ابراهيم يقول عن زيدان صاحب « الهلال » ، وعن اليازجى صاحب « الضياء » :

وكم فزت من رب « الهلال » بحكمة
وكم زنت من رب « الضياء » بيانى

لقد كان جرجي زيدان متعدد النواحي الثقافية ، فلم يقف بالمعرفة عند حد . وقد هيأته ثقافته الطبية والصيدلية والطبيعية الأولى أن يكون مؤرخا وأديبا ولغويا علمي المنهج . فهو مؤرخ أدب لم تجنح به عاطفة ، ولم يمل به خيال في الأحكام ، وانما هو صاحب عقلية علمية منهجية تجريبية . وقد ظهرت هذه العقلية في أكثر ما كتبه والفه من كتب . فحين اخرج لنا كتابه « تاريخ مصر الحديث » مبتدئا من تاريخ المصريين القدماء حتى العصر الحديث ، لم يكتف بالانكباب على الكتب يقرؤها ويستخرج منها مادة كتابه التي نسقها تنسيقا بديعا ، ولكننا رأيناه يتجه الى « المعاينة » و « المشاهدة » و « التجربة » كما يفعل الجاحظ ، وكما أوصى مؤرخنا ابن خلدون أن يفعل المؤرخون حين يؤرخون . فنرى جرجي زيدان يحصل على ترخيص من وزارة الأوقاف بتفقد الآثار العربية ، ثم يجشم نفسه عناء الرحلة والنقلة الى الآثار التي تحدث عنها في كتابه ، حتى يكون كلامه كلام الخبير المجرب . ثم هو لا يبالي أن يرحل في سبيل المعاينة التاريخية الى ما وراء حلفا آخر الحدود المصرية ، ويقول في مقدمته لكتاب « تاريخ مصر الحديث » : (فزرت معظم جوامع القاهرة وضواحيها ، ولا سيما ما كان قديما ، كجامع عمرو ، وجامع ابن طولون ، والجامع الأزهر ، وجامع السلطان حسن ، وجامع السلطان برقوق ، وجامع قايت باي ، وجامع الغوري وغيرها . وزرت ما هنالك من البنايات القديمة كالقلعة وما جرى مجراها ، وتسلقت ما صعب مسلكه منها ، ولا سيما أسوار القاهرة القديمة وابوابها ،

كباب النصر ، وباب الفتوح ، وباب الشعرية وغيرها .
ومن هذه الأماكن ما قد تداعت أركانه وصعب الصعود اليه الا بالمخاطرة . فكثيرا ما كنت أخاطر بحياتى لهذه الغاية . ومن الآثار التى تفقدتها — ما عدا الجوامع والمشاهد والتكيات والشوارع — قصر الشمع أو دير النصارى فى مصر القديمة ، ودار التحف العربية فى جامع الحاكم بشارع النحاسين ، وغير هذه من الأماكن فى القاهرة وضواحيها كالقناطر الخيرية وغيرها .

أما الآثار المصرية القديمة فقد تفقدتها كلها أيضا ، ولا سيما ما هو منها فى مصر العليا ، مبتدئا من أهرام الجيزة بجوار القاهرة الى ما وراء وادى حلفا آخر حدود مصر ، فزرت خرائب سقارة ، واسنا ، وطيبة ، والكرنك ، وبيبان الملوك ، وجبل السلسلة ، وانس الوجود ، وأبا سنبل وغيرها . ومثل ذلك آثار مصر السفلى مبتدئا بالمطرية ، فأثريب فغيرها . وفى مصر العليا فضلا عن الآثار المصرية القديمة استحكامات وبنايات بناها المماليك أو غيرهم فى حالة محاربتهم حكومة البلاد أو دفاعهم عنها . كل هذه الأماكن تفقدتها جيدا ، اتماما لمعدات التأليف) .

ومن هنا يتضح لك منهج جرجى زيدان فى تأليفه . فهو ليس جماع مادة ولا حاشد معارف ، بقدر ما هو محقق لها ، ومعاين لها بالنظر ما استطاع الى ذلك سبيلا .

وتمتاز كتابات جرجى زيدان — وخاصة العلمية — بحسن عرضها وتنسيقها ، وتنظيم الأفكار فيها . ولعله تأثر فى هذا بكتابات المستشرقين ودراساتهم ، فهو ينحو نحوهم ، من طول ما عاناه فى مطالعة كتبهم وبحوثهم .

وقد وفق الله جرجي زيدان الى أن يضع معـــلوماته الغزيرة ودراساته الجـــادة فى أسلوب علمي مشرق العبارة ، فى غير تعمل ولا تصنع ولا تعقيد ولا غموض .

فهو يؤدى اليك المعانى المرادة فى بلاغ حسن بعيد عن الزخارف اللفظية والوشى ، وينزل الألفاظ منازلها على أقــدار من الـكلام ، وفى ترســل سهل يسير لا معاظلة فيه ولا تكلف . وقد أحسن أنطون الجميل نعت أسلوب جرجي زيدان بقوله : (من الكتاب من هم كالسيل الجارف المروع ، يتدفق مرغيا ومزبدا ، فيثب وثبات عظيمة ، وينحدر شلالات فخمة ، يقف عندها المرء متهيبا ، ومنهم من يشبه ذلك الجدول المترقرق على الحصباء ، العاكس فى قاعه الصافى زرقة الماء ، يناغيه على ضفتيه الزهر الندى ، ويطـــرب الأسماع بخريره الشجى . وليس زيدان ذلك السيل الجارف ، ولا هو الجدول المترقرق ، بل هو يشبه النهر الهادىء، كنهر النيل مثلا فى واديه ، يسير بكل سكون ووقار ، فيحمل فى طيـــاته الحياة والثروة ، فيحول الجدب خصبا ، والتراب تبرا ...)

ومن هنا وجدت مؤلفات جرجي زيدان وكتاباته ، وحتى رواياته ، سبيلها الى نفوس القراء فى كل أرض عربية أو تعرف العربية .

ونستطيع أن نقسم مؤلفات جرجي زيدان الى مؤلفات تاريخية ، ومؤلفات فى اللغة ، ومؤلفات فى تاريخ الأدب العربى ، ومؤلفات فى الاجتماع ، وروايات .

أما مؤلفاته التاريخية فهي : (١) تاريخ مصر الحديث . (٢) تاريخ التمدن الاسلامي . (٣) تاريخ العـــرب قبل الاسلام . (٤) تاريخ الماسونية العام . (٥) تراجم مشاهير الشرق . (٦) التـــاريخ العام . (٧) تاريخ انكلترا .

(٨) تاريخ اليونان والرومان . (٩) انساب العرب القدماء .

أما مؤلفاته في اللغة فهى : (١) الفلسفة اللغوية . (٢) تاريخ اللغة العربية .

أما مؤلفاته فى الاجتماع فهى: (١) علم الفراسة الحديث . (٢) طبقات الأمم . (٣) عجائب الخلق . وليس له في تاريخ الأدب الا كتابه الخالد « تاريخ آداب اللغة العربية » فى اجزائه الأربعة .

أما رواياته فيبلغ عددها ثلاثا وعشرين رواية ، تدور مع تاريخ العرب من الجاهلية ، ومع تاريخ الاسلام منذ الفتح الى العصر الحديث .

وعلى الرغم من ان جرجى زيدان قد أفاد فى بحوثه ودراساته من كتب المستشرقين والأجانب ، فان كثيرا من كتبه ورواياته قد ترجم الى لغات أجنبية وشرقيه ، على ما بيناه مفصلا فى كتابنا الخاص عن « جرجى زيدان » الذى صدر عن المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر فى سلسلة « أعلام العرب » . ولا يقولن قائل ان بضاعة المستشرقين قد ردت اليهم بهذه الترجمات ! فان كتب جرجى زيدان مملوءة بمعارف ومعلومات من استنباطات الرجل واجتهاداته الكثيرة الموفقة ، التى لقى فيها المستشرقون وغير العرب أشياء جديدة عليهم . ويكفى أن نذكر هنا رأى العالم المنصف يعقوب صروف فى مؤلفات جرجى زيدان على جملتها : (... واستخلص من ذلك كتبا ممتعة فى آدابها ، تشهد له بسعة الاطلاع ، وأصالة الرأى ، والبراعة فى التبويب والتنسيق . فكان لهذه الكتب شأن كبير شرقا وغربا ، وترجم بعضها الى كثير من اللغات الشرقية والغربية . وبحث فى تواريخ

دول الاسلام ، وألف فيها كتابا جليلا ، وبنى على نوادرها سلسلة من الروايات التاريخية الفكاهية ، جمع فيهـا زبدة تواريخ تلك الدول ، على أسـلوب لا يملـه القـارىء) .

كتاب تاريخ آداب اللغة العربية

تمتاز كتب جرجي زيدان فى التاريخ والأدب واللغة والسير والتراجم بأصالتها ، وبأنها أثرت المكتبة العربية ، وبأنها فتحت فى البحث العلمى ميادين جـديدة لم يكن للناس فى عهده بها عهد . ويكفى لبيان قيمة هذه الكتب أنها شغلت العلماء والباحثين والناقدين بنقدها ومناقشتها .

والـكتاب الجيد هو الذى يثير من القضايا ما لا يدع للناس سبيلا الى السكوت عنه . وقد كان جرجي زيدان من العلمـاء الذين يرحبون بالنقد ولا تضيق صدورهم به . وكثيرا ما رأيناه يستحث العلماء على نقد مؤلفاته ، ولا يكتفي منهم بتقريظها ، كما كانوا يفعلون فى عصره ــ ولا يزالون يفعلون ــ ابقاء على الود وايثارا للعافية ... ومما يؤكد هذه الحقيقة انه لما أصدر روايته « المملوك الشارد » فى سنة ١٨٩٢ أهدى نسخة منها الى صديقه الدكتـور يعقوب صروف رئيس تحـرير المقتطف رجاء الـكتابة عنها . وندع الدكتور صروف يكمل بقية الحديث قائلا : (تلقينا بالأمس نسخة من رواية المملوك الشارد التي وضعها جنـاب صديقنا الأديب جرجي أفنـدى زيدان ،فاعتذرنا عن انتقادها ، وأردنا أن نقرظها بذكر موضوعها ، واظهار محاسنها ، والاغضاء عما نظنه عيبا فيها ، فأبى الا أن ننقدها انتقادا ، فأجبنا الطلب ، وقرأنا

الرواية على ما نحن فيه من كثرة الاشغال وضيق الوقت، وعلقنا عليها السطور التالية) .

ولما ظهر كتاب «تاريخ آداب اللغة العربية» سنة ١٩١٩ صبر النقاد عليه حتى ظهر جزؤه الثاني بعد الأول ، فاستقبلوه بالنقد والتعليق والمناقشة — مما سنعرض له بعد قليل ، ولكن مؤرخنا العظيم لم يجزع من النقد . ولم يهتز له ، بل انتضى قلمه الهادىء الرزين يرد الحجة بالحجة ، ويقرع البرهان بالبرهان ، في أدب جم ، وعلم غزير ، وصبر جميل ، حتى لم تبد من بين شفتيه لفظة نابية ، أو كلمة جارحة .

والحق أن كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجي زيدان يعد رائدا في التأليف في تاريخ الأدب العربي على نهج لم يسبق اليه . ومن هنا كان الاهتمام بهذا الكتاب ، لمكانه من الريادة في هذا الميدان .

والحق — أيضا — أن جهدا طيبا في هذا الميدان قد سبق به الشيخ حسين المرصفي في كتابه « الوسيلة الأدبية » ، الذي تحدثنا عنه في فصل سابق من هذا الكتاب . فقد خطا المرصفي خطوة — على صغرها — في ميدان التاريخ الأدبي على حسب العصور ، لا على حسب الموضوعات ودراسة النصوص كما كان يفعل القدماء . وهذه حقيقة لا ينبغي أن يفوتنا التنويه بها في مقام التحقيق .

وجاء بعد الشيخ حسين المرصفي تلميذه في دار العلوم المرحوم حسن توفيق العدل الذي تخرج فيها سنة ١٨٨٧ ، أي قبل وفاة أستاذه المرصفي سنة ١٨٩٠ بثلاث سنوات ، فتنبه الى ما في تاريخ الأدب حسب العصور من مزية ، وأكد هذا المعنى في نفسه

ما أتيح له من بعثة فى ألمانيا واتصال بالمستشرقين هناك ، وخاصه « بروكلمان » الذى كان قد وضع كتابه فى تاريخ الأدب العربى على حسب العصور ، وان كان لم يظهر مطبوعا الا فى سنة ١٨٩٨ . وأعجب المرحوم حسن توفيق العدل بهذه الطريقة ، فلما عاد من بعثته فى المانيا الى مصر ليشتغل بالتدريس فى دار العلوم ، قــدم هذه الطريقه الى طلبته فيها على هيئة مذكرات عنوانها « تاريخ آداب اللغة العـــــربية » . ويذكر المرحوم الأستاذ محمد عبد الجواد أنها طبعت بعد وفاته سنة ١٩٠٦ بمطبعة مدرسة الفنون والصنايع الخديوية (١) .

وجاء المرحوم محمـــــد بك دياب ــ وهو من ابناء دار العلوم ايضا ــ فأصدر فى التاريخ الأدبى على حسب العصور كتابه الموسوم « تاريخ آداب اللغة العربيه » الذى ظهر فى جزءين سنة ١٨٩٩ ــ ١٩٠٠ . وانتهى القــرن التاسع عشر الميلادى بهذه الـكتب الثـــلاثة فى تاريخ الأدب العربى وفق العصور ، ألفهـــا ثلاثة من أبنـــاء دار العلوم أو رجالها .

وجاء القرن العشرون فاذا بالأستاذ محمد حسن نائل المرصفى يصـــدر فى سنة ١٩٠٨ كتابه « أدب اللغـــة العربية » مرتبا ترتيبا زمنيا كذلك منذ العصر الجاهلى الى عصر المؤلف . وفى سنة ١٩٠٩ ظهر كتاب « أدبيات اللغة العربية » للأساتذة محمد عاطف ،(٢) ومحمدنصار ، وعبد الجواد عبد المتعال من رجال دار العلوم . وفى سنة ١٩١١ ظهرت بحوث « تاريخ آداب اللغة العربية »

(١) مجلة الكتاب ــ عدد يوليو سنة ١٩٤٧ ــ ص ١٣٨٠

(٢) نرجو أن يفرق القارىء الكريم بين محمد عاطف هذا وبين المرحوم محمد عاطف بركات الذى كان ناظر مدرسة القضـــاء الشرعى ، فكثيرون يخلطون بينهما للمشابهة فى الاسمين الاولين

لجرجى زيدان فى كتاب على حدة ، فكان ذلك تجديدا لدراسة ولعلم ظهر من قبل فى سنة ١٨٩٤ ، على يد جرجى زيدان نفسه ، وفى أعداد متتـــالية من مجلة الهلال .

وقد يكون جرجى زيدان على حق حين يقول عن نفسه انه أول من كتب فى تاريخ الأدب العربى على هـذا النحو ، وانه أول من سمى هـذا العـلم باسم « تاريخ آداب اللغة العربية » ، فان الفصول التى بدأ ينشرها فى مجلة الهلال منذ سنة ١٨٩٤ تحت هـــذا العنوان الجديد هى أقوى مؤيد لدعواه ، على أن جهود اولئك الرواد الذين ذكرناهم فى هذا السبيل لا يجوز اغفالها او التقليل من قدرها .

ولابد ،ن نقول هنا ان هذا المنهج الجديد فى تاريخ الأدب العربى الذى ارتاده جرجى زيدان لاول مرة مقتفيا ثر جماعة من علماء الاستشراق ، قد سار عليه بعـده نى القرن العشرين جماعة من اساتذة الأدب العـــربى والمؤلفين الباحثين ، منهم الاســـاتذة مصطفى صادق الرافعى ، وأحمد حسن الزيات ، والسباعى بيومى ، ومحمد هاشم عطية ، والشيخ احمد الاسكندرى فى كتابه « الوسيط » ، وأصحاب كتاب « المفصل » وكتاب « المجمل » من رجال وزارة التربية والتعليم ، والاب حنا الفاخورى ، والدكتور شوقى ضيف ــ مد الله فى عمره ــ وهى جهود تلاحق العمل الجليل الذى بداه جرجى زيدان وتتوسع فى الميدان طبقا لما جد فى هذا الحقل من دراسات .

وقد استقبل الدكتور يعقوب صروف الجزء الاول من تاريخ آداب اللغة العربية» بكلمة من مجلة المقتطف ــ عدد

اغسطس سنة ١٩١١ - تكاد تكون تقريظا للكتاب وعرضا موجزا له ، قدمها بهذه الأسطر : (لصديقنا جرجي أفندى زيدان - صاحب الهلال - فضل لا ينكر على أبناء العربية، بما ألفه فيها . وآخر ما أتحفنا به الجزء الأول من كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » ، وهو يبحث في تاريخ آداب هذه اللغة في عصر الجاهلية وعصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموى) .

واكتفى الدكتور صروف فى كلمته عن الجزء الأول بالتقريظ والعرض . فلما ظهر نقد الجزءين الاول والثاني لجماعة من أفاضل العلماء والباحثين ، لم يجد صروف بدا - حين حديثه عن الجزء الثانى فى عدد سبتمبر من مجلة المقتطف سنة ١٩١٣ - من أن يدخل ميدان النقد بكلمة وجيزة يقول فيها : (ولا شبهة فى أن كثيرا من منقولاته وأحكامه يفتقر الى التحقيق والتمحيص ، ولكن ذلك يكون بعد هذا الجمع والتبويب) .. ويلاحظ ما فى هذه الكلمة من كياسة ولباقة ، فقد رضى الناقد هنا بمرحلة الجمع والترتيب ، على ما فيها من مآخذ واخطاء ، على أن يأتى التحقيق بعد ذلك فى مرحلة تالية .

والحق أن كلمة الدكتور يعقوب صروف هنا كانت دفاعا عن صديق من صديق ، فى معركة سل عليه النقاد فيها سيوف نقدهم .

وتتجلى الروح العربية الخالصة فى مؤلفات زيدان عامة ، وفى « تاريخ آداب اللغة العربية » خاصة ، فهو يدافع عن العرب فى كل موقف ، ويغلى فى تقديرهم الى درجة كبيرة ، ويضعهم من حيث الثقافة والعقلية فى مستوى لا يقل عن مستوى الأمم ذات الحضارات

القديمة كاليونان والرومان ، وينفى عنهم ما قد توهمه البداوة جهلا وتخلفا . فيقول مثلا فى موضع الحديث عن درجة ارتقاء عقولهم : (وقد يتبادر الى الاذهان ان أولئك البدو كانوا أهل جهالة وهمجية ، لبعدهم عن المدن ، وانقطاعهم للغزو والحرب . ولكن يظهر مما وصل الينا من أخبارهم أنهم كانوا كبار العقول ، أهل ذكاء ونباهة ، واختبار وحنكة . وأكثر معارفهم من ثمار قرائحهم . وهى تدل على صفاء أذهانهم ، وصدق نظرهم فى الطبيعة وأحوال الانسان ، مما لا يقل عن نظر اعظم الفلاسفة) . ثم يمضى جرجى زيدان فى أعظام تقديره للعلوم عند عرب الجاهلية ، فيقرر (أن العرب عرفوا كثيرا من الأمراض ومعالجتها . وناهيك بما عرفوه وتوسعوا فيه من أحوال الأعضاء وأوصافها ، وهو من قبيل علم التشريح ، وهم يعبرون عنه بخلق الانسان . وقد ألف ادباء المسلمين كتبا كثيرة فى هذا الموضوع نقلا عن العرب ، سيأتى ذكرها بين مؤلفات أهل اللغة . والمتأمل فيما حوته من أسماء الأعضاء وأوصافها يتبين له أن أولئك الجاهليين كانوا على معرفة بتشريح الأعضاء) .

وقد بلغ من غلو جرجى زيدان فى هذا التقدير أن الدكتور شوقى ضيف — الذى عهد اليه تحقيق الطبعة الأخيرة من تاريخ آداب اللغة العربية قد نبه الى هذا الغلو . ولم يخل زيدان بين العرب ومعرفتهم لعلم تاريخ العرب وسبقهم اليه كسبقهم فى موضوعات أخرى . ويقرر فى هذا الشأن ان كتب التراجم التى ألفها العرب فيها كثير من علم تاريخ الأدب ، لأنهم يشفعون الترجمة بما خلفه المترجم له من الكتب ، ويبينون

موضوعات هذه الكتب ، وقد يجاوزون هذا التبيين الى وصفها ، وعد من هذه الكتب المتخصصة فى البحث عن المؤلفين ومؤلفاتهم كتاب « الفهرست » لابن النديم ، و « مفتاح السعادة » لطاشكبرى زاده ، و « كشف الظنون ، عن أسامى الكتب والفنون » لحاجى خليفة ، و « أبجد العلوم » لصديق حسن خان القنوجى الهندى من علماء المسلمين فى القرن التاسع عشر .

وعاد جرجى زيدان بعد قليل ليصحح الرأى في هذا الموضوع الذى أثاره ، فقال ان هذه الكتب وأمثالها تعد من المآخذ الأساسية لدرس آداب اللغة ، ولكنها لا تصح أن تسمى تأريخا لها بالمعنى المراد بالتاريخ اليوم .

وتتجلى القيمة الحقيقية لكتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجى زيدان فى مزايا كثيرة تتكشف بأدنى نظرة عند القارىء المحقق المتفطن لقيمة ما يقرؤه . واول هذه المزايا ما هدف اليه جرجي زيدان من « بيان منزلة العرب بين سائر الأمم الراقية ، من حيث الرقى الاجتماعى والعقلى » . ولم يتخل هذا الهدف عن عينى زيدان لحظة واحدة في خلال الألف والخمسمائة صفحة إلتى يحتوى عليها هذا الكتاب الضخم .

على أن جرجى زيدان لم يكتف — فى معرض اثباته لحقيقة العقلية العربية الخصبة — بتقريرها فقط ، ولكنه يثبت بالوقائع والأدلة ما تقلبت عليه عقول العرب وقرائحهم ، وما كان لهم من اثر فى العصور المتعاقبة عليهم ، وما كان لتلك العصور وأحداثها من اثر فى تاريخ تطورهم العقلى والحضارى .

ولا يكتفى صاحبنا بالوقوف عند هذا الحد ، أو بلوغ

هذا المبلغ ، ولكنه يقف عند كل علم من علوم العرب وقفة طويلة مستأنية ، يتابع فيها نشأته ، وتطوره ، ويراقب مراقبة دقيقـــة واعية نموه ونضجه وتشـعبه وانحلاله أو ازدهاره . فعل ذلك فى الشعر الجاهلى ، وفى العلوم الطبيعية والرياضية فى العصر الجاهلى ، وفى الخطابة فى الجاهلية وصدر الاسلام . وفعل مثل ذلك واكثر منه فى العصر الأموى والعبـــاسى والمغولى والعثمانى والعصر الحديث الذي يبدأ منذ بداية القرن التاسع عشر . ففى النحو ــ مثلا ــ نراه يتحدث عن نشأته . وأول من علله ، وأول من ضبط قواعده وألف فيه ، ومذهب البصريين والـكوفيين . وكل هــذا فى معرض الحديث عن النحو فى العصر العباسى الأول . فاذا بلغ العصر العباسى الثانى عالج موضوع النحـــو والنحاة فيه معالجة ملائمة . فاذا بلغ ــ بعد عشرات وعشرات من الصفحات ــ العصر العباسى الثالث تناول موضوع النحو والنحاة فيه على ضوء ما تطور من دراسته ، مع بيان ما حدث فيه من تخلف أو توقف أو ابتكار . وهكذا يمضى فى بقية العصور حتى العصر الحديث .

وهكذا يتناول جرجى زيدان كل علم وكل موضوع فى كل عصر من عصور الأمة العربية ، فيلقى عليه من الأضواء ما يكشف عن حقيقته ونموه أو تخلفه .

ولا يرضى صاحبنا من الحديث عن موضوعات العلوم وفنون الأدب بهذا القدر ، ولكنه يقف عند رجال هذا الموضوع ، أو أعلام هذا الفن ، يترجم لكل واحد منهم ترجمة قد تقصر الى بضعة من السطور ، وقد تطـول الى بضع من الصفحات . فترجمته للامام مسلم صاحب الجامع الصحيح فى حديث الرسول عليه السلام تبلغ

ستة أسطر ،وترجمته للمؤرخ الأديب الشاعر صلاح الدين الصفدي صاحب كتاب « الوافى بالوفيات » تبلغ اربع صفحات أو تقاربها .

ومن المؤرخين والمؤلفين وكتاب التراجم من يكتفى فى تراجمه للرجال بذكر أخبارهم التى ينقلها عن مصادر ومراجع لا يرى ضرورة للاشارة اليها . ولكن جرجى زيدان قد أفاد من المستشرقين فى هذه الناحية ، فهو يذكر فى كل ترجمة المصادر والمراجع التى يمكن الرجوع اليها لمن يريد أن يتوسع فى الموضوع ، أو لمن يريد أن يهتدى الى مآخذه ومصادره . ولقد كان بعض المؤرخين العرب يكتفى بذكر المصادر والمآخذ جملة فى صدر كتابه أو مقدمته ، كما فعل مؤرخنا المصرى العسقلانى ابن حجر فى كتابه « الدرر الكامنة ، فى أعيان المائة الثامنة » المطبوع بحيدر آباد الدكن بالهند سنة ١٣٤٨ هـ ١٩٢٩ م . ولكن جرجى زيدان يذكر المآخذ والمصادر عقب كل ترجمة لكل علم ، شاعرا كان ، أم خطيبا ، أم مؤلفا ، أم فقيها ، أم مفسرا ، أم محدثا ، أم لغويا ، أم صحافيا ...

ولا يكتفى صاحبنا هنا بالمصادر العربية ، ولكنه يضيف اليها المصادر الأجنبية على كافة أجناسها ، أوروبية كانت أم أمريكية . ففى ترجمته — مثلا — للشاعر الجاهلى « تأبط شرا » يذكر مآخذ الترجمة لحياته على هذا النحو قائلا : (وأخباره فى الأغانى ٢٠٩ حـ ١٨ ، والشعر والشعراء ١٧٤ ، وخزانة الأدب ٦٦ حـ ١ ، وكتب عنه بور بالألمانية مقالة فى سيرة حياته وشعره ، فى المجلة الشرقية الألمانية سنة ١٨٥٦) .

ولا تقتصر المصادر والمراجع والمآخذ التى يسجلها

جرجي زيدان فى تراجم الأعلام فى كتابه على القديمة ، ولكن الرجل كان متابعا لأحدث الكتب فى وقته . ففى ترجمته للمؤرخ بدر الدين العينى المتوفى سنة ٨٥٥ هـ يضيف الى مآخذ ترجمته كتاب « الخطط التوفيقية » لعلى باشا مبارك . وفى ترجمته للشـاعر الجاهلى « المتلمس » يضيف الى المصادر القـديمة مصدرا معـاصرا له ، وهو كتـاب « شعراء النصرانية » للأب لويس شيخو اليسوعى المتوفى سنة ١٩٢٧ .

وحين يذكـر جرجى زيدان كتب المؤلفين والأعـلام الذين يترجم لهم ، أو دواوين الشعراء الذين يتناولهم بالدراسـة ، لا يكتفى بذكر أسماء تلك الـكتب وعناوينها ، ولكنه يشير الى أماكن نسخها الخطية ان كانت مخطوطة ، والى أماكن طبعها وتاريخ الطبع ان كانت مطبوعة ، وقد استعان فى ذلك العمل بالجهد الضخم الذى بذله المستشرق الألمانى بروكلمان فى كتابه « تاريخ الأدب العربى » ، ولكنه لم يكن فى الأمر كله عالة على بروكلمان ، فقد أفاد هو شخصيا من رحلاته وزياراته المتعددة الى مكتبات أوروبية كبيرة ، كما أفاد من تردده على دار الكتب المصرية ، واستئناسه الدائم بفهارسها ، كما أفاد خاصة من مكتبة المرحوم أحمد تيمور باشا .

وتعد تعريفات زيدان بالكتب التى خلفها الفكر العربى الاسلامى على مر العصور حتى عصرنا الحديث ، وللوقت الذى ظهر فيه كتابه ، أدق وأوجز تقويم لهذه الثروة الطائلة من انتاج الثقافة العربية والعقلية الاسلامية . فقد يقوم الـكتاب أو ديوان الشعر فى سـطر أو أسطر ، أو فى صفحة كاملة أو قريب منها ، فيقدم الى القارىء صورة صحيحة دقيقة عن الكتاب الذى يقومه ،

ولا شك أن هذا التعريف للكتب والمصنفات التى ظهرت فى العربية على مدى التاريخ الطويل يعد مرآة صادقة صافية لتطور الحياة الفكرية عند العرب ، كما يعد مقياسا دقيقا لهذا التراث الضخم او ميزانا مضبوطا لمد التيارات الفكرية العربية وجزرها .

واذا كان كثير من تلك الكتب التى وصفها جرجى زيدان حتى وفاته سنة ١٩١٤ قد تغير حاله الى الطبع بعد أن كان مخطوطا ، كما أن كثيرا من تراجم الرجال قد استحدث فيها دراسات وكتب جديدة منذ وفاة جرجى زيدان حتى يومنا هذا ، واذا كانت موضوعات البحث حتى عصر زيدان قد جد عليها دراسات جديدة لم تكن فى عهده ، كما أن كشوفا أدبية ولغوية وتاريخية قد ظهرت فى الميدان منذ أن توفى زيدان ، فان طبعة جديدة منقحة مزيدة من كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » كانت ضرورية وكان لابد من ظهورها حتى تسد النقص ، وتستكمل الفائت . ولقد نهض بهذا العبء الكبير رجل من علمائنا حمال لمثل هذه الأعباء هو الدكتور شوقى ضيف الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة وزميلنا فى مجمع اللغة العربية .

وظهرت الطبعة الجديدة من « تاريخ آداب اللغة العربية » بتحقيقات الدكتور شوقى ضيف وتعليقاته وتصويباته واستدراكاته واضافاته الثمينة سنة ١٩٥٧ . ومن عجائب المقدور أن يقوم الدكتور شوقى ضيف بعد اربعة وأربعين عاما بتحقيق أمنية الدكتور يعقوب صروف التى تمناها على جرجى زيدان . ولا شك أن مجهوده الضخم المضنى يظهر واضحا فى كل صفحة من صفحات هذه الطبعة .

ومن مظاهر الروح العلمية فى هذه الطبعة الجديدة لتاريخ آداب اللغة العربية أن الدكتور شوقى ضيف قد أسقط عنصر المجاملة من حسابه ، مع أن ولدى جرجى زيدان هما اللذان ندباه للقيام بهذا العمل ، فنراه يصحح الخطأ فى حرية تامة فى التعبير .. فقد عد جرجى زيدان الشاعر عبد الله بن الدمينة من شعراء الجاهلية ، وهنا نجد فى الهامش تحقيقا من الدكتور شوقى ضيف يقول فيه : (أخطأ المؤلف فى عد ابن الدمينة من شعراء الجاهلية ، فهو اسلامى) . ولا نمضى فى سرد أمثلة أو عرض نماذج من هذه التحقيقات الثمينة ، فهى كثيرة واضحة تشهد بعلم المحقق وسعة اطلاعه وطول مراجعته ومعاودته للمصادر والمراجع .

ولكن يظهر أن الدكتور شوقى ضيف قد أجاز لنفسه التغيير والتعديل المطلق فى مادة الكتاب ، كما فعل فى صفحة ٢٤ من الجزء الأول مثلا ، فقد أباح لنفسه ان يصلح قليلا فى النص كما يعترف هو نفسه فى الهامش ، بل جاوز الدكتور شوقى ضيف الحد فى صفحة ٢٤٦ من هذا الجزء أيضا ، فوضع أسماء أربعة من رجال الحديث المشهورين فى العصر الأموى ، بدلاً من أربعة آخرين مغمورين وضعهم جرجى زيدان فى الطبعات السابقة . وكان من الممكن أن يبقى الدكتور شوقى ضيف الأسماء الأربعة التى وضعها زيدان فى صلب الكتاب ، وأن يضع فى الهامش الأسماء الأربعة التى يراها أولى وأحق من غيرها .

وكما أجاز الدكتور شوقى ضيف لنفسه الزيادة — حيث لا تجوز الزيادة — فى الكتاب ، فانه أجاز لنفسه الحذف ، والحذف الكثير ، بلا داع يبرره ، ولا سبب

يسوغه . ففى مقدمة جرجي زيدان للجزء الثالث التى يرد بهـــا على منتقديه ، نرى المحقق الفاضل يحذف ما يقرب من أربع صفحات تتناول موقف الرجل من المنتقدين ، كما تتناول موضوع انتقاد « تاريخ آداب اللغة العربية » ، وأسماء ناقديه وايجاز الرد عليهم . ولا يفوتنا هنا ــ للتاريخ فقط ــ أن نذكر أسماء هؤلاء المنتقدين ، وهم الأب لويس شيخو اليسوعي الذى نشر نقده فى مجلة المشرق ، والسيد كاشف الغطاء الشيعى النجفى وقد نشر نقده فى مجلة « العرفان » التى كان يصدرها المرحوم أحمد عارف الزين فى صيدا ، والأب أنستاس مارى الكرملى ، وقد نشر نقده فى مجلة « لغة العرب » التى كان يصدرها فى بغداد ، وأستاذنا المرحوم الشيخ أحمد الاسكندرى الذى نشر نقـــده فى مجلة « المنار » فى سنتيها الخـــامسة عشرة والسادسة عشرة .

ونعود هنا فنؤكد قضية اهتمام جرجى زيدان بالنقد وايمانه بفائدته وجدواه ، وعدم ضيق صدره به . ومن مأثوراته فى هذا السبيل قـــوله : (لا جدال فى أن الانتقاد أكثر فائدة من التقــريظ . وقد يتبادر الى الأذهان ان انتقاد الكتب يحط من قدرها ، أو يذهب بفضل أصحابها . وهو خلاف الواقع ، واذا رأينا له مثل هذا التأثير أحيانا فلأن الــكتاب المنتقــد لم يكن يستحق عناية المنتقدين . ولو ترك بلا انتقاد لكان أسرع الى السقوط . أما الكتب الهامة فانها تزداد بالانتقاد شيوعا ورواجا ، ويزداد أصحابها رســوخا فى عالم الشهرة) .

طبائع الاستبداد

لعبد الرحمن الكواكبي

توفى سنة ١٩٠٢

موجز حياة

لا يستطيع كاتب أن يكتب عن الاصلاح الحديث والحرية الفكرية وحركات التجديد فى الاسلام فى أخريات القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر دون أن يضع السيد عبد الرحمن الكواكبى فى رأس قائمة المصلحين ، فهو امتداد لجهود جمال الدين الأفغانى التى ظهرت فى تلاميذه المنبثين فى كل قطر عربى اسلامى ، وعلى رأسهم الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده فى مصر .

ولا ندرى لماذا اغفل تشارلز آدمز اسم عبد الرحمن الكواكبى ، فلم يشر اليه ولو اشارة عابرة فى كتابه « الاسلام والتجديد فى مصر » . ولعله لم يحسبه على مصر التى احتضنته أكثر من عامين ، وأتاحت له ـ بما كان فيها من حرية يومئذ ـ أن ينشر فيها أعظم كتبه وأبقاها على الزمان ، وهما كتاب « طبائع الاستبداد » وكتاب « أم القرى » .

على أن أثر هجرة الكواكبى الى مصر ، وأثر مصر فيما هيأت له من أسباب الانطلاق وحرية القول لم يغب عن ذهن رجل من رجال النهضة العلمية الحديثة هو

الدكتور يعقوب صروف محـــرر مجلة المقتطف الذى قال عن الـكواكبى يوم وفاته : (ولو لم يهبط مصر لكان دفن فى تلك البلاد ، أى العثمانية ، ولم يعرف عقله ولا فضله) (١) .

والـكواكبى ـ بجانب الدور العظيم الذى قام به فى سبيل اصلاح المسلمين والعرب ، وفى سبيل تحررهم من النير التركى الذى ظل ضاغطا على أعنـــاقهم ثلاثة قرون ـ كان رائدا من رواد القــومية العربية وحركة البعث العربى . وما أصدق المغفور له مارون عبود وهو يلخص لنا فى كتابه « رواد النهضة الحديثة » سيرة عبد الرحمن الكواكبى بقوله : (هذا هو الكواكبى أحد الرواد المناضلين فى العهد الحميدى ، ولعله امرهم لسانا، وأعنفهم هجوما . وربما كان موقد نار اليقظةالعربية . فبينما كان حزب « تركيا الفتاة » يدعو الى تجديد دم الحـــكم التركى ، كان الكواكبى يهتف : فلنلق عنا نيرهم) (٢) . ولم يفته أن يشير الى أثر كتاب « أم القرى » فى هذا السبيل ، فقد كان من العوامل الفعالة فى ايقاظ الشعور القومى بين العرب ، اذ هو يدعو الى خلافة عربية ، مركزها أرض عربية لا أرض تركية ، كما كان الحال منذ قيام الخلافة الاسلامية فى القسطنطينية الى أيام الـكواكبى فى عهد السلطان عبد الحميد (٣) .

واذا كان الـكواكبى من رجال الـدعوة الى التحرر والاصلاح وبث الشعور القومى بين العرب بلا نزاع بين المؤرخين لتلك الفترة من تاريخ العالم العربى والاسلامى،

---

(١) مجلة المقتطف . المجلد ٢٧ ـ ص ٦٢٤

(٢) رواد النهضة الحديثة لمارون عبود ص ٢٠٦

(٣) الاتجاهات الادبية فى العالم العربى الحديث . ص ١٠٨

فانه كان فى الوقت نفسه داعية قويا من دعاة العلم والمعرفة اللذين بهمـــا يتحقق التخلص الكامل من نير الاستبداد . وقد عده الدكتور محمد يحيى الهاشمى « باعث النهضة العلمية » فى الشرق العربى ، وادار على ذلك بحثـا طيبا نشره فى عـدد من مجلة الحديث الحلبية خاص بذكرى الكواكبى (١) .

والحق أن عبد الرحمن الـكواكبى كان من الاوائل الذين تنبهوا الى خطر اقتصار المسلمين على العـلوم الدينية ، واهمالهم العلوم الدنيوية كالرياضة والطبيعه والكيمياء التى اشتغل بهـا المسلمون زمنـا من عهـود الازدهار ، ثم انشـــغلوا عنها ، فاندرست كتبها ، وانقطعت علاقتها ، وصار منفورا منها ، بل صار المتطلع اليها والمشتغل بها يرمى بالزيغ ، ويتهم بالزندقة ، على حين أخذت هذه العلوم تنمو فى الغرب ، وظهر لها فيه أعظم الثمرات ، وصارت كالشمس لا حياة لذى حياة الا بنورها ، وأفادوا منها فائدة كبيرة : من تربية الطفل الى سـياسة الممـالك ، ومن استنبات الأرض الى استمطار السماء ، ومن عمل الابرة والقوارير الى عمل المدافع والبوارج .

واذا كان عبد الله فكرى باشا قد سبق الـكواكبى الى الدعوة الى العلم الحديث والعلوم الطبيعية ، وعدم المخالفة بين العلوم الحـديثة والدين ، بما نشره من مقالات حول هذا الموضوع فى مجـلة المقتطف ، فان الكواكبى قد تلقف الفكرة من عبد الله باشا فكرى ووسع فيها ، وزادها شرحا وايضاحا ، وجعلها مجالا للمناقشة فى المؤتمر الاسلامى الذى توهم عقده فى مكة ـ أم

(١) مجلة الحديث الحلبية ، عدد تشرين أول سنة ١٩٥٢

القرى – وأدار عليه موضوع كتـابه الجرىء الطريف « أم القرى » الذى كتبه فى حلب ، ونقحـه وبيضه ونشره فى مصر سنة ١٩٠٠ ، ثم نشرته ادارة مجلة « المنار » للسيد رشيد رضا سنة ١٩٠٢ .

ولقد ولد عبد الرحمن الكواكبى فى حلب وانساح فى تركيا وكثير من بلاد العرب والاسلام ، ومات فى مصر . واختلف الرأى فى مولده وفى ظروف وفاته بمصر اختلافا ملحوظا . ولعل لميل الرجل الى الكتمان والحذر فى كل أمره وفى خطوات حياته سببا فيما أحاط به من خلاف . فالأستاذ يوسف أسعد داغر (١) يقول انه ولد سنة ١٨٤٩ . ويلتقى معه الاستاذ خير الدين الزركلى (٢) فى هذا القول . ويذكر الأستاذ عمر رضا كحـالة انه ولـد سنة ١٨٥٥ (٣) . والأستاذ أنيس المقدسى (٤) يذكر أنه ولد سنة ١٨٣٩ – وهو خطـأ مطبعى ظاهر أن أصله سنة ١٨٤٩ – والأستاذ سامى الكيالى يقول ان مولده كان فى سنة ١٨٥٤ (٥) . وهو فى هذا يلتقى مع الدكتور سامى الدهان (٦) . ويقول المرحوم السيد محمد رشيد رضا أنه ولد سنة ١٨٤٨ . وقد أخذ السيد رشيد رضا هذا التاريخ عن أوراق رسمية لم تكن مطابقة لحقيقة التاريخ. ويصحح الدكتور أسعد الكواكبى – نجل السيد عبد الرحمن الكواكبى – هذه الواقعة بقوله : (ان والده قـام بعملية تصحيح

---

(١) مصادر الدراسة الادبية . ص ٦٧٢
(٢) الاعلام للزركلى
(٣) معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة
(٤) الاتجاهات الادبية فى العالم العربى الحديث
(٥) الادب العربى المعاصر فى سورية لسامى الكيالى . ص ١١٧
(٦) كتاب « عبد الرحمن الكواكبى لسامى الدهان فى سلسلة نوابغ الفكر العربى ص ١٦

السن لدخول الانتخابات فى حلب ، فجعل ولادته آنذاك سنة ١٢٦٥ هـ ـ سنة ١٨٤٨ م ليصبح سنه مطابقا لما تتطلبه عملية الانتخاب ، ولكن الواقع أن سنه كان أصغر بكثير) ولا يكتفى الدكتور أسعد الكواكبى ، بالكشف عن أسباب الخلاف ، بل يحدد تاريخ ميلاد والده بأنه كان فى ٢٣ شوال سنة ١٢٧١ هـ ـ ١٨٥٤ م .

ولم يحدث خلاف بين المؤرخين والباحثين على تاريخ وفاة الكواكبى سنة ١٩٠٢ . ولكن الخلاف حدث حول ظروف الوفاة وملابساتها . ويأتى الخلاف من الرواة أنفسهم من معاصرى الكواكبى واصدقائه فى مصر . فالأديب الصحفى ابراهيم سليم النجار يذكر أنه جلس هو والكواكبى والسيد محمد رشيد رضا صاحب المنار ، والأستاذ محمد كردعلى ليلة الوفاة فى حلقتهم المعتادة ، فتحدثوا الى الساعة التاسعة ليلا حيث نهضوا ، وذهب الكواكبى ومحمد كردعلى معا . وفى الصباح نعى كردعلى الى الأستاذ النجار صديقهما الكواكبى (١) .

والأستاذ محمد كردعلى يقول فى ظروف وفاة الكواكبى ما يأتى : (وجاءنى ذات ليلة يسمر معى فى دارى ، مع الحبيب رفيق بك العظم ، يستشيرنى فى أمر عظيم . قال ان الخديوى عباس عرض عليه أن يصحبه الى الآستانة ، وكان الخديوى يصطاف فيها ، ليقدمه الى السلطان العثمانى ويستجلب رضاه عنه ، وبذلك تنحل هذه المشادة ، ويطمئن خليفة الترك اليه . فصعب على وعلى رفيق بك ابداء رأى فى موضوع جد خطير كهذا ، لأن ابن عثمان ـ يعنى السلطان عبد الحميد ـ

(١) مجلة الحديث الحلبية : عدد خاص بالكواكبى

لا تأخذه هوادة فيمن خرجوا على سلطانه ، وخشينا أن تكون هناك دسيسة يذهب الرجل ضحيتها . ومما قال لنا انه حائر فى أمره بين القبول والرفض ، وأنه شعر بالأمس بوجع فى ذراعه ، وما عرف له تعليلا .
وتقوض المجلس ، وذهب السيد الكواكبى الى داره ، فما هى الا ساعة وبعض ساعة ، حتى سمعت ابنه السيد كاظم فى الباب يبكى وينوح ويقول : قم يا كردعلى : فان صديقك أبى قد مات ! فاضطربت اضطرابا قل أن اضطربت مثله ، ودخلت على الرجل ، فسجيته بيدى . ومن الغد دفناه بمشهد حافل (١) .

ومن هنا سرت الاشاعة بأن السيد عبد الرحمن الكواكبى مات مسموما . فالأستاذ سامى الكيالى يقول : (ويقال ان يدا اثيمة قد دست له السم فى القهوة) (٢) . ومن هنا أيضا قال السيد رشيد رضا وهو يتحدث عن السيد جمال الدين الافغانى: (.. فشاع فى كثير من البلاد انه مات مسموما ، كما شاع مثل ذلك فى موت الأستاذ الامام، وموت السيد عبد الرحمن الكواكبى (٣) .

وتزيد المتزيدون فى أسباب وفاة الكواكبى ، واعتمدوا على الظن أكثر مما اعتمدوا على اليقين ، وخلطوا بين كلام محمد كردعلى ، وكلام ابراهيم سليم النجار ، وكلام السيد رشيد رضا ، وخرجوا من ذلك بنتيجة مغلوطة لا أساس لها من الصحة . فذكر صاحب كتاب « الأعلام الألف » أن الكواكبى (دعى للغداء عند

(١) المذكرات : لمحمد كرد على ص ٦١٠
(٢) الادب العربى المعاصر فى سورية ص ١١٩
(٣) تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص ٩١

الخديوى عباس ، فلما خرج احس باثر السم فى امعائه؛ فما طلع الصباح الا وكان قد عبر الى الشاطىء الآخر (١) .

وبلغ الخلط حتى اسم المكان الذى اجتمع فيه الكواكبى مع أصحابه ليلة الوفاة ، فهو تارة فى دار محمد كردعلى كما ذكر الرجل فى مذكراته ، وهو تارة فى مقهى « سبلندد بار » كما يذكر الأستاذ سامى الكيالى فى كتابه ، وهو تارة فى مقهى « يلدز » قرب حديقة الأزبكية ، كما يذكر الدكتور سامى الدهان ... والله أعلم !

ومهما تكن أسباب وفاة الكواكبى ، من الخديو عباس هنا بمصر ، أم من السلطان عبد الحميد هناك بالآستانة . ومهما يكن لقاء الأصحاب فى دار كردعلى ، أو فى مقهى يلدز ، أو فى مقهى سبلندد بار ، فان الرجل قد لقى ربه بعد عمر قصير لم يبلغ الخمسين عاما اذا اتبعنا قول من قال انه ولد سنة ١٨٥٤ . وقد دفن فى القاهرة بمقابر باب الوزير ، ولا يزال ضريحه هناك يحمل بيتين كلف الشاعر محمد حافظ ابراهيم نظمهما ، وهما :

هنا رجل الدنيا ، هنا مهبط التقى
هنا خير مظلوم ، هنا خير كاتب
قفوا واقرءوا أم الكتاب وسلموا
عليه ، فهذا القبر قبر الكواكبى !

على أن اشاعة السم لم تصادف قبولا عند بعض الباحثين ، كالمرحوم الأستاذ محمد لطفى جمعة ، الذى

(١) الاعلام الالف لانور الجندى ــ ص ٨٧

يقول في تكذيبها : (أن الـكواكبي ذهب ضحية ذبحة صدرية) (١) ..

ويظهر أن المحن التي لاقاها الكواكبي في حلب من الوالي العثماني ، ومن أنصار السلطان عبد الحميد وأعوانه وعيونه المنبثين في كل مكان قد علمته ان يكون حذرا في كل تصرفاته وحركاته ، وأن يكتم أموره حتى عن أقرب المقربين اليه ، فحين عزم على السفر الى مصر ومعه مخطوطة كتابه « أم القرى » على نية طبعه خارج حلب ، لم يصارح صديقه المؤرخ الكبير كامل الغزي ـ صاحب كتاب نهر الذهب ، في تاريخ حلب ـ بعزمه على السفر لمصر ، وأوهمه أنه مزمع السفر الى استنبول تضليلا وايهاما . واستنتج كامل الغزي انه ينوى السفر الى مصر لأنه البلد الحر الذى يستطيع فيه نشر كتابه ، فحذره . ولكن الـكواكبي نحى عن صديقه خاطر السفر الى مصر ، والصديق معتقد بأنه لن تـكون له وجهـة غيرها (٢) .

وقد بلغ من حرص الكواكبي على كتمان أموره ، أنه وهو في مصر ـ التي كانت تحت نير الاحتلال الانجليزى ، ولم تكن سيادة الدولة العثمانية عليها الا سيادة اسمية ـ كان يتكتم في كل شيء ، حتى مع الحرية التي كانت تتمتع بها مصر نسبيا تجاه الأتراك . ففي سنة ١٩٠٢ حين أصدر كتابه « طبائع الاستبداد » ـ وهو موضوع دراستنا في هذا الفصل ـ كتب في مقدمته يقول : (أقول وأنا مسلم عربي مضطر للاكتتام ...) .

ويلفت نظرنا ونحن نلم المامة وجيزة بسيرة الكواكبي

(١) مجلة الحديث سنة ١٩٣٧ ص ٦٥٢
(٢) نهر الذهب ، في تاريخ حلب ـ ج ٣ ومجلة الحديث

ان بعض مؤرخيه ذكروا انه (اتصل بجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده ، وغيرهما من زعماء الاصلاح) (١) .
ولا نعلم السند الذي استند اليه الأستاذ سامي الكيالي في هذا القول . فالكواكبي جاء الى مصر سنة ١٣١٦ هـ ، او سنة ١٣١٨ هـ على قولين ، ولم يكن جمال الدين الأفغاني في التاريخين على قيد الحياة ، فقد لقي ربه سنة ١٣١٤ هـ — ١٨٩٧ م . فليس اذن من المعقول ان يكون اللقاء في القاهرة ، ولنا ان نسأل هنا : هل التقى الكواكبي بجمال الدين الأفغاني في استنبول حين زارها سائحا قبيل مجيئه الى مصر ؟ ليس بين يدينا من المصادر ما يؤيد هذا الاستظهار ، فما عرف ان الرجلين التقيا لقاء شخوص ، الا ان يكون قصد القائلين بهذا انه لقاء فكري روحي ، عن طريق قراءة المقالات التي كانت تنشر في « العروة الوثقى » التي كان يحررها الشيخ محمد عبده في باريس ، ونحن نستبعد اللقاء الشخصي بين الكواكبي وجمال الدين الأفغاني ، فان احدا من الباحثين لم يذكره ، الا الأستاذ سامي الكيالي . اما الالتقاء الفكري فلا نزاع فيه ، ولا خلاف عليه ، وهو ذلك الالتقاء الذي كان من اثره ان الكواكبي سار في الخط الذي رسمه الأفغاني ، وعمقه .

ويسوقنا التاريخان اللذان ذكرناهما قبلا حول هجرة الكواكبي الى مصر ، الى الخلاف بين المؤرخين على تاريخ مغادرة الكواكبي لوطنه حلب . فقد ذكر جرجي زيدان ان السيد عبد الرحمن الكواكبي (جاء الى مصر سنة ١٣١٨ هـ ، وأقام في قلب العاصمة) (٢) . ولكن

---

(١) الاديب العربي المعاصر في سورية — ص ١١٨
(٢) تراجم مشاهير الشرق جـ ١ ص ٣٥١

المؤرخ كامل الغزي ــ وهو مؤرخ حلب وصديق الكواكبي وبديه ــ يقــــول : (وكانت مبــــارحه حلب في اوائل سنة ١٣١٦ هـ) . وعن كامل الغزى أخذ المؤرخون الذين كتبوا عن الكواكبى ، فالفيكونت فيليب دى طرازى يقول : (... فغادر الوطن فى أوائل شــــــهر محرم سنة ١٣١٦ هجرية وطلب بلاد الله ..) (١) . وقد يقال ان الكواكبى غادر حلب سنة ١٣١٦ هـ حقا ، ولكنه لم يصل الى مصر الا فى سنة ١٣١٨ هـ ، أى أنه طاف ببعض البلاد عامين قبل أن يحط رحله في مصر . وهو قول يكذبه الواقع ، بل يكذبه ضــــمنا لا صراحة كامل الغزي نفسه حيث يقول : (وبعد أن مضى على مبارحة حلب نحو بضعة عشر يوما لم نشعر الا وصدى مقــالاته في صحف مصر ، وأخذت جريدة المؤيد تنشر له ــ تفرقة ــ كتاب « طبائع الاســتبداد » الذى لم يطلعنــــا عليــه مطلقا ..) (٢) . وهذا كلام واضح فى أن الــكواكبى قصد مصر مباشرة بعد مغادرته حلب . وما لنا نذهب فى الحيرة هذه المذاهب ، والكواكبى نفسه يقول فى مقدمة كتابه طبائع الاستبداد : (أنني فى سنة ثماني عشر وثلاثمائة وألف هجرية هجرت ديارى ــ سرحا فى الشرق ، فزرت مصر واتخذتها لى مركزا أرجع اليه مفتنما عهــد الحرية فيها ..) (٣) .

وقد تعددت الأقوال فى أسباب مغــــادرة الكواكبى لوطنه حلب وهجرته الى مصر ، وكلها تدور حول الجو الخانق الذى كانت تعيش فيه تلك العاصمة العربية فى عهد السلطان عبد الحميد ، فلم يسكت على الحكام الذين

(١) تاريخ الصحافة العربية ج ٢ ص ٢٢٣
(٢) عبد الرحمن الكواكبى ص ٢٨
(٣) طبائع الاستبداد ــ طبع المطبعة العصرية بحلب سنة ١٩٥٧ ص ٨

اتخذوا الشعب مطية لشهواتهم ، وموطنــــا للاستغلال والرشوة والفساد . ومن هنا كرهوه ودبروا له المكايد ؛ حتى اوعزوا الى جماعة من الأرمن أن يغتصبوا أرضه ومزرعته ، بل أمعنوا فاعتدوا عليــــه بتدبير من الوالى العثمانى ، وتعمدت الحكومة حبسه (فلم يقلل ذلك شيئا من علو همته ، فغادر الوطن وطلب بلاد الله ، فجـــاء مصر) (١) . (ولم يطق الاقامة فى ذلك الجو البغيض الذى يقوم على الدسائس والظلم ، فقرر الهجرة الى مصر مواطن الأحرار) (٢) . على أن مصر منطلقه وأول عهده بالحرية التى فقدها فى وطنه حلب ، فطاف زنجبار، والحبشة ، وأكثر شطوط شرق آسيا وغربها (٣) .

ولفت الـكواكبى أنظار الناس فى مصر والشرق العربى بمقالاته وأفكاره التى لم يألفها الناس من قبل . وكانت مقالاته عن طبائع الاستبداد التى نشرت فصولا متفرقة فى صحيفة « المؤيد » تشير الى أن كاتبا ومصلحا اسلاميا واجتماعيا قد نبغت له فى الشرق العربى والاســلامى شئون .

واذا كان هذا المصلح الجديد قد شد انتباه الناس بأفكاره الجديدة الجريئة ، وبطريقة معــــالجته لموضوع الاصلاح ، فانه قد لفت الأنظار فى الوقت نفسه بأسلوبه الجديد الذى تحرر فيه من المحسنات وزخارف القول والسجع والاغراب اللغوى والتفصح بالعبارات الطنانة ، واتجه رأسا الى الأداء ، وحسن البيان ، وابلاغ المعنى من أوجز طريق وأقربه الى الصحة والسلامة اللغوية ،

---

(١) تراجم مشاهير الشرق ص ٣٥٢
(٢) الادب العربى المعاصر فى سورية ص ١١٨
(٣) تراجم مشاهير الشرق ص ٣٥٢

ذلك الأسلوب الذى قال فيه العقاد : (وسلست عبارته فى نسق مرسل واضح يقرر الواقع ، وبتتبع المشاهدة ، ويتبسط فيما يراه بالفكر ، كما يتبسط فى وصف ما يراه بالعيان) (١) .

وهو أسلوب سار على منوال ما كتبه الشيخ محمد عبده ، وما أثر عن جمال الدين الأفغانى الى حد أن بعض الناس ظنوا أن « طبائع الاستبداد » حين نشر على هيئة فصول فى المؤيد بدون تصريح باسم كاتبه كان من كتابات الأستاذ الامام محمد عبده .

وقد اعتدل الكواكبى فى أسلوبه ونقده للطغاة آخر عهده بمصر عن أسلوبه أيام شبابه بحلب ، فقد كانت نقداته للمستبدين من حكام العثمانيين وذيولهم قاسية عنيفة ، حتى عدها بعض المعتدلين الهادئين من أمثال الشيخ محمد راغب الطباخ كبوة يراع (٢) . وحسبوه تعجل الأمور خلافا للقاعدة القائلة : الأمور مرهونة بأوقاتها .

والحق أن اندفاع الكواكبى وتحمسه الشديد وجرأته النادرة فى مقالاته الثائرة بصحف حلب كانت خيرا كل الخير ، لأن الاضطهاد الذى لقيه هناك ، والتهم التى وجهت اليه هى التى ألجأته الى الرحلة الى مصر ، فكان للعرب والمسلمين من ذلك كتابان خالدان ، هما « طبائع الاستبداد » الذى نعالجه فى هذا الفصل ، و « أم القرى » .

---

(١) كتاب الرحالة كاف ـ ص ٥٥
(٢) أعلام النبلاء للشيخ محمد راغب الطباخ الحلبى ج ٧ ص ٥٢٤

في سن الثانية والعشرين ، وبعد أن انهى الكواكبي دراسته في المدرسة الكواكبية بحلب التي تنسب الى اسرته ، اشتغل صاحبنا بالصحافة . ويظهر أن سهولة الكتابة عليه ، وقدرته البالغة على الابلاغ والبيان ، ومعرفته باللغتين التركية والفارسية قد هيأت له أن يكون محررا بجريدة « فرات » التي كانت تصدر في حلب باللغتين العربية والتركية . وهي جريدة أنشأها المؤرخ التركي المشهور جودت باشا سنة ١٨٦٧ . وكأنما عز على الكواكبي أن لا تكون في حلب جريدة عربية خالصة ، فأنشأ — وهو لم يبلغ الخامسة والعشرين — جريدة أسماها « الشهباء » ، مشتركا مع أحد مواطنيه ، فكانت أول جريدة باللغة العربية وحدها تصدر في حلب ، وكان أسلوب الكواكبي الثائر سببا في تعطيل هذه الجريدة بعد ظهور خمسة عشر عددا منها . ثم عاد في سنة ١٨٧٩ فأنشأ جريدة « الاعتدال » بالعربية والتركية ، فكان مصيرها مصير الشهباء لأن الآراء الاصلاحية الغريبة الجريئة التي نادى بها الكواكبي في جريدتين ، نبهت أفكار الحكام والولاة العثمانيين اليه ، فسدوا عليه كل باب ينفذ منه الى أغراضه . وهذه الفترة التي قضاها الكواكبي في الصحافة العربية بحلب قد وسعت مجال آماله وتطلعاته الى مخاطبة العرب والمسلمين على مقياس أعم وأوسع . ولعله وقد شغل بعد ذلك بوظائف قضائية وادارية وتجارية في حلب ، كانت تختمر في نفسه آراؤه الاصلاحية لتكون نواة لمؤلفات دائمة ، بدلا من مقالات عابرة تذهب أصداؤها بقدم العهد عليها . أما الكتب فهي باقية بحفظها الناس ، ويرجعون اليها كلما أرادوا .

والحق أن مناصب الكواكبى وأعماله الرسمية الوظيفية فى حلب لم تمنعه من التفكير لحظة فيما كان يهم العرب والمسلمين من أمور ، كما أن دراسته لموضوع الاستبداد لم تنقطع لثلاثين عاما . ويصرح هو نفسه لنا بذلك فى مقدمة كتاب « طبائع الاستبداد » .

وعلى الرغم من مجانبة الكواكبى للسجع فى كتاباته التى امتازت بالترسل والسهولة والبيان ، فانه قد لجأ فى عنوان كتابه عن الاستبداد الى بعض سجعات متتاليات ، على نحو ما كان يفعله المؤلفون القدماء ، وخاصة فى عصور الصنعة الكلامية والزخرف اللفظى ، فأسمى كتابه « طبائع الاستبداد ، ومصارع الاستعباد ، وهى كلمات حق وصيحة فى واد ، ان ذهبت اليوم مع الريح لقد تذهب غدا بالأوتاد ... » والحق أن هذه السجعات لم تكن عنوان الكتاب ، ولكنه اقتصر على السجعتين الأوليين فجعلهما عنوان كتابه ، أما السجعتان الأخريان فكانتا على هيئة تعريف وجيز بالكتاب بعد العنوان .

والكتاب الثانى الذى خلد به عبد الرحمن الكواكبى هو « أم القرى » ، وهى مكة المكرمة ، ويصفه الرجل نفسه تحت عنوانه أيضا بقوله : (وهو ضبط مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الاسلامية المنعقد فى مكة المكرمة سنة ١٣١٦ هـ) . وهنا يرد على البال سؤال : هل كان ذلك المؤتمر حقيقة تداعى اليه العرب والمسلمون فى ذلك العهد ، أم صنعه الكواكبى من خياله ليؤيد به أفكاره وآراءه ؟ ان الرجل نفسه يقول ان لهذا المؤتمر أصلا من الحقيقة وأن الخيال تممها . وهو على أى حال خيال رائع . ويؤكد لنا الدكتور عبد الرحمن الكواكبى

حفيد عبد الرحمن الكواكبي أن جده لم يغادر حلب خلال مقامه فيها الا الى استنبول ، ولم يقم بجولاته فى العالم الاسلامى الا بعد رحيله الى مصر . ولهذا فان المؤتمر الذى عقد فى مكة والذى يدور عليه موضوع كتاب « أم القرى » انما هو مؤتمر تخيله المؤلف ليعرض فيه آراءه الاصلاحية فى قالب جذاب يستهوى النفوس (١) .

ويضعنا السيد الكواكبى فى مقدمته لكتابه أم القرى فى بلبلة أخرى من تاريخ خروجه من حلب ، فهو يقول : (... فخرجت من وطنى — أحد مدن الفرات — فى أوائل محرم سنة ست عشر وثلثمائة وألف) (٢) . ولعل هذا هو الذى حير بعض مؤرخى سيرته — كما سلف القول — فذكروا انه غادر حلب سنة ١٣١٦ هـ .

وقد أحس الكواكبى أنه قد يبدو فى كتابه هذه يكشف عورات المسلمين وعيوبهم التى اجتمع أعضاء المؤتمر المتخيل لاصلاحها ، وان اظهار هـذه العورات للقراء قد يكون ثقيلا على انفسهم ، فصدر الكتاب بكلمة قوية يقول فيها : (أيها الواقف على هذه المذكرات ! اعلم أنهـــا سلسلة قياس ، لا يغنى أولها عن آخرها شيئا ، وأنها حلقات معان مرتبطة مترقية ، لا تغنى تصفحها عن تتبعها ، فان كنت من أمة الهداية ، وفيك نشأة حياة ودين ، وشمة مروءة ، فلا تعجل بالنقد ، حتى تستوفى مطالعتها ، وتعى الفواتح والخواتم ، ثم شأنك ورأيك . أما اذا كنت من أمة التقليد ، وأسراء الأوهام ، بعيدا عن التبصر ، لا تحب أن تدرى من أنت ، وفى أى طريق تسير ، وماحق دينك ونفسك عليك ، والى ماذا تصير ، فتأثرت من

---

(١) أم القرى ص ١ من تقديم حفيد الكواكبى

(٢) أم القرى — ص ٤

كشف الحقائق ، ودبيب النصـــــائح ، وشعرت بعار الانحطاط ، وثقل الواجبات ، فلم نطق تتبع المطالعة ، وتحكيم العقل والنقل فى المقدمات والنتائج فأناشدك الاهمال ـ الذى الفناه ـ آن تطرح هذه المذكرات الى غيرك ليرى فيها رايه) .

وكان في المؤتمر الاسلامى المزعوم أعضاء يمثلون بلادا عربية واسلامية مختلفة ، ما بين شامى ، ومصرى ، ويمنى ، ومقـــدسى ، ونجدى ، وتونسي ، وفاسى ، وكردى ، وتترى ، وتبريزى ، وقازانى ، وتركى . وأفغانى ، وهندى ، وسندى ، وصينى ، وانجليزى . وقد يجمع القطر الواحد بين اثنين يمثلان بلدتين فيه ، كالجمع بين المدنى والمكى للقطر الحجازى ، والجمع بين القاهرى والاسكندرى للقطر المصرى .

وقد ابدع الكواكبى قصة الكتاب وموضوع المؤتمر المتخيل ابداعا فائقا ، وصـــور الاجتماعات والمناقشات تصويرا دقيقا يوهم أنها حقيقة لا خيال ، ووصل الى أعماق العلل التى منى بها العرب والمسلمون فاخرتهم عن مكانهم . وهى علل لخصهـــا السيد الفراتى ـ وهـو الكواكبى نفسه ـ بوصفه سكرتيرا للمؤتمر ، فى أسباب دينية وسياسية وخلقية ، منها : اختلاف المسلمين الى فرق وشيع ، وترك السعى والعمل ، ونشر ما يدعو الى التزهيد فى الدنيا ، وادخال الخرافات والأوهام فى تعاليم الاسلام ، وعدم المطابقة بين القول والعمل فى الدين ، والتوسع فى تأويل النصوص ، وتطرق الشرك الى عقيدة التوحيد ، وحرمان الأمة من حرية القول والعمل ، وفقد العدل والمساواة بين طبقات الأمة فى الحقوق ، وابعاد الحكام للمناصحين ، وتقريبهم المتملقين ، والاستغراق

فى الجهل ، وفساد التعليم ، وتفضيل الوظائف على المهن والصناعات ، والغفلة عن تنظيم شئون الحياة ، وحرمان المرأة من التعليم والتهذيب .

ولعبد الرحمن الكواكبى كتاب اسمه « صحائف قريش » ، أشار اليه فى تقديمه لكتابه « أم القرى » ، ووعد بأنه سيكون تاليا لهذا الكتاب . ويظهر أن الموت أعجله عن اصداره ، ويذكر ولده الدكتور محمد أسعد الكواكبى أن أصل هذا الكتاب هو مما أخذه السلطان عبد الحميد أو أخذ اليه . ولكن أين ذهب أصل الكتاب ؟ يقول الدكتور أسعد انه بحث عنه فى الآستانة كثيرا بعد اعلان الدستور وخلع السلطان عبد الحميد ، فلم يقف له على أثر (١) .

ويظهر أن هذا السلطان الداهية — كما يقول المرحوم محمد كردعلى — قد اغتبط بموت الكواكبى ، وأراد القضاء على أفكاره المضرة ، فأرسل مدير معارف بيروت. عبد القادر القبانى الى مصر حيث مات الرجل ليأخذ أوراقه ويرضى أسرته بمبلغ من المال . ويظهر أن الرسول قد نجح فى مهمته . والا فأين « صحائف قريش » ، وأين الكتاب الآخر « العظمة لله » الذى سمع محمد كردعلى بأذنيه مقدمته من فم الكواكبى نفسه ؟ ان كل علمنا عن كتاب « العظمة لله » أنه سياسى أيضا (كسائر ما خطته يمينه) (٢) .

ويشير الدكتور محمد أسعد الكواكبى الى منتخبات من الشعر فى أغراض مختلفة كان والده السيد عبد الرحمن الكواكبى يسجلها فى كراسات ويحتفظ الدكتور

---

(١) مجلة الحديث سنة ١٩٥٢

(٢) المذكرات لمحمد كرد على — ص ٦١١

أسعد (بكناش فيه مجموع أشـعار تنوف على الثلاثة آلاف بيت ، مصنفة على الطراز المذكور ، ومحررة بخطه المشهور الذى لا يقلد) . وحبذا لو كان من أبناء الأسرة الكواكبية من يقوم بنشر هـذه المنتخبات الشعرية ، لنعرف منها ميول عبد الرحمن الكواكبى الأدبية ، وذوقه فى اختيار الأشعار وتذوقها .

طبائع الاستبداد

يشتمل كتاب طبائع الاستبداد على مقدمة وتسـعة فصول . ففى المقدمة يكشف لنا المؤلف عن اهتماماته وعن غرضه من تأليف كتـابه . فقـد شغلته مسألة انحطاط الشرق عموما ، والمسـلمين على الخصوص ، وأخذ يبحث عن داء الشرق ودوائه ، حتى تمحص عنده أن أصل الداء هو الاستبداد السياسى ، وأن دفعه ودواءه يكون بالشورى الدستورية .

ويتضح من المقدمة ان فكرة الكتاب لم تكن طارئة على الكواكبى ، ولكنه كان مهموما بها ، مشتغلا بالتفكير فيها ثلاثين عاما . فلم يتصور سببا للانحطاط الا عالجه . وكان كلما فرغ من تحليل علة انتهى الى غيرها ، فان العلل متكاثرة . وقد ظل هذا الشاغل منذ شبابه الباكر ، فهو يتقصى أسباب التدهور والضعف سببا بعد سبب ، حتى اذا ما وقع على ما ظنه عاما قال لنفسه : لعل هذا هو جرثومة الداء ! فيتعمق فيه تمحيصا ، ويحلله تحليلا ، حتى ينكشف له التحقيق عن أن ما قام فى الفكر هو واحد من جملة أسباب ، أو أنه سبب فرعى لا أصلى ، فيعيد الكرة ويعاود البحث من جديد . ومن أجل البحث والتقصى غادر الـكواكبى حلب ، وسافر

سائحا فى اقطار الأرض ، وانفق فى هذا السبيل عمرا عزيزا ، وعناء غير قليل .

ونفى الكواكبى فى المقدمة انه يقصد ظالما بعينه ، أو حكومة أو امه محصوصة بذاتها . وانما أراد بيان طبائع الاستبداد وما يفعل ، وتشخيص مصارع الاستعباد، حتى يتنبه الغافلون من العرب والمسلمين الى مورد الداء الدفين ، ويعلموا أنهم هم المتسببون لما حاق بهم ، فلا يلوموا أقدارهم ولا يعتبوا على غيرهم ، انما يعتبون على الجهل ، وفقد الهمم والتواكل ، وبهذا يستدركون شانهم ويصلحون أمورهم قبل أن يمضى الاوان ويفوت الزمان .

وتدل شواهد الحال على أن الكواكبى كان يقصد السلطان عبد الحميد ومن على شاكلته من حكام الشرق المستبدين .

ورأى الكواكبى فى مقدمة الكتاب أن هناك مسائل يجب أن يدور البحث حولها ، ويعرف تشخيصها . والمهم أولا أن يعرف ما هو الاستبداد ؟ وما سببه وما أعراضه ، وما سيره ، وما انذاره وما دواؤه ؟ وكل موضوع من ذلك ينطوى على مباحث شتى ، منها : ما هى طبائع الاستبداد ؟ ولماذا يكون المستبد شديد الخوف ؟ ولماذا يملك الرعب قلوب رعيته ؟ وما تأثير الاستبداد على الدين والعلم والمجد والمال والأخلاق والترقى والتربية ؟ ومن هم أعوان المستبد ؟ وكيف يكون التخلص من الاستبداد ؟ وبماذا ينبغى استبداله ؟

وفى الفصل الأول يعرفنا المؤلف بالاستبداد عند اللغويين ، والاستبداد عند السياسيين . ويسوق لنا بعض مترادفات للفظة الاستبداد ، من أمثال : الاستعباد ، والاعتساف ، والتسلط ، والتحكم ،

وبعض مترادفات لكلمة المستبد من أمثال : الجبار ، والطاغية ، والحـــاكم بأمره ، والحاكم المطلق . أما مترادفات المستبد بهم أو المستعبدين — بفتح الياء — فمنهـــا : الأسرى ، والأسراء ، والمســـتصغرون ، والبؤساء ، والمستنبتون . ويضع الكواكبى فى مقابلتهم ألفاظ : الأحرار ، والأباة ، والأحياء ، والاعزاء .

وحين يفرغ الـكواكبى من تعريف الاستبداد بالتقابل والترادف اللغويين ، يعرفه بالوصف قائلا : انه صفه للحكومة المطلقة العنان فعلا أو حكما ، التى تتصرف فى شئون الرعية كما تشاء ، بلا خشية حساب ولا عقاب محققين . ويلاحظ المؤلف أن الاستبداد لا يعرف طريقه الى الحكومات البدوية التى تتألف الرعية فيهـــا من عشائر يقطنون البادية ، ويسهل عليهم الرحيل والتفرق متى مست حكومتهم حريتهم الشخصية ، أو سامتهم ضيما . وهنا تظهر مزية البداوة على التمدن ، فان نشأة البدوى نشأة استقلالية تمكنه أن يعتمد فى معيشته على نفسه فقط ، خلافا لقاعدة الانسان المدنى بالطبع .

وبعد أن يصف الكواكبى أشكال الحكومة المستبدة ، سواء أكانت مركزة فى شخص واحد ، أم فى جماعة حاكمة ، ينتقل الى البيان والبلاغة فى تعريف المستبد والاستبداد ، وهو لا يعتمد هنا على النظريات السياسية ، والأصول الدستورية ، ولكنه يعتمد على الخلابة والفصاحة وروعة العبارة .

ويقول الكواكبى ان هذه الجمل التى ساقها هى من أقوال الحـكماء ، وخاصة المتأخرين منهم ، ولـكنه لم ينسبها الى حكيم بعينه ، بل أرسلها جميعا بلا نسب . . كقولهم : (المستبد عدو الحق ، عدو الحرية وقاتلهما ،

والحق أبو البشر والحرية أمهم ، والعوام صبية أيتام نيام لا يعلمون شيئا ، والعلماء هم اخوتهم الراشدون . ان ايقظوهم هبوا ، وان دعوهم لبوا ، والا فيتصل نومهم بالموت) وقولهم : (الاستبداد أعظم بلاء يتعجل الله به الانتقام من عباده الخاملين ، ولا يرفعه عنهم حتى يتوبوا توبة الأنفة ، نعم ! الاستبداد أعظم بلاء ، لأنه وباء دائم بالفتن ، وجدب مستمر بتعطيل الاعمــــال ، وحريق متواصل بالسلب والغصب ، وسيل جارف للعمران ، وخوف يقطع القلوب ، وظلام يعمي الابصار، وألم لا يفتر، وصائل لا يرحم ، وقصة سوء لا تنتهى ..) .

وفى الفصل الثاني يحدثنا الكواكبى عن الاستبداد والدين ، فينقل عن علماء الفرنجة قولهم ان الاستبداد السياسي متولد من الاستبداد الدينى ، وانهما حاكمان قويان احدهما فى مملكة الأجسام ، والآخر فى عالم القلوب . فكثير من الأديان تدعو البشر الى قوة عظيمة هائلة لا تدرك العقول كنهها . وهذه القوة تهدد بالمصائب في الدنيا عند بعض الديانات ، وبالشر والعذاب فى الدنيا والآخرة بعد الممات عند أديان أخرى ، ثم تفتح هـذه الأديان أبوابا للأمل فى النجاة من العذاب ، بالالتجاء الى الأحبار ، والكهنة ، والقسوس وأمثالهم ، التماسا للغفران ، والدخول فى الرضوان . ويصف الكواكبى وسائل هؤلاء الكهان فى اذلال النفوس ، وامتهان الاتباع على ما هو معروف . ثم ينتقل الى الاستبداد السياسى وما يفعله المستبدون الســياسيون ، فهم يسترهبون الناس بالتعالى والتشامخ ، ويذللونهم بالقهر والقــوة وسلب الأموال ، حتى يخضعوهم لهم ، ولا يجدوا ملجأ الا التزلف لهم اتقاء لشرهم . وهنا يختلط الأمر على

العوام بين الاله المعبود بالحق ، والمستبد المطاع بالقهر ، فلا يرون لانفسهم حقا فى مراقبة الحاكم المستبد ، لانتفاء النسبة بين عظمته ودناءتهم .

ومن هنا نراهم يخلعون عليه صفات الاله المعبود ، كولى النعم ، وجليل الشان ، وعظيم القدر .. ويرى الكواكبى ان الاسلام مناف لطبيعة الاستبداد ، فقد جاء بعد اليهودية والنصرانية ، مؤسسا على الحكمة والعزم ، هادما للتشريك ، محكما لقواعد الحرية السياسية المتوسطة بين الديموقراطية ، والارستقراطيه. كما ان القرآن ، وهو دستور الاسلام مشحون بتعاليم تقضى بأمانه الاستبداد ، وأحياء العدل والتساوى حتى فى القصص القرآنى ، كقول بلقيس ملكة سبأ تخاطب اشراف قومها : (ما كنت قاطعة امرا حتى تشهدون) ومن هنا لا مجال لرمى الاسلام بالاستبداد ، مع تأسيسه على الشورى ، كما فى آيات كثيرة من القرآن ، ولكن دخل الفساد اليه بتضليل بعض العلماء الذين ما لأوا الاستبداد ، فحرفوا الكلم عن مواضعه ، وغيروا مفهوم اللغة ، وطمسوا على العقول ، حتى جعلوا الناس ينسون لذة الاستقلال ، وعزة الحرية ، بل جعلوهم لا يعقلون كيف تحكم أمة نفسها بنفسها بدون سلطان قاهر ...

وفى الفصل الثالث من « طبائع الاستبداد » يتحدث الكواكبى عن الاستبداد والعلم ، فيوضح انه ليس من غرض المستبد أن تتنور الرعية بالعلم ، اذ لا يخفى على المستبد — مهما كان غبيا — أنه لا استعباد ولا اعتساف الا ما دامت الرعية حمقاء ، تخبط فى ظلام جهل وتيه وعماء . والمستبد لا يخشي علوم اللغة والادب ، ولا العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد ، المختصة بما بين الانسان وربه ،

لاعتقاده أن هذه العلوم لا ترفع غباوة ، ولا تزيل غشاوة ، وانما يتلهى بها المتهوسون الذين يستخدمهم المستبد فى تأييد أمره ، ومجاراة هواه ، لقاء أنه يضحك عليهم بشيء من التعظيم ، ويسد أفواههم بلقيمات من فتات مائدة الاستبداد . وانمــا ترتعــد فرائص المستبد من العلماء المشتغلين بالحكمة النظرية ، والفلسفة العقلية ، وحقوق الأمم ، وطبائع الاجتماع ، والسياسة المدنية ، والتاريخ المفصل ، والمقدرة على الخطابة الأدبية ، ونحو ذلك من العلوم التى تكبر النفوس ، وتوسع العقــول ، وتعرف الانسان ما هى حقوقه ومدى غبنه فيها ، وكيف يطلبهــا وينالهــا ؟ وكيف يحفظها ؟ والمستبد يخــاف من هؤلاء العلماء الصالحين العاملين المرشدين ، لأنهم يكشفون ظلمه وسرقته وطغيانه . أما العلمــاء الذين امتلأت رءوسهم بمحفوظات كثيرة ، كأنها مكتبات مقفلة ، فــلا يحسب المستبد لهم حسابا ... والصراع دائم بين الحاكم المستبد وبين العلماء المستنيرين ، فهم يسعون فى تنوير العقول ، والمستبد يجتهد فى اطفاء نورها . والعــــوام الجهال مجتذب للصراع ، وهم قوت المستبد وقوته بسبب الخوف الناشيء عندهم عن جهل وغباوة . فاذا ارتفع الجهل ، وتنور العقل ، زال الخوف ، واضطر المستبد الى الاعتزال ، أو الاعتدال ...

ولغة الأمة ــ كما يقول الكواكبى وكما يلاحظه ــ فيها دليل على عراقة الأمة فى الاستعباد أو الحرية . فقلة الفاظ التعظيم ، وندرة عبارات التفخيم فى العربية ، هى شيء آخر غير ثراء اللغة الفــــارسية واحتشادها بعبارات الخضوع ... وكذلك اللغة التى ليس فيهــا بين المتخاطبين الا : أنا ، وأنت ، غير اللغة التى تزدحم بعبارات من أمثال : سيدى ، وعبدكم .

وينتقل الكواكبي الى دور الاسلام العظيم في الامر بالعلم والحض عليه . ولكن تأخر المسلمين كان نتيجة للاستبداد الذى استهان بالعلم حتى رجع بالامة الى الأمية .

وحين يحدثنا الكواكبي في الفصل الرابع عن الاستبداد والمجد ، فانه يقرر أن الاستبداد يضغط على العقل فيفسده ، ويلعب بالدين فيفسده ، ويحارب العلم فيفسده ، ويغالب المجد فيفسده ، ويقيم مقامه « التمجد » . والمجد هو احراز المرء مقام حب واحترام في القلوب ، وهو مطلب طبيعي شريف لكل انسان ، ولا ينال الا بنوع من البذل في سبيل الجماعة ، فاذا كان المبذول نفسا سمى مجد النبالة ، وهو أرفع درجات المجد ، واليه تتوق النفوس الكبار ، وتحن اليه أعناق النبلاء .

ويرى الكواكبي أن الحرص على المجد اقوى واوجب من الحرص على الحياة ، على عكس ما يراه المؤرخ ابن خلدون من تقديم الحرص على الحياة . أما « التمجد » فهو القربى من المستبد بالعمل والتعاون معه ، أو بوسام ينال ، أو لقب يخلع ... والمستبد يتخذ المتمجدين سماسرة لتغرير الأمة باسم خدمة الدين ، أو حب الوطن ، أو توسيع المملكة ، أو تحصيل منافع عامة ... والمتمجدون أعداء للعدل ، أنصار للجور ، فلا دين لهم ، ولا شرف عندهم ، ولا رحمة لديهم . وهذا ما يقصده المستبد من ايجادهم والاكثار منهم حوله ، ليتمكن بوساطتهم من أن يغرر بالأمة على أضرار نفسها تحت اسم منفعتها ... فهم العصابة التي تعينه على الظلم ، ومنهم الوزراء والقواد والموظفون والعمال .

والحكومة المستبدة يتجلى بالطبع استبدادها فى كل فروعها ، من المستبد الأعظم الى الشرطى ، الى الفراش الى كناس الشوارع . ولا يكون كل صنف الا من أسفل طبقته أخلاقا ، لأن وسائل التمجد والقربى الى كبيرهم تنسيهم كل القيم الكريمة . وهنا ينتهى الامر الى أن يكون أسفلهم طباعا وخصالا أعلاهم وظيفة وقربا ... ولن تقاد الأمة خير مقـــادة الا بالعقلاء والحكماء المتنورين الابرار ، الذين يشترون لها السعادة بشقائهم ، والحياة بموتهم .

وفى الفصل الخامس يعالج الـــكواكبى موضـــوع الاستبداد والمال . وهو هنا يلحظ الظلم القائم فى فطرة الانسان . فالنظام الطبيعى فى عالم الحيوان حتى فى السمك والهوام — الا أنثى العنكبوت — أن النوع الواحد منها لا يأكل بعضه بعضا ، على حين أن الانسان يأكل الانسان ؟ كما فى بعض القبائل المتخلفــة . والانسان كثيرا ما يخطف اللقمة من فم أخيه ، والرزق من يد صاحبه . على حين أن الحيوان يلتمس الرزق من مورده الطبيعى .

وتبدو النزعة الاشتراكية عند الكواكبى واضحة فى هذا الفصل . فهـــو يرى أن الرجال تقاسموا مشاق الحياة قسمة ظالمة . فان أهل السياسة والاديان ومن يلتحق بهم ، وعددهم لا يبلغ الخمسة فى المائة ، يتمتعون بنصف ما يتجمد من دم البشر أو زيادة ، وينفقونه فى الرفاهية والاسراف . فهم يزينون الشوارع بملايين من المصابيح لمرورهم فيها أحيانا ، متراوحين بين الملاهى والمواخير ، ولا يفكرون فى ملايين من الفقراء يعيشون فى بيوتهم فى ظلام . والتجـــار الشرهون والمحتكرون وأمثال هـــذه

الطبقات الجشعة — وهم يبلغون في العدد خمسة في المائه — يعيش احدهم بمثل ما يعيش به العشرات او المئات أو الالوف من الصناع والزراع . وجرثومة هذه القسمة الجائرة المتفاوتة هي الاستبداد لا غيره . والعدالة لا تقتضي أن يتساوى الخامل بالمجتهد ، والسهران بالنائم . ولكن العدالة والانسانية تقتضي أن يأخذ الراقي بيد السافل ، فيقربه من منزلته ، ويقاربه في معيشته ، ويعينه على الاستقلال في حياته .

وقد أحدث الاسلام هذا النوع من الاشتراكية التي تقتضي أن يؤخذ قسم من مال الأغنياء ، ويرد على الفقراء . فقرر زكاة الأموال ومقدارها اثنان ونصف في المئة من رءوس الاموال تعطى للفقراء وذوى الحاجة ، وهكذا يلحق فقراء الأمة بأغنيائها ، ويمتنع تراكم الثروات المفرطة المولدة للاستبداد .

وقد التفت الكواكبي الى الجماعات الاشتراكية التي قامت في أوروبا في وقته تدعو الى التقارب في الحقوق والحالة المعاشية بين البشر ، وتسعى ضد الاستبداد المالي ، فتطلب أن تكون الأرض والأملاك الثابتة ، وآلات المعامل الصناعية الكبيرة مشتركة الشيوع بين عامة الأمة ، وأن تكون الأعمال والثمرات موزعة بوجوه متقاربة بين الجميع ، وأن تضع الحكومة قوانين لكافة الشئون حتى الجزئيات وتقوم بتنفيذها . ولكنه عاد فاستدرك بأن هذه الأصول مع بعض التعديل قد قررها الاسلام دينا .

ومن أهم وظائف الحكومات العادلة أنها تعمل على تقريب المسافات بين أفراد الشعب ، فلا غنى فاحش ، ولا فقر مفرط . وهذه المفارقات كانت قائمة الى عهد

الكواكبى حتى فى اكثر البلاد الأوروبية تمدنا . فكم من البشر فى أوروبا المتمدنة ــ وخاصة فى لندرة وباريس ــ لا يجد أحدهم أرضا ينام عليها متمددا ، بل ينامون فى الطبقة السفلى من البيوت ، حيث لا ينام البقر ، وهم قاعدون صفوفا ، يعتمدون بصدورهم على حبال من مسد ، منصوبة أفقية يتلوون عليها يمنة ويسرة .

ولعل الكواكبى أول من تنبه الى قوانين تحديد الملكية الزراعية فى الصين . وقد جعل هذا مما يفتخر به عند دولة يتهمها المتمدنون الغربيون باختلال النظام . وندعه هنا يقول بعبارته : (وحكومة الصين المختلة النظام فى نظر المتمدنين ، لا تجيز قوانينها أن يمتلك الشخص الواحد أكثر من مقدار معين من الأرض لا يتجاوز العشرين كيلو مترا مربعا ، أى نحو خمسة أفدنة مصرية، أو ثلاثة عشر دونما عثمانيا) بل تنبه ــ فوق هذا ــ الى ما صنعته روسيا فى هذا السبيل ، وما فعلته فى سبيل حماية الفلاح من الوقوع فى براثن المرابين والدائنين المستغلين ، فقال : (وروسيا المستبدة القاسية فى عرف أكثر الأوربيين ، وضعت اخيرا لولاياتها البولونية والغربية قانونا أشبه بقانون الصين،وزادتعليه انها منعت سماع دعوى دين غير مسجل على فلاح . ولا تأذن لفلاح أن يستدين أكثر من نحو خمسمائة فرنك) بل تنبه الرجل أكثر من هذا الى خطورة الوضع فى الشرق ، فأرسل صيحة كانت جريئة وكان لهـا فضل المبادرة وان كانت غير مدوية ، فقال منذرا (وحكومات الشرق اذا لم تستدرك الأمر ، فتضع قانونا من قبيل قانون روسيا ، تصبح الأراضى الزراعية بعد خمسين عاما أو قرن على الأكثر ، كايرلندة الانكليزية المسكينة ، التى

وجدت لها في مدى ثلاثة قرون شخصا واحدا حاول ان يرحمها فلم يفلح ، وأعني به غلادستون ، على أن الشرق ربما لا يجــــد فى ثلاثين قــرنا من يلمتس له الرحمة ..) .

ولعل الكواكبى هنا أيضا هو أول من تكلم عن الادخار ـ وسماه التمول ـ وجوازه وشروطه ، التى جعل منها أن يكون احراز المال بوجه مشروع ، كأن يكون من بدل الطبيعة ، أو بالمعاوضة ، أو فى مقابل عمل ، أو فى مقابل ضمان ، على ماتقوم بتوضيحه الشرائع المدنية . كما اشترط ألا يكون فى الادخار تضييق على حاجات الغير ، كاحتكار الضروريات ، أو مزاحمة الصناع والعمال والضعفاء ، وألا يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير ، لأن افراط الثروة مهلكة للأخلاق الحميدة فى الانسان .

ولم ينكر الـكواكبى قيمة المــال وأثره فى الرخاء ، فأشاد بفضله ، كما أشاد بفضل الثروات العامة فى الأمم ، وخاصة فى زمان صارت المحاربات فيه محض مغالبات علم ومال . ومن هنا أصبح للثروة العمومية أهمية عظمى لأجل حفظ الاستقلال ، واذا ما سلب الاستبداد الثروة العامة للدول فان منزلتها تصبح فى المجتمع الانسانى كأنعام تتناقلها الأيدى . على أن الكواكبى فى الوقت الذى يشيد فيه بأهمية المال لا يفوته أن ينبه الى أن للمــال الـكثير المفرط ، وتكدس الثروات آفات على البشرية ترتعد منها فرائص أهل الفضيلة والـكمال . فكثرة المال بلاء فى بلاء . فهو بلاء من حيث التعب فى تحصيله ، وبلاء من حيث القلق على حفظه ، وبلاء من حيث التفكير والعمل على انمائه . وليس معنى هــذا الدعــوة الى التزهيــد فى المــال ، والتثبيط عن

كسبه ، وانما القصد ألا يتجاوز كسبه الطرائق الطبيعية الشريفة ، والسبل السليمة غير المعوجة .

ولقد فطن الكواكبى الى أثر الحكومات المستبدة فى خلق جماعة من المتمولين ، تسهل لهم الحصول على الثروة بالسرقة من بيت المال ، وبالتعدى على الحقوق العامة ، وباغتصاب ما فى أيدى الضعفاء الذين لا يملكون من الحول والقوة ما يدافعون به عن انفسهم . ويكفى الواحد من هؤلاء المتمولين المتجردين من الدين والوجدان والحياء أن يتصل بباب المستبد ، ويتقرب من أعتابه ، ويتوسل الى ذلك بالتملق وشهادة الزور ، وخدمة الشهوات ، والتجسس ، ليسهل له الحصول على الثروة الطائلة ، التى هى فى الأصل ثروة الشعب ومن دمه ...

وفى الفصل السادس يعالج الكواكبى موضوع الاستبداد والأخلاق ، فيرى أن الاستبداد يفسد الأخلاق الحسنة ، ويشوه الفطرة السليمة ، ويجعل المرء حاقدا فاقدا حب وطنه ، ضعيف الحب للأسرة ، مختل الثقة فى صداقة الأصدقاء . والاستبداد يغير القيم ، ويقلب الاوضاع . فكم مكن بعض الملوك والقياصرة الأولين من التلاعب بالأديان تأييدا لاستبدادهم فاتبعهم الناس . ويرى أصحاب الفكر السليم ان الناس وضعوا الحكومات لأجل خدمتهم ، ولكن الاستبداد قلب الموضوع ، فجعل الرعية خادمة للرعاة ، ثم قلب الحقائق رأسا على عقب تمويها على العقول ، فسمى طالب الحق فاجرا ، وتارك الحق مطيعا ، والمشتكى المتظلم مفسدا ، والنبيه المدقق ملحدا ، والخامل المسكين صالحا أمينا . وكما يخدع الاستبداد العامة والبسطاء ، فانه يتغفل كثيرا من

العقلاء . فمن المؤرخين من ينخدع بالمظاهر ، فيسمون الفاتحين الغالبين بالرجال العظام ! وينظرون اليهم نظر الاجلال والاحترام ، لمجرد انهم كانوا اكثروا فى قتل الانسان وأسرفوا فى تخريب العمران .

وأسير الاستبداد لا يجرى على القوانين الفطرية للأخلاق ، وهى القوانين التى أوجبت على المرء وظيفة نحو نفسه ، ووظيفة نحو عائلته ، ووظيفة نحو قومه ، ووظيفة نحو الانسانية . ومن أين يكون له ذلك وهو كالحيوان المملوك العنان ؟ يقاد حيث يراد ، ويعيش كالريش ، يهب حيث يهب الريح ، فلا نظام ولا ارادة .

وفى هذا الفصل أيضا يعقد الكواكبى موازنة لطيفة بين الشرقيين والغربيين ، فيأخذ فى عد الفروق التى يراها بين الغربى والشرقى ، فالغربى مادى الحياة ، قوى النفس ، شديد المعاملة ، حريص على الاستئثار ، حريص على الانتقام ، كأنه لم يبق عنده شىء من المبادىء العالية والعواطف الشريفة التى نقلتها له مسيحية الشرق ... أما أهل الشرق فهم أدبيون ، يغلب عليهم ضعف القلب ، وسلطان الحب ، والاصغاء للوجدان ، والميل للرحمة ولو فى غير موقعها ، واللطف ولو مع الخصم . ويرون العز فى الفتوة والمروءة ، والغنى فى القناعة والفضيلة ، والراحة فى الأنس والسكينة ، واللذة فى الكرم والتحبب . وهم يغضبون ولكن للدين فقط ، ويغارون ولكن على العرض فقط .. وليس فى طاقة الشرقى ولا فى مقدور طباعه ان يستبيح ما يستحسنه الغربى . واذا قلده فلا يحسن التقليد ، وان أحسن التقليد لا يثبت ، وان ثبت لا يعرف استثماره ، حتى لو سقطت الثمرة فى كفه لتمنى لو

قفزت الى فمه ! وقد يفضل فى المسائل الفردية الشرقى على الغربى . اما فى الاجتماعات فيفضل الغربى على الشرقى مطلقا . مثال ذلك : الغربيون يستخلفون أميرهم على الصداقة فى خدمته لهم ، والتزام القانون . والسلطان الشرقى يستخلف الرعية على الانقياد والطاعة. ... والغربيون يضعون قانونا لأميرهم يسرى عليه ، والشرقيون يسيرون على قانون مشيئة أمرائهم .

وفى الفصل السابع يحدثنا الكواكبى عن الاستبداد والتربية ، فالحكومات العادلة المنتظمة تتولى ملاحظة تربية افراد الأمة منذ يتكونون فى ظهور الآباء ، وذلك بسن قوانين الزواج ، والعناية بالقابلات والاطباء ، ثم يفتحون الملاجىء ، وبيوت الأيتام ، وديار اللقطاء ، والمدارس على اختلاف مراتبها ، ثم يؤمنون العمل لكل عاجز ، ويتيحون الفرصة لكل عامل ، أما الحكومات المستبدة فلا تعنى بتربية الأفراد ، بل تتركهم هملا بدون رعاية ، وفوضى بغير عناية . والآباء انفسهم لا يشغلون انفسهم بتربية ابنائهم ، لأنهم ان نوروا اولادهم بالعلم جنوا عليهم بتقوية احساسهم وارهاف مشاعرهم ، فيزيدونهم شقاء ، ويزودنهم بلاء . ولهذا يؤثر الآباء فى الحكومات المستبدة ان يتركوا اولادهم هملا تجرفهم البلاهة الى حيث تشاء !

وفى الفصل الثامن يعالج الكواكبى الاستبداد والترقى . والترقى الحيوى الذى يتدرج فيه الانسان بفطرته وهمته هو الترقى فى الجسم صحة وتلذذا ، والترقى فى القوة بالعلم والمال ، والترقى فى النفس بالخصال والمفاخر ، والترقى بالأسرة استئناسا وتعاونا، والترقى بالعشيرة تناصرا عند الطوارىء ، وأخيرا

الترقى بالانسانية ، وهو نهاية المطاف .

وقد يبلغ الاستبداد بالأمة أن يحول ميلهـا الطبيعى من طلب الترقى الى طلب التسفل ، بحيث لو دفعت الأمة الى الرفعة لأبت وتألمت ، كما يتألم الأجهر من النور . وسبيل الانسان هو الرقى ما دام جناحا الاندفاع والانقبـاض فيه متوازنين كتـوازن الايجـابية والسلبية فى الكهربائية . وسبيله القهقرى ان غلبته الطبيعية أو المزاحمة . ثم ان الاندفاع اذا غلب فيه العقل النفس كانت الوجهة الى الحكمة ، وان غلبت النفس العقل كانت الوجهة الى الزيغ ...

ويختم الكواكبى فصول كتابه « طبـائع الاستبداد » بالفصل التاسع ، وموضوعه الاستبداد والتخلص منه . وهنا يطرح مباحث لتدقيق المطالعين . فيبحث أولا عن الأمة والشعب ويتسـاءل : هل هى ركام مخلوقات نامية ، أو جمعية عبيد لمالك متغلب ، وظيفتهم الطاعة والانقياد ولو كرها ؟ أم هى جمع بينهم روابط دين أو جنس أو لغة أو وطن ، وحقوق مشتركة ، وجامعـة سياسية اختيارية ، لـكل فرد حق اشهار رأيه فيها ، توفيقا للقاعدة الاسـلامية التى هى أسمى وأبلغ قاعدة سياسية ، وهى : « كلكم راع ، وكلـكم مسئول عن رعيته » . ويبحث ثانيا عن الحكومة ويتساءل : هل هى سلطة امتلاك فرد لجمع ، يتصرف فى رقابهم ، ويتمتع بأعمالهم ، ويفعل فيهم بارادته ما يشاء ؟ أم هى وكالة تقام بارادة الأمة لأجل ادارة شئونها المشتركة العامة ؟ ويبحث ثالثا عن ماهية الحقوق العمومية ، ويتساءل : هل هى حقوق آحاد الملوك ، ولكنها تضاف للأمم مجازا ، أم بالعكس هى حقوق جموع الأمم ، وتضاف للملوك مجازا ،

ولهم عليها ولاية الأمانة والنظارة على مثل الأراضي والمعادن ، والأنهار والسواحل ، والقلاع والمعابد ، والأساطيل والمعدات ، وولاية الحدود ، والحراسة على مثل الأمن العام ، والعدل والنظام ، وحفظ الدين وصيانة الآداب ، والقوانين والمعاهدات والاتجار ، الى غير ذلك مما يحق لكل فرد من أفراد الأمة أن يتمتع به ويطمئن عليه ؟

وتمتد المباحث في هذا الفصل الأخير الى خمسة وعشرين مبحثا ، تدور حول التساوى في الحقوق ، والحقوق الشخصية ، ونوعية الحكومة ، ووظائفها ، وحقوق الحاكم ، وطاعة الأمة ، وتوزيع التكاليف ، واعداد المنعة ، والرقابة على الحكومة ، وحفظ السلطة في القانون ، وتأمين العدالة القضائية ، وحفظ الدين والآداب ، وكيفية وضع القوانين ، وما هو القانون وقوته ، وكيف توزع الأعمال والوظائف ، والتقسيم بين السلطات ، والترقي في العلوم والمعارف ، والتوسع في الزراعة والصناعة والتجارة ، والسعي في العمران ، والسعي في رفع الاستبداد .

هذه هي موضوعات كتاب « طبائع الاستبداد » ، ولقد عالجها السيد عبد الرحمن الكواكبي كلها على طريقة التحليل ، والتشريح ، وفلسفة التاريخ ، وبيان الأسباب والمسببات ، على نهج غير مسبوق الا ما كان من ابن خلدون في مقدمته ، والوزير ابن المغربي في كتاب « السياسة » ، وغيرهما ممن أشار اليهم الكواكبي في مقدمته ، وقد طال عهد الناس في عصر الكواكبي بهذه الدراسات التحليلية الرصينة ، حتى ظنوها في أول الأمر ، حين نشرت في صحيفة « المؤيد » بدون توقيع ،

من كتابات الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده . ولكن الجفاء الذى كان بين الشيخ على يوسف والاستاذ الامام لم يدع لهذا الظن مجالا ، فلما عرفوا انهـا للضيف الحلبى الجديد النازل بمصر : عبد الرحمن الكواكبى اكبروه وأجلوه .

ولكن عمق دراسة الكواكبى للاستبداد وطبائعه ، وللمسائل المذهبية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والتاريخية التى احتواها الكتاب ، جعل بعض الناس يذهب الى أن الكتاب ليس من تأليف الكواكبى خالصا ، وانه أخذه عن مؤلف ايطالى مجهول . ومن عجائب المفارقات أن الكواكبى نفسه استشهد فى الصفحات الاخيرة من كتابه بعبارة نسبها الى «الفيارى المشهور» .

ومن هنا دخل الاعتقاد بأن الكواكبى اخذ كتابه من كتاب الفيارى هذا . واسمه فيكتور الفيرى ، وهو من مفكرى ايطاليا وأحرارها فى القرن الثامن عشر . وقد أثار المرحوم الأستاذ أحمد امين هذه القضية وهو يتحدث عن الكواكبى ، وتساءل : كيف وصلت آراء ألفيرى الى الكواكبى وهو لم يكن عارفا بأية لغة أوروبية ؟ وليس من الصعب أن تكون هذه الآراء وأشباهها قد ترجمت الى اللغة التركية التى كان يتقنها الكواكبى الى حد كبير ، فأخذها وتمثلها ، وأضاف اليها الكثير من آرائه وتجاربه (وعدلها بما يناسب البيئة الشرقية والعقلية الاسلامية) .

واذا كانت آراء الكواكبى فى طبائع الاستبداد نتيجة لرحلات ومشاهدات رآها بعينه ، فان كثيرا من هذه الآراء والأفكار ثمرة لقراءات ومطالعات كثيرة . واذا كان الرجل لم يصرح لنا بذكر مصادره ، فان اثر

الاطلاع يبدو واضحا فى كل سطر من سطور الكتاب .

وقد اختار الكواكبى لكتابه هذا أسلوبا فريدا ولعله هو أسلوبه فى كل ما كتب ووصل الينا علمه أو عينه . فاسلوب كتابه « أم القرى » من هذا الوادى . ويحدثنا الرجل نفسه عن السر فى اختياره لهـذا الأسلوب ، فيقول : (وقد تخيرت فى الانشاء أسلوب الاقتضاب ؛ وهو الأسلوب السهل المفيد ، الذى يختاره كتاب سائر اللغات ، ابتعادا عن قيود التعقيد ، وسلاسل التأصيل والتفريع) .

وعلى الرغم من سهولة أسلوب الكواكبى ووضوحه وادائه بلا تـكلف ولا زخـــرف ، وجهت اليه بعض انتقادات . فلم يسلم من الوقوع فى بعض أخطاء النحو واللغة ، ولم يسلم من مآخذ التعبيرات الصـــحفية الدارجة التى كانت تشيع فى صحافة ذلك العهـد ، ووقف لهـا اللغويون المحافظون بالمرصـاد ، من أمثال الشيخ ابراهيم اليازجى الذى كان يتعقب هذه المآخذ ، وينقدها ويردها الى الصحيح من الاستعمال .

وعذر الكواكبى فى هذا التساهل انه لم يكن لغويا ولا نحويا ، ولا مشتغلا بقضايا أساليب الفصاح ، وانما كان مصلحا دينيا واجتماعيا ، ومفكرا سياسيا ، وداعية للنهوض ، فلا يهمه من الألفاظ الا الابلاغ والبلاغ ..

وقد بلغ من قصد الايضاح والوضوح عند الـكواكبى انه كثيرا ما كان يلجـأ الى التشبيهات التى توضـح فكرته ، وتبسط نظريته ، كقوله : (كالغنم تلتف على بعضها اذا ذعرها الذئب) . وقوله : (فلو كان المستبد طيرا لـكان خفاشا يصطاد هوام العوام فى ظلام الجهل)، وقوله : (الأقوام كالآجام ، ان تركت مهملة تزاحمت

اشجارها) ، وقوله : (الانسان فى نشأته كالغصن الرطب) وقوله : (وعندئذ يصير الاستبداد كالعلق يطيب له المقام على امتصاص دم الأمة) ، وعشرات وعشرات من أمثال هذه التشبيهات ، وان كان الكواكبى قد يفيد احيانا مما كتبه غيره ... فان تشبيه الاستبداد بالعلق الذى يعيش على امتصاص الدماء هو من العبارات التى سبق الى استعمالها الكاتب الحر الثائر « أديب اسحاق » .

واذا كنا قد أشرنا هنا الى التسمح الكثير الذى كان الكواكبى لا يبالى به فى النحو واللغة ، ولا يمكن أن يرد الى أخطاء فى الطبع أكثر من رده الى تجاوز فى التعبير ، فانه لا يفوتنا هنا الاشارة الى أكثر من تحريف وقع فى الآيات القرآنية التى كان الرجل يستشهد بها ، فقد جاءت آية من القرآن الكريم هكذا : (اذا اردنا اهلاك قرية أمرنا مترفيها) وصوابها : (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها) ، وجاءت آية اخرى هكذا : (وكرمنا بنى آدم) ، وصوابها : (ولقد كرمنا بنى آدم) .

على أن هذه الملاحظات وأشباهها لما يثير قضية الدعوة الى وجوب اعادة طبع الكتاب طبعة محققة مصححة ، فان الطبعة الحلبية الأخيرة من « طبائع الاستبداد » – على الرغم من اشراف الدكتور عبد الرحمن الكواكبى حفيد الكواكبى عليها – لم تسلم من أقذاء العين بكثير من الأخطاء النحوية والتحريفات ..

فهرس

صفحة

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٢٠ - ٨١
الترقيم الدولى : ٦ - ٨٦ - ٧٠٣١ - ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة ـ ص • ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم علي نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :
THE ARABIC PUBLICATIONS
7. Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND

البرازيل :
M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.

اسعار البيع للجمهور في البلاد العربية للاعداد العادية من « كتاب الهلال » الشهرى بسعر ٢٠ قرشا للقارىء في مصر .

سوريا : ٣٠٠ ق٠س ثلاثمائة قرش سورى
لبنان : ٢٥٠ ق٠ل « مائتان وخمسون قرشا لبنانيا »
الاردن : ٢٥٠ فلسا « مائتان وخمسون فلسا اردنيا »
الكويت : ٣٥٠ فلسا « ثلاثمائة وخمسون فلسا كويتيا »
العراق : ٤٠٠ فلس « اربعمائة فلس عراقي »
السعودية : ٤½ ريال « اربعة ريالات ونصف ريال »



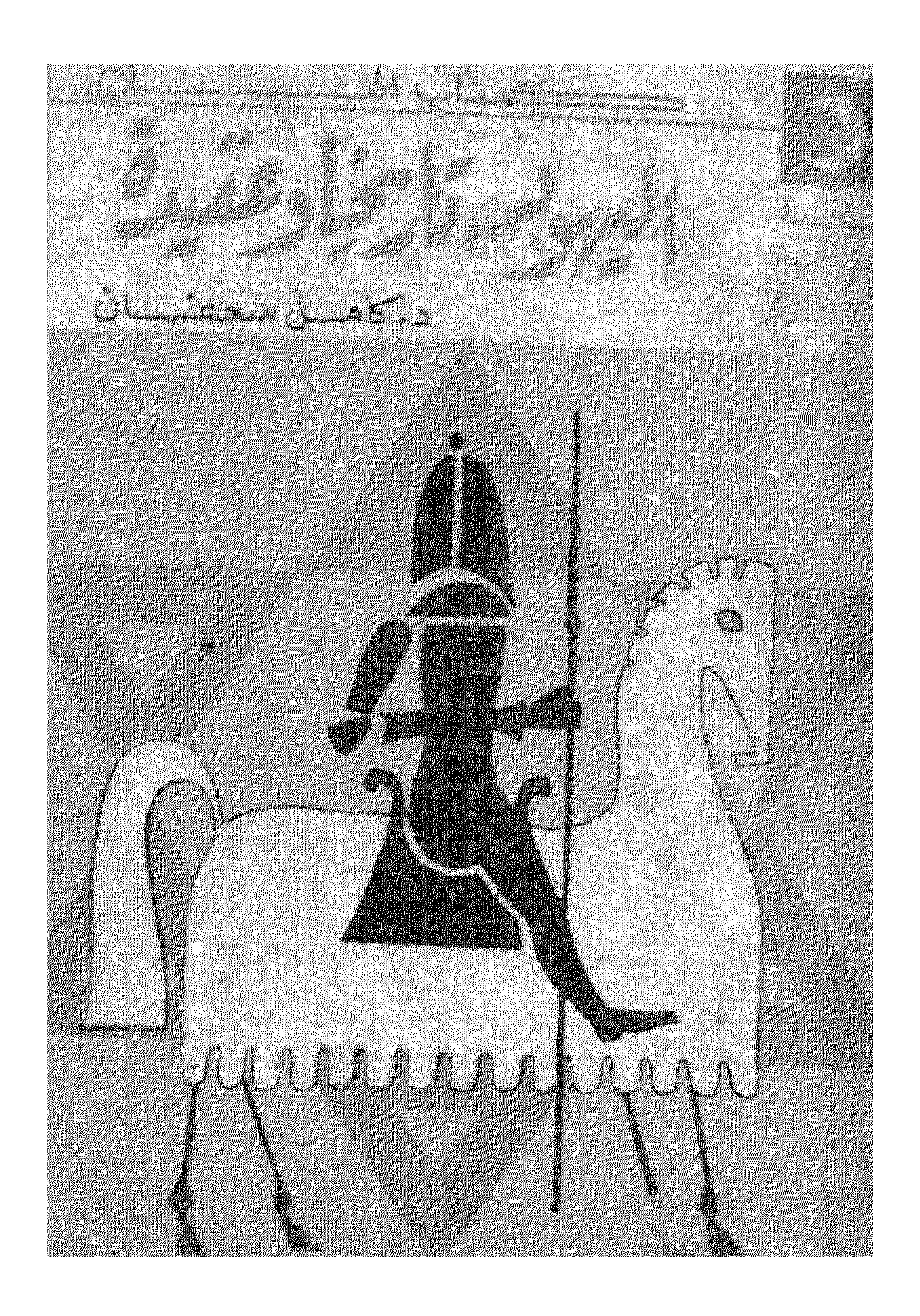
وقف المؤلف فى هذا الكتاب وقفات متانية طويلة مع خمسة من الكتب العربية الشامخة لخمسة من المؤلفين الكبار على مدى العصور منذ صنف « الميدانى » كتابه العظيم : « مجمع الامثال » فى أوائل القرن السادس الهجرى ، الى أن الف المصلح المفكر العربى : « عبد الرحمن الكواكبى » – فى أوائل القرن العشرين الميلادى – كتابه الخطير : « طبائع الاستبداد » الذى كان له دوى عظيم عند صدوره ، والذى ناصر به الحرية ، وتحدى سلطان الحكام الطغاة المستبدين ، وخاصة السلطان عبد الحميد ....

ولم يشأ المؤلف أن يقف مع الكتب الخمسة التى عدها – بحق – رائدة فى مجالاتها « دون أن يقف مع مؤلفيها الذين كانوا روادا فى ميادين تاليفهم . وهكذا انصف المؤلف هذه الكتب وأصحابها انصافا يحتاج اليه التقييم الادبى الصحيح ، كما يحتاج اليه القراء وشداة الادب والبحث ، ليعرفوا القيمة الحقيقية لبعض العلماء والمفكرين فى تاريخ العرب والاسلام ...

أما الكتب الخمسة الرائدة فهى : « مجمع الامثال » للميدانى ، و « القاموس المحيط » للفيروزابادى ، و « الوسيلة الادبية » للمرصفى ، و « تاريخ آداب اللغة العربية » للمؤرخ جرجى زيدان ، و « طبائع الاستبداد » لعبد الرحمن الكواكبى . وأما مؤلفوها فقد نالوا من عناية الكاتب ، وعمق تحليله ، واتساع مدى دراسته ما يتكافأ مع جهدهم وريادتهم فى آفاق العلم والفكر ....



رشـا


د. كامل سعفان

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

نائب رئيس مجلس الإدارة : صبرى أبو المجد

رئيس التحرير : د. حسين مؤنس

سكرتير التحرير : عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

KITAB AL-HILAL

العدد ٣٦٤ ـ جمادى الأولى ١٤٠١ ـ ابريل ١٩٨١

No. 364 — April 1981

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ـ ١٢ عددا ـ فى جمهورية مصر العربية جنيهان مصريان بالبريد العادى . وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان ثلاثة ونصف جنيه مصرى بالبريد الجوى . وفى سائر انحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادى وخمسة عشر دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج. م. ع. بحوالة بريدية غير حكومية وباقى بلاد العالم بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الأسعار الموضحة أعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغــــــلاف بريشـــة :
الفنانة : سميحة حسنين

د. كامل سعفان

اليهود
تاريخاً وعقيدة

دار الهلال

الفصل الأول

التاريخ اليهودى

١ ـ اليهود فى تاريخهم القديم

٢ ـ اليهود فى ظل دولة الاسلام

٣ ـ اليهود فى أوروبا

٤ ـ اليهود والقرآن

٥ ـ اليهود والصهيونية

اليهود في تاريخهم القديم

لا نكاد نجد توقيتا محددا للهجرة التى قام بها ابراهيم ـ عليه السلام ـ من مدينة (أور) الكلدانية ـ كما تقول التوراة ـ في طريقه الى مصر ، ثم عودته الى بلاد كنعان .. وان كان أكثر المؤرخين يرجعون بداية الرحلة الى حوالى ٢٠٠٠ ق . م ، ويرجع بعضهم حدوثها عام ١٧٥٠ ق . م .

كما أن أكثر المؤرخين يرجعون بأبى الأنبياء الى أصل آرامى ، والآراميون ينتسبون الى أصول عربية هاجرت من الجنوب فى أزمنة سابقة ، وظلت اللغة الآرامية تحمل فى جذورها السمات العربية ..

هذا .. مع أن أسماء آباء ابراهيم التى أوردتها التوراة تشترك مع أسماء معروفة أيامئذ فى المنطقة القريبة من مدينة حران ـ جنوبى تركيا ـ أمثال (تيرا وناحور وسروج وبلغ) ، بالاضافة الى أن اسم (ابراهيم) قد ورد فى نصوص ذلك العهد (أبراثاما) ، يسمى به الناس ذكورهم ..

ولعل السبب فى هذا الترابط ـ وما يوهم بالاختلاط ـ مرده الى الاضطرابات التى صحبت سقوط (أور) في أواخر دولة (أور) الثالثة ، تحت هجمات العيلاميين

والعموريين .. ولا شك في أن كثيرين هاجروا ــ ابان هذا الصراع السياسي والعسكري ــ وحملوا معهم تلك الأسماء التي تسمى بها ابراهيم وآباؤه .. وفي نفس الوقت أخذ ابراهيم طريقه الى الشمال ، ثم الى الجنوب طلبا للأمان ، مما يفيد أن وجود هذه (الأسماء) في حران ثمرة من ثمار الهجرة اليها ..

ويؤيد جون بريت John Bright هجرة ابراهيم من أور في كتابه (تاريخ اسرائيل) بأن (الأثر البابلي الواضح الذي نلمسه في كتابات التوراة الحالية ــ عند كلامها عن الخليقة وأصل الكون ونهاية الطوفان ــ ما هو الا ما بقي في أذهان العبريين (١) وقت كتابتهم هذا الجزء من التوراة بعد ذلك ، مما جلبه معه ابراهيم من معتقدات بابلية ، ولقنها أولاده ، وبقيت تنتقل بالرواية من جيل الى جيل ، حتى أيام تدوينها ، على عهد سليمان بن داود .

وفي هذا الجزء من التوراة المعنون بالخليقة ــ تكوين ــ نقرأ أن ابراهيم قد نصب ايليازور الدمشقي وارثا له ، حيث لم يكن لديه من يرثه وقتذاك ، وأن هذا العمل قد لقي غضب الله .. والعجيب أن تنصيب شخص عقيم لرجل آخر وارثا له ، يعتني بدفنه ، ويرث ما يترك ، كان معروفا بين الخوريين الذين اتخذ فريق منهم مدينة نوزي ــ يورغان تبه ، قرب كركوك ــ عاصمة لهم ، وقطن فريق منهم سورية وفلسطين وآسيا الصغرى .

(١) أطلق على اليهود لفظ عابيرو وحابيرو وهابيرو وعابورا «العبرانيون أو العبريون » مما يفيد العبور والارتحال وعدم الاستقرار ، والمصريون الى اليوم يطلقون على النعجة اسم « عابورا » مما يفيد صحة التعليل .

وينبغي ملاحظة ان هجرة ابراهيم لم تـكن هجرة أفراد ، بل كانت هجرة جمـــــاعات ، تضم الزوجات والأبناء والعبيد وما يملكون من الحيوانات ..

من أجل هذا تمكن ابراهيم من الوقوف بجيش عدته ٣١٨ رجلا من أهل بيته فى مواجهـة (كدرلعومر) والملوك الذين معه ، وطاردهم (الى حوبة التى عن شمال دمشق ((تكوين — ١٥) ..

وهذه الهجرة الجماعية لم تكن تأخذ طريقا أمما ، بل كانت تنتجع المراعى ولم يكن لها هدف محـدد .. ومن ثم مر ابراهيم ببلاد كثيرة استضافته ، وأكرمت مثواه ، وصاهر منها ، وانتهى مطافه الى هذه الأرض التى تزخر بشعوب كثيرة قنزية ، وقينية ، وقدمونية ، وفرزية ، ورفائية ، وأمورية ، وحرفاشية ، ويبوسية ، وحيثية ، وكنعانية ، وفلسطينية .. (تكوين — ١٥) ..

والتقى ابراهيم بديانات مختلفة ، تسللت الى ديانته، والى ديانة أبنائه من بعده ، عن طريق الأخبار المتناقلة فى تلك الجماعة الكبيرة المتحركة ، مع تطوير الروايات المنقولة ، فنسب الى ابراهيم والى الأنبياء من بعده — حتى جاء عصر التوراة المدونة — اعـداد من الآلهة ، لا شك فى أنهم أبرياء منها ..

ومع الآلهة العـــديدين الذين نسبتهم التوراة الى (الآباء) فان كتاب التوراة حرصوا على تأكيد ملـكية أرض كنعان بوعد من (الرب) لابراهيم ، حتى ليحار المرء أى رب هذا ؟! . ولماذا كان حرص (الآباء) بعد ذلك على الهجرة الى مصر ، دون التمسك بوعد الله ؟!

(قال الرب لأبرام — بعد اعتزال لوط عنه — ارفع

عينيك ، وانظر من الوضع الذى أنت فيه شمالا وجنوبا وشرقا وغربا ، لأن جميع الأرض التى أنت ترى ، لك أعطيتها ، ولنسلك الى الأبد .. قم امش فى الأرض طولها وعرضها ، لأنى لك أعطيها .. (تكوين — ١٣) .

لكن — بعد ذلك — (قطع الرب مع أبرام ميثاقا ، قائلا : لنسلك أعطى هـذه الأرض ، من نهر مصر الى النهر الكبير ، نهر الفرات) .. (تكوين — ١٥) .

ولعلهم — من أجل هذا الميثاق — كانوا يذهبون الى مصر ، بحكم كونها داخلة فى هذا الميثاق !!

ومن تمام الميثاق أن الرب سيخرج من صلب ابراهيم اثنى عشر سبطا ، يملكون أرض كنعان ، مقابل عبادتهم له وحده .. وطلب منه أن يختن الذكور علامة هـذا الميثاق .

وما لبث ابراهيم أن رزق باسـماعيل من جاريته (هاجر) التى ارتحلت بابنها الى الجنوب ، الى واد غير ذى زرع عند بيت الله المحرم ، وولدت (سارة) اسحق الذى أنجب يعقوب ، وخلف يعقوب اثنى عشر ولدا ، هم الأسباط : رأوبين وشمعون ولاوى ويهوذا ويساكر وزبولون ويوسف وبنيامين ودان ونفتالى وجاد وأشير .

ولقد هيأ لهم (يوسف) فى مصر ، وارتحل يعقوب وأبناؤه بدعوة من يوسف وكان عددهم سبعين فردا (١)، وظلوا فى مصر خمسمائة عام تقريبا ، تكاثروا فيهـا غاية التكاثر ، حتى صاروا سبعمائة ألف تقريبا — كمـا

---

(١) هناك من يقول ان هذا تم فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد زمن العمارنة .

تدعي التوراة (عدد ـ ١) عندما بدأوا رحلة الخروج ، هربا من فرعون مصر سنة ١٢١٣ ق . م ، وان كان المؤرخون يرون أنهم لم يتجاوزوا عشرة آلاف .

وخلال وجودهم في مصر ربطوا مصالحهم بوجود حكام مصر من (الهكسوس) المستعمرين ـ (٢٠٩٨ ـ ١٥٨٧ ق . م) ـ وأنشبوا مخالبهم في الاقتصاد المصرى ، واتسع نفوذهم في مجالات مختلفة ، فلما انتصر المصريون على الهكسوس نقم الحكم الوطني عليهم ، لأنهم أثروا على حساب المواطنين المغلوبين على أمرهم ، وتآمروا مع المستعمر ضد أصحاب الأرض ولم يشاركوا فيما يباشر المصريون من أعمال البناء وفلاحة الأرض ، وحينما كانت تنزل الشدائد بالبلاد استغلوها لاضعاف معنويات الشعب ، وضيقوا عليه وسائل العيش .. ومن ثم أحس اليهود في ظل الحكم الوطني بأن دولتهم الى زوال ، فأخذوا يجمعون اموالهم ، ويستعدون للافلات بمكاسبهم ، ولكنهم تجاوزوا وطمعوا فيما يملك المصريون من الذهب ، ونهبوا خزائن القمح في المنطقة التي تمركزوا فيهاباقليم الشرقية. ـ منطقة الصالحية اليوم ـ اذ صدرت اليهم أوامر الرب (انكم لا تمضون فارغين ، بل تطلب كل امرأة من جارتها ، ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة ، وأمتعة ذهب ، وثيابا ، وتضعونها على بنيكم وبناتكم ، فتسلبون المصريين) .. (خروج ـ ٣) .

ولكن مطاردة المصريين لهم ، وقسوة ما أصابهم من الهلع والرعب ، جعلهم يتيهون في سيناء أربعين عاما ، لا يدرون من امرهم ، حتى كاد يفنى جيل (الخروج) وقدر (الرب) ما أصابهم ، فقال : (لا يرد الشعب

الى مصر ، الرب قد قال لكم : لا تعودوا ترجعون في هذه الطريق) .. (تثنية - ١٧) ونسى (الرب) ميثاقه لابراهيم .

وأراد موسى أن يخفف من آلامهم ، وأن يبث في قلوبهم الأمن والأمل ، فقال على لسان الرب في جبل حوريب : (انى قد رأيت مذلة شعبى الذى في مصر وسمعت صراخهم من أجل مسخريهم ، انى علمت أوجاعهم ، فنزلت لأنقذهم من أيدى المصريين ، واصعدهم من تلك الأرض الى أرض جديدة وواسعة ، الى أرض تفيض لبنا وعسلا ، الى مكان الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحوريين واليبوسيين) .. (خروج - ٣) .

وقد اختلف المؤرخون فى أصل موسى ، هل هو مصرى أو عبرانى ؟

وحجة من يدعون أنه مصرى كون اسمه مصريا بمعنى الطفل أو الابن ، وأنه كان ذا مكانة بين الحاكمين ، اذ كان ضابطا فى جيش مصر ضد الأحباش ، كما يقول فرويد ، مستعينا بما قال الفيلسوف اليهودى ويوسيفوس المؤرخ اليهودى .

وهذا زعم باطل ، لأن الاسم والمكانة يرجعان الى تبنى امرأة فرعون له ، كما تقول رواية القرآن الكريم ، بعد ما أمر فرعون بذبح مواليد اليهود من الذكور : « وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه ، فاذا خفت عليه فالقيه فى اليم ، ولا تخافى ، ولا تحزنى ، انا رادوه اليك ، وجاعلوه من المرسلين ، فالتقطه آل فرعون ... وقالت امرأة فرعون : قرة عين لى ولك ، لا تقتلوه ،

عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا » (القصص — ٩/٧) .

وبدون نظر الى ما جاء فى القرآن الكريم ، فليس ما يمنع من التسمى بالأسماء المصرية خلال خمسمائة عام ، وماذا يحول دون أن يصبح موسى قائدا فى جيش مصر ، وقد ربط يوسف بين اليهود والمناصب القيادية فى الدولة ؟ ثم ان اليهود كانوا فى خدمة (الهكسوس) المستعمرين ، مما يساعد على الوصول الى المناصب الكبيرة ، وتاريخ الشرق مع اليهود — حتى عهد قريب — لم يكن يحرمهم من هذه المناصب ، فكان منهم أصحاب الكلمة النافذة فى المجتمع الاسلامى !!

وتخبرنا المصادر التاريخية — كما جاء فى القرآن الكريم — أن موسى قتل مصريا ، وخاف أن يؤخذ بجريمته ، ففر الى بلاد مدين ، والتقى بكاهنها (يثرون) — نبى الله شعيب — وتزوج ابنته ، وأخذ عنه بعض التعاليم الدينية ، وحين عودته الى مصر ناداه الله : « اخلع نعليك انك بالوادى المقدس طوى ، وأنا اخترتك ، فاستمع لما يوحى ، اننى أنا الله ، لا اله الا أنا ، فأعبدنى، وأقم الصلاة لذكرى ... اذهب الى فرعون انه طغى ... اذهب أنت وأخوك بآياتى ، ولاتنيا فى ذكرى .. فقولا له قولا لينا ، لعله يتذكر أو يخشى » .. (طه — الربع الأول) .

ونجح موسى فى تجميع الشعب اليهودى من حوله ، وانضم اليه عدد من المصريين الساخطين من الأسارى والعبيد ، وخرج الشعب فارا من وجه فرعون (منفتاح ١٢١٣ ق . م) (١) الذى أبى الا أن ينتقم من هؤلاء

(١) قرأت أخيرا مايرجح أنه تحتمس الثالث وليس رمسيس الثانى أو منفتاح . مجلة أكتوبر عدد سبتمبر سنة ١٩٧٧ م .

الذين قصدوا الى تدمير الاقتصاد المصرى .

ويمد الله العون لهؤلاء المطاردين ، فيفتح لهم طريقا فى البحـــر ، ويفجـــــر لهم الينابيع ، وينزل لهم المن والسلوى .. ولكن طبيعة الجحود فى نفوس هؤلاء القوم تأبى الا الكفر بالله وبنعمته،« وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا يا موسى : اجعل لنا الها كما لهم آلهة ... قال : أغير الله أبغيكم الها ، وهو فضـــلكم على العـــالمين ؟! » (الأعراف ١٣٨/١٤٠) .

وما لبث موسى أن ذهب للقاء ربه ، فاذا هم ينتهزون فرصة غيبته ، فيصنعون عجلا من الذهب يعبدونه .

وتسجل التوراة أن هؤلاء القوم قد وقعوا فى أسر الآلهة الأسطورية فى المناطق التى نزلوا بها ، وبخاصة الاله (يهوه) اله البراكين الذى يظهر مغلفا بالسحاب نهارا ، وبالنار ليلا ، ويتابعهم حيثما ارتحلوا .(عدد ــ ١٤) .. وكانت تتلخص عبادته فى اقامة مآدب صحراوية وذبائح وقرابين محـــروقة .. وكذلك الالهة (عنات) ، الهة الأساطير الكنعانية ، ذات الشهوة الدامية .. وعلى هذا تتمثل أوامر الرب فى صورة انتقامية رهيبة .. يقـول الرب لموسى : (متى أتى بك الرب الهك الى الأرض التى أنت داخل اليها لتمتلكها ، وطرد شعوبا كثيرة من أمامك ... لا تقطع لهم عهدا ، ولا تشفق عليهم ، ولا تصاهرهم) .. (تثنية ــ ٧) (أما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب الهك نصيبا ، فلا تستبق منها نسمة ما) .. (تثنية ــ ٢٠) من أجل أنهم (لم يلاقوكم بالخبز والماء ، فى الطريق عند خروجكم من مصر) .. (تثنية ــ ٢٣) .

بعد ما قويت شوكة اليهود بقيادة (يشوع) (١) أطلق الرب يده فى أصحاب الأرض قتلا ونهبا وختلا ورجما وحرقا وصلبا وتمثيلا .. (حرموا كل ما فى المدينة ، من رجل وامرأة ، من طفل وشيخ ، حتى البقر والغنم والحمير ، بحد السيف .. وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها) .. (يشوع ٦ ، ٨ ، ١٠) .

نزل هـذا كله بأريحا ، وعاى ، ولبنه ، ولخيش ، وجازر ، وعجلون ، ودبير ، وحاصور .

ولقد بلغت روح الانتقام والتشفى عند يشوع — كما تحكى التوراة (٢) — حد أنه بعد ما انهزم ملوك الأموريين الخمسة ، ووقعوا فى أسره ، قال (لقـواده ، رجال الحرب الذين ساروا معه : تقدموا ، وضعوا أرجلكم على أعناق هؤلاء الملوك .. وضربهم يشوع بعد ذلك ، وقتلهم ، وعلقهم على خمس خشب ، وبقوا معلقين على الخشب حتى المساء) .. (يشوع — ١٠) .

ويرى المؤرخون أن طبيعة هـذه الانتصارات لم تكن بسبب قوة اليهود وشجاعتهم ، بل بسبب ما أصاب البلاد من تمزق وفوضى ، حتى عاثت فيها عصابات الخابيرو — المكاريين — فسادا ، وكان أن طلب(عبدو خيبا) — حاكم القدس نيابة عن الفرعون المصرى — خمسين جنديا فقط لحفظ النظام .. فـاذا انتصر يشوع بأكثر

---

(١) يذكر اخوان الصفاء أنه « يوشع بن نون ولد يوسف النبى » وانه ظهر فيهم بعد وفاة موسى بأربعين سنة من التيه — « رسائل اخوان الصفا ، ج ٤ ص ٢٨ ط دار صادر ببيروت سنة ١٩٥٧ » على حين يتحدث المفسرون للقرآن الكريم أنه الفتى الذى صحب موسى فى طريقه الى الرجل الصالح .

(٢) لم نناقش أخبار التوراة لانها تعبر عن واقع التاريخ النفسى والسياسى والعسكرى لليهود .

من عشرة آلاف موحدين تحت قيـــادته فالأمر لا يعدو مغامرة فى غير ميدان .

يقول جوستاف لوبون : (ان عـدد بنى اسرائيل ، واحتياجاتهم وبؤسهم فى مصر ، وحرمانهم الهـائل ـ مما جمع بينهم وأقنطهم ، فصاروا كقطيع الذئاب الهزيلة التى دفعها الجوع الى الاقتراب حتى من المدن) ...

ويقول : (كان بنو اسرائيل أقل من أمة حتى زمن شاءول ، وكانوا أخلاطا من عصـابات جامحـة ، كانوا مجموعة غير منسجمة من قبـائل سـامية صغيرة أفاقة بدوية ، تقوم حياتها على الغزو والفتح والجدب وانتهاب القرى الصغيرة ، حيث تقضى عيشا رغيدا دفعة واحده فى بضعة أيام ، فاذا مضت هذه الأيام القليلة عادت الى حياة التيه والبؤس) .

***

بعد أن استولى يشوع على أرض كنعان قسمها بين احدى عشرة قبيلة (سبطا) ، وجعل لقبيلة (لاوى) الشئون الدينية ، استجابة لقول الرب مخاطبا موسى : (قرب اليك هرون أخاك وبنيه معه من بين بنى اسرائيل، ليكهن لى) .. (خروج ـ ٢٨) .

ويلاحظ فى ذلك الحـــين أن أثر موسى فيهم كان محدودا ، اذ لم يـكد يبقى له من وجود فيهم يتجاوز (لوحين) ، كتب فيهما (الرب) الوصايا العشر وظلا فى (تابوت) ينتقـل معهم حتى بنى سـليمان بيت الرب .

ولأنهم كانوا أصحاب حضـــارة بدائية بدوية فقـد اصابهم الاستقرار ـ فى أرض زراعية ذات مجتمع له

أصوله الحضارية العريقة ـ بالخضوع لتقاليد المجتمع الجديد ، وقدسوا الاله (بعل) ، وهجروا لهجتهم السامية الأصلية ، واتخذوا اللغة الكنعانية ، وورثوا عن الكنعانيين أسس الثقافة المادية ، كما تسللت اليهم تقاليد الفحش المقدس ، اذ كان العذارى ينذرن أنفسهن حال بلوغهن للاله ، فيمارسن البغاء مع زوار معبده ، وكذلك أخذوا بتقاليد عبادة الاله (تموز) الذى كان الكنعانيون يعتقدون ـ كغيرهم من أقوام الشرق الأوسط القديم ـ موته صيفا وعودة الحياة اليه ربيعا .

ومن أثر الحضارة الكنعانية أن أصبح قادة اليهود ـ بعد يشوع ـ قضاة ، انحطوا بالبلاد سياسيا ، بسبب توقف الزحف العسكرى ، والانغماس فى حياة مدنية غير مألوفة .. وظل بنو اسرائيل ـ كما قال جوستاف لوبون ـ قوما من الزراع والرعاة ، حتى بعد صلتهم الطويلة بالحضارة الكلدانية ، من بعد المصرية والكنعانية، وبقى بنو اسرائيل ـ حتى فى عهد ملوكهم ـ بدويين ، أفاقين ، مغيرين ، سفاكين ، مندفعين فى الخصام الوحشى ، فاذا ما بلغ الجهد منهم ركنوا الى خيال رخيص ، تائهة أبصارهم فى الفضاء ، كسالى ، خالين من الفكر ، كأنعامهم التى يحرسونها ...

***

جاء الفلسطينيون من جزيرة كريت ، فرارا من وجه الهجرات اليونانية التى أزاحتهم عن مواطنهم ، ودخلوا أرض كنعان ، وسكنوا غزة وأشدود وعسقلان وأكرون وجات ، وانتصروا على سكان البلاد انتصارا باهرا ، بفضل أسلحتهم المصنوعة من الحديد ، وبلغوا أوج قوتهم فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر ق . م .

بفضل ثقافتهم المتقدمة - كما يقول البروفسور روبنسون - وبفضل العربات الحديدية التى كانوا يركبونها فى الحرب (١) .. فلما التقوا باليهود حوالى ١٠٥٠ ق . م . اوقعوا بهم هزائم متلاحقة ، حتى استولوا على تابوت العهد وأخذوه الى أشدود ، وظلت لهم اليد العليا ، مما دفع الاسرائيليين الى الالتفاف حول شخص يحيى أملهم ، ويغذى طموحهم فى السيطرة من جديد ، وكان ان توجوا الملك شاءول - حوالى ١٠٢٠/١٠٠٤ ق . م - الذى كان معروفا بالقوة والبأس ، ولكنه لم ينجح فى مهمته ، وقتل هو وأولاده ، وقطع الاعداء راسه ، وعلقوه مع أبنائه فى بيسان ، وأودعوا درعه وسلاحه قربانا فى معبد الالهة عشتاروت .

وولى الأمر داود - الذى كان حامل درع شاءول فى حدود ١٠٠٤/٩٦٠ ق . م . وكان فى أول الامر يحكم بصفته تابعا للفلسطينيين ، ولكنه تمكن من احراز الاستقلال ، ولم يكتف بذلك ، بل انه وسع حدود مملكته الى جهات لم يبلغها سلطان اليهود من قبل ، واحتل القدس ، وجعلها عاصمة ملكه ، بعد مقاومة عنيدة من اليبوسيين استمرت طويلا ، واقام ادارة على الطراز المصرى القديم ، وأجبر دمشق على دفع الخراج له ، كما احبط مؤامرة ابنه أبشالوم ، وأخمد ثورة الولايات الشمالية من مملكته ، وأخضع الموابين والأدوميين والعمونيين .. ومع هذا فالدولة فى أوج خيلائها - كما يقول بيللوك - كانت مائة وعشرين ميلا فى أطول أطوالها، وستين ميلا فى أعرض أعراضها ، واقل من ذلك بكثير

(١) (وكان الرب مع يهوذا ، فملك الجبل ، ولكن لم يطرد سكان الوادى ، لان لهم مركبات حديد) القضاة - ١٩ .

فى أغلب الأحيان ، فاذا خرج الرجل مع طلوع الشمس من القدس متجها شرقا أو شمالا أو غربا ، كان فى وسعه أن يبلغ أطرافهـــا فى فترة وجيزة من الصباح .. انه لا يقطع اثنى عشر ميلا فى أى من هذه الاتجاهات الا ويـكون قد خرج من حدود تلك المقاطعة .

وخلف داود ابنه سليمان الذى بدأ حكمه بقتل أخيه الأكبر أدونيا ، وقتل يؤاب رئيس جيش أبيه ، وعزل أبياثار الكاهن .. وكانت مصر وأشور فى حالة اضطراب مما ساعده على البلوغ بمملكته (٩٦٠/٩٢٥ ق . م) أوج ازدهارها .

كان اهتمامه بالتجارة الخارجية والصناعة والتعـدين والبناء والتعمير من عوامل عيشة البذخ والاسراف ، على غرار ملوك مصر وآشور ، وأسرف فى بناء قصره الذى استغرق بناؤه ثلاثة عشر عاما . واشـتهر كذلك ببناء المعبد المشهور باسم (هيكل سليمان) ، واستغرق بناؤه سبع سنين ، وقد اتضحت فى بنائه الرمزية الكنعانية . واهتم ببناء الحصون والقلاع والثكنات ، وأنشأ بمساعدة صديقه (حيرام) ملك صور أسطولا من السفن التجارية فى البحر الأحمر .. واتخذ من مصاهرة الدول المجاورة سبيلا الى الاستقرار .

ومع ذلك نشط أعداؤه ، فاستعادوا بعض البقاع التى كانت خاضعة لأبيه وانـكمش ملـكه فى آخر عهـده ، فاقتصر على غرب الأردن .

***

بعد سليمان انقسمت الدولة الى قسمين : (يهوذا) تحت حـكم (رحبعام) ابن سليمان الـذى لم يستطع

بسبب بطشه جمع شمل البلاد ، واتخذ عاصمة ملكه (أورشليم) ، أما (اسرائيل) فكانت تحت حكم (بربعام) — من سبط أفرايم — الذى اتخذ عاصمة دولته مدينة (السامرة) فى الشمال (٩٢٢ ق ٠ م ٠ تقريبا) .

ووقع العـــداء بين الدولتين ، وحدثت سلسلة من الحروب والفتن والاختلاف فى العقيدة أطمعت شيشنق فرعون مصر وصهر سليمان ، فاستولى على أورشليم ، ونهب ما فيها من كنوز .. وفى هذه الأثناء كانت دولة الأشوريين تزداد قوة ، فتوجه سرجون (٧٢٢ ق ٠ م) الى الشام ، واستولى على السـامرة ، ونقل كثـيرا من سكانها أسرى ، ثم قضى على دولة يهوذا .

واستسلم الملك (أحاز) لحكم تجلات بلاصر ، الملك الاشورى .. وفى عهده بنى الهيكل للمرة الثانية باشراف (أوريا) الكاهن ، ثم أخذ هذا الملك الاسرائيلى مذبحا وثنيا ، واستعمله فى معبده (الملوك الثانى — ١٦) ، مما دعا الى ظهـور عصر الأنبياء الذين ينددون بالشرك ويستمطرون اللعنات على الآثمين .

وحدث صراع بين الأنبياء الحقيقيين والأنبياء الأدعياء ، وأصبح لـكل حاكم أنبياؤه ، وبرز (ايليا) بمراثيه ، وشجع (اليشع) على قيـام ثورة أدت الى قتل الملك (أخاب) وزوجته ايزابيل وجميع كهنة الاله بعل ... أما النبى (عاموس) القروى الذى كان يأتى الى المدينة ليبيع ويشترى ويرى الترف والفســاد فقد دعا الى الاصلاح الاجتماعى ، وحث الأثرياء على الرأفة بالفقراء ، وانذر الناس بغضب (يهوه) وانتقامه ، كما انتقـد الفحش المقدس ، وعبادة الآلهة الأخرى .

وفى سنة ٦٢١ ق . م ادعى حاخام المعبد فى القدس أنه رأى أثناء نومه النبى موسى ، وانه اخبره بأن اسرائيل قد ضلت سواء السبيل ، وأن الكتاب الذى كتبه من كلمات الخالق موجودة فى مكان حدده من المعبد .. فلما استيقظ الحاخام حفر فى المكان الذى ذكره موسى ، فوجد سفر (التثنية) .. وصدرت أوامر الملك بتنفيذ ما جاء فى السفر وازالة مظاهر الوثنية .. ودبت الحياة من جديد فى العروق الجافة .

لكن ما لبث أن سقطت القدس (سنة ٥٩٨ ق . م) فى يد نبوخذ نصر ملك بابل ، وساق أمامه الملك (يهوياقين) والنبى (حزقيال) ، ومعهما سبعة آلاف رجل مسلح وألف عامل ، مكبلين بالحديد ، فكان هذا الأسر البابلى الأول .. وبعد سنوات ثارت مملكة يهوذا بتحريض من مصر ، فغضب نبوخذ نصر ، ودمر أورشليم (سنة ٥٨٦ ق . م) وحرق هيكل سليمان ، وسلب خزائن المدينة ونقلها الى بابل ، وقتل من سكانها عددا كبيرا ، وأخذ معه أربعين ألف أسير (لينوحوا عند مياه الفرات فى بابل) ، وكان هذا هو الأسر الثانى ، وقبض على الملك (صدفيا) واخذه الى معسكره ، وذبح أولاده أمام عينيه ، ثم فقأ عينيه ، وأخذه مكبلا مع الأسرى ، وشرد من بقى من اليهود .

ويعلل التلمود ما نزل باليهود بقوله : (عندما بلغت ذنوب اسرائيل مبلغها ، وفاقت حدود ما يطيقه الاله العظيم ، وعندما رفضوا أن ينصتوا لكلمات وتحذيرات ارمياه) الذى وجه القول الى نبوخذ نصر : (لا تظن أنك بقوتك وحدها استطعت أن تتغلب على شعب الرب المختار ، انها ذنوبهم الفاجرة التى ساقتهم الى هذا

العـــذاب) اذ انتشر الزنى بالأخت وبالأم ، كما انتشر اللواط والمساحقة ومواقعة البهائم ، وخلطوا أفظع الملاذ بالطقوس المقـــدسة ، وعدت ضروب البغاء تـكريما لعشتروت ، وعد الانهماك فى السـكر على بسط الأزهار وتحت ظلال الزيتون ـ كما يقول جوستاف لوبون ـ نوعا من العبادة .

وطال هذا الأسر ستين عاما ، مما ساعد على الاختلاط بحضارة جديدة ضيعت ما بقى من أصالة العبريين .. وصار الدين اليهودى غير خاص باليهود ، نتيجة غلبة الثقـــافة الـكلدانية ، والتزاوج بين الأسرى والمجتمع الجـــديد .. لكن مع هذا تولد الاحساس بالضياع ، وضرورة الحفاظ على ما بقى من الكيان اليهودى ، فالتف الأسرى حول النبى (حزقيال) .

ولما كان سقوط الدولة الـكلدانية تحت أيدى الفرس سنة ٥٣٨ ق . م . أخذ اليهود يحتلون الوظائف العالية فى الدولة الفارسية ، وصارت (أستير) ملكة بفضل ابن عمهـــا (مردخاى) ، وتســلطت أستير على الملك (أحشويرش) ، فصلب وزيره هامان وبنيه العشرة ، لأنه كاد يفتك بمردخاى وعشيرته ، و (أعطى الملك اليهود مدينة فمدينة أن يجتمعوا ويقفوا لأجل أنفسهم ، ويهلكوا ويقتلوا ويبيدوا قوة كل شعب وكورة تضادهم ، حتى الأطفال والنساء ، وأن يسلبوا غنيمتهم) ، فكان (كثير من شعوب الأرض تهودوا ، لأن رعب اليهود وقع عليهم) اذ قتلوا من مبغضيهم أكثر من خمسة وخمسين ألفا (١) .. (سفر أستير) .

---

(١) يجرى احتفال « عيد الفوريم » فى ذكرى هذه المذابح يومى ١٤ ، ١٥ آذار فى التقويم العبرى .

ومع أن أحداث القصة وردت في التوراة ، وعلى أقلام بعض المؤرخين ، فان الدكتور فؤاد حسنين على — وهو الحجة المثبت — يرى أن هذه القصة ليست عبرية الأصل ، فهى تصور ملحمة حربية بين الآلهة البابليين والعيلميين ، اذ ان أستير في الواقع هي عشتر ، وهامان هو اله العيلميين ، ومردخاي هو مردوك .. ولهذا عارض الكثيرون من اليهود أقحامها على العهد القديم .

ثم ان أحداث القصة تثير تساؤلات ، فالشاه يبدو موافقا على ما اتخذه هامان من اجراءات ، وفي موضع آخر يبدو كارها أسفا ، دون سبب .. وكيف يجهل هامان العلاقة بين مردخاي وأستير ، وهو الوزير المتصرف ؟ هذا الى أن التاريخ الايراني لا يعرف ملكة باسم فشتي (وشتي زوجة أحشويرش) أو أستير .. (راجع التوراة الهيروغليفية ص ١٧٤/١٨٢) .

***

بعد ما أخذ قورش بلاد بابل سنة ٥٣٨ ق . م سمح لليهود بالعودة الى فلسطين فرجع اليها حوالى ٤٢ ألفا ، وسخا الملك معهم ، فرد اليهم الأوعية التى أخذت من معابدهم وأضاف الى كنوز المعبد اليهودى في القدس أموالا من خزانته الخاصة .

وقاد اليهود في عودتهم — ابان حكم داريوس (٥٢١/٤٨٦ ق . م) — زربابل (زيرو بابل) (١) .

وعقب العودة بنوا مذبحا على موقع المعبد ، ولم يتموا بناء المعبد بسبب الحالة الاقتصادية .

---

(١) من اسمه يتبين أثر الاسر في التغيير الاجتماعى ، وتقوم الحجة على من يطعنون في عبرانية موسى بسبب اسمه .

وحاول اتمام البناء النبيان زكريا وحجاى .. لكن البنيان لم يتم الا عندما ظهر (عزرا) النبى ، وقد ساعد عزرا ملك فارس أرتكسيس (أرتحشيش) ـ ٤٦٥/٤٢٤ ق . م ـ الذي أباح لعزرا أن يأخذ معه الى أورشليم كل يهودى يبغى العودة ، وطالبه الملك أن يكيف اليهودية حسب كتاب الشريعة الذى بيده ، فرحل مع عزرا ستة آلاف يهودى ، بينهم نفر من الكهنة واللاويين ، فغيروا العقيدة اليهودية التى كانت قائمة فى فلسطين وقتذاك ، وغذوها بالنبوءات اليهودية الجديدة التى ظهرت فى السبى ...

وبعد اكتمال المعبد وقف فيهم عزرا وأعطاهم (القانون) ، وجعلهم يقسمون على المحافظة عليه ، وكان أهم حدث فى ذلك الحين هو اكتمال كتابة أسفار موسى الخمسة (التوراة) ، وبهذا بدأ عصر القوة فى المعتقد اليهودى ، والتصلب الدينى .

وكان من أثر الديانة الفارسية الايمان بالبعث والحساب، وبأن هناك محاكمة قاسية يجريها الخالق ، فيذهب بعدها من يثبت اجرامه الى جهنم ، والمؤمنون يذهبون الى الجنة .. وصاروا يؤمنون بوجود قوة للشر سموها الشيطان الذى يغرى بالعصيان ، كما صاروا يؤمنون بالملائكة وبالجن .. وكانوا ينظرون الى (قورش) على أنه (المخلص) الذى كانوا ينتظرونه ليعيد (مملكة يهوذا) .

وفى سنة ٣٣٢ ق . م دخل الاسكندر المقدونى فلسطين، واحتل القدس ، فخرج اليه اليهود فرحين داعين أن يخلصهم من نير الفرس وطغيانهم ، جاحدين فضل الفرس عليهم .

وبعد وفاة الاسكندر (سنة ٣٢٣ ق . م) صارت فلسطين فى أيدى السلوقيين ، وظلت مسرحا للاضطرابات ، يتداولها السلوقيون والبطالسة .

وقد تأثرت البلاد بالحضارة الهلينية ، فأقيمت الملاعب ، وترك الكثيرون عادة الختان وصاروا يأكلون لحم الخنزير ، ويذبحونه داخل المعبد .

وهاجر بعض المثقفين الى الاسكندرية ، ودرسوا الفلسفة اليونانية ، وتم التزاوج بين الفكر اليونانى والديانة اليهودية .

وتمتع اليهود بحرية مباشرة طقوسهم الدينية ، حتى كان (أنطيوخوس آبيفانوس) - ١٧٥/١٦٤ ق . م - فحاول نشر الثقافة الهيلينية بطريقة أثارت ثائرة اليهود ، فانتقم منهم أشد انتقام ، وحول المعبد اليهودى دارا لعبادة (زوس) ، كما حرم تقديس يوم السبت والاحتفال بالأعياد . ومنع الختان ، وحرم حيازة التوراة ، وجعل عقاب المخالفين الاعدام ، وأقام كثيرا من المعابد الوثنية ، وأجبر اليهود على تقديم القرابين لها .

وكانت نتيجة هذا الامتهان العقائدى أن ثار الكاهن (متياس) ، والتف حوله كثير من اليهود ، لكن الحركة انتهت بفتك ذريع باليهود فى أحد أيام السبت ، حيث لا تجوز الحركة فى ذلك اليوم ، مما حدا بالحاخامات الى الافتاء بالدفاع عن النفس فى هذا اليوم ...

وتجددت الثورات بقيادة أبناء (متياس) لتحرير الأرض ، وكان أهمها تلك التى كانت بقيادة (يهوذا بن متياس) جوداس المكابى ، فأحرز انتصارا على الملك السلوقى ، وحررت القدس ، واستعادت المعبد

سنة ١٦٥ ق . م ، وحصل اليهود على الحرية الكاملة في تأدية شعائرهم الدينية ، وطمحوا الى تحقيق الحرية السياسية ، فاستمر القتال حتى قتل يهوذا المكابي سنة ١٦٠ ق . م ، وخلفه أخوه (يوناثان) ، وقتل عام ١٤٤ ق . م ، وجاء بعده أخوه (سمعان) ، فكتب له التوفيق ، حتى منحه الشعب اليهودي عام ١٤٠ ق . م لقب الامارة والقيادة ورئاسة الحاخاميين .

***

وبعد أن وقعت البلاد في أيدي الرومان عقد اليهود مع السلطات الرومانية الحاكمة صلحا ، منحوا بموجبه حرية العبادة .

وثار اليهود سنة ٧٠ م ضد الرومان ، الا أن القائد الروماني (تيتوس) دمر أورشليم ، وحرق الهيكل ، وبنى معبدا للاله (جوبيتر) ، وقتل عددا كبيرا من اليهود ، وساق الى الأسر مئات المئات ، واختص (تيتوس) صديقه (فرونتو) بيهود أورشليم ، فعمل فيهم صلبا وتعذيبا ، كما أرسل الأقوياء منهم الى مصر ليعملوا في مناجمها مدى الحياة ، أما الأطفال والنساء فقد بيعوا في مختلف أسواق الامبراطورية الرومانية بأبخس الأثمان ، وكانت أمنية اليهودي ، أن يقع في أيد رحيمة تعطف عليه خوفا من أن يقع في حلبة مصارعة الثيران .. وتشرد الكثيرون في بقاع الأرض ، وبخاصة في بلاد ما بين النهرين ، الجزيرة العربية ومصر وبرقة .

وحاول اليهود الثورة في عهد تراجان (سنة ١٦٠ م) ، لكن ثورتهم باءت بالفشل وأخذ تراجان — بعد أن أعمل القتل فيهم — عددا من الأسرى الى روما ، شكلوا مع

من سبقوهم جالية يهودية كبيرة ، نشطت فى التبشير باليهودية ، فكان أن أصدر نيرون أمرا بتحريم اليهودية ، بعدما أحس بخطر انتشارها ،واعتناق زوجته لها .

ونتيجـــة قسوة تراجان وهادريان ونيرون ، هدات ثورات اليهود ، وتفرغ أحبارهم لـكتابة الكتب الدينية، فكان التلمود البابلى والفلسطينى .

***

بعد اعلان (دقلديانوس ــ ٢٨٤/٣٧٠ م) المسيحية دينا رسميا للبلاد ، أصبحت القدس عاصمة مسيحية ، وأصبحت اليهودية بدعة ، اعتناقها جريمة ، ولقى اليهود من الاضطهـــاد على يد المسيحيين ما لم يلاقـــوا فى كل العصور وبخاصة بعدما انتشرت المسيحية فى أوروبا .

وفى القرن الرابع الميلادى عقـــد صلح بين الـكنيسة والدولة الرومانية نص على اعتبار اليهودية العدو الأول للمسيحية عقائديا وسياسيا ، فصدرت مجموعة القوانين المعروفة باسم قوانين قسطنطين ، وصدر القرار التالى فى ١٨ أكتوبر سنة ٣١٥ م :

(ليعلم اليهود عامة أنه بعد صدور هذا القـــانون يعاقب كل يهودى ــ يتعرض ليهودى آخر ترك ملته الى المسيحية ــ بالاعدام حرقا هو ومن يعاونه ، أو يحرضه، ويعاقب بنفس العقوبة كل مسيحى منحرف ، أو أى فرد من أفراد الشعب ، يعتنق اليهودية الدنيئة) .

وجاء (جستنيان) فحرم عليهم اقامة الصلوات وقراءة الـكتاب المقدس باللغـــة العبرية ، وطالبهم باستخدام ترجمة يونانية .

وتكاثرت القوانين القيصرية الخاصة بانزال العقوبات بهم ، وظل هذا حالهم حتى ظهر الملك الفارسى خسرو الثانى ، وانقض على أملاك الروم ، وسقطت فى يده اورشليم ، فما كان من اليهود الا أن اشتركوا مع الفرس فى التنكيل بالمسيحيين ، وخربوا الأديرة والكنائس ، واضطروا عددا كبيرا من المسيحيين الى اعتناق اليهودية ، ثم عاد اليهود وخانوا الفرس ، مما دفع القائد الفارسى الى التنكيل بهم وسبى عددا كبيرا منهم وأرسلهم الى فارس .

وبعد ذلك أخذ اليهود يتوددون الى القيصر (هيرقليدس) ، فاستجاب لهم رغبة فى الانتقام من الفرس ، ولما انتصر (هيرقليدس) على الفرس ، واستعاد أورشليم ، ثأر للمسيحيين من اليهود ، ونكل بهم شر تنكيل .

وفى سنة ٤٣٩ م صدر تشريع ينص على انه لا يجوز لليهودى أن يتقلد مناصب ، أو يحمل أنواط شرف ، كما لا يجوز تعيينه فى عمل يتصل بالادارة أو الدفاع عن اليهود .

وأصبح يزدجرد الثانى سنة ٤٣٨ م فى العراق جلادا لليهود ، بتحريض من (مزدك) فاضطهدهم ، وأغلق معاهدهم الدينية ، وطاردهم .

وهكذا ...

استمر اليهود طيلة فترات التاريخ يلاقون الاضطهاد والقسوة ، ولم يتنفسوا الصعداء الا فى ظل الاسلام ، حيث وفر لهم الحرية والأمان .

اليهود في ظل دولة الإسلام

نتيجة كل من الغزو البابلي والغزو الروماني وما لحق أورشليم من تخريب وتدمير ، وما أصاب الشعب الاسرائيلي من تمزق أدى الى هجرات كثيرة – استقرت جموع من المهاجرين اليهود شمالي الحجاز ، وكانت منهم بطون بني النضير وبني قريظة وبني قينقاع وبني المصطلق.

وتجمع المصادر التي وصلتنا على أن هؤلاء اليهود وجدوا بين القبائل العربية الأمن والسلام ، وجادت العروبة على اليهود باللغة ، فأجادوها ، وصار منهم الشعراء والخطباء والحكماء ، واكتسبوا بعض الخلال العربية ، ونعموا بالحرية المفقودة أجيالا ، وبالرجولة الضائعة ، وبالفطرة العربية الموروثة .

كانوا يشتغلون بالزراعة وتربية الماشية ، وأنشأوا لهم مزارع في خيبر ووادي القرى وتيماء .. واشتغلوا بالتجارة والربا ، وأكلوا أموال الناس بالباطل .. واشتهر بنو قينقاع بصناعة السيوف والدروع والآلات الحديدية.

واستوطن بعضهم بلاد اليمن في العصر الحميري الثاني (٣٠٠/٥٢٥ م) حيث وجدت ديانتهم أرضا خصيبة ، فاعتنقها بنو حمير ، وبطون من كنانة وكندة وبني الحارث ، تدعيما لهم في وجه المطامع الحبشية ،

وخوفا من سيطرة الدولة الرومانية الشرقية ...

ولقد صارت اليهودية فى نظر معتنقيها اليمنيين تمثل الروح القومية ، على حين صارت المسيحية رمزا للتدخل الاجنبى ، واثرا من آثاره ، لهـــذا كان الصراع بين الديانتين محتمل الوقوع بين حين وآخر .

وانفجـر الصراع بمذبحـة كبرى أوقعهــا اليهود بمسيحيى نجران سنة ٥٢٣ م ، فاستنجد من أفلت منهم بالبيزنطيين ، فـأرسل الامبراطور جستين الأول (٥١٨/٥٢٧ م) الى ملك الحبشة يدعوه الى أن يضـع حدا لعــدوان اليهود فى اليمن ، واستطاع أبرهة أن يهزم ذا نواس اليهودى سنة ٥٢٥ م .

وبهذا سقطت دولة حمير فى أيدى الأحباش ، وقضى على جميع آثار دولتهم الســياسية والدينية ، ووقع اليهود فى قبضة العناصر النصرانية ، وفر منهم من فر الى شمالى الجزيرة أو الى بلاد فارس .

وتبع هجرة الأوس والخزرج الى يثرب أن صار وفاق بين العرب واليهود بسبب أن العرب كانوا شركاء اليهود فى عداوة الرومان ، أو لأن العرب كانوا سوقا جديدة للمنتجات اليهودية .

ولكن سرعان ما تعرف العرب على المطامع اليهودية، وعلى ما يتصفون به من اللؤم والغدر والخداع .. فدب بينهم الخلاف الذى كان يصل الى حد الحروب ، وكان اليهود يخشون التمادى فى العـــداء خوفا على مصــالحهم الاقتصـــادية ، وتحسبا للوجود الرومانى فى الشمال والجنوب .

وكان اتصال بين الغساسنة وعرب الأوس والخزرج ،

فازداد خوف اليهود ، وعملوا على الوقيعة بين القبيلتين، وناصروا فريقـــا ضد فريق ، حتى كان يوم (بعاث) المشهور .

ومع ظهور الاسلام أخذ اليهود يتتبعون أخبار الدعوة الجديدة ، ووقفوا منها موقف المستطلع ، قبل أن يميلوا معها أو عليها .

جاءهم النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط يسألان فى وسيلة لاحراج (محمــد) وكشف دعــواه ، فقال أحبارهم : (سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ، ما كان أمرهم ، فانه قد كان لهم حديث عجيب ، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها بم كانت نبوءته ، وسلوه عن الروح ما هى ، فان أخبركم بذلك فاتبعوه ، فانه نبى ، وان لم يفعل فهو رجل متقول ، فاصنعوا به ما بدا لكم) .

وبعد أن تمت بيعة العقبة الأولى أخذ اليهود يحسون بخطر الاسلام ، وكان عندهم أمل فى أن يلتقوا بالرسول - صلى الله عليه وسلم - ويؤثروا عليــــه ، فيدخل دينهم .

وكان النبى - عليه الصــلاة والسلام - يرغب فى لقاء اليهود ، على أساس أنهم أهل كتاب بشر بمقدمه ، عساهم يدخلون دينه .

وما ان هاجر الرسول الى يثرب حتى بادر اليهود بحسن استقباله ، وازداد رجاء الرسول فيهم ، فوثق صلاته بهم ، وتقرب من كبارهم ، وعقد معهم معــاهدة صداقة ومودة .. وكان الهدف من وراء هذه المعاهدة أن يجمع الرسول شمل المهاجرين والأنصار مع اليهود فى

مواجهة المشركين .. وكانت بيعة العقبة الثانية قد أزالت ما بين الأوس والخزرج من أسباب المشاحنة .

ولكن ما لبث اليهود أن أخـــذوا يثيرون الفتن بين الأوس والخزرج ، ويدسون للمسلمين ، حتى قال الله فيهم : « يأيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الـكتاب يردوكم بعد ايمـــانكم كافرين ، وكيف تكفرون ، وأنتم تتلى عليكم آيات الله ، وفيكم رسوله ، ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم » .. (آل عمران — ١٠١) .

وتتبع اليهود رسول الله بالأسئلة ليحرجوه ، وطلبوا اليه كتابا من السماء : « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء ، فقد ســـألوا موسى أكبر من ذلك ، فقـــالوا : أرنا الله جهرة ، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم » (النساء — ١٥٣) .

ولما كان فشلهم فى اثارة الفتنة لا يزيدهم الا عنـــادا وكفرا ، فلبس بعضهم ثوب الاســـلام ليطعنوا الاســـلام باسم المسلمين ، « وقالت طائفة من أهل الكتاب : آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهـــار ، واكفروا آخره ، لعلهم يرجعون » (آل عمران — ٧٢) « واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم ، انما نحن مستهزئون » (البقرة — ١٤) .

واتخذوا المسجد وحلقات العلم مجلسا ، ليتسقطوا أخبار المسلمين ، وليطلعوا على أحوالهم ، وينقلوا ذلك الى اليهود وحلفائهم من المشركين .

فلما حدثت موقعة بدر ، لم يشتركوا مع الرسول ،

تطبيقا لنصوص المعاهدة ، وأشاعوا هزيمة المسلمين وقتل الرسول .

ثم سخر بنو قينقاع من امرأة مسلمة ، فوقع الشر بين المسلمين وبينهم ، ولولا أن الرسول تدارك الأمر لنشبت الحرب . لكن بني قينقاع لم يرعووا ، واغتروا بقوتهم ، وعرضوا بالمسلمين ، فحاصرهم الرسول في ديارهم خمسة عشر يوما حتى استسلموا ، ورضوا بالجلاء عن المدينة الى أذرعات في حدود الشام .

ولم يشترك اليهود في موقعة أحد ، بقصد تخذيل المسلمين ، وزادوا فدبر يهود بني النضير كمينا لأربعين مسلما ذهبوا يعلمون قبائل نجدية أمور الدين ، وقتلوهم عن آخرهم ، ما عدا رجلا أخبر بما حدث ، فذهب اليهم الرسول وصاحباه أبو بكر وعمر ، ليتحدث بشأن ما جرى ، فكادوا يقتلوه بصخرة تلقى من فوق جدار ، فما كان من الرسول الا أن أنذرهم بالخروج قبل عشرة أيام ، فمن بقي ضرب عنقه ، لكن المنافقين أغروهم بالبقاء ، ووعدوهم بالقتال الى جانبهم ، فحاصرهم الرسول حتى استسلموا ، وتم جلاؤهم ، فريق الى الشام ، وفريق الى خيبر .

وأما بنو قريظة فقد تعاونوا مع قريش وغطفان في معركة الخندق ، وصاروا يثبطون همم المسلمين بما يشيعون من شائعات ، ويتجسسون عليهم ، وائتمروا بفتح ثغرة في حصونهم ينفذ منها المشركون .

وكفى الله المؤمنين شر قتال الأحزاب ، فسار الرسول الى حصون بني قريظة ، وحاصرهم خمسا وعشرين ليلة ، فانهاروا ، وصاروا « يخربون بيوتهم بأيديهم

وأيدى المؤمنين » .. وطلبوا تحكيم سعد بن معاذ ، فحكم بقتل الرجال ، وسبى النساء ، وتقسيم الأموال ، وقتل منهم اذ ذاك ما يقرب من التسعمائة .

ولما وصلت هذه الأخبار الى يهود خيبر ، خافوا ، وتحالفوا مع يهود وادى القرى ليزحفوا على يثرب ، وأخذوا يرسلون رجالا بالأموال ليؤلبوا العرب وليوقعوا بين المسلمين .

وانتظر الرسول حتى فرغ من قريش بمعاهدة الحديبية ، واتجه الى خيبر ، وافتتحها حصنا حصنا .

ولما طلبوا من الرسول حقن الدماء أجابهم الى طلبهم ، ورد اليهم صحائف من التوراة فى أيدى المسلمين ، وصاهرهم ، ومع هذا أرادوا قتل الرسول باهدائه شاة مسمومة .

بعد هذا لم تعد لليهود شوكة فى أرض المسلمين ، فمن بقى تحت الحكم الاسلامى ـ كبنى غادية وبنى حنينة ـ ظلوا على حالهم فى عهد الرسول وعهد أبى بكر .

وفى عهد عمر علم أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال فى فراش موته : (لا يجتمع بجزيرة العرب دينان) ، فأجلى من ليس له عهد مع رسول الله .

وحين تسلم عمر بيت المقدس من البطريك صفرونيوس سنة ٦٣٦ م اشترط البطريك ـ فى معاهدة عمر ـ منع اليهود من الاقامة فى المدينة المقدسة .. ولكن ما كاد المسلمون يتسلمون مقاليد الأمور فى البلاد حتى قضوا على استبداد المسيحيين باليهود ، وما لبث اليهود أن

استعادوا نشاطهم العلمى ، وظهرت فى طبرية نهضة علمية مباركة .

وفى عهـــد عثمان نشط اليهـود الذين لبسوا ثوب الاسلام بقيادة عبد الله بن سبأ ، وظلوا يؤلبون المسلمين على عثمان ، بدعوى أنه ليس أحق بالخلافة ، وأن من اختاروه لها جماعة من الطغاة الخارجين على الدين ، وأن انتقال الرسول الى الرفيق الأعلى نقل شخصيته الى على ، كما انتقلت شخصية موسى الى يوشع .. وطورد هذا الرجل من البصرة الى الكوفة الى مصر ، وكانت دعوته من عوامل قتل عثمان رضى الله عنه ، وظهور الفتنة الكبرى فى التاريخ الاسلامى .

زمن الفتوح الاسلامية :

وقد تم فتح كثير من الأمصار فى عهد عمر وعثمان ، ابرزها بلاد العراق والشام ومصر .

وقد رحب أكثر أهل الذمة النصارى واليهود بالفتح الاسلامى ، خلاصا من الاضطهاد الرومانى والفارسى ، ومن الصراع الطائفى ، ولاعفائهم من الخدمة العسكرية ، ولتمتعهم بالحرية الدينية فى ظل الاسلام ، وفى ظـل المبادىء الانسانية السامية التى أعلنها أبو بكر فى وصيته قادته :

(لا تخونوا ، ولا تغـدروا ، ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ، ولا تعقروا نخلا وتحرقوه ، ولا تقطعوا شـجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا لمأكل ، وسوف تمرون بأناس قـد فرغوا

أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له) .

وعاش اليهود فى أمن وسلام خلال عهود الخلفاء الراشدين وبنى أمية .

وفى العصر العباسى تمتعوا بحياة أكثر تساهلا ، ووجدوا المجال مفتوحا أمام مواهبهم وقدراتهم العلمية ، حتى أصبح لهم فى بغداد مكانة عالية بفضل تشجيع الخلفاء ، وتقديرهم للعلماء .

واحترف اليهود عددا من الحرف ، كالصباغة والنسيج وصناعة الزجاج وادارة السفن ،وتولوا كثيرا من المناصب العامة ، وسافر تجارهم فى بلاد المشرق والمغرب، وعادوا بالكسب الوفير ، كان منهم معظم الصيارفة ، كما كان لهم من يدير شئونهم الدينية ، ويتولى أمور القضاء فيهم .

وفي هذا الوقت ترجمت التوراة والتلمود الى العربية .

وبلغ عدد اليهود فى العراق ستمائة ألف ، أنشأوا ببغداد مستعمرة كبيرة ظلت قائمة حتى سقطت المدينة فى أيدى المغول ، وكان بالمستعمرة عشر مدارس ربانية ، وثلاثة وعشرين كنيسا ، وكان المعبد الرئيسى مبنيا بالرخام المختلف الألوان ، ومزدانا بزينة الذهب والفضة.

وكانت لليهود فى الأقطار الاسلامية علاقات واتصالات دينية ، حتى كان رئيس يهود الفسطاط عراقيا .

ولما قامت الفتنة بين الأمين والمأمون ركبوا ظهرها ، فأصابهم منها ما أصابهم .

وتمتع اليهود فى الأندلس بحرية أكبر وانتشروا فى

جميع ميـــــادين الزراعة والصناعة والمال والمناصب العامة ، ولبسوا ثياب العرب ، وتكلموا بلغتهم ، واعتادوا عاداتهم .

وكان (حسداى بن شيروط) اليهودى يتولى استقبال سفراء الدول الذين كانوا يفدون على البلاط الأموى فى عهد عبد الرحمن الناصر .

وبسبب الحرية الدينية والعلمية التى تمتعوا بهـــا جعلوا ينشئون المجامع العـــلمية فى قرطبة وطليطلة وبرشلونة وغرناطة وغيرها .

وفى بعض الأوقات صارت حرفة الطب وقفا عليهم تقريبا ...

وفى اشبيلية دعا المعتمد بن عباد الى بلاطه اسحق بن بروك العالم الفلكى ، ومنحه لقب أمير ، وجعله حاخام كل المجامع اليهودية .

وفى غرناطة صار (شمويل هلاوى بن نجرله) وزيرا يهوديا فى دولة اسلامية ، ولما مات خلفه ابنه يوسف نجرلة .

وقد غلبت على (يوسف) هذا طبعة الكبر والفطرسة والتعصب فى اليهود ، فجرؤ على القـــول فى القرآن ساخرا مستخفا ، فثار سكان البلاد وصلبوه ، وذبحوا أربعة آلاف يهودى فى غرناطة ، وأرغم البـــاقون على مغادرة البلاد .

ولما كان عهد المرابطين ضيقوا على اليهود الخناق .. وجاء الموحدون فخيروهم بين الاســـلام والخروج من البلاد ، فخرج الكثيرون ، وتظاهرت البقية بالاسلام .

والسر فى قسوة المرابطين والموحـــدين أنهما دولتان قامتا على أنقاض فســـاد وتآمر وانهزامية فى صفوف المســـلمين ، وتسلل نصرانى يهودى فى عروق الدولة المختلفة ، وفى أجهزتها الادارية الرئيسية .. وكأنما أحس اليهود بأن السفينة تغرق ، فعجلوا باغراقها ، لتكون لهم الحظوة فى دولة الأسبان .

وفى مصر أدى تعريب الدواوين الى انتشار اللغـــة العربية بين أهل الذمة ، وأصبح الجميع يتكلمون لغــة واحدة ، مما أدى الى نوع من الوحـــدة الاجتمـاعية والتقارب الفكرى ..

وانتشر الاسلام بين أهل الكتاب على نطاق واسع فى العصر الطولونى .. وفى العصر الأخشيدى كان لليهود محــاكمهم الخاصة .. وبلغ عــدد الذميين فى العصر الفاطمى خمسة ملايين نسمة ، ممـــا يوحى بالاستقرار والخير الذى كانوا ينعمون به .. وقد تولى (ابن سعيد التترى) اليهودى نظارة الخاصة لأم المستنصر الخليفة .. وكان من جراء سيطرة اليهود على كثير من مقاليد البلاد أن قال فيهم الشاعر :

يهود هذا الزمان قد بلغـــــوا
غاية آمالهـــم ، وقـــد ملــكوا
العز فيهم ، والمـال عنـــدهم
ومنهـــم المستشار والملك
يا أهل مصر انى نصحت لــكم
تهـــودوا ، قــد تهـود الملك

ولم تكتف الدولة الفــاطمية باباحة ممارسة الشعائر الدينية لليهود ، بل شاركت فى أعيادهم الدينية باغلاق

الدواوين وتوزيع الهدايا والحلوى .

وفى العصر الأيوبى توسط لدى صلاح الدين طبيبه الخاص (موسى بن ميمون ١١٣٥/١٢٠٤ م) فتدفق اليهود من بلدان أوروبا الى فلسطين ومصر ، وفى ظل بيت صلاح الدين عومل اليهود معاملة خاصة ، وتلقوا كل حماية ممكنة .

وجاء العثمانيون ففتحوا لهم أبواب الوظائف الحكومية والمهن الحرة ، حتى وصلوا الى أعلى المراتب ، وكان أطباء أكثر سلاطين آل عثمان يهودا ، وصارت لهم المزارع والمتاجر والمصانع ، وكثرت دور العبادة .. وزحفوا الى البلقان التى سبق أن طاردتهم واستعادوا وجودهم فى قلب أوروبا .

ومع ذلك .. فقد سجل التاريخ أن اليهود لم يكن منهم سنة ١٢٦٧ م بمدينة القدس الا اثنان أخوان ، وفى عام ١٣٢٧ م توطنت فيها طائفة صغيرة تشتغل بالصياغة ، وخلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر تراوح عددهم بين ٢٥٠ و ١٥٠٠ .. ولعل ذلك يرجع الى استمرار الأخذ باتفاقية (عمر ــ صفرونيوس)، وحرصا على حماية الأماكن المقدسة اسلامية ومسيحية .

فى مصر الحديثة :

وفى داخل البلاد العربية ــ فى عصرنا هذا ــ تمتع اليهود حتى بحرية الحركة ضد أصحاب البلاد أنفسهم .

فاذا أخذنا مصر مثلا نجد أنه بينما كانت قضية الاضطهاد الواقع على الضابط اليهودى دريفوس تهز

المجتمع اليهودى فى أوروبا كان الكاتب والمفكر اليهودى يعقوب صنوع (ابو نضارة) يصدر جريدته (التنكيت والتبكيت) مسهما فى انهاض الحركة الوطنية عن طريق الصحافة والمسرح .. فلما اشتد الاضطهاد الأوروبى لليهود نجد حكومة حسين رشدى باشا - فى عهد السلطان حسين - تسارع الى استضافة المهاجرين اليهود من روسيا وبولندا ومن فلسطين ذاتها - ابان الحرب العالمية الأولى - وتنظم عملية الغوث لهم ، وتعيد الأمان الى نفوسهم .. وتفتح لهم الاسكندرية مناطق القبارى والبلدية ومبنى الحجر الصحى ومحطة الورديان ودار المحافظة من الأماكن الحكومية .. كما أمر السلطان حسين بأن تصرف لهم اعانة يومية قدرها ثمانون جنيها زيدت الى مائة ، وهو مبلغ غير ضئيل فى ذلك الحين ، بالاضافة الى تبرع أثرياء اليهود وغيرهم ...

وقد جاء فى صحيفة (مصر) الاسرائيلية (٣١ يناير سنة ١٩١٥) أنه كان (يعيش فى منطقة القبارى نحو ١٦٠٠ نسمة ، يتكلمون أربع عشرة لغة ، وتستخدم اللغة العبرية وسيلة للتفاهم بينهم ، والمكان يشبه قرية مستديرة الشكل ، وهى مسورة ضمانا للأمن) ، وقد بنى لهم المصريون (معبدا ومستشفى ، فضلا عن أن المكان نفسه صحى وملائم للمعيشة ، وبه حدائق خضراء وطرقات مرصوفة ونافورات مياه) .

كتب ادجار ساويرس رئيسهم بمدينة الاسكندرية - شاكرا حسين رشدى باشا يقول : (لقد اثبتم مرة أخرى تحرر هذا البلد وضيافته الكريمة ، وان طائفتنا لعلى ثقة فى هذه المناسبة بأنها تعبر عن عرفان يهود العالم

للحكومة المصرية على الاجراءات السريعة الفعالة التى اتخذتها لمساعدة هؤلاء المطرودين البؤساء) .

وفى مارس ١٩١٥ م دعت لجنة اللاجئين بالاسكندرية الى اجتماع حضره نحو مائتى شاب ، وتناقش الحاضرون بشأن تكوين فرقة يهودية تنضم للقوات البريطانية ، شريطة أن تحارب فى الجبهة الفلسطينية ، لتمكين الوجود اليهودى فى فلسطين ، دون أدنى رعاية وتقدير للأرض التى فتحت ذراعيها لاحتضانهم .

وتألفت على الفور فى الاسكندرية فرقة تضم ٥٠٠ متطوع ، ٣٥٠ من اللاجئين ، ١٥٠ من يهود الاسكندرية، وسميت هذه الفرقة (فرقة راكبى البغال) التى أدت للانجليز ـ أثناء حملة غاليبولى ـ خدمات كثيرة ، حتى صدر الأمر بتسريحها فى مارس سنة ١٩١٦ م .

وكان جنود الفرقة يلبسون قبعات عليها نجمة داود ، ولها علم مرسوم عليه هذه النجمة ، وباركها الحاخام اليهودى الاكبر (ديللا برجولا) ، ووزع على أفرادها كتيبات باللغة العبرية تحتوى على التعاليم الداعية الى التمسك بالعقيدة وبالواجبات العسكرية .

وبعد حل هذه الفرقة تكون فى لندن (الفيلق اليهودى) فى ٥ اغسطس سنة ١٩١٧ م ، بقيادة الكولونيل باترسون للمساهمة فى العمليات الحربية فى فلسطين ، واستقبل هذا الفيلق أثناء مروره بالاسكندرية استقبالا حافلا من يهود المدينة .

وقد رأى اليهود فى هذا الفيلق (نواة لجيش يهودى ، يقوم ـ حين يكسبون الحرب ـ بتوزيع فصائله فى فلسطين ، لكى يلزم العرب دائما حدود النظام) .

وفى عهد الملك فؤاد (١٩١٧/١٩٣٦) رسخت أقدام اليهود فى البلاد ، وتفتحت أمامهم الأبواب الواسعة فى كل مجال ، حتى عرفت مصر وزيرا لماليتها اليهودى يوسف قطاوى باشا ، وكان تعيينه تقديرا أدبيا وتكريما للطائفة اليهودية ، واحتل عدد من اليهود مقاعد فى مجلس الشيوخ والنواب .

وتأسست المحافل اليهودية فى القاهرة والاسكندرية وعواصم الأقاليم المختلفة ، وساهمت المحافل فى مساعدة اليهود اللاجئين .. وكان من اشهرها محفل (ابن ميمون) الذى افتتح فى ١٦ يناير سنة ١٨٨٧ ، وظل يمارس ألوان النشاط ، فلما كان عام ١٩٤٤ اختير حاييم وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية رئيسا شرفيا له .. والى جوار هذا المحفل الكبير كان محفل (الياهو جنابى) بالاسكندرية ، ومحفل (بناى بريث) بالقاهرة، ومحفل (ماجن ديفيد) بالمنصورة ، ومحفل (أوهيل) بطنطا ، ومحفل (اسرائيل) ببور سعيد .

وبلغ عدد المعابد فى القاهرة - خلال النصف الأول من القرن العشرين حوالى ٢٩ معبدا ، وفى الاسكندرية ٢٠ معبدا ، بالاضافة الى عدد من المعابد فى بور سعيد ودمنهور وكفر الزيات وطنطا والزقازيق والمنصورة وميت غمر والمحلة الكبرى .

والى جانب نشاط المحافل والمعابد فى الميادين الثقافية والاجتماعية والسياسية تأسست جمعيات كثيرة تمارس مختلف ألوان النشاط .. منها جمعية مصر للدراسات التاريخية اليهودية (١٩٢٥) ، وكان يرأسها يوسف قطاوى باشا والجماعة الفنية اليهودية

بالقاهرة (١٩١٢) ، وجمعية بخور حوليم (١٩٠٩) ، والاتحاد الاسرائيلى بهوليوبوليس (١٩٢٢) واتحـــاد الشبيبة اليهودية (١٩٣٥) والجمعية الخيرية الاسرائيلية بالاسكندرية (١٨٨٥) ، والمبرة الاسرائيلية للمساعدات المدرسية للغــذاء والـكساء (١٨٩٤) وجمعية المــكابى الرياضية (١٩١٠) .

وفى سنة ١٩١٧ أسست الجـــالية اليهودية جريدة (النهضة اليهودية) بالفرنسية ، وحلت محلها ـ بعــد خمس سنوات (المجلة الصهيونية) .. وفى سنة ١٩٢٠ صدرت (مجلة اسرائيل) فى ثلاث طبعات ، العبرية والفرنسية والعربية .. وصـــــدرت مجلة (الفجر) بالقاهرة سنة ١٩٢٤ ، وكان أول صدورها باستانبول سنة ١٩٠٨ وتوقفت ســـــنة ١٩١٩ .. وصدرت مجلة (كاديما) الأسبوعية سنة ١٩٣٥ ، وفى الاسكندرية صدرت (الرسول الصهيونى) بالفرنسية سنة ١٩٠١ ، وفى سنة ١٩١٢ صـــدرت (مجلة مصر الاسرائيلية) بالفرنسية ، وصدرت مجلة (الشمس) بالعربية سنة ١٩٣٤ وكان لها اتجاه صهيونى بارز ، وصدرت جريدة (المنبر اليهودى) سنة ١٩٣٦ منبرا للحركة الصهيونية، وقد جاء فى عددها الصادر فى ٢٥ مارس سنة ١٩٤٢ بقلم المحامى فيلكس بنزاقين عضــو المنظمة الصهيونية الجديدة ، بعد زيارة للقدس .

(يا يهود مصر ، ان الشعلة عالية على جبل المكبر ، وقد أضـــاءت روحى ويجب أن تضىء أرواحكم .. ان الجامعة العبرية توجه اليكم نداء عاجلا لمدها بمعونتكم ، فلا تترددوا فى تقديم العون لها دون تحفظ ، فأنتم بهذا انما تقومون بأوجب الواجبات وأعظمها) .

وسيطرت على الاقتصاد المصرى خلال الفترة ١٨٩٧/١٩٤٧ عائلات رولو وموصيرى وعاداه وعدس وقطاوى وشيكوريل وجاتينيو وجرين ومنشه وموزراحى وغيرها من العائلات اليهودية .

واذا كان يوسف قطاوى باشا قد تولى وزارة المالية فقد كان ابنه أصلان قطاوى بك سكرتيرا عاما لمصلحة الأملاك الأميرية ، ومندوبا عن مصر فى شركة قنال السويس ، ومندوبا للحكومة فى البنك الأهلى المصرى ، وتولى رئاسة (لجنة مدارس الطائفة اليهودية) ، وكان عضوا فى المحافل والمؤسسات الدينية اليهودية.. وشغل الابن الثانى رينيه قطاوى بك مناصب فى كثير من الشركات، وكان عضوا بمجلس النواب عن دائرة كوم امبو، وعضوا بالجمعية الزراعية الملكية ، وعضوا بمجلس الطائفة ولجنة مدارسها ، كما كان من مؤسسى جمعية مصر للدراسات التاريخية اليهودية .

وسيطر جوزيف موصيرى على معظم دور السينما فى القاهرة والاسكندرية والسويس وبور سعيد واحتكر استيراد الأفلام الخام وبيعها وطبع الترجمة على الأفلام الاجنبية .

وكان سلفاتور شيكوريل بك رئيسا لمجلس ادارة مؤسسة شيكوريل وعضوا بمجلس الغرفة التجارية المصرية ، وعضو البعثة الاقتصادية المصرية التى سافرت الى السودان لفتح مجالات أمام رءوس الأموال المصرية ، كما كان من مؤسسى جماعة أصدقاء الجامعة العبرية .

وفيكتور هرارى صار مديرا للحسابات المركزية ، ومندوبا عن الحكومة المصرية فى لجنة اصلاح ميزانية

الأوقاف . كمــا تولى رئاسة الجمعية المصرية للدائرة السنية ، وكان رئيسا وعضوا بمجالس ادارة عــدد من البنوك والشركات .

وأدوين جعار كان رئيس جمعية التجار المصــدرين بالاسكندرية ، ولجنة بذرة القطن ، ولجنة بورصة مينا البصل ، وفى الوقت نفسه كان نائب رئيس الطــائفة الاسرائيلية بالاسكندرية ، وتولى أمانة الصندوق الدولى لحماية المرأة والفتاة لمدة ١٥ سنة .

وفى سنة ١٩٤٢ م ـ حين كان العداء للسامية على أشده ـ كان اليهود فى مصر يسهمون فى ادارة وتوجيه ١٠٣ شركة من مجموع الشركات البالغ عــددها وقتئذ ٣٠٨ ، فضلا عن الاسهام فى انشاء عدد كبير من المصارف والشركات المالية والائتمانية التى كانت تتولى تقــديم القروض ، وبيع وشراء الأوراق المــالية والمستندات ، وتتاجر فى العقــــارات والأراضى الزراعيــة ، وتمول المشروعات الصناعية والتجارية ... وأسهم الراسماليون اليهود فى انشاء عدد من شركات النقل البرى والبحرى .. وأسهموا فى الصناعات الزراعية وفى صناعة البناء ، وانتاج مواده ، واستغلال المحاجر .

وبرز عدد من اليهود فى ميادين الهنــــدسة والطب والعلوم والزراعة ونالوا شهرة واسعة ، وحصلوا أموالا وفيرة وظل حاخام يهود مصر « دافيــد ناحوم » عضوا بالمجمع اللغوى فى مصر حتى وفاته سنة ١٩٥٠ .

واستغل اليهود هذه السماحة المصرية لصالح الأطماع الصهيونية ، فأسست جمعيـــــة (بنى صهيون) سنة ١٩٠٨ ، التى اندمجت فى جمعية (زئير زيون) سنة

١٩٠٩ بالاسكندرية ، وقد شاركت هذه الجمعية بمجهود كبير في تكوين (فرقة راكبي البغال) ، وأنشأت مكتبا للاستعلامات ، مهمته توطين اليهود في فلسطين ، والدعوة الى الهجرة اليهودية ، وتسهيل مهمة المهاجرين أثناء مرورهم بمصر الى فلسطين .

وفي ١٢ اغسطس سنة ١٩١٨ أعلن البارون منشه وجوب تكوين لجنة الهدف منها لم شمل كافة الجمعيات اليهوديه من اجل الاهتمام بكل ما له صلة بفلسطين . وتدعيم الجامعه العبرية في فلسطين ، والمساعدة على توطين اليهود وانشاء المستشفيات والجمعيات الخيريه .. وفي ١٤ أغسطس سنة ١٩١٨ دعت اللجنة حاييم وايزمان أثناء مروره بالاسكندرية ليلقى كلمة شرح فيها المتطلبات العاجلة للقضية الصهيونية ، وبين موقف المنظمة العالمية سياسيا واقتصاديا وعقائديا ، وكشف عن عدم كفاية التنظيمات القائمة على تحقيق الهدف ، وأوضح الوسائل الكفيلة بعلاج ذلك ... وعقب هذا أطلقت اللجنة على نفسها (اللجنة المشايعة لفلسطين) ، ودعت الى الاكتتاب ، فسارع عدد كبير من يهود الاسكندرية الى التبرع ، وبلغت الاكتتابات الأولى في بضعة أيام ١٠٠١٩ جنيها .

وفي نفس الوقت أسس (ليون كاسترو) أول فرع للمنظمة الصهيونية في مصر وأصبحت جمعية (زئير زيون) سنة ١٩١٨ فرع المنظمة الصهيونية العالمية في الاسكندرية ، ثم انضم اليها أعضاء (اللجنة المشايعة لفلسطين) ، وأقامت المنظمة فرعا لها في بور سعيد ، وفي القاهرة اتخذت مقرا لها بشارع أبو السباع (جواد حسني الآن) ، وأعلنت صراحة أن هدفها نشر

الدعوة الصهيونية بين جماهير اليهود ، والمساعدة على تأسيس الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، وسارع ليون كاسترو الى اصـــدار (المجلة الصهيونية) سنة ١٩١٨ لتكون لسان حال المنظمة ... وأنشأ فرع المنظمة في مصر ــ بكل من القـــاهرة والاسكندرية وبور سعيد فرعا للصندوق القـــومي اليهودي (كيرن كايميت) ، يجمع تبرعات اليهـــود لشراء الأراضي في فلسطين ، ويساعد على توطين العمال اليهود بها .

وتأسست سنة ١٩٣٢ الجمعيـــة المصرية لأصدقاء الدراسات العبرية برئاسة رودلف شالوم ، لتـــكوين العناصر القـــادرة على نشر الثقافة العبرية بين أبناء الطائفة ، وتزويدهم بالفكر الصهيوني .

واصبحت (المحافل اليهودية) منبرا صريحا للدعوة الصهيونية ، فيها تنظم اللقاءات ، وتلقى المحـــاضرات وتدبر المؤامرات .

وفي سنة ١٩٤١ تأسست (اللجنة اليهودية للترفيه عن البحارة والجنود والطيارين) لاقامة النوادي الترفيهية للجنود اليهود ، وتقديم المســاعدات الدينية والروحية والمادية .

وفي أواخر مارس سنة ١٩٤٢ حضر الى مصر اسحق بن زيفي ــ الذي صار رئيسا لجمهورية اسرائيل فيمابعد ــ وكان وقتئذ رئيسا للمجلس الوطني اليهودي في فلسطين ، وزاره الحاخام الأكبر وكبار أبناء الطـــائفة ، وعقد اجتماعا خاصا مع أعضاء المجلس الأعلى للطـــائفة برئاسة يوسف قطـــاوي باشا ، وناقش معهم جوانب المشـــكلة الفلسطينية ، وبين وجهة نظر المجلس الوطني اليهودي .

وفى سنة ١٩٤٣ قرر ليون كاسترو أن يعيد تشكيل فرع المنظمة الصهيونية تحت اسم (الاتحاد الصهيونى المصرى) واتخذ له مقرا بشارع عماد الدين رقم ١١٦ ، وعندما انعقدت الجمعية العمومية للاتحاد الصهيونى فى ٣ ديسمبر سنة ١٩٤٤ ـ بعد مقتل اللورد موين ـ القى كاسترو كلمة أكد فيها أن يهود الولايات المتحدة أصبحوا يعترفون بأنه لم يعد هناك ملجأ للشعب اليهودى الا ما حدده هرتزل ، ووجه نداء ليهود مصر أن يضاعفوا جهودهم من أجل الوصول الى هذا الهدف .

***

بعد ما استقال جابوتنسكى من الهيئة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية ـ فى يناير سنة ١٩٢٣ م ـ احتجاجا على سياسة (الكتاب الأبيض) ـ الذى صدر سنة ١٩٢٢ ـ متهما زملاءه فى المنظمة بفقدانهم الواقعية السياسية، لأنهم يسايرون بريطانيا ، مع أنها تسوف فى تنفيذ وعد بلفور ـ عاد ألبير ستراسلسكى الى مصر عام ١٩٢٩ ليؤسس فرعا لحزب (التصحيحيين) يبشر بدعوته المتطرفة ، ويحمل لواء المعارضة فى صفوف فرع المنظمة الصهيونية بمصر ، وأصدر جريدة سياسية أسبوعية باسم (الصوت اليهودى) بالقاهرة ، واتخذ مقرها منتدى للاجتماعات السياسية الصهيونية .. ولم يمض عام ١٩٣٦ حتى أنشأ (ستراسلسكى) فرعا آخر للمنظمة الجديدة بالاسكندرية ، وفرعا ثالثا ببور سعيد ، وشهد عام ١٩٣٧ نشاطا كبيرا على أثر نشر تقرير (لجنة بيل الملكية) بشأن العلاقات العربية اليهودية فى فلسطين ـ، اذ مر جابوتنسكى بالاسكندرية واجتمع بأعضاء المنظمة الجديدة ، وعقد مؤتمرا صحفيا بفندق سيسيل فى ٥

يولية سنة ١٩٣٧ ، تنـاول فيه المشكلة الفـلسطينية .
واعلن استنكاره لفكرة التقسيم ، واصرار المنظمة على اقامة دولة يهـودية فى الحدود التاريخية لاسرائيل ، وضرورة تنظيم الهجـرة على نطاق واسع ، وأكد أنه لا يمكن الحصول على موافقة العرب الا بعد اقامة الدولة الصهيونية قسرا وجبرا ، وفرضها على معارضيها .

وافتتح (جاك سيد) مكتبا عقاريا بالاسكندرية ، وكيلا عن عـدد من المؤسسات اليهودية فى فلسطين ، فى محاولة لتجريد العرب من أراضيهم .

وبعد أن أصبح فرع المنظمة فى مصر تابعا من الناحية التنظيمية لمكتب القـدس ، وللتوجيه الشخصى لرئيسه التمان ، حضر التمان سنة ١٩٤٢ الى القاهرة ، وعقـد اجتماعا بمنزل سيمون يانـكوفيتش بشارع نوبار باشا ، وناقش المشكلة الفلسطينية ، وخطـة المستقبل بالنسبة للوطن القومى اليهودى ، ومصير الجنود بعد تسريحهم من جيوش الحلفاء ، وفى سنة ١٩٤٣ ألقى التمان — فى مكتب الاسـتعلامات الصهيونى التابع للوكالة اليهودية بالاسكندرية — محاضرة عن مركز اليهـود فى ألمانيا ، وطالب بالعمل على تحرير اليهود فى ألمانيا ودول البلقان ، وجمع آلاف الجنيهات من أثرياء اليهود فى مصر .. وفى فبراير سنة ١٩٤٤ عقد التمان مؤتمرا صهيونيا كبيرا فى منزل المسيو روسانو بالاسكندرية ، أكد فيه أنه فى حالة فشل الصهيونية فى الحصول على مطـالبهم بالوسـائل السلمية فانهم سيضطرون الى العنف وحمل السلاح .. وفى ١٩ ابريل سنة ١٩٤٤ اجتمع التمان بجورج جيز باشا وكيل حكمدارية الاسكندرية ، وهـدد بأنه اذا لم تستجب الحكومة البريطـانية لانشاء الوطن القـومى

اليهودى فى فلسطين ، فان الصهيونيين سيتكفلون بتحقيقها بوسائلهم الخاصة ، وانه هو شخصيا سيتقدم الصفوف ، ولم يملك جيتز الا ان يقول : انه لا يعنيه الا الابتعاد بيهود مصر عن التورط فى مشاكل اليهود الفلسطينيين ، حتى لا يؤثر ذلك على علاقتهم بالشعب المصرى وحكومته .

ولما كانت تطورات الحرب العالمية فى بداية سنة ١٩٤٤ تشير الى انتصار الحلفاء ، أخذت المنظمة الصهيونية الجديدة تتحرك بدرجة عالية من التنظيم والتكتيك ، لاتخاذ الخطوات الكفيلة باعلان الوطن القومى اليهودى غداة انتهاء الحرب ... وعمد (ستراسلسكى) الى اعادة تشكيل فرع الحزب بالقاهرة باعتباره قومسيرا عاما ، وزعيما للجماعة فى مصر ، ودعا الى اجتماع فى مكتبه فى ٢٥ يونيه سنة ١٩٤٤ اقترح فيه تكوين هيئة الفرع ، وحرر محضرا بهذا الاجتماع الى الحاكم العسكرى فى مصر يطلب موافقته على تكوين الفرع .

وظل النشاط الصهيوني على أشده حتى مارس سنة ١٩٤٥ ، حين ألقى القبض على روفائيل سادوفسكى الذى كان أمينا عاما للمنظمة الصهيونية الجديدة وفى نفس الوقت كان عضوا فى الجماعة الارهابية (شترن) .. وبدأت خيوط التنظيم الصهيونى فى مصر تتكشف بعد أن اعترف سادوفسكى بأن ستراسلسكى سجل دفاع قاتلى اللورد موين فى جلسات المحاكمة — وهو الدفاع الذى منعت الحكومة اذاعته — واعطاه لأحد ارهابيى (شترن) — هو بنيامين جبنر — لتوصيله الى مركز العصابة فى فلسطين .

وظل ستراسلسكي ـ بصفته القومسير العام للجماعة الصهيونية ـ يخاطب السفارات والمفوضيات ورؤساء الجاليات والمحافل الماسونية فترة طويلة ، حتى تم طرده من البلاد فى ٢٨ مايو سنة ١٩٤٥ .

***

هذا مجمل النشاط اليهودي الصهيونى في مصر ، التى كان يبلغ تعداد اليهود بها ٧٥ الفا حتي سنة ١٩٥٠ م ، فكيف بالمغرب التى كان بها ٢٢٥ الفا ، وفى كل من العراق والجزائر ١٢٠ ألفا . وفى تونس ١٠٠ ألف ؟؟

وما ظنك بسماحة العرب بعد احداث ١٩٤٨ وقد زار مصر في ابريل سنة ١٩٥٥ الحاخام اليهودى المر برجر المدير التنفيذى للمجلس الأمريكي لليهودية ، فشهد أحسن حال لليهود فى مصر ، برغم الصعوبات والمشكلات الاجتماعية والاقتصادية التى كانت البلاد تعانى منها ، وقال : انه كان الأجدر بالأمريكيين ان يأتوا ليروا كيف يعيش ٥٠ الف يهودى لهم ارتباطاتهم الانسانية والوطنية والتقليدية بمصر وتاريخها ...

اليهود فى أوربا

لم يكن المجتمع المسيحى ليسمح لليهود بالاستقرار ، بسبب سوء الأخلاق اليهودية ، وحرص اليهود على امتصاص عرق الكادحين ، وعزلة اليهود المريبة فى (الجيتو) ، ولما بين اليهودية والمسيحية من صراع عقائدي ودموى منذ تآمر اليهود على المسيح .

لذلك ما ونيت الامارات المسيحية فى الجنوب والغرب الأوروبى عن ملاحقة اليهود ، ومطاردتهم فى اتجاه الشمال والشرق .

وابان الحروب الصليبية ، وتأريث الحماسة الدينية، ذبح عدد كبير من اليهود ، وبخاصة عقب سقوط القدس فى أيدى الصليبيين ، اذ يقدر عدد الذين ذبحوا فى المدينة المقدسة من المسلمين واليهود سبعين ألفا .

ويضيف بعض المؤرخين أن الصليبيين استعدوا لواجبهم المقدس خلال مسيرتهم عبر أوروبا — بأن ذبحوا اليهود فى كل مدينة مروا بها ، وأحرقوا بيوتهم ، فلما سقطت القدس ساقوا اليهود الى كنيسهم حيث أحرقوا ، على حين كان اليهود الأوروبيون من وراء الحملات الصليبية بالمال وتأريث روح العداء ضد الاسلام والمسلمين .

وليت رجال التاريخ يقـــارنون بين دخول المسـلمين القدس في عهد عمر ، ودخول هؤلاء الذين يحملون راية المسيح !!

وفى سنة ١٢٩٠ م قضى الانجليز على اليهــود جميعا بالنفى ، وتبعهم فى ذلك الفرنسيون وسرت العدوى الى شـعوب أوروبا الوسطى .. وبلغ الاضطهاد أشـده فى العقد الأخير من القرن الخامس عشر الميـلادى بأسبانيا والبرتغال .. ولم ينج من هذا الاضطهاد الجمـــاعى والملاحقة الشرسة سوى الجماعات الصغيرة فى ايطاليا .

كان تصوير الكنيسة لليهود فى أبشع صورة ذا أثر كبير فيما أصاب اليهود على أيدى المسيحيين .. فى عامى ١٣٤٨/١٣٤٩ م انتشر الموت الأسود فى أوروبا ، فاتهم اليهود بأنهم سمموا مجارى المياه ، فاشتدت حملة القتل والتشريد التى شنها المسيحيون عليهم ، بالرغم من محاولة البابا (كليمنس السادس) الدفاع عنهم بحجة أن الوباء من الله ، وانه أصاب اليهود كمـــا أصاب غيرهم .

يقول المؤرخ اليهودى الفرنسى جول ايزاك : انه من المألوف اذا طلب طفل يهودى فى المدرسـة من طفـل مسيحى أن يلعب معه أن يرد عليه الطفل المسيحى قائلا : كلا ، انكم قتلتم المسيح ...

بمعنى أن المسيحيين ارضعوا أبناءهم الكراهية والحقد والرغبة فى الثأر من اليهود .. ولهذا يروى المؤرخ ذاته أسرة مسيحية ايطالية كانت تحذر ابنها بقولها له : اياك أن تعرف سكان الدور الأول ــ اليهود ــ أو تدخل شقتهم ــ والا خطفوك وذبحوك كما فعلوا بالمسيح .

ولقد تفنن الألمان فى تعذيب اليهود ، فكانوا يجردونهم من ملابسهم ، ويخزونهم بالشوك ، ثم يسوقونهم جماعات الى حفر يحشرونهم فيها ، ويغطونهم بالحطب ، ويشعلون النار ...

وحرم على المسيحى طعام اليهودى ، ولم يكن يجوز لليهودى فتح أبواب مساكنهم ونوافذها ، كما لا يجوز عدم السير فى الطرقات أيام الأعياد المسيحية ، ويجب على اليهـــودى أن يغطى رأسه بقبعة مدببة من أعلى تمييزا له .

وظل اليهود عرضة للتقتيل والحرق والتشريد حتى جاء فريدريش الثالث (١٤٤٠/١٤٩٣ م) فشعر بعبء الضائقة المالية التى تعانيها البلاد بسبب القيـود التى فرضتها الكنيسة والرأسماليون من المسيحيين ، فأعلن حمايته لليهود ، ومنحهم كثيرا من الأمان ، ولكن ما لبث أن وجد طفل لم يتجـــاوز الثانية قتيلا بإيطاليـا سنة ١٤٤٥ م واتهم اليهود بقتله ، فانقض المسيحيون عليهم تقتيلا وتنكيلا .

وحــدث أن مجلس مدينة نورمبرج تقــدم فى سنة ١٤٧٣ م برجاء الى القيصر فريدريش الثالث أن يطرد جميع اليهود من مدينتهم ، فأهمل القيصر الرجاء، فلما جاء مكميلان الأول (١٤٩٣/١٥١٩ م) أصدر فى يوليه سنة ١٤٩٨ م قرارا باجابة هذه الرغبة ، وطـرد اليهود نساء ورجالا عن المدينة ، وأخذت المدن الأخرى تتسابق فى التخلص منهم .

وفى ٣١ مارس سنة ١٤٩٣ أصدر فرديناند وايزابيلا بإسبانيا مرسومهما الشهير الذى يعد بحق وثيقة الوحشية

والهمجية ، ففتكوا بالمسلمين واليهود فتكا ذريعا ، فهام اليهود على وجـوههم تاركين وراءهم كل ما يملكون ، وعادوا من حيث اتوا الى أحضان الاسلام فى المشرق العربى .

واستمرت الحملات العـــدائية بين مد وجزر حتى ظهرت فى المانيا سنة ١٨١٩ جمعية (هب هب) تهاجم اليهود (ملوك العصر) الذين اعتصروا ثروات الشعوب، وامتصوا دماء الأبرياء .. وفى سنة ١٨٨١ كانت رائحة الدخان تنتشر من البحر الأسود الى بحر البلطيق ، اذ كانوا يحرقون اليهود وبيوتهم وكتبهم .. وحددت لهم روسيا مناطق لا يخرجون منها ، والزمتهم الخـــدمة العسكرية خمسة وعشرين عاما .

يقول باركس : لقد كان معتقدا ان اليهودى يطاب دم المسيحى لأغراض الطقوس الدينية ، وأنه يسرق أطفال المسيحيين ، ويسمم الآبار ، وينشر الأمراض وكان فى ذاكرة عامة أوروبا أن اليهـــود يمتصون جهود البلاد الاقتصادية ، ويمثلون الطرف الخبيث الخطـــر الذى يسعى أبد الدهر لتحطيم المسيحية .

ويقول توينبى : لقد أصدر مجمع طليطلة الكنسى المنعقد بامر من الملكة ايفيكا سنة ٦٩٤ م (ان جميع اليهـــود يعتبرون عبيدا لأسيادهم المسيحيين ، وعلى هـؤلاء الأسياد أن يمنعوا اليهـــود من ممارسة أى طقس من الطقوس الدينية ، وتصادر جميع أموال اليهود لصالح خزانة الدولة ، وينتزع منهم أولادهم بعد بلوغهم السابعة من عمرهم ، ويربون تربية مسيحية) .

اليهود والقرآن

مع هذا البون الشاسع بين ما لقى اليهود فى المجتمع الاسلامى والمجتمع الأوروبى فان طبع اليهود الخبيث ابى الا ان يكيد للاسلام فى مقدساته ما وسعه الكيد ..

حاول اليهود تحريف القرآن ، كما حرفوا التوراة والانجيل ، لكن الله صان قرآنه بفضل حرص المسلمين على حفظه فى الصدور وفى الكتب ، وبفضل العناية الكبيرة التى أحاطت بالنص القرآنى . منذ عهد الرسول الى اليوم ، حتى انبثقت عنه معظم العلوم الدينية والعربية ، واتسعت به حضارة كبرى ما تزال تعمل عملها فى الحياة الانسانية قاطبة .

وحاولوا تزييف الحديث النبوى الشريف ، بافتراء القول على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وسيلة لتمييع المفاهيم القرآنية ، فنهض عماء المسلمين يتحرون الصحيح من الأحاديث ، وينقونها من الأوشاب ، ويبعدون عنها الدخيل ، ولقوا فى هذا السبيل ما لقوا من مشاق السفر والاتصال بالرواة العدول .

وقد روى عن الامام البخارى قوله : (حفظت مائتى الف حديث مكذوبة على رسول الله ، ومائة الف حديث

صحيحة عن رسول الله ، قد اخذت منها سبعة آلاف حديث فقط ، ورددت الباقى) .

وكان الامام البخارى لا يتلقى الحديث الا بعد أن يصاحب راوى الحديث ليقف على خلقه ومروءته وتدينه، فان وجد عنده حدثا فى مروءته أو خلقه أو تدينه انصرف عنه ، ولم يأخذ الحديث .

وما اكثر الاسرائيليات التى تسللت الى تفسير القرآن عن طريق مسلمى اليهود ، بسبب مشاركة القرآن للتوراة فى كثير من أخبار السابقين ، لكن ما لبث الوعى الاسلامى أن أدرك هذا الفكر الدخيل ، فنبذه ، وأخذ يخلص التفسير منه .. وفى السنوات الأخيرة طبعت اسرائيل قرآنا حرفت فيه الآيات التى تتناول اليهود ، على وفق سياستهم الاجرامية ، ووزعته بين شعوب أفريقيا وآسيا وبعض شعوب أوروبا .. فنهض العالم الاسلامى كله فى وجه هذه المؤامرة الدنيئة :

ــ أصدر شيخ الأزهر بيانا للعالم كله يندد بهذه الجريمة .

ــ تم الاتصال بالشعوب الاسلامية ، فجمعت النسخ المحرفة واحرقت .

ــ أعدت وزارة الأوقاف المصرية ترجمة دقيقة للقرآن ، يطلع عليها من شاء من العلماء الأجانب .

ــ طبعت هيئة اذاعة مصر العربية مسجلات صوتية للقرآن الكريم ، ونشرتها بين الاذاعات الاسلامية ، وانشأت محطة ارسال باذاعة القرآن الكريم طوال النهار وجزءا كبيرا من الليل .

ـ قام المجلس الأعلى لرعاية الشئون الاسلامية بطبع اسطوانات وافرة من المصحف المرتل ، وأهدت نسخه الى اذاعات الأقطار الاسلامية .

ـ تقوم (دار القرآن) فى مصر بطبع المصحف (تسجيلا على الاسطوانات والأشرطة والورق) ، وبطبـع دراسات قرآنية وتفسير وحديث واحياء تراث .

وسارت بعض البلاد العربية والاسـلامية في هـذه الطريق ، مما كشف عن وعى اسلامى قادر على الوقوف فى وجه التيارات المعادية .

اليهود والصهيونية

جاء في وثيقة الاستقلال التي أعلنتها اسرائيل في ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ م : (أن دولة اسرائيل ستشجع تقدم الدولة ورقيهـا ، بما فيه صالح كل السكان ، وسيكون اساسها الحرية والعدالة والسلام ، كما جاء في أقوال أنبياء اسرائيل ؛ وستدعم النظام الاجتماعي والسياسي بالمساواة التامة بين كل المواطنين ، بدون تفرقة بسبب الدين او العنصر أو الجنس ، وستضمن حرية الأديان والعقائد والتعليم والثقافة ؛ وستحافظ على الأمن والاستقرار في الأماكن المقدسة لكل الأديان ؛ وستخلص في تحقيق أهداف ميثاق الأمم المتحدة) .

وقبلت اسرائيل في عضوية الأمم المتحدة عام ١٩٤٩ بعد أن قطعت على نفسها عهداً بأن تمتثل للقرار رقم ١٩٤ الذي تبنته الجمعية العامة في ديسمبر سنة ١٩٤٨ ؛ والذي يقضي بعودة اللاجئين الفلسطينيين الى ديارهم .

كذلك ؛ فان اتفاقية جنيف الرابعة والمتعلقة بمعاملة المدنيين في الأراضي المحتلة ، تمنع ايقاع أية عقوبات جماعية ، فقد نصت المادة ٤٩ من تلك الاتفاقية على انه لا يجوز نقل أو ابعاد الأشخاص من الأراضي المحتلة الى اي منطقة أخرى لأي سبب كان ، كمـا لا يجوز

سلطات الاحتلال أن تنقل أى قسم من سكانها الى الأراضى المحتلة .

ونصت المادة ٥٣ من الاتفاقية على حظر قيام سلطات الاحتلال بتدمير الممتلكات فى الأراضى المحتلة بأى شكل من الأشكال .

ومع ذلك ..

نتصفح محاضر جلسات الكنيسنت ، فنجد السيد اسعد قسيس النائب العربى فى الكنيست يندد — فى يوليه سنة ١٩٥٣ — بالاستيلاء على أراضى المزارعين العرب لصالح مستعمرات الكيبوتز ، والذين بقيت الأرض فى أيديهم يصرخون ويستنجدون لتخفيف الضغط الاقتصادى المفروض عليهم .

وفى ١٥ يونيه سنة ١٩٦٢ م نشرت صحيفة الاتحاد الاسرائيلية أن نائبا شيوعيا — وهو أميل حبيبى — هاجم فى الكنيست سياسة سلب الأراضى من الفلاحين العرب .

ونشرت صحيفة المرصاد الاسرائيلية فى ١٢ اكتوبر سنة ١٩٦٢ م أن النائب يوسف خميس قدم فى الكنيست الى وزير المعارف استجوابا طالب فيه ببيان الأسباب التى حدت به الى اقفال مدارس عرب السواعد ، مما يتعارض مع قانون التعليم الالزامى .

وعمدت دولة سرائيل بوسائل مختلفة الى القضاء على القومية العربية ، واذابة العرب فى الكيان الاسرائيلى ، أو نبذ العرب عن الكيان الاسرائيلى ، بطريق القتل الجماعى ، والتهجير الجماعى ، والاستيلاء

على الأماكن المقدسة فى القدس والخليل وبيت لحم .. بل وحرق الأماكن المقدسة وتخريبها .

وسنت قوانين ضد الأقلية العربية صاحبة الأرض ، من أجل تضييق الخناق عليها ، واضطرارها الى الهجرة .

ويلاحظ ان هذه القوانين من جملة التركة التى ورثتها اسرائيل عن حكومة الانتداب البريطانية — (١٩٢٢ / ١٩٤٨ م) — وهذه القوانين وضعت فى الأصل لمجابهة المنظمات والأفراد ، يهودا وعربا ، مما كانوا يعارضون الحكم البريطانى ، كانت أولا لسحق الثورة العربية — (١٩٣٦/١٩٣٩) — وجرى تعديلها ، واستخدمت عام ١٩٤٥ ضد المنظمات الارهابية اليهودية .

هذه القوانين تضم ١٧٠ مادة ، مقسمة ٥٠ فصلا ، تتركز جميعها على الكيفية التى يمكن بواسطتها التحكم في نشاط السكان العرب فى اسرائيل ، وتقضى بفرض القيود على حرية التنقل داخل البلاد ، وداخل المنطقة الواحدة ، وتخول وزير الدفاع تعيين حكام عسكريين فى المناطق التى يختار ، ولهؤلاء العسكريين مطلق الصلاحية لتطبيق جميع القيود ، بالشكل الذى يرونه مناسبا ، وبوسع الحاكم العسكرى — بمجرد اصدار أمر ادارى — أن يضع أى فرد تحت مراقبة الشرطة ، وأن يحول بينه وبين مباشرة مهنته ، وأن يعتقله بدون ابداء أسباب زمنا غير محدد ، وله أن يبعده عن البلاد ، وأن يصادر ممتلكاته ، أو ينسف منزله ، اذا ما اشتبه فى أن عيارا ناريا أطلق منه .

ويلاحظ أن أحد المحامين اليهود علق فى مؤتمر المحامين

اليهود المنعقد فى تل أبيب سنة ١٩٤٦ على هذه القوانين بقوله : (ان هذه الأنظمة والقوانين تناقض المبادىء الأساسية للعدالة والفقه القانونى ، فهى تمنح السلطات الادارية والعسكرية سلطة ايقاع عقوبات غير قابلة للنقض بأى شكل من الأشكال ان هذه القوانين تحرم الأفراد جميع حقوقهم ، بينما تمنح السلطة الحاكمة صلاحيات لا حد لها) .

وقال ياكوف شابيرو الذى أصبح وزيرا للعدل بعد ذلك : (ان الوضع الذى نشأ فى فلسطين بعد تشريع مجموعة القوانين الدفاعية ليس له مثيل فى أى مجتمع متمدن ، اذ لم توجد هذه القوانين حتى فى المانيا النازية) .

هذا .. مع أن القوانين . تطورت الى ما هو أشد خطرا ، وأعنف جرما .

وعن طريق هذه القوانين امكن مصادرة ما لا يقل عن مليون دونم من أراضى العرب فى اسرائيل .

قال أحد عرب الجليل : انهم يستولون على اراضينا، وعندما نسألهم عن السبب يقولون لأسباب تتعلق بالأمن .

وعندما نسألهم كيف يمكن أن نكون نحن واملاكنا ووظائفنا خطرا على الدولة ، لا يجيبون ، فان سألناهم عن صمتهم ، قالوا : ان ذلك الأسباب تتعلق بالأمن .

فى سنة ١٩٥٩ م أثير جدل حول شرعية القوانين الدفاعية ، وخاصة المادة ١٢٥ المتعلقة بتقييد حرية التنقل ، فأصدرت الجهات المعنية فى الدولة بيانا تضمن

ما يلى : (فى حالة ما اذا أصدر الحاكم العسكرى أمرا باعتبار منطقة ما منطقة مقفولة ؛ فهذا الأمر ينطبق من الوجهة النظرية على جميع المواطنين ذكورا واناثا ؛ سواء كانوا من سكان المنطقة المعنية ، ام لا ؛ وعلى هذا الأساس فان أى شخص يدخل أو يغادر منطقة مقفولة دون تصريح خطى صادر عن الحاكم العسكرى ؛ فانه يعتبر مقترفا لفعل جرم ، ومن الناحية العملية لا يفترض فى المواطنين اليهود الحصول على مثل هذه التصاريح ؛ لذا لا يعتبرون مرتكبين لأى فعل جرم ، اذا ما أخلوا بأحكام المادة ١٢٥ ، ان هناك شيئا شاذا فى هذا القانون الذى وضع فى الأصل ليطبق على جميع السكان ، ولكنه لا يطبق فى الواقع الا على فئات معينة منهم) .

ولم يقتصر الأمر على هذا التمييز العنصرى وعلى وسائل الابادة والتهجير — فان اليهود زودوا بمعدات زراعية متقدمة ، وظلت الأموال تتدفق عليهم من أوروبا وأمريكا ، فأتاحت لهم استخدام تقنيات زراعية ، لا قدرة للعرب — الذين فرض عليهم الاستعمار الفقر والجهل — أن ينهضوا لمنافستها .. هذا الى أن الرى توزع مياهه بطريقة ساعدت على زيادة الأرض المروية فى القطاع اليهودى — ما بين عامى ١٩٤٨/١٩٦٩ — من ٦٩ الف هكتار الى ١٦٤ ألفا ، بينما زادت فى القطاع العربى من ٨٠٠ هكتار الى ٤١٠٠ هكتار ، برغم مضاعفة الجهود العربية .

ويضاف الى هذا التفرقة الظالمة فى الاجور ، فعند تساوى المؤهلات والجهود يتراوح الفارق بين العامل اليهودى والعامل العربى من ٣٠ الى ٥٠ فى المائة .

ثم ان التضييق فى التعليم — كوسيلة للاستعباد أو التهجير — يتمثل فى قول أورى اوربانى مستشار رئيس الوزراء للشئون العربية : (لا ريب أن من الأفضل الا يكون هناك طلاب عرب ، ولكن هناك أشياء لا تتوقف علينا، ولا نستطيع تجنبها ، وينبغى علينا أن نبحث عن طريقة لتقليل الأضرار) .

فاذا لاحظنا ان ٤ ٪ فقط من الطلاب المتقدمين لامتحان البكالوريا فى اسرائيل يدرسون اللغة العربية كلغة ثانية — عرفنا كيف يريدون ان يمحوا من أذهان الفلسطينيين اى ذكرى عن ثقافتهم وتاريخهم .. فالطلاب العرب يجبرون على دراسة التاريخ اليهودى بصورة أوسع مما يدرسون تاريخهم ، والوقت المخصص لدراسة الكتاب المقدس يبلغ سنة أمثال الوقت المخصص لدراسة القرآن .

ومجمل السياسة الاستعمارية العنصرية القائمة على مبادىء الأرض العبرية والعمل العبرى والثقافة العبرية — قد كشف عنه موشى ديان سنة ١٩٦٧ م ، حين سئل عن مقدرة اسرائيل على استيعاب السكان العرب فى حالة ضم الأراضى المحتلة بقوله : (اننا قادرون على ذلك من الناحية الاقتصادية ولكننى أعتقد أن هذا لا يتمشى مع خططنا المقبلة ، ذلك يؤدى الى وجود دولة يهودية مزدوجة القومية ، دولة عربية يهودية ، ونحن نسعى الى دولة يهودية) .

البذور الخبيثة تنمو :

قد نقول ان الحكومة الصهيونية ثمرة مشكلات ثلاث

واجهت أوروبا ابان القرن التاسع عشر :

١ ــ نمو وتوسع الامبريالية الاوروبية ، والعمل على حماية خطوط المواصلات التجارية والعسكرية .. ودليل هذا حملة نابليون (١٧٩٧/١٧٩٩) على مصر والشام ، ووقوف انجلترا فى وجه الأسطول الفرنسى ، لأنه يشكل تهديدا فى طريق بريطانيا الى الهند ، ثم خوف أوروبا من نشوء دولة مستقلة تضم مصر والمشرق العربى تحت راية محمد على ، فكان التضامن الأوروبى لخنق هذه الدولة الناشئة .

٢ ــ اقتران فشل الليبرالية الأوروبية وأفكار المساواة والديمقراطية فى دمج واستيعاب اليهود ، مع أزمة الرأسمالية فى أوروبا الشرقية ، عقب نشوء النظام الاقتصادى الرأسمالى ، مما نتج عنه فقدان عدد كبير من اليهود مهنهم ، بسبب عجزهم عن التكيف بسهولة مع تغير النظام الاقتصادى الاقطاعى .

٣ ــ انتشار النزعة القومية العدوانية التى أكدت على الصفات العنصرية والتفوق القومى والحاجة الى التوسع عبر البحار لزيادة المجال الحيوى ، وتدعيم النفوذ الاستعمارى .

كل ذلك ساعد على خلق فكرة انشاء دولة تابعة يسكنها اليهود فى فلسطين ، تكون عائقا دون وحدة الشعوب العربية ، وتكون عامل امتصاص لقواها .. وقد دعم هذه الفكرة أصحاب الملايين من اليهود الغربيين .

وأخذت الجريمة طريقها على النحو الآتى :

ابان حملة نابليون على فلسطين سنة ١٧٩٩ م ، وجه

القائد الفرنسي نداء لاعادة بناء هيكل القدس ، وعودة اليهود الى فلسطين .

نشرت (المونتير) ـ الناطقة بلسان الحكومة الفرنسية ـ في الثاني والعشرين من آيار سنة ١٧٩٩ م : (لقد أمر نابليون باصدار منشور يدعو فيه جميع يهود آسيا وافريقيا الى الانضمام الى بيارقه ، من أجل بناء مدينة القدس القديمة ، وقد جند في جيشه عددا كبيرا منهم ، وها هي كتائبهم تهدد مدينة حلب) .

اتخذ نابليون من دعوة تجميع اليهود وسيلة لتدعيم جيشه ، وتيسير وجوده الاستعماري .

وللسبب نفسه قرر البريطانيون سنة ١٨٣٨ م تعيين مستشار لهم في القدس ، وافتتحوا أول قنصلية في هذه المدينة ، وخلال عشرين عاما تقريبا وثقت بريطانيا علاقتها باليهود في فلسطين ـ وكان عددهم حوالى ٩٧٠٠ نسمة ـ ومع الدروز في لبنان ، ومع الكنائس البروتستانتية حديثة العهد .

ومن ثم ارتبط الوجود البريطاني بتعزيز العلاقة بالأقليات ، اذ يمكن تطويع مآربهم وأطماعهم للأهداف الاستعمارية ، ولهذا أصبحت المصالح اليهودية من المهام الرئيسية للقنصل البريطاني في القدس .

شرح بالمرستون وزير خارجية بريطانيا ـ في رسالة وجهها الى السفير البريطاني في القسطنطينية ـ لماذا ينبغي تشجيع السلطان العثماني هجرة اليهود الى فلسطين ، بقوله : (ان عودة الشعب اليهودي بموافقة وحماية ودعوة السلطان سوف تجعله يقف حائلا دون أية مخططات شيطانية مقبلة لمحمد علي أو لخليفته) .

واستعمل بالمرستون عبارة (الشعب اليهودى) فى وقت كان فيه اليهود البارزون أنفسهم يستخدمون عبارة (الجاليات اليهودية) . كمـــا استخدم كلمة (عودة) اشارة الى تاريخ توقف نموه ألفي عام .. ولعل قول ايرل اوف شافتسبرى ـ اليهودي ـ لبالمرستون (ان الوزير ارسل من قبل الله لارجاع اليهود الى فلسطين) ـ يعطى دلالة خاصة ، اذا تذكرنا أن هذا القول كان أثناء حرب انجلترا لمحمد على سنة ١٨٤٠ م .

هذا على حين كان السير موسى مونتفيور ـ محـــافظ لندن ـ اليهودى ـ قد طلب من محمد على سنة ١٨٢٧ تأسيس شركة ، على (أمل توطين بضعة آلاف من أخوتنا فى أرض اسرائيل) .

وكل الطرق توصل الى (القدس) !!

خيوط رفيعة تنمو وتنمو لاقامة حاجز بشرى ودولة يهودية استيطانية ، يدعمها عدد كبير من الشخصيات البريطانية ، ابتداء من بالمرستون الى ونستون تشرشل .

وفى ظل شق قناة السويس ، واحتلال بريطانيا لقبرص ومصر ، وانتشار النزعة القـــومية التعصبية فى وسط أوروبا . وانتشار معاداة السامية فى شرق أوروبا ، ثم فى غربها ـ تحركت البذرة فى رحم الامبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس .

وتحركت منظمات كثيرة تغذى البذرة وترعاها .

ومن أهم هذه المنظمات : الاتحاد الانجليزى اليهودى .. والجمعية البريطانية والأجنبية للعمل على اعادة الدولة اليهودية فى فلســـطين .. وجمعية تشجيع الاستيطان

اليهودى فى فلسطين .. وجمعية تشجيع العمل الزراعى اليهودى فى الاراضى المقدسة .

وتأسست (الجويش كرونيكل) لتكون (أداة هامة لنشر فكرة استيطان فلسطين فى الاوساط اليهودية) .

وفى عام ١٨٦١ قامت (الجمعيـــة العبرية اللندنية لاستعمار الاراضى المقدسة) بدور بارز .. واسست مع جمعية (محبو صهيون) بضع مستعمرات يهـودية فى فلسطين .

ورفعت الجماعات الصهيونية شـعارا مؤداه : (انه لا يمكن ممارسة حياة يهـودية صحيحة فى اى مجتمع خارج فلسطين) .

وفى أعقاب حرب القرم تجدد الاهتمام ــ بشكل عام ــ من أجل مد النفوذ الفرنسى الى المشرق ، ودعا عدد كبير من كتاب فرنسا لحماية منطقة لبنان المسيحية المستقلة ، وحماية منطقة يهودية مستقلة فى فلسطين .

وطن قومى لليهود :

راجت دعوة موريس هيس (١٨١٢/١٨٧٥) أن على اليهود أن يتجنبوا الاندماج ويؤكدوا تفردهم (باعادة اقامة مركزهم القومى فى فلسطين) ، بسبب ما أصاب اليهود فى المجتمعات المسيحية .

ففى سنة ١٨٨١ أغتيل القيصر الروسى اســــــكندر الثانى ، وتبع ذلك انتشار المذابح المعادية لليهود ، من اجل تحويل نقمة الشعب على الحكم الجائر الى اليهود .. وقد أدى هذا العدوان الى هجرة يهودية واسعة الى

اوروبا ، فعجلت بانهيـــار حركة الاندماج (١) ، وحلت محلها حركة (احيــاء صهيون) .. فتشكلت فى المراكز اليهودية جمعيات أخذت تناقش مسألة توطين اليهود فى فلسطين ، كمشروع عاجل يتحقق فى المستقبل القريب ، وبعث اللغة العبرية لتكون لسانهم المعبر ...

ونهضت عائلة روتشيلد (٢) اليهودية البـالغة الثراء بتوفير الدعم المالى من أجل تحويل الهجرة اليهودية الى فلسطين ، بدلا من أوروبا ، لتجنب الآثار الوخيمة التى قد تؤرث العداء للسامية ، وامتصاص السخط التقليدى على اليهود ، وتحويله الى عطف واشفاق ، ولربط اليهود بالمصالح الامبريالية المتسعة فى الشرق الأوسط،وبخاصة بعد افتتاح قناة السويس .

وكان الزعيم البولندى كاليشير (١٧٩٥/١٨٧٤) أول من طلب الى عميد أسرة روتشيلد فى فرنسا أن تعـاونه على شراء أرض بالقرب من مدينة حيفا (٣) ، وقـامت الشركة العالمية اليهودية الاستعمارية التى أسسها البارون هيرش سنة ١٨٩١ م باعادة تنظيم المستعمرات التى ينفق عليها البارون ادمون دى روتشيلد بسخاء .

ولم يقف الأمر عند سخاء عائلة روتشيلد ، فقد كان

---

(١) أنظر « الاصلاحيون » من الفرق اليهودية ص ١٥١ وما بعدها من هذا الكتاب .

(٢) يقول هرتزل فى روتشيلد : انه « أعظم قوة فعالة يمتلكها شعبنا منذ تشرده » ..

(٣) بعد انشاء اسرائيل أصبحت أسرة روتشيلد تسيطر على ٧٠٪ من البنوك الاسرائيلية ، و ٦٠٪ من صناعة السياحة ، و ٥٠٪ من مزارع الكروم وظلت الاسرة قاسما أعظم فى تمويل كل المشروعات الكبرى .. ويجب الا ننسى أن هذه الاسرة قاسم أعظم فى كل شركات البترول العاملة فى البلاد العربية !!

صندوق الجباية الاستعماری الیهـودی قد تأسس فی انجلترا وتلقى فی السنة الأولى من انشـائه ربع مليون جنيه ، وكان الصندوق القـومی الذی أنشیء لامتلاك الأراضی فی فلسطين قد تأسس سنة ١٩٠١ ، كما كانت المستعمرات اليهودية على اتصال بالشخصيات والهيئات اليهودية فی جميع أنحاء أوروبا وأمريكا .

ولما كانت قضية دريفوس (١٨٩٤) الضابط الفرنسی اليهودی الذی اتهم بالخيانة ، ورحل الى غيانا ــ سارت المظاهرات المعادية لليهود مما دعم موقف المنادين بعـدم الاندماج ، ولقد شهد الصحفی النمسوی (تيودور هرتزل) احداث هذه القضية ، فتحـول من داعية الى امتزاج اليهود بالمجتمع المسيحی الى نبی للصهيونية .. فقـد رأی أنه اذا كانت فرنسا بلد الحريات يمكن أن تهب عليها عاصفة من هذا النوع ، فمن الممكن أن تتخذ معاداة السامية أشكالا أشد عنفا وقسوة فی بلاد أوروبا . وأصدر كتابه الشهير (دولة اليهود) سنة ١٨٩٦ ، فأثار اهتمام العناصر النشـــطة من دعاة الصهيونية فی مختلف بلاد العالم الغربی، وتمكن هرتزل من عقد أول مؤتمر صهيونی فی بازل (سنة ١٨٩٧) ، وفی خطاب الافتتاح قال : (اننا هنا لنضع حجر الأساس فی بناء البيت الـذی سوف يؤوی الأمة اليهودية) ، واقترح برنامجا يدعو الى تشجيع القيام بحركة هجرة منظمة واسعة النطاق الى فلسطين ، والحصول على اعتراف دولی بشرعية هـذا التوطن ، وانشاء منظمة دائمة لضم صفوف يهود العـالم أجمع وراء القضية الصهيونية .. وانتهى المؤتمر بوضع الأسس التی تقوم عليها المنظمة الصهيونية العالمية ، كما وضعت البروتوكلات المشهورة ــ (بروتوكلات حـكماء

صهيون) ـ التى رسمت الطريق أمام اليهود للسيطرة على العالم .. وانتخب هرتزل رئيسا للحركة الجديدة .

وقد حرص الصهاينة ـ عند اعلان مقرراتهم ـ على عدم ذكر البلد الذى سينشئون فيه دولتهم ، وسيلة الى اللعب بأوراق متعددة ، وتلافيا للخلافات التى نشأت بين أعضاء المؤتمر ... فلما عرضت عليهم الحكومة البريطانية موطنا فى شرق افريقيا (أوغندة) سنة ١٩٠٣ رفض المؤتمر الصهيونى السابع (١٩٠٥) هذا العرض ، وأصبح الاعلان عن فلسطين هدفا للحركة الصهيونية ومحورها ضرورة عملية (١) .

يقول الدكتور ناحوم جولدمان فى محاضرة له بمدينة مونتريال بكندا سنة ١٩٤٧ : لم يختر اليهود فلسطين (لمعناها التوراتى والدينى بالنسبة لهم ، ولا لأن مياه البحر الميت تعطى بفعل التبخر ما قيمته ثلاثة آلاف مليار دولار من المعادن وأشباه المعادن ، وليس أيضا لأن مخزون أرض فلسطين من البترول يعادل عشرين مرة مخزون الأمريكتين مجتمعتين ، بل لأن فلسطين هى ملتقى طرق أوروبا وآسيا وأفريقيا ، ولأن فلسطين تشكل فى الواقع نقطة الارتكاز الحقيقية لكل قوى العالم ، ولأنها المركز الاستراتيجى العسكرى للسيطرة على العالم) .

ملاحظة هامة :

من الجدير بالذكر أن اليهود لم يكونوا جميعا صهاينة، فقد كان الكثيرون ضد هذا الاتجاه الاستعمارى ، وان

(١) أنظر ص ٦٦ .

كانوا مسوقين الى تأييده ، أحيانا خوفا من التهديدات الصهيونية .

فقد رفض الجناح الاصلاحي هذه العقيدة ، وقرر مؤتمر الحاخامات في فرانكفورت (٥ / ٢٨ يولية سنة ١٨٤٥) أن يرفع من الطقوس (الصلوات من أجل العودة الى أرض الآباء ، ومن أجل استعادة الدولة اليهودية .

وأقر مؤتمر فيلادلفيا (٣ / ٦ نوفمبر سنة ١٨٦٩) أن (الهدف الالهي لاسرائيل ليس هو استعادة الدولة اليهودية القديمة ، تحت حكم أحد خلفاء داود ، وهو ما يستلزم أن ينفصل اليهود للمرة الثانية عن أمم الأرض؛ وانما الهدف هو اتحاد جميع أبناء الله في الاعتراف بوحدة الله بما يحقق وحدة جميع المخلوقات العاقلة ؛ ودعوتهم الى القداسة الروحية) .

وأكد مؤتمر لنسبرج (١٦ / ١٨ نوفمبر سنة ١٨٨٥) على : (نحن لا نعتبر أنفسنا من الآن أمة ، وانما نحن مجتمع ديني ، ولهذا لا نقبل العودة الى فلسطين ؛ ولا التعبد بالقرابين وراء أبناء هرون ، ولا استعادة أي من القوانين الخاصة بالدولة اليهودية) .

وظهر الاحتجاج الرسمي في (الجريدة الألمانية) لليهود في ١٦ يولية سنة ١٨٩٧ ممهورا بامضاء مجلس الحاخامات ، جاء فيه : (أن محاولات الصهاينة لارساء أساس دولة قوية يهودية في فلسطين تتعارض مع الدعوة اليهودية كما وردت في الكتاب المقدس ؛ وفي الوثائق الدينية بعد ذلك) .

(١) أنظر ص ٧٦ وما بعدها من هذا الكتاب .

وانتقد اوري ماجنس بعنف الدعوة الصهيونية بقوله (لندن سنة ١٩٠٥) : ان الدكتور هرتزل ومن يقفون الى جانبه خونة التاريخ اليهودى ، الذى قرأوه وفهموه بطريقة خاطئة ، وهم أنفسهم جزء من صانعى سياسة العداء للسامية التى يعترفون بأنهم يذبحونها ، اذ كيف تستطيع البلاد الأوروبية التى يعتزم اليهود تركها أن تبرر استبقاء اليهود ؟ ولماذا بذل اليهود مجهودات شاقة لكسب المساواة الدينية ، اذا كانوا هم انفسهم أول من سيتخلون عن مكانهم ، ويكتفون بكرم الضيافة ؟!

وقد يترتب على هذا الموقف ـ كما يقول بيجر (برلين سنة ١٩٠٥) ـ أن سحب الحقوق المدنية (يبدو انه الموقف الضرورى الذى يلزم أن يتخذه التشريع الألمانى ضد الصهيونية ، والرد الوحيد الذى يمكن أن يصدر عن الضمير القومى الألمانى) !!

وكتب «أشادهاعام» سنة ١٨٩٧ م :(ان اليهودية لاتحتاج فى الوقت الحاضر الا الشىء القليل ، انها لا تحتاج الى دولة مستقلة ، بل الى خلق ظروف فى أوطانها الحالية ملائمة لتطورها فحسب ، انها تحتاج الى محلة ذات حجم لا بأس به يعمل فيها اليهود فى كل فرع من فروع المعرفة ، ابتداء من الزراعة والمهن اليدوية حتى العلوم والآداب ، دون أن تقف فى طريقهم أية عوائق) .

وفى سنة ١٩٢٠ كتب «أشادهاعام» : (ولقد تجاهلنا دائما الشعب العربى ، ومنذ بداية البداية) .

وفى مدينة يافا فى حزيران سنة ١٩١٧ خطب رئيس المجمع السنوى للمؤتمر المركزى للربانيين الأمريكيين يقول : (ما جئت الى هنا لأتشاجر مع الصهيونية ، ان

فى نيتى فقط أن أعلن أننا — كربانيين وقفوا أنفسهم على خدمة الرب ، ومنوط بشفاههم أن تحرس المعرفة ، ومن أفواههم ينبغى على الشعب أن يطلب القانون ، لأننا رسل رب الجنود — لا مكان لنا فى حركة يتكتل بها اليهود على أسس عنصرية أو قومية ، من أجل دولة سياسية ، أو حتى من أجل وطن مكفول قانونا ، ان على عاتقنا يقع الالتزام بحمل هذه الفكرة الرئيسية التى أولاها اليهود مذ خلق الطاعة والايمان ، وترديدها على الدوام ، وبلا كلال ، وان اسرائيل الدينية التى أجازها التاريخ وقبلها ، ينبغى الا يضحى بها على مذبح اسرائيل العنصرية البحتة، التى أوجدتها المخططات الدنيوية المعاصرة ، واذا ما ضحى بهـا فان المطـالب الدينية ليهود عصرنا — ناهيـكم عن الاعتبارات الأخرى — لا يمكن أن تشبع) .

ومن المعروف أنه لا تزال فى اسرائيل الى اليوم طوائف ربانية وغير ربانية غير راضية عن جريمة الوجود الاسرائيلى العنصرى ، سواء أكانت دعواهم الدينية ، ان قيـــام اسرائيل — عن غير طريق المسيح المنتظر — غير شرعى ، ومن الواجب انتظار هذا المسيح الذى على يديه تتحقق (مملـكة الرب) — أم كانوا من أولئك الـذين يرون فى التعايش السلمى مع العرب ، أصحاب الحق الشرعى .

يقول ايمانويل ليفين — الحاخام الفرنسى المعاصر — (ان كيانى يزدهر ويتضح بتعـاطفى وتضامنى مع عرب فلسطين ، وبمعارضتى الكاملة والمطلقة لدولة اسرائيل ، والصهيونية التى تحمل فى مبادئها المظالم والجرائم التى نعيشـها كشـهود عاجزين ، وما كانت دولة اسرائيل تستطيع أن تقوم دون ارتكاب هذه الجرائم) .

في سبيل الحصول على حليف قوى :

١ ـ لما كانت فلسطين جزءا من المملكة العثمانية ، فقد تكررت محاولات اغراء السلطان عبد الحميد (بوفاء جميع الديون المستحقة على الدولة العثمـــانية ، وبناء أسطول لحماية الامبراطورية ، وتقديم قرض بخمســة وثلاثين مليون ليرة ذهبية ، دون فائدة ، لانعاش مالية الدولة وانماء مزارعها) .. مقابل السماح بدخول اليهود الى فلسطين ، بقصد زيارة الأماكن المقدسة ، وبانشاء مستعمرة قرب القدس .

لكن المحاولات جميعا باءت بالفشل ..

بل ان تكرار المحاولة نبه السلطان الى خطر التسلل الى فلسطين ، فأصدر أمرا الى (رءوف باشا) متصرف القدس (ليقوم بالتحـــــرى عن اليهود فى فلسطين ، ولا سيما في القدس الشريف ، ولا يبقى فى الأرض المقدسة أحدا من الطائفة اليهودية ، غير الذين قدموا اليها بقصد الزيارة العابرة ، والا يسمح لهؤلاء بالمكوث فيها الا بمقدار الزمن المحدد لهذه الزيارة) .

وأصدر الباب العالى سنة ١٨٨٨ فرمانا يقضى بمنع اية هجرة جماعية يهودية الى اراضى الدولة العثمانية ...

ومن ثم تآمر اليهود ضد السلطان عن طريق (جمعية الاتحاد والترقى) التى كانت خاضعة لتأثير (الماسونية) حتى تم خلع السلطان سنة ١٩٠٩ .. ثم ألب اليهود بلاد البلقان باسم (القومية) ، وجروا تركيا الى حرب (استعمارية) لا غاية من ورائها الا تجريد تركيا من **الخلافة الاسلامية ، بكل ما تعطيه الخلافة من امتدادات.**

والملاحظ انه بين عامى ١٩٠٥/١٩١٤ كان التوطن اليهودى فى فلسطين يتزايد فى صمت والحاح ، حتى وصل عدد المستوطنين الجدد الى ١٢ ألفا ، يعيشون فى تسع وخمسين مستعمرة (١) .

وبينما نجد الوالى العثمانى أحمد جمال باشا يصدر فى يناير سنة ١٩١٥ أمرا بتحريم نشاط العناصر الهدامة التى تسعى لانشاء حكومة صهيونية فى فلسطين، ويأمر باغلاق البنك الانجليزى الصهيونى ، ويحل هيئة (حراس هاشومير) ، ويحرم الكتابة بالعبرية على لافتات الحوانيت والشوارع ، ويهدد باعدام من تسول له نفسه أن يلصق طابع بريد صهيونى على خطاب — اذا بنا نجد الأمر ينتهى فى ٢٣ يناير سنة ١٩١٨ الى اذاعة الراديو الألمانى تصريحا لطلعت باشا الى مراسل جريدة نوسيش رايتونج فى استانبول — بحضور شيخ الاسلام — قال فيه : (أن وعد مستر بلفور هو أكذوبة) ثم أخذ يعدد التنازلات التى تعرضها الحكومة التركية على الحركة الصهيونية ، وفى مقدمتها : قبول مبدأ الهجرة اليهودية الى فلسطين ، فى حدود امكانيات البلاد ؛ ومنح الحكم

---

(١) بلغ عدد اليهود فى فلسطين سنة ١٨٨٠ ـ ٢٥ ألفا من مجموع سكانها البالغ ٥٠٠ ألف ، وعقب المذابح الروسية بلغ عدد اليهود فى فلسطين بين عامى ١٨٨٢ ، ١٨١٧ حوالى ٥٠ ألفا ، وبسبب سياسة هتلر المناهضة لليهود بلغ عدد اليهود فى فلسطين حتى سنة ١٩٤٥ ـ ٤٠٠ ألف ، وعشية الشاء دولة اسرائيل سنة ١٩٤٧ كان هناك ٦٠٠ ألف من مجموع السكان البالغ مليونا و ٢٥٠ ألفا .

وبدأت عملية نزع الفلسطينيين عن ارضهم . حتى صار كل ماتبقى من العرب سنة ١٩٤٩ ـ ٤٥٠ ألفا .

وقد كشفت الرابطة الاسرائيلية لحقوق الانسان أن أكثر من ٢٠٠ ألف بيت عربى قد نسف فى اسرائيل والضفة الغربية خلال الفترة من ١١/٦/١٩٦٧ الى ١٥/١١/١٩٦٩ .

الذاتي لكل تجمع يهودي أكثر من خمسة آلاف نسمة .

وفي الوقت نفسه أدلى فؤاد الخطيب وكيل خارجية الحجاز بتصريح قال فيه : (اننا لا نتوقع أي صعوبة مع اليهود ، لأننا الآن نفهم بعضنا بعضا) !!

وفي ٣ يناير سنة ١٩١٩ حصل وايزمان على اتفاق مع فيصل بن الشريف حسين أمير مكة يعترف فيه بوعد بلفور ، ويعد بأحسن العلاقات بين الدولة العربية التي ستنشأ في الشرق وبين فلسطين .. وبعد شهرين من الاتفاق عزز فيصل موقفه بخطاب أكد فيه هذا المعنى ، وأرسله الى القاضي الصهيوني الأمريكي (فليكس فرانكفورتر) عضو الوفد الصهيوني الى مؤتمر فرساي بفرنسا (١) .

٢ ــ حاول هرتزل ربط هذا الكيان المختلق بالمصالح الأوروبية ، وقال : (انه لمن مصلحة الأمم المتمدنة أكثر فأكثر ، ومن مصلحة المدنية بشكل عام أن تؤسس محطة حضارية عبر أقصر طريق لآسيا ، ان فلسطين هي تلك المحطة ، ونحن اليهود حماة الحضارة ، المستعدون لبذل أملاكنا وأرواحنا من أجل تكوينها) .

وأوضح هرتزل لتشمبرلان واوزير الخارجية لورد لانسدون أن الامبراطورية البريطانية عندما ترعى المساعي الصهيونية لا تكسب مستعمرة غنية فحسب ، بل أيضا عشرة ملايين يهودي الى انجلترابقلوبهم . اذاهي قامت بعمل مثل هذا أصبحت حامية الشعب العبري ، وفي لحظة

(١) قد يمكن القول أن تصريحات طلعت باشا وفؤاد الخطيب وفيصل ارتبطت بتكتيكات سياسية خاضعة للظروف الصعبة التي كانت البلاد تمر بها ، وليست وعودا ملزمة ، كما يمكن القول أن هذه الأخبار مرت بمصانع الأخبار اليهودية قبل أن تصلنا ..

تستطيع أن تعتمد على عشرة ملايين موال مخلص لها فى جميع انحاء العالم ، جميع هؤلاء سيكونون رهن اشارة الامة العظيمة التي ستمد لهم المساعدة المطلوبة ، فيكون لانجلترا عشرة ملايين عميل من أجل عظمتها وسيطرتها ، وهذا الولاء لابد أن يكون على الصعيدين السياسى والاقتصادى .

وسعى هرتزل الى الاستعمارى البريطانى الشهير سيسيل رودس فحصل منه على شهادة بفائدة وجود الدولة اليهودية على أرض فلسطين . وقد جاء فى هذه الشهادة : (أنا رودس قمت بفحص هذا المخطط ، ووجدته صحيحا وعمليا ، انه مخطط مماوء بالحضارة ، ممتاز بالنسبة للشعب الذى يتوجه المخطط نحوه لا يعوق تقدم البشرية العام ، وهو مفيد جدا لانجلترا ولبريطانيا العظمى) .

وفى عام ١٩٠٢ دخلت المنظمة الصهيونية فى مباحثات مع الحكومة الانجليزية بقصد اقناع انجلترا بمنح الحركة جزءا من شبه جزيرة سيناء ، يقيمون فيها وطنهم القومى كجزء من الامبراطورية .. لكن حكومة مصر رفضت هذا المشروع على أساس أن جفاف سيناء يستدعى الاستعانة بماء النيل الذى لا يكفى حاجة البلاد .

وبعد عام عرضت بريطانيا مشروعا يقضى بمنح أوغندا للمنظمة الصهيونية بقصد تعميرها والتوطن فيها ، لكن حاييم وايزمان المرشح لقيادة الحركة الصهيونية لم يكن يجد فى غير فلسطين بديلا ... لهذا – عقب موت هرتزل سنة ١٩٠٥ انتصر فريق وايزمان فى المؤتمر الصهيونى السابع من نفس العام .

ولقد لعب وايزمان دورا كبيرا في سبيل كسب تأييد انجلترا وآمريكا للمطامع الصهيونية .

ففي سنة ١٩٠٤ هاجر هذا الكيميائى الروسى الى لندن ، حيث عاش وخذ يتصل بالساسة والصحفيين من جميع الأحزاب ، ونجح فى عقد صداقة مع لورد بلفور ، ومع (سكوت) رئيس تحرير المانشستر جارديان ، الذى عرفه بعدد من الوزراء .

ولقد كانت طبيعة السياسة الانجليزية التى تقوم على خلق مشكلات الأقليات لتدعيم وجودها الاستعمارى ـ عونا على أن يجد الداعية الصهيونى سبيله الى انتصارات سريعة ...

كان الدكتور وايزمان يجرى تجاربه بنجاح فى انتاج المتفجرات ، وقد وضع بين يدى المستر سكوت مشروعه لانتاج المواد المتفجرة اللازمة لانتاج الذخائر ، فقام المستر سكوت بعدة زيارات الي لندن ليقنع المستر لويد جورج والمستر ماكيف واللورد بلفور وآخرين بأهمية تجارب وايزمان .

وفى ديسمبر سنة ١٩١٥ اصطحب سكوت وايزمان ليتغذى معه على مائدة لويد جورج ، وتقرر نقل وايزمان الى لندن ليعمل فى مصنع حكومى لانتاج الذخائر .. ونجحت تجارب وايزمان فى تحضير الأسيتون لاستعماله فى صنع السكورديت ، فعين فى فبراير سنة ١٩١٦ فى منصب هام بحيث أصبح لورد بلفور رئيسه .

وبهذا وضع وايزمان قدما ثابتة عند مجرى الأحداث ..

فلما تولى لويد جورج رئاسة الوزارة وعين بلفور وزير

الخارجية انطبعت الحكومة البريطانية بالطابع الصهيونى .. وبعد شهرين قرر مجلس الوزراء تكليف مارك سايكس الدخول فى مفاوضات رسمية مع الحركة الصهيونيه ممثلة فى موسى جاستر وهربرت صمويل وحاييم وايزمان وهارى ساشر الذين طالبوا باعطاء اليهود صفة قومية ووضعا رسميا في فلسطين ، مع منح نفس القومية لكل يهود العالم ، دون أن يكون لهذا أثر على وضعهم فى بلادهم من الناحية السياسية ، كما طالبوا باباحة الهجرة الى فلسطين دون أى قيد ، وأكد الجانب الصهيونى على أن الكيان الصهيونى الوليد سيكون جزءا من الامبراطورية البريطانية وحارسا مضمونا لها فى المنطقة .

٣ ـ منذ عام ١٨٩٠ وهرتزل يسعى للحصول على حماية بسمارك .. وفى سنة ١٨٩٨ اقترح على القيصر غليوم الثانى ـ وكانت تراوده أحلام قدسية في الشرق ـ اقامة دولة يهودية تكون موقعا متقدما للمصالح والحضارة الجرمانية .. لكن القيصر وجد أن مثل هذا العمل سوف تعده الامبراطورية العثمانية تدخلا غير مباشر فى شئونها ، وقد يثير الدول الأخرى المتربصة بنهاية الأمبراطورية المريضة .

وتكررت المحاولة ، دون جدوى ، حتى اشتعلت نيران الحرب العالمية ، وأصبحت كفة الحلفاء هى الراجحة ، فألقى الصهاينة ثقلهم الى جانب الحلفاء .

اقتحام الارض :

الى جانب البحث الجاد عن دولة قوية تتعارض

مصالحها مع مصالح الأمة العربية ، كان العمل المستمر في اختيار (الرواد) الأوائل في فلسطين على أساس حرمان النفس من متع الحياة والفوائد المادية ، والقدره على تطويع أسلوب الحياة لمعيشة التقشف ، والقيام بالأعمال الجسيمة التى تحددها له الجماعة .. وكان التركيز الشديد على العمل غير المستغل فى الميدان الزراعى واليدوى ، باعتباره وسيلة رئيسية لبعث شباب (الأمة اليهودية) ، ولخلق انسان يهودى جديد .. كما كان التركيز على الاكتفاء الذاتى ، وعلى أهمية وسائل الدفاع الذاتى .

كان هدفهم ـ كما يدعون ـ (اقتحام الأرض) ، حتى يطهر اليهودى نفسه ، ويتخلى عن سلوكه الذى تمرس عليه فى الشتات ، نتيجة الانقطاع أجيالا طويلة عن الزراعة والصناعة ، الأنشطة الانتاجية المختلفة ... وان اقتحام العمل ـ وخصوصا الزراعة والأعمال اليدوية ـ من شأنه ان يوثق صلة اليهودى بالأرض والطبيعة .

ويترتب على هذا انتزاع الأرض العربية من أصحابها ، واضعافهم اقتصاديا فى سوق العمل ، تحت شعار العمل العبرى ، الذى معناه : عدم الاعتماد على العرب فى حراسة المستوطنات و المشروعات الصهيونية ، وضرورة تشكيل فرق صهيونية للقيام بهذه الوظيفة الحيوية .

وقد قام (الهستدروت) بدور واضح فى فرض العمل العبرى ، وفى فرض مبدأ شراء الانتاج العبرى ، ومقاطعة الانتاج العربى .

وبهذا أصبح للتراب الفلسطينى مذاقه الخاص فى

وجدان (الغربان الشرسة) .

تقول يائيل دايان ابنة موشى دايان القائد الصهيونى المعروف ، فى قصتها (طوبى للخائفين) ، على لسان ايفرى لابنه نيمرود : (امسك هذا التراب اقبض عليه ، تحسسه ، تذوقه ، هذا هو ربك الوحيد .. اذا أرت ان تصلى للسماء فلا تصل لها لكى تسكب الفضيلة فى ارواحنا ، ولكن قل لها أن تنزل المطر على أرضنا ، هذا هو المهم .. اذا أردت أن تسلى نفسك ، وتتعلم شيئا ، فاذهب وتعلم حلب البقر) .

وبهذا الوعى الصادق للدور الذى تلعبه الأرض ، صار متوسط دخل اليهودى فى فلسطين قبل سنة ١٩٤٨م(١) ١٤١ جنيها فى العام ، بينما كان متوسط دخل العربى ٥٠ جنيها ، وصار مجموع انتاج اليهود فى فلسطين — وهم الأقلية — ٨١ مليونا بينما كان مجموع انتاج الأكثرية العربية ٢٦ مليونا .

ومن ثم تحول النزاع العربى اليهودى ، من نزاع سياسى عسكرى الى نزاع حضارى .

وعد بلفور :

فى الثامن والعشرين من يناير سنة ١٩١٥ كتب المستر اسكويث — رئيس الوزراء البريطـــانية آنذاك — فى مفكرته يقول : تسلمت لتوى من هربرت صمويل مذكرة عنوانها (مستقبل فلسطين) انه يخلص فيها — باسهاب

(١) يجب أن نذكر أن الصهاينة لم يمكنهم الحصول ولا على ٨ر٣٪ من أرض فلسطين حتى عام ١٩٤٨ ، بسبب قوة تعلق الفلاح الفلسطينى بأرضه

لا بأس به ، وببعض الحمـــاسة ــ الى مناقشة مسألة الحاق فلسطين ببريطانيا مجددا . وفلسطين بلد صغير فى حجم ويلز ، معظمه جبال جرداء ، وجزء منه لا ماء فيه ، وهو يعتقد أننا قد نزرع هذه الرقعة ، التى لا تشجع كثيرا على الزراعة حوالى ثلاثة أو أربعة ملايين من اليهود الأوروبيين . وان هذا ســيكون له أثر طيب على أولئك الذين سيخلفهم هؤلاء وراءهم ...

وانى أعترف ان هذه الاضافة الجديدة المقترحة الى مسئولياتنا لا تستهوينى ولكن من العجيب حقا أن يرى الانسان هذه الصرخة التى تكاد تكون صرخة غنائية بحتة .. انها تجسـيد عجيب لعبارة ديزى المأثورة القـائلة بأن (الجنس هو كل شيء) .

لقد تحدث المستر اسكويث عن مقترحات الصهاينة المقدمة فى مذكرة السير هربرت صمويل بكثير من الازدراء والدهشة ، ونعتها فى مجلس العموم ــ بعد ذلك بست سنوات ــ بأنها ما تزال (بئر سلم من الفرضيات الهشة الهزيلة المتعثرة اللجوج) ، مضيفا أن من الافتراضات المبالغ فيها أيما مبالغة الزعم بأن (اليهود سيعيشون جنبا الى جنب مع العرب بفعل ادارة عادلة حكيمة ، وعن طريق التغلغل السلمى وبالوسائل الأخرى) .

وكتب فى عام ١٩٢٤ وهو على أرض فلسطين ذاتها ، ضيفا على السير هربرت صمويل الذى كان اذ ذاك المندوب السامى على فلسطين : (ان الحديث عن تحويل فلسطين الى وطن قومى لليهود ليبـــــدو لى حديثا مغرقا فى الخيال) .

ولكن يبدو أن المستر اسكويث لم يكن وجها صافى المرآة لبريطانيا العظمى ، التى كانت تحركها أصابع الصهيونية سرا وجهرا ، ففى جو من الضباب المتكاثف (فقد اعضاء الحكومة فى عام ١٩١٦ كل أثر لمتابعة بعضهم البعض) وتناول أشخاص مستترون (مشروعات قذرة)، ونتيجة هذا (أن قادة الصهيونية ضبطوا يقفون على باب مكتب الخارجية حين انقشع هذا الضباب أو كاد) .

وبعد أن تم التوصل الى تفاهم بين السير مارك سايكس وبين وايزمان وسوكولوف انعقدت النية على ارسال رسالة سرية الى القاضى برانديز ـ الأمريكى اليهودى وصديق الرئيس ويلسن ـ مؤداها (أن الوزارة البريطانية ستساعد اليهود على كسب فلسطين فى مقابل الانعطاف اليهودى الفعال ، وفى مقابل تأييد قضية الحلفاء فيها) .. وقد جرى ارسال هذه الرسالة بالشفرة ، عن طريق مكتب الخارجية .. هذا المكتب عينه الذى سخر للاتصالات الصهيونية بين وايزمان وسوكولوف وبين الزعماء الصهاينة فى الخارج .

وحين عين المستر بنتوتيش نائبا عاما لادارة فلسطين كتب يقول : (ان سيادة الدولة ليست أمرا حيويا بالنسبة للمثل الأعلى اليهودى القومى) .. وشدد على ضرورة منح المنشآت الصهيونية والمستعمرين اليهود فى فلسطين امتياز (الحقوق الخاصة) .

وفى يونيه سنة ١٩١٧ قال وايزمان : (ان ما تطمح اليه الحركة الصهيونية هو انشاء دولة يهودية فى فلسطين فورا ، بل لقد ذهب أصدقاؤنا الأمريكيون الى ما هو أبعد من ذلك ، فحددوا حتى شكل تلك الدولة ، بأن

بشروا بجمهورية يهودية) ، ولكن (ينبغى أن تبنى الدول ببطء ورويه وبالتدريج .. ولذلك نقول : انه ان كان خلق الكومنولث اليهودى فى فلسطين هو مثلنا الاعلى النهائى — وهو هدف تسعى اليه المنظمة الصهيونية أجمع — فان الطريق اليه يتألف من سلسلة من المراحل البينيه، واحدى هذه المراحل البينيه والتى آمل أنهـــا آتية عما قريب كنتيجة الحـــرب — هى أن توضع بلاد فلسطين الجميلة تحت حماية دولة قوية عادلة ، كبريطانيا العظمى، فيستطيع اليهود تحت جنـاح هـذه الدولة أن ينشئوا ويقيموا ذلك الجهاز الادارى الذى سيمكننا من تنفيـذ المخطط الصهيونى ، دون أن نتدخل فى الوقت نفسه فى المصالح الشرعية للسكان غير اليهود ، وقد خول لى أن أقول لكم (١) ان حكومة صاحب الجلالة مستعدة لان تؤيد خططنا) .

وكان سقوط امبراطورية آل رومانوف بروسيا فى مارس سنة ١٩١٧ من العوامل المســـاعدة على تنظيم الهجرة الى فلسطين ، ومد اليهود بالمال والسلاح وتدريب عصاباتهم على الحرب الخاطفة . . .

واتخذت جميع الضغوط لتنشيط حركة الاستيطان ، وتملك المواقع الاستراتيجية ، وطرد الفلاحين العرب ، ومقاطعة العمال العرب .. تنفيذا لمخطط هرتزل :

(سيتم نزع الملكية الاختيارى عن طريق وكلائنـــا السريين ، وعنـــدئذ فلن نبيع الا لليهود ، ولن يجرى

---

(١) وجه القول الى جمهور معين عقد فى ١٩١٧/٥/٢٠ كرسالة عن الموقف السياسى تنقل الى الجمعيات اليهودية من خلال مندوبيها .. ويلاحظ أن هذا قبل مايقرب من ثلاث سنوات من « منح » عصبة الامم الانتداب لبريطانيا على فلسطين .

الاتجار فى العقارات الا بين اليهود .. سنحاول اجلاء السكان المعدمين عبر الحدود ، بتوفير العمالة لهم فى البلدان التى ينتقلون اليها ، وانكار أية فرصة عمل عليهم فى بلادنا ، وسيقف الملاك الى جانبنا ، ولابد أن تجرى كل من عملية نزع الملكية وابعـــاد الفقـــراء فى تكتم وحيطة) .

أما وقــد ركبت الحــركة الصهيونية ظهر الحــكومة البريطانية ، وبخاصة بعـــدما تولى لويد جــورج رئاسة الوزارة سنة ١٩١٥ ، فلم يعد ثمة حاجة الى كثير من التكتم والحيطة .

يقول الدكتور جاستر فى خطاب خطير له : (اننا نريد أن نقيم فى فلسطين كومنويلثا يهوديا مستقلا اســتقلالا ذاتيا ، بأوفى معنى من معانى هذه الكلمات ، اننا نريد لفلسطين أن تكون فلسطين اليهود ، وليس مجرد فلسطين لليهود ، اننـــا نريد الأرضها أن تــكون أرض اسرائيل ، ويجب أن تكون أرضها لنا) .

ونشـــطت الدوائر الصهيونية من أجــل تسيير الآلة البريطانية بالوفود الأمريكى فاجتمع بلفور بالقاضى برانديز فى ربيع سنة ١٩١٧ ، وفى نفس الوقت اجتمع بأعضاء بعثة بلفور الى أمريكا صهاينة آخرون ، حتى اذا عاد بلفور الى بريطانيا كان مشبعا غاية التشبع بالفـــكرة الصهيونية .. ودبج عددا من المسودات (عن التقرير الصهيونى الرسمى) ، وأرسلت المسودات عن طــريق وسائل مكتب الحرب الخاصة (الى الولايات المتحدة لكى تستعين بها اللجنة السياسية الصهيونية الأمريكية) .

وسرعان ما جرت الأقلام ببيان مبدئى عام .. لكن

(حين حانت لحظة اتخاذ قرار فى أواسط عام ١٩١٧ (أيد الرئيس ويلسون الصهاينة بكل ثقل نفوذه) حتى اذا كان الثانى من نوفمبر سنة ١٩١٧ خرج تصريح (السفاح) الذى نتج من (جريمة تعدد الأزواج) على شكل كتاب ، من سكرتارية الخـــارجية الى اللورد روتشيلد (١) — بوصفه رئيسا للاتحاد الصهيونى فى بريطانيا — جاء فيه :

(عزيزى اللورد روتشيلد ..

من دواعى غبطتى الجمـــة أن أنقل لـكم بالنيابة عن حكومة صاحب الجلالة التصريح التـــالى ، بعطفنا على الآمال الصهيونية اليهودية ، الذى عرض على الوزارة فوافقت عليه .

« ان حكومة صاحب الجلالة لتنظـر بعين العطف الى مسألة اقامة وطن قومى فى فلسطين للشعب اليهودى ، وستبذل أقصى ما فى وسعها من مساع لتذليل احراز هذه الغاية ، مع العلم تمام العلم بأنه لن يفعل شىء من شأنه المساس بالحقوق المدنية والدينية للجمـاعات غير اليهودية الموجودة حاليا فى فلسطين ، أو الحقوق الأهلية السياسية التى يتمتع اليهود بها فى اى بلد آخر ...

وأكون مدينا لكم بالجميل اذا ما تكرمتم فأبلغتم هــذا التصريح الى علم الاتحاد الصهيونى .. صديقكم المخلص : أرثر جيمس بلفور) .

ولم يكن أحد يستطيع أن يدرك لعبارة (وطن قومى) معنى محددا ، (لأنه لم يكن لها معنى متعارف عليه) ، ومن ثم فقد أعطت حرية الممارسة فى فلسطين .. أما

(١) اعترف وايزمان فى مذكراته أنه هو الذى كتب بيده هذه الوثيقة بناء على طلب اللورد بلفور .

عبارة (تنظر بعين العطف) ، فمـــاذا تساوى فى دنيا التعهدات ؟ وماذا يعنى (التسهيل) فى عبارة (ستبذل كل ما فى وسعها لتسهيل بلوغ هذا الهدف) ؟ وأما وصف العرب بالجماعات (غير اليهودية فى فلسطين) فزئبقى مخادع ، اذ كان تعداد سكان فلسطين — فى ذلك الوقت — قرابة ٦٧٠,٠٠٠ اليهود بينهم ٦٠,٠٠٠ .. ومع ذلك لم يرد اسم (العرب) مما يفيد التغرير ، والتقليل من شأن هذه (الجماعات) ، فكيف بما لهذه الجماعات من (الحقوق المدنية) .. أى حقوق مدنية هذه ؟! (لقـــد سلبوا العرب كل شىء ، بنصوص يدل ظاهرها على أنها تؤمن للعرب كل شىء ، وهى خدعة ماهرة وضيعة) .. يجهر بها علانية المستر دي هاعاس (الصائغ الأمريكى فى هذا التصريح) بقوله : (نحن نفرق بين الحقــوق اليهودية وبين الادعاءات العربية) ، لقد روعيت الدقة فى صياغة هذه الجريمة الى حد : (أن كل كلمة من كلمات هذه الوثيقة قدوزنت من قبل ما يزيد على عشرين جهبذا حجة) .. لتكون فى النهاية (امرأة متزوجة من رجل متزوج) ، امرأة تبيع عرضـــا لا تملكه لرجـــل لا يستحقه .

وتتجلى جريمة هذا التصريح فى :

١ — أن اصداره قد أخل بوعد الشرف أن تتألف من الجزيرة العربية وسوريا والعراق دولة عربية واحدة ، بعد أن تتم هزيمة الأتراك .

٢ — أن هدفه تنصيب اليهود فى مركز ممتاز فى فلسطين بدون موافقة أهلها ، مقدمة لاغراق العرب فى دولة يهودية تقوم فى المستقبل .

٣ ــ كتب التصريح بأقـــلام يهودية ، وصيغ صياغة غامضة ، بحيث تخفى الحقائق ، وتضيع الحقوق .

٤ ــ كان فى الظاهر اعترافا بآمال الصهاينة فى العودة الى فلسطين متذرعين بستار الحقوق التاريخية ، وكان فى الحقيقة صفقة سرية أعطيت بموجبهـا غنيمة حربية ثمنا لمساعدة قدمت فى زمن الحرب .

٥ ــ قد يكون ثمرة حقد دفين ناتج عن تعصب وروح (صليبية) موروثة تعمـل على توهين هذه المنطقـة من العالم من أجل ابتلاعها .

وسرعان ما صادقت فرنسا على التصريح ، وتبعتهـا ايطاليا عام ١٩١٨ ، ووافقت روسيا بشرط المحـافظة على مصالح الكنيسة الروسية فى الأراضى المقدسة وأعلن (ويلسن) اغتباطه بصدور التصريح ولم يـكتف باعلان (وطن قومى لليهود) بل تجاوز فأعلن (قيام دولة يهودية) بقوله أمام الرأى العام الأمريكى : (قررت الأمم المتحالفة ــ بمساندة مطلقة من جانب حكومتنا وشعبنا ــ اقامة أساس للدولة اليهودية فى فلسطين) .

ولعل هذا المناخ العالمى المتآمر هو الذى شجع على ممارسة (الانتداب) قبل أن ينعقد مؤتمر الصلح .. اذ ما كاد المؤتمر ينعقد ــ وهو المؤتمر الذى رفض تمثيل وفد مصر ــ حتى أذن لوفـد صـهيونى أن يمثل أمامه ويقدم مطالبه ، تم ذلك فى فبراير سنة ١٩١٩ ، ثم قرر (مجلس الحلفاء) الذى انعقد فى سان ريمو (ابريل سنة ١٩٢٠) انتداب انجلترا فى فلسطين ، وأن تكون هى المسئولة عن تنفيذ (التصريح) باقامة الوطن القومى لليهود .

ولما تكونت (عصبة الأمم) وافق مجلسها المنعقد فى ٢٤ يوليه سنة ١٩٢٢ بلندن على وثيقة (الانتداب) وشروطه التفصيلية ، وكان وعد (بلفور) فى رأس تلك الوثيقة ، فقد صدر بها الوعد كأنه قرار دولى ، واعترفت المادة الرابعة منها (بالوكالة اليهودية) ، التى (تنصح وتعاون الادارة بفلسطين فى كل ما له علاقة بانشاء الوطن القومى لليهود) .

وقرر المؤتمر الصهيونى تقييد (الوكالة) بتنفيذ المبادىء الآتية :

١ ـ مواصلة العمل على زيادة الهجرة اليهودية الى فلسطين .

٢ ـ الاهتمام بالأرض ، والعناية بها على أنها ممتلكات يهودية .

٣ ـ الاستعمار الزراعى القائم على العمل اليهودى .

٤ ـ العناية ببعث اللغة العبرية والثقافة العبرية .

وبهذا أصبحت (الوكالة) دولة داخل دولة ، لها ادارتها الخاصة ومصالحها الخاصة .

وساعد على زيادة تمكين هذه (الوكالة) كون السير هربرت صمويل مندوبا ساميا فى فلسطين ، وهو صاحب دور كبير فى اصدار (وعد بلفور) ، كما أنه أحد مؤسسى شركة شل (اليهودية) ذات التأثير البالغ على كثير من حكومات العالم ، ومن بينها بعض الحكومات العربية .

يقول (وايزمان) فى حديث له بالولايات المتحدة عقب تعيين هربرت صمويل مندوبا ساميا :

(ان السير هربرت صمويل صديقنا ، وقد قبل هذا المنصب الصعب بناء على رجائنا ، فنحن الذين وضعناه فى ذلك المنصب ، انه صمويلنا) .

بعثة كنك كرين :

وقبل أن نمضى فى سرد مجريات الأحداث ، نتعرف على طبيعة الوضع فى فلسطين ، على النماذج الذى تم فيه زرع هذا المسخ الأخطبوطى الكئيب ، ومدى أهلية أولئك الذين كانوا يملكون اتخاذ القرار .

عندما بلغ الخلاف بين لويد جورج وكليمنصو — حول مضامين (سيكس بيكو) فى اجتماعات (مجلس الحلفاء) السرية — حد الانفجار — هب ويلسن فاقترح ارسال بعثة أمريكية انجليزية فرنسية مشتركة الى المنطقة لتحديد رغائب أهلها فى اختيار الدولة المنتدبة ، وقد وافق المجلس بالاجماع يوم ٢٠ مارس سنة ١٩١٩ على ارسال البعثة المذكورة .

وقد حددت البعثة فى تقريرها نقاطا هامة حول مصير فلسطين ، أهمها الملاحظة التالية :

« اذا اعتبرنا ان فلسطين ستصبح فى نهاية المطاف دولة يهودية ، فمما لا يجوز التغاضى عنه أن فلسطين (أرض مقدسة) بالنسبة لليهود والمسيحيين والمسلمين على السواء ، وملايين المسيحيين والمسلمين فى كل أنحاء العالم قلقون ، لا أقل بأى حال من اليهود ، حول الأوضاع فى فلسطين ، خاصة تلك التى تمس المشاعر والحقوق الدينية .. ومن هذه الزاوية فان الوضع فى

فلسطين معقد وحساس الى اقصى حد .. وحتى — مع احسن النوايا الممكنة — يشك فى أن يبدو اليهود للمسيحيين والمسلمين حماة حقيقيين للأماكن المقدسة ، او قيمين عليها ، والسبب يكمن فى أن هذه الأماكن مرتبطة باسم المسيح ، وهى لذلك تعتبر أكثر قداسة للمسيحيين ، كما أنها مقدسة فى نظر المسلمين أيضا ، أما بالنسبة لليهود فانها ليست مقدسة فحسب ، بل انها ممقوتة أيضا ، لذا من غير المعقول بكل بساطة أن يشعر المسلمون والمسيحيون بالاطمئنان فى حالة وضع هذه الأماكن فى أيد يهودية ، أو حتى جعلهم قيمين عليها .. وبالاضافة الى ذلك ، توجد مناطق كثيرة يكن نحوها المسلمون نفس الشعور ، لذلك ، فان المسلمين الذين ينظرون بعين التقديس الى الأماكن المقدسة لجميع الديانات يكونون أفضل من اليهود لحمايتها .. ويصح التفكير فى أن الذين يدافعون عن النهج الصهيونى المتطرف لم يدرسوا بما فيه الكفاية جميع آثار الاحتلال اليهودى الكامل لفلسطين ... ان مثل هذا الاحتلال سيؤدى حتما الى تعاظم الشعور المعادى لليهود ، سواء فى فلسطين أو فى البلدان الأخرى ، حيث يعتبرون فلسطين أرضا مقدسة .

وانطلاقا من كل ما مر ، ترى البعثة — بالرغم من شعورها العميق نحو قضية اليهود — أن من واجبها التوصية بأن يوافق مؤتمر السلام (فى باريس) على النهج الصهيونى ، بعد تقليصه الى حد كبير ، شريطة أن ينفذ — حتى فى هذه الحالة — ببطء كبير ، مما يعنى ضرورة تحديد معنى لهجرة اليهود ، ورفض مشروع تحويل فلسطين الى دولة يهودية ، وفى مثل هذه الحالة

لا تظهر أية موانع لضم فلسطين ـ مثل بقية أجزاء سوريا ـ الى الدولة السورية الموحدة ، أما الاماكن المقدسة فيمكن وضعها فى حماية لجنة دولية ودينية ، يجب بالطبع تمثيل اليهود فيها .

وبينت البعثة كيف أن الصهيونيين يأملون فى اجلاء غير اليهود عن فلسطين ، بشراء أراضيهم .. وأنه ـ طبقا لما أعلنه الرئيس ويلسن فى ٤ يوليو سنة ١٩١٨ ، حول ضرورة حل مسألة لها مساس (بالأرض أو السياسة أو الاقتصاد أو بالعلاقات السياسية) ـ فان السكان غير اليهود فى فلسطين ـ وهم تسعة أعشار السكان ـ (يرفضون البرنامج الصهيونى رفضا تاما) .

وتثبت الاحصاءات ان سكان فلسطين لم يجمعوا على شيء اجماعهم على هذا الرفض ، مما جعل تنفيذ البرنامج بدون قوة السلاح فى عداد المستحيلات .

ومع ذلك .. أهمل ويلسن تقرير البعثة ، وغض الطرف عن التوصيات الصريحة الواردة فيه .. ومن ثم لم يعرض التقرير على مؤتمر السلام فى باريس ، وظل مختفيا فى أرشيف الوفد الأمريكى الى أن انتهى المؤتمر من أعماله ، سيما وأن الرئيس نفسه قد طمأن ممثلى الحركة الصهيونية ـ عندما أبدوا بعض المخاوف من ارسال البعثة ـ بأنه (استنادا لرغبة الشعب الأمريكى، ورغبته الشخصية ، ورغبة الحلفاء ـ على الصهيونيين أن يثقوا فى أن فلسطين ستكون وطنا قوميا للاسرائيليين) .

موقف العرب ..

لعل الموقف العربى يبدأ برفض المصريين الوجود

الاسرائيلى فى سيناء . او بالثورة العربية بقيادة الشريف حسين ، من اجل تكوين دولة عربية كبرى ، تضم فلسطين وغيرها من بلدان المشرق العربى ... لكن صورة الرفض الفلسطينى . النابع من التراب الفلسطينى ضد الجريمه الصهيونية العالمية ، تبدو اثناء الاحتفال بعيد النبى موسى (عيد الفصح) سنة ١٩٢٠ ، فقد هب الشعب العربى فى فلسطين - محتجا على هذه الجريمة - من اليوم الرابع الى الثامن من ابريل ، وكان قتال ونهب وسلب ، ولما استطاعت القوات العسكرية أن تعيد النظام كان قد قتل من اليهود خمسة وجرح ما يزيد على مائتين ، بينما قتل من العرب أربعة وجرح واحد وعشرين .

وكانت لليهود (فرقة للدفاع عن النفس) شكلها الارهابى جابوتنسكى ، كما كانت هناك بعثة تمثل المنظمة الصهيونية فى فلسطين ولها حرية ارسال برقياتها وأنبائها ووسائلها عن طريق أسلاك البرق والتليفون العسكرية ، على حين حرم العرب من كل وسائل الاعلام الداخلية والخارجية ، فلما شكلت الجهود العربية (جمعية اسلامية مسيحية) لتكون ندا للبعثة الصهيونية طلب المسيو أوسيشكين - رئيس البعثة الروسى الأصل - من الحاكم الادارى العام أن يرفض اعطاء الجمعية الاسلامية المسيحية وغيرها من الجمعيات العربية حق الاجتماع وحق التعبير .

فلما صار السير لويس بولز - الذى كان رئيس هيئة أركان حرب الجنرال اللنبى - حاكما اداريا ، وقف - الى حد ما - فى وجه هذا النزق اليهودى ، وصرح بأن (٩٠ ٪ من أهالى فلسطين - على وجه التقريب - معادون للصهيونية عداء مستحكما ، وأن هذه المعارضة تنتظم كافة

المسلمين والمسيحيين . وقسما لا يستهان به من اليهود ، .. وبين (ان الدافع الى معارضتهم دينى فى جزء منه . وفى جزء اخر الخوف من انه قد يتحتم على سكان البلاد القدامى ان يتحلوا بالضروره عن مواطنهم للصهاينه الدين تدعمهم مؤسسات ماليه ضخمه) .. وبهذا يلتقى السير بولز بما جاء فى تقرير لجنة (كنج كرين) .

فلما عين المستر ونستون تشرشل سكرتيرا لشئون المستعمرات سنة ١٩٢١ جدف العرب فى بحر من الآمال، وهرعت الوفود العربية من فلسطين الى القاهرة للقائه ، وعرض قضيتهم ، فتحدث اليهم فى تبرم وضيق ، قائلا : (انكم تطلبون منى أن ألغى تصريح بلفور ، وأن أوقف الهجرة ، وهذا شيء ليس من سلطتى ، وهذه ليست رغبتى .. وفضلا عن ذلك فان الحق البين هو أن يكون لليهود المبعثرين مركز قوى ، ووطن قومى يجمع شملهم ، وأين يكون هذا الوطن ان لم يكن فى فلسطين ، التى اقترن بها اليهود ثلاثة آلاف عام اقترانا وثيقا عميقا، منذ ذلك التاريخ حتى الآن ؟ ونحن نعتقد أن هذا شيء طيب بالنسبة للعالم ، وبالنسبة لليهود ، وبالنسبة للأمبراطورية البريطانية ، وهو كذلك طيب بالنسبة للعرب الذين يسكنون فى فلسطين ، ونحن نريد أن يكون كذلك ، وهم لن يطردوا من بلادهم ، ولن يقع بهم ضيم ، سيكون لهم نصيب فى فوائد الصهيونية وتقدمها) .

هذا هو ونستون تشرشل الذى صار على قمة الحكومة البريطانية ابان الحرب العالمية الثانية ، وكسب الحرب للانجليز واليهود معا .

ومع هذا التأييد الصارخ — من الأنجليز وغيرهم من الدول المسكة بمقاليد العالم — فان اليهود ابوا الا أن يحصلوا على اعتراف بالوطن القومى من امير عربى ، وان كان من فوق رءوس العرب جميعا ، نكاية وادلالا وسخرية ، باسم الحرص على الشرعية .

وكانت اغراءات الأمير عبد الله ، ولوح له بتاج فلسطينى وشرق الاردن ، واستوقفت المفاوضات مع والده الشريف حسين ، ولكن الشيخ ابى الاستخذاء امام كل الاغراءات ، فارسل اليه اللورد كرزون طالبا فى خشونة أن يقبل تصريح بلفور ، فرد عليه بلهجة مهذبة مقترحا اقامة حكومة دستورية فى القدس ، وكانت مقايضة قبوله الوضع الراهن فى سوريا بضمان بريطانى لحدوده ، فقال قولته المعروفة : (ان شرفى فى مهب الريح) ، وأصر على موقفه .. فأرغم على التنازل عن العرش ، وارتحل الى قبرص حيث توفى عام ١٩٢٨ م .

وفى نفس الوقت الذى جرت فيه المفاوضات مع الشريف) (الملك) حسين ، اتخذ من الدوق ديفونشاير وسيلة لعرض (وكالة عربية) على العرب فى فلسطين فى مقابل الوكالة اليهودية ، ونسوا أن هذا أشبه بعرض (وكالة بريطانية) فى بريطانيا ، كما يقول جفريز .. وبالطبع رفض العرب هذا العرض ، وقد سجل هذه المهزلة السنوية فرايرى داندرادى (البرتغالى) عضو لجنة الانتداب التابعة لعصبة الأمم ، بقوله : (ان المندوب السامى كان يعرض أن يشكل وكالة يهودية ووكالة عربية ، لهما حقوق متساوية ، وفى رأيى أن العرب سيجدون من العسير عليهم قبول منظمة كهذه ، لأن دور

الوكالة اليهودية محدد فى المادة الرابعة من صك الانتداب، التى فى اعتبارها أن تساعد هذه الوكالة فى ادارة ذلك البلد ، وان كان ذلك الى مدى معين فقط ، طبقا لنصوص الانتداب ، الا أن العرب ، الذين هم فى بلادهم التى هى ملكهم ، لابد أن يشعروا أن من حقهم أن يمارسوا نفوذا في الشئون الادارية اكثر من ذلك النفوذ الذى يمارسه القادمون الجدد ، ولست أستطيع أن أقول انهم مخطئون فى هذا) .

وتتابعت المحاولات لامتصاص مشاعر السخط العربية .

فى سنة ١٩٣٠ قر الرأى فى لندن على ارسال لجنة تقصي الحقائق برئاسة السير وولتر شو ، وحددوا لها مهمة تقصى الأسباب المباشرة التى أدت الى ثورة القدس — فى أغسطس سنة ١٩٢٩ — التى نشأت عن مناوشة طعن فيها صبى يهودى ، وسرعان ما سرت الثورة الى مختلف المدن فى الأقاليم وقتل فيها ١٣٣ يهوديا و ٨٧ عربيا ، قتل عدد منهم برصاص القوات المسلحة وهى تحاول السيطرة على الموقف .

وأقامت اللجنة ثلاثة أشهر استمعت فيها الى ١٣٠ شاهدا ، وعادت لتقدم تقريرها فى مارس سنة ١٩٣٠ ، وقد جاء فى هذا التقرير :

١ — أن عددا كبيرا جدا من المهاجرين الصهاينة ، لا تحتمله البلاد ، حتى على الأسس والمقاييس التى رسمتها الحكومة لدخولهم .

٢ — أن هؤلاء المهاجرين يزيحون العرب ، ويحلون محلهم ، وأن (الفترة التى تكون فيها الهجرة كثيفة

تعقبها بطالة شديدة ، وارتباك اقتصادى شديد) .

٣ ـ أن مقاومة العرب للهجرة اليهودية. مقاومة (لها اساس متين ، من حيث كونها تنبع من النتائج المعروفة للهجرة المفرطة التى تدفقت على البلاد من قبل ، وأن ذلك الشعور سيكون بلا شـــــك عاملا لابد وان يساهم فى انتفــاضة ، اذا ما أضيفت اليه أسباب أخرى لقيـــام اضطرابات مباشرة أكثر منه) .

وترتب على هذا التقرير أن أصدرت الحكومة (كتابا أبيض) سنة ١٩٣٠ يقرر أن الحــكومة ستتحكم ـ عن طريق ادارة فلسطين ـ فى الهجــرة الصهيونية ، وفى شراء الأراضى ، وستمنع أى زيادة فى أى منهمـــا قد تجعل البلاد فى حال من الارتباك الاقتصادى .

ومع أن ما فى (الــكتاب الأبيض) يمــكن تزييفه (تطبيقا) ، فقد قوبل من قبل اليهود بصراخ بركانى ، ولم يكد يمر يومان على صـــــدوره حتى أبرق الجنرال سمطس الى رئيس الوزراء معربا عن (كدره الشديد) لهذا (التراجع عن التصريح البلفورى) ، وحث على وجوب اعادة توكيد هذا التصريح ، وعلى وجوب اعادة تشكيل سياسة الحكومة فى فلسطين من جديد .

واستقال الدكتـــــور وايزمان من رئاسة المنظمـــة الصهيونية ، وفى الولايات المتحــــدة اســتقال المستر واربورج من رئاسة مماثلة ، واستقال اللورد ملشيت من المنظمة ومن الوكالة اليهودية ، وتبعهم عدد كبير ممن يشغلون وظائف رئيسية ، وقامت المظاهرات وانهالت الاحتجاجات من أماكن مختلفة .

وانتهى الأمر باستسلام مزر ، من الحكومة البريطانية للضغط الصهيونى ، فى شكل رسالة (أو كتاب اسود) من رئيس الوزراء الى الدكتـــور وايزمان ، بتـــاريخ ١٣/٢/١٩٣١ م ، وقد كان كتابا مطولا تبلغ كلماته حوالى ٢٧٠٠ كلمة ، تعال وتشرح وتعتذر ، وتترجم عن موقف شاذ لحكومة مستر مكدونالد ، ورفاقه .. فقد اثبت (الكتاب الأسود) — فى نظر العرب — قوة النفوذ الذى يستطيع يهود العالم أن يفرضوه على الامبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس ، وبذلك فقدوا الثقة التى كانت تخايل بعض ساستهم ، فما كان أحد يتصور أن الكلمات يمكن أن تلتوى ، فتصبح (السلطة التى تفكر فى الحكومة فى قرنها بهذا الاشراف — على الهجرة والامتلاك — سلطة تنظيمية لا تحريمية) اذ (من الخطأ القول بأن حكومة صاحب الجلالة تنوى ألا تسمح بالمزيد من هجرة اليهود ، طالما كانت هذه الهجرة لا تحول دون حصول العربى على عمل) .

وتزايدت الهجرة سنة ١٩٣٢ بصورة خطيرة ، وأخذ العرب يحتجون بعنف ، دون جدوى .

وفى مارس سنة ١٩٣٣ نشرت (اللجنـــة التنفيذية العربية) بيانا وطنيا أعلنت فيه أن الحكومة هى العــدو الحقيقى الذى يجب على العرب الخلاص منه (بــكل وسيلة قانونية) !!

وفى أغسطس ســـنة ١٩٣٢ طالب المؤتمر الصهيونى المنعقد فى براغ بوجوب أن يبنى الوطن القومى بأسرع وقت ممكن ، وعلى أوسع نطـــاق .. فطالبت (الهيئة العربية العليـــــا) — المشكلة سنة ١٩٣٦ من مختلف

الأحزاب برئاسة الحاج أمين الحسينى مفتى القدس ـ بايقاف الهجرة الصهيونية برمتها ، وبتحريم انتقال اية أراض عربية بعد ذلك الى الصهاينة ، وباقامة حكومة وطنية تكون مسئولة أمام مجلس نيابى ينتخب عن طريق الاقتراع العام الديمقراطى .

وجرت عدة اغتيالات ومهاجمات من الجانبين ادت الى (عصيان مدنى) عام ، وتوقفت حياة البلاد ، واشتدت أعمال العنف ، وألحق الدمار بالممتلكات الصهيونية ، وبالتدريج تحولت الاضطرابات الى حرب صغيرة ، شنت فيها الهجمات على السكك الحديدية ومراكز الشرطة ، وانتشرت أعمال القنص ، وتشكلت العصابات فى التلال ، وامتنع الناس عن دفع الضرائب .

وأخذت العصابات العربية تكتسب مظاهر القوات العسكرية المنظمة تحت قيادة فوزى القاوقجى الضابط السابق فى الجيش التركى ، ثم فى الجيش العراقى .

وسقط عدد من المسئولين البريطانيين فى فلسطين برصاص القناصة .. فعززت القوات البريطانية،واتخذت اجراءات تعسفية خطيرة لضرب القضية الوطنية كلها .

وكان أن أرسلت (لجنة بيل) ــ لورد بيل نائب الملك السابق فى الهند ــ فأخذت تحقق وتستوجب ، وقدمت تقريرها فى يوليه سنة ١٩٣٧ مقترحة تقسيم فلسطين الى ثلاثة أقسام : القسم الساحلى مع ما يليه من سهول خصبة لليهود ، والقسم الداخلى الذى يكون مع شرق الأردن كتلة واحدة للعرب ، وبينهما دولة الانتداب ، تشمل القدس وبيت لحم والناصرة ، وتشرف على

القسمين الآخرين بمقتضى معاهدتين تبرمهما مع كل على حدة .

ولم يجد العرب بدا من رفض قرار التقسيم واستئناف الجهاد ، فردت الحكومة البريطانية بعنف .. خربت القرى ، وسجنت الأحرار ، وأقامت المحاكم العسكرية فى كل ناحية ، ثم حلت الهيئة العربية العليا ، واعتقلت أعضاءها ، واستطاع (المفتى) أن يفر الى بيروت فالعراق .. هذا بينما تنعم (الوكالة اليهودية) فى أحضان حكومة الانتداب بالأمان ، تنظم شئونها ، وتدبر خططها للمستقبل فى طمأنينة ورضاء .

وتألفت لجنة أخرى برئاسة (وود هد) قدمت مقترحات أخرى للتقسيم فى نوفمبر سنة ١٩٣٨ ، فقررت انجلترا أنها كلها مشروعات غير قابلة للتنفيذ ، ما دامت لا تحظى بقبول الرأى العام العربى الذى أخذ يعلن استنكاره ــ بكل قوة ــ لسياسة بريطانيا الجائرة، وصارت قضية فلسطين قضية الشعوب العربية جميعا .

واضطرت بريطانيا الى عقد (مؤتمر المائدة المستديرة) فى لندن أوائل عام ١٩٣٩ م يحضره ممثلو الدول العربية ، وتظاهرت بأن غرضها التوفيق بين العرب واليهود ، فدعت ممثلى اليهود أيضا ، تبحث الأمر مع كل فريق على حدة ، فهاجم العرب الانتداب واقتراح التقسيم .. وأوضحت بريطانيا رأيها فى (كتاب أبيض) نشر فى نفس العام ، يطالب بادخال ٧٥ ألف يهودى فى الأعوام الخمسة التالية ، على ألا يدخل البلاد أى يهودى آخر بعد ذلك الا بموافقة العرب .. وشنت الصهيونية حملة واسعة على ما جاء فى هذا (الكتاب الأبيض) ، وحمل

ونستون تشرشل لواء المعـــارضة ضد رئيس الوزراء (نيفيل تشمبرلين) .

ثم انفجرت الحرب العالمية الثانية .

المانيا والعنف الصهيوني :

اخذ المد العدواني ضد اليهود طريقه فى ألمانيا عقب تولى النازية الحكم سنة ١٩٣٣ ، فاتجه الشباب الى اشعال نار العداء ضد كل من ليس جرمانيا آريا ، وأصـــــدر هتلر قرارا بمقاطعة اليهــود (أول ابريل سنة ١٩٣٣) باعتبارهم لصوصا وجواسيس على ألمانيا ، وفى السابع من ابريل - من نفس العام - أصدر قرارا بفصل كل من ليس آريا من عمله ، وفى ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣٥ صدر القانون الذى يقضى بضرورة الاحتفاظ بنقاء الدم الآرى ، وأصبح اليهود مواطنين من الدرجة الثانية .. فهاجر الكثيرون الى أمريكا وفلسطين . وفى مارس سنة ١٩٤١ م صدر قرار بالقضاء البيولوجى على اليهود ، وأنتقل اليهود الى غرف الغاز بمئات الألوف - أو الملايين كما يقولون - فى داخاوا ويلزن وتزلنكا وبوخنفالد وأوشفتس وغيرها من معسكرات الاعتقال .. وان كان ما جاء فى كتاب (جاحاش) - أى التصلب الانسانى - بقلم المحامى وعضو البرلمان شموئيل تمير ، وما ورد فى محاكمة الدكتور كاستنر - يفيد أن رؤســـاء الوكالة اليهودية كان لهم التأثير المباشر فى ابادة يهود هنغاريا ، البالغ عددهم ٨٥٠ الفا ، من أجل التوجه الى العـالم بعد ذلك ، للمطالبة بثمن تلك المجزرة ، وكان الثمن فى ذلك الحين اقامة دولة صهيونية .

وجاء فى كتاب (ايخمان فى أورشليم) أنه تمت عمليات تبادل (حفنة من الصهاينة نظير الموافقة على ابادة مئات الألوف من اليهود العاديين) !!

ولقد انعكس هذا العنف الألمانى الصهيونى على الوجود اليهودى فى فلسطين ، فتألفت الجمعيات الارهابية ، وظهرت عصابات (الهاجاناه) - أى الدفاع - و (أرجون زفاى لومى) - أى الهيئة الوطنية الحربية - و (اشتيرن) نسبة الى زعيمها ، الذى كان أحد أفراد العصابة التى اغتالت اللورد موين بالقاهرة سنة ١٩٤٥م.

وكما جاء فى (الكتاب الأبيض) سنة ١٩٣٩ ، أخذت انجلترا بمبدأ تقييد الهجرة ، دون أرادة الصهاينة ، فنشطت العصابات الصهيونية قتلا وتدميرا لترغم الحكومة الانجليزية على تغيير سياستها ، مما ساعد على ازدياد الاضطراب ، واختلال الأمن ، وبخاصة أن نوعيات مختلفة من المهاجرين المدربين على حمل السلاح ظلوا يتسللون الى البلاد بوسائل متعددة .

تعاظم دور أمريكا :

فى سبتمبر ١٩٤٤ أعلنت وزارة الحرب البريطانية عن تكوين فرقة يهودية تقاتل الى جانب الحلفاء ، وأصبح للفرقة علمها الذى تحمله فى الاستعراضات العسكرية .

ولما كان هذا قد تم والحرب مؤذنة بالانتهاء ، وتبين رجحان كفة الحلفاء ، فقد أصبح الأمر مقصورا على اعداد جيش قوى يكون عونا على قيام دولة اسرائيل .

فاذا أخذنا فى الاعتبار أن النفوذ الصهيونى فى الكونجرس الأمريكى حصل على توقيع ثلث أعضاء الكونجرس ، الى جانب توقيعات ١٥٠٠ شخصية أمريكية على بيان يطالب بانشاء جيش يهودى – عرفنا كيف أن وايزمان استطاع الحصول على اعلان وزارة الحرب البريطانية ، من جل تكوين نواة الجيش الاسرائيلى .

ومن قبل (فى أكتوبر سنة ١٩٤٣) نجح الصهاينة فى جعل الكونجرس يصدر قرارا رسميا بتأييد مطالب الصهيونية فى اقامة دولة يهودية ، مما حدا بالصهاينة الى محاولة تجاوز الوجود البريطانى ، ومخالفة القوانين التى سنتها حكومة الانتداب الانجليزى ، وتسربت الأسلحة البريطانية والأمريكية الى أيدى الهاجانا وأرجون زفاى واشتيرن ، وتحولت الى صدور وظهور العرب والانجليز معا .

وما كادت الحرب تنتهى سنة ١٩٤٥ حتى سقطت حكومة المحافظين ، وتولت حكومة العمال متنصلة من أى التزام يقيد حركتها لصالح الصهاينة .

وفى الوقت ذاته خلف (ترومان) روزفلت فى رئاسة الولايات المتحدة ، بعد ما خرجت من الحرب أقوى دولة فى العالم ، ولم يكن للولايات المتحدة الحنكة والدراية السياسية ، فاندفع (ترومان) فى السياسة الدولية ، بحركه الاحساس بقوة بلاده ، وبخاصة أن الحلفاء كانوا يعانون من آثار الحرب التى خرج منها المهزوم والمنتصر على حد سواء .

ويجب ألا ننسى دور المليونير اليهودى (برنارد باروخ) الذى كان مستشارا للبيت الأبيض بشكل دائم ، خاصة

فى عهدى ترومان وايزنهاور .

فلما طلب ترومان من الحكومة البريطانية الترخيص بهجرة ١٠٠,٠٠٠ يهودى الى فلسطين لم يجد الانجليز بدا من اصدار قرار بفتح باب الهجرة بنسب معينة ، وان قيل ان هذا اجراء مؤقت .

وتشكلت لجنة انجليزية أمريكية برئاسة (هتشسون) القاضى الأمريكى للنظر فى مسائل الهجرة والاقامة وغير ذلك من الشئون الفلسطينية . وجاء تقرير اللجنة سنة ١٩٤٦ مؤيدا لطلب (ترومان) أن تلغى بريطانيا قوانين تحديد الهجرة والملكية ، لكنه أوصى بألا تصبح فلسطين دولة يهودية أو عربية ، بل تكون حكومة فلسطين خاضعة للضمانات الدولية التى ترعى احترام مصالح المسلمين والمسيحيين واليهود فى الأراضى المقدسة . وذلك كخطوة مرحلية .

وتحت تأثير أمريكا والدول الاستعمارية ، وبين المؤامرات والمناورات . واغراءات الصهاينة للمندوبين ، اجتمعت الجمعية العمومية للأمم المتحدة واصدرت فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ قرارا يقضى بتقسيم فلسطين الى دولتين : عربية ويهودية ، ووضعت الخرائط الموضحة لحدود هذا التقسيم .

وجاء فى مذكرات ترومان : (الحقيقة هى أن الضغط الذى وقع على الأمم المتحدة فى ذلك الوقت لم يكن له مثيل قط ، وأن البيت الأبيض تعرض لضغط لا أظن البيت الأبيض تعرض لمثله فى أى وقت .. ان اصرار والحاح الزعماء الصهيونيين الذى تحركه دوافع سياسية مصحوبة بالتهديدات قد ضايقنى وأزعجنى حقا ، بل ان

بعضهم كان يطلب منا أن نضغط على دول ذات سيادة للحصول على الأصوات المطلوبة فى الجمعية العامة) .

وذرا للرماد في العيون نجت من هذه الضغوط ثلاث عشرة دولة عربية واسلامية بالاضافة الى الهند واليونان وكوبا .

وفى ١٨ مارس ١٩٤٨ قابل وايزمان ترومان .. وانفتح الباب لقرار أمريكى جديد ، هو الاعتراف باسرائيل يوم ١٤ مايو من نفس العام ، بعد احدى عشرة دقيقة فقط من قيام الدولة ، ولم يسبق أمريكا الى الاعتراف سوى الاتحاد السوفييتى !!

والعرب .. ماذا يملك العرب ؟!

ما كان للعرب الا أن يرفضوا القرار ، وأن تثور عواصف السخط والاحتجاج ...

وما جدوى الرفض والسخط . والمقدرات العربية ليست فى أيد عربية ؟!

لقد أصبحت أمريكا صاحبة القرار ، حتى ترضى اليهود ، فتحرز أصواتهم ، وتنتفع بنفوذهم ، وحتى يكون لها فى قلب الشرق العربى قاعدة استعمارية تحرك بها الريح حيث تشاء .

وظلت انجلترا تجرى لاهثة خلف أمريكا ، لتؤكد دورها الطليعى فى خدمة الصهيونية ، وكما يقول وايزمان فى مذكراته : (لقد احتضنت بريطانيا حركة الصهيونية منذ نشأتها ، وأخذت على عاتقها تحقيق أهدافها ، ووافقت على تسليم فلسطين خالية من سكانها العرب لليهود فى سنة ١٩٣٤ ، ولولا الثورات المتعاقبة التى قام بها عرب

فلسطين لتم انجاز هذا الاتفاق فى الموعد المذكور) .

ويقول بن جوريون : (ان حزب العمال كان قد سبق له أن اتخذ خلال الحرب قرارات تدعو الى قيام دولة يهودية ، قرارات فيها ما هو أكثر مما طالبت به الوكالة اليهودية نفسها فى أى وقت ، وخصوصا قرار يقضى باقتلاع كل العرب فى الدولة اليهودية ، ونقلهم الى البلاد العربية المجاورة) .

وأعلنت انجلترا ان الانتــداب سينتهى فى أغسطس سنة ١٩٤٨ ، ثم قدمت الميعاد فجأة ليكون فى ١٥ مايو من نفس العام .. بعد أن هيأت لليهود سبيل الاستيلاء على المناطق الاستراتيجية ، وبعد أن دربت للاسرائيليين جيشا زودته بأحدث الأسلحة واضطربت الحركة العربية بين حرب شعبية وأخرى نظامية .

واستهلت اسرائيل تزأر :

فى سنة ١٩٤٨ حركت اسرائيل وأمريكا الجيوش العربية تحت قيادة (جلوب) ــ رئيس الأركان للملك عبد الله القائد العام للجيوش العــربية ــ فتمكنت اسرائيل من الاستيلاء على أرض فلسطين ، ما عدا الضفة الغربية للأردن وقطاع غزة .

ومما يؤسف له أن الزعماء العرب شجعوا الفلسطينيين على الهجرة ، على أمل أن يلحقوا باليهود هزيمة سريعة .. فكان عدم تحقيق النصر عاملا على خلق مشكلة اللاجئين..

وكانت نهاية المطاف عقد الهدنة فى (رودس) ــ مارس

سنة ١٩٤٩ فانتهت الحرب ، وشرد اكثر من ثمانمائة الف عربى ، بعد مذابح رهيبة فى دير ياسين وغيرها من القرى العربية .

يقول توينبى : لقد شاركت ثلاثة عوامل فى وقوع كارثة فسطين : أولها صعود الطائفة اليهودية فى الولايات المتحدة الى درجة من القوة الاقتصادية والسياسية فى حلبة السياسة الأمريكية الداخلية ، يسعى كل من الحزبين المتنافسين الى الاستعانة بها ، ويتجنب اغضابها ، او تنفيرها ... وثانى هذه العوامل الحاسمة القتل الجماعى لليهود فى أوروبا ، فيما بين سنوات ١٩٤٥/١٩٣٣ على أيدى الألمان المسيحيين .. وثالثها اندلاع الحرب الباردة بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الأمريكية .

ويمكن اضافة عامل آخر أهم ، وهو المهارة الفائقة فى استغلال العوامل السابقة لحساب المخطط الصهيونى .. لدرجة أن الدول الكبرى صارت تتنافس فى خطب ود اسرائيل بالمساعدات المالية والعسكرية ، وتشجيعها على المذابح الاجرامية لتكسب كلّ يوم أرضا جديدة .

هذا الى الاخفاق العربى بسبب من القصور الذاتى ، وعدم القدرة على اللعب بأوراق كثيرة كانت فى حوزتهم ، فضلا عن الوقوع فى براثن السياسة الدولية ، والمتاجرة الحزبية ، والمناورة الفردية .

ومع ذلك يقول بن جوريون : (ان اسرائيل ليس لها فى العالم غير حليف واحد وفى ، هو الشعب اليهودى ، ان اسرائيل هى الدولة الوحيدة فى العالم التى لا أقارب لها ، سواء من ناحية الدين أو اللغة أو الأصل .. انها

شعب يعيش فى هذا العالم بمفرده) .

عبارة هى مزيج من لفة (التوراة) الاستعلائية ، ومن حياة (الجيتو) الانعزالية ، ومن وقفة (حائط المبكى) العدوانية ...

عبارة يترجمها القتل والتخريب والتدمير فى الأرض العربية .

فى أول اكتوبر سنة ١٩٥٣ قامت وحدة من الجيش الاسرائيلى بمهاجمة قرية قبية الأردنية دون انذار ، ونسفت حوالى ٣٠ منزلا على رءوس ساكنيها ، وقد ذهب ضحية تلك الغارة أكثر من ٥٠ رجلا وامرأة وطفلا .

وفى ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٥ شنت غارة على قطاع غزة ، اعقبتها غارة أخرى فى ٣١ أغسطس من نفس العام على خان يونس وما حولها .. وأعملت القتل والتخريب والنهب والسلب .

وعشية الهجوم على مصر سنة ١٩٥٦ قامت قوات الأمن الاسرائيلى على كفر قاسم بغارة وحشية قتلت فيها ٤٩ من الفلاحين العرب بينما كانوا عائدين من حقولهم ، بتهمة خرق نظام منع التجول الذى فرضته السلطات الاسرائيلية صباح ذلك اليوم ، والفلاحون فى حقولهم لا يعلمون

وفى سنة ١٩٥٦ تحركت كل القوى التى تعمل اسرائيل من خلفها .. فشنت انجلترا وفرنسا عدوانا على مصر لتحطيم قواها العسكرية والاقتصادية والسياسية ، التى أخذت تنمو .. وجمدت أمريكا

ارصدة مصر لديها ، وشنت عليهـــا حربا اقتصادية سنة ١٩٥٧ ، ومنعت تزويدها بالقمح ، حتى يطحنها الجوع فتستسلم .

وفى سـنة ١٩٦٢ أمـكن الايقاع بمصر ، لاستنزاف قواها ، فى معركة اليمن ، مما شجع اسرائيل على القيام بحرب خاطفة غادرة سنة ١٩٦٧ ، لتقضى على كل أمل للعرب فى استعادة الأرض ، ولتمد اسرائيل أجنحتها فى غزة وسـيناء والضفة الغـربية للأردن ومرتفعات الجولان .

وفى ١٥ يونيه سنة ١٩٦٩ صرحت جـولدا مائير ـ رئيسة وزراء اسرائيل آنذاك ـ حين سئلت عن مصير الفلسطينيين ، بقولها : (الفلسطينيون ؟ أين هم ؟ ليس شيء كهذا) !!

ومن المثير حقا أن ما قالته مائير سنة ١٩٦٩ انما هو ترديد عبارة تتكرر بصورة أو بأخرى ، عن سياسة مرسومة منذ بداية التفكير فى انشاء دولة يهودية .

لم يشر هزتزل فى كتابه (الدولة اليهودية) ـ الصادر سنة ١٨٩٦ م ـ اية اشارة الى العرب ، واكد فى حديث له أن المشروع الصهيونى واضح للغاية ، وسهل التحقيق، اذ هو (اعطاء أرض بلا شعب لشعب بلا أرض) .

وحين سأل اينشتين وايزمان : (وماذا سـيحدث للعرب اذا أعطيت فلسطين لليهود ؟) أجاب وايزمان : (اى عرب ؟ انهم قليلو الشأن ؟) .

وفى هذا الوقت كان اليهود ٢٥ الفا بين نصف مليون فلسطينى !!

وفى سنة ١٩٤٨ رد بن جوريون على الكونت برنادوت

وسيط الأمم المتحدة – حين طلب منه أن يترك العرب يعودون الى ديارهم – بقوله : (سنفعل كل شيء حتى لا يعودوا أبدا) !!

***

ومن الجدير بالذكر هذا الحوار الذى دار بين المستشرق اليهودى (ليوبولد فايس) – الذى أسلم وتسمى باسم (محمد أسد) – وبين حاييم وايزمان ...

التقيا فى بيت صديق يهودى أيضا بفلسطين سنة ١٩٢٢ ، قبل أن يسلم محمد أسد بأربع سنوات .

قال فايس : كيف تأملون أن تجعلوا من فلسطين وطنا لكم فى وجه مقاومة عنيفة من العرب الذين هم على أى حال أكثرية أهل البلاد ؟

فهز الزعيم الصهيونى كتفيه ، وأجاب بجفاء : اننا نتوقع ألا يكونوا أكثرية فى سنين قلائل .

قال فايس : بغض النظر عن الصعوبات السياسية التى قد تنجم عن مقاومة العرب ، ألا تجد فى نفسك اهتماما بالناحية الانسانية والخلقية فى هذه القضية ؟ ألا ترى فى طرد أناس من بلادهم – التى لم يزالوا يسكنونها منذ القدم – فعلا خاطئا من جانبكم ؟

فأجاب وايزمان : ولكنها بلادنا نحن ، واننا لا نعدو بذلك استرداد ما كان أخذ منا بغير وجه حق .

قال فايس : غير انكم ما زلتم بعيدين عن فلسطين طوال ألفين من السنين تقريبا ، وقبل ذلك كانت مدة حكمكم البلاد أقل من خمسمائة سنة ، ولم يشملها كلها الا فى فترة وجيزة منها ، أفلا ترى أن العرب يحق لهم

بهذا المنطق المطالبة باسبانيا ، اذ حكموها سبعمائة سنة تقريبا ، ولم تدل دولتهم فيها نهائيا ، الا منذ خمسمائة سنة فقط ؟

هنا بدا الدكتور وايزمان كأنما ضاق ذرعا بى ، وقال : محال ، انما غزا العرب اسبانيا ، ولم تكن موطنا لهم من قبل ، ولقـــد كان وجه الحق أن يخرجهم الأسبان منها .

فدفعت زعمه قائلا : عفوك يا دكتور ، يبدو لى هنا خطأ تاريخى ، ان العبرانيين على أى حال قدموا فلسطين غزاة أيضا ، ولقد توطن فيهـــا لعصور خلت كثير من القبـــائل الســـامية ، ومنهم الأموريون والأدوميون والفلسطينيون والموابيون والحيثيون ، وقد ظلت هـــذه القبائل مقيمة فى فلســـطين ، حتى فى أيام مملكتى اسرائيل ويهوذا ، ولم يزالوا كذلك الى ما بعد طرد الرومان أسلافنا من هذه الديار ، وهم أولاء يعمرونها حتى يومنا هذا .. ان العرب الذين أقاموا فى سوريا وفلسطين بعد الفتح الاسلامى فى القرن السابع الميلادى انما كانوا أقلية ضئيلة فى السكان ، أما البقية الذين يطلق عليهم اسم (العرب السوريون ، أو الفلسطينيون) انما هم فى الحقيقة المستعربون من ســـكان البلاد الأصليين .. (الأصليين) بمعنى أنهم توطنوا البـلاد حتى من قبل العبرانيين ؟

ولم يملك وايزمان ـ بعد هذا ـ الا أن يبتسم ، وأدار بلباقة دفة الحديث الى موضوعات أخرى ...

أكثر من سؤال :

لماذا تآمر العالمان الغربى والشرقى لمصلحة اليهود ، على حساب الحق العربى ؟

ألم تطرد بريطانيا اليهود ، وتمنع دخولهم أرضها مدة ثلاثة قرون ؟

ألم يطردهم القديس لويس التاسع عشر من فرنسا ، ويحرق تلمودهم ؟

ألم تطردهم أسبانيا والبرتغال ، وتحرما دخولهم البلاد ؟

ألم يصدر الملك فرديناند والملكة ايزابيل مرسوما يقول : (نحن نأمر جميع اليهود واليهوديات - على اختلاف أعمارهم - أن يغادروها قبل نهاية شهر يوليه من هذه السنة - ١٤٩٢ م - هذه البلاد ، بلا رجعة ، وأن يصحبوا معهم آباءهم وبناتهم وخدامهم وخادماتهم ، وأقاربهم ، كبيرهم وصغيرهم) ... ودام هذا الطرد خمسة قرون ؟

ألم يقل بنيامين فرنكلين رئيس الولايات المتحدة الأمريكية :

(فى أى أرض يحل اليهود يصبح المستوى الخلقى والمعنوى منحطا ، والمعاملات التجارية تجرى بصورة غير شريفة) .

« واذا لم يطرد اليهود من الولايات المتحدة الأمريكية بموجب نصوص الدستور ، فانهم سيفدون على بلادنا

خلال المائة عام القـــادمة بأعداد كبيرة (١) تؤدى الى ان يحكموا البلاد ، ويغيروا شكل حكومتنا ، وهى ما بذلنا ــ نحن الأمريكيين ــ فى سبيلها دماءنا وأرواحنا وممتلكاتنا وحرياتنا الشخصية .

« واذا لم يطرد اليهود من بلادنا خلال مائتى عام فان أبناءنا سوف يعملون فى الحقول لاطعام اليهود ، بينما يقيم اليهود فى قصورهم يفركون أيديهم فرحا وسرورا) ؟

فلماذا تغير الموقف ؟

هل هى وسيلة القضـــاء على السرطان اليهودى فى جسم شعوب أوروبا وأمريكا ؟

هل هى مطامع الاستعمار فى الأرض العربية ، التى أخذت تتكشف عن كنوز كثيرة مخبوءة ؟

وما ضمانة أن يكون الوجود اليهودى فى صالح الوجود الاستعمارى ؟

أهو تصريح دزرائيلى سنة ١٨٩٩ يخاطب بريطانيا : (ان ساعدتمونا على اقامة دولة بفلسطين ، حفظنا لكم الجزء الشرقى من قناة السويس) .. واتخذ من هذا التصريح وأمثاله قاعدة معاهدات سرية ؟

يقول رئيس جمعية (بناى برث) الصهيونى فى المؤتمر

---

(١) فى سنة ١٨٢٠ كان فى أمريكا كلها عشرة آلاف يهودى ، وفى سنة ١٨٨٠ كان عدد اليهود ربع مليون ، والان فى أمريكا ستة ملايين ، نصفهم فى نيويورك وحدها ، وفى نيويورك صحف عبرية ، ومجلات بلغه اليويش ، الخليط من العبرية والآرامية والالمانية ، وصارت شـــيكاغو الميدان الثانى للنشاط اليهودى الصهيونى ، فى مجال المال والاعلام ، وصار اليهود قوة ضاغطة على السياسة الامريكية ــ أنظر قول ترومان فى هذه الدراسة .

الصهيونى الأول الذى عقد فى بازل سنة ١٨٩٧ م :
(علينا أن ننشر روح الثورة بين العمال ، وهم الذين سندفع بهم الى خطوط دفاع العدو ، موقنين بأنه لا نهاية لرغباتهم ، ونحن بأمس الحاجة الى تذمرهم ، لأنه السبيل الى تخريب المدنية المسيحية ، والوصول سريعا الى نشر الفوضى فيها ، ولسوف يحين الوقت الذى يطلب فيه المسيحيون أنفسهم الى اليهود أن يتسلموا (السلطة) .

فاذا ادى هذا الاتجاه الى سيطرة الصهيونية على روءس الاموال ، كما سيطرت على منابع الفكر الغربى ووسائل نشره ، وفى ذلك يعلن ويلارد اسنوبى — أحد اساتذة جامعة ييل — (ان الصهيونية قد بطشت بالفكر الحر ، حتى أصبح المثقفون وذوو الراى فى الغرب عاجزين عن المجاهرة بما يرون ، اذا كان فيه ما يعارض الصهيونية او ما يغضبها ، خشية فقد الرزق او فقد الحياة) .

فاذا كان هذا أمر الصهيونية فى بلاد الغرب الذى احتضنها ، واذا كانت الصهيونية قد تسللت الى الأحزاب السياسية والى الجمعيات الدينية المسيحية فى أنحاء العالم الغربى حتى أصبح مجلس الكنائس العالمى معبرا عن الأهداف الصهيونية ، اذ يقول هذا المجلس فى مؤتمره الثالث المنعقد فى نيودلهى سنة ١٩٦٦ م : (لابد من تهيئة التعليم الدينى المسيحى ، وتقريبه لأذهان المسيحيين على نحو يبرىء اليهود من تبعات الأحداث التاريخية التى أدت الى صلب المسيح) .

واذا عرفنا أن الكنيسة الأمريكية قوة اقتصادية ضخمة ، وأن اقتصاد الفاتيكان يقدر بمليارات الدولارات ،

موزعة على عدد كبير من بلدان العـــــالم .. وهـذه الاستثمارات تخضع لمخططات صهيونية ، وتتداخل مع الاستثمارات اليهودية .

واذا عرفنا أن جملة وسائل الاعلام الغـــــربي تخضع لرأس المال الصهيوني .

واذا ادركنـــا هذا كله لم ندهش أن تتنافس أمريكا وروسيا على سرعة الاعتراف بالدولة اليهــودية سنة ١٩٤٨ م .. وان كلتا الدولتين الكبريين تعهدان بحدود آمنة للدولة المحتلة ارض البلاد المجـاورة لفلسطين .. وكيف لعب زعماء أمريكا وروسيا بسـادة العرب سنة ١٩٦٧ حتى أخذتهم اسرائيل وهم يحلمون بوعود السلام .. وكيف تدخلت الدولتان لوقف الحرب سنة ١٩٧٣ ، بل لمحـاربة الجيش المصري ، حين فشلت التقـديرات العالمية لخطورة القوة العربية .

وبماذا نفسر تصريحات زعماء أوروبا وأمريكا والاتحاد السوفييتي من أجل حماية الـكيان الصهيوني ، وجرأة هؤلاء الزعماء لا تكاد تتعدى الموافقـة على الجلوس في مؤتمر جنيف من أجل سلام يضمن الوجود الصهيوني في الأرض العربية ، حتى تهدأ المشاعر العربية الى حين ، ثم تشب الأطمـــاع الصهيونية وثبة أخرى لتحقيق حلم « من الفرات الى النيل » .

ان الصورة قد تبدو وكأن زعماء الشرق والغرب قد وقعوا في شرك المطامع الصهيونية ، وتبادل الطـــرفان أحلام استغلال الطــرف الآخر ، وترجمت الخطـوات الصهيونية الى أموال وأسلحة أوروبية وأمريكية ودعم بشري من الاتحاد السوفييتي في سبيل اعلان موشي ديان

سنة ١٩٦٧ : (لقد استولينا على أورشليم ، ونحن فى طريقنا الى يثرب ، والى بابل) .. ثم !!

ان علينا أن ندرك ان المطامع الصهيونية مطامع عالمية ، ومن خلف هذه العالمية تتشابك الاحلام الصهيونية بالاحلام الشرقية والغربية .

الصهاينة ـ كما صرح اسحق رابين فى سبتمبر سنة ١٩٦٧ م ـ (يبحثون مثل الصليبيين عن تبرير دينى ، وهم يرفضون مثلهم الاندماج فى السكان المحليين ، ويعتمدون فقط على التفوق العسكرى .

والصهاينة مثل الصليبيين يعتمدون على التدفق المستمر لرؤوس الاموال القادمة من الغرب فى صورة تبرعات وأسلحة ورسوم حج ..

لكن الصليبيين انتهوا بفشل ذريع ، فبعد حروب استغرقت ثمانية اجيال ، واستمرت منذ الاستيلاء على القدس عام ١٠٩٩ م حتى رحيل آخر صليبى من عكا عام ١٢٩١ م ـ طرد الصليبيون الى البحر) .

وكان عليه ـ وهو القائد الاسرائيلى ـ أن يتعظ بخاتمة الصليبيين .. لكن الصهيونى الكبير يقول هذا القول فى معرض الفخر عقب هزيمة سنة ١٩٦٧ ، مدعيا ان ما حدث للصليبيين لن يتكرر لليهود لأن اليهود استفادوا من الدرس الصليبى ، فاقتحموا الأرض ، وارتبطوا بها ، ونزعوا سكانها عنها ، وانهم فى الطريق الى تحقيق ما لم يكن للصليبيين فى حساب !!

ومع أن معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣ طامنت من غلوائهم الى حد ما .

ومع ان مبادرة السلام واتفاقية كامب ديفيد حققتا قدرا من النجاح فى الوصول الى الهدف ..

فان على العرب الذين ما زالوا يعيشون أوهامهم الرهيبة — دون أن يعوا كيف تتحرك التيارات السياسية عالمية وعربية ، ودون معرفة السبيل الى أن نثبت أقدامنا فى موقع يمكننا أن نأخذ طريقنا الى الهدف التحررى المستقبلى — على العرب أن يدركوا الخطر المحدق بهم ، وهم فى موقع الخذلان والضعف والتمزق ، قبل أن تنهش خطانا الذئاب المتربصة بنا فى أماكن ومؤسسات كثيرة فى أنحاء العالم ، ودون أن تلعق خطانا كلاب أخرى ضالة ، تجد لها مكانا فى وسائل اعلامية متعددة .

وعلينا أن نعرف عدونا من (الداخل) ، حتى نكيف سياستنا على أساس من التقدير الصحيح .

***

يقول عالم النفس الاسرائيلى جورج تامارين : ان الصراع داخل المجتمع الأسرائيلى يكشف عن نفسه ، فى التناقض الجذرى بين أنصار الاتجاهات التى تميل الى صياغة اسرائيل ، باعتبارها (جيتو) ، بالمعنى المادى والروحى للكلمة ، وهؤلاء الذين يجاهدون لاقامة مجتمع حر مفتوح .. هذا التعارض الجوهرى بالاضافة الى الخلاف بين أنصار التكامل مع الحضارة الانسانية المعاصرة ، أو الانعزال والبعد عنها .. وان جعل اسرائيل قلعة عسكرية حصينة بالنسبة الى جيرانها العرب — قد أدى الى عزل اسرائيل حضاريا ، وتحويلها الى (جيتو) كبير ، تسوده اتجاهات حضارية انعزالية ورجعية ، تنمو فيه الأفكار العنصرية ، وكانت النتيجة قطع أواصر

الاتصال بين الشباب الاسرائيلى والعالم ، مما ساعد على سيادة مشاعر مرضية ازاء أى نقد يوجه الى الممارسة السياسية والاجتماعية فى اسرائيل .

وقد أجرى هذا العالم الاسرائيلى دراسة ميدانية بين شباب المدارس الثانوية ، جاء فيها أن فتاة من مستعمرة (معوتشد) كتبت : (لقد تصرف يشوع بن نون تصرفا حسنا ، بقتله جميع الناس فى أريحا ، ذلك لأنه كان من الضرورى احتلال البلاد كلها ، ولم يكن لديه وقت لاضاعته مع الأسرى) !!

وكتب تلميذ فى الصف الثامن : (فى رايى يجب على جيشنا فى القرية العربية أن يتصرف مثل يشوع بن نون ، لأن العرب هم أعداؤنا ، ولذلك ـ حتى فى الأسر ـ ستجدهم يفتشون عن وسيلة ليبطشوا بحراسهم) !!

مشاعر مرضية تنزف حقـــدا وسخطا وعنصرية ، ولا سبيل أمامها الا الدم ، والمزيد من الدم !!

ومع ذلك فقد ظهرت أخيرا فى المجتمع الاسرائيلى جماعة تدعو من أجل السلام .

يقـــرر عالم النفس اليهـــودى (روبنشتين) : أن الاسرائيليين كأفراد يتسمون باتجـاهات شـــك عميق الجذور تجاه الآخرين ، وهو يقرر أن تقسيم العالم بين اليهود وغير اليهود مكون أساسى من مكونات الهـوية اليهودية ، وأن صورة غير اليهودى تحتل وضعا مركزيا فى ذهن اليهودى ، وما زال وضع الحدود بين اليهود وعالم غير اليهود له تأثير قوى غلاب فى اسرائيل .

بل أصبح الشك فى الوجود الاسرائيلى سمة مميزة .

جاء فى كتاب (الاسرائيليون الجدد .. تقرير عن الجيل الأول الذى ولد فى اسرائيل) تأليف داود شينبرن وآخرين - أن أحد شبان المستعمرات قال لعدد من السياح الأمريكان : طبعا أنتم سعداء بأن تكونوا فى هذه الأرض المقدسة .. لا أعرف لماذا تسمونها مقدسة ؟ ما هو المقدس فى الذى ترونه الآن ؟ صحراء وذباب .. وعرق وحشرات وزواحف .. وشباب نحيف حزين .. وأنتم سوف تعودون الى بلادكم الغنية الرخية ، وتشربون أطيب الخمور أمام التليفزيون الملون ، ثم يقول أحدكم للآخر : كنا فى اسرائيل ، ورأينا هؤلاء الشبان الأبطال على الأرض المقدسة .. وتتنهدون .. ولكن ما الذى قلتموه ؟ ما الذى بقى من هذه الأرض وأبناء هذه الأرض فى نفوسكم ؟ انها أرض ، ولكن ليست مقدسة الى هذه الدرجة ، ان جيل جولدا مائير هو الذى ثار على أوضاع اليهود فى العالم ، وآبائى هم الذين اكملوا هذه الثورة ، أما نحن فنريد أن تكون لنا حياة عادية .. اننا نتعلم كراهية العرب ، واحتقارهم ، ولكننا لا نستطيع ان نعيش حياة عادية كالعرب ، اننا نحسدهم على حياتهم الهادئة .. ان كل ما أريده أن أكون انسانا عاديا ، ولا أريد أن أكون حيوانا شرسا خائفا طوال الليل والنهار ... ومطلوب منى - باسم الوطنية والدين - أن أحب زوجتى وأبنتى ووطنى ، فمن أين آتى بهذا الحب ، اذا كان كل ما ينفجر فى داخلى هو آبار المرارة والكراهية والثأر ؟

يقول المؤلف : انه التقى بمئات الشبان يكررون نفس هذه المعانى بعبارات مختلفة ، انهم ساخطون على زعمائهم ، كارهون لحياتهم ، يتمنون لو ولدوا على أرض أخرى ، أو عادوا ليصبحوا مثل كل الناس العاديين فى بلاد

أخرى ، لا يحملون السـلاح ، ولا يحملون تحت السلاح شظايا شائكة من الخوف والكراهية .

تقول (يائيل ديان) فى قصتها (طوبى للخائفين) ، فى رسالة من (جيدون) الى (نيمرود) : (لقد كنت فاسدا وقويا فى البداية ، وهأنذا أنتهى فاسدا وضعيفا ... ان المرء يحتاج الى شجاعة لكى يخاف .. ولم تكن لدى هذه الشجاعة ، ولا أنت ، فانك مهدد بمصيرى .. سوف تجن وتدمر كل ما حولك ، وتدمر نفسك قبل كل شيء .. نصيحتى لك أن تترك أولادك يلعبون كالأطفال ، لا تدعهم يشبون على هذا الطراز الجديد الذى يزعمون، لا تصنع منهم صخورا ، اننى أترك الأرض لألحق بمن هم أحسن منى ، مثل لاميش) الاسكافى العجوز الانسان ... هذا ..

ولو أننا وضعنا (خطة كونيغ) فى الاعتبار ، لـكان لنا أن نأخذ بزمام المبادرة من داخل اسرائيل ذاتها ، كما تحاول السياسة المصرية الجديدة .

خطة كونيغ :

فى السابع من اغسطس سنة ١٩٧٦ م قدم اسرائيل كونيغ ــ مفتش وزارة الداخلية للمقاطعة الشمالية ــ لرئيس الوزراء والسلطات المختصة (خطة) ، على شكل وثيقة سرية تحمل هذا العنوان ، بشأن وضع العرب فى اسرائيل ، وما يجب اتباعه فى معاملتهم .

وقد جاء فيها (ان احدى الظواهر الأكثر بعثا للقلق تتمثل فى غياب التسامح الذى يبديه اليهودى المتوسط

تجاه المواطن العربى ، وفى بعض الأحيـان ، يمكن أن يصل الأمر الى حد الحقد الحقيقى الذى يمكن لأية اثارة ــ مهما كانت تافهة ــ أن تحوله فى أى وقت الى انفجار غير مراقب من جانب الطرفين ، مع كل ما يترتب على ذلك من آثار سيئة داخل البلاد وخارجها) .

ونتيجة الاستفزاز الملح ، والعدوان المستمر (كف العربى فى اسرائيل عن أن يكون مستسلما ، وانتقل الى مرحلة قومية ، عبرت عن نفسها بشـــكل شفهى فى مناسبات ، مثل :

أ ــ زيارة رئيس الوزراء للناصرة منذ سنة تقريبا .

ــ تبنى الشـعارات التى تعبر عن تمسكهم بمنظمة التحرير الفلسطينية أثناء مظـاهرات طلابية ، وفى مناسبات أخرى .

ــ الموقف الذى اتخذه الطلبة العرب فى الجامعات ، فيما يتعلق بدورات الحراسة .

ــ المظـاهرات القـومية أثناء انتخـابات البلدية فى الناصرة .

ــ التعبئة الاستثنائية وغير الاستثنائية لسكان الناصرة، لرفع ما عليهم من ضرائب محلية متأخرة لمساعدة (راكاح) فى تسيير المدينة .

ــ التجمع الجمـاهيرى الاحتجاجى الذى نظم فى ١٩٧٥/٢/١٤ بقرية (سخنين) ، والذى صرح خـلاله رئيس المجلس المحلى لمدينة تامرا : أن على اسرائيل أن تخشى العرب فى اسرائيل أكثر مما تخشى العرب فى الخارج .

– القرارات المتبناة أثناء التجمع الجماهيرى فى الناصرة ، يوم السبت ١٩٧٥/٣/٦ م .

– اعلان اضراب عام ينفذه كل السكان العرب فى اسرائيل لمدة يوم كامل يطلق عليه اسم (يوم الأرض) .

ب – توجيه نداء الى السكان العرب يطالبهم بعدم الاكتفاء بالاحتجاج السلمى ، بل الاحتجاج بالكفاح ، وعدم التخلى عن هذا الكفاح الا بعد تحقيق النصر .

جـ – اضراب جوع أمام مقر الأمم المتحدة ، كما يفعل بعضهم بخصوص يهود الاتحاد السوفييتى .

د – تصريح يقول : ان الحكومة فى بيت من الزجاج ، وسنكون نحن أول من يقذف الحجارة لكسره .

هـ – تصريح (سعد قاسم) رئيس المجلس المحلى لـ (ملولة) والذى يعتبر عنصرا ايجابيا ، وقد أنتخب نائبا عن لائحة تنتمى الى (المعارك) حيث يقول : (الى أى حق تستند الحكومة لمصادرة أراض لم تكن تشكل جزءا من الأراضى الاسرائيلية ، حسب مخطط التقسيم الذى أقرته الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ م) ؟

ومن أجل هذا ، يرى (كونيغ) من الناحية الديمغرافية :

أ – توسيع وتكثيف الاستيطان اليهودى فى كل المناطق ، حيث يقيم العرب ، بصفة دائمة ، ودراسة كل امكانيات بعثرة التجمعات العربية الموجودة من قبل ، ويجب توجيه اهتمام خاص الى المناطق المحاذية للحدود

الشمالية الغربية ، ولمنطقة الناصرة ، والى جانب ذلك يجب الحرص على تطبيق حازم للقوانين التى يمكنها أن تمنع انشاء مستوطنات عربية فى مختلف أنحاء البلاد .

ب ــ ينبغى اقامة زعامة يهودية فى عكا والناصرة العليا ، تكون قادرة على مواجهة التطورات المقلقة التى يمكن أن نتوقعها .

ج ــ اعتماد سياسة الجزاء والعقاب تجاه المسئولين، وتجاه المناطق العربية آلتى تظهر بشكل أو بآخر عداءها للدولة أو للصهيونية .

د ــ لكى نسحب من يدى (راكاح) احتكار الكفاح الوطنى ، وتمثيل العرب فى اسرائيل ، ولمنح وسيلة تعبير للمترددين ، يجب خلق حزب يكون مماثلا لحزب العمل ، يشدد على معانى المساواة والانسانية والثقافة واللغة والسلام فى الشرق الأوسط .. وعلى المؤسسات الاسرائيلية أن تتهيأ لممارسة حضور خفى ورقابة داخل هذا الحزب .

هـ ــ يجب اقامة تنسيق دائم ومطلق بين مختلف الوزارات والهستادروت والسلطات المحلية ، خاصة على صعيد العمليات الميدانية ، وتطبيق القرارات المتخذة بطريقة لا رجوع عنها ...

و ــ بذل كل الجهود الممكنة لدفع كل الأحزاب الصهيونية على ايجاد اجماع وطنى بخصوص العرب فى اسرائيل ، لتفادى الصراعات السياسية الداخلية فى هذا المجال .

كما يرى من الناحية التربوية :

أ ـ يجب تشجيع توجيه الطلاب العرب نحو الدراسات التقنية والرياضيات والعلوم الطبيعية ، فان هذا النوع من الدراسات يقلل من الوقت الحر المتروك لهم ، والذى يمكنهم توظيفه لصـــالح الالتزام بالقضية القومية ، وسيؤدى أيضـــا الى تخلى عدد كبير عن دراساتهم قبل نهايتها (١) .

ب ـ يجب تشجيع الطلبة الذين يذهبون لمتـــابعة دراستهم فى الخارج ، وزيادة المصاعب أمام عودتهم ، وأمام حصولهم على عمل فى اسرائيل ، ان بمقـــدور هذه السياسة حثهم على الهجرة .

جـ ـ اتخاذ اجراءات صارمة بأشكال مختلفة ضد كلّ المشاغبين الذين ينشطون فى الجامعات .

ويرى من الناحية الأمنية :

(يجب تكثيف تواجد قوات الشرطة والأمن من جميع الأنواع فى القطاع العربى ، من أجل ارهاب المتطرفين والمترددين الذين قد ينســـاقون الى أعمـــال التمرد والمظاهرات) .

هل ترانا نقرأ ما بين هذه السطور ، ونعيـــد رسم مخططاتنا ؟

---

(١) لعله يقصد عن طريق وضع العقبات أمامهم ، أو الاقتصـــار على الدراسة المهنية ..

النشاط العقائدى

١ ـ العهد القديم ..

٢ ـ التــلمود ..

٣ ـ العقائد اليهودية ..

٤ ـ الفرق اليهودية ..

٥ ـ الأعياد اليهودية ..

العهد القديم

سمى بالعهد القديم تمييزا له عن العهد الجديد (الانجيل) ويتألف (الكتاب المقدس) من العهدين .

والعهد القديم عبارة عن مجموعة أسفار رجال المجمع الأكبر الذى تأسس عقب العودة من السبى البابلى ، وكان مؤلفا من مائة وعشرين عضوا ينظرون فى شئون الشعب .. ومن أشهر رجاله عزرا ونحميا وزروبابل ودانيال وحجاى وزكريا وملاخى ومردخاى .

ويضم العهد القديم ثلاث مجموعات من الأسفار :

١ ـ **التوراة** : (بمعنى البشرى أو التشريع) : وتطلق على الأسفار الخمسة الأولى : تكوين ، خروج ، لاويين ، عدد ، تثنية .. وهى تحتوى على تاريخ الاسرائيليين حتى سنة ٢٤٠ ق . م .

تكوين : يتحدث عن اقامة اسرائيل فى مصر نحو مائتى سنة ، وميلاد موسى ، وتجلى الله له ، ودعوته الى خروج بنى اسرائيل من مصر ، الى سيناء ، وعناية الرب بالشعب فى سيناء ، ونزول الوصايا العشر ، وقصة عبادة العجل .

لاويين : يهتم بالتشريع وبخاصة القرابين والطقوس التى تهم الكهنة أبناء لاوى ، كما يحدث عن النجاسة

والطهارة وأيام العطلة والأعياد .

عـدد : احصاءات عن الشعب المختـار ، وانساب القبائل الاسرائيلية ، وتصوير ما حدث في سيناء حتى دخول أرض الميعاد .

تثنية : تكرار وتتمة لشريعة موسى ، اذ يحوى كلماته الأخيرة ، وخبر وفاته ، ووصيته أن يخلفه يشوع ، كما أنه يتضمن توزيع الأراضى على الأسباط .

٢ ـ الأنبيـاء :

ويتحدث عن الأنبياء الأول ، والأنبياء المتأخرين .

والقسم الأول يحتـوى على ثمانية أسـفار ، تبحث الستة الاولى فى تاريخ اسرائيل بعد وفاة موسى الى خراب الهيكل وخراب اورشليم (١٤٥١/٥٩٩ ق . م) والاثنان الآخران يتناولان تاريخ اسرائيل حتى العودة من السبى الى أورشليم ، وبناء الهيكل للمرة الثانية .

فهذا القسم يضم سفر يشوع الـذى مكن لاسرائيل فى أرض كنعان ، وسفر القضاة الذين تولوا الأمر بعد يشوع ، ثم سفرى صموئيل ، ويتناولان أيام صموئيل آخر القضاة وعهد شاؤول وداود من الملوك ، ثم سفرى الملوك ، ويتناولان تاريخ الملوك حتى السبى البابلى ، ثم سفرى أخبار الأيام ، وفيهما وثائق وسلالات وروايات منذ بدء الخليقة حتى عهد قورش .

والقسم الثانى من (الأنبياء) يضم اربعة عشر سفرا : أشـعيا ، وارميـا ، وحزقيـال ، ويوئيل ، وعاموس، وعويديا ، ويونان ، وميخـا ، وناحوم ، وحبقوق ،

وصفنيا ، وحجاى ، وزكريا ، وملاخى .. وكلها أخبار محدودة ، تدور حول جهود هؤلاء الأنبياء ، من اجل تقوية عزيمة بنى اسرائيل ، وبيان سبب غضب الرب عليهم .

٣ ـ الكتابات والأشعار :

وتضم الاناشيد والحكم والأمثال والمزامير والقصص وصورا من تاريخ اليهود وفلسفتهم .. وهى اثنــا عشر سفرا : مزامير داود ، وأمثال سليمان ، وأيوب ، ونشيد الانشاد ، وراعوث ، وهوشع ، ومراثى أرميا، والجامعة، واستير ، ودانيال ، وعزرا ، ونحميا .

ومع أن كتاب (العهد القديم) أصبح فى المرتبة الثانية بعد التامود فى حيـــــاة اليهود ، فانه بالنسبة لبعض الطوائف اليهودية ولجميع المسيحيين ، يعــد الــكتاب الأول قداسة وتشريعا .

وهو ذخيرة انسانية حية على أى التقديرات ، اذ يضم رصيدا هائلا من المعانى الانسانية والقيم الحضارية .

وقد يضم الى العهد القديم ما يسمى بالأبوكريفا (أى الأسفار غير الشرعية) ، وهى أربعة عشر سفرا موجودة فى اللاتينية ، نقلا عن الترجمة السبعينية ، وأشهرها سفر يهوديت ، وطوبيا ، ويشوع بن سيراخ ، وباروخ ، وسفرا المـــــكابيين ، وحانوخ ، واليوبيل ، وحــكمة سليمان .

تدوين العهد القديم :

من يطالع (العهد القديم) يلتقى بمثل هذه العبارة : (كان جميع المغنين والمغنيات يندبون يوشيا فى مراثيهم

الى اليوم ، وجعلوها فريضة على اسرائيل ، وها هي مكتوبة في المراثي ، وبقية أمور يوشيا ومراحمه ، حسبما هو مكتوب في ناموس الرب ، وأموره الأولى والأخيرة ها هي مكتوبة في سفر ملوك اسرائيل ويهوذا) (أخبار الأيام الثاني ٣٥) .

مما يشير الى أن الكتاب ينقل عن كتب أخرى ، مثل ما جاء في أخبار الأيام الأول :

(مكتوبة في سفر أخبار صموئيل الرائي ، وأخبار ناثان النبي ، وأخبار جاد الرائي) (اخبار الأيام الأول ٢٩) .

وغير هذه اشارات كثيرة الى النقل عن كتب أخرى .

فمتى تمت الكتابة أو النقل ؟ وبأي لغة كانت الكتابة أو النقل ؟ ومن الكاتب أو الناقل ؟

يكاد العلماء يجمعون على أن الكتابة بدأت في القرن السادس قبل الميلاد بعد السبي البابلي (٥٨٧ ق . م) ، وطال زمن الكتابة والجمع تحت مؤثرات مختلفة الى القرن الثاني أو الأول قبل الميلاد ، بل هناك من يرى أنه استمر بعد ذلك بكثير ، ولهذا يرون (أن تفهم الديانة العبرية مستحيل ، ما لم تؤخذ بعين الاعتبار ، وبشكل مستمر ، الديانات والثقافات الأخرى التي نمت وترعرعت في وادي الفرات .. ان الأصول القضائية البابلية ، وكذلك الطقوس المعمول بها في المعابد البابلية يجب أن تؤخذ كعوامل حاسمة التأثير على الشرائع العبرانية في الأصول القضائية والطقوس الدينية) .

ويلاحظ أنه ــ بعد أربعمائة وثمانين عاما لخروج بني

اسرائيل من ارض مصر ـ لم يكن يوجد فى بيت الرب الذى بناه سليمان الا لوحا الشهادة اللذان كتبهما الرب باصبعه لموسى (الملوك الأول ٨ و ٩) ومع هذا يدعى مدع ان موسى أعد اعدادا خاصا حوالى سنة ١٥٠٠ ق . م . ليبدا كتابة الأسفار المقدسة التى فيها يسجل تاريخ ٢٥٠٠ سنة خلت من قبله (١) .

ثم ان الكتابة ـ فيما يتصل بالألواح ـ يرجح انها كانت بالمصريه القديمة التى كان يعرفها موسى بحكم نشأته ، فالآرامية فاللاتينية فالعربية ، اذ انه (بعد السبى البابلى واندماج اليهود مع البابليين قل استعمال اللغة العبرية(٢) تدريجيا بين الشعب كلغة قومية ، وان ظلت لغة مقدسة ، وأوشكت على الزوال حتى ان اليهود حوالى القرن الثانى ق . م احتاجوا الى تراجم لقراءة الصلوات وتادية الطقوس فى السبوت والأعياد ، وحلت محلها اللغة الآرامية ، فظهرت تراجم للعهد القديم فى لغات مختلفة أهمها الآرامية ، ثم فى اليونانية الترجمة السبعينية التى قام بترجمتها فى الاسكندرية سبعون عالما فى سبعين يوما ثم الى اليونانية الحديثة ، الى اللاتينية والسريانية ، ثم العربية على يد سعديا الفيومى حوالى عام ٩٤٢ م وهلم جرا) (٣) .

فالنقل تم بلغات مختلفة ، ولكل لغة عاداتها ومصطلحاتها ، ولكل زمن لغته وموحياتها ، ولكل كاتب قدراته ومكوناته النفسية ـ مما أدى الى أننا نعثر فى أماكن كثيرة من التوراة على آثار حذف ملموس ، أو

---

(١) القس صموئيل مشرقى ـ مصادر الكتاب المقدس ـ ص ١٢

(٢) يلاحظ ان العبرية هى الكنعانية المكتسبة فى أرض كنعان مع قدر من المصرية المهاجرة .

(٣) اليهودية واليهودية المسيحية ـ ص ١٠٢ .

تكرار ممل ، أو تناقض واضح .. وثمة (عقائد وشرائع مختلفة تعكس الأفكار والنظم المتعددة التى كانت سائدة فى مختلف أدوار تاريخهم الطويل) (١) .

ولقد (أستهلك ما دون من كثرة الاستعمال ، أو طوحت به السنون فى زوايا النسيان ، وبعضها قد أفسد عمدا ، أو أهلك عرضا ، وبعضها ضاع واختفى فى فترات الاضطهاد .. هذا كله بالاضافة الى ما تطلبه وضع العهد القديم من زمن قد امتد الى نحو ألف عام ، كما أن جمعه قد استغرق قرونا عديدة (٢) .

والكهنة كانوا يعتمدون فى التدوين والجمع على ما سمعوه ، وما تلقاه الخلف عن السلف من اخبار وأساطير ، وكثيرا ما كان الكهنة يكتبون ما يجيش بصدورهم أو ما يأملونه ، على انه حقيقة واقعة أو تاريخ سابق ، وليس ذلك فى الحقيقة الا تصديقا للخيال ، والا من الوهم الذى يتخذ فى نفس الواهم صورة الحقائق المقررة ، ومن ذلك ما جاء فى (سفر صموئيل الثانى ٨) من أن داود (ذهب ليرد سلطته عند نهر الفرات) .

وانا لنجد أخيرا من العلماء اليهود أنفسهم من يشكك فى كل ما جاء بالعهد القديم ، حتى الوصايا العشر .

نشر العالم الفرنسى ريتشارد سيمون سنة ١٦٧٨ كتابا عن (التاريخ النقدى للعهد القديم) نفى فيه نفيا قاطعا نسبة أسفار الشريعة الى موسى عليه السلام ، مؤكدا أنها مجموعة من مدونات مختلفة الأصول ، عفكت أجيال متعاقبة من الأحبار على اعادة تسجيلها باجتهاد وهوى

---

(١) اليهودية واليهود ـ ص ١٣
(٢) مصادر الكتاب المقدس ـ ص ٦ ، ٧

ـ تحويرا وحذفا واضافة ـ حتى يتوفر عليها آخر الأمر عزرا ومريدوه ـ خلال القرن الرابع قبل الميلاد ـ فتستقر على الوجه الذى تطالعنا به اليوم (١) .

ويقول باهليل سلفر العالم اليهودى فى كتابه (موسى والتوراة الأصلية) : « حتى الوصايا العشر التىيكاديجمع العلماء على أنها الشيء الوحيد المتبقى من التوراة الأصلية ـ لم تكن بكاملها وعلى هيئتها الحالية كالتى أتى بها موسى) .

وهناك من يرى شبها كبيرا بينها وبين المعاهدات والوثائق فى عهد ملوك الحيثيين .

وهناك من يرى أن نبوءة حزقيال تتجاهل تجاهلا تاما الأسفار الستة الأولى من التوراة ، مما يحمل على الاعتقاد بأن هذه الأسفار الستة لم تكن موجودة فى زمن حزقيال .. ومما يلفت النظر بشكل خاص أن حزقيال لم يأت البتة على ذكر موسى ، الرجل الأكبر لدى اليهود قاطبة ، مع ماله من مكانة عظيمة لدى اليهود ، وقد قام حزقيال عوضا عن ذلك على وضع الشريعة منفردا .

ونبوءة حزقيال بقيت وحدها صافية غير محرفة من بين باقى كتب العهد القديم ، وليس هناك من شك فى أن الكثير من الكتب المقدسة اليهودية ، الأخرى كانت موجودة ، لكنها اندثرت ، ككتاب (حروب الرب) و (شريعة الكهنة) و (السجلات الملكية) و (سجلات السلالات) .

وكما ذكرت (الموسوعة اليهودية) فقد أعيد وضع

---

(١) حسين ذوالفقار صبرى ـ العربى ـ نوفمبر سنة ١٩٧٩ ص ١٤٦ .

كل تاريخ اليهود من وجهة نظر فريسية بعد حزقيال .
كما أعيد وضع جميع الكتب المقدسة السابقة المخالفة للنصوص الجديدة .

بل هناك من الباحثين والعلماء من يرى أن كتاب (حزقيال) وضع أولا ومن ثم ركبت من حوله الكتب الأخرى ، وعلى رأس هؤلاء الباحثين اليهود أنفسهم .

ومع هذا .. فنحن لا نملك ـ حين الحديث عن العقائد اليهودية ـ الا الرجوع الى ما جاء فى العهد القديم الذى بين أيدينا ، وفى التوراة بصفة خاصة .. هذه التوراة التى يقول فيها الدكتور صبرى جرجس : انها لا تكاد تزيد عن كونها مجموعة من الخرافات والقصص التى صيغت فى جو أسطورى حافل بالاثارة ، مجافٍ للعقل والمنطق ، غاص بالمتناقضات ، مشبع بالسخف ، مفعم بمشاعر العدوان والتعطش الى الدماء (١) ...

---

(١) التراث اليهودى الصهيونى ـ ص ٥١ .

التلمود

يعد التلمود المصدر الثانى للتشريع اليهودى .

وحين يقرأ المرء فى هذا الكتاب ، وينظر فى خفايا المعتقدات اليهودية ، ويتعرف على اليهود جيدا - يقف على حقيقة مذهلة ، وهى - كما يقول الدكتور جوزيف باركاى - (بعض أقوال التلمود مغال ، وبعضها كريه ، وبعضها الآخر كفر ، ولكنها تشكل فى صورتها المخلوطة أثرا غير عادى للجهد الانسانى ، وللعقل الانسانى ، وللحماقة الانسانية) .. ومع هذا فانه لا ايمان لليهودى بدون معرفة أحكام التلمود ، على أساس أن هذا الكتاب يحتوى على أهم التعاليم التى يحترمها اليهود .

والتلمود - ومعناه التعليم يتكون من :

المشناه : وهى الروايات التى تناقلها الحاخامات من جيل الى جيل ويدعون أنها تعاليم شفوية للنبى موسى .

وقد جمعها (يوضاص) أحد حاخامات اليهود بعد المسيح بمائة وخمسين عاما .

ولفظ (المشناه) يعنى الشريعة المكررة ، فهى تكرار

لشريعة موسى ، كما يفيد معنى (المتن) أى الاصل ، ويفيد معنى المعرفة .

ومن هـذا يتبين أن لموسى شريعتين : مكتوبة وهى التوراة ، ومروية وهى المشناه .

ولقـد أدخل حاخامات بابل وفلسطين الكثير من الزيادات على ما كتبه (يوضاص) ، ضمها أحد حاخاماتهم المدعو (يهوذا هاناسى) فيما بين ١٩٠ و ٢٠٠ م ، أى بعد قرن تقريبا من تدمير تيطس الرومانى للهيكل .

وقد كتب الفيلسوف اليهودى موسى بن ميمون تعريفا بالمشنا يقول : (منذ أيام معلمنا موسى حتى حاخامنا المقدس « يهوذا هاناسى » لم يتفق أحد من علماء اليهود على أى عقيدة من العقائد التى كانت تدرس علانية باسم القـانون الشفهى ، بل كان رئيس محكمة كل جيل أو نبيه ، وهكذا ألف كل فرد من العلماء كتابا مماثلا ليستفاد منه ، حسب درجة كفاءته ، اذا كان متمكنا من القوانين الشفهية ، وما توصل اليه السابقون من تفسير التوراة والقرارات التى أعلنت فى مختلف الأجيـال ، وقررتها المحكمة العليا « السنهدرين » .. وهكذا تقدم الزمن ، حتى أتى حاخامنا المقـدس الـذى جمع لأول مرة كل ما يتعلق بالسنة والقرارات ، وشرح القانون المروى عن موسى معلمنا المأمور به فى كل جيل) .

وهناك سفر آخر مماثل للمشناه ، هو بريثا Braitha الذى يضم تعاليم العلمـاء الثنائيم الذين جاءوا بعد الحاخام يهوذا هاناسى واضع المشناه .

الجمارا : وقـد استعصى فهم المشناه على كثـير من

قرائها اليهود ، مما أدى بالحاخامات الى تدوين شروح وحواش وزيادات ، دعيت جميعها بالجمارا .

وقد أخذ فى تدوينه لأول مرة ابنا الحاخام يهوذا هاناسى ، وأكمله الحاخام أبينو ، ووضعه فى صورته الختامية الحاخام جوسى Jose سنة ٤٩٨ م تقريبا ، وكان الحاخام جوسى آخر من سمى لدى اليهود بالملقن أو الآمر Dictator والذين اتبعوه من العلماء أطلق عليهم لقب أصحاب الرأى Opinionists حيث لم يعد من اختصاصهم الأمر بشىء . وانما كانوا يستطيعون الاستنباط من الأحكام السابقة .

***

وصارت المشنا والجمارا ما يعرف اليوم بالتلمود ...

وتعزو الموسوعة اليهودية أهمية التلمود الى ان انحطاط الحياة الفكرية لدى اليهود — وهو الانحطاط الذى بدأ فى القرن السادس عشر — جعل أكثريتهم الساحقة تنظر اليه وكأنه السلطة العليا ، حتى أنهم أنزلوا التوراة الى مرتبة ثانية ...

وفى عبارة التلمود ما يؤكد هذه المأساة : (أن من درس التوراة فعل فضيلة لا يستحق المكافأة عليها ، ومن درس « المشنا » فعل فضيلة استحق أن يكافأ عليها ، ومن درس « الجمارا » فعل أعظم فضيلة) .

ويبدو التلمود وكأنه تطبيق لأحكام التوراة ، رغم الفروق الكثيرة بينهما ، وهو سجل حافل يبين لنا — من خلال مناقشاته وشروحه وأمثلته الكثيرة ورواياته — كيف كان اليهود يحاولون تطبيق الوصايا والفرائض التوراتية فى حياتهم اليومية .

ولهذا أصبح التلمود موضع التقديس .. وصار (من احتقر أقوال الحاخامات استحق الموت ، دون من أحتقر أقوال التوراة ، ولا خلاص لمن ترك تعـــاليم التلمود ، واشتغل بالتوراة فقط ، لأن أقوال علماء التلمود أفضل مما جاء فى توراة موسى) .

ولم يكتف اليهود بهذا العبث ، بل انتهوا الى (أن الله يستشير الحاخامات على الأرض ، عندما توجـد مسألة معضلة لا يمكن حلها فى السماء) !!

ولقد جاء فى التلمود : (أن تعاليم الحاخامات لا يمكن نقضها ولا تغييرها ، ولو بأمر الله .. وقد وقع الاختلاف بين الرب وعلماء اليهود فى مسألة ، فبعد أن طال الجدال تقرر احالة فصـل الخـــلاف الى أحد الحـاخامات الربانيين ، واضطر الرب أن يعترف بخطئه) .

وزعموا (أن الله لا شغل له فى الليل غير تعلم التلمود مع الملائكة ، ومع ملك الشياطين فى مدرسة السماء) .

لهذا كان عقاب من خالف تعـاليم التلمود بالحرمان الذى نصه :

« بناء على حكم الهنا ، اله الآلهة ، يحرم فلان بن فلان من المحكمتين، محكمة أول درجة ، والمحكمة العليا ، ومن القديسين والملائكة ، ومن الجمعيات الـكبيرة والصغيرة، ويصاب بالقروح والأمراض الخبيثة كلها ، ويكون منزله مسكنا للجن ، ويكون نجمه مظلمـــا فى السماء ، ومن المغضوب عليهم ، ويطرح جســـده للوحوش المفترسة والثعابين ، ويفرح أعداؤه ومن يريد له الشر ، وتعطى أمواله من الذهب والفضة لغيره ، وتسقط تلك الأموال تحت سلطة العدو ، ويلعن أولاده حياته ، ويكون ملعونا

من قم عبـد بريرون وعشتار بال وصندلفون وعزرائيل وغسيل وباشتيل ، ويسقط ولا يقوم ، ويلفظ عن قبور بنى اسرائيل ، وتعطى امرأته لغيره ، ويميل اليها آخرون بعد موته ، ويسقط هذا الحرمان على فلان بن فلان ، ويكون من نصيبه ، أما أنا وبنو اسرائيل فتكون لنا بركة الله وسلامه ، آمين .

ومن هذا العبث يوجد تلمودان :

الأولى يسمى التلمود البابلى ، وهو ما جمع وشرح فى بابل .. وقد كتب فى القرن الرابع الميلاد وهو أوسع من الأورشليمى ، الـذى كتبه حاخامات طبـرية ما بين القرنين الثالث والخامس للميلاد .

ويختلف تلمود فلسطين كثيرا عن مثيله البابلى ، كما وكيفا ، فمادة تلمود فلسطين ثلث ما يحتويه تلمود بابل ؛ كما أن تلمود فلسطين ينقصه العمق المنطقى ، والشمول الجامع ، اللذان يمتاز بهما تلمود بابل .

ويرجع هذا الى أن تلمود بابل ألف فى فترة استغرقت قرنا من الزمان فى سلام وأمن ، أما تلمود فلسطين فجمع على عجل ، وفى ظروف غير مساعدة ، بسبب اضطهاد الرومان .

وتلمود فلسطين يختلف كذلك فى لغته ، فلغته عبرية تتخللها عبارات بالآرامية الغربية ، أما تلمود بابل فأكثره بالآرامية الشرقية ، نسجت فيه عبارات عبرية ، ويتضمن كلمات عربية وسريانية ويونانية ولاتينية وكلدانية .

ورغم هذا فهناك أوجه تشابه كثيرة بين التلمودين ، لأن

مصدرهما واحد ، كما أن بابل ليست بعيدة عن فلسطين، فكان علماء البلدين يتبادلون الزيارات ويتبادلون الراى والمعرفة .

والتلمود بصامة يعد أخطر وثيقة ضد الانسان والانسانية ، اذ يدعو الى تحطيم كل العقائد والقيم والحضارات ، لاقامة مجتمع عالمى صهيونى يسيطر على كل دول العالم ، وبكل الوسائل الممكنة ، من الغش والقوة والسلب والخداع والكذب .. كما يستبيح دماء وأموال الأجناس الأخرى ، ويعدهم فى منزلة الحيوانات .

ويكفى فى شريعة التلمود أن يظهر اليهودى بشكل الحمل الوديع ، تقية وخداعا ، ثم ليعتقد ما شاء ، وليفعل ما شاء (أن الانسان مهما كان شريرا فى الباطن وأصلح ظواهره يخلص) ...

وتأكيدا لمبادىء الاستعلاء اليهودى وتفوقهم العنصرى على بقية الشعوب ، واتخاذ الناس عبيدا ، لأنهم الشعب الذى اختاره الله دون بقية الشعوب — فان أرواح اليهود تتميز عن باقى الأرواح (بأنها جزء من الله ، كما أن الابن جزء من والده .. ومن ثم كانت أرواح اليهود عزيزة عند الله ، بالنسبة لباقى الأرواح ، لأن الأرواح غير اليهودية أرواح شيطانية ، وشبيهة بأرواح الحيوانات) ، وقد خلق الله الأجنبى على هيئة الانسان ليكون لائقا بخدمة اليهود ، الذين خلقت الدنيا من أجلهم) .

وبهذا يكون التجسيم لانعزالية اليهود ، والتأكيد على حقهم فى خيرات الأرض ، وامتلاكهم ما عند الآخرين ، على

أساس أنهم البشر الوحيدون على وجه الأرض ...

وبناء عليه فقد أصبح لهم الحق فى قتل أو استعباد من شاءوا من البشر الآخرين .

(أن الله لا يغفر ذنبا ليهودى يرد للأممى ماله المفقود .

غير مصرح لليهودى أن يقرض الأجنبى الا بربا .

اتيان زوجات الأجانب جائز ، لأن المرأة غير الاسرائيلية كبهيمة ، ولا عقد مع البهائم .

من رأى أحد الأمميين يقع فى حفرة لزمه أن يسدها بحجر .

مصرح لليهودى أن يغش غير اليهودى ويحلف له ايمانا كاذبة .

سرقة مال غير اليهـودى استرداد لأموال اليهـود من سالبيها .

محرم على اليهودى أن ينجى أحدا من باقى الأمم من هلاك ، أو يخرجه من حفرة وقع فيها) .

ويحث التلمود جميع اليهود على بذل جهودهم لمنع وصول غير اليهود الى السلطة ، حتى يحين الوقت لتولى اليهود اياها ، والا فسيظلون مشتتين وأسرى .

والوصية الجامعة : (اهدم كل قائم .. لوث كل طاهر .. احرق كل أخضر ..كى تنفع يهوديا بفلس) .

(اقتلوا جميع من فى المدن من رجل وامرأة وطفل وشيخ ، حتى البقر والغنم والحمير ، بحد السيف) .

(اقتل أفضل من قدرت عليه من غير اليهود) .

(العن رؤساء الأديان سوى اليهود ثلاث مرات كل يوم) .

ويزيد التلمود فيحدد أنواعا من الطهر لا يصل لهـــا

اليهودى الا باستعمال الذبائح البشرية من المسيحيين ...

ولهذه العدوانية الصارخة أخفى اليهود هذا الكتاب عن بقية البشر قرونا طويلة ، وبخاصة عن العالم المسيحى ، اذ لم يكتف بوصف السيد المسيح بأنه لقيط (ممزير) ابن زنا ، بل اختص المسيح وأتباعه بكثير من الألفاظ المهينة الدالة على الكذب والخداع والسحر والجنون والحمق والتضليل واللؤم والتفاهة والحقارة ، بل وصف الانجيل بأنه (وثيقة الكذب والخداع) وقال عن مريم البتول : انها امرأة ساقطة مصففة شعور النساء ، وهى البغى المتجولة فى الأزقة والأسواق .

ومع هذا ..

يقول جنزبرج Ginzberg : (أعطى التلمود اليهودى جنة روحية خالدة ، يلجأ اليها كيفما شاء ، هاربا من العالم الخارجى بكل ما فيه من حقد ومظالم ، وعلى صفحات التلمود وجدت أجيال اليهود المتعاقبة اشباعا لأعمق أمانيها الدينية ، وكذلك وجد اليهود فى التلمود نافذتهم الأسمى استلهاماتهم الفكرية ، ورغم أن العالم قد انقطع عن قرونه الماضية فان التلمود لا يزال بعد التوراة القوة الروحية والأخلاقية المثمرة فى الحياة اليهودية) .

ويقول اسرائيل أبراهامز : (بقى اليهودى بسبب التلمود ، بينما بقى التلمود فى اليهودى) .

ويقول د . فابيان : (الحياة اليهودية حتى هذا اليوم مؤسسة الى حد كبير على التعاليم والأسس التلمودية ، فطقوسنا وكتاب صلاتنا واحتفالاتنا وقوانين زواجنا ، بالاضافة الى قوانين وأسس أخرى كثيرة

مستخرجة مباشرة من التلمود ، والتلمود هو الذى تعزى اليه الصفات التى يتميز بهـا اليهـودى ، فالاتزان فى الشخصية والصدق ، ونزعته الى الحرية الاجتماعية ، وعلاقته العائلية الوطيدة ، وتعطشه للتعليم ، وامكانياته العقلية ، كلها ترجع الى التلمود ، فالحياة اليهودية قد أثرت بهذا الكتاب) .

***

ولقد هوجم التلمود بشدة منذ ظهوره ، ففى عام ٥٥٣ م ـ أى بعد الفراغ منه بزمن قصـير .. قرر القيصر جستنيان مصادرته ، ثم جاءت الـكنيسة واقتفت أثر القيصر ، واستمرت الكنيسة والدولة تتعقبانه مصادرة وحرقا واتلافا ، قرابة ألف عام ، باعتباره أهم مصـدر للتعاليم اليهودية التى أدت الى مقاومة اليهود للسلطة والدين المسيحى ، سرا وعلانية .

واشتدت حملات الملوك والبابوات ضد التلمود منـذ القرن الثالث عشر ، وصدرت الأوامر باتلاف نسخه فى فرنسا من سنة ١٢٤٤ م الى سنة ١٢٧٠ م ، كما حدث ذلك فى انجلترا سنة ١٢٩٠ م ، حتى أمر الملك بطرد اليهود عن البلاد بعد أن إكتشف حيلهم ومكرهم ومقتهم للشعب الانجليزى المسيحى ...

وفى أواخر العصور الوسطى لم يحـرق التلمود ، واكتفت السلطات الحاكمة والكنيسة بالرقابة على طبعه ، فأجازت تداول نسخ معـدودة ، بعـد حـذف فصول عديدة .

وقد عقـدت منـاظرة كبرى بين بابلو كريستيانى والحاخام موسى بن نحمان فى برشلونة سنة ١٢٦٣ م

فاقتنع البابا مكيمنت بأخطاء التعاليم التلمودية ، فأصدر مرسوما بتحريم قراءة التلمود أو حيازته ، ومصادرة ما وجد من نسخه ، كما فرض رقابة على طبع نسخ جديدة ، وأعاد تنفيذ القانون الذى كان لويس الحادى عشر قد أصدره وهو يلزم اليهود بوضع علامة على أكتافهم للتمييز .

وجرت محاكمة عادلة فى عهد الملكة بلانش فى ٢٤ يونيه سنة ١٢٤٠ م اعترف فيها اليهود بكثير من معتقداتهم الخطيرة ، وكان مما ترجم من التلمود فى هذه المحاكمة ما يلى :

(ان يسوع الناصرى موجود فى لجات الجحيم ، بين الزفت والقار ، وان أمه مريم أتت به من العسكرى باندارا بمباشرة الزنا ، وان الكنائس النصرانية هى بمستوى القاذورات ، وان الواعظين فيها أشبه بالكلاب النابحة ، وان قتل المسيحى من الأمور المأمور بها ، وان العهد مع المسيحى لا يكون عهدا صحيحا يلتزم القيام به ، وان من الواجب أن يلعن يوميا ثلاث مرات رؤساء المذهب النصرانى وجميع الملوك الذين يتظاهرون بالعداوة ضد بنى اسرائيل) ...

***

ويلاحظ أن التلمود يضم خليطا عجيبا من الأفكار ، فهو بالاضافة الى القوانين الحاخامية المنشودة للسيطرة على رفاق الضمائر والمتشككين من اليهود يضم كل نوع من الفلسفات الموجودة فى تلك العصور الغابرة ، وهو مستودع لكثير من أحداث التاريخ واكتشافات العلم .

ويقف التلمود من المرأة موقفا متشددا ، فهو ينتقصها ،

ولا يلحقها بالمدارس الدينية ، (وأن امرأة أساءت ادارة البيت ، أو وجد الرجل امرأة أجمل منها فله الحق فى أن يطلقها) .

واليهود الى اليوم يحرمون المرأة من كثير من الحقوق، وفى الدعوات يقول الرجل على مسمع من زوجته وابنته: « حمدا لله يارب انك لم تخلقنى امرأة » !

وفى التلمود أن اليهود الذين يرتدون عن دينهم بقتلهم يهوديا آخر لا يدخلون الجنة ، وانما (تدخل أرواحهم فى الحيــــوانات والنباتات ، ثم تذهب الى الجحيم ، وتعذب عذابا أليما مدة اثنى عشر شهرا ، ثم تعود ثانية لتدخل فى النباتات ، ثم فى الحيوانات ، ثم فى الاثنين، حتى ترجع الى جسد يهودى بعد تطهيرها) .. أقرب الى المعتقدات الهندوسية .

كما أنه يؤكد على أن غير اليهود نجسون ، ولا يمكن لليهودى أن يدخلهم بيته ، او يأكل معهم ، وليس له أن يعاملهم الا بغرض التجارة .. نفس موقف الهندوس من المنبوذين والمسلمين والمسيحيين وغيرهم .

ويزعم التلمود أن سبب نجاسة الأجانب أنهم لم يقوموا على جبل ســيناء بعــد أن نجس ابليس حــواء ، أما الاسرائيليون فقد تطهروا وحدهم بالوقوف على هــذا الجبل .

ويقول الرابى « مناحم » ان أرواح اليهود مصدرها روح الله ، أما باقى الامم فمصدر أرواحها الروح النجسة والحاخام (أيل) يعد الخارجين على دين اليهود خنازير نجسة تسـكن الغابات ، ويجب على المــرأة أن تعيد الاغتسال اذا رأت عند خروجها من الحمام شيئا نجسا

ككلب أو حمار أو جمل او خنزير او مجذوم أو ادمي غير يهودي .

ويزخر التلمود بشتى أنواع الخرافات ، كالتنجيم وطقوس السحر والشعوذة والعرافة ، ويؤكد على أن الأرواح الشريرة والشياطين والجنيات من ذرية آدم ، وهؤلاء يطيرون في كل اتجاه ، ويعرفون احوال المستقبل باستراق السـمع الى السـماء ، وهم يأكلون ويشربون مثل الانسان ، ويكثرون من جنسهم .. وهناك قصص وخرافات لا نهاية لها عن معجزات الحاخامات وأساطير الأفاعي والضفادع والاوز والطيور والاسماك .

ويرى التلمود ان الله خلق آدم ذا وجهين ، رجلا من ناحية وامرأة من ناحية ، ثم قطعه من النصف ، وان طوله كان يصل القبة الزرقاء ، ولكن بعد خطيئته وضع الله يده على رأس آدم وكبسه حتى صار صغيرا ، وأنه اتى الخطيئة في الساعة العاشرة بعد خلقه ، ثم طرد من الجنة في الساعة الثانية عشرة .

ويذكر التلمود أن هدم الهيكل وتشريد بني اسرائيل كان خطأ ارتكبه الله ، واعترف به ، وندم عليه ، وحاول التكفير عنه بتخصيص ثلاثة أرباع الليل للبكاء والندم .

ويعلل كون الشياطين بلا أجسام ولا ملابس بأن الله خلق الشياطين يوم الجمعة عند الغسق ، فأعجله يوم السبت عن أن يتم خلقهم .

ومن حكم التلمود :

« كل من يعلم أمام أساتذته يستحق أن تلدغه حية .

« الرجل الذي في سلته خبز ليس كالذي لا شيء في سلته .

« الأجدر بك أن تكون رأس ثعلب من أن تكون ذنب أسد .

« الخلاعة فى بيت مثل دودة فى يقطنيه .

« صديقك له صديق ، وصديق صديقك له صديق أيضا ، فكن حصيفا .

« الولد الطالح للأب الصالح كالخل من الخمر .

« الشباب تاج الورود ، والشيخوخة تاج الأشواك .

« كثيرون يعظون جيدا ، ولكنهم لا يعلمون جيدا .

« عقاب الكاذبين أنه لا يصغى اليهم عندما يصدقون .

« المغرور عابد وثن .

« كل من يتفقد ممتلكاته كل يوم يجد قطعة من النقود .

« المنصب لا يشرف الانسان ، الانسان يشرف المنصب .

« ليس الاعتبار بما تقوله عن نفسك ، ولكن ما يقوله أصدقاؤك عنك .

« الصدقة ملح المال .

« دع السكران يذهب وحده ليسقط وحده .

« الاجدر بك أن تكون ملعونا من أن تصبح من اللاعنين .

« هذا العالم مثل منزل على الطريق ، والآخرة هى البيت الحقيقى .

« الطفل يحب أمه أكثر من أبيه ، ولكنه يخاف أباه أكثر من أمه .

« البيت الذى لا يفتح بابه للفقير سيفتح الباب للطبيب .

« اهبط خطوة عند اختيارك الزوجة ، واعل خطوة لاختيار الصديق .

ويضم التلمود ستة أبواب ، يدعى كل منها سدر :

١ - سدر زراعيم Zeraim أو البذور : ويتناول قوانين التوراة الزراعية ، من الناحيتين الدينية والاجتماعية ، ويشرح الأحكام التوراتية المتعلقة بحقوق الفقراء والكهنة واللاويين فى غلال الأرض وحصادها ، ويتألف من ١١ سفرا .

٢ - سدر ناشيم Nashim أو المرأة : وفيه قواعد الزواج والطلاق .. وغير ذلك من الأحكام التى تتعلق بالعلاقات الزوجية .. وأسفاره سبعة .

٣ - سدر موعيد Mo'ed أى الأعياد والمواسم ، والمناسبات الدينية ، والطقوس والشعائر والفرائض والقرابين ، وكيفية معرفة الأشهر العبرية القمرية الخ ويقع فى ١٢ سفرا .

٤ - سدر نزيقين Nezikin أو الأضرار ، ويضم القوانين المدنية والجنائية ، كما اختص بالحديث عن عصر المسيح ومحاكمته وصلبه وحوارييه ، وبالغ فى الحط من السيد المسيح . فى عشرة أسفار .

٥ - سدر قداشيم Kodashim أو المقدسات ، ويتناول التضحيات وشعائرها والأحكام الخاصة بالهيكل والاثم والخطيئة ، وكفاراتها .. ويقع فى ١١ سفرا .

٦ - سدر طهاروت Tohorot أى الطهارة ، ويضم مجموعة من قوانين الطهارة والنجاسة والرجاسة ، التى تؤكد الخشية والاجلال .. ويتكون من ١٢ سفرا .

وبالاضافة الى هذه الأبواب الستة توجد سبع رسائل تلمودية صغيرة :

توراة — ميزوزاه .. تفــلين .. تزيت زيت .. أباديم .. كوثيم .. جريم .

وهناك ست رسائل أخرى تضاف الى طبعات التلمود الجديدة ، وهي : أبوث الحاخام ناثان .. سوفريم .. سيماهوث .. كالاح .. درش ارتز اسرائيل .. درش ارتز زونا .

وهناك سفر مماثل للتلمود ، يسمى مدراش Midrash وهو يجمع الحكم والقصص والأحكام التى جمعها ، أو اختلقها الحاخامات بعد اتمام التلمود ، وقد دونت فى هذا السفر مخافة أن تضيع .

وتذكر دائرة المعارف اليهودية أنه (أثنـــاء انحطاط الحياة العقلية اليهودية الذى بدأ فى القرن السادس عشر كان التلمود يعتبر — على وجه التقريب — السلطة العليا عند أكثرية اليهود ، وفى نفس الوقت أصبحت أوربا الشرقية ، خصـــوصا بولنـــدا ، مركز دراسة التلمود ، والتوراة أصـــبح مكانهـــا ثانويا ، وكرست المدارس اليهودية جميعا كليا لدراسة التلمود ، حتى أن كلمة الدراسة أصبحت مرادفة لكلمة التلمود) .

ويقال ان النسخة العبرية الأصلية من تلمود بابل يجرى اعادة طبعها الآن فى اسرائيل ، ويقوم على ذلك الحاخام آدين شتانيز التز ، وسيطبع منها — كما أعلن — ستة آلاف نسخة ستوزع بســـعر رمزى (قدره عشرة دولارات لـكل جزء من أجزائه الخمسة والثلاثين) — على المشتركين فقط ، وقد غطيت الاشتراكات منـذ عام ١٩٦٠ م .

ويلاحظ أن محاولة طبع التلمود تبدأ بعام ١٤٨٤ م ، اذ ظهر الفصل الخاص بالبركات في نسونسينو باقليم لومبارديا ، وفي عام ١٥٢٠ م الغى البابا (ليو) العاشر الأمر الخاص بمنع طبع التلمود ونشره ، فأخذ (دانيال بومبرج) في البندقية ينشره مستعينا بعدد كبير من العلماء والباحثين ، واستطاع اخراجه في ثلاثة أعوام ، وتجددت الطبعات متقنة .. وبعد أن ظهرت أربع طبعات له في منتصف القرن السادس عشر وبتصريح من الفاتيكان عادت الحركة المعادية الى الظهور ، فأصدر البابا يوليوس الثالث في ١٠ اغسطس سنة ١٩٥٣ م قرارا باعدام طبعاته .. لكن ما لبث أن طبع في بولندا وتركيا .. وظهرت في بازل ما بين ١٥٨١/١٥٧٨ طبعة أخرى تعتبر المرجع الأصيل الذى تعتمد عليه الطبعات المتأخرة ، وأخذت الطبعات المختلفة تتوالى في عدد من الدول الأوروبية ، وفي القرن الأخير ظهرت من التلمود سبعون طبعة الى جانب المختارات التي نشرت مئات المرات .

العقائد اليهودية

١ ــ الاله :

نجد (الكتاب المقدس) يعرض لله فى صورة لا تلتقى مع صفاته جل شأنه فى القرآن الكريم ، اذ هو « الله الذى لا اله الا هو ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر .. الخالق ، البارى ، المصور له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم » (الحشر ٢٣/٢٤) . وغيرها من صفات الكمال ... لكنه فى (العهد القديم) أقرب الى الآلهة التى كانت تعبد فى الشعوب التى نزلوا بها ، أو عبروا ...

واذا كان سفر (تكوين) قد أشار الى أن (يهوه) قد تجلى لابراهيم فأمره بالرحيل عن بلاده ، وفى أثناء رحلته (قطع الرب مع أبرام ميثاقا ، قائلا : لنسلك أعطى هذه الأرض ، من نهر مصر الى النهر الكبير ، نهر الفرات) (تكوين ١٥) ، وقد اشترط على ابراهيم أن يختص الله وحده بالعبادة ، ولا يشرك به أحدا ــ فان سفر (خروج) أشار الى هذه الوحدانية كذلك : (لا يكن لك آلهة أخرى أمامي .

لا تصنع لك تمثالا منحوتا ، ولا صورة ما مما فى السماء من فوق ، وما في الأرض من تحت ، وما في الماء من تحت الأرض ،

لا تنطق باسم الرب الهك باطلا) (خروج ٢٠) .

لكن هذه الوحدانية في سياق ورودها تفيد أن هـذا الاله ليس للناس جميعا ، انما هو اله الشعب الاسرائيلى خاصة .

ولأنه اله اسرائيل فلابد من أن يكون قريبا من (الشعب المختار) ، حيثما حل ، وأينما ارتحل .. ولا يكفى أن يكون هذا القرب بعونه ورعايته ، بل بصورته كذلك .

فهو (فى وسط هذا الشعب الذين أنت يا رب قـد ظهرت لهم عينا لعين ، وسحابتك واقفة عليهم ، وأنت سـائر أمامهم بعمود سحاب نهـارا ، وبعمود نار ليلا) (عدد ١٤) .

ولقد (صعد موسى وهرون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ اسرائيل ، ورأوا اله اسرائيل ، وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف ، وكذات السماء فى النقاوة ، ولكنه لم يمد يده الى أشراف بنى اسرائيل، فرأوا الله وأكلوا وشربوا) (خروج ٢٤) .

ويتكرر ذكر هذا التجسيم لله فى كل كتب (العهد القديم) تقريبا .. مما يثير أكثر من تساؤل .

لقد عاش الاسرائيليون خمسمائة عام فى مصر ، ومرت بهم دعوة (اخناتون) الى الوحدانية ، وهاجروا بعدها بقليل ، وكانت هجـرتهم مرتبطـة بدعوة موسى الى

التوحيد ، فكيف انهم بمجرد غياب موسى لفترة محدودة يصنعون (عجلا جسدا له خوار) من الذهب الذى جمعوه من مصر ، وتنتشر بينهم الأفكار البدائية كالخوف من الشياطين ، والاعتقاد فى الأرواح الشريرة ، ويعبدون الحجارة والأغنام والاشجار ، ويتخذون فى بيوتهم أصناما صغيرة يعبدونها ، وينتقلون بها من مكان الى آخر ؟!

أيكون ذلك بسبب ما أصابهم فى التيه من اضطرابات نفسية ، وعناء شديد ، أفقدهم الايمان بالقيم ، وربطهم بالخرافات والأوهام ؟ أم أن كتاب العهد القديم هم الذين وقعوا تحت تأثير الحضارات من حولهم ، فخلطوا بين ما ترسب فى وجدان (الشعب) من أوهام ، وما أخذوا أنفسهم به من عادات مكتسبة ، وما بقى من آثار موسى ؟

لكن واقعة (العجل الذهبى) قد تفيد أن الاحساس المادى عند هؤلاء القوم أقوى من الاحساس الروحى ، فهم لا يقدرون الا ما يرونه ويلمسون وجوده ، ومن أجل هذا كان التجسيد ، وقوى ، نتيجة الاحساس بالهوان والذلة عقب الخروج من مصر ، وحين التقوا بشعوب أقوى منهم حضارة ، ولها آلهة مجسدة .

ويؤكد هذا تلك الصفات التى ألبسوها لالههم ، فهى أحاسيسهم انطبعت على الاله الذى ارتبط بهم ، فأصبح هو وهم يعملون من أجل غاية واحدة .. هو اله يعد ويخلف ، لا يملك نفسه عند الغضب ، يأخذ الابن بجريرة الأب ، منتقم شديد الانتقام ، لا ينسى أن يثأر حين يقدر ، فظ غليظ القلب ، يحابى على حساب الآخرين .

هو اذن اله تذهب به الظنون مذاهب ، لكنه حصيلة

انفعالات نفسية ذات أعماق رهيبة ، نتيجة الضياع فى التيه أربعين عاما ، وحروب وحشـــية مدمرة لا تبقى ولا تذر ، تحت قيادة يشوع ثم داود ، وتمزقات قاسية فى عهد رحبعام بن سليمان ويربعام ، ثم الوقـــوع تحت وطأة الأشوريين فى عهد سرجون ، وأخيرا الشتات الكبير والأسر الطويل فى عهد نبوخذ نصر .. وقد بدات كتابة التوراة بعد الأسر .

فاذا وجدنا فى (أشعياء) بعد ذلك ملامح الوحدانية الحقة :

(أنت هو الاله وحدك لكل ممالك الأرض ، أنت صنعت السموات والأرض .

هكذا يقول الرب خالق السموات وناشرها ، باسط الأرض ونتائجها ، معطى الشعب عليها نسمة ، والساكنين فيها روحا .

أنا الأول ، وأنا الآخر ، ولا اله غيرى .

مصدر النور ، وخالق الظلمة ، صانع السلام) .

اذا وجدنا مثل هذه الصفات فانا لا نجد تعليلا الا انها ثمرة ثقافات مختلفة ، أدت الى مراجعـــة عقائدية فى مرحلة من مراحل حياتهم ، أو هى قدر مما بقى من آثار انبياء بنى اسرائيل مختلطا بكثير ما دخل عليهم من ديانات وخرافات الشعوب التى نزلوا بها أو أحاطت بهم .

وهذا ما يؤكده صاحب كتاب (التوراة تاريخها وغاياتها) من أنه (لم يكن « يهوه » قبل حزقيال سوى اله آخر من الآلهة القبلية السامية ، لا يختلف عنها بشىء ، مثله مثل « بعل مردوخ » فى بابل ، و « ملكارت » فى صور ،

و (آشور) اله الآشوريين ، وقد أتى حزقيال فأضفي عليه صفات من الألوهية لم تكن موجودة) (١) .

ب - الانبياء :

واذا كان هذا هو اله (الشعب المختار) فما الظن بأنبيائه ؟

ان المتتبع لحال الأنبياء الذين جاء ذكرهم فى التوراة لا يكاد يجد نبيا سويا ، كلهم أصابته أقلام كتاب (العهد القديم) فى خير ما يملك من صفات .

نوح يشرب الخمر فيسكر ويتعـــرى ، وحين يفيق يصب لعنته على (كنعان) حفيده : (ملعون كنعان ، عبد العبيد يكون لاخوته) (تكوين ٩) ، لأن الكنعانيين سيكونون أصحاب الأرض التى يطمع فيها الاسرائيليون .

وابراهيم ، أبو الأنبياء ، يقف موقف المتاجر بعرض امرأته الجميلة سارة ، ويصير له من وراء ذلك (غنم وبقر وحمير وعبيد واماء وأتن وجمال) (تكوين ١٢) .

ولوط ابن أخى ابراهيم يضطجع مع ابنتيه ، لينجب بنى عمون وبنى يواب الذين سيصبحون من أعداء بنى اسرائيل .. (تكوين ١٩) .

ويعقوب يتآمر على أخيه عيسو ، فينال حق البكورية وبركة اسحق ، دون أن يدرى اســـحق النبى بشىء ، بمشاركة رفقة زوج النبى ، وأم عيسو ويعقوب معا .. (تكوين ٢٧) .

وداود يزنى بزوجة أوريا الحثى ، الجندى المخلص فى

(١) التوراة تاريخها وغاياتها ص ٢٧ .

جيشه ، ويعمل على قتل أوريا ، حتى لا يرى ان امرأته حملت سفاحا ، وحتى تنضم الزوجة الى حريم داود بعد ذلك وتلد سليمان .. (صموئيل الثاني ١١) .

وسليمان يقتسل أخاه (أدونيا) وقائد جيوش أبيه (يواب بن صروية) ، ويطرد (أبياثار) الكاهن ، ليخلص له الحكم ، ثم يتزوج (سبعمائة من النساء السيدات ، وثلاثمائة من السرارى ، فأمالت نساؤه قلبه) ، وبنى لجميع نسائه الغريبات مرتفعات لآلهتهن فكن (يوقدن ويذبحن لآلهتهن) .. (الملوك الأول ١١) .

هؤلاء هم أعلام أنبياء بنى اسرائيل ، مجرمون مشركون أيضا ، فاذا أضفنا ما كان يفعل قادتهم باسم الرب من خراب ودمار وابادة كاملة لكل نفس حية ، وصلب وتمثيل بالجثث ــ حرنا فى تفسير هذا كله .

أيكون محاولة للتخفيف من أعباء الجرائم اليهودية على نفسية الأجيال الجديدة ؟

أهو تهوين من أمر الجريمة ، وتبرير لارتكابها فى حق الشعوب الأخرى ؟

أم هو صورة من التمزق النفسى الذى أصاب اليهود بعد الشتات ، فصرنا لا نرى الا تنبوءات عن غضب الله ووعيده ، وعن رجاء فى الخلاص مما حاق بهم ، وكأنهم يقولون للرب ، لقد غفرت لأنبيائك جرائمهم ، فلماذا لا تغفر لنا ، وما نحن الا أتباع هؤلاء الأنبياء ، ولم تعطنا قدراتهم ؟

ومن العجيب أننا نجد القمص صموئيل مشرقى يعلل هذه الجرائم بأنها تؤكد (أن الكمال لله وحده ، وأن

الجميع زاغوا وفسدوا .. لأننا نعرف أنهم جميعا بشر متناسلون من آدم الساقط ، ووارثون منه الطبيعة الفاسدة التى تميل الى الشر) (١) .

فماذا أبقى هذا القس الكبير لغيره أن يقول ؟

ولقد تميز أنبياء بنى اسرائيل بحلول روح الله فيهم ، اذ تقفز روح الله على النبى كما يقفز الطير الجارح (صموئيل الأول ص ١٠ ى ١٠) ، وكان بعض الأنبياء مثل اليشع يجرى طقوسا خاصة لاستقبال روح الله ، اذ يروى أنه كان يستدعى عازفا على الأوتار ليعزف له بعض الألحان (الملوك الثانى ص ١٨ ى ٢٦) ، أو يقف وقفة هادئة (الملوك الأول ص ١٨ ى ٤٢) ، واذا ما حلت الروح بالنبى انطرح أرضا طوال النهار والليل ، فاقدا وعيه ، وهو فى حالة غيبوبة ، وقد يظهر فى حالة تشبه حالة المجانين (صموئيل الأول ص ١٩ ى ١٨/٢٤) ، فمرض شاؤول العقلى اعتبر نبوءة ، والنبى كالمجنون غير مسئول عما يفعل ، فهو يأتى بحركات تريدها الروح ، كأن ينتقل من مكان الى آخر مثلا (الملوك الأول ص ١٨ ى ١٢) ، وابان فترة حلول الوحى بالنبى يتفوه بألفاظ وعبارات هامة جدا ، يتلقفها الجمهور ، لأنها نبوءات تتحدث عن المستقبل ، لذلك يحرص القوم على تخليدها .

وكان الأنبياء يتميزون بلبس الفراء والتمنطق بمنطقة من الجلد ، كما كانوا يقصون شعورهم قصا خاصا، شأنهم شأن رجال الدين اليسوعى اليوم ، وكان للنبى الحق فى الزواج والتناسل والملكية .

---

(١) مصادر الكتاب المقدس ــ ص ١١٩ .

ج ـ المسيح المنتظر :

لقد بشر أشعياء ودانيال بمجيء السيد المسيح ، لكن الصيغة التي وردت في أشعياء تبدو مقحمة ، اذ يقول الرب : (يعطيكم السيد نفسه آية ، ها العذراء تحبل وتلد ابنا ، وتدعو اسمه عمانوئيل ، زبدا وعسلا يأكل متى عرف أن يرفض الشر ، ويختار الخير) (أشعياء ٧) .

فاذا قلنا انه يتحدث عن السيد المسيح ، كان لنـــا أن نسأل : كيف تكون (الآية) لقوم يعيشون قبل زمن وجودها بأكثر من ســـبعة قرون ؟ أى دور تلعبه هذه الآية في حياتهم حتى تكون في موضع البشرى ؟

لكن يبدو أن هذه (البشرى) كانت وسيلة بعث الأمل في النفوس ، أو هي من صناعة كتاب المسيحية الذين أكثروا من ترديد هذه (البشرى) في الأناجيل ، وبخاصة (متى) الذي يقول : ان ملاك الرب قال ليوسف زوج مريم (ستلد ابنا ، وتدعو اسمه يسوع ، لأنه يخلص شعبه من خطاياهم ، وهذا كله لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل : هو ذا العذراء تحبل وتلد ابنا ، ويدعون اسمه عمانوئيل ، الذي تفسيره الله معنا) (متى ١) .

وعلى كل حال فان هذه البشرى كانت في صالح الكهان للتأثير على النفوس ، ولهذا كانت أوصافه ـ التي هي من أوصاف السيد المسيح في الأناجيل ـ ملهبة للخيـــال والشوق ، بحيث تظل الجموع متطلعة اليه ، ترجو لقاءه .. فهو انسان سماوي ، كائن معجز ، خلقه الله قبل كل الدهور وهو في السماء حتى تحين ســـاعة ارساله ، وستجمع طبيعته بين اللاهوتية والناسوتية ، ولابد أن يكون من نسل داود .. وقد تنبأ (ميخا) أنه سيخرج

من بيت لحم ويعيد العدالة والحق الى سائر العالم ...
(ميخا — ٦/٣/١) .

ويمكن القـــول ان البشرى برسول قادم سنة الهية لتهيئة النفوس ، لكن الاعتراض على العبارة التى صيغت البشرى فى طياتها ، وبخاصة ان بشرى (المسيح المنتظر) لم تظهر الا فى كتابات ما بعد السبى ، أشبه بما جاء فى عبادة مترا الفارسية التى انتشرت فى العالم لمدة تقرب من ستة قرون ، من (أن مترا ولدته عذراء فى كهف فى ٢٥ ديسمبر ، وأنه جاب الآفاق يبشر برسالته ، وكان حواريوه أثنى عشر رجلا ، وأنه مات فى سبيل البشرية ، واحتفل بقيامه من القبر بفرح عظيم ، وقد أطلق عليه اسم المخلص ، ومما هو جدير بالذكر أن هذا الدين كان قويا الى القرن الثالث الميلادى) (١) .

وقول (روبرتسون) هذا يفيد أن (المسيح المنتظر) ما هو الا ثمرة اتصال بالثقافة الفارسية ، واحساس بالحاجة الى من يخلص اليهود من أسر البابليين .. ومن أجل هذا فان أصحاب (المصـــالح الحقيقية) لم يؤمنوا بالسيد المسيح حين ظهوره ، بالرغم من اتفاق الصفات ، وظلت الـكتابات اليهودية على حالهـــا تدعو الى ظهـــور (المسيح المنتظر) حتى أيامنا هذه ، (فاليهود القاطنون فى حى « مياشعاريم » بالقدس يعتبرون دولة اسرائيل ثمرة « الغطرسة الآثمة » ، لأنها قامت على يد نفر من الكافرين الذين حرفوا مشيئة الله بعلمهم ، وتطاولوا على وعد الرب — بدلا من انتظار المسيح الموعود ، وتدخل الرب بصورة عجائبية فالمسيح المنتظر هو وحـــــده القادر على اقامة

(١) د. جابر الحينى — فى العقائد والاديان — ص ٢٤٩/٢٥٠ .

الدولة ، حيث تكون « مملكة الكهنة والقديسين ») .

وهؤلاء سكان (مياشعاريم) يعبرون عن ايمان صادق بما أوحاه الكهان وعمقوه فى نفوسهم .

د ـ الآخرة والبعث :

من خلال دراسة العهد القديم نجد أنه لم يمس العالم الآخر من قريب أو بعيد ، وكأنه قد اكتفى بالعقوبات الشديدة التى تنزل بالمجرمين أو لعله تأسى بديانة اخناتون دون ما سبقها من الديانات المصرية التى كانت تؤمن بالحياة الثانية ، لكن كان لاخناتون عذره ، فقد كان اغفاله العالم الآخر ضرورة أملتها عليه محاربته للديانات الشعبية التقليدية ، حيث يحتل اله الأبدية أوزوريس مكانا رئيسيا ، وربما كان يلعب دورا أنشط من أى اله آخر .

واذا كان دانيال قد أشار الى يوم البعث ، والى الحساب والجزاء بقوله (كثيرون من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون ، هؤلاء الى الأبدية ، وهؤلاء الى العار، الى الازدراء الأبدى) (دانيال ١٢) فهذا دليل على ما أصاب التوراة من تحريف وتزييف ، أو قل انه أثر الاتصال بالديانة الزرادشتية ، زمن الأسر الطويل ، وابان الاتصال بدولة الفرس فى عهد قورش ، وهو احتمال يؤكده العبث بالأصل السماوى ، ويزكيه قول يوسيفوس المؤرخ اليهودى الفريسى : (ان الفريسيين قد سلموا الشعب وصايا وفرائض تسلموها من الآباء ، وليست مما جاء فى شريعة موسى)

(اله اسرائيل .. قدوس اسرائيل .. الساكن فى بيت اسرائيل شعب الله المختار .. تراث الرب .. أفرزتهم لك ميراثا من جميع شعوب الأرض .. اختارك الرب لكى تكون له شعبا خاصا فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض) .

تعبيرات كثيرة تزخر بها اسفار (العهد القديم) تؤكد الرابطـة بين (الرب) و (الشعب ، ممـــا يوحى بأن (الشعب) على جميع مســـتوياته يقف أمام الرب على مستوى واحد ، وهذا يخالف الواقع ، كما سيتبين بعد .

ويرجع اختيار الرب لهذا الشعب منذ أخطأ (حام) فلم يغط عورة أبيه (نوح) الذى سكر وتعرى ، وغطاه سام ويافث ، فلما أفاق قال : (ملعون كنعان ، عبد العبيد يكون لاخوته ، وقال : مبارك الرب سام ، وليكن كنعان عبدا لهم ، ليفتح الله ليافث فيسكن فى مساكن سام ، وليكن كنعان عبدا لهم) (تكوين ٩) .

فاذا كان تخوم الكنعانى (من صيدون ، حينما تجىء نحو جرار الى غرفة وحينما تجىء نحو ســدوم وعمورة وأدمة وصبوييم الى لاشع) (تكوين ١٠) ـ أدركنا لماذا كان الحكم على آل كنعان بالعبـودية ، ولا ذنب لهم فيما حدث !!

ويمضى كـاتب التـوراة ، فيـوقع ميثـاقا بين الرب وابراهيم ، (قائلا : لنسلك أعطى هذه الأرض ، من نهر

(١) أنظر « شعب صلب الرقبة » من كتاب « هذا الكتاب المقدس » للمؤلف .

مصر الى النهر الكبير ، نهر الفرات) (تكوين ١٥) ، اى ان الرب لا يكتفى بلعن كنعان ، وأن يكون عبدا لسام ، وأن تصبح أرض كنعان ملك أبناء سام ، بل يتسع الميثاق حتى يتحقق (حلم صهيون) المدون على جدران الكنيست (من الفرات الى النيل) .

وبحث (الرب) عن علامة مميزة لهذا (الشعب) من غيره ، فاهتدى الى (الختان) الذى لا يعد وسيلة (تمييز) الا اذا مر بوسيلة (كشف) ابتلى بها (نوح) فى حالة سكر ، فأصابت اللعنة (كنعان) .

وكان أن عاهد (الرب) ابراهيم : (يختتن منكم كل ذكر .. وأما الذكر (الأغلف الذى لا يختتن فى لحم غرلته ، فتقطع تلك النفس من شعبها) (تكوين ١٣) .

ولا يقف الأمر عند هذه العلامة التى لا تبين الا بعد (التعرية) ، فقد طلب الرب من موسى (أن يصنعوا لهم أهدابا فى أذيال ثيابهم فى أجيالهم ، ويجعلوا على هدب الذيل عصابة من اسمانجونى) (عدد ١٥) .

وينبغى ملاحظة أن هيرودوت الملقب بأبى التاريخ يخبرنا ان عادة الختان قد مورست منذ زمن طويل فى مصر ، وثبتت صحة هذا القول بفحص موميات المصريين القدماء ، بل حتى من الرسوم الموجودة على جدران المقابر .

ولعل هذه العادة انتشرت بين القبائل التى سكنت شرقى البحر المتوسط ، بعدما خضعت هذه البلاد زمنا طويلا للحكم المصرى .

هذا الى أن ابراهيم عاش زمنا فى مصر ، وتنقل فى مناطق كانت خاضعة للحكم المصرى ، والاسرائيليون عاشوا

في مصر زمنا طويلا ، وتناسلوا أجيالا عديدة ، واخذوا عن المصريين الكثير من عاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم ، مما يبين ان (الختان) ليس مظهرا يهوديا خاصا ، ولهـذا ينفى الاستاذ العقاد (أن الاسرائيليين اعتبروه ـ الختان ـ علامة لقبيلتهم ، تميز الاسرائيلى من غيره ، وانما الصحيح أنهم اعتبروه علامة تسليم اربهم) ، مؤكدا ذلك بأن الختان اختصار لعادة الضحية البشرية نشأ مع تقـدم الانسان فى الحضارة والمدنية ... ففى أقدم العصور كان الفاتح المنتصر يقتل الأسرى قربانا على محراب الهه ، ثم تدرجوا من قتلهم الى قطع أعضائهم ، وتدرجوا من قطع أعضائهم الى قطع أغلفتهم ، وجعلوا ذلك علامة على تسليم الأعداء بالهزيمة ، وقد فعـل ذلك الاسرائيليون مع أعـدائهم فى مواقف مختلفة ، كما فعله المكابيون مع أعدائهم (١) .

لكن ما فعله الاسرائيليون مع شكيم ـ كما أورد سفر تكوين ٣٤ ـ لم يكن الا تأكيدا للعـلامة المميزة ، وان اتخذت وسيلة انتقام .

ثم ان التقرب بقطع الأغلفة ـ وهى عملية جراحية دقيقة ـ يكلف الفاتح المنتصر مشقة بالغة ، تحـرمه شهوة الانتصار وشهوة الانتقام .

وتدوس العقلية الصهيونية كل الحقائق التاريخية من أجل توثيق نقل ملكية أرض كنعـان الى (الشعب) ، ولابد أن يـكون التـوثيق عـلى أيدى ابراهيم وهاجر واسماعيل حتى لا يأتى العرب فى يوم ويدعون ملـكية هذه الأرض .

تقول (التوراة) : حين غضبت سارة على هاجر ، لم

---

(١) أبو الانبياء ص ٢٠٩/٢١٠ .

يذهب بها ابراهيم الى الصحراء العربية - كما حكى القرآن - « بوادى غير ذى زرع » عند البيت الحرام ، بل ذهب بها وبابنها الى صحراء (فاران) سيناء .. وكان أن (تاهت فى برية بئر سبع ، ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت احدى الأشجار .. ورفعت صوتها ، وبكت .. وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء ، فذهبت وملأت القربة ماء ، وسقت الغلام ، وسكن فى برية فاران ، وأخذت له أمه زوجة من مصر) . (تكوين ٢١) ، لا من جرهم ، ولا من ذرية ، (الشعب المختار) .

ويستمر التحريف والتضليل ، ويصبح (الذبيح) اسحق لا اسماعيل ، لأن اسحق أبو يعقوب الذى ينسب اليه الاسرائيليون (تكوين ٢٢) .

وحين يكبر ابراهيم ويشيخ يحدث (عبده كبير بيته المستولى على ما كان له) قائلا : (أستحلفك بالرب اله السماء واله الأرض الا تأخذ زوجة لابنى من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم ، بل الى أرضى وعشيرتى تذهب وتأخذ زوجة لابنى اسحق) (تكوين ٢٤) .

وزيادة فى الحيطة والحرص على الطهارة والنقاء (أعطى ابراهيم اسحق كل ما كان له - مع أنه ليس بكره - وأما بنو السرارى اللواتى كانت لابراهيم - ومنهن هاجر أم اسماعيل جد العرب - فأعطاهم ابراهيم عطايا ، وصرفهم عن اسحق شرقا ، الى أرض المشرق ، وهو بعد حى) (تكوين ٢٥) ، حتى لا يختلط نسل اسحق بغيره من نسل ابراهيم ، أو اسماعيل خاصة .

وحين ماتت سارة اشترى لها أرضا ، فى أرض

الحيثيين ، ودفن (ابراهيم أمرأته فى مغارة حقل المكفيلة امام ممرا التى هى حبرون ، فى ارض كنعان) (تكوين ٢٣) حتى يحيط (الشعب) هذه الفتره برعايته وعنايته، فيمتلك كل ما حولها شمالا وجنوبا وشرقا وغربا ، على أساس نظرية الأمن الاسرائيلى .

و (كان فى الأرض جوع) .. وأراد اسحق أن يهاجر، فظهر له الرب ، (وقال : لا تنزل الى أرض مصر ، اسكن فى الأرض التى اقول لك ، تغرب فى هذه الأرض فأكون معك ، وأباركك ، لأنى لك ولنسلك أعطى جميع هذه البلاد ، وأفى بالقسم الذى أقسمت لأبيك ، ابراهيم وأكثر نسلك كنجوم السماء ، وأعطى نسلك جميع هذه البلاد ، وتتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض .. فأقام اسحق فى جرار) (تكوين ٢٦) .

واذا كان (الرب) قد سمح بعد ذلك ليعقوب بالهجرة الى مصر فى حالة جوع مماثلة ، فلم يكن ذلك الا بعد ان توثقت (الملكية) على يد اسحق ، والا بعد أن وطد يوسف لأبيه فى مصر ، وحتى يكون مولد يعقوب فى (أرض الميعاد) ، لا فى الأرض التى انصبت على رءوسهم فيها لعنة الفراعنة .

وكما فعل ابراهيم حفاظا على نسل اسحق (دعا اسحق يعقوب ، وباركه ، وأوصاه ، وقال له ، لا تأخذ زوجة من بنات كنعان ، قم اذهب الى فدان آرام ، الى بيت بتوئيل أبى أمك ، وخذ لنفسك زوجة من هناك ، من بنات لابان أخى أمك) (تكوين ٢٨) .

وخرج يعقوب من بير سبع ذاهبا نحو حاران ، واضطجع فى الطريق ، فأتاه الرب قائلا : (الأرض التى

نت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك ، ويكون نسلك كتراب الأرض ، وتمتد غربا وشرقا وشمالا وجنوبا ، ويتبارك فيك وفى نسلك جميع قبائل الأرض) (تكوين ٢٨) .

ويضرب الجوع (شعب الله المختار) ـ الذى كان يبلغ اذ ذاك سبعين نسمة ـ فلا يجد القوت الا فى مصر ..

ويستيقظ المصريون فى يوم ، وقد أصبحت الثروة والسلطة فى أيدى الغرباء .

وتشتد قبضة سفنن رع وكامس وأحمس ، فيطرد الهكسوس ، ويعرف أصحاب الأرض الدور الاستعمارى الذى لعبه الاسرائيليون ، فيضيق رمسيس الخناق عليهم حتى يضطروا الى الخروج ، ويعلم منفتاح أنهم سرقوا ذهب مصر وفضتها ، فيلاحقهم .

وأمكنهم الافلات من قبضة فرعون ، لكن بعد ما قذف فى قلوبهم الرعب ، حتى جعلهم يتيهون فى الصحراء اربعين عاما لا يقدرون على مواجهة تجربة جديدة ، لا يدرون مصيرهم معها .. ولهذا قالوا على لسان الرب ، (لا يرد الشعب الى مصر ، الرب قد قال لكم ، لا تعودوا ترجعون فى هذه الطريق) (تثنية ١٧) .

ويحاول موسى أن يبث فى نفوسهم الأمل فلم يفلح .

ويصعد موسى الجبل ، ويلتقى بربه ، ويعود ببشارة (الآن ، ان سمعتم صوتى ، وحفظتم عهدى ، تكونون لى خاصة ، من بين جميع الشعوب فان لى كل الأرض ، وأنتم تكونون لى مملكة كهنة ، وأمة مقدسة) (خروج ١٩) .

وما داموا قد أصبحوا بمثابة أبنــاء الله وخلفائه فى الأرض ، فلابد من أن يحقق الله لهم ما وعد من (أرض تفيض لبنا وعسلا) .

لقد فجر على يدى موسى اثنتى عشرة عينا بعدما استبد بهم العطش ، واغـدق عليهم المن والسلوى حين استبد بهم الجوع ، أفلا ينصرهم على (القوم الجبارين) ؟

وكان أن حارب الله معهم ، أرســل هيبتــه أمامهم (وأزعج جميع الشعوب الذين تأتى عليهم) وأرسل أمامهم الزنابير ، فطردوا الحوريين والكنعانيين والحيثيين .. تحت قيادة يشوع .. وتملكتهم شهوة التسلط والتملك والانتقام والغدر والحرق والتدمير .

وحين شاخ يشوع (دعا جميع اسرائيل وشــــيوخه ورؤسائه وقضاته وعرفاءه وقال لهم : أنا قد شخت ؛ تقدمت بى الأيام ، وأنتم قد رأيتم كل ما عمل الرب الهكم بجميع أولئك الشعوب من أجلكم ، لأن الرب الهــكم هو المحارب عنكم ، أنظروا ، قد قسمت لكم بالقرعة هؤلاء الشعوب الباقين ملكا حسب أســباطكم ، من الأردن ، وجميع الشعوب التى قرضتها ، والبحـــر العظيم نحو غروب الشمس، الرب الهكم هو ينفيهم من أماكن ويطردهم من قدامكم ، فتملكون أرضهم ، كمــا كلمكم الرب الهكم ، فتشددوا جدا ، لتحفظوا وتعملوا كل المكتوب فى سفر شريعة موسى .. ولكن اذا رجعتم ولصقتم ببقية هؤلاء الشعوب ، أولئك الباقين معكم ، وصاهرتموهم ودخلتم اليهم وهم اليكم . فاعلموا يقينا أن الرب لا يعود يطــرد أولئك الشعوب من أمامكم ، فيكونوا لــــكم فخا وشركا وسوطا على جوانبكم ، وشوكا فى أعينكم ، حتى تبيدوا

عن تلك الأرض الصالحة التى أعطاكم اياها الرب الهكم) (يشوع ٢٣) .

ويأتى سليمان بن داود فيؤكد الرابطة بين الرب واسرائيل ، قائلا : (لأنهم شعبك وميراثك الذين أخرجت من مصر ، من وسط كور الحديد ، لتكون عيناك مفتوحتين نحو تضرع عبدك وتضرع شعبك اسرائيل ، فتصغى اليهم فى كل ما يدعونك ، لأنك أنت أفرزتهم لك ميراثا من جميع شعوب الأرض) ، (الملوك الأول ٨) .

ونسى سليمان انه تزوج — كما جاء فى (الملوك الأول ١١) بحوالى سبعمائة امرأة من شعوب أخرى ، وتسرى بثلاثمائة ، كما نسى أن بنى اسرائيل لم يعتزلوا الشعوب الأخرى عزلة كاملة ، وبخاصة خلال الهزائم التى لحقت بهم ، وخلال التطواف الطويل ، والاقامة فى أكناف شعوب كثيرة .. فاذا انتهى بهم الأمر الى الشتات الكبير على أيدى البابليين والأشوريين ، وتمزق مجتمعهم كل ممزق ، بين بلاد ذات حضارة وأصالة وقوة شكيمة — اختلط الزرع المقدس ، وهذا ما يؤكده جوستاف اوبون ولومبروزو ، بل يعلنه سفر عزرا صراحة : (لم ينفصل شعب اسرائيل والكهنة واللاويون من شعوب الأراضى حسب رجاساتهم ، من الكنعانيين والحيثيين والفرزيين واليبوسيين والعمونيين والموابين والمصريين والأموريين ، لأنهم اتخذوا من بناتهم لأنفسهم ولبنيهم) (عزرا ٩) .

وهذا الاعلان اعتراف من الرؤساء لعزرا الذى أصدر أمرا جديدا لاستنقاذ بقية الدم المقدس ، (لا تعطوا بناتكم ولا تأخذوا بناتهم لبنيكم ، ولا تطلبوا سلامتهم وخيرهم

الى الأبد ، لكى تتشددوا وتأكلوا خير الارض ، وتورثوا بنيكم اياها الى الأبد) (عزرا ٩) .

ولكن الرؤساء فى حيرة بالنسبة لما حدث .. ماذا وقد (أكثرنا الذنب فى هذا الامر ؟ ووجد بين بنى الكهنة من اتخذ نساء غريبة .. ومنهن نساء قد وضعن بنين) ؟

والحل أن يقربوا (كبش غنم لأجل اثمهم) !!

ومع هذا تظل دعوى (شعب الله المختار)،على حين ترتفع أصوات كثيرة تقول : ان تاريخ اليهود مختلق على نطاق واسع ، اختلقه المتآمرون البابليون – اليهود فى أسر بابل – وهدفهم خلق تقاليد قومية لها غاية قائمة بذاتها لدى المنفيين وذريتهم ، تفرض عليهم تنظيما باطشا تحت امرة الشريعة ، ومن ثم اضفاء ثوب الدين عليهم ، لاخفاء وتبرير غاياتهم الاجرامية ضد العالم ، وقد استعار واضعو المؤامرة الأفكار من مضيفيهم البابليين ، ثم أضافوا اليها تقاليدهم القبلية الخاصة بعد تنميتها وتزيينها ، ثم أطلقوا لمخيلاتهم الخصبة العنان .

ويفسر هذا أن كل كتب الأنبياء تنبأت بقيام مملكة (يهوه) حيث يسيطر اليهود على شئون العالم (ويرثون الأمم) ، الى حد أن (أشعياء ٢٠/٦٠) يقول : (لا تغرب شمسك من بعد ، وقمرك لا ينقص ، لأن الرب يكون لك نورا أبديا ، وتكون أيام مناحتك قد انقضت ، ويكون شعبك كلهم صديقين ، والى الأبد يرثون الأرض) .

وما أتى (دانيال) حتى كان اليهود قد أخذهم الاستنكار والسخط لأن (الوعد) لم يتحقق ، فسارع دانيال الى تهدئتهم ، منبئا اياهم أن الرب سيعلمهم فى الوقت المناسب متى سيتحقق الوعد وينتهى سخطهم :

(وقال : انى أعلمك بما سيكون فى آخر السخط ، فانه يتم فى الميعاد المحدود) (دانيال ١٩/٨) فلا تقلقوا يا بنى اسرائيل ، ولا تتحول مناحتكم الى سخط لأنه فى الوقت المحدد تكون (الضربة التى يضرب بها الرب كل الشعوب الذين تجندوا على أورشليم ، لحومهم تذوب وهم واقفون على أقدامهم ، وعيونهم تذوب فى اوقابها ، والسنتهم تذوب فى فمهم) (زكريا ١٤/١٢) .

ان صلاة اليهود الأكثر ترداداً اليوم هى (فليتمجد ويتقدس اسم الرب العظيم فى كل العالم الذى خلقه حسب مشيئته ، ولتتحقق مملكته أثناء حياتكم ، وخلال أيامكم ، وأثناء حياة كل بنى اسرائيل ، بسرعة وبالقريب العاجل آمين) .

وهذا الحلم الذى طال أكثر من ثلاثة آلاف عام ، هو الذى حرك ويحرك عبقرية هؤلاء القوم الى تزييف كل شىء : الدين والتاريخ والضمير والمبادىء والشعارات والمذاهب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

قال فيلون الفيلسوف اليهودى الذى عاش فى القرن الأول الميلادى : (ان اليهود يكونون شعبا يجاوز حدود الوطن والجنس المحلى ، وتصبح معه القومية مفهوما لا يستند الى الجنس أو الحدود الجغرافية أو نوع الحكومة السياسى ، ولكن الى الدين والوضع الحضارى) .

وقال يهوذا بن غاليف الفيلسوف : (ن تشتت الشعب الاسرائيلى يعتبر قرارا ربانيا مدهشا ، وضع لالهام بقية شعوب الأرض) .

وقال هرتزل : (ان جنسنا أكثر فاعلية فى كل شىء من باقى شعوب الأرض) .

وقال فرويد : (ان اليهود هم الذين أعطوا البشرية الشريعة ، وكانوا لها الضمير ، وان اليهودية مصدر للطاقة لا يعوض) .

وقال ناحوم جولدمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية السابق : (ان اليهود لم يكونوا أبدا مثل الشعوب الأخرى ، كانوا دائما شيئا مميزا ، أكبر من مجرد شعب ، وأكبر من مجرد دين ، وأكبر من مجرد حضارة ، هم كل هؤلاء مجتمعين ، ولا توجد هناك جماعة تماثلهم ، فتاريخهم شيء مميز خاص) .

وقال بن جوريون : (انني أومن بتفوقنا الخلقي والفكري ، بحيث يستخدم كنموذج لاصلاح الجنس البشري) .

وهذه الأقوال مجرد نموذج للدعاوي المستمرة لتغذية الشعور بالتفوق أو بالأحرى العنصرية ، الشعب المختار ، بالرغم من أن (واقع تطور علم السلالات الانسانية أثبت منذ وقت طويل أن اليهود لا يمثلون عنصرا مستقلا ، وجاء في اعلان الأجناس والتباينات العرقية الذي أقرته مجموعة من علماء السلالات البشرية البارزين عام ١٩٥١ أن المسلمين واليهود لا يمثلون أجناسا ، شأنهم في ذلك شأن الكاثوليك والبروتستانت ، وسكان أيسلندا أو الهند ، والشعوب الناطقة بالانجليزية أو أي لغة أخرى) (١) .

وسكان اسرائيل اليوم يتكونون من عدة مجموعات : السابرا ، وهم اليهود الذين ولدوا في فلسطين ..

(١) البروفيسورة ميليفا مود زجينسكايا ــ بمجلة آفاق عربية ــ عدد كانون الثاني سنة ١٩٧٧ .

والاشكنازى : اليهود ذوو الاصل الأوروبى واليهود الشرقيون ومن بينهم جزء كبير من السفارديم : اليهود المنحدرون من بلدان أفريقيا وآسيا ، والمجموعتان الاخيرتان لا تمثلان شيئا موحدا من وجهة نظر علم السلالات البشرية ، اذ انهما لم تتخلصا بعد من التقاليد الثقافية والمعيشية لبلدان اقامتها السابقة .. وعلى الرغم من أن المهاجرين من بلدان آسيا وافريقيا يشكلون ٦٠ ٪ من سكان اسرائيل اليهود فانهم يعانون من التفرقة سواء فى المجالات السياسية والثقافية .

وتعمى العيون عن هذا التمزق الداخلى ، لتنطلق الألسنة محدثة عن الانتخاب العرقى والسيادة العالمية .

و ـ الكهنة (١)

وقد يثير الدهشة أن الرب ـ فى كثير من أسفار التوراة وكتب الأنبياء ـ يستغل استغلالا قاسيا فى سيطرة طبقة ، أو فى ابتزاز خيرات (الشعب) لصالح سبط من الأسباط (فريضة دهرية) .

ويتخذ (تابوت الرب) الذى هو نصب من الأنصاب ، بمثابة شرك ، للايقاع بالشعب المخدوع ، بين أنياب ومخالب لا تشبع ولا ترتوى .

فاذا كان (هرون) فى عبارة (القرآن) فصيحا شجاعا ، وشريكا فى اداء الرسالة : « وأخى هرون هو أفصح منى لسانا ، فأرسله معى ردءا » (القصص ٣٤) ،

(١) أنظر : « إله من ذهب » من كتاب « هذا الكتاب المقدس » للمؤلف .

« اشدد به أزرى ، واشركه فى أمرى » (طه ٣١/٣٢) فانه فى عبارة (العهد القديم) يهودى ، قبل أن يـكون ربانيا .

(لما رأى الشعب أن موسى أبطأ فى النزول من الجبل، اجتمع الشعب على هرون ، وقالوا له : قم اصنع لنـا آلهة تسير أمامنا ، لأن هذا موسى الرجل الذى أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه ، فقال لهم هرون : انزعوا أقراط الذهب التى فى آذان نسائكم وبنيكم ، وائتونى بها ، فنزع كل الشعب اقراط الذهب التى فى آذانهم ، وأتوا بها الى هرون ، فأخذ ذلك من أيديهم ، وصوره بالأزميل ، وصنعه عجلا مسبوكا ، فقالوا : هذه آلهتك يا اسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر ، فلما نظر هرون بنى مذبحا أمامه ، ونادى هرون وقال : غدا عيد للرب ، فبكروا فى الغـد ، وأصعدوا محرقات ، وقدموا ذبائح السلامة (خروج ٣٢) . طلب الشعب الها مصنوعا ، وكان بوسع هرون أن يجعله من طين أو من خشب أو من نحاس مثلا ، لكنه أراده من ذهب ، فى صورة الاله المصرى القديم ــ قبل عهود الذلة والعبودية فى مصر ــ وصنعه بيده لا بيد أخرى ، وبنى له مذبحا ، وجعل له عيدا ، وأصعد المحرقات ، وقدم الذبائح .

ويلاحظ أن عبادة (العجل) تتكرر وتتجدد فى حياة بنى اسرائيل .. فقد عمل يربعام عجلى ذهب ليعبدهما اتباعه فى دولة اسرائيل حتى لا يحتاجوا الى الذهاب الى الهيكل الذى يقع فى دولة يهوذا برئاسة رحبعام (الملوك الاول ١٢) .

وملك بعشا بن اخيا على جميع اسرائيل ، وسار فى

طريق يربعام ، فى خطيئته التى جعل بها أسرائيل تخطىء (الملوك الأول ١٥) وكذلك فعل عمرى ، وجاء أخاب بن عمرى فتزوج ابنه ملك الصيدونيين ، وعبد البعل ، وسجد له ، وأقام مذبحا (الملوك الأول ١٦) .

كما يلاحظ أن الاله من ذهب دائما ، كأنما هو التعبير عن القوة فى عرف اليهود .

ويعود موسى من لقاء الرب .. وحين أبصر هذا الانقلاب الذى أحدثه هرون (حمى غضب موسى ، وطرح اللوحين من يديه ، وكسرهما فى أسفل الجبل ، ثم أخذ العجل الذى صنعوا ، وأحرقه بالنار ، وطحنه حتى صار ناعما ، وذراه على وجه الماء وسقى بنى اسرائيل) (خروج ٣٢) .

أراد موسى أن يحطم الوثنية ، فأجراها فى دمائهم ، ذرات ذهبية تصبح نسيج أبدانهم ، وميراث أجيالهم .

ويكافأ هرون من الرب على ما فعل ، فيقول الرب لموسى : (قرب اليك هرون أخاك وبنيه معه من بين بنى اسرائيل ليكهن لى) (خروج ٢٨) .

وتكون أول (تقدمة) للرب ــ أى لحساب هرون وبنيه الكهنة ــ من (ذهب وفضة ونحاس واسمانجونى وأرجوان وقرمزوبوص وشعر معزى وجلود كباش محمرة ، وجلود تخس ، وخشب سنط ، وزيت للمنارة ، وأطياب لدهن المسحة ، وللبخور العطر ، وحجارة جزع ، وحجارة ترصيع للرداء والصدرة) حتى يصنعوا للرب (مقدسا لاسكن فى وسطهم) .

هذا مع أن تعاليم الرب لموسى فى أول لقاء (لا تصنعوا

معى آلهة فضة ، ولا تصنعوا لكم آلهة ذهب ، مذبحا من تراب تصنع لى ، وتذبح عليه محرقاتك وذبائح سلامتك .. وان صنعت لى مذبحا من حجارة فلا تبنه منها منحوتة ، واذا رفعت عليها أزميلك تدنسها ، ولا تصعد بدرج الى مذبحى ، كيلا تنكشف عورتك عليه)(خروج ٢٠).

صورة مبسطة ارتضاها الرب لعبادته ، وحذر من المغالاة فى المظاهر ، حتى لا تصبح هذه المنشآت أوثانا ، ومن ثم اشترط أن تكون من تراب ، فاذا استخدمت الحجارة لا تكون منحوتة ، بل بصورتها الطبيعية ، لم يستخدم معها ازميل ، والا تدنست ، لأنها ستكون سبيلا الى الاعجاب ، فالتقدير ، فالاجلال فالوثنية ، فتنكشف عورة المتقرب الى (الرب) .

ومع هذا فان الرب يضع أمام موسى رسما تفصيليا للمقدس فى صورة مشروع هندسى معد للتنفيذ :

(بحسب ما أنا أريك من مثال المسكن ومثال جميع آنيته هكذا تصنعونه) .

(فيصنعون تابوتا من خشب السنط ، طوله ذراعان ونصف ، وعرضه ذراع ونصف وارتفاعه ذراع ونصف ، وعرضه ذراع ونصف وارتفاعه ذراع ونصف ، وتغشيه بذهب نقى ، من داخل ومن خارج تغشيه ، وتضع عليه اكليلا من ذهب حواليه ، وتشبك له أربع حلقات من ذهب ، وتجعلها على قوائمه الأربع ، على جانب الواحد حلقتان ، وعلى جانبه الثانى حلقتان ، وتصنع عصويه من خشب السنط ، وتغشيهما بذهب ، وتدخل العصوين فى الحلقات على جانبى التابوت ، ليحمل التابوت بهما ، تبقى العصوان فى حلقات التابوت ، لا تنزعان منها ،

وتضع فى التابوت الشهادة التى أعطيك) .

نلاحظ من هذا الوصف المطول أن التابوت لا يخرج عن صندوق فيه لوحا الشهادة ، وقاية لهما .. وكان بوسع (الرب) أن يؤكد على صيانة اللوحين ، وعلى شعبه المختار أن يختار الطريقة التى تتناسب مع ظروف حياتهم ، كأن تحفظ التعاليم وترتل ، أو تكتب منهما نسخ مختلفة ، حتى يكون عهد الطباعة ، فتطبع آلاف النسخ أو ملايينها .

لكن (الكهنة) أرادوا شيئا ، أو صنما (١) ، يلتف حوله الشعب ، أو أرادوا حقل تجارب لمعرفة امكانيات الشعب وقدرته على الحركة داخل اقتصاديات الشعوب المستقلة .

لهذا لزم أن (تبقى العصوان فى حلقات التابوت ، لا تنزعان منها) رمزا للحركة المستمرة .

(وتصنع غطاء من ذهب نقى ، طوله ذراعان ونصف ، وعرضه ذراع ونصف ، وتصنع كروبين من ذهب ، صنعة خراطة ، تصنعهما على طرفى الغطاء ... ويكون الكروبان باسطين اجنحتهما الى فوق ، مظللين بأجنحتهما على الغطاء . ووجهاهما كل واحد الى الآخر) .

ومن وصف التابوت والغطاء نجد أن الرب مهتم بأن يكون الاكليل والحلقات والغطاء والكروبان من ذهب نقى ، لأن حديث الرب بعد ذلك سيكون (من على الغطاء بين الكروبين) ، فلابد وأن يكون (العرش) ذهبيا ، حتى يتناسب ومكانته (العلية) !!

---

(١) يقول الدكتور فؤاد حسنين علي : وظل الاسرائيليون زمنا طويلا يقدسون التابوت ، ويستخدمونه مجلبة الخير .

ثم يمضى في وصف المائدة والمنارة التى هى (من ذهب نقى ، عمل الخراطة) حتى ليحار القارىء : من أين هذا الذهب كله ، وقد جمعه هرون فى العجل الذهبى الذى احرقه موسى فصار رمادا فشرابا ؟ واذا كان الله قد صنع صورة لهذا كله ، فلماذا لم يقدمها هدية الى شعبه المختار ، ويعفيه من هذا الابتزاز الذهبى الرهيب (١) ؟

لكن يبدو أن سياسة (الرب) مستقبلية ، فهو يضع أسس المذاهب الاقتصادية التي ستنبثق فى صورة الهام من العقلية اليهودية .. فتركيز الثروة فى يد (اللاويين) يعنى سيطرة الطبقة ، أو السياسة الرأسمالية ، وأن تجتمع الثروة فى يد (المشرعين) يعنى عدم الملكية الفردية ، أو السياسة الشيوعية ، وتتجلى السياسة الاشتراكية فيما سنعرضه بعد بناء (المسكن) من ألوان الضرائب التى تثقل كاهل الشعب .

ويمضى فى وصف المسكن فلم يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ، وحدد مقاييسها ومادتها ، وطريقة صنعها ، وارتباطها بغيرها .. ولم يكتف بهذا ، بل صنع بيتا فى الجبل ، لينقل موسى صورة على مثاله : (كما اظهر لك فى الجبل هكذا تصنعونه) .

وزاد الرب فدعا (بصلئيل بن أورى بن حور من سبط يهوذا باسمه ، وملأته من روح الله بالحكمة والفهم والمعرفة وكل صنعة ، لاختراع مخترعات ، ليعمل فى

---

(١) يقول الدكتور فؤاد حسنين على : فى نصوص قديمة لم يرد ذكر لهذه الطبقة الذهبية أو الحلقات أو القوائم . ص ٥٩ اليهودية ، واليهوديه المسيحية .

الذهب والفضة والنحاس ، ونقش حجـــارة للترصيع ونجارة الخشب ، ليعمل فى كل صنعة ، وهأنذا جعلت أهولياب بن أخيساماك من سبط دان ، وفى قلب كل حكيم القلب جعلت حكمة ، ليصنعوا كل ما أمرتك) (خروج ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣١) .

ويلاحظ أن هذا البيت صمم على أساس امكانية نقله مع هذا (الشعب) الذى لم يستقر به المقام بعد ، وتبعا للاحداث المريرة والحروب التى خاضها لم يكن بمستطاع أن يجدد البناء .

يقول الدكتور فؤاد حسنين على : وجاء فى الخبر الصادق ان داود فكر فى اقامة معبد ليهوه فى عاصمة ملكه وعاصمة أسرته أورشليم ، حتى يكون هذا المعبد عاملا من عوامل اتحاد الأمة وجمع شمل البلاد ، الا أن معارضة بعض المحافظين من رجال الدين ، وعلى رأسهم النبى ناثان عرقل تنفيذ الفــكرة (صموئيل الثانى ص ٧) (١) .

فلما كان عهد سليمان حيث (لا يوجد خصم ولا حادثة شر) ، واتسعت امكانيات (الشعب) بأموال اغتنموها ، ومزارع أبادوا أصحابها .. تهيأ لسليمان بناء البيت ، فسخر ثلاثين ألف رجل يساعدون عبيد (حيرام) ملك (صور) فى قطع أخشاب الأرز والسرو ، وثمانين ألفا يقطعون حجارة كريمة مربعة فى الجبل وسبعين ألفـــا يحملون الأخشاب والحجارة ، (ما عدا رؤســاء الوكلاء لسليمان الذين على العمل ثلاثة آلاف وثلاثمائة المتسلطين على الشعب العاملين العمل) واجتمع بناءو حيرام وبناءو

(١) اليهودية ، واليهودية المسيحية ص ٦٠ .

سليمان والجبليون (وهيئوا الأخشاب والحجارة لبناء البيت) .. وعلى صـورة بيت الرب الذى أشرف على بنائه موسى ، أعاد سليمان بناء البيت ، لكن مع امكانيات باهظة التكاليف ، وعلى أسـاس أن يكون البيت ثابت الدعائم فى أورشليم (الملوك الأول ٥/٨) .

(ومقابل خدمات حيرام قدم سليمان لصور كثيرا من الحبوب والزيت ، كمـا تنازل عن جزء من مملـكته لصور) (١) .

وخرب نبوخذ نصر ما بنى سليمان ، وقضى على وجود اسرائيل فى ارض كنعان سنة ٥٨٧ ق . م . ثم استولى قورش ملك فارس على بابل ، وفك أسر بنى اسرائيل فأخذ الرب (حزقيال) ، وصعد به على جبل عال جدا ، و (اذا برجل منظره كمنظر النحاس ، وبيده خيط كتان ، وقصبة القياس ، وهو واقف بالباب ، فقال لى الرجل : يابن آدم ، أنظر بعينيك ، واسمع بأذنيك ، واجعل قلبك الى كل ما أريك لأنه لأجل ارادتك أتى بك الى هنا ، أخبر بيت اسرائيل بكل ما ترى) .

ومضى به الرجل يقيس السور خارج البيت ، ويرسم أبوابه ، ورواق الباب ، وغرفات الباب ، ثم أتى الى الدار الخارجية ، ومخادعها ، وأبوابها ، وغرفاتها وكواها ، وقببها ، ونخيلها ، ثم الدار الداخلية ، وغرفاتهـا ، وأروقة أبوابهـا وموائدها ، ومخادعها ، والهيكل ، وعضائده ، وقوائمه ، والبيت ، وغرفاته ، ومخادعه ، وكواه ، وعتباته ، وأساطينه ، وكروبيمه ، ونخيله ، والمذبح بكل تفصيلاته .

---

(١) المصدر السابق ـ ص ٦١ .

واشترط أن تكون (المخادع العليـــا أقصر ، لأن الأساطين أكلت من هذه من أسافل البناء ، ومن أواسطه، لأنها ثلاث طبقات ، ولم يكن لها اعمدة كأعمدة الدور ، لذلك تضيق من الأسافل ، ومن الأواسط من الأرض) .

ويلاحظ أن بيت (حزقيال) أكبر كثـــيرا مما بنى سليمان ، فبيت سليمان (طوله ستون ذراعا ، وعرضه عشرون ذراعا) ، على حين أن سور بيت حزقيـال بلغ خمسمائة قصبة طولا وعرضا ، و (قصبة القياس ست أذرع طولا بالذراع وشبرا) .

كما يبدو اهتمام (الرب) ببيت (حزقيال) اذ اتخذ له من البيت مقاما (يابن آدم .. هذا مكان كرسي ، ومكان باطن قدمي ، حيث أســكن وسط بنى اسرائيل الى الأبد) (حزقيال ٤٠/٤٣) .

***

واذا كان الرب قد اهتم ببيته هـذا الاهتمام ، فان عنايته بالقوامين عليه ، وبخدامه تبدو واضحة من خلال الأوصاف التى تتمثل فيهم ، والملابس التى يتحلون بها ، والحقوق التى كفلها لهم .

وفى هذا يقول الرب لهرون : (اذا كان رجل من نسلك، فى أجيالهم ، فيه عيب ، فلا يتقدم ليقرب خبز الهه ، لا رجل أعمى ، ولا أعرج ولا أفطس ، ولا زوائدى ، ولا رجل فيه كسر أو كسر يد ، ولا أحدب ، ولا أكثم ، ولا من فى عينه بيـــاض ، ولا أجرب ، ولا أكلف ، ولا مرضوض الخصى ، لئلا يدنس مقدسى) (لاويين ٢١) .

وأوصى موسى أن (اصنع ثيابا مقدسة لهرون أخيك ، للمسجد والبهاء) وهذه الثياب التى يصنعها (حـكماء

القلوب الذين ملأتهم روح حكمة ... صدرة ، ورداء ، وجبة . وقميص مخرم ، وعمامة ، ومنطقة) .

ويمضي فى وصف هذه الملابس بدقة ابرع مما فعل فى وصف البيت .

ولم ينس الرب أن يذكر ملابس بنى هرون من أقمصة، ومناطق ، وقلانس ، للمسجد والبهاء .. لكنه سكت عن وصفها لتاخذ نفس صفات ملابس أبيهم ، وبخاصة انه اتبع ذكر ملابس الابناء بقوله : (وتلبس هرون أخاك اياها ، وبنيه معه ، وتمسحهم وتملأ أياديهم ، وتقدمهم ليكهنوا لى ، وتصنع لهم سراويل من كتان لستر العورة من الحقوين الى الفخذين تكون ، فتكون على هرون وبنيه عند دخولهم الى خيمة الاجتماع ، أو عند اقترابهم الى المذبح للخدمة فى القدس ، لئلا يحملوا اثما ، ويموتوا ، فريضة أبدية له ، ولنسله من بعده) (خروج ٢٨) .

يحار المرء — دون شك — فى تكاليف هذه الثياب أكثر من حيرته فى أوصافها ...

هذا الذهب ، وهذه الحجارة الكريمة كلها ، ممن ؟ من شعب ضائع فى الصحراء ؟ ولماذا ؟ من أجل المثول بين يدى الرب ؟ أى رب هذا الذى يستولى على كل ما يملك شعبه ، ليصنع ثياب أسرة لا شرف لها الا الانتساب الى موسى الرسول ؟ ويجعله فى بيتها وسائل ترف وخداع ، بحسبان أن البيت بيت الرب ، ولابد أن يتناسب المكان مع جلاله (سبحانه) ، هذا الرب الذى يحتاج الى أن يلبس من يدخل عليه رمانات وجلاجل تحدث صوتا ، حتى لا يفاجأ متلبسا بما لا ينبغى ، فيغضب ، وتكون النتيجة موت من انكشف له ما لا ينبغى أن يرى ؟

وهل يكفى أن تسجل أســماء الاسباط على حجاره الصدرة لينساق الجميع وراء هذا الشرف العظيم ؟

هل يظل (الشعب) أسير هذه الترهات أبد الدهر ، من أجل مغفرة آثامه ، ونيل مرضاة (الرب) ؟

أليس هـذا الشعب لا يؤمن بالآخرة ، والشريعة المدونة فى لوحى التابوت لا تحمل اشارة الي ثواب او عقاب بعد الموت ؟

ماذا يدفع الشعب اذن الى ان يجوع ويعرى ، من أجل ان يأكل الكهنة القادة فى صحاف من الذهب ؟

أهو ذلك الوهم الكاذب الذى يربط بين الشعب والرب ، والدجل الطويل الذى ألقى فى قلوب هؤلاء القوم الرعب من المجهول ، والسخط والحقد على كل الشعوب ، والأمل الخادع فى مملكة الرب تسيطر — فى يوم — على كل العالم ؟

***

لننظر فى الالتزامات التى فرضها الكهنة على هؤلاء الأشقياء باسم (الرب) ، وتكررت بصورة أو بأخرى فى معظم الأسفار ، حتى تنغرس فى قلوبهم ، وتسرى فى دمائهم مسرى اله الذهب الذى سقاهم موسى ترابه .

يتحدث سفر (لاويين) الكهنة عن القرابين من الفطير والرقاق وما هو على الصاج ، وفى الطاجن ، والفريك المشوى بالنار ، والذبائح من البقر والغنم والماعز ، ومن أخطأ فعليــه ثور صحيح (للرب ذبيحة خطية) ، ومن اخطأ بسهو ، ثم أعلم بخطيئه (يأتى بقربان تيسا من المعز ذكرا صحيحا) ، فان كان من عامة الأرض (يأتى بقربانه عنزا من المعز أنثى صحيحة) (لاويين ٤/١) وبهذا يكفر عنه الكاهن ، ويصفح الرب .

و (ذبيحة الاثم كذبيحة الخطية ، لها شريعة واحدة ، الكاهن الذي يكفر بها تكون له ، والكاهن الذي يقرب محرقة انسان ، فجلد المحرقة التي يقربها يكون له ، وكل تقدمة خبزت في التنور ، وكل ما عمل في طاجن او على صاج يكون للكاهن الذي يقربه ، وكل تقدمة ملتوتة بزيت أو ناشفة تكون لجميع بني هرون ، كل انسان كأخيه ...

وهذه شريعة ذبائح السلامة التي يقربها للرب .

ان قربها لأجل الشكر يقرب على ذبيحة الشكر اقراص فطير ملتوتة بزيت ورقاق فطير مدهونة بزيت ، ودقيقا مربوكا اقراصا ملتوتة بزيت ، مع اقراص خبز خمير يقرب قربانه على ذبيحة شكر سلامته ، ويقرب منه واحدا من كل قربانه رفيعة للرب ، يكون للكاهن الذي يرش دم ذبيحة السلامة ، ولحم ذبيحة شكر سلامته ، يؤكل كل يوم قربانه ، لا يبقى منه شيئا الى الصباح .

وان كانت ذبيحة قربانه ، نذرا أو نافلة ، ففي يوم تقريبه ذبيحته تؤكل وفي الغد يؤكل ما فضل منها ، وأما الفاضل من لحم الذبيحة في اليوم الثالث فيحرق بالنار — اذ لم تكن الثلاجات اخترعت بعد ، وحتى لا يذوق — الفقراء طعمها ، فتنفتح أفواههم — ويكون الصدر لهرون وبنيه .. فريضة دهرية ، تكون هذه لهم في أجيالهم) .. (لاويين ١٧) .

ولم يكتف رب موسى بهذا ، بل أوصى بني اسرائيل بأن (قرباني طعامي مع وقائدي رائحة سرور ، تحرصون أن تقدموه في وقته .. وقل لهم هذا الوقود الذي تقربون للرب خروفان حوليان صحيحان لكل يوم محرقة دائمة .

وفي يوم السبت خروفان حوليان صحيحان وعشران من دقيق ملتوت بزيت ، تقدمه مع سكيبه .

وفي رءوس شهوركم تقربون محرقة للرب ثورين ابني بقر ، وكبشا واحدا ، وسبعة خراف حولية صحيحة ، وثلاثة أعشار من دقيق ملتوت بزيت تقدمه لكل ثور ، وعشرين من دقيق ملتوت بزيت تقدمه للكبش الواحد ، وعشرا واحدا من دقيق ملتوت بزيت تقدمه لكل خروف ، وسكائبهن تكون نصف الهين للثور ، وثلث الهين للكبش ، وربع الهين للخروف من خمر .

وفى الشهر الأول فى اليوم الرابع عشر من الشهر فصح للرب .

وفى اليوم الخامس من هذا الشهر عيد ، سبعة أيام يؤكل فطير) . (عدد ٢٨) وتستمر المحافل المقدسة والقرابين فى أيام محددة واجبة الالتزام على مر العام (عدد ٢٨/٢٩) .

هذا بالاضافة الى (كل عشر الأرض من حبوب الأرض وأثمار الشجر فهو للرب ، قدس للرب ، وان فك انسان بعض عشره يزيد خمسه عليه ، وأما كل عشر البقر والغنم فكل ما يعبر تحت العصا يكون العاشر قدسا للرب ، لا يفحص أجيد هو أم ردىء ، ولا يبدله ، وان أبدله يكون هو وبديله قدسا لا يفك) (لاويين ٢٧) .

ومن الغنائم يؤخذ واحد فى المائة زكاة للرب من البقر والغنم والحمير ، غير رفيعة للرب ، نفس من كل خمسمائة من الناس والبقر والحمير والغنم ، فضلا عن كل ما يوجد من أمتعة ذهب (حجولا وأساور وخواتم وأقراطا وقلائد) وغيرها .. (عدد ٣١) .

ويؤكد الرب حقوق هرون وأتباعه من هذا كله بتقسيمه بينهم على أساس أن لهرون (من قدس الأقداس، من النار، كل قرابينهم ، مع كل تقديماتهم ، وكل ذبائح خطاياهم ، وكل ذبائح آثامهم التى يردونها لى ، قدس أقداس هى لك ولبنيك ، فى قدس الأقداس تأكلهـــا .. كل ذكر يأكلها .. الرفيعة من عطاياهم .. الك أعطيتها ولبنيك وبناتك فريضة دهرية .

كل دسم الزيت ، وكل دسم المســطار والحنطة ، أبكارهن التى يعطونها للرب لك أعطيتها .

ابكار كل ما فى أرضهم التى يقدمونها للرب لك تكون .. كل طاهر فى بيتك يأكلها .. كل محرم فى اسرائيل يكون لك .

كل فاتح رحم — البكر — من كل جسد ، يقدمونه للرب من الناس ، ومن البهائم ، يكون لك .. غير أنك تقبل فداء بكر الانسان وبكر البهيمة النجسة .

جميع رفائع الأقداس .. أعطيتها لك ، ولبنيك وبناتك معك ، حقا دهريا) .. (واما بنو لاوى فانى قد أعطيتهم كل عشر فى اسرائيل ميراثا ، عـــوض خدمتهم التى يخدمونها ، خدمة خيمة الاجتماع) .

لكن على بنى لاوى أن يرفعوا عشر ما يحصلون عليه لهرون الكاهن (عدد ١٨) .

ثم تكون واجبات تدشين المذبح :

(قال الرب لموسى : رئيسا رئيسا فى كل يوم يقربون قرابينهم لتدشين المذبح .

أطباق فضة اثنا عشر ، ومناضح فضة اثنا عشر ،

وصحون ذهب اثنا عشر ، كل طبق مائة وثلاثون شاقل فضة ، وكل منضحة سبعون وجميع فضة الآنية ألفان وأربعمائة على شاقل القدس ، وصحون الذهب اثنا عشر مملوءة بخورا ، كل صحن عشرة على شاقل القدس ، جميع ذهب الصحون مائة وعشرون شاقلا ، كل الثيران للمحرقة اثنا عشر ثورا ، والكباش اثنا عشر ، والخراف الحولية اثنا عشر مع تقدمتها ، وتيوس المعز اثنا عشر للذبيحة الخطية ، وكل الثيران لذبيحة السلامة أربعة وعشرون ثورا ، والكباش ستون ، والتيوس ستون ، والخراف الحولية ستون ، هذا تدشين المذبح بعد مسحه) (عدد ٧) .

***

من كل ما سبق تتجلى الأطماع اليهودية التى لا تقف عند حد ، مع استغلال كل الوسائل الممكنة ، دون تقدير للظروف القاسية التى كان يمر بها الشعب .

ولقد حدث أن (قورح بن بصهار بن قهات بن لاوى ، وداثان وأبيرام ابنا الياب ، وأون بن فالت بنو رأوبين) أخذوا (يقاومون موسى مع أناس من بنى اسرائيل ، مائتين وخمسين رؤساء جماعة) غير راضية عن هذه الامتيازات ، التى فرضت لهرون وبنيه .. (كل الجماعة بأسرها مقدسة ، وفى وسطها الرب ، فما بالكما ترتفعان على جماعة الرب) ؟ .

ثورة على وضع شاذ ، وحتى لا تكون سابقة خطيرة فى حياة هذه الجماعة المقدسة ، كان لابد من ضربة قاصمة تردع من توسوس له نفسه بأن يفكر فيما فرض «الرب» .. فقال موسى لشيوخ اسرائيل : (اعتزلوا عن خيام

هؤلاء القوم البغاة ، ولا تمسوا شيئا مما لهم ، لئلا تهلكوا بجميع خطاياهم) .

ثم أعلن (ان مات هؤلاء كموت كل انسان ، وأصابتهم مصيبة كل انسان ، فليس الرب قد أرسلني ، ولكن ان ابتدع الرب بدعة ، وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم ، وكل مالهم ، فهبطوا احياء الى الهاوية ، تعلمون أن هؤلاء القوم قد ازدروا بالرب) .

(فلما فرغ من التكلم بهذا الكلام ، انشقت الأرض التى تحتهم ، وفتحت الأرض فاها ، وابتلعتهم وبيوتهم ، وكل ما كان لقورح من كل الأموال، فنزلوا هم وكل ما كان لهم أحياء الى الهاوية ، وانطبقت عليهم الأرض ، فبادوا من بين الجماعة ... وخرجت نار من عند الرب ، وأكلت المائتين والخمسين رجلا الذين قربوا البخور) (عدد ١٦).

ومع أن تقديم البخور كان بأمر موسى ، وفى الطاعة نوع من التوبة ، والاستغفار، فان الرب قد قضى ، ولا راد لقضائه ، (لكيلا يقترب رجل أجنبى ليس من نسل هرون ليبخر بخورا أمام الرب) (عدد ١٦) .

ومن ثم سارت الجماعة فى أسر الكهنة والقضاة والأدعياء (أمة متمردة) مغلولة بقيود لا قبل لهم بها .

فلما كان أول تجمع اسرائيلى فى أورشليم بعد السبى، تزعم نحميا وصدقيا وسرايا وعزريا ويرميا وفشحور وأمريا وملكيا ، وغيرهم من الكهنة .. جموع الشعب (فى قسم وحلف) أن يسيروا فى شريعة الله ، وأن يلتزموا — ولم تستقر الحياة بهم بعد — بهذه الفرائض الجائرة : (أقمنا على أنفسنا فرائض أن نجعل على أنفسنا ثلث

شاقل كل سنة لخدمة بيت الهنا ، لخبز الوجوه ، والتقدمة الدائمة ، والمحرقة الدائمة ، والسبوت ، والأهلة ، والمواسم ، والأقداس ، وذبائح الخطية ، للتكفير عن اسرائيل ، ولكل عمل بيت الهنا ، والقينا قرعا على قربان الحطب بين الكهنة واللاويين والشعب لادخاله الى بيت الهنا ، حسب بيوت آبائنا ، فى أوقات معينة سنة فسنة ، لأجل احراقه على مذبح الرب الهنا ، كما هو مكتوب فى الشريعة ، ولادخال باكورات أرضنا ، وباكورات ثمر كل شجرة ، سنة فسنة ، الى بيت الرب، وأبكار بنينا وبهائمنا ، كما هو مكتوب فى الشريعة ، وأبكار بقرنا وغنمنا ، لاحضارها الى بيت الهنا ، الى الكهنة الخادمين فى بيت الهنا ، وأن نأتى بأوائل عجيننا ورقائعنا واثمار كل شجرة من الخمر والزيت الى الكهنة، الى مخادع بيت الهنا ، وبعشر أرضنا الى اللاويين ، اللاويون هم الذين يعشرون فى جميع مدن فلاحتنا) (نحميا ١٠) .

وتستمر هذه الأوضاع الشاذة حتى نجد لعاموس ما يشبه الثورة على الكهنة والأغنياء ، اذ يقول : (من أجل أنكم تدوسون المسكين ، وتأخذون منه هدية قمح ، بنيتم بيوتا من حجارة منحوتة ، ولا تسكنون فيها ، وغرستم كروما شهية ، ولا تشربون خمرها ، لأننى علمت أن ذنوبكم كثيرة ، وخطاياكم وافرة ، أيها المضايقون البار ، الآخذون الرشوة الصادون البائسين عن الباب) .. (عاموس ٥) .

ولا تلبث أن تمضى صرخة عاموس .. بلا صدى !!

تقول الوصايا : (أكرم أباك وأمك ، لـكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب الهك ،

لا تقتل .. لا تزن .. لا تسرق ،

لا تشهد على قريبك شهادة زور .

لا تشته بيت قريبك .

لا تشته امرأة قريبك ، ولا عبده ، ولا أمته ، ولا ثوره ، ولا حماره ، ولا شيئا مما لقريبك .

أما اليوم السابع ففيه سبت للرب الهك .. لا تصنع عملا ما أنت وابنك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذى داخل أبوابك) .. (خروج ٢٠) .

نلاحظ جانب الخير فى هذه الوصايا ، لـكنه ليس الخير المطلق ، الأن ربط النهى بالقرابة ، يوحى بإباحة المنهى عنه مع غير الأقرباء .. ثم ان التوقف عن العمل يوم السبت مرده أن الله خلق الخلق فى ستة أيام ، ثم استراح فى اليوم السابع ، ولكن أى أيام هذه ، وهل كان زمان الانسان قبل أن يكون الانسان ؟ وهل ثم دليل على أن يوم السبت هو السابع ؟ وهل كلمة (سبت) فى غير العبرية والعربية ، ولم يكن موسى يعرف احداهما ؟ وأين السبت فى أيام (الأسبوع) العشرة عند الصينيين ؟ ثم ما علة (الاستراحة) فى اليوم الســـابع ؟ والله ــ سبحانه ــ لا يمكن أن يوصف بالتعب « ولقد خلقنـــا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، وما مسنا

(١) انظر : « شريعة سماوية .. ولكن » من كتاب « هذا الكتاب المقدس » للمؤلف .

من لغوب » (سورة ق ٣٨) .. أليس اللغوب من صفات المخلوق لا الخالق ؟

واذا كان اكرام الوالدين حقا وواجبا ، فهل التفريط فى هذا الواجب يوجب القتل (من ضرب أباه أو أمه يقتل قتــــلا .. ومن شتم اباه أو أمه يقتل قتــلا) (خروج ٢١) .

أليس من سبيل الى الندم والتوبة المغفرة ؟ ألا تضع محكمة العدل السماوية فى اعتبارها العوامل النفسية التى تثور بالابن فيخطىء ، وتدور بالأب فيعفو ؟!

هل من العدل السماوى أن تــكون الشريعة لصالح فريق دون فريق (للأجنبى تقرض بربا ، ولكن لأخيك لا تقرض بربا ، لكى يباركك الرب) (تثنية ٢٣) .

هل تحل بركة الرب على من يستغل حاجة المسلمين ؟

وما ذنب ابن الزنى وغير الاسرائيلى حتى يحرم من خدمة الرب (لا يدخل ابن زنى فى جماعة الرب ، حتى الجيل العاشر .. لا يدخل عمونى ولا موابى فى جماعة الرب حتى الجيل العاشر) (تثنية ٢٣) .

وكيف للرب أن يقول : (لا تضطهد الغريب ولا تضايقه) (خروج ٢٢) .. ثم يعود فيقول : (لا تأكل جثة ما ، تعطيها للغريب الذى فى أبوابك فيأكلهـــا ، أو يبيعها لأجنبى ، لأنك شعبه مقدس) ؟!

هل من القداسة المتاجرة فى جثث الموتى ، والعمل على قتل الآخرين من أجل دراهم معدودة ؟

***

ومع هذا فان تعاليم موسى تحمل ــ الى اليوم ــ قيما انسانية راقية ، أثبتها بترتيب ورودها :

(لا تسيء الى أرملة ولا يتيم) (خروج ٢٢) .

(لا تقبل خبرا كاذبا ، ولا تضع يدك مع المنافق ، لتكون شاهد ظلم ، لا تتبع الكثيرين الى فعل الشر ، ولا تجب في دعوى ، مائلا وراء الكثيرين للتحريف ، ولا تحاب مع المسكين فى دعواه ، اذا صادفت ثور عدوك أو حماره شاردا ترده اليه ، اذا رأيت حمار مبغضيك واقعا تحت حمله وعدلت عن حله فلابد أن تحل معه) (خروج ٢٣) .

(لا تبت أجرة أجيرك عندك الى الغد) (لاويين ١٩) .

(لا تشتم الأصم ، وقدام الأعمى لا تجعل معثرة) (لاويين ١٩) .

(لا ترتكبوا جورا فى القضــــاء ، لا تأخذوا بوجه مسكين ، ولا تحترم وجه كبير ، بالعدل تحكم لقريبك ، لا تسع فى الوشاية بين شعبك .. لا تبغض آخاك فى قلبك ، لا تنتقم ولا تحقد على أبناء شعبك) (لاويين ١٩).

(لا يكن متاع رجل على امرأة ، ولا يلبس رجل ثوب امرأة) (لاويين ١٩) .

(لا تحرث على ثور وحمار معا) (تثنية ٢٢) .

(لا تكم الثور فى دراسة) (تثنية ٢٢) .

***

(وتضع (التوراة) أسسا صالحة للتعامل الانسانى ، بحيث تساعد على تحقيق العدل ، وعلى أن تستل الأحقاد والضغائن .

(لا يقوم شاهد واحد على انسان فى ذنب ما ، أو خطية ما ، من جميع الخطايا التى يخطىء بها ، على فم

شاهدين ، أو على فم ثلاثة شهود يوم الأمر) (كتثنية١٩).

(ان فحص القضاة جيدا ، واذا الشاهد كاذب .. فافعلوا به كما كان نوى أن يفعل بأخيه) (تثنية ٢٣) .

(اذا أقرضت صاحبك قرضا ما ، فلا تدخل بيته لكى ترتهن رهنا منه ، فى الخارج تقف والرجل الذى تقرضه يخرج اليك الرهن الى الخارج) (تثنية ٢٤) .

(اذا ارتهنت ثوب صاحبك ، فالى غروب الشمس ترده اليه ، لأنه وحده غطاؤه) (خروج ٢٢) .

(لا تأخذ رشوة ، لأن الرشوة تعمى المبصرين ، وتعوج كلام الأبرار) (خروج ٢٣) .

(لا يكن لك فى كيسك أوزان مختلفة ، كبيرة وصغيرة ، لا يكن لك فى بيتك مكاييل مختلفة ، كبيرة وصغيرة) (تثنية ٢٥) .

(اذا حصدت حصيدك فى حقلك ، ونسيت حزمة فى الحقل ، فلا ترجع لتأخذها ، للغريب واليتيم والأرملة تكون) (تثنية ٢٤) .

***

ونجد فى الكتابات اليهودية التزامات خاصة بالذبح اشبه بالطقوس الدينية .. اذ يشترط فى الذابح أن يكون يهوديا ، متمسكا بتعاليم دينه ، ليس كفيفا ، ولا أصم ، ولا أبكم ، ولا سكيرا ، ولا صغيرا ، الا اذا أثبت انه كفء للذبح ، ولا يجوز للذابح أن يذبح الا بعد حصوله على ترخيص من الحاخام .

والذبح جائز فى أى مكان عدا الأنهار والبحار والأوعية المملوءة ماء والحفر ، ويجب أن تكون السكين

ذات نصل ضعف زور الطائر أو الحيوان المراد ذبحه ، كما يجب .ن يكون النصل حادا ولا عيب فيه من خدش أو تلم ، وعلى الذابح .ن يفحصه بظفره أو طرف اصبعه قبل أن يذبح .

وعلى الذابح أن يبدأ بتلاوة بركة الذبح : (مبارك أنت يا رب الهنا ملك العالم ، الذى قدستنا بوصاياك ، وأوصيتنا بالذبح) .

والذبح لا يتم الا فى الزور ، فى القصبة الهوائية والبلعوم ، وفى أول القصبة الهوائية توجد لوزتان ، اذا ذبح الذابح بينهما فهذا حلال ، على أن يبقى على قليل بينهما فى أعلى الزور ، واذا لم يبق على شىء منهما وذبح فوقهما فالذبيحة محرمة .

واذا ضغط بالسكين على الزور كما لو أنه يقطع شيئا ما ، أو كمن يضرب بسيف حرمت الذبيحة .. وقد جرت العادة على تحريم الذبيحة التى تقطع كل رقبتها .

واذا غطى الريش أو الشعر السكين فالذبيحة محرمة .

وعلى الذابح أن يوارى الدم التراب ويباركه : (مبارك أنت يارب ، الهنا ، ملك العالم ، الذى قدستنا بوصاياك، وأوصيتنا على تغطية الدم بالتراب) (١) .

***

وقد قدمت (التوراة) صورا من العقوبات المادية ، يمكن أن تكون وسيلة الى حماية الحقوق .

(اذا رعى انسان حقلا أو كرما ، وسرح مواشيه فرعت فى حقل غيره ، فمن أجود حقله يعوض .

---

(١) اليهودية واليهودية المسيحية ص ١١٩/١٢١ .

اذا خرجت نار وأصابت شوكا فاحترقت اكداس أو زرع أو حقل ، فالذى أوقد الوقيد يعوض .

اذا أعطى انسان صاحبه فضة أو أمتعة للحفظ ، فسرقت من بيت الانسان فان وجد السارق يعوض باثنين ، وان لم يوجد السارق يقدم صاحب البيت الى الله ليحكم ، هل لم يمد يده الى ملك صاحبه .

واذا استعار انسان من صاحبه شيئا فانكسر أو مات وصاحبه ليس معه يعوض ، وان كان صاحبه معه لا يعوض) .. (خروج ٢٢) .

ويؤخذ على هذه العقوبات - وغيرها كثير - أنها تتحدث عن التعويض ، دون بيان ما اذا كان المعتدى لا يملك ما يعوض به ، كما أن التعويض لا يلتزم قاعدة مطردة ، فهو تارة المثل ، وتارة الضعف ، وقد يصل الى خمسة أضعاف ، مع أن (التكييف القانونى) متشابه .. هذا الى أن الأحكام ترتبط بحالات ، لا بكل الحالات .. (انظر تفصيل ذلك فى خروج ٢٢) .

أما بالنسبة لجريمة القتل ، فالأصل (لا تقتل البرىء والبار) (خروج ٢٢) واذا حدث العدوان (فلا تشفق عينك ، نفس بنفس ، عين بعين ، سن بسن ، يد بيد ، رجل برجل) .. (تثنية ١٩) .

(كل من قتل نفسا فعلى فم شهود يقتل القاتل ، وشاهد واحد لا يشهد على نفس للموت ، ولا تأخذوا فدية عن نفس القاتل المذنب للموت ، بل انه يقتل) (عدد ٣٥) .

حكم صارم ، لا يشوبه الا أن (ولى الدم يقتل القاتل ،

حين يصادفه) (عدد ٣٥) مما يســاعد على مزيد من القتلى ، لأنه يأخذ طابع الثأر ، لا عدالة القصاص .

وان كنا نجد فى سفر (خروج) أن الكهنة هم الذين يتولون القصاص (فمن عند مذبحى تأخــذه للموت) (خروج ٢١) ، فتبعة التفيير تقع على أولئك الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، دون ادراك لقداسة الكلمة .

وفى حالة الخطأ : (ان دفعه بغتة بلا عــداوة ، أو القى عليه أداة ما دون تعمد ، أو حجرا ما مما يقتــل به بلا رؤية ، أسقطه عليه فمات ، وهو ليس عدوا له ، ولا طالبا أذنيه ، تقضى الجماعة بين القاتل وولى الدم .. وتنقذ الجماعة القاتل من ولى الدم ، وترده الجماعة الى مدينة ملجئه التى هرب اليها ، فيقيم هنــاك الى موت الـكاهن العظيم الذى مسح بالدهن المقدس .. ولكن .. ان وجده ولى الدم خارج حدود مدينة ملجئه ، وقتل ولى الدم القاتل ، فليس له دم) (عدد ٣٥) .

ومن هنا اختلط العدل بالجور ، فقضاء الجمــاعة بين القاتل وولى الدم قد يصل الى دية مرضية ، وابعاد القاتل علاج نفسى يدعمه الحــزن العظيم على الـكاهن العظيم ، أما أن يلتقى ولى الدم بعد ذلك بالقاتل فيقتله دون عقاب فأمر ليس من العدالة فى شىء .

حالات كثيرة تعرضها التوراة ، وصور من العقاب تميل الى العدل الرادع الذى قد يصل الى حد القسوة .

ولكن .. مع هذا فان أحــداث اسرائيل الواردة فى التوراة ، كثيرا ما تخرج على ما ورد فى الشريعة ، فاذا كان (كل انسان بخطيته يقتل) (تثنية ٢٤) فماذا حدث لداود وقد قتل أوريا الحثى حتى يظفر بزوجته ؟ وكيف

يقتل ابشالوم بن داود أخاه أمنون ، ويكون للملك حق العفو عن القاتل (صموئيل الثانى ١١ و ١٤) .

ثم كيف تول الشريعة : (لا يقتل الآباء عن الأبناء ، ولا يقتل الأولاد عن الاباء) (تثنية ٢٤) ويقول الرب : (افتقد ذنوب الآباء فى الأبناء ، فى الجيل الثالث والرابع من مبغضى) (خروج ٢٠) ؟

وتاريخ بنى اسرائيل حافل بالقتل الجماعى رجالا ونساء وأطفالا وبهائم وكل نسمة حية ، اذا حمى غضب الرب ، أو حمى غضب نبى من أنبيائه ، أو قائد من قادته .

***

واهتمام (التوراة) بحماية الأعراض شديد .. من يقرأ الاصحاح الثامن عشر من سفر (لاويين) يجد صورة تكاد تكون مطابقة لما أورد القرآن فى سورة النساء عن المحارم ، أما ما جاء فى سورة النور من عقاب المعتدين على المحارم فان روح التشريع واحدة ، متمثلة فى :

(لا تدنس ابنتك بتعريضها للزنى ، لئلا تزنى الأرض ، وتمتلىء الأرض رذيلة) (لاويين ١٩) .

(اذا اضطجع رجل مع امرأة طامث ، وكشف عورتها، عرى ينبوعها ، وكشفت هى ينبوع دمها ، يقطعان كلاهما من شعبهما) (لاويين ٢٠) .

(اذا راود عذراء لم تخطب ، فاضطجع معها ، يمهرها لنفسه زوجة .. ان أبى أبوها أن يعطيه اياها يزن له فضة كمهر عذراء) (خروج ٢٢) ، وزاد فى مكان آخر انه اذا تزوجها (لا يقدر أن يطلقها كل أيامه) .. (تثنية ٢٢) .

(اذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل ، فوجدها رجل فى المدينة واضطجع معها ، فأخرجوهما كليهما الى باب تلك المدينة ، وارجموهما بالحجارة حتى يموتا ، الفتاة من أجل انها لم تصرخ فى المدينة ، والرجل من اجل انه اذل امرأة صاحبه .

ولكن ان وجد الفتاة المخطوبة فى الحقل ، وأمسكها الرجل واضطجع معها ، يموت الرجل الذى اضطجع معها وحده) لأنه (لم يكن من يخلصها) (تثنية ٢٢) .

هذه حالات — وغيرها كثير — تتسم بالعدالة ، أو لا تبعد عنها .. وقد نجد مبالغة فى الأحكام فيما اذا كانت الجريمة من النوع الواحد أو مع الحيوانات .

لكن ما نعيبه أن تكون هذه التشريعات فى (التوراة) الى جانب اتهام الأنبياء بهذه الجريمة الشنعاء ، حتى جعلوا النبى يضطجع مع بنتيه ، أو زوجة جاره ، وأمنون ابن داود يعشق أخته ثامار ، ويحتال حتى يخلو بها ويضطجع معها (صموئيل الثانى ١١) ولا عقاب .

وحين اخطأ شكيم مع (دنية) ابنة يعقوب ، وأراد أن يصلح خطأه ويتزوج منها ، فقال حمور أبو شكيم ليعقوب وبنيه : (ابنى قد تعلقت نفسه بابنتكم ، أعطوه اياها زوجة ، وصاهرونا ، تعطونا بناتكم ، وتأخذون لكم بناتا ، وتسكنون معنا ، وتكون الأرض قدامكم ، اسكنوا ، واتجروا فيها ، وتملكوا بها ، ثم قال شكيم لأبيها واخوتها : دعونى أجد نعمة فى أعينكم ، فالذى تقولون لى اعطى ، كثروا على جدا مهرا وعطية ، فأعطى كما تقولون لى ، وأعطونى الفتاة زوجة) .

(فأجاب بنو يعقوب شكيم وحمور أباه بمكر) واشترطوا

ان يتم ما اراد اذا اختتنوا ...

وحسن القـــول فى عينى آل حمور (واختتن كل ذكر) .

(وفى اليوم الثالث اذ كانوا متوجعين ، أن ابنى يعقوب شمعون ولاوى ، أخوى دينه ، أخذا كل واحد سيفه ، وأتيا على المدينة بأمن ، وقتلا كل ذكر ، وقتلا حمور وشكيم ابنه بحد السيف ، وأخذا دينة من بيت شكيم ، وخرجا ، ثم أتى بنو يعقوب على القتلى ، ونهبوا المدينة ، لأنهم نجسوا أختهم ، غنمهم وبقرهم وحميرهم وكل ما فى المدينة وما فى الحقل أخذوه ، وسبوا ونهبوا وغنموا كل ثروتهم وكل أطفالهم ونساءهم وكل ما فى البيوت (تكوين ٣٤) .

فاذا عرفنا أن موسى وهرون والكهنة جميعا من سلالة (لاوى) لم يغب عنا أن ما يفعله (لاوى) يصبح من شريعة موسى ، وتقوم الكهنة على تنفيـــذه دون تساهل .. فالهدف هو ابادة الشعوب الأخرى ، والاستيلاء على كل ما يملكون ، دون حاجة الى جريرة !!

***

بقيت الاشارة الى العنـاية الـكبيرة فى (التوراة) بالنجاسة والطهـــارة الى حد أن يصبح الأصـل هو النجاسة ، وتؤدى للطهـــارة طقوس معقدة حتى يمكن تحقيقها ، بعد تقديم القرابين اللازمة .. فمثلا .

(المرأة التى يضطجع معها رجل اضطجاع زرع يستحمان بماء ، ويكونان نجسين الى المساء) (لاويين ١٥) .

(اذا مات انسان فى خيمة ، فكل من دخل الخيمة ،

وكل من كان فى الخيمة يكون نجسا سبعة أيام .

(وكل من مس على وجه الصحراء قتيلا بالسيف ، أو ميتا ، أو عظم انسان ، أو قبرا يكون نجسا سبعة أيام .

فيأخذون للنجس من غبار حريق ذبيح الخطية ، ويجعل عليه ماء حيا فى اناء ، ويأخذ رجل طاهر زوفا ، ويغمسها فى الماء ، وينضحه على الخيمة وعلى جميع الأمتعة ، وعلى الأنفس الذين كانوا هناك ، وعلى الذى مس العظم أو القتيل أو الميت أو القبر ، ينضح الطاهر على النجس ، فى اليوم الثالث واليوم السابع ، ويطهره فى اليوم السابع ، فيغسل ثيابه ، ويرحض بماء ، فيكون طاهرا فى المساء ، وأما الانسان الذى يتنجس ولا يتطهر ، فتباد تلك النفس من بين الجماعة .. وكل ما مسه النجس ينجس ، والنفس التى تمس تكون نجسة الى المساء)) عدد ١٩) .

(كل فراش يضطجع الذى له السيل يكون نجسا ، وكل متاع يجلس عليه يكون نجسا ، ومن مس فراشه يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجسا الى المساء .

واذا طهر ذو السيل من سيله يحسب له سبعة أيام لطهره ، ويغسل ثيابه ، ويرحض جسده بماء فيطهر ، وفى اليوم الثامن يأخذ لنفسه يمامتين أو فرخى حمام ، ويأتى الى أمام الرب ، الى باب خيمة الاجتماع ، ويعطيهما للكاهن ، فيعملهما الكاهن الواحد ذبيحة خطية ، والآخر محرقة ، ويكفر عنه أمام الرب من سيله) (لاويين ١٥) .

أما طهر الأبرص فيكاد يصل الى الشعوذة والدجل .. ويلاحظ أن موضوع البرص يشغل من شريعة الرب ثلاثة اصحاحات فى سبع صفحات .

ولم تقتصر النجاسة على ما سبق .. فكل من مس جثة حيوان لا يؤكل والحيوانات التى لا تؤكل كل ما لا يجمع بين الاجترار وشق الظلف - (يكون نجسا الى المساء ، ومن حمل جثتها يغسل ثيابه ، ويكون نجسا الى المساء) .. (لاويين ١١) .

ويدهش المرء اذا علم أن الجمل والحصان والحمار والأرنب مما لا يؤكل ، وكان الحمار وسيلة الانتقال قبل أن يعرفوا الجمل ، فكيف ينجس من مسه ؟

وتسأل لماذا تظل النجاسة حتى المساء ، ولماذا يكسر الوعاء الخزفى ، ولا يكفى معه الغسل ، مع أن جودة صنعه قد تختفى معها المسام ، فضلا على أنه يطلى بطلاء أملس ؟

(كل قاع خزف وقع فيها منها ، فكل ما فيه يتنجس ، وأما هو فتكسرونه) .

(التنور والموقد يهدمان) (لاويين ١١) الا تطهرهما النار .. ؟

(واذا حبلت المرأة وولدت ذكرا تكون نجسة سبعة أيام ، كما فى أيام طمث علتها تكون نجسة ، ثم تقيم ثلاثة وثلاثين يوما فى دم تطهيرها ... وان ولدت أنثى تكون نجسة أسبوعين ، كما فى طمثها ، ثم تقيم ستة وستين يوما فى دم تطهيرها) (لاويين ١٢) فلماذا تختلف النجاسة مع الذكر عنها مع الأنثى ؟ وهل تختلف أيام الطمث مع المرأة الواحدة باختلاف ما تلد ؟

وعلى ذكر الطمث ، فأيام نظافة الحائض تبدأ فى اليوم الخامس ، اذا ما انقطع الدم ، وأيام النظافة سبعة ، ابتداء من اليوم السادس من مجىء الحيض ، ثم تبدأ

الطهارة ، وقبل غروب الشمس لا بعده ، تستحم المرأة ، وتغسل الرحم جيدا . ثم تلبس ملابس بيضاء نظيفة ، وتغطي سريرها بملاءة بيضاء نظيفة ، وتضع قطعة من القماش أو القطن الأبيض فى بيت الرحم ، فاذا لم تشاهد أثرا للدم تبدأ بعد هذا اليوم أيام النظافة السبعة ، وعليها أن تفحص نفسها مرتين فى كل يوم من أيام النظافة السبعة ، مرة فى الصباح وأخرى قبل الغروب ، وبعد اتمام النظافة تتوجه المرأة الى المغطس وتجرى عملية الغسل والطهارة ، وذلك بأن تكون :

١ — فى مغطس طاهر أو نبع ماء .

٢ — أن يتم الغطاس ليلا وبعد ظهور النجوم ، واذا حال دون ذلك حائل تغطس فى اليوم الثامن نهارا ، وتخفى ذلك عن زوجها حتى الليل .

٣ — قبل الغطاس تغسل كل جسمها بماء ساخن ، وخاصة الأماكن المستورة من الجسم مثل الابطين والسرة والأنف والأذن ، كما يجب عليها أن تقص أظافر اليدين والرجلين وتغسل ما بين الأصابع جيدا ، كما يجب عليها أن تغسل رأسها بماء ساخن وتمشط شعرها جيدا ، على الا تختلط شعرة بأخرى والا بطل الغطاس ، كما أن عليها أن تنظف أسنانها جيدا ، وتتجرد عند الغطاس من حليها .

٤ — غسل الرأس قبل الغطاس لابد أن يتم نهارا قبل غروب الشمس بقليل ، أو قبل ظهور النجوم ، ومن ثم تتوجه الى الغطس ، ولا يجوز لها أن تأكل أو تؤدى عملا قبل الغطاس ، ويحرم عليها أكل اللحم فى اليوم الذى تغطس فيه ليلا ، عدا يوم السبت فأكل اللحم مباح لها .

٥ ـ وفى الغطس يجب أن يغطى الماء كل جسمها وشعر راسها ، واذا ظهرت شعرة فوق الماء تعتبر المرأة نجسة ، وعليها أن تطلق يديها وساقيها فلا تقترب اليد من الأخرى ولا الساق من الأخرى .

٦ ـ بعد اتمام الغطاس تتلو البركة : (مبارك انت يارب ، الهنا ، ملك العالم ، الذى قدسنا بوصاياه وأوصانا بالطهارة) (١) .

أسئلة كثيرة حول النجاسة والطهارة تحتاج الى دراسة نفسية لهذا الشعب المختار .. أمرد ذلك الى الخوف أو التسامى ؟ أو هو وسيلة الكهنة للسيطرة ؟

حين أراد عيسى عليه السلام أن يقضى على سلطان الكهنة ، قال : (ليس ما يدخل الفم ينجس الانسان ، بل ما يخرج من الفم ، هو ينجس الانسان) (متى ١٥) .. فلما ازدادت شراسة اليهود فى محاربة المسيحيين ، قال بولس : (ليس شىء نجسا بذاته ، الا من يحسب شيئا نجسا ، فله هو نجس) (رسالة بولس الى أهل رومية ١٤) .

لعلّ موقف عيسى وبولس من النجاسة اشعار بأن الكهنة اتخذوا منها وسيلة قيد واعنات لتظل النفوس رهن الاحساس بالاثم ، ولا تجد خلاصها ، أو ما يشبه الخلاص الا على يد الكهنة .. ومن ثم يظل سلطان الكاهن يلاحق الرعية حيثما وجدوا .

***

وفى نهاية هذا البحث ينبغى أن نشير الى أن بعض

(١) اليهودية واليهودية المسيحية ص ١٢٢/١٢٣ .

رؤســاء الدين الذين فسروا التوراة اقتبسوا من العهد القديم والتامود عقائد جمعها موسى بن ميمون فى ثلاث عشرة عقيدة ، هى :

١ ـ أنا أومن ايمانا تاما أن الخالق تبارك اسمه موجود وخالق ومدبر كافة المخلوقات ، وهو وحده صنع ويصنع كل الأعمال .

٢ ـ أنا اومن ايمانا تاما بأن الخــالق تبارك اسمه وحيد ، وليس لوحدانيته مثيل على أى وجه ، وهو وحده الهنا ، كان كائن يكون .

٣ ـ أنا أومن ايمانا تاما أن الخالق تبارك اسمه ليس جسدا ، وهو منزه عن أعراض الجسد ، وليس له شكل مطلقا .

٤ ـ أنا اومن ايمانا تاما أن الخالق تبارك اسمه هو الأول وهو الآخر .

٥ ـ أنا أومن ايمانا تاما أن به وحده تليق الصــلاة والعبادة ، ولا تليق بغيره .

٦ ـ أنا أومن ايمانا تاما أن كل الأنبياء حق .

٧ ـ أنا أومن ايمانا تاما أن نبوءة سيدنا موسى عليــه السلام كانت حقيقية ، وأنه كان أبا للأنبياء الذين قبله والذين بعده .

٨ ـ أنا أومن ايمانا تاما أن الشريعة الموجودة الآن بأيدينا هى المعطاة لسيدنا موسى عليه السلام .

٩ ـ أنا أومن ايمانا تاما أن هذه الشريعة لا تتغير ، ولا تكون شريعة من لدن الخالق تبارك اسمه .

١٠ ــ أنا أومن ايمانا تاما أنه عالم بكل أعمال بنى البشر وأفــكارهم .

١١ ــ أنا أومن ايمانا تاما أنه يــكافىء خــيرا للذين يحفظون وصاياه ، ويعاقب الذين يخالفونها .

١٢ ــ أنا أومن ايمانا تاما بمجىء المسيح ، ولو تأخر انى أنتظر مجيئه .

١٣ ــ أنا أومن ايمانا تاما أنه ستكون قيامة الأموات عندما تصدر ارادة من لدن الخالق تبارك اسـمه وتعـالى ذكره الى أبد الآبدين (١) .

ويلاحظ على هذه العقائد أنها من صناعة موسى بن ميمون ، ولا دليل عليها من التوراة ، وان كانت اكتسبت شيئا من التلمود ، فهو في انكار ما عدا اليهودية (هذه الشريعة لا تتغير ، ولا تكون شريعة لدن الخالق) ، وفى فرض سلطان موسى على التاريخ الانسانى كله ، اذ (كان أبا للأنبياء الذين قبله والذين بعده) ، وبانكار الشريعة بعده يكون الأنبياء بعده مجرد عاملين على صيانة شريعته ... ثم ان المسيح عيسى ليس الا دعيا كاذبا ما دام الايمان قائمــا ــ على يد موسى بن ميمون ــ بمجىء المسيح ، ولو تأخر فسننتظره ، ومن سياق (المعتقدات) لا يكون دور المسيح الا مخلصــا للأمة اليهودية على دين موسى وليس رسولا .

ثم ان العبارات التى صيغت بها المعتقــدات تحمل الطابع الاسلامى (سيدنا موسى عليه السلام . . الخالق تبارك اسمه وتعالى ذكره) وكون موسى لا رسول بعده ، ثم

(١) اليهودية واليهودية المسيحية ص ١١٥/١١٤ .

الأوصاف التى وصف بها الخالق سبحانه ، وليس منها فى التوراة والتلمود ، بل والانجيل الذى بين أيدينا .

اما ما يتصل بقيـــامة الأموات فقد سبق القول أن التوراة تخلو منها ، وما ورد فى كتب الأنبياء ، فليس الا اشارات هى صدى للثقافة الفارسية كمـــا جاء فى (اشعياء ٢٦) و (دانيال ١٢) و (الجـــامعة ١٢) و (مزمور ١٦) .. لكنها اشارات لا تكسب معتقدا ، لأنها لا تتحدث عما وراء هذه القيامة ، مما قد يذهب بالقارىء مذهبا مجازيا ، أو يقول انها خطفة ثقافية من هنا ، وخطفة من هناك ، كما فعل موسى بن ميمون وليد الثقافة الاسلامية .

الفــــرق اليـهـودية

كثيرة هى الفرق الدينية ، واختلافاتها متشعبة ، من حيث المعتقدات والنظرة الى الكون والتعامل فى داخل المجتمع اليهودى وخارجه .. ومن أهم هذه الفرق :

١ - الفريسيون :

ومن دلالة الـكلمة يفهم أنهم المنعزلون ، أو المنشقون .. ذلك لأن أعداءهم كانوا يدعون أنفسهم الأحبـار او الربانيون ، وفيمـا بينهم كانوا يدعون بعضهم بعضا بالرفقاء .

وقد ظهر الفريسيون لأول مرة قبل الميـلاد بمائتى سنة ، وتبوءوا المسرح اليهودى حتى مائتى سنة بعـد الميلاد ، وهم يتبعون الحاخام عزرا Ezra والكتبة اليهود الأقدمين الذين يعتبرون عزرا أكبر معلم يهودى بعد موسى عليه السلام .

وأهم معتقدات هذه الفرقة أن الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم مخلوقة منذ الأزل ، وكانت مدونة على الألواح المقدسة ، ثم أوحيت الى موسى .

وهذا المعتقد قد يكون ناشئا عن الاتصال بالثقـافة

الاسلامية التى تتحدث عن أن القرآن كان جملة فى اللوح المحفوظ ، ثم نزل الى السماء السابعة ، فالسماء الدنيا ، فالى رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام .

واعتقد الفريسيون كذلك بالبعث وقيـــامة صالحى الأموات ، ليشتركوا فى ملك المسيح الذى سيأتى آخر الزمن ، وتزهدوا ، ولم يؤمنوا بتقـــديم القرابين الى المعابد ...

وتؤمن هذه الفرقة كذلك بالتلمود ،وبسلطة الحاخامات على اليهود ، وعصمتهم ، واعتبار أن مخافتهم هى من مخافة الله .

ومن أهم معتقداتهم الايمان بمجىء (المسيح المنتظر)، ليعيد (ملكوت الله) .. ومع ذلك كانوا ـ بسبب تعصبهم ـ الطـائفة التى وقفت فى وجه السيد المسيح وكانت على رأس المتآمرين به ، ولم ينفكوا يدبرون له الكيد حتى حكم بصلبه .

وتتمسك هذه الفرقة بمعتقدات الأنبياء والآباء الأولين، وترفض الايمان بالأنبياء اليهود المتأخرين .

وكان الفريسيون يكافحون فى سبيل اعلاء ســلطة العقيدة اليهودية ، وتقويم العــادات وتطبيق الطقوس الدينية تطبيقا دقيقا .

وكانوا يدعون الى جعل الـكتاب المقدس ملكا مشاعا للجميع .. وكانوا يعـلمون شـــعبهم فى الاجتماعات الأسبوعية للكنيس اليهودى ، واعظين مرشـــدين الى الحقائق الدينية .

وهم يقولون : (انه لو كتبت النجاة فى الدنيا لاثنين ،

يجب أن يكون الفريسي أحدهما) .

يقـــول القس (بوكس) : كافح الفريسيون كفاحا مستبسلا في سبيل وضع الحياة تدريجيا تحت سـلطة العقائد الدينية ، فتـأثرت قلوب الشعب بتعاليم الدين ونواهيه ، بفضل ما بذله الفريسيون من العنـــاية فى سبيل تقويم العادات ، وتطبيق الطقوس الدينية تطبيقا دقيقا ، ولكن الظواهر الخارجية كانت دائمـا خاضعة للعقائد الكامنة .

٢ ـ الصدوقيون :

قيل أن اسمهم منسوب الى ملكى صادق ، الذى (كان كاهنا لله العلى) وكان (ملك شاليم) ، وبارك ابراهيم الخليل حين لقيه (وقال : مبارك أبرام من الله العلى ، مالك السموات والأرض) (تكوين ١٤) .. وقيل نسبة الى صادوق الكاهن الأعظم فى عهد سليمان .

وهذه الفرقة أنكرت (التلمود) ، ولا تقدس (التوراة) قدسية مطلقة .

وهم ينكرون البعث واليوم الآخر لأنهم يعتقـدون أن العقاب والثواب يتمان فى الدنيا ، وكانوا يؤمنون بحرية الاختيار ، ولا يترقبون مسيحا قادما ، وفى ذلك يقول انجيل (متى) : (فى ذلك اليوم جاء اليه صدوقيون يقولون ليس قيـــامة) ، كما أنهم لا يؤمنون بالأرواح والملائكة ، تقول (أعمال الرسل ٢٣) (لأن الصدوقيين يقولون ليس قيامة ولا ملاك ولا روح) .

ويرى بعض الكتاب أن هذه الفرقة كانت من طبقـة

الأرستقراطيين التى كانت تحاول أن تحمى مصالحها ، فمالت الى احترام القــوانين الموجودة ، طالما اعترفت السلطات الحاكمة بيهوه ، واحترمت ديانة اليهود ، ولذلك لا يميلون الى العنف ، ولا الى الحركات الثورية .

ولقد كان عيسى عليه السلام على اتصال بهم فى بدء دعوته ، الا أنه انفصــل عنهم بسبب انـكارهم البعث واليوم الآخر .. ومن ثم كانت مقاومتهم دعوته أكثر من سواهم .

وبالمقارنة بين الفريسيين والصدوقيين نجد :

أ ـ انهما تؤمنان بالتوراة .. الا أن الصدوقيين قدموا الولاء للدولة على الولاء للأحكام الدينية ، بينما الفريسيون يجعلون الولاء المطلق للدين .

ب ـ أن الصــدوقيين يرون أن (يهوه) هو اله بنى اسرائيل وحدهم ، فهو اله قومى خاص بهم ، مما جعلهم يميلون الى العنف مع الأقوام سواهم .. على حين يرى الفريسيون أن يهوه اله جميع العالمين ، فنزعوا الى السلم مع غير اليهود .

ج ـ أن الصدوقيين ـ كما قلنا ـ أنـكروا البعث واليوم الآخر ، بينما صدقه الفريسيون وآمنوا به ، ثمرة اتصالهم بالثقافات الدينية الأخرى ، وتفتحهم العقلى .

د ـ أورد ابن حزم أن فرقة الصدوقيين كانت تقول ان العزيز ابن الله .

٣ ـ الحسديون ((الاساة)) :

ظهرت هذه الفرقة حوالى القرن الثانى قبل الميلاد ،

وتختلف عن بقية فرق اليهـــود اختلافا جوهريا ، فى عقائدها وعباداتها ونظمها وتقاليدها .

وقد ظل اتباعها يمارسون طقوسهم الدينية الى القرن الأول الميلادى ، وكانوا يحيون حياة أقرب الى الرهبنة، ويكرهون الزواج ، ويميلون الى الاشتراكية ، ويباشرون الزراعة والحرف المختلفة ، ويهتمون بالغسل اليـومى حرصا على الطهارة ، ويحرمون الأضاحى والقرابين ، وينكرون التفرقة العنصرية ، ويحرمون نظـام الرق ، ويدعون الى سلام دائم .

ويرجح أن يوحنا المعمدان كان واحدا منهم .

٤ ـ القراءون :

وهم فرقة نمت بعد تدهور فرقة الفريسيين ، فورثت الكثير من أتباعها .. وقد أسسها عنان بن داود فى بابل ، فى القـرن الثـــامن للميلاد ، وهذه الفرقة لا تعترف بالتلمود .. وتؤمن بتطبيق نصوص التوراة حرفيـــا ، وتحرم التأويل ، وتتشدد فى تطبيق الطقـوس الدينية ومظاهرها ، وتؤمن بالجبر ، لا بالاختيار .

ومن أهم التشريعات التى خالف فيها عنان بن داود الأحكام المقررة عند الربانيين ، تحريم زواج العم من ابنة أخيه ، وزواج الخال من ابنة أخته ، وسوى بين الابن والبنت فى الميراث ، وقرر أن الزوج لا حق له فى تركة زوجته ، وفتح باب الاجتهاد فى فهم النصوص المقدسة .

ويعزو محرر دائرة المعارف اليهودية العامة أسباب ظهور هذه الحركة الى عوامل ثلاثة :

أ ـ ظهور الخلافات بين اليهود بسبب التلمود الذى اعتبره بعضهم بدعة فى الدين .

ب ـ تأثر اليهود الشرقيين بالنصر السياسى المدهش الذى أحرزه الاسلام فى القرن السابع ، والذى أقام امبراطورية عالمية فى بضع سنين .

ج ـ تأثير المعتقدات الاسلامية ، والتقلبات السياسية ، والصراع بين الفرق الاسلامية .

فتحت راية الاسلام تثقف الشباب الاسرائيلى ثقافة عربية اسلامية استطاع بفضلها المحافظة على (الاسرائيلية) والارتقاء بها فى العصور الوسطى ، عصور الجهالة والظلام .

وكان لفلسفة المعتزلة أثرها الكبير فى العلماء الاسرائيليين الذين اتجهوا الى ايجاد تعليل فلسفى للدين اليهودي واحكامه ، كما وسع الاعتزال شقة الخلاف بين القرائين والربانيين .

وانشعبت هذه الطائفة الى طوائف من أشهرها طائفة بنيامين بن موسى ، التى تأثرت بأفكار ابن سيناوالفارابى ، وطائفة الأكبرية التى اقتربت من السامرية ، فى عدم الاعتراف بغير أسفار موسى الخمسة .

ه ـ الكتبة :

أطلقت هذه التسمية على جماعة كانت مهمتها كتابة الشريعة ، فعرفوا الكثير من المعلومات التى دونوها من الكتب المقدسة التى نسخوها ، واختاروا وظيفة الوعظ والارشاد وسيلة ارتزاق ، وأطلقوا على أنفسهم اسم

الحكماء ، أو الآباء وكانوا يمثلون الزعامة الدينية أيام الحكم الفارسي واليوناني والروماني .

وتطورت وظيفتهم الدينية ، فأخذ كثير منهم يفتحون المدارس الخاصة ؛ ينشرون من خلالهـــا برامج للتعليم الديني .

تقول الموسوعة اليهودية : (هم هيئة من المعلمين كانت مهمتهم تفسير الشريعة للشعب ، وقد ابتدأ تنظيمهم مع عزرا الذي كان رئيسـهم .. وهؤلاء الكتبة كانوا أول من علم التوراة ، وهم واضعو الشريعة الشفهية) .

٦ ـ السامريون :

فئة قليلة من اليهود ، لا تعترف بغير الأسفار الخمسة من الـكتاب المقدس .. وهي من بقـايا من أقاموا في (شكيم) بعد اجتياح نبوخذ نصر لاسرائيل .

وذكر ابن حزم أنهم يبطلون كل نبوة في بني اسرائيل بعد موسى ويوشع ، ويقولون أن مدينة القدس هي نابلس ، ولا يعرفون حرمة لبيت المقدس ولا يعظمونه ، وهم بالشام لا يستحلون الخروج عنها .

ولقلة عددها الذي لا يتجـاوز ثلاثمائة نسمة ، فان اليهود لا يعترفون بها كفرقة يهودية .

٧ ـ الاصلاحيون :

قـام موسى مندلسون (١٨٢٩ ـ ١٨٨٦) في ألمانيا بحركة اعتبرت ضربا من الاصلاح الديني الذي تأثر به

كثير من يهود العالم الغربى .. وكانت الحركة ترمى الى تغيير فى المعتقدات اليهودية بما يتمشى مع واقع الحياة ، فأباحت أكل الخنزير ، وعدم تقديس السبت ، ومالت الى التخفيف من الطقوس الدينية ، واستعمال اللغات الدارجة فى العبادة ، وأبطلت الصلاة على الموتى .

ومن أشهر مؤلفات مندلسون كتابه (أورشليم) الذى قال فيه عمانويل كانت : (أعتقد أن هذا الكتاب اعلان لاصلاح عظيم ، لا للشعب اليهودى فقط ، بل للشعوب الأخرى أيضا ، اذ ان الصلة بين الدين والضمير قوية جدا فى اليهودية ، وهى قوية قوة ما كان الانسان ينتظرها ، ولا يستطيع أحد مجاراتهم فيها) .

وقد أصدر فى ألمانيا سنة ١٨٥٠ م صحيفة باللغة العبرية تسمى (الواعظ الأخلاقى) جعلها منبرا لدعوته ، ولدعاة الاصلاح اليهودى .

ومن معالم دعوة الاصلاح انكار التوراة والتلمود كمصادر للتشريع ، وان كان الدعاة يؤمنون بأنهما نتاج العبقرية اليهودية الدينية .

وكان الهدف الرئيسى لهذه الدعوة اخراج اليهود من العزلة التقليدية والاندماج فى تيار الحضارة الأوروبية بقصد التوصل الى تقويض مقومات هذه الحضارة بعد أن تكون الريبة فى مقاصد اليهود الشريرة قد زالت بعد تمام الاندماج .

ويرجع المؤرخون أصول دعوة مندلسون الى (سباتاى

زفاى ـ ١٦٢٦/١٦٧٦) الذى كانت حركته (١) فى البانيا تحولا فى الدوافع اليهودية الخفية من الدراسة المستترة الى الانطلاق فى حركة واسعة النطاق بكل متضمناتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

وبعد (زفاى) عمل (جاكوب فرانك ـ ١٧٢٦/١٧٩١) ببولندا ـ من خلف قناع المسيحية الكاثوليكية ـ على أن يتضمن (مجد الدولة) القوة العسكرية والثورة وكل الملذات الدنيوية ، وكانت تراوده فكرة تكوين الدولة اليهودية فى احدى مقاطعات بولندا .

ودعا (اسرائيل بن اليعازر ـ ١٧٠٠/١٧٦٠) الى وحدانية الاله الذى يملأ مجده كل الأرض ، حتى يتزود يهود الغربة بقوة تساعدهم على مقاومة كل الاغراءات المضادة لليهودية .

وهكذا ساعدت الحركات الثلاث ـ قبل مندلسون ـ على نقل اليهودية الصهيونية من سلبية التقوقع والانتظار الى ايجابية الاندماج والحركة ، التى تحولت على يد مندلسن الى تغيير فى مناهج التعليم اليهودى ، والى انشاء مدارس (حرة) يستعاض فيها عن تدريس العبرية باللغات العصرية والرياضيات والعلوم الحديثة .

وجاء ليوبولد زونز الذى اختط ـ فى سبيل ازالة الفواصل بين اليهودية والحضارة الغربية ـ نهجا آخر يقوم على دعوة اليهود الى أن يبينوا للعالم قمة حضارتهم وعظمتها ، حتى يحظوا بالاحترام ، ويسهل قبولهم فى أمم

(١) س • زفاى تركى ، ظل نشاطه بين تركيا واليونان والبانيا ، ادعى الاسلام ، ليعمل تحت لوائه من أجل اعلاء شأن اليهود ، كما ادعى أنه المسيح المنتظر •

العالم ونتيجة هذه الدعوة أنشئت بالأموال اليهودية مئات المجلات التي تبحث في شئون اليهود ، وأقيمت معاهد عليا وكراسي لعلم اليهودية فى الجامعـــات ، وافتتحت متاحف ، وأنشئت جمعيات لنشر المعارف عن اليهودية فى أوسع نطاق ، وحدثت محاولات لتزييف التاريخ ، والسيطرة على الفكر الغربى وقيمه الأخلاقية والحضارية والاقتصادية ، كخطوة على طريق السيطرة العالمية .

ومع انتعاش الحركة القـــومية فى أوروبا وسيادة الاتجاهات العقلانية فى التفكير ـــ وجد اليهود طريقهم الى الانتشار والتسلط ، والعمـل على تحقيق الذاتية اليهودية ، والتأكيد على انهم شعب الله المختـار ، وأن بقائهم رهن بتمسكهم بالأرض الموعودة فلسطين حيث يوجد هيكل أورشليم ، وحيث يثبون منها لتحقيق ما وعد الله به نسل ابراهيم ، فى أرض تمتـد من الفـرات الى النيل .

وربما اعتبر كتاب (روما وأورشليم) لموريتس هيس (١٨١٢/١٨٧٥) حجر الأســـاس لظهـور المذهب الصهيونى . وقد صدر سنة ١٨٦٢ فى صورة رســائل متبادلة وعليها تعليقات ، وقد أهدى المؤلف كتابه الى جميع الـذين يـكافحون فى سبيل اعادة بعث قوميات الشعوب التى خلقت التاريخ ، كما يؤمن (هيس) بأن النتيجة الحتمية لبعث الدول والقوميات ظهـور الدولة اليهودية ، كما ساعد (فارص سمولنسكين ١٨٤٠/١٨٨٥) بقصصه على تأكيد أن اليهودية ليست رابطـة دينية ، بل هى العقيدة الجامعة الرابطـة لشعب خاص ، وأن هذه العقيدة الدينية ـ مباشرة أو غير مباشرة ـ مرتبطة ارتباطا وثيقا باللغة العبرية ، وكل انحراف عنها يؤدى

ولا شك الى اضعاف اواصر الترابط بين أفراد الشعب، وقد اصدر فى فينا سنة ١٨٦٧ م مجلة عبرية (صبح) يقول فى منهجها : (لا عار اذا اعتقدنا أن نفينا يجب أن ينتهى ، وانه سيأتى اليوم الذى تحصل فيه الأسرة الاسرائيلية على وطن ، مثلها مثل سائر الشعوب ، ولا عار اذا تمسكنا بلغتنا القـــديمة التى رافقتنا طيلة اجيال السبى والنفى والتجوال) .. ويقال أن (سمولنسكين) أول من عالج اليهودية علاجا قوميا فى كتابه (الشعب الخالد) ، اذ عالج اليهودية على أنها مذهب قومى ، يعتمد على أصول دينية وخلقية ، وهو يطالب بيهودية متعلمة ، تعتمد على السير قدما فى النهضة العقلية مع الحرص على خلق دولة يهودية .

وأخذ عدد الصحف والمجلات العبرية يزداد تدريجيا، حتى بلغ المئات فى أوروبا الغربية وفى روسيا ، أما فى أمريكا فقد صدرت صحف ومجلات أسبوعية وشهرية منذ سنة ١٨٧٠ م وفى فلسطين عرفت الصحف العبرية منـــذ عام ١٨٦٣ م ، وفى عام ١٨٨٠ ظهرت الصحف اليومية الحـــــديثة بفضل جهـــود سمولنسكين وبلوم وجوردون .

ونتيجة الاضطهاد القيصرى فى روسيا لليهود روجوا للشيوعية ، وناصروها لكن ما لبثوا بعد نجـاح الثورة البلشفية أن ركبوا ظهـــرها ، وصاروا عبئا ، وكانت النتيجة أن حد البلشفيون من نشاطهم ، فانتقل النشاط الى وارسو التى صارت مركز اصدار عدد من الصحف العبرية ، فضلا عن دار نشر أسسها دافيد فريشمان .

الأعياد اليهودية

نستطيع أن نميز بين نوعين من الأفراح والأعياد ، دينيا ودنيويا .

فمن الأعياد الدنيوية ما ارتبط بتتويج الملوك أو عند النصر ، ومنه ما يتعلق بالأسرة كالزواج والفطام والختان وجز الأغنام .

ومن الأعياد الدينية ما هو خاص ، وما هو عام ، وان كانت النكبات التى نزلت باليهود وبخاصة على يد الأشوريين والبابليين والرومان قضت على كثير من أفراحهم وأعيادهم الخاصة .. لكن الشريعة حرصت على الأعياد الكبرى ، حتى ابان السبى والعودة ، ولم يكتف الاسرائيليون بها ، بل أضافوا اليها أعيادا أخرى .

ومن أهم أعيادهم :

١ ـ عيد الفصح

وهو عيد قديم ، عرفه الاسرائيليون في البادية ، وتذكر بعض المصادر التى وصلتنا (خروج ١٢ ى ٢١) أن احتفال الاسرائيليين به كان بمناسبة الخروج من مصر ، بقيادة موسى عليه السلام .. وقد يزيد هذا العيد اهمية

ان اليهود يعتقدون أن (الرب) قاد اليهود بنفسه ، واخرجهم من نير العبودية . ولأن الخروج كان بصورة اضطرارية ، اذ أعجلهم الخوف من اللحاق بهم ، فقد اعدوا خبزهم على عجل فطيرا ، دون أن يختمر .. ولهذا اصبح على اليهود ان ياكلوا الخبز الفطير فى الاسبوع الثالث من شهر نيسان ، ويقيمون احتفالات مقدسة فى بداية العيد ونهايته ، حيث يتلون الأدعية ، ويقيمون الصلوات ، ويحرقون القرابين .

وهناك رواية أخرى تقول ان الاحتفال بهذا العيد كان يقع فى فصل الربيع ، اذ يختار يوم اكتمال القمر وينحرون الضحايا ليلا وتشوى الأضحية وتؤكل لوقتها مع الفطير ، اما ما تبقى من الأضحية فيحرق . (خروج ١٢ وتثنية ١٦) .. الا أن العادات المتبعة عند الاحتفال بهذا العيد لا تشير الى الخروج من مصر ، كما أن صفات العيد ليست تاريخية ، بل متصلة بالطبيعة ، وبخاصة فصل الربيع واكتمال القمر ...

ويمكن القول ان هذا العيد عرف قبل أن يعرف الاسرائيليون (يهوه) ، فى عهد كانوا يقدسون فيه الأرواح الشريرة ، اذ تذبح الأضاحى ، ويؤتى بدمها فيرش فى أماكن مختلفة تهدئة لغضب الأرواح الشريرة ، فلما كانت عبادة (يهوه) احتفظوا باحتفالاتهم بهذا العيد، واخذ الاحتفال به يتطور مع تطور العقيدة والحياة .

والمزمور ١٠٧ خاص بعيد الفصح ، اذ بدا الاسرائيلى تلاوته فى صلاة المساء بعد تمام التضحية والأكل .

وفى مرحلة من حياة (القوم) خلطوا بين صنع الفطير وتقديم القربان ومعاداة غير اليهود وبخاصة المسيحيين ،

فكانوا يعجنون الفطير بدماء أحد ضحاياهم .. لا سيما في عيد الفصح وعيد أستير ومراسم الختان، واستخدموا هذه الدماء في طقوس سحرهم وشعوذتهم .. وقد جاء في (أشعياء / ٥٧) : (اما انتم أولاد المعصية ، نسل الكذب ، المتوقدون الى الأصنام تحت كل شجرة خضراء ، القاتلون الأولاد في الأودية تحت شقوق المعاقل ؟!) .

وقد حدث في ٦ فبراير سنة ١٨٤٠ أن اختفى أحد الرهبان الكاثوليك من الرعايا الايطاليين بدمشق واسمه « توما » ، واختفى خادمه أيضا ، وأعلن الرهبان الكاثوليك أن اليهود ذبحوا أخاهم توما كما هي عادتهم ، وقد عثر على جثته وقد قطعت بصورة غير مألوفة لاخراج الدم منها ، ولما قام شريف باشا حاكم دمشق بتفتيش حارات اليهود ، وألقى القبض على سبعة منهم ، اعترف حلاق حارة اليهود بأنه هو الذي قام بذبح الراهب واقر بأن كل الذي جرى انما يتمشى مع ما جاء في التلمود عن ضرورة عجن الفطيرة بدم مسيحي أو مسلم ، واعترف بأنه قام بذبح الخادم .

وبعدها بيوم عثر اليونانيون في جزيرة رودس على واحد منهم مشنوقا بعد أن صفي دمه .

وقد أثار هذان الحادثان ثائرة الناس فهاجموا اليهود في حاراتهم ومعابدهم وحرقوا وهدموا المعابد في دمشق وبيروت وأزمير .

واذا كان الحادثان قد عملا على مثار فتنة واضطرابات عدوانية فليس شك في أن أحداثا كثيرة مماثلة أهملها

التاريخ ، أو أحكم اليهود تدبيرها ، بحيث لم يقف أصحاب الضحايا عندها .

والمؤرخ اليهودي القديم يوسيفوس (ت سنة ٩٥ م) يذكر أنهم ما كانوا يقتصرون على شرب دماء ضحاياهم ومزجها بعجين فطائرهم ، بل كانوا يأكلون كذلك قطعا من لحومهم .

٢ ـ عيد الهلال :

وفيه تنفخ الأبواق اعلانا عن ظهور الهلال الجديد الذى قد يعد فى مرحلة من مراحل معتقداتهم الها .. ويتبارى اليهود فى سرعة اخبار الكهنة برؤيته .. وبعدها يشعل اليهود النيران على جبال الزيتون لاعلام الآخرين ، وتقام وليمة فى قصر الملك ، كما كانت العائلات والبطون والأسباط تختار هذا اليوم لاجتماعهم ، وتقدم القرابين فى الأماكن المقدسة من الملك والشعب .. وقد نص العهد القديم على تقديس هذا اليوم اذ جاء (وفى رءوس شهوركم تقربون محرقة للرب ، ثورين ابنى بقر وكبشا واحدا وسبعة خراف حولية صحيحة) (عدد ٢٨ و ٢٩)، ويدعو المصلون ، (الهنا واله آبائنا ، جدد لنا هذا الشهر بخير وفرح وسرور وخلاص وتعزية وقوت واعالة وغفران الخطيئة وعفو عن الاثم ، وليكن هذا الشهر نهاية وحدا لكل ضيقاتنا ، وابتداء وأول فداء أنفسنا ، لانك اخترت شعبك اسرائيل من بين جميع الأمم ، وفرضت عليهم فرائض رءوس شهور) .

ولا يكتفى الاسرائيليون بتقديس الهلال ، بل القمر أيضا ، ففى احدى ليالى الأسبوع الثانى من شهر تتلى

صلاة اخرى ، تنتهى بأن يقفز المصلون ويقولون : (كما اننا نحاول أن نقفز نحوك ولا يمكننا أن نلمسك ، هكذا ليت كل الذين يقفزون نحونا ليضروا بنا لا يقدرون أن يلمسونا ، لتقع عليهم الهيبة والرعب بعظمة ذراعك ، يصمتون كالحجر كالحجر ، يصمتون بعظمة ذراعك ، الرعب والهيبة عليهم تقع) .

٣ ـ السبت :

خطيئة عظيمة عدم مراعاة حرمة هذا اليوم ، بحيث لا ينشغل فيه الانسان اليهودى بعمل .. ويدعى أن الوصايا العشر تقدس هذا اليوم ، وان كانت عبارة التوراة لا تفيد هذا ، اذ تقول : (أما اليوم السابع ففيه سبت للرب الهك) .. فأى يوم هو ذلك السابع ، ما دام لا دليل على الأول .

وفى هذا اليوم يتشبه اليهود بالرب فى الانقطاع عن العمل .

جاء فى سفر (خروج ص ٣١) : (تحفظون السبت ، لأنه مقدس لكم . من دنسه يقتل قتلا ، ان من صنع فيه عملا تقطع تلك النفس من بين شعبها ، ستة أيام يصنع عمل ، وأما اليوم السابع ففيه سبت عطلة مقدس للرب ، كل من صنع عملا فى يوم السبت يقتل قتلا .. لأنه فى ستة أيام صنع الرب السماء ، وفى اليوم السابع استراح وتنفس) .

يقول الدكتور فؤاد حسنين على : « كان السبت يوم راحة ، يخصص للأسفار والرحلات ، وبعد السبى

اخرجت اليهودية يوم السبت عن معناه الأصلى ، ونظرت اليه نظرة دينية خالصة ، اذ كان من اليهود من يفضل أن يقتل من أن يدافع عن نفسه يوم السبت .

ويرى ول ديورانت أن اليهود تأثروا فى هـذا اليوم بالبابليين الذين كانوا يطلقون على يوم الصيام (شبتو) ويقدسونه (١) .

٤ ــ يوم التكفير والغفران :

وتطلب المغفرة فيه عن الذنوب التى فعلها اليهود فى صلاة جماعية يؤديها الكهنة .. ويمكن القيام بالصلاة فى أى وقت من السنة ... لـكن يوم التـكفير يتميز بتمسك اليهود فيه ، اذ يمضون اليوم كله فى الصلاة والصيام ، ويسبقه تسعة أيام من التوبة عما فعلوا طول العام من آثام ... وهذا اليوم يكون فى الشهر السابع من السنة اليهودية .

٥ ــ الحج الى بيت المقدس :

على اليهودى أن يحج الى بيت المقدس مرتين كل عام .. يقضى أسبوعا فى كل مرة . مشتركا فى احتفالات يقودها الكهنة ، لتكون الفرصة متاحة فيتعرف يهود العالم بعضهم ببعض .

ويرى الدكتـور فـؤاد حسنين على أن الاسرائيليين أخذوا عن الكنعانيين كثيرا من أعيادهم الزراعية وحاولوا

(١) اليهودية واليهودية المسيحية ص ٦٥/٦٦ .

ارجاعها الى تاريخهم القديم .. ومن هذه الأعياد عيد الشعير ، حيث يصنع فيه الفطير .. وبعد نحو سبعة أسابيع نجد عيد الحصاد ، ثم عيد جمع العنب والفواكه، ويسمى عيد المظال .. وارتبط بهذه الأعياد تقديس ابكار الحيوان والنباتات والفواكه (١) .

وبعد السبي ظهر عيد الفوريم ، وكان ذلك فى ١٤/١٥ آذار اعتمادا على القصة الواردة فى سفر أستير ، وهو احتفال بذكرى القضاء على أعداء اليهود فى فارس أيام الملك أحشويرش .

وكذلك احتفلوا بذكرى انتصار المكابيين على اليونان وتطهير المعبد من الطقوس الوثنية ، ويحتفل بهذا العيد فى ٢٥ نوفمبر .

(١) اليهودية واليهودية المسيحية ص ٩٦/٩٧

فهرس

الفصل الأول : **التاريخ اليهودى**

الفصل الثانى : **النشاط العقائدى**

رقم الايداع ٢٣٣٦ ــ ٨١
الترقيم الدولى ISBN ٩٧٧
ــ ٢٢٦ ـ

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة ـ ص ٠ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم علي نحاس
المملكة العربية السعودية .

انجلترا :
THE ARABIC PUBLICATIONS
7. Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND

البرازيل :
M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.

أسعار البيع للجمهور في البلاد العربية لهـذا العدد الممتاز فئة ٢٥٠ مليما للقارىء في مصر :

سوريا	٣٥٠	ق٠ س
لبنان	٣٠٠	ق ٠ ل
الكويت	٤٠٠	فلس
الاردن	٣٠٠	فلس
العراق	٤٥٠	فلسا
السعودية	٥ر٥	ريال
السودان	٣٥٠	مليما



هـذا الكتاب

تاريخ اليهود تاريخ غريب يحيط به الغموض ، وفيه عصور كاملة لا نعرف عنها شيئا ، لا لأن العلم عجز عن معرفة ما وقع فيها ، بل لأن اليهود عملوا دائما على أن يكون كل ما يتصل بهم وبعقيدتهم ونظامهم العائلى ونشاطهم [illegible] فى الدنيا خافيا عن الناس ، فاليهود مثلا منبثون فى [illegible] فى كل موقع وميدان . ولكنك لا تشعر بوجودهم الا اذا عرفت [illegible] الى المواقع الهامة فى كل مرفق من مرافق الحياة فى [illegible]وبى ، ومن هذه المواقع الهامة ينتشرون فى كل موقع آخر .

والدكتور كامل سعفان بما له من معرفة بالعبرية وتاريخ اليهود وكتبهم الدينية وأساليبهم فى الحياة والعلم يستطيع أن يعرف الكثير من خفايا تاريخ اليهود وطبائعهم وأساليبهم فى الحياة ، وهـذا هو الذى فعله فى هذا الكتاب الصغير الحجم الذى نقدمه هنا . انه كتاب نشرناه خدمة للعرب جميعا وقضاياهم التى تتعقد منذ أربعين سنة بسبب اليهـود . ولا سبيل الى معالجة هـذه القضايا الا بفهم اليهود ومعرفة تاريخهم وعقيدتهم ونظمهم بالطريقة التى اقتدر عليها المؤلف فى كتابه هذا . انه كتاب اساسى ، ولابد ان يقرأه كل عربى . ستجد فى الكتاب الكثير مما يفزع والكثير مما لا يقبله المنطق العادى ولكنها كلها حقائق من حياة اليهود وتاريخهم .

الثمن ٢٥ قرشاً

كتاب الهلال

مصطفى كامل

أضواء جديدة على حياته

نجيب توفيق



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

نائب رئيس مجلس الإدارة : صبرى أبو المجد

رئيس التحرير : د. حسين مؤنس

سكرتير التحرير : عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

KITAB AL-HILAL

العدد ٣٦٥ ـ رجب ١٤٠١ ـ مايو ١٩٨١

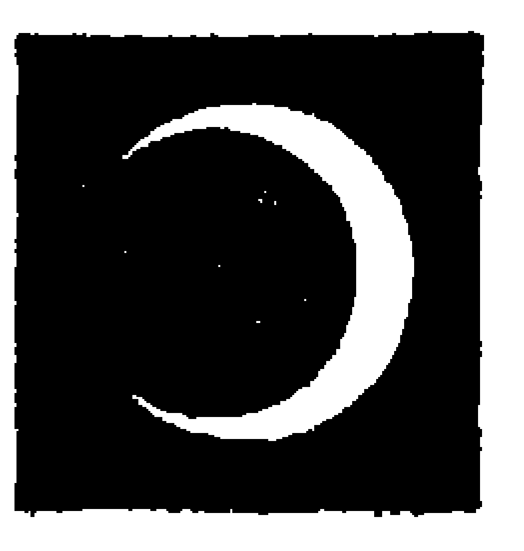
No. 365 — May 1981

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ـ ١٢ عددا ـ فى جمهورية مصر العربية جنيهان مصريان بالبريد العادى • وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان ثلاثة ونصف جنيه مصرى بالبريد الجوى • وفى سائر أنحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادى وخمسة عشر دولارا بالبريد الجوى •

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج• م• ع• بحوالة بريدية غير حكومية وباقى بلاد العالم بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب •

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــــلاف بريشـــة :
الفنانة : سميحة حسنين

نجيب توفيق

مصطفى كامل

أضواء جديدة على حياته

دار الهلال

لو انتقل فؤادى من الشمال الى اليمين ، أو تحولت الأهرام عن مكانها المكين ، لما تغير لى مبدأ ، ولا تحول لى اعتقاد ، بل تبقى الوطنية رائدى ونبراسى ، ويبقى الوطن كعبتى ومجده غاية آمالى .

من خطبته فى ١٩٠٦/٥/١٧

مقدمة

قال كارليل : هؤلاء الرجال العظماء ، سواء كانوا شعراء أو مصلحين أو رجال أعمال أو رجال دين ، فانهم جميعا يحملون بين جنوبهم هذا السر الغامض ، سر العظمة والبطولة ، الذى تنزل عليهم وأودع قلوبهم ، فليسوا هم من مخلوقات الظروف ، وصنع الأحداث ، وانما هم الذين يخلقون الظروف ويصنعون الأحداث ويملون ارادتهم ويحققون مثلهم العليا .

ثم يقول أيضا : مثل هذا الرجل هو ما ندعوه بالرجل الأصيل الطريف ، وهو رسول موفد من المجهول اللانهائى يحمل الينا الأخبار والبشائر ، يحملها الينا مباشرة من الحقيقة الداخلية الباطنية للأشياء ، وهو يعيش متصلا اتصالا دائما بهذه الحقيقة ولا تستطيع الاشاعات الباطلة والتخرصات الكاذبة أن تحجبها عنه ، وانه مقبل من قلب الوجود النابض ، وهو جزء من الحقائق الأولية للأشياء .

ومثل هذا الرجل العظيم أو البطل لا يستطيع جهل العصر الذى يظهر فيه ، ونقائصه وعيوبه أن يشوه رؤيته الأصيلة أو يمحو نضارتها وهو قد وصل الى حقيقة مجدية تهب القوة والحياة » .

هذه الأقوال قالها كارليل فى مقدمة كتابه عن رسائل

كروميل الزعيم الانجليزى الشهير وهى ايضـا تنطبق على الزعيم المصرى الخالد مصطفى كامل مؤسس الحزب الوطنى ، لأنه الزعيم الوحيد الذى لم تلده الظروف ولم تبعثه المطامع وستظل ذكراه على تراخى الحقب وتوالى الأجيال انوط بالقلب وأعلق بالـذاكرة ، فزعامته اشبه بأصحاب الرسالات فى تهيئة الفطرة وثبات العقيـدة ، وعصمة النفس ، واختيار القدر .

وكانت دعوة الأفغانى قد جمعت من ومضات الأذهان النيرة شعلة أضاءت جانب الطـريق فسلكه العرابيون ، ولـكنهم لم يـكادوا يبعـدون حتى أدركهم الظـــلام فى (التل الـكبير) فلا يصح فى العقل اذن أن نقول ان مصطفى كامل كان أثرا للأفغانى أو أحمد عرابى .

لقد وعد وهو طالب فى المدرسة الثانوية ، حينما سأله وزير المعارف على باشا مبارك عما يعتزم أن يعمله بعد تخرجه فأجابه « ان أرفع الرجال شأنا من يحرر بلاده وسأكون أنا ذلك المحرر الذى يكتب ويخطب حتى ترفع الأغلال من عنق مصر » .

وقد نفذ هذا الوعد وسـعى طـول حياته فى سبيل تحقيق هذا الهدف .

ومصطفى كامل لم تبعثه المطامع ، لأنه أدرك وهو فى طراوة الشباب ، زعامة الامة وثقة العرش ، ورضا الخلافة وخصومة المحتل ، وكان فى مقدوره اذا شاء أن يستغل هذه القوى فى سبيل الثراء والحكم ، ولكنه زهد فى ذلك زهادة الحكيم ، فعاش للمبدأ والفكرة ، ومات القدوة والعبرة .

وقد قضى الصدق فى الجهـــاد ، والاخلاص للمبدا

والثبات أمام اشد العقبات . على مصطفى كامل ذى البدن العليل ، أن يحرك ساكن شعبه بوجيب قلبه ، ويذكى جمود جيله بحرارة دمه ، ويضىء ظـلام وطنـه بوميض روحه ، ثم يموت رضوان الله عليه ميتة الشهداء .

وبعد ثلث قرن من وفاته احتفلت البلاد حكومة وشعبا باقامة تمثاله فى أحد ميادين العاصمة وبعد نصف قرن من وفاته احتفل بتشييع جثمانه مرة اخرى حين نقل من مدفن الأسرة الى الضريح الـكبير الذى شيدته الدولة بميدان صـلاح الدين بالقلعة ، واشتركت جميع طوائف الشعب والجيش والشرطة فى موكب تشييعه .

وبعد سبعين عاما من وفاته ، فى عهد الرئيس المناضل انور السادات أعيد تأسيس الحزب الوطنى ونال الأغلبية فى الانتخـابات وأصبح هو الحزب الحـاكم بالبـلاد . ولعمرى ما نال زعيم فى الشرق مثل هـذا التـكريم والتمجيد .

كلمة السيد الرئيس
محمد أنور السادات
فى إعادة تأسيس الحزب الوطنى

قال الرئيس أنور السادات بمناسبة الاجتماع الأول للجنة المؤقتة للحزب الوطنى الديمقراطى فى ١٤ أغسطس ١٩٧٨ : « نحن نبدء تجربتنا وديمقراطيتنا من تراث طويل بدأ فى التاريخ القريب فى أوائل القرن التاسع عشر بثورة عمر مكرم الشعبية ثم توالت الأحداث بعد ذلك وسار الشعب فى عهد الخديو اسماعيل وابنه الخديو توفيق مطالبا بحقوقه بل مطالبا بالديمقراطية والدستور الى أن كانت ثورة عرابى سنة ١٨٨٢ ، وحين انتكست هذه الثورة بفعل الخيانة ، لم ينتكس كفاح شعبنا أبدا بل قام مصطفى كامل ليؤسس الحزب الوطنى » .

« من هنا فان اختيار تسمية الحزب الوطنى هو فخر لنا جميعا . فمصطفى كامل هو الشاب المصرى الذى كافح وناضل فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين ، بريطانيا وهى امبراطورية لا تغيب الشمس عن أملاكها » .

ويناضل مصطفى كامل عن الشعب وحين يقع حادث دنشواى يقيم الدنيا ويقعدها وهو الانسان الأعزل ولكنه المؤيد من الشعب كله .

من هنا جاءت توصيتي أن نكرم من بدأ في أوائل هذا القرن بالافصاح وترجمة مشاعر الشعب في كفاح استمر فيه الى أن مات وهو شاب يدافع عن مصر بعد أن قهر الامبراطورية واضطرت أن تسحب ممثلها ومندوبها السامي من مصر ، اذعانا لارادته ، عقب الحملة العنيفة التي قام بها في أوروبا بعد حادثة دنشواى .

ومات مصطفى كامل ثائرا لم يملك الاملاك ولم يستغل السياسة لكي يكون له مغنم .

كان الحزب الوطني ولا زال ، وسيظل بعون الله عنوان الطهارة الثورية وجاء بعده محمد فريد وضرب أروع المثل — وهو من أغنى أغنياء مصر — فقد كافح وناضل ثم نفي وشرد ومات في المنفى بعد أن باع ملابسه وعصاه فقيرا ولكنه مات مليئا بكل القيم والمثل .

وقد تحقق الآن ما قاله شاعر النيل حافظ بك ابراهيم من قصيدته التي القاها في احتفال مدرسة مصطفى كامل بالطلبة المتفوقين في نوفمبر ١٩٠٦ :

لك الله يا (مصطفى) من فتى
كثير الأيادى كثير العدا
اذا ما حمدتك بين الرجال
فأنت الخليق بأن تحمدا
سيحصى عليك سجل الزمان
ثناء يخلد ما خلدا
ويهتف باسمك أبناؤنا
اذا آن للزرع أن يحصدا

مولده

ولد مصطفى كامل فى سنة ١٨٧٤ وكان عمره ثمانى سنوات عندما احتل الجيش الانجليزى القلعة فى الحى الذى نشأ فيه .. سنوات ثمان تسمى سنوات الخطابة ، لأن الثورة قد اشتعلت اشتعالها الأكبر قبل ختامها . أما الخطابة فقد كانت فى أوجها عند مولد الزعيم وبلغت قمة ذلك الأوج عند دخول جيش الاحتلال .

كان حى الصليبة الذى ولد فيه الزعيم الخطيب أحد الحيين الكبيرين اللذين تنافسا على الوطنية القاهرية عدة اجيال ، وكان هذا الحى أحفل بمعالم الحركة الوطنية من الحى الآخر الذى ينافسه « الفتوة » على عهد الحملة الفرنسية ، لأن حى القلعة التى كانت مسكن الوالى ، ثم صارت معسكر الجيش المحتل بقيت الى جوارها ساحة المحافل القومية من ركب المحمل الى ركب الولاية بعد مبايعة الأمير ، الى ركب العروض العسكرية .

وكانت مساجد هذا الحى أعمر المساجد بالخطابة الثورية ، ولم يكن فى القاهرة مسجد أعمر منها غير الجامع الأزهر فى تلك الفترة ، وهو فى المكان الأوسط بين طرف الصليبة من ناحية وطرف الحسينية من الناحية الأخرى .

كان مصطفى كامل فى الخامسة او السادسة يوم كان

« عبده الحمولى » يسأل : اين نسمعك هذه الليلة ، فكان يجيب مازحا : أنا الليلة سهران مع عبد الله النديم فى فرح آل فلان ...

ولد مصطفى كامل فى هذا العصر عصر الخطابة ، وشهد خطباء حى الصليبة فى الخامسة والسادسة . وهى سن التقاليد والمحاكاة ، واستفاد من حى الصليبة أول نفحة من نفحات « الوطنية المحلية » التى كانت وراء التنافس على بطولة القاهرة بين « فتوة » الحسينية « وفتوة الخليفة » ، وربما تعثر بين الحبو والعدو فى احدى تلك الوقعات التى تنتقل من ساحة الأزهر أحيانا الى جوار شيخون أو جوار قيسون .

... لأنه لم ينس هذه الحمية « المحلية » بعد أن وصل فى تعليمه الى المدارس التوجيهية ، وكانت دعوته الاولى انه دعا الى تأليف جمعية « الصليبة » فانتظم فيها نحو سبعين من المواطنين ، قبل أن يدعو الى تأليف الحزب الوطنى بعدة سنين ...

التربية الاجتماعية أساس زعامته :

كان والده المرحوم على محمد أول خريجى مدرسة الخانكة الحربية سنة ١٨٣٤ فاشتغل معيدا بها ثم تنقل فى الوظائف العسكرية حتى عين قومندانا لأحد بلوكات المهندسين فى عهد عباس الأول ، واقام لعائلته منزلا بشارع شيخون بالصليبة سنة ١٨٤٣ ، حيث ولد مصطفى كامل ، وأحيل الى الاستيداع فى عهد اسماعيل ثم عين مرة أخرى مهندسا ملكيا بوزارة الأشغال حتى احالته على المعاش سنة ١٨٧٧ ، فجمع فى أعماله الحكومية بين

الصبغتين الحربية والمدنية ، فلم يكن صلفا جامدا ، ولا لينا ضعيفا ، بل جمع بين الاستقامة والشهامة ونزاهة الأخلاق والحزم ، وعرف عنه اهتمامه بتنشئة بنيه ، وكان أحب أوقاته حين يقبع في منزله، ويجمع حوله صغاره في معظم الليالى ، يقص عليهم قصص الأبطال وعظماء الرجال ، ويقف معهم أمام مواقف المظمة والسمو في سير أولئك الناس ، كما كان في سلوكه وأعماله قدوتهم الصالحة ، ومثلهم القويم .

لم يتوان يوما عن تفقد أبنائه واحدا فواحدا ، اثناء حياتهم المدرسية اليومية وزيارة مدارسهم ومناقشة مدرسيهم في كل ما من شأنه مصلحتهم التعليمية والتربوية فكان بذلك والدا فريدا في عصره يؤدى واجب الأبوة الحقة في غير ما قسوة أو تفريط .

وكان شأنه مع ولده مصطفى كامل أن استحضر له شيخا يلقنه في المنزل مبادىء القراءة والكتابة ويحفظه القرآن الكريم ، حتى اذا ما بلغ السادسة أدخله مدرسة والدة عباس الأول الابتدائية بالصليبة ، وبدا على مصطفى الميل المتوارث الى علم الحساب والرياضيات ولا غرو في ذلك فوالده المهندس النابغ ، وبقى في هذه المدرسة عامين وفجأة حدث حادث ذو بال لهذا الناشىء الصغير ، قد يمر على كثير من التلاميذ في سنه ويعرف به أولياء أمورهم فلا يحفلون به الا المرحوم على محمد ...

وجه المدرس سؤالا الى أحد التلاميذ .. فعجز عن الاجابة .. فأسرع مصطفى كامل بالاجابة بدلا عنه .. فما كان من المدرس الا أن انفجر تعنيفا وتأنيبا له ... فاستنكر الطفل هذا التأنيب ، وثارت الكبرياء الجريحة

.. والكرامة البريئة وهى بعد فى مهدها .. وزاد الأمر عن حده حين عاقبه المدرس بحبسه ساعتين .. فشكا الى والده هذا العسف من مدرسه فاهتم الوالد بالأمر ، ولما تحقق صدق ما حدث ، نقله فورا الى مدرسة السيدة زينب الابتدائية ..

ولنقف أمام هذا الحادث قليلا ، لأهميته ، فلو توانى الوالد فى تحقيق ما رواه عليه ولده ، أو أهمل الأمر ، لأصيبت هذه النفس الحساسة بصدمة كبيرة ، ولاضطرب كيانها النفسى ، ولأصيبت حالته النفسية اصابة مدمرة ، لن تساعده فى التفوق والاقبال على حياته العلمية والوطنية فيما بعد ، ولقتلت معه الأحاسيس الكريمة والمشاعر النبيلة ولانطفأت جذوة الحماس فى مهدها ولدوت المواهب ولنشأ فردا عاديا يعيش بين ملايين المواطنين ، ولحرمت مصر جهاد هذا الشاب الخالد .

وأدركت والده البر الوفاة سنة ١٨٨٦ وهو فى هذه المدرسة فحزن لوفاته حزنا جما وكفله من بعده أخوه الأكبر حسين واصف (حسين باشا واصف وزير الأشغال الأسبق توفى سنة ١٩٤٢ فطلب منه أن ينقله الى مدرسة الغربية الابتدائية لقربها من منزل جده لأمه فأجابه أخوه الى طلبه .

وواصل الدرس فى هذه المدرسة حتى نال شهادة اتمام الدراسة الابتدائية سنة ١٨٨٧ ، وأقامت المدرسة حفلا فخما لتوزيع الشهادات على الناجحين دعت اليه الخديو توفيق وكبار رجال حاشيته والوزراء ورهطا من علية القوم .

ثم حدث فى هذا الاحتفال الكبير حدث عجيب ، دل

على ما تنطوى عليه نفس هذا التلميذ الفريد (فى تاريخ أمته) .. كان من نظام الحفل أن يتقدم الطلبة الناجحون للمثول بين يدى الخديو واحدا فواحــدا . وقد أعــد الطلبة لهذا الغرض ، فلقنوا العبارات المناسبة فى هذا المقام ، ومنها انه فى حالة ذكر اسم الطالب أو اسم والده يجب أن يكون مسبوقا بكلمة « عبدك » وأصغى مصطفى كامل كما أصغى بقية زملائه لهذه التعليمات وان اختلف عنهم فى طريقــة تنفيــذها ؟ .. ونفذت المدرسة برنامج الحفل بدقة ، وجاء دور الطلبة الناجحين للمثول بين يدى الخديو ، ونفذوا التعليمات بدقة الا مصطفى كامل ... فحين سأله الخديوى عن اسمه ، أجاب باعتداد وأنفة مصطفى كامل .. غير مسبوقة بكلمة عبدك ، وعن اسم والده أجاب أيضا : المرحوم على أفندى محمد ، فعقب الخديو عن سبق معرفة باخلاص والده وكفــاءته .

والضابط من خلف التلميذ الصغير يكاد ينفجر من الغيظ يهمس اليه أن يذكر كلمة « عبدك » قبل كل اجابة . فتجاهله مصطفى كامل ، وظن الضابط أن الطالب نسى من رهبة المقام أن ينفذ ما أمر به .. وانفض الحفل . وغادر الزائرون المكان .. واستدعى مصطفى كامل أمام الضابط ومدرسى المدرسة ، ونوقش فى أسباب عدم طاعته وتنفيذ ما كلف به فأجاب بكل شجاعة وجرأة : كيف تطلب منى أن أذكر أمام الخديو كلمة « عبدك » وما كنت أنا عبدا ولا كان أبى كذلك .. ولو قلت غير الحق كنت كذابا ومحتالا وحاشا لى أن أكون كذلك .

فأرتج على الضابط ولم يستطع أن يغالب دهشته ، كيف ينطق تلميذ صغير لم يتعد عمره الثالثة عشرة بهذه العبارات ولا يستطيع أن يتفوه بها الكثيرون ممن هم أكبر منه سنا

ومقاما !! .. وأذاع هذا الأمر بين كبار رجال التعليم في عهده ، وهو في حيرة وعجب ..

ثم دخل المدرسة الخديوية سنة ١٨٨٧ ، فاستلفت انظار مدرسيه بشجاعته ، وقدرته على التعبير عن رايه مهما كان هذا الرأى ، وبدت مواهبه الكامنة في الظهور والاعلان عن نفسها ، فكان كثيرا ما يقف خطيبا في الفصل ، معبرا عن رأيه في أسلوب قوى وعبارات سليمة وفي السنة الثانية الثانوية زار المدرسة الخديوية (المرحوم على مبارك) وزير المعارف ، ولما دخل فصله ، طلب من المدرس (وكان أستاذ اللغة العربية) ان ينتخب طالبا ممتازا في الالقاء ليتحدث اليه ، فاختاره المدرس من بين طلبة الفصل جميعا ليقف خطيبا امام الوزير الكبير ...

سأله الوزير أن يتحدث عن آماله بعد استكماله دراسته ، وماذا يختار من وظائف ؟ فوقف مصطفى كامل في اعتدال واعتداد ، يتحدث عن ذلك في غير ما رهبة ولا اضطراب وقال :

« لقد تلقنت مما كان يرويه على المرحوم والدى عن كبار الرجال وأعاظم التاريخ ، وما درسته على أستاذى مدرس التاريخ من سير الفاتحين والأبطال ما ايقنت منه ان اعظم الرجال شأنا من يحرر وينقذ أمته من ربقة الذل والاستعباد ، وأنا سأكون ذلك المحرر الذى يكتب ويخطب ، واضرب الأمثال للناس ، كما كان يصنع أستاذى مبشرا بما في الحرية من العزة والحياة ، ومنذرا بما في الذل من الموت والعار » .

فأكبر الباشا ما سمع وأثنى على الطالب الفريد

وشجعه بعبارات التقدير . وعطف عليه ، وصار يتابع اخباره ، ويدعوه الى منزله ويقدمه الى جلسائه من العلماء واقطاب البلاد . ويناقشه أمامهم فى المسائل العلمية والاجتماعية ، ويثنى على اجاباته وآرائه امامهم . مما اكسب الناشىء الصغير شخصية قوية ، معتدة بذاتها ساعدته فى حياته المستقبلة ، حينما مارس جهاده السياسى .

وفى أثناء دراسته بالمرحلة الثانوية اسس « جمعية الصليبة الأدبية » وتعلقت نفسه من ذلك الحين بالخطابة والكتابة والأدب ، فكان يقف فى الجمعية خطيبا فى مساء كل جمعة مرتجلا ما تمليه عليه البديهة ، وكانت اول خطبة ألقاها فى موضوع « فضل الجمعيات فى العالم » وأخذ يراسل الصحف من ذلك الحين ، وحين حصل على شهادة الدراسة الثانوية سنة ١٨٩١ كتب الى شقيقه على فهمى كامل فى ١٢ يوليو سنة ١٨٩١ يقول : (لقد عزمت على الالتحاق بمدرسة الحقوق ، لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ، ومعرفة حقوق الأفراد والامم .. وعزمت كذلك على تأسيس جمعية احياء الوطن) . وهكذا أخذ الناشىء الصغير يمهد لنفسه طريق الاعداد والتعليم لكى يضطلع بعمله السياسى العتيد ، ومن ذلك نتبين ملامح العبقرية فيما اعده لنفسه ، لكى يحقق آماله .

وفى سنة ١٨٩٢ تعرف بصاحب الأهرام تقلا بشارة بواسطة صديقه الشاعر خليل مطران فأعجب به وافسح جريدته لينشر فيها رسائله الوطنية . وفى أكتوبر من هذا العام رغب اليه صديقه فؤاد سليم أن يتم دراسته بمدرسة الحقوق الفرنسية ليكونا معا بها ، فلبى دعوته

المؤثرات الأولى في حياة مصطفى كامل

لعل أول انسان استمد منه مصطفى كامل أول مقومات شخصيته الروحية ، هو والده كما ذكرنا ذلك آنفا فى تاريخ طفولته ، فقد كان المرحوم على افندى محمد من خيرة الآباء الذين يحسنون تربية أبنائهم ، وقد اتخذ من القصص الدينى والوطنى سبيلا لغرس الفضائل والمثل العليا فى نفوس أولاده ، حينما كان يجمعهم حوله كل مساء فى المنزل ، فكان مصطفى كامل يلتقط كل هذه الأقاصيص على لوحة ذهنه الحاد المتوقد ، فيضطرب لها خياله العصبى المشبوب ، ولما كبر قليلا وأتم دراسته القانونية أو فى غضون هذه الفترة أتيحت له فرصتان لم تتح لغيره أبدا ، الفرصة الأولى لقاؤه بالسيد عبد الله النديم مؤجج الثورة العرابية ولسانها النارى ، وخطيبها الشعبى الذى امتزجت كلماته الملتهبة بقذائف المدافع والبنادق ، ونقشت فكاهاته ولذعاته على أذهان الفلاحين ، والفرصة الثانية هى أخذ الأيام بيده ، وفتحها له أكبر معهد سياسى وعلمى فى مصر آنذاك أعنى به الصالون الأدبى السياسى بدار لطيف باشا سليم الحجازى ، والمنتدى الأدبى الذى كان يعقد فى دار على باشا مبارك ، وسنتحدث عن ذلك بالتفصيل .

السيد عبد الله النديم :

عاد السيد عبد الله النديم من منفاه بفلسطين بعد ما صدر امر العفو عنه من الخديو عباس حلمى الثانى . واخذ يتنقل بين الاسكندرية والقاهرة زهاء شهرين يتعرف ما انتهت اليه أحوال البلاد ، وما استقرت عليه شئونها فى مدة غيبته ، ويقابل أصدقاءه القدامى من أعضاء الحزب الوطنى القديم ويطلع على ما آلت اليه البلاد ...

رأى البلاد مستساغة للذل ، خاضعة للاستعمار ، قد خيم اليأس على أرجائها ، وضرب على جميع طبقاتها من فلاحين ومدنيين ، جهلة ومتعلمين ، ولعله قد اعتراه اليأس من الجيل الذى عاصر الثورة وحطمته الهزيمة ، وهدم معنوياته الاحتلال ، بقتل روح المقاومة فيه فلم يكن أمامه من سبيل الا أن يضع أمله فى الجيل الجديد .

فصار يجمع الشباب المثقف حوله وأكثرهم من مدرسة الحقوق وعلى راسهم مصطفى كامل يجتمع بهم سرا فى منزل لطيف باشا سليم ، يصب فى آذانهم دروس الوطنية، ويشرح لهم أسباب الهزيمة التى آلت اليها الحركة الوطنية ، وينفض عن الحركة الوطنية – كمبدأ – الأكاذيب التى الصقها بها الاستعمار وانصار الخديو والمفتريات التى شوه بها جهاد الشعب ، ويطلعهم على المبادىء الأصيلة لهذه الحركة وخطتها وكيف كانت تهدف الى الحرية الكاملة للشعب والحياة الديمقراطية ، ويقفهم على موطن الخطأ واسباب الاخفاق ، ويبصرهم بدسائس السياسة الانجليزية التى كانت عاملا كبيرا فى هزيمة الوطنيين ...

واوصاهم أن يعتمدوا على قـوة الرأى العام وتربية الشعب التربية الوطنية والأخلاقية الكفيلة بتوطيد دعائم الحـركة الوطنية ومساندتها ؛ واوصاهم بألا يصطدموا بالخديو فمن هذا الاصطدام تنفـذ السياسة الانجليزية وتوقع الفرقة بين صفوف الأمة وخديوها ، كما فعلوا مع توفيق ، وأن لا يستسلموا فى كفاحهم مهما طال ، فان استسلام الزعماء يحطم الروح المعنـوية وروح المقـاومة الشعبية .

واوصاهم باتقان فن الخطابة ، فهى أمضى سلاح وسط شعب أكثره لا يجيد القراءة ، حتى يتمكنوا من الاتصال بقلوب الجماهير ، وينفذوا اليهــــا فتسير وراءهم فى الكفاح ، وصار يمرن الشباب على الخطـــابة ، ويخص بعنايته مصطفى كامل بعــد أن وجد فى قلبه وروحه وعزيمته الاستعداد الصالح لقيادة الجيل الجديد ويتبين فيه مواهبه الخطابية ، وظهر أثر النديم واضحا فى مصطفى كامل ، فى خطته فى محاربة الاســـتعمار وفى أسلوبه الخطـــابى لـكأنه قد اقتبس بعض أساليب النديم فى خطابته .

ودفع النديم الشباب الى الكتابة فى الصحف . فنشرت لهم الأهرام والمؤيد المقالات الأدبية والوطنية .

ولما أنشأ مصطفى كامل مجلة المدرسة وهو بعد طالب، وصدر العدد الأول منها يوم السبت ١٨ فبراير سنة ١٨٩٣ رحب بهـا السيد عبد الله النـديم ونوه بهـا فى مجلة الأستاذ فى عددها الصادر فى ١٨٩٣/٢/٢٨ .

كما نوه بمجهــوده فى تـكوين أول جمعية مصرية من الشبيبة المثقفـــة لترقية المسرح المصرى عرفت باسم

جمعية الفتوح الخيرية ، رئيسها مصطفى أفندى كامل ، وأعضاء مجلس ادارتها فريد ابراهيم وأمين فهمى، وحافظ بيومى . وقد قامت هذه الجمعية بتقديم باكورة انتاجها الفنى بتمثيل مسرحيـــــة الملـكة بلقيس ، على مسرح البراديزو ، وقد شـاهد هذه المسرحية عدد كبـير من الوجهاء والطبقة المثقفة وأثنى عليها عبد الله النديم فى مجلة الأستاذ العدد ٢٩ الصادر فى ١٨٩٣/٣/٧ .

وقد ذكر الشاعر الكاتب ولى الدين يكن فى معرض حـديثه عن موقف اللورد كرومر مع السيد عبـد الله النديم ، وأوجه التشابه بين النديم ومصطفى كامل فى كتابه (المعلوم والمجهول) قال « هذا عبد الله النديم ، صاحب اللطائف والتنكيت والتبكيت من قبل ، وصاحب الأستاذ من بعد ، اختفى بعد ثورة العرابيين وكان حارثهم ابن حلزه ، أو عمرهم بن كلثوم ، رغا فتجمعوا ، وعقر فتفرقوا ، ثم آوته قرى الريف فبات كأبى زيد السروجى يحترف الحرف ، ويتنقل بين الأزياء والأشكال الى أن قال .. وظن اللورد كرومر أن عبد الله النديم اذا دام نشر أستاذه حدثت ثورة فى البلاد فأراد الاقتصاد فى المكاره ، والاجتناب للفتن ، ولو كنت أنا مقـام اللورد لتركته يقول حتى ينفذ ما عنده .. ويظهر من أمور كثيرة ان مقام الامارة وثق فى النديم ثقة لا يتخللها الريب ، فكان يحسبه قادرا على كل شىء ، ومن أجل ذلك قال أكثر الأمراء من الأسرة الحاكمة فى مصر ، أن مقام الامارة يقرب منه النديم عدو أسرته، وجنسه وبهـذه السياسة المضحكة آل الأمر الى الاعتماد على مصطفى كامل ، وقد كان ممن يرددون نغمـات النـــديم ، وانما ميز المقلد

عن المجتهد ، المامه باللغـــة الفرنسية واستطاعته بيان آرائه للغربيين ولم يفز النديم بمثل ذلك » .

أما صالون لطيف باشا سليم فقد كان مصطفى كامل من المترددين عليه بانتظام . وقد استفاد من هذا الصالون ما جعله فى صميم خططه فى الـكفاح الوطنى وهى انه لا سبيل لجلاء الانجليز عن البلاد بعد ما قضى على القوة العسكرية بهـــا الا بعمل سياسى ، اى بالدعـوة فى الخارج ، والاتصال بكبــار رجال الســياسة الأوروبية وقراءة ما يكتبون فى قضايا الأمم ، ومعرفة نواياهم نحو بلادنا .

وقد غلبت على هذا الصالون النزعة الأدبية ، وسادته العقلية السياسية ففتح مصطفى كامل عينيه بشدة على هذه الحقائق الغربية التى تكشفت لعقله ، وكأنمـا هو واحد من أبطال قصص ألف ليلة وليلة ، الذى فتحت له كنوز تنبهر لها الأنفاس وتغشى لها العيون ، فساوره حلمه الذى يقى معه الى أن مات . . .

وهو (أن يحيى فى مصر الهرمة . . مصر الفتاة) .

أما منتدى على باشا مبارك ، وكلنا يعرف ان هذا الرجل لم يخدم مصر فى ميدان السياسة بل فى ميدان التعليم الذى نشره وأرسى قواعــده ، وكان مصطفى يؤم داره فيرى مشاهير الرجال فى عصره ، فيقرأ لهم الجـرائد بصوت مرتفع . فمرن على مخــاطبة النــاس دون هيبة ولا وجل ، وألف لقاء الجماهير ، وعرف أثر الصوت فى الســـامعين ، فصقل ذلك موهبة الخطيب فى نفسه ، فليس ثمة شىء يدرب الخطيب على الخطابة السليمة الا

ان يتبين أثره فى السامعين فان فقد هذه الموهبة ، فقد كل شيء .

ثم ذهب الى أوروبا ، وتعرف الى الكاتبة الفرنسية الشهيرة مدام جوليبيت آدم وكان صالونها السياسى الكبير فى باريس منتدى لكبار رجال السياسة فى أوروبا ، وكعبة للوطنيين من كل صقع يحجون اليهـــا للمشورة والتوجيه .

وقد رات هـذه المراة العظيمة مواهب هـذا الشاب العبقـــرى ، فشجعته وفتحت له أبواب الدعاية فى الصحف على مصراعيها ، وعرفته بكبار رجال الصحافة والسياسة بفرنسا وبفضلها وجد معينـا لا ينضب من تقدير الأحرار وكسب تقدير عدد وفير من السياسيين وتأييدهم لقضيته والدعوة لجـــلاء الانجليز عن وادى النيل . وسوف نوضح صلاته بهذه الكاتبة الـكبيرة فى الفصول التالية بالتفصيل .

ثم حدث أن توثقت الصلة بينه وبين الشيخ على الليثى الذى تعرف به فى منزل على باشا مبارك فأعجب به وقام بتقديمه للخديو عباس فى مارس ١٨٩٢ ، ولما زار الأخير مدرسة الحقوق فى نوفمبر من ذلك العام وكان ناظرها المسيو نستو ووكيلها عمر بك لطفى ، وأثناء مروره بقاعات التدريس قدم له الطالب مصطفى كامل .

ألقى أمامه مرافعة باللغة الفرنسية ثم أخرى باللغـة العربية ، وعقب ذلك ألقى قصيدة رحب فيها بالأمير ، وكان من نتيجة هذه الزيارة وما تجلى فيها من حماسته أمامه أن نشأ عطف متبادل بينهما حتى أنه لما عزم على اتمام دراسته القـانونية بكلية تولوز بفرنسا ســـافر

بتعضيده ولما عاد الى مصر فى ١٨٩٤/١٢/٦ . قابله صديقه عبد الرحيم بك أحمد رئيس ديوان المعية فى جلسة خاصة بمقهى بميدان باب الخلق وتفاهم معه (باعتباره مندوبا عن الخديو) للعمل مع الخديو على استقلال البلاد على أساس مركز البلاد القانونى بمواد معاهدة لندن سنة ١٨٤٨ .

ولابد أن نذكر هنا شيئا عن عبد الرحيم بك أحمد ، فقد كان مدرسا للدين للأميرين عباس حلمى ومحمد على توفيق حينما كانا يتعلمان فى أوروبا ، وأثناء وجوده معهما درس الحقوق ونال الليسانس ولما عاد من أوروبا عينه الخديو رئيسا لديوان المعية ، وكان أثيرا لديه بكل حب وتقدير الملك بعثه ليكون وسيطا فى الاتفاق الذى أبرم بينه وبين مصطفى كامل وقد ظهرت بعض المذكرات التاريخية الخاصة تزعم بأن الخديو خصص مرتبا شهريا للطالب مصطفى كامل قدره عشرون جنيها له أثناء دراسته فى أوروبا بجانب المعونة التى كان يبعثها شقيقه الدكتور عبد الفتاح فتحى (شقيقه من ناحية والده) وقد توفى شقيقه هذا أثناء دراسته بأوروبا فكان أول عمل له بعد عودته ان ذهب الى قبره مترحما عليه ، باكيا فى حزن وأسى هذا الأخ الكريم الوفى .

وقد شجعه أن يجد شابا فى مثل سنه يعتلى عرش البلاد ، ويتفق معه فى الأغراض والأهداف فكان يجتمع به سرا بمسجد الشيخ التبرى بزمام سراى القبة ، وتعاهدا معا على السعى فى سبيل تحقيق الاستقلال ، وظلا أعواما طويلة حتى فرقت بينهما الدسائس والظروف وهو ما سيجىء ذكره ، حين التحدث عن العلاقات بينهما بتفصيل ..

ونعود مرة اخرى لنتابع نشاط مصطفى كامل أثناء دراسته بالحقوق فى مصر ، فقد أنشأ مجلة اسمها « المدرسة » صدر العدد الأول منها يوم السبت ١٨ فبراير سنة ١٨٩٣ جعل شعارها (حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك) وكان مصطفى كامل هو مدير المجلة ومحررها وكانت تشمل المقالات التهذيبية والمعلومات النافعة والنصائح العملية وشيئا من الحوادث والأخبار ، ودراسات أدبية وعلمية ، كان القصد منها تسلية الشباب وتثقيفهم وتعريفهم بواجبهم نحو الوطن .

وفى هذه الأثناء فكر فى تأليف نشيد وطنى وكان ذلك من بواكير شعره ، نثبت هنا طرفا منه لطرافته :

هلموا يا بنى الأوطان طرا
لنرجع مجدنا ونعز مصرا
هلموا ادركوا العلياء حتى
تنال بلادنا عزا وفخرا
هلموا واتركوا الشحناء منكم
وكونوا أوفياء فذاك أحرى
اليس يشيننا ترك المعالى
تباع بغير وادينا وتشرى
ونحن رجالها وبما لديها
من الاسعاد والخيرات أدرى
فعار أن نعيش بغير مجد
ونبصر فى السما شمسا وبدرا
وعار أن يكون لنا وجود
ويحظى غيرنا فوزا ونصرا

وهذا النشيد على بساطته يصور الانفعالات المبكرة

التى انفعل بها وجدان فتى مشبوب العاطفة ملتهب الحماس فى محبة بلاده .

وفى أزمة ابعاد مصطفى فهمى عن الوزارة فى ١٨٩٣/١/١ قام طلبة مدرسة الحقوق بزعامة الطالب مصطفى كامل بمظاهرة هاجموا فيها ادارة جريدة المقطم فى موقفها العدائى من الموقف الذى وقفه الخديو عباس حلمى ، ثم اعتلى منصة الخطابة بين جموع الطلبة الذين احتشدوا للتعبير عن سخطهم على المحتل الذى عارض رغبة الخديو فى ابعاد مصطفى فهمى صنيعة الاحتلال المطيع دائما لتوجيهاته ، ووجه فى خطبته نداء الى المصريين ليتكتلوا ويستعدوا لكفاح مرير ضد الانجليز .

الحالة السياسية
في سنة ١٨٩٠

١ ـ كان الانجليز يحتلون مصر منذ عام ١٨٨٢ وأقاموا فيها نظاما مبهما غير واضح المعالم ، اذ لم ينص فيه على ضم أو حماية . انهم أنهوا الكومترومينيوم الفرنسى الانجليزى فى السيادة ، وكفوا ايد فرنسا عن مصر كعامل ادارى وسياسى ، ونوقشت مسألة الاحتلال عدة مرات دون جدوى .

٢ ـ فى شهر يناير سنة ١٨٨٧ كلف السير هنرى دروموند Henry Drumond تحديد الشروط التى تسمح بجلاء الانجليز مع تركيا .

٣ ـ أبرمت معاهدة الآستانة فى ١٨٨٧/٥/٢٢ بين ممثلى بريطانيا وتركيا وتعهدت انجلترا بسحب جيوشها من مصر خلال ثلاث سنوات الا اذا وقعت أخطار داخلية أو خارجية تحول دون الجلاء .

٤ ـ صرح مستر جلادستون Gladstone رئيس وزراء انجلترا فى ١٨٨٣/٨/٩ فى مجلس العموم قائلا : « ان حكومة صاحب الجلالة لم تفكر إطلاقا فى ضم مصر الى ممتلكاتها ، انها ان فعلت ذلك تكون قد نالت من شرف انجلترا » .

٥ – صرح اللورد سالسبورى رئيس وزراء انجلترا فى ١٨٨٦/١١/٣ الى مسيو وادنجتون Waddingtone
سفير فرنسا فى انجلترا قائلا : « انكم تخطئون عندما تظنون أننا نريد الاقامة فى مصر نهائيا ، اننا لا نبحث الا عن الخروج منها محتفظين بكرامتنا لقد صممنا على الجلاء » وهكذا تكررت الوعود الانجليزية مرات عديدة بل نستطيع أن نسرد سبعين تصريحا للانجليز من هذا النوع ورغم هذا لم يتم الجلاء .

ولقد أصاب البلاد من جراء ذلك الياس والقنوط ، وخيم عليها جو من الخنوع والاستسلام بقى مضروبا عليها حوالى عشر سنوات ، وقد نهض مصطفى كامل يدعو الى مقاومة الاحتلال . فى هذه الظروف بدت دعوته غريبة عن الأذهان ، بعيدة عن الادراك ، وتساءل معاصروه كيف تقوم حركة وطنية لتحرير البلاد من يد أقوى الدول نفوذا وأوسعها سلطانا ؟ ولكن وطنية مصطفى كامل كانت أقوى من الجيل الذى ظهر فيه ، وأقوى من العوامل المثبطة ، فأخذ يثابر على دعوته ويناضل عنها حتى استجابت الأمة لندائه ، فكانت نهضة ، وكان شعور وكان جهاد . فكانت رسالته الى مصر كصرخة الحياة المدوية فى سكون النوم العميق !!

العام الأول من الجهاد الوطنى :

١ – عقب ظهور نتيجة امتحان ليسانس الحقوق لكلية تولوز بفرنسا فى ١٨٩٤/١١/١٨ باعلان نجاحه بدأ فورا نشاطه السياسى بنشر أول مقال فرنسى له ، انتقد فيه الاحتلال البريطانى وبسط آماله فى تحرير بلاده فى جريدة

لايبش دى تولوز فى ١٨٩٤/١١/١٣ . ونشرت الجريدة مع المقال نبذة عن مصطفى كامل والتعريف بوطنيته وأهدافه.

٢ ـ سافر الى باريس لجمع المذكرات والمؤلفات والوثائق السياسية المتعلقة بالقضية المصرية من المكتبات الهامة بباريس ليسترشد بها فى كفاحه ، وعقد أواصر الصلة برجال الصحافة فى فرنسا وأوروبا .

٣ ـ عاد الى مصر فى ديسمبر سنة ١٨٩٤ ، وعلى ظهر الباخرة التى عاد عليها ، تعرف بالكولونيل بارنج شقيق اللورد كرومر « الحاكم الفعلى للبلاد فى ذلك الوقت » واشترك معه فى حديث سياسى حول وضع انجلترا فى مصر ، وقد نشر هذا الحديث فى أغلب الجرائد المصرية والأجنبية فى ١٨٩٥/١/٢٨ . وكان له دوى كبير فى جميع الأوساط السياسية فى مصر والخارج.

٤ ـ نظم حياته ووضع برنامجا خاصا بالعمل الوطنى، بعد أن انتقل بحياته الخاصة الى ميدان ثان ، وأصبح ملكا للقضية المصرية ، ورغم أنه قيد أسمه فى سجل المحامين بمصر الا انه لم يترافع عن قضية واحدة بل قصر جهاده على الدفاع عن قضية مصر والسعى لتحريرها ، واندمجت بذلك حياته وتاريخه بتاريخ مصر .

٥ ـ فى ١٨٩٥/٣/٥ نشرت له جريدة الأهرام مقالة بعنوان « صواعق الاحتلال » استنكر فيها انشاء اللورد كرومر « محكمة مخصوصة » لمحاكمة المتهمين المصريين بالاعتداء على الجنود الانجليز متخطيا فيهما جميع الاجراءات القانونية السليمة .

٦ ـ فى ١٨٩٥/٣/٢١ توجه الى الاسكندرية بصحبة لفيف من أعضاء الحزب الوطنى لاستقبال النائب الفرنسي

المسيو فرانسوا دي لونكل ، الذى جاء الى مصر خصيصا لدراسة الأحوال السياسية تمهيدا للقيام بحملة دعائية ضد الاحتلال ، وكان مرافقـــا له فى جميع انتقالاته وحركاته ، وأولم له وليمة فى ١٨٩٥/٤/١٣ ؛ دعا فيها عددا كبيرا من الصحفيين المصريين والأجانب ، والأعيان من ذوى الرأى الحر ، احتفاء به ؛ والقى كلمة عن اغراض حضوره .

٧ ـ قام بأول رحلة سياسية له الى فرنسا فى ١/٥/١٨٩٥ ، وأقام فى احد فنادق باريس بشارع بلزاك واخذ فى اعداد أول حملة دعائية له لاثارة الرأى العام فى فرنسا وأوروبا لتأييد القضية المصرية وذلك باعداد نداء الى فرنسا مشفوعا بلوحة مصورة لتقديمه للمسيو هنرى بريسون رئيس مجلس نواب فرنسا ، للاستنجاد بها ضد الاحتلال .

٨ ـ أرسل الى شقيقه على فهمى كامل ـ الذى كان من معاونيه فى مصر ـ يوضح فيه ، ما أنجزه من المراحل فى الخطـــة الموضوعية ، للاتصال بالمراكز السياسية والثقافية فى فرنسا ، وما يعقده من آمال فى اتاحة الفرص المناسبة له للدعاية لقضية وطنه .

٩ ـ فى ١٨٩٥/٦/٥ ، ذهب مع وفــد من الشباب المصرى بفرنسا لمقابلة المسيو هنرى بريسون وقــدم له خطابا يطلب فيه معونة فرنسا مع اللوحة الرمزية المصورة التى تحمل هذه العبارة « نداء الى فرنســـــا محررة الشعوب لانقاذ الشعب المصرى » .

ونشرت جريدة لـــكلير الفرنسية مضمون هـــذا الخطاب فى عددها الصـــــادر فى ١٨٩٥/٦/٦ وطبع

مصطفى كامل آلاف النسخ من هذه اللوحة وأرسلها الى كبريات الصحف في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، وقد قابلت الصحف الانجليزية هذا العمل بحملة شديدة عليه ، واتهمته بأنه شاب يثير القلاقل والاضطرابات وأنه من اصل تركي لا مصرى .

وكان لهذا العمل دوى هائل في أوروبا وفي مصر ، فقد لفت أنظار العالم الي المسألة المصرية ، وكان هــذا النــــــداء أول صوت للشعب المصرى في اوروبا عقب الاحتلال ، وقيام مصطفى كامل به وهو بعد في الحــادية والعشرين من عمره لأكبر مظهر من مظاهر عبقريته .

١٠ ــ نشرت له جريدة « الجورنال » وهي من أوسع الصحف الفرنسية انتشارا في عدد ٢ يوليو سنة ١٨٩٥ حديثا سياسيا عن مصر كان له تأثير كبير في تبصير الرأى العام بمساوىء الاحتلال البريطاني .

١١ ــ ألقى أول خطبة سياسية له في فرنسا بل في أوروبا في ١٨٩٥/٧/٤ بمدرج كليــة آداب جامعة تولوز على رهط كبير من أساتذة كليــة الحقوق وكبار رجال الصحافة والرأى فيهــا ، شرح فيهـــــا أبعاد القضية المصرية ، واستنجد بأوروبا وفرنسا لمعــــاونة مصر في استرداد استقلالها وهي أول خطبة سياسية يلقيهـــــا مواطن مصرى باللغة الفرنسية في الخارج ، ولم يسبقه الي ذلك أحد قط وقد علقت عليها الصحف النمساوية والألمانية .

١٢ ــ اقام مأدبة لــكبار رجال السياسة والصحافة بباريس لشكرهم على ما أبدوا من اهتمام بقضية بلاده في ١٨٩٥/٧/٧ ، وعند انتهاء المــأدبة وقف المسيو باسريو

رئيس تحرير جريده لاديبش دى ولوز والقى كلمة تأييد لقضية مصر ورد عليه مصطفى كامل بكلمة عصماء يطلب فيها من فرنسا مؤازرته .

١٣ ـ سافر الى النمسا ونزل بفيينا فى ١٨٩٥/٧/٢٠ للاتصال برجال السياسة بها ونوهت بشخصيته وأهدافه من رحلته جريدة « اكسترا بلاط » اكبر جريدة سياسية فى فيينا فى عددها الصادر فى ١٨٩٥/٧/٢٨ .

١٤ ـ عاد الى باريس فى ١٨٩٥/٨/٨ ونشر رسالة بالفرنسية عن (أخطار الاحتلال البريطانى) مبينا فيها أهمية مركز مصر بالنسبة للعالم ، وأن وجود انجلترا فيها سيجعل نفوذها يمتد من الاسكندرية الى رأس الرجاء الصالح ، محتكرة بذلك التجارة الافريقية والآسيوية فضلا عن امتلاكها جبل طارق وعدن ومالطة وقبرص مما يجعل البحر الأحمر بحيرة انجليزية وان احتلال مصر خطر على العالم بأسره ، وان السياسيين الذين يساعدون على اجلاء الجنود الانجليزية عن مصر لا يؤدون الواجب الذى فرضته عليهم العدالة والكرامة فحسب بل انهم يعملون أيضا للسلام العام واتحاد **المسيحية مع الاسلام** . والعبارة الأخيرة تصدر لأول مرة عن زعيم مسلم فى الشرق العربى ، وهى بلا شك تدعو الى فكرة من أعظم الأفكار البناءة التى توثق أواصر العلاقات الانسانية فى المجتمع البشرى .

١٥ ـ فى هذا الوقت ألغى وزير المعارف المصرى البعثة المصرية الى فرنسا فطلبت منه جريدة لكلير الفرنسية فى ١٨٩٥/٩/١٠ رأيه بهذا الخصوص ، فنشر مقالة مطولة عن تاريخ العلاقات الثقافية بين مصر وفرنسا منذ

انشاء هذه البعثة فى عهد محمد على لتعليم الشبيبة المصرية .

١٦ — وفى ١٨٩٥/٩/١٢ حدث أهم حادث فى مجال الدعاية لقضية بلاده وهو اتصاله بالكاتبة الفرنسية العظيمة مدام جولييت آدم ، بعدما أطلع على مجلتها الكبرى لانوفيل ريفو ووقف على مثلها العليا التى تحرك قلمها ، فقد أرسل لها من تولوز خطابا مشفوعا بنسخة من رسالته (أخطار الاحتلال البريطانى على مصر) . وسوف نرى انه لم يكن مخطئا فى تقديراته وانه لم يجد فى مدام جولييت آدم الناصحة والمرشدة الأمينة فحسب بل وجد فيها الأم الروحية أيضا .

١٧ — وفى ١٨٨٩/١٠/١٥ نشرت له مجلة لانوفيل ريفو ، أول مقالاته الخطيرة التى هزت الرأى العام السياسى فى أوروبا ،وأثارت حفيظة انجلترا وجن جنونها بعنوان « انجلترا والسلام » وقامت تندد به الجريدة الانجليزية ذى ستاندار اللندنية وما لبثت الجولوا الفرنسية ان طلبت منه حديثا تعليقا على هذه الحملات وتم الحديث فى ١٨٩٥/١٠/١٥ .

١٨ — فى نوفمبر سنة ١٨٩٥ نشرت الأهرام له ثلاث مقالات وطنية ، الأولى عن الوزارة الفرنسية الجديدة وفيه تحليل دقيق للسياسة الفرنسية والثانية خطاب مفتوح الى اللورد سالسبورى رئيس الوزراء البريطانى فى ١٨٩٥/١١/١٣ وذلك ردا على خطابه فى (الجيلد هول) الذى ندد فيه بمظالم تركيا ودافع عن الأرمن ، أتهم فيه مصطفى كامل انجلترا بمحاولتها خلع السلطان .

١٩ — ألقى فى ١٨٩٥/١٢/١١ خطابا فى الجمعية

الجغرافية بباريس ـ حضره رهط من كبار رجال الدولة وعلى هذا المنوال استمر مصطفى فى دعايته السياسية لقضية بلاده ليس فى فرنســـا فحسب بل فى جميع العواصم الأوروبية : الآستانة ـ فيينا ـ بودابست ـ روما ـ لنـــدن ـ برلين مستخدما ومبتكرا عـديدا من الأساليب العلمية للدعاية الناجحة .

فن الدعاية والاعلام عند مصطفى كامل :

١ ـ استغلال ســياحاته فى أوروبا خاصة بفرنسا ، بالاتصال المباشر بالمجتمعات المتقدمة فى كل دولة ، وعقد الصلات مع رجال السياسة والصحافة وذوى الرأى الحر من نواب وشيوخ ، ودعوتهم الى ندوات حينا والى ولائم حينا آخر ، وفيها يقوم بشرح أبعــاد القضية المصرية ، يخطب بحكمة ، وتتخذ خطبه شكل المحاضرات ، غنية بالبراهين ، مدعمــة بالاحصائيات للتدليل على رأيه ، محاولا بذلك كسبهم لصفه وتجنيدهم للعمل لمصلحة بلاده .

٢ ـ محـــاولة دفع الرأى العام البريطــانى لمؤازرته بالاعتراف بعدم مشروعية الاحتلال البريطانى ، واتصاله بالجـــــاليات الأجنبية المقيمة بمصر وتوعيتها بالأحوال السياسية .

٣ ـ دعوة بعض كبار الشخصيات الأوروبية الهــــامة لزيارة مصر .

٤ ـ الأدلاء بالأحاديث الصحفية لمراســلى الجــرائد ووكالات الأنباء فى كل بلد أوروبى يزوره ودفع الصحفيين لنشر المقالات المؤيدة لبلاده .

٥ ـ تأليف الرسائل والكتب السياسية باللغة الفرنسية عن القضية المصرية وتوزيعها على كل الهيئات السياسية والثقافية فى دول العالم المتمدن .

٦ ـ تنظيم وتعبئة الشباب المصرى فى مصر والخارج وتجنيدهم للنضال ضد الاحتلال وقد تبلور هذا الدور بشكل حاسم فى عهد خليفته المرحوم محمد بك فريد .

٧ ـ ويمكن حصر وسائله فى الدعوة والاعلام فى الداخل والخارج فيما يلى :

ا ـ الصحافة . ب ـ الخطابة . جـ ـ الرسائل .

د . الكتب . هـ ـ الاتصال الشخصى .

ويحتاج كل واحد من هذه الوسائل لكتاب مستقل لشرحه وتوضيحه .

وقد نجح مصطفى كامل فى دعايته أبلغ نجاح ، فى ايقاظ الشعور الوطنى وبعث الحركة الوطنية فى مصر واثارة انتباه الرأى العام الأوروبى وكسب تأييده للقضية المصرية .

واستطاع وهو الأعزل من كل سلاح ، الاضطلاع لوحده بتلك الأعباء التى تخصص لها ـ فى أيامنا ـ وزارات ذات أجهزة بشرية وفنية ضخمة .

قصة حب

لقد كانت حياة مصطفى كامل قصة حب كاملة تمثل على مسرح التاريخ ، تمثيلا واقعيا بعيدا عن الخيال ؛ فكان لفظ الحب هو أول ما بدأ به شعاره الأول فى الجهاد الوطنى من أجل بلاده وقد نقش على غلاف مجلة المدرسة التى أصدرها وهو طالب بمدرسة الحقوق فى ١٨ فبراير سنة ١٨٩٤ (حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك) .

ولم يظهر فى تاريخ الوطن ولا فى كثير من الأوطان ان استهدف انسان من مبدأ حياته ، قضية بلاده ... وأن يمنح جهوده ، وأفكاره وآماله لوطنه دفعة واحدة ، وبتصميم قوي منذ ان كان طالبا بالمدارس الثانوية كما فعل مصطفى كامل ، وكثير من الزعماء الوطنيين بدأوا حياتهم فى أعمال عادية بعيدة جدا عن النضال الوطنى ومن سياق الأحداث وتفاعل الظروف اتجهوا للجهاد الوطنى بعد ذلك الا مصطفى كامل !! ، الذى عبر عن رغبته أمام على باشا مبارك وزير المعارف اثناء زيارته للمدرسة الخديوية ، وسلك بعد ذلك السبيل الوحيد الذى يلتزمه كل مجاهد وطنى فى سبيل تخليص بلاده، وهو الصحافة السياسية والدعوة المثمرة بالقلم واللسان

الى جلاء الاحتلال ، ونشر الوعى القومى فى طول البلاد وعرضها . ولم يسمح لنفسه وهو النابغ أن يمارس أى عمل حكومى يطامن رأسه ويخضعه لحكومة تحركها أصابع الاحتلال الانجليزى ؟؟

وبقى « الحب » الى آخر حياته العنصر الأقوى فى كل ما يحركه ويجدد همته ويبعث خواطره ويلهمه ، وهذا طابع العظماء الذين لا يلتصقون بالمذاهب الضيقة التى يقتصر نفعها على جماعة دون جماعة ، فالحب هو أقوى ما يسمو بالقادة والمفكرين عن الدنايا التى يتورط فيها الناس من حقد وحسد وخوف .

ولقد أحب مصطفى كامل أمه حبا شديدا ، فهيأ ذلك الحب قلبه ليكون وعاء للعواطف الخيرة من تضحية وانكار للذات ، وميل لخدمة النـــاس وقدرة على مشاركتهم آلامهم وأحزانهم ومشاطرتهم أفراحهم ومباهجهم . لأن حب الأم حب خالص برىء من الأنانية والاثرة ولذلك بقى مصطفى كامل فردا فى أسرته ، بارا بأعضائها مخلصا

ولقد روى بعض الذين عاصروه وكانوا معه فى آخر أيام حياته ، أنه وهو على فراش الموت فكر فى شقيقته التى لم تتزوج فى حياته وود لو تطيل الأقـدار عمره ليفرح بزواجها ، وأسف لعدم تحقيقه ، وليس أدل من هذا على روح الوفاء المتمكن فى قلبه نحـو أفراد أسرته

وشعار مصطفى كامل فى مجلة المدرسة غنى بالمعـانى التى لا يفرغ الانسان منها ان أطال فيها التأمل ، فهـو يقول لقراء مجلته الصغار ، فى جملة واحدة ، أحبوا مدرستكم وأهلكم ووطنكم . ويقول لهم أيضا ان حب المدرسة لا يختلف عن حب الأسرة والوالدين ، والمدرسة

تخدمنا وتحنو علينا وتنفعنا كما ينفع الأب والأم وهو يقول أيضا في هذا الشعار « ان الذى يحب مدرسته يحب العلم والفضيلة والشجاعة وهذا هو نفس ما يدعونا الى حب الوطن ، وفى هذه المعاني وما يتفرع منها وما يتصل بها ، ما يدعو كل مواطن عربى أن يدهش كلما تذكر أن كاتب هذه العبارة هو شاب بل صبى لم تزد سنه على التاسعة عشر ربيعا ؟

لقد ظهر مصطفى بعد ثورة قومية منيت بالهزيمة ، وبعد احتلال سعي جهده فى أن يحلل أمل الأمة ويضعفه ويثنى عزم المقاومين ، فكان الذين يؤثرون المقاومة يتساءلون كل صباح وكل مساء « كيف نقاوم وبماذا نقاوم ؟ » فأتاح تساؤلهم هذا الفرصة لدعاة الاستسلام والاعتراف بالأمر الواقع والرضاء به ، حتى جرؤ بعض المستوزرين فى ذلك العهد (1)، أن يحدث صحيفة أجنبية كبيرة فيقول :

« ان التغيير الكبير الذى أحدثته بريطانيا كان سريعا واسع المدى لدرجة أنى فى بعض الأحيان أغمض عينى وأتساءل هل أنا فى يقظة أم فى منام .. فيحق لنا أن نشكر بريطانيا ، أننا مدينون لها بثروتنا وسعادتنا » .

وكان الى جانب هؤلاء طائفة أخرى من المصريين عرفوا بالعقليين ، الذين نصحوا بالتريث والتعلم على يدى بريطانيا ، حتى نقوى على مجالدتها ومصارعتها ، وكان هؤلاء وأولئك خليقين أن يبثوا سمومهم وأن يجدوا من يصدقهم ويقتنع بمزاعمهم لولا أن عاجلهم مصطفى كامل بطرقاته السريعة القاصمة من بيانه السهل المنحدر بشدة

(1) هو مصطفى باشا فهمى رئيس وزراء سابق

كالسيل ، فقد أدرك بسليقته السياسية السليمة وبفطرة القائد الموهوب ان سبيله الى مقاومة الخطر الماحق ، اثارة الحب القوى فى قلوب المواطنين للبلاد ، واثارة البغض الشديد للاحتـــــلال ، والحب والبغض أقوى عواطف الانسان وأبعثها لهمته وأشدها الهاما وايحاء .

فأيقظ حب مصر بقطع من البيان الشعبى ، تكاد تكون من أروع قطع الشعر المنثور ، وتغنى بحب مصر ، وافتن فى وصف جلال ماضيها واحتفل بذكريات تاريخها وجرى على لسانه ما أصبح ثروة لكل كاتب وشاعر وطنى فى البلاد . فأصبحنا نردد قوله « لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا » ولقن المدرسون تلاميذهم فى المدارس فقرات من خطبة الوداع المشهورة فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ » وهى أعظم خطبة سياسية ألقـــاها زعيم فى النصف الأول من هذا القرن » لا فى مصر فحسب بل فى الشرق العربى بأسره .

« الا أيها اللائمون انظروها وتأملوها وطوفوها واقرءوا صحف ماضيها ، واســـــألوا الزائرين لها من أطراف الأرض ، هل خلق الله وطنا أعلى مقاما ، وأسمى شأنا وأجمل طبيعة وأخلد أثرا وأغنى تربة ، وأصفى سماء وأعذب ماء وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز ، اسألوا العالم كله يجبكم بصوت واحد ، ان مصر جنة الدنيا وأن شعبا يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب اذا أعزها ، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه ، اذا تسامح فى حقها وسلم أزمتها للأجنبى » .

وبقدر ما عمل مصطفى كامل على اثارة هذا الحب فى القلوب ، عمل أيضا على اثارة كراهيته للاحتلال واظهار

سقطاته وعيوبه وجناياته على مستقبل البلاد واقتصادها، واقناع المصريين والأجانب ببطلانه وبأنه اعتداء على مصر وعلى السلام العالمى ، ووقف فى وجه كل محاولة لتصحيح أساس هذا الاحتلال أو ازالة عدم شرعيته ...

ولما عاد مصطفى كامل الى مصر بعد نواله ليسانس الحقوق من فرنسا فى ديسمبر ١٨٩٤ اعتزم أن يهب حياته كلها للجهاد فى سبيل مصر ، ولئن قيد اسمه فى جدول المحامين ، فانه لم يترافع فى قضية لفرد قط .

ثم سعى للتعرف على مدام جولييت آدم اذ أرسل اليهـــا من تولوز فى ١٢ سبتمبر ١٨٩٥ هذا الخطاب التاريخى ، الذى يصور فيه حبه لوطنـــــه واستعداده للفناء فى سبيله . وقد جاء فيه : « انى لا أزال صغيرا ولكن لى آمالا كبارا ... » .

هم يقولون ان وطنى لا وجود له ، وأنا أقول ياسيدتى انه موجود وأشعر بوجوده بما آنس له فى نفسى من الحب الشديد الذى سوف يتغلب على كل حب سواه ، وســـأجود فى سبيله بجميع قواى وأفديه بشبابى ، وأجعل حياتى وقفـــا عليه ، انى أبلغ من العمر احدى وعشرين سنة ، وقد نلت اجازة الحقوق من تولوز قبل سنة ، وأريد أن أكتب وأخطب وانشر الحمية والاخلاص اللذين أشعر بهما فى سبيل رفعة الوطن العزيز ، قــد قيل لى أكثر من مرة أنى أحاول محالا ، وحقيقة تصبو نفسى الى هذا المحال ، فأعينينى يا سيدتى ، فانك من الوطنية بمكان يفردك بمزية تقدير قولى ، وتقوية عزمى وشد أزرى وتقبلى التحية والاحترام .

ويبدو من هذا الخطاب العزيمة القوية وجذوات الحب العارم الملتهب فى جوارحه نحو بلاده ، وكيف أن روح الهزيمة قد خيمت على قلوب معاصريه فاستكانوا للظالم المحتل ويئسوا من كل محاولة التخلص من براثن الاستعمار ، أما هو ففتح طريقا جديدا ، طريقا مجيدا للجهاد له ولمن بعده من أجيال المجاهدين ، بل فتح باب الأمل والرجاء فى امكان تخليص مصر من ظلام دامس ارخى سدوله على مصيرها .

وفى خطاباته الخاصة الى شقيقه نلمس آثار وهج الحب ، الذى يدفعه الى العمل والتفانى . كتب الى شقيقه على فهمى كامل فى ٣٠ من مايو سنة ١٨٩٥ قال :

« الآن أقضى ليلى ونهارى فى مخالطة كبار السياسيين، لأنتفع منهم بخدمة مصر المحبوبة ، والحمد لله قد تشرفت بمعرفة الكثيرين . رأيت من الجميع استعدادا لمعاونتنا وتحريك المسألة المصرية وطرحها للمناقشة من جديد .

وانى أجد فى نفسى قوة فى هذه الأيام ما شهدت مثلها مدة حياتى ، كأن الله يريد أن يكون العامل لبلاده قويا ، حتى يقاوم هذه الحركة الهائلة ، ولكننى أشعر من جهة أخرى بأن بلادنا فى حاجة لرءوس وأقلام مصرية كثيرة ، حتى يقرب البعيد ، بما تحدثه فى العالم من الحركة » .

وفى رسالة أخرى ارسلها الى شقيقه قال :

« فاعذرنى أيها الأخ العزيز ، فانى أتعب نفسى ليلا

ونهارا ، وان كان هذا التعب لا يذكر فى جانب ما علينا لوطننا المقدس من الواجبات ، فلو رايتنى الآن لرايت مصريا يحرق قلبه لرؤية أمته سعيدة . مالكة زمام امرها ، ووطنه مستقلا رفيع المنزلة بين الاوطان . ترانى فى حركة مستمرة ، تارة أحادث وتارة كاتب ومرة ازور وحينا أهاجم ، وحينا أدافع ، ولى كبير الأمل ان يفتح باب المسألة المصرية للمناقشة عاجلا أو آجلا وكل آت قريب ، اما صحتى فلم يطرأ عليها تغيير . وهب ان طرا شيء ، فان من يبذل الروح وهو الجوهر ، لا يبالى بالجسم وهو العرض » .

ولكم كتب الى امه الروحية « مدام جولييت آدم » من رسائل تسرى فيها تلك النغمة . وتفيض أيضا اسى وعتابا على أهل وطنه الذين — مع التأييد والحب — لا يشتركون معه عمليا فى الجهاد ، ولا يبعثون اليه نفرا من المواطنين المتشبعين بحب الوطن مثله ، لكى يعملوا معه ويكتبون ويخطبون ، ويشدون أزره فى معركة النضال فقد كتب لها فى ١٩٠٤/١٢/١٦ يقول :

« أنى أروى مشهدا من أفظع المشاهد ، ذلك هو سقوط وطنى ، ولو كنت لا أستطيع تنفس الصعداء كل لحظة لعبرت من زمن بعيد . انه لمن أشق الأعمال على الانسان أن يجاهد ضد الزمن والحوادث والناس ، وليس هناك شيء يؤلمنى أكثر من الانحطاط الأدبى الذى استولى على أولئك الذين كان يجب عليهم أن يكونوا أعظم الناس كرما وشهامة . لا تتخذى من هذا دليلا على الفتور ، ولكنها زفرة متألم . فانى ما زلت ولن ازال ابذر البذر الصالح ، وأمثل الأمل الحى بالرغم من كل العوائق حتى لا نترك ماضى مصر ومستقبلها فى يد النسيان .

وفى رسالته اليها فى ١٩٠٥/٨/٢٩ قال (١) :

« انى كلما فكرت فى أنى أن زلت عن هذا الوجود فلن يسمع احد صوت وطنى ، كلما ارتقى شعورى ، وقويت معنويتى ، واعتنيت بصحتى التى تتحسن شيئا فشيا .. ليس امامى الا خمس سنوات أو ست سنوات أكافح فيها أشد الكفاح ، وبعدئذ أستطيع العيش سعيد البال فالسعادة لا تنال دفعة واحدة » .

ولكن القدر لم يمهله هــذه السنوات التى تمنى أن يحياها ، فالسنوات الخمس أصبحت ثلاثا ، والسعادة التى كان يطمع فيها بعد هذا الكفاح المضنى نالهـــا ولكن ليس فى هذه الدنيا ، بل كانت فى الدار الأخرى ، بعد أن التف حول جثمانه شعب بأسره ... وفتح له باب الخلود على مصراعيه .

وتوالت الدلائل على احساس مصطفى كامل بدنو أجله فقال لمدام جولييت آدم فى ٤ أكتــوبر سنة ١٩٠٧ : (وستكون هذه السنة أهم سنة حياتى) ولقد صدق حدسه ، ففى هذه السنة تأسس الحزب الوطنى وصدرت جريدتان باللغتين الفرنسية والانجــليزية واطلق سراح سجناء دنشواى ثم لزم فراشه ، حتى حمل على الأكتاف الى القبر .

وفى خطبة الوداع التى ألقاها فى أكتوبر سنة ١٩٠٧ لخص هذا الحب العظيم فى عبارة خالدة أصبحت مثلا يروى على مر الأجيال حين قال :

« بلادى بلادى ، لك حبى وفـؤادى ، لك حيــاتى ووجودى ، لك دمى ونفسى ، لك عقلى ولسانى لك لبى

---

(١) مصطفى كامل لفتحى رضوان ص ١٢٩ .

وجنانى ، فأنت أنت الحياة ، ولا حياة الا بك يا مصر » .

وقد اتخذ الفنان المصرى الشهير سيد درويش ، من هذه العبارات ، مطلعا لنشيد وطنى الفه ولحنه ، واصبح هذا النشيد من روائعه الفنية الخالدة ، ترنم به شباب مصر منذ قيـــام ثورة ١٩١٩ (وهم يواجهون رصاص الانجليز) حتى الآن .

وحين انتقلت روحه الى الرفيق الأعلى ، بكاه أصدقاؤه وخصومه على حد سواء ، وأقروا جميعا فى مصر وخارج مصر بأنه مات بأسباب حبه لوطنه ، وتعذب بنار هــذا الحب حتى آخر لحظة من حياته ، وفيما يلى ما نشرته الصحف الأجنبية فى مصر عقب وفاته .

فقالت جـــــريدة « البروجـــــريه » الموالية للاحتلال « ان نبأ وفاة مصطفى كامل باشا ترك فينا اسى بالغا ، واذا كنا حاربناه محاربة مريرة ، فاننا نكن لخصمنا البطل شيئا أكثر من العطف ، انه مات من شدة حبه للوطن ، واننا نبكى فيه نشاطه وشهامته ، بل نبكى فيه شخصيته الجديرة ببكاء الناس عليه .

وقالت الفارد الكسندرى ، الموالية للاحتلال :

« كان نشطا وذكيــا ومثقفا وخطيبا لامعــا ، وكاتبا عظيما ، كان يحمل بين جنبات فـــؤاده عقيــدة ترفع الجبال ، العتيدة فى مستقبل بلاده وحبه المقدس لها ، مصر التى كان يريدها حــرة مســتقلة ، انه لم يتمتع بتحقيق حلمه ، بيد أن الأعمال التى قام بهــا مجيدة ، لقد عرف العامة ما هى عبادة الوطن ، وبلور فيهم هذا المثال العالى النبيل فكرة استقلال الوطن ، وعرف كيف

يجمع حوله مختلف العناصر ليكون حزبا متآزرامتحدا قويا فاختاره هذا الحزب رئيسا له . كانت نواياه نبيلة دائما وهدفه ساميا لأنه كان يعشق مصر أمه المجيدة ، ان المصريين يبكونه مر البكاء وانا نضم دموعنا الى دموعهم » .

وقالت جريدة لبيراميد المؤيدة له :

« أن موته بالنسبة لمصر خسارة لا تعوض ، لم ير الشرق الحديث بأجمعه رجلا أشد قوة روحية منه ، أو أكثر مثابرة منه ، كان منكرا لذاته الى حد التضحية ، وكانت حياته السياسية كثيرة الاضطراب ، ولكنها كانت جميلة طوال الخمسة عشر عاما كحياة الكهنوت ، لقد أحب مصر حبا جما » .

ومن أقوال الصحف الأجنبية خارج البلاد ، ما نشر فى جريدة لتندار الفرنسية على لسان أميل فلورانس فى عددها الصادر فى ٢٦ فبراير سنة ١٩٠٨ عن وفاة مصطفى كامل :

« تعرفت خلال حياتى السياسية الطويلة بوطنيين متحمسين ، تتألم أوطانهم تحت يد الاحتلال الأجنبى ، ولقد لمست آلامهم وآمالهم وقلقهم وكربهم ، ولكن لم أجد فيهم مثل مصطفى كامل فى شدة حبه لوطنه وللحرية والتقدم . ان معرفة مثل هؤلاء الرجال تجعلنا نرتبط بهم ، والفراغ الذى يتركونه فى قلوبنا لا يمكن ملؤه » .

وتكلم الكاتب الفرنسى رينيه بوو مراسل جريدة الطان حديثا طويلا عن مدرسة مصطفى كامل وعن زيارته لها بصحبة مصطفى كامل ثم أضاف بعد أن تصدى لبعض ذكرياته المؤثرة :

« كثيرا ما ادعى أعداء وخصوم مصطفى كامل بأن كل

الحركات والدعايات التى قام بها لم تكن الا مظاهر مختلفة لحملة أرادها الباب العالى ضد انجلترا ولكن لا يعتقد هذه النهضة الا الذين لم يستمعوا الى خطب مصطفى كامل عن مصر . كان يحب بلده حبا جما وبذل نفسه من اجله. كان يشرف بنفسه على صحفه الثلاث ويكتب المقالات ويصحح البروفات ويصدر الأوامر ويستقبل وفود الزوار ، كان يختلس لحظات الراحة التى تركها له عمله المضنى ، ليحضر خطبه الوطنية التى سيلقيها فى أهم المدن المصرية ، ولقد قال منذ اربعة شهور عندما كان فى باريس :

« أخشى قصر عمرى ، فلا ارى تحرير بلادى ولكن لا ضير فقد ربحت الجولة ولن يترك المصريين الكفاح اذا مت » .

كانت هذه هى آخر فكرة لذلك الرجل ذى القلب الكبير الذى أعجب به ، وأحبه كل الذين عرفوه ، والذى لا تستطيع مصر الا الاحتفاء بذكراه والاعتراف بجميله» .

عبقرية الزعامة

يمر الزمن ، وتنسى الحوادث ، ولا ينسى مصطفى كامل وذكراه العظيمة التاريخية الخالدة ، فذكرى زعيم مصر مصطفى كامل هى من طبيعة الزعامة التى كان مصطفى كامل رسولها وصاحب دعوتها ..

لقد بزغت شمسه فى عصر ادلهمت فيه الحوادث واعترت الأمة المصرية فترة ركود ، ركدت بأسبابها الهمم ، ووجمت النفوس ، وسكتت الألسنة ، وسكنت الحركة ..

ولكن لما كان للزعيم فى الأمة رسالة ، تضع حدا فاصلا بين السنة واليقظة ، هب مصطفى كامل وحده يدعو الأمة للمطالبة بحقوقها التى أخنت عليها حوادث سنة ١٨٨٢ ..

كان مصطفى كامل حجة الأمة المصرية البالغة على باطل الذين رأوا أنها غير جديرة بنعمة الاستقلال ..

نطق بحق مصر طول حياته وجاهد أكبر دولة فى العالم (فى وقته) ولم يعبأ بالعقبات فى طريقه — ولكنه ذللها وضرب المثل الأعلى للشباب فى كل جيل بأن من واجبهم وحدهم العمل فى صفوف المجاهدين ، وقد عدمت مصر النصير من الشيوخ ..

كان مصطفى كامل كتاب الجهاد الوطني ــ وهو الذى وضع رسالة الجهاد ، ورسالة الزعامة لله والوطن .. لم يرج من وراء زعامته وقيادته الأمة المصرية فى ميدان الجهاد الوطنى مناصب او رتبا أو جاها ...

ولم يؤثر عن مصطفى كامل فى جهاده مهاجمة خصوم البلاد لا من المحليين او الأجانب ــ فكانت زعامته رفيعة ، وآيته سامية ، وضرب بذلك أروع مثل اخلاقى ــ اذ يقول : « انى أترفع عن أن ادافــع عن بلادى بالشتم والسباب » .. وقد وضع للأمة المبدأ الوطنى الأعلى الذى يجب أن تترسم خطاه ، وتنهج منهاجه فى جهادها ضد الاستعمار والاحتلال بقوله :

« ليس للبلاد التى تحتلها الجنود الأجنبية الا سياسة واحدة هى سياسة الاستقلال ، اى الجلاء ، وأن كل قول أو عمل يؤدى الى اضعاف الروح الوطنية ، والى هدم كل أو جزء من ثقة الأمة بنفسها ومستقبلها هو اكبر اذى يصيب البلاد » ..

ووضع للزعماء والقــــادة فى مصر قاعدة تميط من الطريق أذى الشك فى اخلاصهم وأذى الاتهام ، مبينا لهم أن المناصب فى ظلال الحكم الأجنبى لا تليق بزعيم أن يتسابق اليها ــ اذ قال :

« ان الحكم المرتكز على قوة الأجنبى ليس معناه الا خيانة الشرف الوطنى » .. ووضع لأبناء الشعب قاعدة من قواعد الوطنية الحقة ، وشرع لها دستورا تسير عليه فى عرفان التمسك بحريتها واستقلالها اذ يقول :

« ان الاحتلال الأجنبى عار على الوطن وبنيه ، وازالة العار من أقدس الواجبات » ..

حقا لقد كان مصطفى كامل ذخيرة الوطن .. والزمن .. في يد التاريخ ، وكتاب الجهاد الوطنى فى سير الزعماء والقادة ..

وقد أدخره الله لزمنه الذى وجد فيه ، كما يدخر الملهمون للأزمان التي يقضى أن يوجدوا فيها ، فبزغ بدرا ساطعا في عصر قلت فيه النجوم ، وعلا نجمه حتى أصبح معجزة لمصر – تفخر به الأمم والشعوب ..

كان لسان مصر الناطق وحركتها الدائبة ، ولم تكن زعامته سياسية فحسب – بل كان زعيم – دين وأخلاق – ومجتمع ، بل زعيم اقتصاد وتشريع وتعليم ..

كان مصريا يقدس ما هو مصرى ،ويفخر بانتسابه الى الأمة المصرية ذات التاريخ العظيم – اذ يقول :

« لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا » ..

كان مؤمنا ثابت الايمان بعقيدته ووطنيته وعروبته ، لم تفتنه عن جهاده المغريات ، ولا التلويح بالمناصب تارة وبالمال تارة أخرى ، ولكنه هزأ بكل ما هو بعيد عن الدفاع عن قضية الوطن .

وفى ميدان الخطابة كان مصطفى كامل الفائز المجلى ، والخطيب القادر على تحريك الجماهير ، وفىميدانالكتابة السياسية كان الكاتب الألمعى الذى لا يضارعه أحد ..

وفى خلال العقد الأول من القرن العشرين ، أيام كانت الحياة تنحنى أمام السيد المطاع اللورد كرومر ، كان مصطفى كامل اول من جرؤ على مجابهة المغتصب ، رغم صغر سنه وحداثة عهده باستكمال دراسته القانونية ، ورغم وجود كثيرين من غيره من فطاحل الرجال والقادة

القادرين على منازلة المغتصب ـ ولكنهم اعتصموا جميعا بالاستكانة ، وجبنوا عن معـــارضة الاحتلال . وآثروا السلامة على المخاطرة ، والعيش فى دعة ورفاهية عن النضال والجهاد ، ابقاء على اموالهم وضياعهم ونفوذهم الاجتماعى بل ان جميع الذين تزعموا الحـركة الوطنية بعد موت مصطفى وفريد كانوا من طبقة كبار الموظفين ، الذين ضربوا المثل فى الطـــاعه والاذعان والاخـلاص للاحتلال ، ولذلك حينما وضعتهم الظروف فى منصب القيادة ، اهتزت المثل الوطنية القويمه فى نفوسهم ، وتعثر جهادهم ووقعوا فى أخطاء عديدة ، منها مساومة الاحتلال ومفاوضته مع بطلان مبدأ المفاوضة بين شعب أعزل ، ومحتل غاصب يرتكز حكمه على القوة والسلاح . أما مصطفى فظلت كبرياؤه الوطنية سليمة الى ان مات .. لم يخنع يوما ، ولم يساوم يوما ، ولم يقبل منصبا من الاحتلال وقال كلمته المشهورة « ان من يتسامح فى حقوق بلاده ولو مرة واحدة ، يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان » .

لم ينل زعيم مصرى شعبية أقوى مما ناله مصطفى كامل ولا نفوذا أكبر من نفوذه فى الشرق اجمع ، كان الخديو عباس الثانى والسلطان عبد الحميد وجلادستون والسير كامبل بانرمان رئيس وزراء انجلترا فى عهده ، يستمعون اليه بأذن صافية ، ويقدرون رأيه الحصيف ، وعقيدته الراسخة ، وصراحته التامة .

كانت الأبواب تفتح أمامه ، والجمعيـــات الأدبية والسياسية تتنافس على الاحتفـــال به ، والصحافة الأوروبية تتقبل مقالاته ، ورسالاته واحتجاجاته وكانت الأمة تعترف بأنه نعم الهادى ونعم الزعيم .

ولقد قال الصحفي الفرنسي (١) الشهير أوريان في كتابه « مصر فريسة الدخلاء » :

« لكي تنمو الاتجاهات والتطورات التي تعود على مصر بالخير والرفاهية ، ولكي تأتي التجديدات بنتائج خصيبة دائمة ، كان لابد لها من خطط حكيمة تسير وفقها . لم تستطع الحكومة ولا أقطاب الأمة أن يرسموا هذه الخطط لأسباب مختلفة ولكن مصطفى كامل أخذها على عاتقه في حزم وشجاعة ورسمها بنفسه . لقد خلق الزعيم الوطني مصر الحديثة وأيقظ الشباب من سباته ، بل وكهربه ، وأبان له واجبه القومي . ثم تم الاستيقاظ سريعا بعد ما كان كاملا . ان كل الناس انضمت تحت لواء هذا الخطيب الباسل استعدادا للجهاد بقوة وحماس . لقد عرف مصطفى كامل المصريين بأنفسهم لأنهم كانوا يجهلونها من قبل . لقد صاغ ضمائرهم على شكل ضميره ووضح لهم الطريق الذى يحقق أغراضهم لقد جعلهم يحسون بمدى تخاذلهم ، باعثا فيهم قوة الايمان والشعور بالفضائل والاهتمام بمستقبلهم كان يستحلف المصريين دون أن يحيد عن برنامجه السياسي — أن يحذوا حذو اليابان وأن يبزوا جيوشها ، وأن يبرهنوا باتحادهم على أنهم جديرون بالحرية التي يطالبون بها » .

ظل ذلك الزعيم الفريد في تاريخ مصر في جهاده طيلة خمسة عشر عاما ، مدفوعا بشعوره الوطني المتأجج اخلاصا ، يجوب أوروبا ، ويدلي بتصريحات ، ويؤلف كتبا ، ويصدر صحفا ومجلات وينشيء معاهد لكي يبعث الحياة في الشعب المصري ويعرف العالم بحقوقه الشرعية » .

---

(١) مصطفى كامل وكفاحه للدكتور أحمد رشاد .

وفى غداة دنشواى لم يخف أن يصيح . وقد أثار هذا الجور ثائرته : « لقد آن لى ان اخلع اللورد كرومر عن عرشه وكانت صيحة ابتسم لهـا رفاق مصطفى ابتسامة اشفاق قائلين : « ما أشد غرور هذا الشاب واغرب اوهامه .. أفلا يرى أن بلاده فقدت كل قواها الحيوية واسلمت قيادها الى المغتصب ؟ ولكن مصطفى لم يعبأ بسخرية الساخرين – بل وفى بالعهد ، وخاض مع جبار قصر الدوبارة غمار معركة انتهت بما انتهت اليه قبل ثلاثين قرنا ، المعركة التى دارت بين داود وجليات – أى بين الايمان والقوة ، وبين المثل الأعلى والمادة ...

وقد ظل صوته الجهورى يحرك النفوس المصرية طيلة أكثر من عشر سنوات ، بينما كان قلمه يستثير حماستها ويبعث فيها الثقة بمستقبل الوطن ..

لم يكن مصطفى كامل موضع الاكبـار فى مصر فحسب ، بل كان له فى أوروبا عدد جم من الأصدقاء والمعجبين به ، وقد سأل المرحوم حافظ رمضان باشا مدام جولييت آدم الكاتبة الفرنسية الشهيرة رايها فى مصطفى كامل بعد سنوات فردت عليه بالرسالة المؤثرة التالية :

« ما زلت أبكي من كنت أعده ابنا لى ، وقد أدركت منذ لقائنا الأول ما انطوت عليه نفسه من ألوطنية العالية ، ساعة فساعة ، وسنة فسنة ، عنيت به عناية الأم بابنها وكاشفنى بمقاصده مقصدا مقصدا .

وانى بوصفى فرنسية مرهفة الحس فى وطن مغلوب على أمره ، يفيض قلبها عواطف وطنية ، لا ازال أرغب له فى الثأر ، أستطيع أن أدرك تماما الآلام الوطنية التى

كان يعانيها وهو فتى ، ثم رجل ، ثم سياسى كبير ..

لقد نهض مصطفى كامل بكل ما يخطر على بال ، ويختلج فى ضمير ، لتسديد خطى بلاده فى سبيل الفوز بمطالبها المشروعة ..

نهض بكل ذلك وفى يده ميزان عجيب يضع فى احدى كفتيه الحماسة وفى الأخرى المهارة . كل ما كتبته عن مصر فى الصحف الفرنسية استوحيته من هذه القوة المزدوجة التى تجلت فى مصطفى كامل الى أبعد حد . وهى الشعور العميق بتقاليد أمة عظيمة فى ماضيها ، عظيمة فى ممكناتها . وكلما استوحى من تلقوا تراث مصطفى كامل تلك الخطة التى رسمها لأنصاره ، والتى اجملها فى هذه الكلمات : « العراقة والشجاعة فى العمل والمهارات فى اصطناع الوسائل وضعوا حجرا جديدا الى صرح الوطنيـة المصرية التى كان مصطفى كامل رافعه الأعظم » .

لقد وقف مصطفى كامل حياته على قضية واحدة ، أفنى فيها قوته وكيانه ، ونادى بحق مصر فى يوم نامت فيه القلوب ، وأصيبت بالتواكل ، مكتفية بما ناله أصحابها من جاه وثراء ، متقلبين فى نعيم الوظائف والمناصب ..

وكان حريصا جريئا يتمتع بأكبر قسط من الشجاعة الأدبية ، اذا رأى رأيا فحصه وأخرجه صريحا ناصعا حتى يكون دستور جهاده ، ولهذا لم يأخذ عليه التاريخ مأخذا ، ولم يجد الخصوم فى حياته ملمزا ولا مطعنا ، فترك لشباب الوطن وأجياله ذخيرة روحية غالية تعز على التثمين والتقدير ، تلك هى ذكريات حياته وكفاحه وتضحياته فى سبيل أسمى غرض وانبل غاية ..

العلاقة بين جهوده فى سبيل التعليم ودعوته الوطنية:

لقد كان كل سعى زعيم الوطنية الأول حينما بدأ فى الدفاع عن قضية بلاده ، مبنى على الاعتماد على فرنسا ، وحثها على اخراج الاحتلال من مصر وخطب أول خطبه السياسية فى ١٨٩٥/٧/٤ فى تولوز ، وقد نالت استحسانا كبيرا ، وبعد ذلك قدم عريضة الى رئيس مجلس النواب الفرنسى مشفوعة بصورة تمثيلية تعطى فكرة عن الاحتلال الانكليزى ، واستنجاد مصر بفرنسا محررة الشعوب ، وكان لتلك الخطوة أثرها فى العالم أجمع . وأخذ يجاهد ويناضل ، محدثا كبار رجال فرنسا عن اغتصاب بلاده ، متصلا بكبار الكتاب فى أوروبا ، مدليا بالبيانات والمعلومات الماسة بأمر بالاحتلال مظهرا استياءه فى المجتمع الأوروبى من ظلم الانجليز لبلاده ، وارباً بوطنه أن يكون غنيمة باردة لانجلترا ، وفريسة سهلة المنال للأسد البريطانى ، الذى استولى على البلاد بغير حق وبدون مبرر ، سوى ما دعت اليه الحالة بعد الثورة العرابية من الأمن والاستقرار ، ولقد تذرعوا بتلك الوسيلة حتى بعد هدوء الحال ، وانتشار الأمن والسلام .

وبعد جهد دام من سنة ١٨٩٥ الى سنة ١٩٠٠ قضاه في التجوال في أوروبا عاملا نشطا بلا توان ولا فتور ، انهار أمله في فرنسا لما يأتي :

١ ـ ازاء الحركة الوطنية المتدفقة ضاعفت انجلترا جهودها لبلوغ غايتها في مصر ، فحارب ممثل انجلترا اللورد كرومر هذه الحركة وطعنها من جانبين :

الأول : التعصب الاسلامي ليثير أوروبا المسيحية .

الثاني : عداوتهـا للأجانب ليؤلب الدول في صف انجلترا .

وقد أنفق مصطفى كثيرا من جهـــوده لنفي هاتين التهمتين وأنشأ جريدتين انكليزية وفرنسية لهذا الفرض وهما : لتندار اجبسيان ، ذي ستاندرد اجبسيان .

٢ ـ واصلت انجلترا المساعي السياسية حتى عقدت الاتفاق الودي مع فرنسا في ١٩٠٤/١/٨ وبه حصلت على اطلاق يدها في مصر مقابل اطلاق يد فرنسا في مراكش ، وأقرت ألمانيا والنمسا هذا الاتفـاق ، وأقرت الدول الثلاث كذلك اتفاقية السودان سنة ١٨٩٩ التي فيها سلب حق مصر الواضح في البلاد التي بذلت فيها دماء المصريين ، والمعدودة من أملاك مصر منذ تم فتحها في عهد محمد علي باشا وقد أيد لمصر هذا الحق بفرمانات الباب العالي .

وبهذا الاتفاق الودي ، تصـدع ركن هام من أركان سياسة مصطفى كامل في دعوته الوطنية ، ولكن مصطفى لم يفشل ودخل في قلبه الشك من نجاح دعوته . وعول على رجاء دولة الخلافة ودعوة الشعوب الاسلامية للالتفاف حولها كوسيلة جعلها من محور دعوته ، حتى اذا

تدخلت تركيا في قضية البلاد أمكن أن يتحقق لهـــا الجلاء . ولكن تزعزع رجاؤه من الدولة العلية للسبب الآتي :

أعادت تركيا الخلاف الذي أحدثته في سنة ١٩٠٦ وذلك بأن أرادت ضم شبه جزيرة سيناء الى املاكها واخراجها من الأراضي المصرية مما أدى الى تدخل انجلترا حينما احتلت الحامية التركية بلدة تدعى طابة ، وأعلنت انها مستعدة الأن تؤيد مركزها في مصر بالقوة ، وقـد استمرت المشادة حينما كان في غضونه يدافع مصطفى عن تركيا ، ولكن انتهت في النهاية الى التسليم بمطالب انجلترا ، فانحل بذلك أمله في معونة تركيا .

على أنه وهو الرجل الشديد الأمل في دعوته ، العظيم التبصر في الأمور ، بعد ما رأى فشل السياسة التي جرى عليها وهي الاعتماد على فرنسا ثم على أوروبا ثم على الباب العالي . آثر لنفسه خطة اخرى أجدى وأنفـع وهي اعـــداد الأمة بأدوات الاستقلال من علم وخلق وغرس الايمان نفسها بنفسها ، لا لمجـــرد الـكراهية للانجليز ، ولا حبا في الباب العـــالي ، ولكن حبـــا في الاستقلال والحرية لذاتهما . وعلى ذلك بدأ السعي في ترقية التعليم حتى يفي بالغرض المطلوب ويحقق النتائج التي تترتب على انتشاره وارتقائه ، ولقد قال في خطبة مشهورة يوم ١٩٠٤/٦/٨ عن الموقف السياسي ما يأتي :

« لقد كنا منذ سنوات مضت نرقب الخلاص من دول الغرب ، ونتوسل اليهم بكل الوسائل ونطـالب المدنية وعودها وعهودها ، ونذكر الانكليز بتلك الأقسام المشهورة التي ملأ الآذان دويها ، ورددها الشرقيون والغربيون على

السـواء . وكنا نقرأ على الفرنسيين ، صحيفة التاريخ التى جمعت من جلائل الأعمال وصلات الود ، ما تجعل الامم مدينة لبعضها ونحو نفسها بديون غالية .

ولكن هذه المساعى لم تثمر الثمرة المقصودة ، وقد رأينا الدولتين الفرنسية والانكليزية ، وقد كانتــــا بالامس العدوتين ، تتحالفان الآن على مصر ومراكش وتتفقان علينا بعد طول الاختلاف ، فهل تدعونا مثل هذه الاتفاقية لترك كل أمل فى مستقبل البــــلاد والتمسك بأذيال اليأس » .

ولقد ذكر فى احدى المقـالات التى كتبها فى جريدة اللواء السبب الذى من أجله أهمل التعليم فى بدء حركته معتمـــــدا على أوروبا (ولما كانت آمال مصر معلقـــــة بالسياسة الغربية من سنين ، وقد كانت التربية الأهلية مهملة ، على أننا متى صرنا احرارا وانجلى الانجليز عن ديارنا ، ورجعت الحكومة لأبنائها يسهل تحقيق أمانينا فى التربية والتعليم ، ولكننا بعد حادث فاشودة علمنا وعلم الناس أجمعين أن السياسة الغربية سياسة أهواء وأغرض ، وأن شـــعبا كشعب مصر يريد الرفعـــــة بالمعارف ، ونشر الآداب والأخـلاق التى هى كفيلة بأن توصله الى غايته المنشودة » .

حالة التعليم قبل دعوته

لقد اخضلت شجرة المعارف بعد جهود العاهل العظيم محمد على الكبير ونهض التعليم نهضة عظيمة ، وانتشرت فى مصر المعاهد التعليمية لكل نوع من أنواع الثقافات، ولكل فرع من فروع الدراسات ، ولما دخل الاحتلال البلاد أخذ يقضى على كل معالم النشاط العلمى، ومظاهر البحث والثقافة ، فألغى كثيرا من أمهات المدارس الكبيرة .

ويمكننا حصر أسباب تدهور التعليم فى عهد الاحتلال لثلاثة أسباب :

١ ــ تدخل الانكليز الشائن فى وزارة المعارف فكثر عدد موظفيهم ، وانتشرت رقابتهم على كل شئونه . وزاد عدد مدرسيهم وصار للمستعمر الانجليزى اليد الطولى، والكلمة العليا والسيادة المطلقة فصاغوا التعليم بما يتفق وأغراضهم دون مصلحة البلاد .

٢ ــ أصبح التعليم غير صالح لتحقيق ما ترجوه البلاد من أغراض وانحصر فى أساليب بالية ، وبرامج ضيقة لا تنفع الا فئة قليلة تتلقى ثمالة المعلومات التى لا تصلح الا لتخريج موظفين فى دواوين الحكومة .

٣ ـ حرمان المصريين من جنى ثمار التعليم فى الخارج وكان الغاء الارسالية أكبر ما منى به التعليم فى ذلك الوقت .

وقد بترت العلاقات بين مصر وفرنسا وانخفض عدد مدرسيهم فى البلاد . ووقف نهر النهوض العلمى الذى كان جاريا من فرنسا منابعه الى مصر مصبه وانقطعت صلة الشباب المثقف المصرى بأوروبا .

ومع ما فعله الانكليز من المضار بالتعليم ، فقد أشاعوا أنهم رقوا التعليم ، وأن نهوضه قائم على قدم وساق بجهودهم ، فلما علم بذلك الزعيم مصطفى كامل باشا ، انبرى لهم يبين كذبهم وغشهم .

ففى حديث له مع أحد المحررين الأوروبيين قال : « ان الانجليز كما نعلم هم القابضون على الحياة الأدبية بالبلاد ، وفى أيديهم معاول الهدم . فقد أكثروا من المدرسين الانكليز ليلقنوا العلم لقوم لغتهم العربية بالانجليزية ، وليقضوا على ما بقى من مكارم اسلامية ، وأخلاق أهلية ، واحساسات وطنية .. أليس لأنهم لو نشروا العلم الصحيح ، وأحسنوا الى البشر ، احسانهم الى نفسهم ، يسقطون من حالق مجدهم حيث تعرف الأمم حقوقها ، فتستردها منهم بقوة العلم » .

وفى حديث آخر مع المسيو ريزنرى المجرى مدير جريدة البتر لويد المنشور فى ص ٢٣٤ جزء ٦ من سيرة المرحوم مصطفى كامل باشا وذلك ردا على سؤاله عن عدد المدارس التى زادتها الحكومة مدة الاحتلال .

« ان حكومة الاحتلال لم تزد مدرسة واحدة على

المدارس التي كانت قبل سنة ١٨٨٢ ، فانه كان فى مصر مدارس للحكومة ، ومدارس لأوقاف المسلمين ، فأصبحت اليوم كلها تحت كنف الحكومة ، ولقد الفى الاحتــلال مدارس كانت قبله زاهية فألغي مدرسة الطب البيطرى، ومدرسة الزراعة ومدرســة الآثار المصرية ، ومدرســة الخرس والعمى . ولا يبعد أن يلغي غدا مدرسة الطب بحجة وجود عدد كبير من الأطباء .

وقـال عن الارسالية المصرية التى كـانت تذهب الى فرنسا سنويا للعلم « أنه يكاد يجمد المداد عند محاولتى شرح حال البعثة المصرية تلك البعثة التى كانت زهرة مصر وعنوان ذكاء أبنائها ، ومحط آمالهــا ، وواسـطة التعارف بيننا ، وبين العلم العصرى ، والتى كانت تذكر فى مقدمة بعثات العالم الراقى والحكومات الأهلية البارزة بأبنائها » .

وقد ذكر فى حديث آخر نشر فى ص ٢٢٦ جزء ٣ من سيرة مصطفى كامل باشا « لقد دخل الاحتلال فى مصر وفيها نحو سبعة آلاف تلميذ يتعلمون بالمجان أو بأجور قليلة ، فأصبح اليوم بعد ١٦ عاما (سنة ١٨٩٨) ثمانية آلاف يتعلمون جميعا بمصاريف ثقيلة يدفعها آباؤهم ، وبذلك حرم الكثيرون من أبناء الفقراء من التعليم » .

(وبعد ما كانت مصر تعتمد على عدد كبير من الأساتذة الفرنسيين لنشر التعليم بين مدارسها ، فقد أبى الاحتلال الا حرمان مصر من تلك الفئة التى تخـدم الأمة أعظم الخدمات ، وبعد ما كان الأساتذة الفرنسيون ٤٢ أصبحوا ٦ مدرسين وبينما أخذوا فى القلة أخذ المدرسون الانجليز فى الزيادة فبلغوا ٢٨ مدرسا) .

واذا كان قضاء الانجليز على كل مظهر علمى فى البلاد يدل على شيء ، فلا شك أنه يود دفن العبقريات المدفونة فى قلوب الأمة ، والقضاء على كل فرصة يستنير فيهما المصريون فيفطنوا الى حقوق بلادهم ، ويثوروا للمطالبة بها ، ورد المغتصب عند حده ، واعلان حق الوطن) .

لقد شملت جهـــود مصطفى كامل التعليمية جميـع طبقات الشعب ، وقــد بدأ بالحث على تعــليم النشء تعليما كاملا وافيا بالفرض ، ولم يكن التعليم فى مدارس الحكومة يكفى لغرس الروح القــومية فى نفوس النشء بل بالعكس كان نازعا لــكل حب فطرى طبيعى ، فقــد درسوهم لغة الاحتلال مهملين لغة البلاد ،وحالوا بينهم وبين الاستزادة من تاريخ أبطال مصر الميامين وأعاظم الذكريات التى تعيد فى نفوس التلاميذ حماسة أجدادهم ، وعظمة أسلافهم .

ازاء هــذا حث المرحوم مصطفى باشا كامل الأمة على انشاء مدارس أهليـــــة تعوض قلة المدارس الحــكومية لتكاليفهـــا الباهظـــــــة . وتفى بأغراض التعـــليم وأهدافه وقد قال عن ذلك فى ١٨٩٨/١/٨ (وقد يعتقد الكثير من المصريين ، أن الحكومة مسئولة عن عمل كل شيء للبلاد ، فان قلت لهم أسسوا المدارس لتربية أبنائكم أجابوك هذا واجب الحكومة ، وان عرضت عليهم أى مشروع مفيد للوطن قالوا هذا من خصائص الحــكومة ولكن يجب أن تكون للأمة ارادة خاصة وأعمال ظاهرة) .

أخذ مصطفى كامل يقدم الأمثلة الصـــــــالحة ، والقدوة النافعة لبنى وطنه ليروه عاملا على ترقيةالتعليم، فينهجوا نهجه ، فأنشأ مدرسة خاصة يعمل فيها على

تنفيذ المنهج الذى يصلح لانشاء جيل همـام من الأبناء المخلصين لوطنهم وليسهم عمليا فى ترقية التعليم ، وقد تأسست هذه المدرسة أولا بهمم بعض الفيورين وأطلق عليها اسمه وعرفت باسم « مدرسة مصطفى كامل » تيمنا بغيرته وتلبية لدعوته . وأهـدوها له ليتصرف فيهـا ، ويتكفل برعايتها ، ونظـارتها ، ومن مميزات مدرسة مصطفى كامل التى اختصت بهـا دون غيرها النواحى الآتية :

١ ـ لقد حالت الأجور الثقيلة التى تتقاضاها المدارس الحكومية دون تعليم أبناء الفقراء فقبل مصطفى كامل ان يعلم أبناء الفقراء مجانا ويتقاضى من القـادرين مصاريف زهيدة .

٢ ـ عجزت مدارس الحكومة عن الايفاء ، ووقفت عند حد الاكتفاء بالمناهج القاصرة ، والغير صالحة لتحقيق امانى الوطن ، فعول مصطفى كامل على أن يجعـل من مدرسته نموذجا واضحا للتعليم المثمر المجدى .

٣ ـ كانت لغة البـلاد مهملة فى المدارس الحكومية فجعل لها المكان الأول بين علوم الدراسة ، واشبع الطلبة بحبها ، والخطابة بها بفصاحة .

٤ ـ اهتم بالدين وجعل له اهتماما خاصا ، وألف كتبا صالحة لنشر الأخلاق الفـاضلة ، ولفرس المناقب الحسنة ، وقد وافقت الهيئات الدينية على هذه الكتب .

٥ ـ أراد أن يحفز همم الطلبة ، فقرر الاحتفال سنويا بالنابغين الذين ينالون قصب السبق ، وتوزيع الجوائز المناسبة عليهم . وكان يصاحب الطـلبة فى رحلاتهم المدرسية ويشترك فى العابهم ضاربا المثل الصالح أسوة

برجال التربية المثاليين .

ولقد كتب رحمــــــه الله الى مدير جريدة المؤيد فى ١٨٩٩/٣/٢٨ بعد فتح المدرسة (وانى أعلم أن حمل المدرسة ثقيل ، وأتعابها كثيرة ونفقاتها طائلة ولكنى قبلتها بــكل ارتياح أملا فى خدمة الوطن العزيز) .

وكتب الى مدام آدم فى ١٨٩٩/١٢/٢٤ يصف حالة المدرسة :

(واذا كانت الحكومة لاهية فان الأمة قد ابتدأت تعلم نفسها بنفسها . فان المدارس الأهلية التى أنشئت فى العام الماضى ، قد نجحت نجاحا عظيما ، وفى مدرستى اليوم ٢٦٥ تلميـــذا كلهم من ســـلالة مصرية ، وعلى أتم ذكاء وأنا نبث فيهم الشعور الوطنى بأكمل معانيه) .

ولقد اصغت الأمة لصوته العــــالى ، وخطبه المؤثرة ونصائحه المتكررة ، واندفعت وراء امامهــا تطيعه طاعة الحب والولاء ، فأنشأت مدارس أهلية على غرار ما انشأ بعدما أيقنت من عظيم فائدتها وتمام منفعتها .

ومن الهيئات النافعــة التى كان لها قسط كبير فى تأسيس الدور العــلمية هى جمعية العــروة الوثقى ، وجمعية المساعى الخيرية وجمعية المساعى المشكورة ومن كبار الأعيان الذين ســاهموا فى مشروع انشاء المدارس الأهلية ، حسين بك قرة جوللى فقد أنشأ مدرسة بالحلمية بمصر والشوربجى بك فقـــد اسس مدرســة بمديرية البحيرة .

ومن خطبته فى حفلة مدرسة حسين بك قرة جللى :

« انى مهما شكرت لصديقى الهمــام حسين بك قرة

جوالى عمله ، فلن أستطيع توفيته حقه من الشكر ، لأنه أول من استجاب دعوتى الى النهضة العلمية ، وأول من لبى فى هذه البلاد نداء وجدانه الطاهر الشريف » .

وقال فى خطبته فى حفلة مدرسة الشوربجى بك :

« علمتم أن يوما تفتح فيه دار للتعليم جديدة ، هو اليوم الذى يوضع فيه للمجد المستقبل أساس متين ، وينشأ له بنيان شاهق .. الى ان قال .. وليس فى تشييد المدارس واقامة المستشفيات والتنافس فى المبرات النافعة ، شىء يسر الوطن ويشرح صدره مثل نفى تهمة الموت الأدبى عن المصريين » .

وقال فى موضع آخر « فأجبهم يا من رفعت للعلم والوطنية منارا عاليا ، أجبهم بأن المصريين اتفقوا على أن يتفقوا » .

عناصر دعوته التعليمية :

اللغة : وقد سبق الكلام عنها ، ووجوب جعلها العنصر الأول فى التعليم الوطنى .

الدين : هو العنصر الثانى الذى يلى اللغة فى الأهمية، وقد حرم الطلبة فى مدارس الحكومة من الثقافة الدينية الكافية ، وضعفت فيهم المبادىء اسلامية الرائعة ، فوضعت مدرسة مصطفى كامل نصب عينيها الاهتمام به اكبر أهمية .

التاريخ والتربية الوطنية :

كانت المناهج المدرسية في عهد الاحتلال خالية مما يشعر الطلبة بالعزة بمفاخر تاريخهم ، وجليل ماضيهم لذلك عول مصطفى كامل على استكمال هذا العنصر الهام في تربية الوطنية في نفوس الشبيبة المصرية منذ طفولتها وفي ذلك يقول في خطبة له بعنوان « بما نصير رجالا » « وقد أصبح لنا مدارس كثيرة ومكاتيب أهلية ولنا تلاميذ نجباء ، ولكن بما نصير رجالا بتعليم التاريخ تعليما حسنا، وتعريف الأطفال بجمال مصر وغرس حبها في نفوسهم ، اما ما نقصده من تعليم التاريخ هو :

أ ــ تكييف الفضيلة أمام التلميذ آتم تكييف ، وتمثيل الرذيلة أشنع تمثيل .

ب ــ أن الأمة هي مجموع عظيم له السيادة على البلاد وأن الحاكم وكيل عنهـا ، لهـا أن تغيره متى رأت فيه اعوجاجا .

جـ ــ ان العبرة الكبرى التي يلقيها علينا تاريخ الإسلام هي ان هذا الدين دين العزة والكمال وان انحطاط أحوال المسلمين (في عهده) بسبب اهمالهم العمل بمبادىء الدين .

د ــ تعريف المصري أنه من سـلاله الأمة المصرية القديمة ، فهو من سلالة ائمة المدنية والحضارة .

منذ عهد محمد على . كانت الحكومة المصرية ترسل بعثة سنوية من الشباب الى فرنسا للتزود من الثقافة الغربية . ولما وقعت البلاد تحت نير الاحتلال البريطانى ألغيت هذه البعثة ، وخسرت مصر بالغائها خسارة علمية فادحة ، ولم يكن من الممكن تعويض هذا النقص فى وسائل نشر الثقافة الا بانشاء جامعة كبيرة تكون بمثابة الأساس الذى تقوم على قواعده نهضة علمية وفنية شاملة لتؤهل مصر أن تتبوأ مكانتها السابقة فى الحضارة والرقى .

وقد شعر مصطفى كامل بمدى التفوق العلمى فى الغرب عنه فى بلادنا ، بفضل جامعاته . فأراد لمصر أن تنشأ بها جامعة كبيرة ، تقوم بالتدريس فيها نخبة من أساطين العلم الحديث والبحث الدقيق ، على قاعدة من الافاضة والتوسع لتخريج طبقة ممتازة من رواد العلم والمعرفة ، تسود على أكتافهم حركة البحوث فى مختلف الدراسات ، وتصل بهم الى الصعود الى ذرى النبوغ والعبقرية فى الاستنباط والابتكار والاختراع ، وعلى عاتقهم نشر العلم والثقافة فى طول البلاد وعرضها .

فلم يكتف بأن يكون طلب العلم مقصورا فى مصر على

الوضع الذى كان فى عهده بل طمح فى أن يرى بين مواطنيه طائفة تطلب العلم حبا للعلم ، وشوقا لاكتشاف المجهول وسبر غور المعضلات الفكرية، حتى يرى من أبناء مصر ، كما فى البلاد الأخرى ، عالما يحيط بكل العلم الانسانى فى مادته ، واختصاصيا أتقن فرعا مخصوصا ووقف نفسه وجهوده على الالمام بجميع ما يتعلق به ، وفيلسوفا اكتسب شهرة عالمية يشرف بها وطنه ، وكاتبا ذاع صيته فى العالم بأمثال هؤلاء تعتلى مصر منصة المجد والفخار وتجارى الأمم فى مضمار التسابق العلمى والأدبى .

وقد سبق جميع المفكرين فى الدعوة لهذه الفكرة ، فكان صاحب الفضل الأول فى انشاء الجامعة المصرية .

ولقد أرسل الى مدام جولييت آدم بتاريخ ١٩٠٥/١/١٣ خطابا يقول فيه : « لقد نشرت يوم الأحد الماضى فكرة باهرة بمناسبة عيد ارتقاء الخديو على العرش وهى تأسيس جامعة وطنية فى القاهرة ولا حديث للناس فى غيرها » .

وقد كتب لها أيضا فى ١٩٠٥/٢/٣ يقول :

« وقد اختتمت نشاطى الصحفى بالدعاية لمشروع الجامعة بمقالة أرسلها اليك مع هذا ، والناس جميعا موافقون استحسانا لهذه الفكرة ، وقد (١) وضع حسين باشا واصف نفسه ، فى احسن موضع ازاء هذا الموضوع، وقد وعد بالتبرع بمبلغ ألف جنيه فى اليوم الذى تتألف فيه لجنة لافتتاح اكتتاب وطنى ، يخصص للجامعة » .

(١) شقيق مصطفى كامل من ناحية والده

وكتب لها في ١٩٠٥/٦/٩ يقول :

« ان فكرتى بانشاء الجـــــامعة الوطنية قد توجت بالنجاح ، فانها انتقلت الى ايدى أمراء بيت (حليم) وقد قرروا مبدئيا ايفاد فريق من الطـــلاب الى أوروبا لتخريج أساتذة وطنيين ، وبلغ الاكتتاب الآن ثمانية آلاف جنيه ، وسنشرع فى بقيـــة الاكتتاب بعـــد انقضــــاء الصيف » .

وفى سبتمبر سنة ١٩٠٦ دعا المرحوم محمد فريد بك الى تأليف لجنة للاحتفال بعودة مصطفى امل الى مصر عقب جهاده فى حادثة دنشواى ، ولما سمع بذلك ارسل اليه من باريس فى ٢٤ سبتمبر كتابا يعتذر فيه من عدم قبول هذا الاحتفال ، ويقترح فتح اكتتاب عام لتأسيس الجامعة المصرية . وتخصيص ما جمع من مال للمشروع.

وقد تجددت الفكرة فى انشاء الجـامعة عقب حادثة دنشواى ، وتألفت لجنة تأسيس الجامعة واجتمعت لأول مرة بمنزل المرحوم سعد زغلول (وكان لا يزال بمحكمة الاستئناف) يوم الجمعة ١٢ اكتوبر سنة ١٩٠٦ ، واختير سعد زغلول وكيلا للرئيس ، وقاسم أمين سكرتيرا للجنة، وتركت الرئاسة ليتولاها احد الأمراء ، ونشرت الدعوة للاكتتاب . وبدأت فعلا ، وكان هذا الاجتماع هو نواة تنفيذ المشروع .

وقال المرحوم محمـــــد بك فريد فى خطبـــة له فى ١٩٠٨/٤/١٧ صراحة ما يلى :

« تعلمون ان المرحوم مصطفى كامل باشا هو صاحب مشروع الجامعة المصرية وقال به من عهد ان شرع فى الاحتفال بمرور مائة سنة على تولية محمد على باشا على مصر .

أثره في الصحافة

اتخذ مصطفى كامل قلمه وسيلة من وسائل دعوته القومية ، فكان يرسل مقالاته الى الصحف المصرية كالأهرام والمؤيد ، وقد ولع بمراسلة الصحف منذ عهد التلمذة . وكتب فى أمهات الصحف الأجنبية ، ثم راى من الألزم له أن يكون له جريدة يومية تكون صلة دائمة بينه وبين الرأى العام ، ويستطيع أن يغذى بها عقول القراء ونفوسهم بمبادىء الوطنية وتكون رمزا لهذه الحركة التى قادها ووهب حياته لها ، وقد اختار لهذه الجريدة اسم « اللواء » فكان اختيارا موفقا ، لأن الوطنيين التفوا حوله ، والتفت أقلامهم عليه .

وكان ظهور « اللواء » سنة ١٩٠٠ من أبرز أعمال مصطفى وأكبرها أثرا فى الشعب وفى الحركة الوطنية فقد ارتفع شأن الجريدة فى عالم الصحافة وأخذت مكانتها فى نفوس القراء ، وصارت شبه مدرسة تعلم المصريين حقوقهم وواجباتهم ، وتدعوهم الى الأخلاق النبيلة القويمة ، وتبث فيهم الروح الوطنية ، وتبصرهم بحقائق ما يدور حولهم ، وتشرح لهم مساوىء الاحتلال ، وتدعوهم الى الجهاد فى سبيل الاستقلال ، وتذكرهم بالحوادث الماضية ، وتحدثهم عن جهاد الأمم فى سبيل

حريتها ، وكان اللواء حين صدوره فى اول الامر فى اربع صفحات ، ثم ما زال يرقى به حتى جعله فى ثمان ، ثم أصدر مجلة شهرية دعاها « مجلة اللواء » . كانت تشمل على أهم المقالات التى تنشر فى صحيفة اللواء اليومية ، كما أصدر جريدة اسبوعية باسم العالم الاسلامى ، نشر فيها المقالات والأنباء التى تهم الأمم الاسلامية ؛ ولا سيما تعريب ما تكتبه الصحف والمجلات الأجنبية عن الأمم الاسلامية . وكان غالبا ما يكتب المقالة الافتتاحية فى جريدة اللواء .

وقد بلغت جريدة اللواء شهرة كبيرة فى عالم الصحافة حتى أن جريدة (الاجيبشيان جازيت) قالت « ان اللواء اكثر الجرائد العربية انتشارا ليس فى مصر بل فى جميع العالم على الأرجح .

أثره فى الصحافة الأجنبية :

أجاد مصطفى كامل اللغة الفرنسية وأتقنها كتابة وخطابة ، وأعانه ذلك على الاتصال بالأجانب المقيمين بالبلاد ، وتعريفهم حقيقة الحركة الوطنية ، فكان يخطب فيهم باللغة الفرنسية فى فصاحة وقوة وبيان ، كما كان يرسل مقالاته الى الصحف الأجنبية التى تصدر فى الخارج وعلى رأسها جريدة الفيجارو والطان الفرنسيتين . وقد بلغت قدرته الصحفية أوجها حين أصدر صحيفتين احداهما فرنسية تدعى لاتندرار اجيبشيان ، وانجليزية هى ايجيبشيان ستاندرد واختار لها صفوة ممتازة من المحررين الفرنسيين والانجليز ، كما كان يرحل الى أوروبا وينتقل بين عواصمها يخطب فى الأوساط المختلفة

للدعاية للقضية المصرية . مما كسب لدعوته الانصار العديدين فى أوروبا .

وان قيام مصرى باصدار ثلاث صحف يومية كبرى بثلاث لغات مختلفة هى مهمة تنوء بها العصبة وأصحاب العزيمة من الرجال والجماعة ، فما ظنك بشخص بمفرده يتولى الاشراف على هذه الجريدةوتوجيههاالأغراض سياسية معينة ، بل كان يشرف بنفسه على تحريرها وادارتها ، وتتمشى روحه فى كل كلمة منها ، بحيث لم يؤخذ على أى صحيفة منها أنها نشرت يوما مقالة أو نبرة تخالف روحه ومذهبه .

وكان لجريدتيه الأجنبيتين مراسلون بباريس ولندن يرسلون اليها تلغرافيا خلاصة ما ينشر فى الصحف الأوروبية عن مصر فى حينه .

سعيه فى تقدم الصحافة المصرية :

وقد بلغ من تعلق الزعيم الوطنى بترقية الصحافة ورفع شأنها ، أن اهتم بتدريب وتعليم بعض الشباب المصرى على أساليب الصحافة فى الخارج ، أن أوفد بعثة صحفية الى أوروبا فى أكتوبر سنة ١٩٠٧ ، وبدأ بارسال الشاب المصرى سيد على أحد محررى جريدة اللواء ، وألحقه على نفقته الخاصة بمدرستى العلوم السياسية وفن الصحافة بباريس ، كما رشح أحد تلاميذه المخلصين وهو المرحوم عبد الرحمن الرافعى المؤرخ الوطنى الكبير للذهاب لبعثة صحفية عقب تخرجه فى الحقوق ولكن المنية لم تمهله وانتقل الى الرفيق الأعلى قبل أن ينفذ فكرته .

فضله على الحركة الوطنية :

هو امام الوطنية في مصر في نهاية القرن التاسع عشر وانبلاج القرن العشرين بلا منازع وليس في مصر فحسب بل في الشرق العـــــربي . وان قيامه ضد أكبر دول الاستعمار وهي في أوج قوتهـــا لهو أكبر وأوضح مثال خالد للبطولة والاخلاص والتضحية ، ولا غرو في ذلك فالوطنية كانت عقيدته وشعاره منذ أن كان طالبا نشأت فيه دون أن يتلقاها عن معلم أو يقتبسها من العصر الذي ظهر فيه ، لم تكن نتيجة درس أو تعليم بل كانت وحي الالهام والعبقرية وليس أدل على ذلك من أنه حين نال شهادة الحقـــــوق سنة ١٨٩٤ ، لم يتبع ما درج عليه معاصروه من اختيار منصب في الحكومة ، أو الانتظام في سلك المحاماة ، بل وقف حياته على ما عاهد عليه الوطن من المحاماة عن الأمة ، والعمل لاســـتقلالها وحريتهـــا وكرامتها ، وقد صدق وعده ، اذ كانت سنوات حياته كلها وقفا على الجهاد رافعـــا صوت مصر في الداخل والخارج ، ينادي بحريتها واستقلالها ، مستحثا مواطنيه على الالتفاف حول راية الجهـــــاد والأمل حتى تفتحت الأذهان على توالي السنين الى قبول دعوته ، ثم جاءت سنة ١٨٩٨ ووقعت فيها حادثة فاشودة ، فصــدمت الحركة الوطنية صدمة زلزلت الأمل الذي أحياه مصطفى في النفوس ، بدأت تلك الحادثة بتنازع فرنسا وانجلترا على المسألة المصرية ، وكان الظن أنها تنتهي بجلاء الانجليز عن مصر ولكنها انتهت على العكس بتراجع فرنسا ورسوخ اقدام الاحتلال في وادي النيل فيئس المصريون وانصرفت نفوسهم وقتا ما عن الاستماع الى النداء الوطني ، ولكن

مصطفى كامل لم ييأس ولم يتراجع ، بل استمر ماضيا فى جهاده ، وعول من ذلك الحين على عدم الاعتماد على فرنسا وفقد أماله فى عدالة أوروبا عامة منذ رأى جمودها أمام مأساة البوير سنة ١٩٠٠ وتركها اياهم يسحقون أمام القوات الانجليزية دون أن تأبه اهم ، فدعا الأمة الى الاعتماد على النفس ومتابعة الجهاد ، وأنشأ اللواء سنة ١٩٠٠ فكان مدرسة الوطنية للمصريين .

وبعد الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا سنة ١٩٠٤، الذى بمقتضاه أقرت فرنسا الاحتلال الانجليزى ، صدم المصريون أسوأ صدمة فى نفوسهم ، وتخلى معظم كبراؤهم وعظماؤهم ورجالهم المعدودون عن الحركة الوطنية ، ورأى كثير منهم أن الخير لهم فى مسالمة الاحتلال والانضواء تحت لوائه ، واكتساب رضاه ، ولكن مصطفى كامل خالفهم واستمر فى طريقه يحمل علم الجهاد ، لا ينى ولا ينثنى ، مناديا بالجلاء ، وقال كلمته المشهورة « لا معنى لليأس مع الحياة ، ولا معنى للحياة مع اليأس»، وحقق هذه الكلمة فى حياته عمليا ، فلم يعقد اليأس بين جنوبه معقدا ، ولم تثبط همته الكوارث المدلهمة ولا زعازع الأحداث وصمد للعقبات والعراقيل ، يتغلب عليها بقوة العزيمة والايمان ، وبتأثير دعوته ووطنيته ومثله الأعلى نشأ جيل من المصريين أشربت نفوسهم الوطنية الحقة وحب الحرية والاستقلال ، ودرجوا على الأمل والحياة ، وتعددت مظاهر هذه الحياة الجديدة ، وأهمها تأسيس نادى المدارس العليا سنة ١٩٠٦ اذ اجتمعت فيه صفوة الشبيبة المصرية المثقفة وتشبعت بتعاليم الفقيد ومبادئه ،متعاهدة على الاخلاص فى خدمة الوطن ، ثم كانت حادثة دنشواى فى يونيو سنة ١٩٠٦ حمل فيها

الفقيد على الاحتلال وسياسته الحملات الصادقة ، ومن ثم انتشرت تعــــاليمه ومبادئه حتى سرت الى طبقات الشعب كلها .

وكانت سنوات ١٩٠٦ ، ١٩٠٧ وأوائل سنة ١٩٠٨ من حياته الخالدة حافلة بجلائل الأعمـــال ؛ فيهـا أصدر جريدته الفرنسية والانجليزية ، وسارع الخطى بموكب الدفع الثورى رغم ما شـــعر به من دبيب المرض يؤرق جفنيه ، من شدة ما استنفد من قواه فى جهـــاده المتواصل .

وما زال يجـــاهد ويناضـــل حتى ذوت زهـرة شبابه فى ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره .

ان الثمانية عشر سنة التى قضاها الفقيد فى الجـهاد هى أساس النهضة الوطنية فى القرن العشرين فهـــو باعثها ومحييها ، وبانيها وسط الشـــدائد والعقبات ، ومدعمها بالايمان والشجاعة والثبات ، ومفديها بالاخلاص والتضحية ، مات فى ميدان الجهاد كقائد الجيش فى ساحة الوغى - يرى الخطر محدقا به ، فلا يكترث له ، ويتقدم الصفوف ليستشهد فى سبيل الواجب ، أو كما قال الزعيم محمد فريد « مات رئيسنا فى ساحة الوغى كالقائد يعانى سكرات الموت ويده تشير الى جنده بالتقدم الى الأمام » .

فالروح التى بعثها مصطفى كامل فى الأمة هى التى صارت على مر السنين غذاء الحركة الوطنية ، وهى التى مهدت السبيل لثورة سنة ١٩١٩ التى اعتاد الكثير من الكتاب أن يجعلوها مبدأ الحـركة الوطنية وهم فى ذلك

مخطئون ، لأن الثــورات ليست حركات ميكانيكية تبدو فجأة للناظرين ، بل هى حوادث اجتماعية ، تتمخض عنها حياة الشعوب تبعا لدرجة استعدادها ونتيجــة لسريان روح الوطنية فى نفوس أبنائها ، فلولا الوطنية التى بثها مصطفى كامل فى نفوس المصريين خلال الثمانية عشر عاما التى قضاها فى الكفاح لمرت سنة ١٩١٩ كما تمر غيرها من السنين دون أن تتجلى فيها روح الثورة ، فالثورة هى غراس الوطنية والوطنية هى نتيجة جهــاد مصطفى كامل المتواصل طوال هذه السنين .

جهاده الوطنى فى أوروبا

قبل أن تنشأ المؤسسات العــالمية بل قبل أن تولد الروح الدولية ، التى تجمعت براعمها بعد الحرب العالمية الأولى ، وتفتحت أكمامها بعد الحرب العالمية الثانية ، كان مصطفى وطنيا عالميا ، أدرك باحساسه أن مصر بلده الحبيب ، خلقت بين القــارات وفى بيئة الحضارات ، لتلعب أبدا دورا خاصا بها ، لا يشاركهــا فيه مشارك ، ذلك هو دور احتضان بذور الأفكار الانسانية ، دور خدمة البشرية المطلقة المجردة من قيود الجنس واللون .

ولمــا خرج مصطفى كامل الى الأفق الفسيح ـ الذى وجده فى انتظاره فى أوروبا ، تأكدت عنده النزعة الانســـانية ، فتدارك أن قضية بلاده ، لا تهم المصريين وحدهم ، وانما هى قضية انجلترا وتركيا ، قضية الاسلام والمسيحية ، قضية الامتيازات لأهل أوروبا فى الشرق كله ، ووجد أن له خصوما من السياسيين والماليين ورجال الدين ، كما وجد أن له أصــــدقاء من هؤلاء جميعا ،

وسمع اسم بلاده يتردد فى النمسا والمانيا وايطاليا وبلجيكا ، وفى كل مكان يضع فيه قدمه ، ومع ذلك رأى أن أكثر الذين يذكرون اسم بلاده لا يعرفون عنها شيئا فهى عندهم اما مشكلة سياسية واما أرض تدر الذهب ولكن ليس لأهلها فى الحالين وجود أو اعتبار .

وهذا كله فتح لمصطفى كامل حاسة سياسية يفهم بها أن أهم سلاح يشهره فى وجه أعداء بلاده هو الدعاية .

وقد فهم مع ذلك ايضا ان عالمية القضية المصرية ، ودولية أساسها تلزمه أن يضع لها قالبا دوليا ، ولذلك فقد سبق مصطفى كامل العقلية الدولية التى انتهت الى تقرير ان المعاهدات الثنائية تؤدى الى انقسام الأمم الى معسكرات ، لأن كل دولتين يرتبطان بمعاهدة انما يثيران بهذه المعاهد مخاوف دولة ثالثة ، فتضطر الى ارتباطها بدولة رابعة ، وهكذا دواليك كما سبق هيئة الأمم المتحدة الى القول بأن كل معاهدة بين قوتين هى عقد باطل لأنه مشوب باكراه ضمنى أو صريح .

ولذلك كانت الرسالة السياسية الأولى التى بدأ بها آثاره القلمية بحثا فى مخاطر الاحتلال البريطانى لا على مصر وحدها بل على فرنسا وبقية العالم الغربى .

وقد فتحت هذه الرسالة قلب مدام جولييت آدم ، ففهمت فى التو ، أن مصطفى كامل عنصر جديد من عناصر السياسة الدولية ، وأن فى التفريط فيه تفريطا فى أمر يهم بلادها وينفعها .

وعلى هدى الدستور الذى رسمه مصطفى كامل لنفسه ، أصبح يوزع وقته بين عواصم أوروبا ومصر ،

ومن العمل فى الصحافة والدعوة للتعليم وللصناعة ، مؤمنــا بأن الدعوة السياسية لبلاده بغير اصلاح فى الداخل لا تنتج ، ولأن العقل السياسى فى داخل مصر ، دون تحريك عناصر القوة فى أبنائها بتعليمهم ، وتنظيم اقتصادهم ، يكون ضربا من النقش على الماء .

ولقد بعثت حركة مصطفى كامل الوطنية حركة ذهنية، تؤثر فى المثقفين ، وتشع دائرتها بينهم شيئا فشيئا ، ولكن لم يكن مناص من أن تتحول الى حركة قومية تصل الى شعور الملايين من أبناء الشعب الكادحين ، فتنتقل بها ، شأن كل حركة (أصيلة) غير عارضة وقد وصلت الى هذا الطور فعلا ، بعد تدرج طبيعى ، فقد جاءت حادثة دنشواى فى ١٣ يونيو سنة ١٩٠٦ لتوقد شرارة الاتصال بين مصطفى كامل والشعب وبرز مصطفى من خلال هذه المأساة الصغيرة بطـلا كبيرا ، وتحولت بفضل شخصيته كارثة قومية ، وزادت ضخامتهـــا فأضحت فضيحة سياسية تتحدث عنهـا كبريات الصحف ، وتفيض فى وصفها أنهارها ، ولم يعد مصطفى بعدها صحفيا كبيرا فحسب ، أو خطيبا يحادث المتعلمين فقط ، وانما أصبح رمزا للدفاع عن الشعب فلاحيه وفقرائه وأثريائه وعماله، فكملت بذلك الحركة ، فلما قبض مصطفى الى رحمة الله ، كانت جنازته وتشييع جثمانه ، ميلادا للحـــركة الوطنية الشعبية التى لم يعد فى مقدور احد أن يحبسها أو يفرض عليها القيود ، أو يقيم فى وجه انطلاقها العارم السدود (١) ...

---

(١) كتاب مصطفى كامل لفتحى رضوان .

دعوته فى سبيل الدستور

الدستور : الدستـــور هو أهم ســمات المجتمع الديمقراطى وبدونه لا تقوم قائمة لأى مجتمع ، حر ، بدأ مصطفى كامل يدعو للفكرة الدستورية وهو بعد طالب فى مدرسة الحقوق ، فأخذ يشرح فى مجلته الصغيرة « المدرسة » أنظمة الحكم من ملكية مطلقة ، وملكية مقيدة وجمهورية ، كما يشرح هيكل الحكومة الدستورية من سلطة تشريعية وسلطة قضائية وسلطة تنفيذية ، وشرح مسئولية كل سلطة وبين أن السلطة التشريعية أقوى السلطات من حيث سنها للقوانين واللوائح وان السلطة التنفيذية هى المأمورة لها ومتى فازت الأمة من الحضارة بالقدح المعلى كانت قوتهـــا التشريعية مستقلة كاملة الاستقلال متمتعة بقوة التشريع الحقيقية ، وبعكس هذه الأمة التى عم الجهل أبناءها وتحكم الفشل بين أفرادها نرى حكومتهـــا مستبدة طاغية ملكها ملك بيديه كامل التشريع والتنفيذ ، وقال فى عدد آخر من مجلة المدرسة فى ١٨٩٣/٥/١٧ وهو يتحدث عن الملكية الديمقراطية المطلقة فيقول عن الأخيرة « والحكومة التى فيها السلطة مطلقة للملك تكون مركزا للظلم ومحطا للاجحاف » .

وقد كتب بعد ذلك فى اللواء فى العدد الثالث من هذه الصحيفة الجديدة الصادر فى الخامس من يناير ١٩٠٠ مقالا بعنوان «الحكومة والأمة فى مصر» طالب فيهالانجليز تحقيق وعد اللورد دوفرين بجعل الحـــرية والعدالة أساسات قوية متينة لا تستطيع يد بشرية انجليزية أو مصرية أن تمسها بسوء » وفى ١٩٠٢/١١/١٦ كتب تحت عنوان (افلاس الاحتلال) » :

« عندى ان هذه الأدوار والأداء المتنوعة (فى وزارة المعارف والداخلية) والتى تدل على شدة الحاجة فى هذه البلاد الى مجلس نيابى تكون له السلطة المطلقة الكبرى فلا يسن قانون بغير ارادته ولا تعلو كلمة على كلمته والا فان السلطة في يد رجل واحد ســـواء كان مصريا أو أجنبيا يضر بالبلاد كثيرا ويجر عليها الوبال » .

وفى خطبتـــه فى ١٩٠٢/٥/٢١ بمسرح زيزنيـــــا بالاسكندرية فى الذكرى المئوية لاعتلاء محمد على عرش مصر قال :

١ ـ انما الدستور هو منح الأمة حق الاشراف على الأعمال كافة ومراقبة ما تجريه الحكومة لخيرها أو لضرها وسؤال الوزارات عن كل صغيرة وكبيرة ، وتغييرها بغيرها اذا أساءت استعمال السلطة أو تهاونت فى خدمة البلاد . الدستور هو الا يستطيع أحد مهما كان عظيما ، وطنيا أو أجنبيا ، أن يمس القوانين والأنظمة بشىء .

دعوته الاجتماعية

أ ـ اتحاد العنصرين

ان كل مجهودات هذا الزعيم آيات بينات فى كتاب حياته ، ونجوم ساطعات فى سماء جهاده ، ولئن امتازت الآيات عن بعضها فى القوة والروعة ، واختلفت النجوم وتباينت فى الجمال والسناء ، فان أبرز آيات جهاده المبرور توحيد عنصرى الأمة ، والسعى فى الائتلاف المتين بين الأقباط والمسلمين . ولا شك أنه سعى فى سبيل هذه الغاية حتى يوجد امة واحدة مرتبطة ، لا يعمل فيها داء التعصب المقوت ، ولا تنتشر بين صفوفها امارات التفرق والتشقق ، وبذلك أمكنه قتل جرثومة التفريق ، وليدة المصالح الحكومية ودعامة السياسة الاحتلالية ، ولقد ضرب على هذا الوتر الحساس ليسمع كل مصرى مخلص لوطنه ، فلا يدع للفروق الدينية أساسا فى علاقته مع أخيه المصرى . وبتلك الخطة والحكمة أفسد على الانجليز خططهم ، وأفسد عليهم تدبيرهم ، وأظهر أمام الملأ حيلهم المستورة المكونة من التلفيق والاختلاق الكاذب ، وخلق التهم الباطلة عن تعصب المصريين كلما أعيتهم الحيلة وأعياهم المنطق والبرهان عن تبرير سياستهم والاحتجاج عن عدم الجلاء وهم يقصدون بذلك

استغلال شعور الأوروبيين الدينى ، لاثارتهم ضد مصر ، ولكسبهم قوتهم لجانبهم وقد وجدت دعوة مصطفى ترحيبا عظيما من الأقباط واقبالا وتعضيدا .

وقد أخطأ كثير من الكتاب بنسبة الفضل فى اتحاد العنصرين الى سعد زغلول ، وهذا خطأ تاريخى واجحاف لا مسوغ له ، والحقيقة أن مصطفى كامل هو أول زعيم مصرى مسلم دعا الأقباط الى الجهاد الوطنى معه وهو قد اصطفى شخصيتين كبيرتين من خيرة الشخصيات القبطية فى عهده وهما الأستاذان ويصا واصف ومرقص حنا ، فكانا من أكبر أنصاره وأعوانه فى الجهاد . وأولهما كان مشهورا باقتداره على الخطابة الفرنسية فى المؤتمرات الوطنية فى الخارج . وقد أنتخب ويصا واصف فى اللجنة الادارية للحزب سنة ١٩٠٧ .

وقال فى خطبته بالاسكندرية فى يوم ٨ يونيو سنة ١٨٩٧ :

« ان المسلمين والأقباط شعب واحد مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش ولا يمكن التفريق بينهما مدى الأبد » .

ثم ندد بالتعصب واستنكر أية محاولة للشقاق والبغضاء بين عنصرى الأمة ، وذلك فى خطبته بالاسكندرية يوم ٢ يونيو سنة ١٩٠٠ حين قال :

« كيف يستطيع رجل وطنى أن يدعو للشقاق والبغضاء ، وهذه الدعوة مناقضة للوطنية الصحيحة ، فالأقباط اخوة لنا فى الوطن تجمعنا بهم أشرف رابطة وقد عشنا معهم القرون الطوال على أتم وفاق وأكمل اتفاق .

وهكذا كان مصطفى كامل أول البانين لدعامة الارتباط الوطنى المقدس بين الاقباط والمسلمين ولقد كانت العلاقة الوثيقة بين مصطفى كامل والكاتبة الفرنسية الشهيرة مدام جولييت آدم دليل على روح مصطفى كامل ، قد احبها محبة الابن للأم ، واعتبرها امه الروحية وطلب منها الرعاية المعنوية ، واستشارها فى كافة الشئون السياسية ، وهى امرأة مسيحية وهو شاب عربى مسلم، ومن يطالع الخطابات المتبادلة بينهما يدرك لأى مدى بلغت هذه العلاقة من العمق والوفاء والتقدير المتبادل ، وقد تأثر جهاد مصطفى كامل فى أوروبا بهذه العلاقة الوثيقة، وبفضل مدام جولييت آدم ، استطاع مصطفى كامل أن يتعرف على كثير من أعلام السياسة والأدب والصحافة فى اوروبا ، مما ساعد للدعاية لقضيته الخالدة ووصول صوت مصر الى شتى الأنحاء فى الشرق والغرب » .

ب ـ الداء الأجنبى

لم ينثن مصطفى كامل لحظة واحدة عن تنبيه قومه الى أخطائهم ولم تغمض له عين على النقائص التى يراها منتشرة فى عهده ومن اشد تلك الأدواء فتكا هو الداء الأجنبى الذى دخل المجتمع كأثر من آثار الاحتلال الذى شجع على تغلغل الأجانب فى البلاد .

لقد وجد المصرى يحتقر أخاه المصرى ، والغنى العظيم ينظر الى أخيه المصرى الذى دونه جاها ومقاما نظرة الاحتقار والازدراء ، بينما يحترم الأجنبى احتراما لا مزيد له . ان تفضيل الأجانب وتكريمهم أكثر من المصريين عار كبير فى جبين المجتمع ولوثة قذرة فى صدر الوطنية

المصرية ، وبقعة قبيحة تصم المصريين بوصمة الانشقاق والجهل ، وعدم احترام أنفسهم .

ولم يكن تكريم المصريين للأجانب صادرا عن الكرم المشهود به عنهم ، ولكنه راجع الى مركب نقص بهم دفعهم الى تقدير الأجانب واكبارهم عن ابناء جنسهم وارومتهم ، وهذا داء وبيل ، يؤدى الى انفصام العرى الوثيقة بين ابناء الوطن الواحد ، وايجاد الفواصل بين الطبقات وتشتيت الجهود المجتمعة لنصرة البلاد .

وقد نبه الزعيم ابناء وطنه لما يترددون فيه من مهاوى السقوط الشنيع ، وما يصدرونه من دلائل الخيانة الشنيعة لبلادهم . وفى مقالة يوم ١٩٠١/٤/٣ فى جريدة اللواء يقول :

« اكبر داء من ادواء مصر تمسك أمرائها وعظمائها بالاجانب تمسكا يكاد يكون عبادة .. ومحال على شعب يقتدى بعظمائه ولايسير الا خلف كبرائه أن ينهض نهضة الشعوب ويبلغ مبلغها فى العلم والحضارة والحرية والاستقلال اذا كان هذا شأن عظمائه وحال أمرائه وكبرائه .. لقد أظهر عظماء مصر امتهم بمظهر جعلها أضحوكة وسخرية للناس بما فعلوه فى الاكتتاب لمشروع تخليد ذكرى اللادى كرومر » .

وبعد ذلك نراه يثير نخوتهم ، ويهيب بوطنيتهم وعزتهم أن تثأر لنفسها ، وتقضى على تلك المظاهر الضعيفة والنزعات الوضيعة ، التى تنزل الكبرياء الوطنى ويقول « عجبت أن تطلبوا الحرية بأعلى أصواتكم وكبراؤكم يحترمون الأوروبى ، فقوموا وأعلنوا على هذا الداء الأجنبى القتال » .

الوظائف الحكومية :

كانت الوظائف الحكومية في عهـد الاحتلال من أشد الوسائل أضرارا بمصالح البلاد لان الاحتلال كان يرغب المثمين من الشباب فى الوظائف ؛ حتى ينفضوا عن خدمة وطنهم ويساعدون الاحتلال فى تنفيذ مظالمه ، وقد نتج عن ذلك حدوث التفرق بين الموظفين المنفـذين لسياسه الاحتـــلال وبين الشعب الذى يجد فى تصرف الموظفين ما يتنافى مع الكرامة وما يعد مشينا ومسيئا للنفوس .

وخطب مصطفى كامل فى نخبــــة من الشباب فى ١٨٦٨/١/٨ « وانى أذكركم بما قلته لكم من قبل من ان الاستقلال نور من انوار الوفاق .. ولا شك انه لا يمكنكم بانارة الامه وارشادها حق الارشاد الا اذا كنتم عائشين فى الحياة الحرة ، مجاهدين بأنفسكم فى سبيل الحياة لا عمالا فى ادارة أو ديوان تنقدون فى آخر الشهر مرتبا معلوما يقتل فيكم عواطف الاستقلال ويحبس فى نفوسكم الحرية الشـــخصية والميل الى عظائم الأمور ، ثم ختم خطبته بالحث على الاتحاد فى خدمة الوطن .

تخليد العظماء :

دعا الى تمجيد وتخليد ذكرى العظماء والأفذاذ الذين خدموا مصر ، ويرى فى ذلك دليلا على حياة الأمة وقد كتب فى ١٠ مارس سنة ١٩٠١ يؤنب الأمة على اهمالها تخليد ذكرى فقيد المعارف على باشا مبارك الذى خدم العلم والأدب والوطن خدمة لا تنسى وقال فى ذلك « اللهم ان مصر لا تنال من الســـعادة نصيبها ، ولا تبلغ من الاستقلال مطلبها ، الا اذا جعل أساس تربية أبنائها تخليد

ذكر النافعين من رجالها وبث فى نفوس الناشئين الاقتداء بهم ومحبة الديار محبة العارف لجمالها ، المحيط بأسرار تاريخها ، الخبير بعلل تأخرها وادواء انحطاطها » .

نادى المدارس العليا :

ان الوعى الوطنى الذى أثاره مصطفى كامل فى جميع طبقات الأمة ، شمل مده السريع شباب المدارس العليا ، فانشأ لهم أول ناد رسمى فى البـــلاد ، وافتتح فى الخامس من ابريل ١٩٠٦ ، فى المبنى الذى كان قائمـا بشارع قصر النيل رقم ٤ وقـد شمل نشاطه النواحى الثقافية والاجتماعية وكان يوم افتتاحه عيدا قوميا ، حضره وزير المعارف ، ووكيل الوزارة ومحافظ العاصمة وكبار رجال الثقـافة والأدب فى البلاد وكان يتردد عليه قادة البلاد وكبار موظفيها ، وكان محلا لاختلاط رجال القانون والأطباء والمهندسين بالطلاب ، الأمر الذى أدى الى تفتح الأذهان واستنارة الطلبة فى كل ما يدور ببلادهم من شئون سياسية وأدبية وفكرية فكان النادى بمثابة ندوة سياسية تدرب وتخرج منها الرهط الـكبير من جنود الوطنية وطلائع التقدم والتطور فى كل ميدان .

بدأ التفكير فى انشـــائه سنة ١٩٠٥ وتألفت لجنـــة تأسيسية فى أكتـوبر من تلك السنة برئاسة الدكتــور عبد العزيز نظمى ، لم يكن مصطفى كامل بعيدا عن ميلاد هذه الفكرة ، فكل الذين دعوا اليها وعملوا على تنفيذها من تلاميذه وأنصاره .

وقد جاء فى عدد اللواء الصادر فى ١٩٠٥/١٠/١٩ :

« نرى من أوجب الواجبات اعانة هذا النادى ، ممن

يقــدرون العــلم وذويه ؛ لذلك نود أن يقتفى الــكبراء والعظماء والوجهاء أثر الذين جادت نفوسهم بما تبرعوا له حتى الآن وبقدر ما يتبرع الواحد لهذا النادى المحرومة منه هذه البـــلاد تعلم قيمة العلم عندنا كثرة وقلة . ونستنهض هنم السراة لمد يد المعونة الى هذا النادي الذي سيكون محط رجال أبنائهم » .

واجتمعت الجمعية التأسيسية لهذا النادى لأول مرة فى يوم الجمعة ٨ ديسمبر ١٩٠٦ باحدى قاعات مدرسة الطب ، وتم فيها انتخاب مجلس ادارة النادى ، وكان الرئيس المنتخب هو عمر بك لطفى وكيل مدرسة الحقوق ورائد الحركة التعــاونية فى مصر ، ومن أخلص أصدقاء مصطفى كامل . وضم مجلس الادارة أســماء لمعت فى مستقبل الحياة السياسية فى مصر ، فمن طلبة الحقوق لمع اسم محمد عبد الخالق ثروت الذى وصل الى منصب النائب العام والوزير ورئيس مجلس الوزراء ومن طلبة الطب الدكتور حافظ عفيفى باشا الذى بقى فترة كبيرة من انصار الحزب الوطنى الأوفياء ؛ والذى وصل فيما بعد الى منصب السفير والوزير ثم رئيس الديوان الملكى .

ومنذ انشاء النادى بدأ سريان روح جديدة فى جــو الطلاب وصاحب ذلك روح الاعتزاز بمكانة المعاهد العليا ومقامها فى القيــادة الفكرية للشباب وبعد أقل من سنة حدث أول اضراب من طلبة مدرسة الحقوق احتجاجا على القيود التى وضعتها وزارة المعــارف لتهبط بمستوى هذه المدرسة ودعوا الى عقد اجتماع فى ١٩٠٦/٢/٢٦ بحديقة الأزبكية ، وبعد أن أعرب الطــلاب عن سخطهم قرروا الاضراب ، وكان ذلك أول اضراب فى عهــد الاحتلال ، وعلى أثر ذلك أغلقت المدرسة من ١٩٠٦/٢/٢٦

حتى السبت ١٩٠٦/٣/٣ . واتجه الطلاب بعد ذلك الى مقر جريدة اللواء فعرضوا مطـــالبهم وأذاعوا شكواهم فتلقاهم مصطفى كامل بترحيبه وتشجيعه وتأييده .

وقد كان نادى المدارس العليا البيئة الصـــالحة التى نمت فيها بذار كثير من المشروعات القومية بالبلاد مثل انشاء مدارس الشعب التى أنشأها الحـــزب الوطنى فى الأحياء الشعبية لتعليم العمال ومحو الأمية والتى تولى فيها أقطاب الفكر تعليم العمال من أمثال أحمد لطفى نقيب المحامين فيمـــا بعد والشيخ عبد العزيز جاويش ومحمد فريد (١) .

اما المشروع الثـــانى الذى خرج من نادى المدارس العليا فقد كان مشروع مراكز رعاية الطفل الذى كان من أول مشروعات الحركة الوطنية فى عهد مصطفى كامل وتبعه مشروع ملاجىء الأطفال اليتامى ثم مشروع التعاون ثم مشروع الهلال الأحمر . وهكذا فان لنادى المدارس العليا الفضل فى اخراج هذه المشروعات وبسط نور اشعاعها على الأمة .

دعوته فى سبيل التقدم الاقتصادى فى البلاد :

الصناعة : كانت الصناعة الأهلية فى عهده تكاد تكون فى حكم العدم ، وركدت الصناعات التى أدخلها محمد على وخمدت النهضة الصناعية فى البلاد ، ورأى الانجليز ان من مصلحتهم قتل الصناعة الوطنية .

ولم تفكر الحكومة فى انشاء المصانع حتى لا تتعارض

(١) كتاب مصطفى كامل لفتحى رضوان

مصلحة البلاد الوطنية مع مصلحة الاحتلال الذى يرغب فى أن تكون البلاد سوقا رائجة لمصنوعاته وبضاعته .

كما وكان ينقص البلاد المدارس الصناعية الفنية لتمد البلاد بالصناع الفنيين فى شتى الفنون والصناعات ولكن حكومة الاحتلال لم ترض بانشاء مدارس صناعية حتى لا ينافس الصناع الوطنيون الصناع الأجانب الذين احتكروا الأعمال الفنية والصناعية بالبلاد .

وقال فى ذلك مصطفى كامل (١) :

« فمن لم يبك على الأيام الخالية ، أيام كان المصرى غنيا بمصنوعات بلاده عن كل واردات الغرب ومصنوعاته، أيام كنا أقوياء بالسيف ، أقوياء في البحر ، أقوياء بالعلم، أقوياء بالتجارة والصناعة والزراعة ، ومن لم يعجب من جماعة يقولون لنا كلما أشرقت الشمس أننا سائرون الى الأمام وأن هذه الديار لم تبلغ من العظمة والقوة والتقدم والارتقاء ما بلغته فى عهد الاحتلال البريطانى ... أين تلك المدارس الزاهرة العامرة التى كانت تخرج فحولا فى الصناعة بكل أنواعها ، وأين تلك المعامل الواسعة التى كانت تقوم بكل حاجات البلاد وتشرف المصرى أمام الأمم . ذهبت تلك الأيام وتولت معها آيات مجدها وعلاها ولم يبق لنجاة مصر الا همم أبنائها وسواعد بنيها ، فان هبوا داعين للحياة ، عاملين بالدعوة ، ونهضوا نهضة الأحياء ، رأوا بعين رءوسهم مصر فى بهجتها السابقة وعزها القديم . وان أهملوا الشئون واعتمدوا على المقادير . والقوا حبل البلاد على غاربها ، ماتوا كما ماتت أمم غيرهم من قبل ولم يجدوا من يقول على مقابرهم

---

(١) مصطفى كامل فى اربعة وثلاثين ربيعا — على فهمى كامل

رحمهم الله لقد كانوا رجالا » .

ولقد أتت دعوته ثمارها اذ قامت جمعية العروى الوثقى تدبر الوثوب الى تحقيق مشروع من أجل المشروعات الوطنية وهو انشاء مدرسة صناعية بالاسكندرية وقد احتفل بانشاءها احتفالا كبيرا .

ولما رأى مصطفى كامل بوادر نهضة صناعية فى البلاد ، وان الانجليز يتربصون الدوائر بهذه النهضة ويصدر المستر غورست المستشار المالى توصيات لمحاربة الصناعة الوطنية فى مهدها جاء فيها :

« حيث ان البلاد بدأت تدخل فى دور صناعى يستحق الانتباه ، سيما وقد تأسست شركة غرضها أن تبتاع القطن وتنسجه فى مصر بدون احتياج الى ارساله الى الخارج ، فالواجب على الحكومة تلقاء ذلك أن لا تهمل فى وضع الرسوم على المنسوجات التى تصنعها الشركة ، حتى لا تزاحم المنسوجات الأجنبية لأن صناعة كهذه لا يستحيل عليها أن تزاحم الأجانب . فاذاساعدتهاالحكومة وأعفتها من الرسوم خسرت مبلغا عظيما تأتيها به الجمارك ولم تعرف ان كانت الشركة تستطيع أن ترده لها أولا) ونفذت الحكومة هذه التوصية بحذافيرها . وكتب رحمه الله فى اللواء بتاريخ ١٥/١١/١٩٠٠ .

« لقد صفعت الحكومة الاحتلالية الصناعة الأهلية صفعة قوية فى الوقت الذى تحتاج فيه الىالرعايةوالعنايةلنشأتها .. وهل يعقل أن صناعة النسيج فى مصر وهى صناعة ناشئة فى مهد الطفولة تجارى وتقاوم الصناعة الأجنبية التى بلغت أدوار القوة ، اللهم ، الا اذا ساعدتها الحكومة بيدها الشديدة ، وظلت تحميها وتشد أزرها . وها هي

الحكومة لم يكفها أن تتخلف عن المساعدة . حتى كانت هى نفسها مع الأجانب ضد الوطنيين ، فكيف يمكن لأى صناعة أخرى أن تحيا وتنتشر فى مصر ... يقول المستشار أن وضع الرسوم على المصنوعات المصرية ضرورى لفائدة البلاد ، واذا لم تعمل ذلك خسرت خسارة كبيرة تأخذها من الصناعات الأجنبية فهل غاب عنه أن البلاد بلاد الأهالى ، وأن الحكومة حكومة الأهالى ... هل غاب عنه أن حماية الصناعة الأهلية فى مبدأ أمرها أمر ضرورى للغاية ، وأن فائدتها فيما بعد لا تقدر بمال ، وأن ازدهار الصناعة هو ثروة عظيمة اقتصادية ولكنه يريد عدم اعفاء الصناعة المصرية من الرسوم خوفا من مزاحمتها لمصنوعات بلاده ورواج مصانع ليفربول ومنشستر وهكذا يجنى الانجليز على الأمة المصرية ويدعون أنهم ناصحون ..

آراؤه فى الاصلاح الزراعى :

كان مصطفى كامل يرى أن لا سبيل الى رقى الزراعة وتقدمها بالبلاد ، الا بعد ترقية الفلاح المصرى ورفع مستواه ثقافيا وصحيا واقتصاديا ونستطيع تلخيص ما جاء فى آرائه عن الفلاح فيما يلى :

١ - يحتاج الفلاح المصرى الى الارشاد الزراعى حتى يستطيع أن يستفيد بزراعة أرضه على الأسس السليمة، وتطوير الأساليب الزراعية البدائية التى كانت تستعمل فى ذلك الوقت فى البذر والحصاد والتسويق وتعليم الفلاح وتدريبه على الصناعات الزراعية .

٢ - عدم عناية الحكومة بأحوال الفلاح ، راجع الى سياسة الاحتلال فى عدم تحسين أحوال البلاد الزراعية .

٣ ـ يجب القضاء على الأمية بين الفلاحين ، وتعليم الفلاح اجادة القراءة والكتابة والحساب وعلم تخطيط البلدان ومبادىء الصحة والزراعة فى كتاتيب تصنعهـا لهذا الغرض ، واتاحة الفرصة له للتزود ببعض المعلومات الاقتصادية والاجتماعية الضرورية . .

٤ ـ يجب تحسين أحوال المواصلات ، وتعميم السكك الحديدية فى كل مكان بأرض الوطن ، لامكان تسويق المحصولات بأجور معتدلة بدلا من تحمل الفلاح فى ذلك الوقت المتاعب الجمة والتكاليف الفادحة فى نقل محاصيله الى مكان تسويقها .

٥ ـ تخفيض الضرائب الثقيلة المفروضة على الأطيان .

٦ ـ خطر الاعتماد على مصدر واحد للثروة فى مصر وهو الزراعة وكان يرى رحمه الله انه يجب عدم الاتكال الكلى على الزراعة ، ويجب الاهتمام بالصناعة ونشرها حتى ترتقى بذلك التجارة ولو بمقدار حاجة سكان البلاد وما جاورها من الأمم الغربية والافريقية كما ان زيادة عدد السكان فى المستقبل يجعل من الصعب توفر الموارد الكفيلة لمعيشتهم فى الظروف الملائمة ما لم تتوسع البلاد فى النشاط الاقتصادى .

نساء فى حياته :

تأثرت حياة مصطفى كامل وجهاده بامرأتين عظيمتين الأولى والدته السيدة حفيظة ، وكانت كريمة المرحوم اليوزباشي محمد أفندى فهمى وكانت من خيرة نساء عصرها ، أخلاقا ونهجا ومناقب ، من شارع الكومى بحى السيدة زينب بالقاهرة ، ورث عنها مصطفى كامل اندي

الشمائل ، وكان يحبها حبا جما ، وانطبعت فيه أخلاقها من صفاء النفس وحب الخير والصبر والثبات ، وقد أنجبت هذه السيدة الفاضلة من الأبناء غير مصطفى كامل المرحومين على بك كامل فهمى ، السيدة عائشة ، السيدة نفيسة ، الأستاذ حسن حسنى كامل .

مرضت بأمراض مستعصية فى أواخر حياتها فتحملت آلام المرض صابرة شاكرة ، وبهدوء وايمان عانت شدة الداء وقسوته ، وظلت كذلك حتى أسلمت الروح سنة ١٩٠٧ ، وكان طيلة مرضها مشغول الفؤاد ، شديد العناية بأمرها ، كتب مصطفى كامل الى مدام جولييت آدم حين وفاتها يقول :

« قد رزئت أكبر رزء فى الحياة ، فان والدتى العزيزة مالكة فؤادى قد فارقت الدنيا يوم الأحد الماضى (١٩٠٧/٥/١٢) ان حزنى لشديد وحياتى كادت تنقضى » .

فهذا التعبير يدل على مبلغ وفائه لوالدته وحبه لها ، وحزنه هذا لعمرى أبلغ مظهر لوفاء الانسان فى هذه الدنيا .

وقد بنى لها مقبرة فى الامام الشافعى وأودع فيها جثمانها الطاهر وكان موت أمه الحبيبة اليه النذير بأفول كوكبه الى الأبد ، فلم يلبث بعدها بضع شهور يعانى داءه العضال ، الذى أعيا نطس الأطباء ، حتى أزفت الساعة لتنطلق روحه الى عالم الخلود للحاق بها فى العاشر من فبراير سنة ١٩٠٨ .

أما المرأة الثانية التى تأثر بها مصطفى كامل هى جولييت آدم وقد عدها أمه الروحية .

ولدت في اكتوبر سنة ١٨٣٦ بقرية فزيري من اقليم بيكاردى من أقاليم فرنسا والدها الدكتور لمير الجراح الشهير ، كان من أعاظم رجال الطب ، بذل ماله وأنفق وقته في سبيل الأعمال الانسانية أما والدتها فهي من سلالة القائد سنيرين الذي ذاع صيته في حروب لويس الرابع عشر ، أتمت دروسها في كلية الآداب بباريس وتزوجت المحامي الكبير مسيو « دي لاماش » وهي في السابعة عشر من عمرها ورزقت منه مولودة هي «أليس دي لاماش» ولما مات زوجها تزوجت في سنة ١٨٦٨ بالمسيو أدمون آدم من زعماء الحزب الجمهوري في فرنسا فظهرت بزواجه ظهورا كبيرا ، لأنه كان عمدة باريس ومن اشهر ثراتها ، وقد تقلد كثيرا من المناصب الحكومية الكبيرة ثم انتخب عضوا دائما بمجلس الشيوخ بعد تأسيس الجمهورية الثالثة ثم صار رئيسا للمجلس وقد توفى سنة ١٨٧٧ ولم تتزوج من بعده وعكفت على الاشتغال بالسياسة والتأليف .

وقد تزوجت ابنتها من زوجها الأول بالدكتور سيمون الجراح المشهور ورزقت منه بثلاث بنات الأولى بولين وتزوجت بالمسيو جوديير رئيس تحقيق الشخصية بادارة بوليس باريس والثانية كلود تزوجت بالدكتور فورنو المدير الفنى لمعامل باستير والثالثة جوليت تزوجت بالضابط ماديبه .

وقد ظهرت في عالم الأدب والصحافة والسياسة نجما لامعا ، وقلما ساطعا مشهورا ، فكانت من أعظم شخصيات فرنسا فى عالم الوطنية والسياسة والأدب وكان مشاهير الرجال من نواحى الارض يرحلون اليها فكانت دارها كعبة القصاد ومنتدى رجال العلم والأدب والشعر والسياسة .

ماتت عام ١٩٣٦ اى انها عمرت مائة عام وهي من أعظم من أنجبتهم فرنسا علما وأدبا ووطنية ومكانة سامية ، وظلت موضع احترام مواطنيها طول سنى حياتها وقد وضعت سنه ١٩٢٣ كتابا قيما عن مصر أسمته (انجلترا فى مصر) وهو من خير ما ألف فى المسألة المصرية .

أثرها الأدبى :

حينما برزت جولييت آدم فى ميدان الفكر والكتابة والسياسة لم يكن فى فرنسا سوى ثلاث كاتبات مشهورات وهن : (دانيل شيرن ، جورج ساند ، جيرأردن) وكان لكل منهن امتياز ادبى فى ضرب خاص من ضروب الادب ، اما جولييت ادم فكتبت فى علوم الأدب والاجتماع والتاريخ كما كتبت فى الوطنية والسياحة والفلسفة والسياسة .

وكانت فى كل ما كتبته مثال العقل الراجح والذكاء المتألق والوطنية الصادقة ومن أهم مؤلفاتها « ضد آراء يوردون سنة ١٨٥٦ ، جلال الزواج فى قوة الوفاء سنة ١٨٥٨ — أسرار جاريبالدى سنة ١٨٥٨ ، قريتي العزيزة ١٨٥٨ ، ومن كتبها الوطنية وطنيتنا سنة ١٨٦٧ ، الدفاع عن الوطنية سنة ١٨٦٩ والحرب السبعينيه ، حصار باريس ومن كتبها ما طبع اكثر من ١٥٠ مرة مثل كتاب (صداقتنا قبل ترك الثأر) وهو كتاب كتبته بعد فشل فرنسا ازاء المانيا بعد الحرب السبعينية وخسرت فيها مقاطعتين هما الالزاس واللورين ثم أنشأت سنة ١٨٧٩ المجلة الحديثة وهي مجلة نصف شهرية تصدر فى باريس وظلت هذه

المجلة حتى عام ١٨٩٩ ثم تزلت عنها لجماعة من أبنائها الأدباء واكتفت باصدار نشرة فى كل شهر جعلت عنوانها (الكلمة الفرنسية فى الخارج) وقد كان لهذه النشرة تأثير كبير فى الدوائر السياسية وقد استمرت هذه النشرة حتى ١٩٠٥ ثم أوقفتها وتفرغت لكتابة مذكراتها الخاصة بعد أن بلغت السبعين من عمرها .

وما أن اشتعلت الحرب العالمية الأولى حتى اهتمت بمشروعات اجتماعية هامة كتشجيع المحاربين وادارة الجماعات النسائية والتوفيق بين كبار الساسة والتمكين للوحدة العامة .

ولم يقتصر نشاطها على الصحافة والتأليف بل قامت برئاسة عدة جمعيات اجتماعية كبيرة فى فرنسا مثل جماعة الآداب النسائية ، السكك الحديدية الجنوبية ، يتيمات الحرب ، ممرضات المدافعين عن الوطن ، كما كانت دائمة العطف على البائسين والبائسات وعلى تشجيع الأعمال الخيرية .

زارت مدام جولييت آدم جميع بلاد العالم بدعوات رسمية من أحزابها الوطنية وجماعاتها الأدبية ما عدا انجلترا والمانيا فانها لم تزرهالعدم رضائها عن الاتجاهات السياسية بحكومة كل منها . لقيت فى المجر والبرتغال واليونان وروسيا قبل الثورة الشيوعية اكراما لم يبلغه أحد من الأدباء من قبل ، فاحتفل بها القياصرة والملوك والملكات وقادة الرأى والعلماء فى كل بلد رحلت اليه ، وقدمت لها أنفس الهدايا تقديرا لمكانتها الأدبية العالمية .

وتعتبر مدام جولييت آدم الأم الروحية لمصطفى كامل منذ تعرف بها واتخذ باريس مركزا لخدمة القضية

المصرية بأوروبا فى ١٨٩٥/٩/٢١ وقد يسرت له كل سبيل من سبل الدعاية ، وفتحت له ابواب مجلتها القيمة سنة ١٨٩٥ فدبج فيها المقالات الوطنية التى لفتت انظار العالم السياسى فى كل بلد متحضر الى قضية مصر وحقوق أمة وادى النيل .

ودعاها لزيارة مصر فزارتها سنة ١٩٠٤ حيث استقبلتها الأمة المصرية استقبال عرفان بالجميل ، واهدتها الهدايا العديدة ، كما استقبلتها الجهات الرسمية أحسن استقبال ومكثت فى مصر ثلاثة شهور ، زارت فى خلالها كل مكان ، باحثة منقبة ، وعلى الأخص الأماكن الأثرية بالوجه القبلى ، وكان فى صحبتها مصطفى كامل والأمير حيدر فاضل وفى كل مكان زارته استقبلت من المواطنين بكل حفاوة وتكريم .

وكتب مصطفى كامل حين زيارتها فى ٢٤ فبراير سنة ١٩٠٤ مقالا جاء فيه :

« لم يرتفع مقام للعلم والأدب والفضل فى عصر من العصور كارتفاعه فى هذا الزمان ، فقد أصبح النوع البشرى يعتبر أرباب الأقلام وقادة الفكر فى مصاف الملوك والأمراء .

لقد زارت مصر فى هذه الأيام أميرة من اكبر اميرات الراى والقلم والسياسة ، هى مدام جولييت آدم الكاتبة الفرنسية الطائرة الصيت ، زارت مصر وقد عشقتها من قديم وشغفت بها من عهد شبابها ، ودافعت عنها بقلمها السيال السنوات الطوال فلذلك حق لمصر أن ترحب بها وللمصريين أن يلقوها بالشكر والاعظام .

أتمت ضيفتنا العزيزة فى شهر أكتوبر الماضى العام

السابع والستين من عمرها المديد ، ومضى عليها خمسون عاما وهى الكوكب الساطع فى سماء الأدب الرائع ونشرت الى اليوم اثنين وثلاثين مؤلفا من أرقى المؤلفات واسماها.

يسمع الانسان بمشاهير الكتاب وأساطين الحكمة والسياسة فيشتاق لرؤيتهم ، حتى اذا اجتمع بهم ، وجد بعضهم دون سمعته وشهرته فى حديثه ومقابلته ، اما لترفعه عن الناس أو لحبه العزلة والانفراد ، ولكنك اذا لقيت الكاتبة البليغة ، وجدت ملكة جمعت الأدب الباهر واللطف العطر والعلم الواسع ، والبيان التام والرأى الثاقب.

نعم منحها الخالق كل ما يرجوه الانسان فى حياته مالا وجلالا وأدبا ، وسمعة طائرة ونفوذا كبيرا وقد استخدمت كل هذه المواهب فى خدمة وطنها فهو قبلتها وفى سبيله تضحى بكل مرتخص وغال .. الى أن قال عن صالونها السياسى :

« كان لضيفتنا الكريمة الدور الهام فى تأسيس الجمهورية الفرنسية وفى التحالف الفرنسى الروسى وكم تقررت امور خطيرة فى دارها لان كبار الجمهوريين وفى مقدمتهم « غمبيتا » كانوا يسترشدون بأفكارها ويعترفون برأيها الصائب . أحبت مدام جولييت بلادها .. فأحبت كل محب لبلاده ، وعرفت الوطنية الراقية عند كل وطنى ، ولذلك نجد اسمها محبوبا عند الأمم الناشئة المحتاجة الى المرشد والمعين .. نجد دارها فى باريس مزدحمة بالقصاد من انحاء العالم ، كلهم يطلبون منهما الارشاد ويقدمون لها فرائض الشكر والاعجاب .

اعتقدت ان الحق قاهر مما قهر فى بادىء الأمر ، وأنه ذو الكلمة الأخيرة فى كل قضية فابعدت القنوط عن

نفسها وعمن حولها ، وكم سمعتها تبث الآمال فى قلوب محبيها الكثار باقوالها الصادقة ، وعباراتها المؤثرة ، فمثل هذه الضيفة العزيزة من تكرم الدنيا ويعز بنو الانسان ؛ واذا كان أكبر صفات المصريين اكرام الضيف وعدم نسيان المعروف فلا بدع اذا رايناهم يتسابقون لاكرامها واعلان شكرهم لها على حبها لبلادهم ودفاعها عنهم ؛ وهم بهذه المظاهرات الودية يثبتون انها لم تخطىء فى قولها واعتقادها فى عظمة المصريين وانهم سيبهرون العالم بحياتهم ومستقبلهم فى القريب العاجل » .

وقد أولم الخديو عباس لمدام آدم وليمة عشاء فاخرة فى قصر القبة مساء ٢٤ فبراير سنة ١٩٠٤ حضرها صفوة من الأمراء والكبراء وذهبت صحبة مدام يونج ومصطفى كامل باشا وحسين واصف باشا الى بور سعيد فأقيمت لها حفلة فخمة فى المدرسة الواصفية خطب فيها مصطفى كامل خطبة شيقة ، وكان المجتمعون يبلغون عدة آلاف جاءوا تكريما لضيفة مصطفى كامل .

ومن ثنايا عبارات رسائله التى بعث بها الى الصحف الفرنسية الشهيرة ، يتضح لنا مدى العمق الروحى للعلاقات التى كانت بينهما فقد كتب اليها من مارسيليا فى يناير سنة ١٨٩٦ :

« قبل أن أبرح هذه الأرض العزيزة أرض فرنسا .. أعرب لك من صميم فؤادى عن جزيل الثناء على المساعدات القيمة جدا .. تلك المساعدة التى أوليتنى اياها .. لأنه واجب مفروض الأداء أن أشكر بكل اخلاص انعطافك العظيم الى وطنى والى شخصى المتواضع » .

وكتب اليها من فيينا فى ٢٠ مارس سنة ١٨٩٧ :

« ليس لدى وقت يسمح لى أن احادثك فى حالة وطنى العزيز ، ان الانجليز يعماون فى وادى النيل كل ما يريدون ويرتكبون أفظع الجرائم على الانسانية والعدالة ويسخرون أكبر ســـخرية من أوروبا وعلى الأخص ـ وا أسفاه ـ من فرنسا ، لأن خطة فرنسا فى هـذه الأزمات الأخيرة قد دفعت بلا جدال الانجليز الى الحاق أشد المظالم بها ـ والذى زاد الطين بلة أن هذه الخطة قد أضعفت عزيمة أشد الناس حبا لبلادكم الجميلة .

وكتب اليها من بودابست فى ٢٨ مارس سنة ١٨٩٧ :

« لقد أصبت ألف مرة فيما كتبته مما هو راسخ فى نفسى من أن الوطنية وحدها قادرة على أن تكتسح بتيارها الجارف كل المخاوف .. أننى ما اعتقدت فى وقت ما غير ذلك وهو ما لابد قد لاحظته فى كل أعمالى ، فاننى ما يئست أبدا من مستقبل وطنى ولا من النصر الذى سيكون خاتمة مسألتنا . لا سيما ان الوطنيين المصريين متحدون الآن ، ولنا حزب سرى مخلص للغاية وهو على استعداد لتضحية دائمة فى سبيل الوطن المقدس ... واننى مع هذا العمل .. مع هذه الوطنية الدافقة مع هذا الزهد الى آخر ما تعهدينه فى ، مما هو أول واجب على لأشك أصلا فى أنه سيأتى يوم يسمع فيه ندائى ، اذ تتحقق آمالى .. ولعلك ترين أننى أجمع حول مسألتنا من العواطف ما يصل اليه جهدى ، فاننى أنشر الحقيقة فى كل مكان .. وفى جميع الأنحاء أجعل أعداء الاحتلال أكثر مما كانوا .. فان مركزنا يشبه من جميع الوجوه مركز رجل فى داره لص يسرق ويحرق ما يجده فى طريقه ويذبح كل شىء . فواجب صاحب الدار التعس أن يصيح

برجال الشرطة ويستفيث بكل انسان .. فنحن كذلك نستفيث بالجميع ولا نود أبدا أن تشترك امة حرة من أمم أوروبا أو غيرها مع انجلترا ضدنا وتعمل على خسارتنا .. رأيت القوم فى النمسا قد ابتدأوا يدركون ان الانجليز كانوا يستغفلونهم زمنا طويلا وانه يجب عليهم أن يعملوا ولو قليلا متى وافقت أعمالهم مصالحهم .

رسالة من القاهرة تنادينى وتدعونى الى العودة على جناح السرعة .. ان الانجليز يحرضون اليونانيين القاطنين بمصر على أن يثوروا ضد الوطنيين وأن يوجدوا فى ذلك اضطرابات يستفيد منها الاحتلال » .

ومن الاسكندرية كتب اليها فى ١٢ يونيو سنة ١٨٩٧ رسالة جاء فيها :

« لابد أن تكون تلغرافات هافاس قد انبأتك بهذه المظاهرة الأهلية الكبرى التى كانت يوم الثلاثاء الماضى ، والتى ما كنت أنتظر وقوعها من مواطنى لعظم جلالها ذلك انه لم تكد تعلن الصحف عن الخطبـــه التى ألقيتها حتى تقاطرت الوفود من شتى أنحاء الأقاليم .. وقد وافقوا جميعا بكل سرور — وهم محقون فى هذه الموافقة — على ما عرضته عليهم أخيرا فى عدم الرضا بالاحتلال وطلب الجلاء ، وأن الأوروبيين حتى اليونانيين منهم مرتاحون الى تلك المظاهرة وهذا القرار » .

انشاء مدرسة وجريدة :

واذا كانت الحكومة مهملة فان الأمة قد ابتدأت تعليم نفسها بنفسها فان المدارس الأهلية التى انشئت فى العام الماضى قد نجحت نجاحا عظيمـا . وفى مدرستى اليوم ٢٦٥

تلميذا كلهم من سلالة مصرية وعلى أتم ذكاء ، وأننا نبث فيهم الشعور الوطنى بأكمل معانيه .. قدعزمت كماتشرفت بأنبائك من قبل على اصدار جريدة كبرى يوميه لأستعين بها على خدمة أفكارى واحقق رغائبى وسيكون اسمها (اللواء) ولذلك أرجو منك أن تتفضلى بارسال مقالة كتحية منك .. أنت الصديقة الجليلة (للواء) الوطنية المصرية وتزفين اليها نصائح الوطنية الصحيحة فان ذلك يؤثر كثيرا واننى أثنى عليك كثيرا اذا تفضلت بارشادى الى المؤلفات الخاصة بالتاريخ الوطنى - والقصص الوطنية عن كل البلاد ، لألقن الشعب اياها فانه يلزمنى ضرب الأمثال » .

وكتب اليها فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٩٩ :

« اننى أعمل كثيرا وأملى أن يصير اللواء أول جريدة فى الشرق ، فانى أريد أن يكون فى وقت واحد عاملا للوطنية المصرية وواسطة بين العالم الأوروبى والعالم الأوروبى ، ولهذا رجوت منك أن تكتبى لنا بين آن وآخر ، مواعيظ وطنية مما جرى فى أيامك أو فى سطور التاريخ ، وان تسألى كل أصدقائك أن يعتبروا جريدتى جريدتهم .. وان المصريين جميعا مرتاحون الى قيامى باصدار جريدة أهلية الصبغة وطنية المشرب .

ويعتذر لها فى رسالة بعث بها فى ٢٦ مايو سنة ١٩٠٠، عن تأخيره فى الكتابة اليها ويتحدث عن تأثير جريدة اللواء فى الرأى العام العربى فيقول (.. لأننى كنت مشغول جدا باللواء الذى نجح نجاحا فائقا وصار بعد أربعة شهور أكثر الجرائد تأثيرا فى العالم الاسلامى ..) .

وكتب اليها من تريستا فى ٢ يوليو سنة ١٩٠٠ يقول :

لقد حظيت بمطالعة كتابك القيم (الوطن المجرى) على ظهر الباخرة وشد ما حرك اشجانى عندما قرأته .. وهل يسمح لى الزمان بأن اقرأ يوما ما مؤلفا من قلمك عن « الوطن المصرى » انك سبقت فوعدت بذلك . وما وعدت به واجب الانجاز . اننى لا أجد كلمات تسع اعرابى لك عن استيائى من اوروبا والمدنية والانسانية التى قضت بهجر البوير البواسل البائسين !!

والى القارىء الكريم نموذج من خطابات السيدة العظيمة الى الزعيم الشاب . كتب له فى ١٩٠٠/١/١ هذا الخطاب :

صديقى الشاب

اسمح لى أن أعرب لك عن الدعوات الصادقة التى أرفعها الى السماء ليهبك الله من لدنه صحة ومجدا وقوة فى جهادك الشريف ضد أعداء بلادى وانى منشرحة الصدر جدا لما علمت من انك ستنشىء جريدة سياسية « اللواء » لأن ذخائر الخطابة والصحافة لازمة لكل المجاهدين فى السياسة .

وانى أهنئك أصدق التهنئة على نجاحك الخطابى ، ولست بحاجة لأن أعرفك رأيى فى أعمالك الوطنية فأنت عالم بها علم اليقين ولو استطعت أن أشرح لك افكارى بشأن بلادك لوجدت فيها ما يملأ الفؤاد أملا وثقة

وانكم معاشر المصريين لو أردتم أن تكون مصر أكبر الأمم وأعظمها لكانت كما تشاءون .

ألف تحية وألف سلام « للواء الرسول وليكن لواؤك » أول عامل للتقريب بين أبناء الدين المحمدى الصحيح وأبناء الدين المسيحى الصحيح وما ذلك بعسير ، وان

هذا التقريب يـكون أكبر خطوة فى تاريخ الانســانية والتمدن .

جولييت آدم

اثر مدام جولييت آدم فى مصطفى كامل

١ ـ كان تعضيدها له وتأييدها لجهاده ، بمثــابة قوة دافعة على الجهاد وتشجيع معنـوى طويل ساعده ليمضي في جهاده ، لا تثنيه العقبات ولا توقفه الأحداث ولا يضعفه تخلى الكثير من المصريين عن معــاونته بل معارضتهم السافرة وتسفيههم لمبادئه .

وفى صالونها المشهور تم الاتفاق على الخطة التى عرفت تفاصيلها فيما بعد بحادثة فاشودة ودفعت الحكومة الفرنسية بايحاء مدام جولييت آدم على تنفيذها لمساعدة المصريين فى التخلص من الاحتلال البريطانى وهى حادثة مثيرة جدا اهتزت لها أوروبا بأسرها وكادت أن تؤدى الى الحرب بين فرنسا وانجلترا .

٢ ـ عرفته بكبار الساسة فى أوروبا وكبار المحررين فى فرنسا ، مما مكنه أن ينشر مقــالاته السياسية الشهيرة ، للتنديد بسياسة انجلترا فى مصر فى أمهات الصحف العالمية مثل الفيجارو ، وقد نجح مصطفى كامل فى استغلال هذه الامكانيات ، فى حملته ضد انجلترا على اثر الأحكام الجائرة التى وقعتها على ابرياء دنشواى ، مما أثار الرأى العام العالمى ضد انجلترا وأثار كثيرا من ذوى الرأى الحر فى انجلترا ضد سياسة حكومتهم فى مصر ، وكان من نتيجة ذلك عزل اللورد كرومر .

٣ ـ بما لها من خبرة فى الشئون السياسية ، اطلعته

على حيل الاستعمار ومؤامراته ، وانضمت له علانية ، وكتبت فى الصحف ، وخطبت فى المحافل السياسية ، وعقدت المؤتمرات والاجتماعات فى باريس ، فى سبيل ايجاد رأى عام فى فرنسا وفى أوروبا ، يدعو الى ضرورة جلاء انجلترا عن مصر . ويدحض مفتريات الاستعمار ، ويفند مزاعمه المغرضة لتبرير وجوده فى مصر .

حادثة فاشودة

عهدت فرنسا سنة ١٨٩٦ الى الكابتن مرشان ، وكان من أصدقاء مدام جولييت آدم بالزحف على فاشودة الواقعة على النيل واحتلالها ، وقد اختارت هذه النقطة بالذات لأهميتها من الوجهة الحربية والجغرافية ، وهى تقع فى أعالى النيل جنوب السودان . فسار على رأس كتيبة من الجنود مؤلفة من تسعة ضباط فرنسيين ومائة وعشرين جنديا من أهالى السنغال ، وقضى عامين فى طريقه اليها ، ووصلها فى ١٨٩٨/٧/١٠ ، وكان احتلالها ايذانا بفتح باب المسألة المصرية ، وكان المقرر أن فرنسا سترد على انجلترا اذا احتجت عليها ، انه لن يتم جلاء فرنسا على فاشودة الا اذا تم جلاء انجلترا عن مصر ، فأدركت انجلترا غرض فرنسا من هذه الحملة، فاعترضت باسمها على هذه الحملة واحتجت عليها باعتبار أن فاشودة بلدا مصريا ، وسار اليها اللورد كتشنر سردار الجيش المصرى وقتئذ ، على رأس قوة مؤلفة من ١٨٠٠ جندى مصرى ومائة جندى بريطانى ، فوصلها فى سبتمبر سنة ١٨٩٨ ، وهناك التقى بالكابتن مارشان واحتج باسم الخديو على احتلال بلد مصرى ورفعه العلم الفرنسى

عليه ، وأبلغه ان الاحتلال انتهاك لحقـوق مصر ، وانه جاء لرفع العلم المصرى على فاشودة ، وكان ما رشان يعلم أن لا قبل له بمقاومة القوة المصرية التى جاءت لاجلائه عنها اذ لم يكن لديه القوة الكافية للمقاومة — فأذعن ولم يقاوم ، ورفع المصريون عليها العلم المصرى .

واشتدت الأزمة السياسية بين انجلترا وفرنسا على اثر هذه الحادثة وكان الظن أن تتمسك فرنسا بموقفها وتفتح باب المسألة المصرية فتضطر انجلترا الى الجلاء عن مصر مقابل جلاء الفرنسيين عن فاشودة ، وقد تفـاءل المصريون لهذه الحادثة وظنوا أن آمالهم فى الجلاء سوف تتحقق ، اذ كانوا يعتقدون ان فرنسا لا تقدم على هذا التحدى لانجلترا الا وهى مصرة على المضى فى سياستها الى النهاية وكاد الخلاف يصل بين الدولتين الى امتشاق الحسام بينهما ، فعظم بذلك شأن المسألة المصرية وقويت آمال المصريين فى الاستقلال ولكن فرنســـــا تخاذلت وتراجعت آخر الأمر .

وخشيت مغبة الحرب اذا لم تتقدم حليفتها الروسيا لمعاونتها فسلمت بوجهة نظـــر انجلترا وأمرت مارشان بالجلاء عن فاشودة وتم جلاؤه عنهـــا يوم ١١ ديسمبر سنة ١٨٩٨ فـكان هـذا التسليم أكبر صدمة سياسية أصابت الحركة الوطنية وزلزل هذا الحادث أمل المصريين فى الاستقلال . وكتب مصطفى كامل فى هـذه المناسبة الى أخيه على بك وكان وقتئذ من ضباط حملة السودان . كتابا يظهر شعوره ويعلن ثباته على مبادئه :

« .. ان الأحوال السياسية سيئة للغاية بعد مسألة فاشودة » ، وقد أظهر بعض الكبراء الجبن وكادوا يخونون

بلادا أحسنت اليهم بما لا يحلم به غيرهم ، ولكنى ثابت على خطتى حتى الممات ، لأن اعتقادى ان ثمر الدفاع وان لم يجنه المدافع الأول أو الثانى فلسوف يجنيه مصرى على مدى الأيام ، واننا اذا لم نقتطف ثمر عملنا وجهادنا فى حياتنا فاننا على الأقل نضع الحجر الأول لمن يبنى بعدنا » وكتبت مدام جولييت آدم فى مقـــالة لها فى فبراير سنة ١٩٠٤ عن أغلاط السياسة الفرنسية :

« فاشودة انها الضربة القاضية !! لقد قلت فى رسائلى السابقة أن كثيرين من ساسة فرنسا قد أفهموا الخديو والوطنيين المصريين أن فرنسا ستتدخل لصـــالح مصر سريعا ، فصاروا جميعا يعتقدون أن تحرير وطننا سيأتى من الســـودان ، ولـكن حادثة فاشودة قضت على آمال المصريين جميعا » .

وقد كان لهذا الحادث تأثير كبير فى موقف الخديو ، فاستسلم بعدها للأمر الواقع وأخذ يتودد الى الاحتلال، وليس أدل على ذلك من زيارته بعد ذلك للندن سنة ١٩٠٠ . وفى ذلك يقول مصطفى كامل فى رسالة له بعثها الى مدام جولييت آدم فى ١٩٠٠/٦/٢٢ .

« أبعث اليك مع هذا بمقالة تفصح لك عن شعورى والشعور الأهلى نحو سياحة الخديو فى لندن ، تلك السياحة التى آلمتنا كثيرا وما ذلك وا أسفاه الا نتيجة فاشودة » .

الاتفـــاق الـودى
بـين فرنســـا وانجلترا

٨ ابريل سنة ١٩٠٤

وقع فى سنة ١٩٠٤ حادث سياسى خطير كان له أسوأ الأثر فى كفاح مصطفى كامل وكان بمثابة صدمة شديدة للحركة الوطنية ، التى كانت تعتمد على تأييد فرنسا فى مطالبة انجلترا بالجلاء ، ونعنى به العهد المعروف « بالاتفاق الودى » المبرم بين فرنسا وانجلترا فى ٨ ابريل سنة ١٩٠٤ .

كانت العلاقات بين الدولتين تزداد جفاء على أثر انسحاب فرنسا من فاشودة ، فرأى بعض رجال السياسة فى كلتا الدولتين السعى فى ازالة أوجه الخلاف بينهما ، لكى تقاوما نفوذ ألمانيا فى أوروبا ، والذى كان يهدد مصالح الدولتين ، لذلك أخذت الحكومتان فى تسوية المسائل المختلف عليها بينهما ، وأسفرت المفاوضات عن ابرام « الاتفاق الودى » وصار هذا الاتفاق عاملا مهما فى اتجاه السياسة الدولية ، اذ كان تكملة للمحالفة بين فرنسا وروسيا لمقاومة التحالف الثلاثى بين ألمانيا والنمسا وايطاليا .

وكان الجزء الخاص بمصر هو أهم نصوص هذا الاتفاق ،

فقد أعلنت انجلترا فى المادة الأولى منه بأنه « ليس فى نيتها تغيير الحالة السياسية لمصر » وتعهدت الحكومة الفرنسية من جانبها » بأن لا تعرقل عمل انجلترا فى هذه البلاد لا يطلب تحديد أجل الاحتلال البريطاني ولا بأى صورة « وهذا الالتزام من جانب الحكومة الفرنسية مقابل التزام الحكومة البريطانية أن لا تعرقل عمل فرنسا فى مراكش .

وبعبارة أخرى اعترفت فرنسا بالاحتلال الانجليزى وتركت لانجلترا حرية أكثر مما كان لهـا فى الشئون المصرية ، وكان من نتيجة ذلك ان انهار أمل المصريين فى فرنسا وتحققوا انه لا يمكن الاعتماد عليها ولا على اى دولة فى المسألة المصرية وأن على مصر أن تعتمد على نفسها فى المطالبة بالحرية والاستقلال .

كان هذا الاتفاق من المؤامرات الاستعمارية التى اتفقت عليها الدول الأوروبية لسلب الأمم واغتصاب استقلالها وحقوقها ، وكان من نتائجه ان قوى مركز انجلترا فى مصر ، وظهر تقرير اللورد كرومر فى ابريل سنة ١٩٠٤ ، يفيض سيطرة وعسفا وتكلم فيه بلسان الحاكم المطلق التصرف ، وطعن فى المصريين بأن رماهم بعدم الكفاية للحكم الذاتى وكان من نتائجه المعنوية أن رجح فى نفوس الخاصة كفة اليأس ، فتفشت فيهم نزعة الضعف والتخاذل والانصراف عن متابعة الحركة الوطنية .

أما مصطفى كامل ، الزعيم الشاب ، فلم يتراجع أمام الاتفاق ، ولم يتزعزع يقينه فى الجهاد ، لأنه كان قد نفض يده من مساعدة فرنسا منذ حادثة فاشودة .

وظهر ثباته العظيم امام تلك المحنة السياسية الشديدة

ومن أقواله فى ذلك :

قال فى عدد اللواء الصادر فى ١٨/٤/١٩٠٤ :

« انظر الى الشعوب التى أصابها ، ما أصاب شعبك، تجد البولونى وقد تمزق وطنه وعلت فيه كلمة دول ثلاث ، يجد ويعمل مفكرا كل يوم بل كل لحظة فى بولونيا، يذكر تاريخها ويبكى أيامها الخالية ، ويربى ابنه على حبها والتمسك بحقوقها ، والفنلندى وقد لبس هو وبقية أفراد أمته ثياب الحداد يوم قررت فرنسا ضم جيش فنلندا لجيشها ومحو بقية استقلال هذه الأمة،والايرلندى وقد عارض انجلترا فى ضغطها على بلاده وسلبها حقوقه وانظر الى غيرهم وغيرهم ، لتعلم أن الأمم الكبيرة كانت أو الصغيرة حاكمة أو محكومة لا تسمو فيها الأخلاق ولا ينشأ بينها رجال الفكر العالى والعمل الكبير الا بالشعور الوطنى ، فكل عامل على اطفاء نوره ، محارب لأمته وقومه وذويه ، وكل داع اليه مجد ، فى سبيل الحياة القومية الصحيحة والرقى الخالد » .

وفى هذه الكلمة يندد بدعاة التخاذل والاستسلام ، ويدعو الأمة الى متابعة الجهاد والكفاح ، رغم ما يحف بطريق النضال الثورى من عراقيل وعقبات .

وخطب فى مسرح زيزينيا بالآسكندرية فى ٧ يونيو سنة ١٩٠٤ خطبة كبرى جعل موضوعها (الموقف السياسى وواجبات المصريين) .

تكلم فيها عن الاتفاق الودى وائتمار انجلترا وفرنسا بمصر والمراكش ، وحمل على السياسة الاستعمارية الانجليزية والفرنسية ، ثم عرج على سياسة الاستسلام التى يسلكها وزراء مصر وكبراؤها ، وقال أن هذه

السياسة كان لها دخل فى التحريض على هذا الاتفاق « لأنه لا يوجد فى العــــالم انسان يخدم من لا يخدم نفسه ويدافع عن حق من تنازل عن حقه وقد استسلمت حكومتنا للاحتلال استسلاما أبعد عنها كل محب لها ميال لمساعدتها (يشير بهـذا الى وزارة مصطفى فهمى التى كانت تتولى الحكم منذ نوفمبر سنة ١٨٩٥) .

واتخذ من عقد الاتفاق الودى دليلا ساقته الحـوادث على دحض مزاعم من كانوا يدعون ان القائمين بالحركة الوطنيـــة محرضون من حزب الاستعمار الفرنسى فقــد بطلت هذه الدعوى بعــد أن أصبحت فرنســا صــديقة لانجلترا « ونحن على حالنا ندافع عن المبـــــادىء التى أعلناها للملأ كله من أول عهدنا بالسياسة الى اليوم » .

ثم دعا الى التضحية والثبات قائلا :

« ان الذى يصغى الي صوت ضميره مناديا فى كل لحظة بوجوب خدمة الوطن واعلاء شأنه ، يشعر بأن دم آبائه الذى يجرى فى عروقه يطـــالبه تضحية النفس لتلك الأرض الطاهرة التى لا شرف له الا بها ولا حياة بغيرها ، ولا رفعة بدون رفعتهـــا ، ولا مجـد اذا زال مجدها » .

وذكر ان الوطنية لا تنثنى أمام العقبات :

« سخر أعداؤنا من الوطنية التى ننادى بها وندعو الأمة اليها وقالوا ما شاء لهم الحقد والعداء ، ولكننا نرى أن قيمة الأوطان ليست مما تميل النفس اليه ساعة ثم تنفر منه ساعة ، أو وسيلة للكسب تنقضى بانقضائه ، انما الوطنية شعور ينمو فى النفس ويزداد لهيبه فى

القلب ويرسخ فى الفؤاد كلما كبرت هموم الوطن وعظمت مصائبه ، واشتدت كربته ..

« أجل أيها السادة ، لا حياة لأمة من الأمم بغير الوطنية الحقة ، ولا معنى للعيش بدونها ، ولا تتجدد الآمال وتقوم الأعمال الا بها » .

ثم تكلم عن سياسة الاحتلال وما ترمى اليه من قتل الروح الاستقلالية فى الأمة .

مصـــــر وتـركيـــا

لم يكن من الممكن ان يهدف زعيم وطنى الى جــلاء الانجليز وهو لا يملك أية قوة حربية الا أن يستغل كل الأطراف المعنية بموضوع القضية المصرية ، وايجاد رأى عام عالمى ليعلن استنكار الاحتلال الانجليزى ويدعو الى زواله .

والخلافة العثمانية على ما كانت عليه من ضعف ، كان لابد من كسب رضائها عن حركته وارتياحها لدعوته والا قاومت مصطفى كامل وانضمت الى خصومه ، وما كان ليستطيع أن يجمع بين محاربة الانجليز وتركيا صاحبــة الحق الشرعى فى البلاد دون تأليب تركيا عليه وتعاونها مع الانجليز .

كما أن الزعيم الناجح لا يستطيع أن يتجاهل الشعور الجماهيرى والولاء الدينى لمقام الخلافة الاســـلامية فى قرارة شعوره وفى جذور عقيدته .

ولقد أساء بعض الكتاب تصور خطة مصطفى كامل نحو تركيا ، فزعموا انه كان من انصــــار السيادة العثمانية ، والحقيقة التى لا يشوبها الشك والتى ابانها فى كثير من خطبه ، أن تركيا بمقتضى معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ هى الدولة صاحبة الســيادة على مصر ، وقد

اعترفت الدول جميعها بهذه المعاهدة ، بينما لا توجد لدى الانجليز أى وثيقة شرعية تؤيد بقاءهم فيها ، فكان مصطفى كامل يدعو الانجليز وسائر الدول الى احترام هذه المعاهدة ، أضف الى هذا ان تركيا على الرغم من ضعفها وسوء أحوالها كانت تناوىء الانجليز فى مصر وتود جلاءهم عنهـا ، وهذا يزيد المصريين قوة فى مطالبتم بالاستقلال ، ثم أن سيادة تركيا على مصر كانت سيادة اسمية ، فلا تتدخل في شئونها الداخلية أو الخارجية منذ معاهدة سنة ١٨٤٠ ، وما قبلها ، وقد أشار مصطفى كامل الى هذه المعانى فى خطابه الى مدام جولييت آدم عن خطبته التى ألقاها بالآسكندرية فى يونيو سنة ١٨٩٧ .

« انك تعلمين خطتى نحو تركيا وما أراه واجبا نحوها، فقد أفصحت عن ذلك فى خطبتى واعترف كثير من أصدقائنا اليونانيين بأن من السياسة القومية لمصر أن تكون حسنة العلاقات مع تركيا ما دام الانجليز محتلين وطننا العزيز » وقد أقرته مدام جولييت آدم على هذه الخطة رغم أنها لم تكن تعطف على الأتراك لحبها لليونان .

ولما أثيرت المناقشة حول هذه الخطـة سنة ١٩٠٦ لمناسبة الخلاف الذى قام بين انجلترا وتركيا فى حادثة طابا أيد الفقيد موقف تركيا وأتهمه أنصار الاحتلال بأنه يبغى نقل مصر من الحكم الانجليزى الى الحكم العثمانى فرد عليهم فى عـدد اللواء الصادر فى ١٩٠٦/٥/٢ . مخاطبا اياهم :

أما دعواكم أن الوطنيين المصريين يريدون الانتقال من استبداد الى استعباد ، وأنهم انما يطلبون خروج الانجليز

من مصر ليدخلوا تحت حكم جديد ، فهى دعوى لا يقبلها أحد ولا يسلم بها أحد من العقلاء ، فاننا نطالب استقلال وطننا وحرية ديارنا ، ونتمسك بهذا المطلب الى آخر لحظة من حياتنا . وقال فى لواء ٦/١٠/١٩٠٦ ردا على جريدة (لانديبندنس بيلج) ان المحرر اخطأ كثيرا بقوله اننا نريد حرية مصر لاعادتها الى حكم الأتراك فقد صرحنا ألوف المرات بأننا نريد مصر للمصريين ، وبأن انعطافنا او نفورنا من دولة لا يؤثر شيئا على هذا المبدء الرئيسى لحياتنا وأفعالنا ، ولست أجد لافحام خصومى الا طرح هذا السؤال البسيط عليهم : ماذا يكون مصير البلاد المصرية لو تنازلت تركيا عن حقوقها لانجلترا أو تعاهدت معها على ذلك بمعاهدة شبيهة بالمعاهدة الفرنسية الانجليزية ؟ الا تصير ولاية انجليزية ؟ اذن فلماذا يندهش الكاتب من كوننا نجعل علاقتنا مع تركيا حسنة ، ونسعى لنيل الوسائل التى قد تفيدنا وتنفعنا ، واذا كانت الدول العظمى قد اتبعت الآن سياسة التحالف فمن ينكر على مصر المظلومة المهضومة اتباعها هذه الخطة ؟

وقال فى خطبته الكبرى فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ :

« فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال ونطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى صوتنا وعلى مسمع من أمم الأرض كلها ، واننا اذا أخلصنا الود لأمة أو لدولة فانما نعمل كغيرنا ونتبع ناموس الطبيعة القاضى بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناحرون ، واذا كانت انجلترا تسعى الآن للتقرب من الدولة العلية وتغير سياستها نحوها تغيرا محسوسا ، فمن الذى يلوم المصريين على أن يكونوا أقرب الناس من تركيا قولا وفعلا وأن يحافظوا على هذه الصلة ما استطاعوا » .

ونخلص من هذا أن الدعوة الصادقة الى الجلاء كانت تقتضي محاسنة تركيا وعدم مطالبتها وقتئذ بالفــــاء سيادتها على مصر ، وارجاء هذا المطلب حتى تنجو البلاد من العقبة الـــكؤود التي تحول دون اســتقلالها وهى الاحتلال ، ولو تحقق الجلاء فان الغاء السيادة العثمانية ليس بالمطلب العسير على السياسة المصرية .

وقد جارى رجال الحزب الوطنى فى ذلك مصطفى كامل من بعــده سنة ١٩١٩ بعــد أن وضعت الحــرب الكبرى الأولى أوزارها فقد جاء في تقريره الذى رفعه الى مؤتمر الصلح بعد انتهاء هذه الحرب ، والذى نشر فى ابريل سنة ١٩١٩ ما يأتى :

كان الحزب الوطنى يطلب احترام معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، ولم يكن ذلك عن رغبة منه فى الاســـتقلال المطلق ، أو كما يقول أنصار الاستعمار الانجليزى سعيا فى تغيير النير الانجليزى بسيادة تركيا ــ كلا ــ فان الحزب الوطني يتوخى الوسائل السليمة دون غيرها ، لذلك كانت سياسته الاحتفاظ بعضــد الدولة العثمانية وتذكير الدول بمعاهدتها الضامنة لمصر الاستقلال ولم نر منذ سنة ١٨٤٠ منها افتئاتا على استقلالنا الداخلى ــ لهذا كان من أسباب سكوتنا عن تركيا ، عدم شــعورنا بثقل سيادتها اما الآن فقد وصلت الأنسانية الى هــذه الدرجة من الرقى ، وقد جئنا امام محكمة عادلة تريد أن ترد الحقوق الى أربابها ، فان لنا ان نطلب كامل الحق ــ جلاء الانجليز حالا والاستقلال التام .

حادثة طابة

ظهرت فى سنة ١٩٠٦ حادثة سياسية هزت أعصاب الأمة ووضعت من جديد مسألة الاحتلال والجـــلاء على بساط البحث والمناقشة ، يعنى بها حادثة العقبة وتسمى أيضا حادثة (طابة) .

وبيانها أن تركيا اعتزمت فى تلك السنة مد ســكة حديدية من معان الى العقبة وهذه السكة تجعل لتركيا قوة جديدة على حدود مصر ، وتهدد مركز الاحتــلال الانجليزى فاهتم الانجليز لهذا الحادث ، وأرسلوا ضابطا كبيرا كلف باقامة مراكز عسكرية على طول الخط من العريش الى العقبة .

باعتبار انها من أملاك مصر اذ هى من طور سينا المعهود ادارتها الى مصر ، ولكن الجنود الاتراك احتلوا موقع (طابة) على بعد ثمانية أميال غربى العقبة وقام لذلك خلاف شديد بين انجلترا وتركيا . وظهـــرت انجلترا بمظهر الدولة الحامية لمصر ، اذ طالبت تركيا باسم مصر أن تجلو عن طابة ، وتهددت وتوعدت كما لو كانت مصر جزءا من أملاكها ، فكان هذا المظهر من علامات الحماية ، مما أثار سخط مصطفى كامل فاستنكر موقف انجلترا من هذه الحادثة ودعا الانجليز الى الجلاء عن مصر بدلا من التظاهر بالدفاع عن حقوقها ، وكانت تركيا تهدف بعملها هذا الى فتح المســـألة المصرية من جديد لاجبار انجلترا على الوفاء بعهدها فى الجلاء ، ومن هنا جاء عطف الأمة المصرية على موقفها فى هذه الحادثة . وقد كانت تركيا تتوقع أن تؤيدها بعض الدول الأوروبية فى فتح باب المسألة المصرية ، ولكن فرنسا كانت بحكم « الاتفاق

الودى » مؤيدة لانجلترا ، وطلب سفيرها فى الآستانة من الحكومة التركية الاذعان لمطالب انجلترا ، ووقفت روسيا موقفا يشبه موقف فرنسا ، ولزمت المانيا الجمود حيال هذا الخلاف ، مما جعل تركيا تتجه الى التراجع وانتهت الحادثة بانسحاب الترك من طابة فى مايو سنة ١٩٠٦ ، وتأليف لجنة مصرية تركية لتسوية مسألة الحدود على قاعدة معـــاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، وتلغراف ٨ ابريل سنة ١٩٨٢ المرسل الى الخديو عباس الثانى والذى خول مصر ادارة شبه جزيرة طور سينا ، وانتهت اللجنة من عملها فى أول أكتوبر سنة ١٩٠٦ ، اذ تم الاتفاق على الحدود الشرقية على أن تكون خطا ممتدا من رفح على البحر الأبيض المتوسط الى نقطـــة واقعة غربى العقبة بثلاثة أميال ، وبقيت طابة ضمن املاك مصر ، والعقبة من أملاك تركيا .

وقد جاءت حادثة العقبة دليلا ســـاطعا على كراهة الأمة للاحتلال وللحماية المقنعة التى انتحلتها انجلترا على مصر ، وبرهانا ســاطعا على تأثير المعانى الوطنية التى بثها الفقيد فى النفوس .

حادثة دنشواى

ان حادثة دنشواى من الأحداث التاريخية فى تاريخ مصر ، لما كان لها من الأثار البالغة فى تطـــور الحـــركة الوطنية ، وفى مركز الاحتلال الانجليزى . والحــادثة باختصار . ان خمسة من ضباط الاحتلال رغبوا يوم ١٣ يونيو سنة ١٩٠٦ فى صيد الحمــام فى بلدة دنشواى التابعة لنقطة بوليس الشهداء بمركز شبين الكوم . وأثناء

اطلاقهم بنادقهم على الحمام ان أصاب أحدهم امرأة كانت زوجة محمد عبد النبى المؤذن فى القرية . فسقطت المرأة جريحة ، تتخبط فى دمائهـــا ، واشتعلت النار فى الجرن ، فصاح أحد الفـــلاحين مستغيثا وهجم على الضابط الذى أطلق النار ، وتجاذب واياه بندقيته ، وأقبل الرجال والنساء والأطفـــال هائجين صـــائحين : الخواجة قتل المرأة ، وحرق الجرن ، وأحاطوا بالضابط وجاء بقية الضباط لانقاذ زميلهم فتكاثرت جموع الأهلين، ووصل فى نفس الوقت شيخ الخفر ومعه الخفراء لتفريق الجموع وانقاذ الضباط ، فتوهم هؤلاء أنهم جاءوا يريدون لهم شرا فأطلقوا عليهم العيارات النارية ، فأصاب أحدهم شيخ الخفر فى فخذه فسقط على الأرض وأصاب عيار آخر اثنين آخرين أحدهما من الخفراء ، فصاح الجميع « شيخ الخفر قتل » فحملوا على الضابط بالضرب بالطوب والعصى الغليظة واثخنوا من لحقوا بهم ضربا ، فأصيب أحد الضباط بكسر فى ذراعه ، وجرح الضابطان بجروح خفيفة ، وأحاط بهم الخفراء مع زميل رابع لهم وأخذوا منهم أسلحتهم ، وحجزوهم حتى جاء ملاحظ البوليس واوصلهم الى المعسكر .

أما الكابتن بول والطبيب البيطرى الانجليزى وهما من أعضاء فريق الصيد ، فتركا مكان الواقعة ، وكان الأول منهما قد أصيب اصابة شـــديدة فى رأسه . وأخذا يعدوان حتى قطعا نحو ثمانية كيلو مترات فى حمارة القيظ ، فلم يـكد الـكابتن بول يصـــل الى باب سوق « سرسنا » حتى سقط من الاعياء ، ومات بعد ذلك متأثرا من ضربة الشـمس ، ولمـا سـقط تركه زميله الطبيب البيطرى وأخذ يعدو حتى وصل معسكر الكتيبة بناحية

كمشوش على ضفة الترعة الباجورية . فأخطر الجنود الذين هرولوا الى مكان الواقعة ، ولم يكادوا يقطعون بضعة كيلو مترات حتى بلغوا « سرسنا » وظنوا أنهـــا دنشواى ، وهناك وجـدوا ضابطهم على الثرى ، ورأوا فلاحا هو « سيد أحمـد سعيد » يقدم اليه قـدحا من الماء ، فظنوه من الضاربين ، فأخذوا يطعنونه ويضربونه ببنادقهم حتى هشموا رأسه ومات بين أيديهم ، وذهب دمه هدرا ولم يحاكم أحد .

ثار الاحتلال لهذه الحادثة علما بأن المسئول الأول عنها هم الضباط الذين اقتحمـوا بدون حق غيطان الأهالى وأجرانهم لاصطياد الحمام المملوك لهم ، وذهب المستر ميتشل مستشار وزارة الداخلية الى مكان الحادثة يوم وقوعها ، وجرى التحقيق بمنتهى السرعة وأخـذ ولاة الأمور يقبضون على الأهالى جزافا ، وأعـدت المشانق وأرسلت لمكان الواقعة قبل أن ينتهى التحقيق ، وانعقدت المحكمة المخصوصة صباح ١٩٠٦/٦/٢٧ ، وقضت بأفظع أحكام وهى الاعدام شنقا على أربعة من المتهمين هم حسن على محفوظ ويوسف حسن سليم والسيد عيسى سالم ومحمـد دزويش زهران والأشـغال الشاقة على محمد عبد النبى وأحمد عبد العال محفوظ والسجن لمدة ١٥ سنة ، و ٧ سنوات على عدد آخر من المتهمين مع الجلد .

وقد قوبل هذا الحكم بالدهشة لصرامته ، ولأنه فاق كل ما كان يتوقعه المتشـائمون وخـلا من كل انصاف وعدل .

مصطفى كامل وحادثة دنشواى :

رغم انه كان وقتها في أوروبا للاستشفاء ، ونصح له الأطباء بالتزام الراحة والهدوء فانه لم يكد يصله أنباء المحاكمة حتى ثارت نفسه ، وتحرك قلبه الكبير الى العمل والجهاد ، ونهض بكل قوته لكى يسمع العالم صوت مصر ، ويعلنها حربا شعواء على الاحتلال وسياسته ، فكتب فى جريدة « الفيجارو » الفرنسية المشهورة فى عدد ١٩٠٩/٧/١١ مقالة كبيرة نشرت فى صدر الجريدة بعنوان (الى الأمة الانجليزية والعالم المتمدن) شرح فيها ظروف الحادث وعرضه على الضمير الانسانى فى العالم ، فكانت تلك المقالة من أبلغ واقوى ما كتب مصطفى كامل بلسان مصر ، وقد استطرد فيها الى جهاد المصريين فى سبيل الاستقلال وابان ان حادثة دنشواى قد قضت على مزاعم اللورد كرومر فيما كان يذيعه ، من ان الفلاحين المصريين محبون للاحتلال الانجليزى .

وأحدثت المقالة فى أوروبا دويا عظيما ، وتناقلتها جميع الصحف العالمية فى مختلف البلدان ، وكان لبلاغتها وعباراتها المؤثرة ، وصدورها من زعيم الحركة الوطنية ، والتعليق عليها فى معظم الصحف الأوروبية والبريطانية ، صدى بعيد فى الرأى العام الأوروبى والانجليزى ، وتزلزل بعدها مركز اللورد كرومر فى مصر وانجلترا ، ونصحت جريدة « التربيون » الانجليزية بوجوب منح مصر حكومة مستقلة . والغريب أنه لم يحتج واحد من المصريين المسئولين فى مصر على هذا الحكم الفظيع ولم يستقل وزير من الوزارة المصرية اظهارا لإستيائه وشعوره .

وهذا يدل على مدى ما وصلت اليه البـــــلاد من استكانة ، وانبرى مصطفى كامل وحده عن الأمة المصرية جمعاء يعرض قضية بلده المظلوم على محكمة العــــالم أجمع . وقد نجح فى هذه المهمة أبلغ نجاح .

وكان من نتائج استغلال مصطفى كامل فظاعة هــذا الحادث وللتنديد بمساوىء الاحتلال الانجليزى آن أثير الجـــــدل بسبب حادثة دنشـــواى فى مجلس العموم البريطانى ، وعدل رجال الاحتلال بعدها من سياستهم المتعسفة نحو مصر وأجبر اللورد كرومر على الاستقالة عقب هذه الحادثة وهى نهاية عهد كان الاحتلال يتمتع فيه بالاستقرار والطمأنينة ، وبداية مرحلة جديدة من مراحل الجهاد القومى ، عم فيها الشعور الوطنى بعد ان كان الظن أن سواد الأمة راضية عن الاحتلال .

ومما يذكر فى صدد حادثة دنشواى ان الكاتب العالمى (جورج برنارد شو) كتب عن هذه الحادثة فصلا من ستة عشر صفحة فى مقــــدمة كتاب (جزيرة جون بول ، الأخرى) ولم يكتب أحد فى قضية دنشواى من الأجانب ما يضارعه فى صدق العاطفة والدفاع ومضاء الحجة ، وشدة الغيرة على المظلومين فى هذا الحادث المشئوم ، حتى لقد قرن (شو) فى انجلترا باسم دنشواى ومما قاله فى تلك المقدمة :

« ان الفلاحين لم يتصرفوا فى هذا الحـــادث غــير التصرف الذى كان منتظرا من جمهرة الفلاحين الانجليز ، لو أنهم أصيبوا بمثل مصابهم فى المال والحرمات ، وان ، الضباط لم يكونوا فى الخدمة يوم وقوع الحادث بل كانوا لاعبين عابثين ، وأساءوا اللعب وأساءوا المعـــاملة وان

الفلاح الانجليزى ربما احتمل عبثا كهذا لأنه على ثقة من التعويض ولكن القرويين لم تكن لهم هذه الثقة فى التعويض ولا بالانصاف ، وان أحد المشنوقين كان شيخا فى الستين ، يبدو من الضعف كابن السبعين ، فلو لم يشنق لجاز أن يموت فى السجن قبل انقضاء خمس سنوات .

ثم أجمل فى الحادثة وقائع المحاكمة ، وأقوال الشهود وما جوزى به بعضهم على الصراحة فى أداء الشهادة وأشبع اللورد كرومر ووكيله (مستر فندلى) تقريعا وسخرية على ما كتباه فى القضية الى وزير الخارجية ومنه قول (فندلى) فى تسويغ عقوبة الجلد بمصر (ان المصريين قدريون لا يهمهم الموت ، كما تهمهم العقوبة البدنية) ، فكان تعقيب (شو) على هذا التعليل العجيب، ان العجب اذن فى أمر الأربعة المشنوقين اليسوا من المصريين ..

***

الموال الشعبى القديم عن حادثة دنشواى والذى يحفظه أهلها :

شوفو الانجليز جم بحرى دنشواى واعتدم
اللى انشنق مات واللى فضل جلدم
ياما أصعبه يوم نهار زهران ووقفاته

**

ياما بكت أمه وعياله واخواته
وكان له أخ فى الجهاديه نهار شنقاته ما فاته

**

ربنا خلق لنا مصطفى كامل والرب كامل

يشهد ما بين الانجليز وما بين رب العباد كامل

**

وخلق لنـــا حسين باشـــا البرنس
يقـول غـير المسيسة وكـلام الحق متقلش

**

فلمـا جـه السـبع ما اسـتناش
سـافر بلاد الانجليز لم خل ولا بقـاش

**

أهم زقـوه مات ياخسارة يامصطفى ولا بقاش

**

طلب مكافأة لصـاحب الدم دفعـوله
الطبل والمزازيك غايم اربعـين يوم يبركوله

**

أحمـد بك اللئيم بده يحـاربنه
وشهد معـاهم لاجل القـرش والمـال
(احمـد بك حبيب مدير المنوفية)

**

يارب تخرب بيوت الانجليز والعـدا الـكل
بحق دعـوة نبينـا مصطفى الرسـل

مواقف في حياة مصطفى كامل :

١ ـ موقفه من الخديو عباس حلمى الثانى :

كانت الظروف التى تولى فيها عباس حلمى الثانى الحكم ظروفا دقيقة . فقد دعى من فيينا لتولي الحكم في مصر في الثامنة عشرة من عمره فى شهر يناير سنة

١٨٩٢ والاحتلال قد أرسى قواعده فى البـــلاد وتمكن الانجليز من وضع أيديهم على كل شىء ولكن عباسا كان وطنيا . لقن مبادىء الاستقلال والشعور بالوطنية ، وقد عزم على استرداد حقوق بلاده ولا غرو فى ذلك فقد كان ناقما على جده اسماعيل اسرافه وعلى أبيه توفيق استسلامه . وشعر ان شباب الأمة يبادله هذا الشعور .

وفى ذلك الوقت كانت فرنسا تشـــعر بخطئها فى سياستها الماضية التى آلت الى ضعف نفوذها فى مصر فأخذت تبحث عن طريق لاسترداد بعض ما فقدت فرأت أن يكون من هذه السبل الالتفاف حول عباس ، وتركيا كذلك تأسف كل الأسف وتتجه هذا الاتجاه — وكل هؤلاء وهؤلاء يطالبون بالوفاء بوعد الانجليز بالجلاء .

والحـكومة الانجليزية تلوح من طرف خفى للخـديو ان يتبع سياسة والده فى مسالمتهم .

وأخذ الخديو عباس يتصل بالشعب ويقوى نفوذه عن طريق الرحلات الى المديريات ومقابلة الأعيان وزيارة المعاهد والمدارس كمـا أخذ يميل الى مباشرة الأعمـال بنفسه والاتصال بالمديرين وكبـــار الموظفين وتكليفه المختصين كتابة التقارير عن حالة التعليم والجيش ونحو ذلك .

عند ذلك بدأت تظهر فى البلاد تيارات مختلفة وبدأت توضع بذور الأحزاب المختلفـــة وبدأت تتجلى بوضوح اتجاهات الصحف .

هذه تؤيد الحركة الوطنية وتناصر الميول الخـديوية وهذه تؤيد السياسة الانجليزية اما رغبة فى الاستفادة واما عن عقيدة أيضا .

وقد وجد الخديو عباس في مصطفى كامل الزعيم الوطني الشاب الذي استطاع على حداثة سنه أن يحمل علم الجهاد فأعجب بهذه الشخصية الفذة . اذ وافقت ميوله وآماله في بداية حكمه . فأمدها بالمال والتأييد وقتا ما . ومن هنا توثقت روابط الود والتعاون بينهما .

ساهم اذن الخديو في الحركة الوطنية وقتا بماله ونفوذه الأدبي على أن العلاقة بينه وبين مصطفى كامل قد اعتراها الفتور بعد ذلك وانتهت الى مقاطعة مصطفى كان الخديو بسبب عدم ثباته على خطة واحدة واستماعه الى الوشايات والدسائس وكانت هذه الخطوة من مصطفى كامل تدل على شجاعة وقوة وعزيمة وطنية قوية وزعيم قد آلى على نفسه الاحتفاظ بكرامة الزعامة الوطنية والاخلاص القوى للقضية الوطنية . ولذلك احتفظ مصطفى كامل باستقلاله وعلو نفسه تجاه الخديو ورأى في استقلال الحركة الوطنية عنه ما يزيدها قوة وروعة ، كتب في هذا الصدد الى صديقه وزميله في الجهاد محمد بك فريد ضمن كتاب له بتاريخ ٥ أغسطس سنة ١٨٩٨ يقول :

باريس في ٥ أغسطس سنة ١٨٩٨ .

أخي الأمجد فريد بك أعزه الله .

أقبلك ألف قبلة وأهديك أطيب تحية . وصلني بالأمس خطابك الكريم كما وصلني اليوم الجمعة الماضية ما طلبته منك . فلك الشكر مزدوجا ، شرف العزيز وسافر وتشرفت بمقابلته جملة مرات ـ هذا الخبر لك وحدك ـ وعلمت منه أمورا جمة سرتني للغاية وشرحت صدري وحققت لي أن الأمل ملء فؤاده وان ليس لليأس

عليه سلطان وسأقابله مرة أخرى فى الشهر الآتى وقد قابل هنا وهناك كل ذى شأن وكل عظيم . واستمال من لا يستمال . فله منا الود والاخلاص والحب الحقيقى. وانه لجدير بأن نتفانى فى محبته ولم أكلفه مدة وجوده ولم أطلب منه شيئا ولو ان سفرى لألمانيا سيكلفنى كثيرا وكثيرا . وذلك لأنى لا أود أن أجعله يرتاب فى اخلاصى الخالص له وسأبذل جهدى بعد عودتى للوطن المحبوب فى أن أكون مستقلا غاية الاستقلال لتزداد عنده مكانة ونفوذا » .

ويلقى هذا الخطاب ضوءا ساطعا على علاقة مصطفى كامل بالخديو ويدل على اخلاصه وابائه وعلو نفسه ، وذلك فى الفترة التى كان الخديو فيها مؤيدا للحركة الوطنية !!

وقد فترت صلة الخديو بالحركة الوطنية وتزعزعت ثقته فيها بعد حادثة فاشودة ، وضعف أمله فى الجلاء فتقرب الى الانجليز ومالأهم . وأخذ يتحبب اليهم والنزول على رغباتهم فبعدت الشقة تبعا لذلك بينه وبين الزعيم مصطفى كامل . ومع ذلك فرأى رحمه الله بثاقب نظره على أن لا يقع الانقسام بين الأمة وبين الخديو فيستفيد الاحتلال من هذا الانقسام كما استفاد الاحتلال سابقا من الخلاف الذى شجر بين توفيق والعرابيين لذلك كان يعمل دائما على ايجاد جو من التفاهم بين الخديو والأمة .

قطع علاقته بالخديو :

ثم جاء الاتفاق بين انجلترا وفرنسا فى ابريل سنة ١٩٠٤ وظهر انحياز الخديو بشكل واضح الى الاحتلال

فرأى أن يقطع علاقته به ، وأعلن المقاطعة فى عدد اللواء الصادر فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٠٤ ، وانه أعتزم الابتعاد عنه حتى لا يظن أحد ان عليه شيئا من المسئولية فى جهاده السياسى ، قال فى هذا الصدد :

« ان المخلص فى عمله يجب أن يؤدى الواجب عليه ، ولو ضحى فى سبيله مصلحته الذاتية وأعز ما تميل اليه نفسه .. ثم قال :

« وانى لا أشك فى أن كل قارىء بل كل مصرى عرف خطتى وخبر مبادئى ، يدرك حقيقة مسعاى ومقصدى ويعلم انى لا أطلب بذلك الا خدمة البلاد وعرش الخديوية بالثبات الذى لا تتغلب عليه الأيام والعقيدة الراسخة التى قد تحول الجبال وهى لا تتحول » .

وقال فى حديث له الى جريدة (البول مول جازيت الانجليزية) فى ديسمبر سنة ١٩٠٦ ونشر هذا الحديث فى جريدة اللواء فى عددها الصادر فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٠٦ « لما رأيت رغبة سموه فى توطيد الصلات الحسنة بينه وبين ملك الانجليز وحكومته وجدت من واجباتى أن أكون بعيداً عن سموه » .

وقد أرسل عقب عودته من أوروبا سنة ١٩٠٤ الكتاب الآتى الى الخديو يصارحه فيه بموقفه حياله قال :[1]

« مولاى ..

تشرفت فى ديفون بالمثول بين يدى سموكم يوم ٢٧ اغسطس الماضى سنة ١٩٠٤ ورفعت الى مقامكم السامى ان الحالة السياسية الحاضرة تقضى على بأن أكون بعيدا عن فخامتكم وأن أتحمل وحدى مسئولية الخطة التى

اتبعها نحو الاحتلال والمحتلين . منعـا لتـكدير خاطركم الشريف . ودفعا لما عساه يقع من الخلاف والنزاع .

« وقد رأيت يا مولاى بعد التفكير انه صار من المحتم على القيام بهذا الواجب وانه أول عمل يلزمنى تأديته عقب عودتى الى الوطن العزيز لأن الانجليز أظهروا فى خلال السنوات الأخيرة من التضييق على جنـابكم العالى ما يجعل وجود رجل ينتقد سياستهم فى الصباح والمساء بجانب سموكم ، داعيا لاعتدائهم على حقوق ذاتكم السنية وحجة لتدخل جديد غير محمود .

وانى بعد أن رأيت احتجاجهم على جنابـكم الرفيع بمناسبة المقابلة التى تفضلت جلالة ملكة البرتغال بمنحى اياها ، ومعارضتهم العنيفة لفخامتكم بسبب الاستقبال الودى الذى نالته مدام جولييت آدم من لدنكم ، وتصريحكم بأن الانجليز لا تسمح لجنابكم العلى باكرام من يعاديها ، وادعاءهم بأن كل ما يكتب أو يقال ضدهم موعز به من سموكم ...

وانى أرجو أن يعتقد مولاى حفظه الله انى لم أقصد الا محض خدمته بما قلته لسموه بشأن أولئـك المفسدين الذين يلصقون بالمعية ويضرون بهـــا أكثر من أعضائها الظاهرين ...

الى ان قال : « وانه ليحلو لى ان أبقى الى آخر لحظة من حياتى خادما لتلك المبادىء الوطنية العالية التى كنتم سموكم أول الداعين والمنادين بها . وان تزداد كل يوم اتساعا الهوة التى بينى وبين الذين ادعوا خدمة الوطن ليخدموا مصالحهم ثم انقلبوا عليه بلا خجل ولا حياء .

مصر فى ١٩٠٤/١٠/٢٤ مصطفى كامل

ويعد هذا الخطاب من أخلد صفحات الاخـلاص فى الجهاد . وفى ذلك الوقت بعد ما تغلغل الاحتـلال فى السيطرة على جميع مرافق البـــلاد ، يحتــاج الزعيم لشجاعة فائقة لكى يجابه حاكم البلاد المؤيد بقوة الاحتلال بالمقاطعة والتحول عنه . ومجاهرة مصطفى كامل الخديو وهو وقتئذ سيد البــــلاد الشرعى بقطع علاقته به . ومقاومة الاحتلال وهو فى أوج ســـلطانه . كل أولئك يقتضى حظا كبيرا من الجراة والاستقلال . ولا يقدم عليه الا من تغلبت فيه الشجاعة والوطنية على كل اعتبـــار للمصلحة الشخصية .

وقد ظهر استقلال مصطفى عن الخديو ، فى نقـده تصرفاته على صفحات اللواء ومن ذلك نقده اياه لاحالته حسن باشا عاصم رئيس الديوان الخديوى على المعاش ، لأن الاحالة لم تكن قـانونية وقـد أحاله بسبب موقفه المشرف فى الحادثة المعروفة بحادثة مشتهر وخلاصتها ان أحد الماليين اليونانيين الذين لهم صلة بالخديو (وهو المسيو زرفوداكى) عرض على ديوان الأوقاف أخذ أطيان له بالجيزة مقابل تفتيش مشتهر التابع للأوقاف الذى كان اتفق مع الخاصة الخديوية على شرائه ، ولما عرضت الصفقة على مجلس الأوقاف الأعلى ، ولما كان حسن باشا عاصم من أعضائه فقد رفض اقرار هذه الصفقة لأنها تنافى المصلحة العامة رغم انها كانت فى مصلحة الخـديو ، فكان موقفه وهو رئيس الديوان الخـديوى دليلا على استقلاله ونزاهته (نشر هذا فى عدد اللواء الصادر فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٠٤) وكان انتقاد مصطفى كامل احالته على المعاش تحديا للخديو ومغالنته بالعداء .

وانتقده أيضا لوقوفه تحت العلم البريطانى فى حفلة

استعراض الجيش الانجليزى بميدان عابدين فى نوفمبر سنة ١٩٠٤ ولم يكن يحضرها من قبل .

وانتقد انصرافه الى مصالحه الخاصة وعدم اهتمامه لشئون البلاد فى مقالة له فى عدد اللواء الصادر فى ١٩٠٤/٤/١٠ .

ومنذ يوم ٢٧ أغسطس سنة ١٩٠٤ وهى آخر مقابلة له بالخديو . انقطعت علاقته به نهائيا وكان اقدامه على هذه الخطوة الحاسمة مما زاده منزلة ورفعة ، اذ ظهر استقلال الحركة الوطنية عن الخديو وعدم تأثرها به مطلقا . ولما أصدر مصطفى كامل جريدتى لتندار اجبسيان الفرنسية ، ذى اجبشيان استاندرد الانجليزية فى أوائل سنة ١٩٠٧ حنقت الصحف الانجليزية من ظهورهما واتهمت الخديو بالمساهمة فى رأس مالها فنشر الزعيم (ردا على هذه المفتريات) أسماء المساهمين فى رأس مال الجريدتين ومقدار اكتتاب كل منهم . فكان هذا الاعلان قاطعا فى اثبات عدم وجود أية علاقة للخديو بظهور الجريدتين وعدم صلته بهما .

ولما استقال اللورد كرومر فى ابريل سنة ١٩٠٧ وخلفه السير الدون غورست اشتد تقرب الخديو للانجليز وظهر هذا التقرب فى حديث له نشر فى جريدة الديلى تلجراف فى مايو ١٩٠٧ اذ نفى عن نفسه تهمة العمل ضد الاحتلال وذكر اللورد كرومر بالخير وصرح بأن المعتمد البريطانى لا يستطيع حكم مصر وحده . وانه مستعد للتعاون معه . وانه لا فائدة للمصريين من استبدال احتلال باحتلال وان الاحتلال البريطانى أفضل من أى احتلال آخر ، فانتقد الزعيم هذا التصريح انتقادا حازما . رغم صدوره من الرئيس الأعلى للدولة ، قال فى هذا الصدد :

« مما يجب علينـــا اعلانه والجهر به أمام الملأ كله ان تصريحات الجناب العالى لا تفيدنا بأى حال من الأحوال ، لأن مركز سموه غير مركزنا على أن كل مصرى صــادق الوطنية لا يقبل مطلقا أن يكون حكم مصر بيد سمو الخديو بمفرده . أو بيد المعتمد البريطانى أو بيد الاثنين معا بل يطلب أن يكون حكم هذا الوطن العزيز بيد النابغين والصادقين من أبنـــــائه . وأن تكون نظامات الحكومة دستورية ونيابية » نشر هذا الحديث فى عدد اللواء الصادر فى ٢٦ مايو سنة ١٩٠٧ وقال فى موضع آخر :

« قد قلنا مرارا أن سمو الأمير بعيد عن الحركة الوطنية وان المجاهدين مستقلون عن سموه كل الاستقلال . فهو ان قال كلمة فى صالح الحـــركة الوطنية خدم نفسه وعرضه واستمال أمته اليه . وان عمل ضدها أضر بنفسه وبعرشه ونفر أمته منه .. » .

وقال فى موضع آخر :

« لقد اتهموا الحزب الوطنى تارة أنه موحى اليه من الدولة العلية . وطورا من ألمانيا وتارة من سمو الخديو وقد سقطت التهمتان الأوليان من قبل . وهــذه الثالثة قد سقطت الآن معها فحان الأوان أن نهيىء أنفسنا » .

وكتب من (نيو هوزن) فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٠٧ الى صديقة المرحوم محمد فريد بك كتابا يدل فيه على مبلغ استيائه من خطة الخديو وتجنيبه الابتعاد عنه قال :

نيوهوزن فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٠٧ .

الف قبلة وألف سلام وبعـد فقد حظيت باستلام خطابك العزيز المؤرخ ١٥ الشهر الجـــارى . وسأقرأ مقالتك فى القطار بامعان لأنى مسافر الآن الى باريس .

أرجوك عدم تفخيم الخديو فى كتاباتك فقد علمت عنه ما لا يسر ولابد أن تضره السياسة ذات الوجهين ضررا كبيرا وكلما كان عمل الوطنيين بعيدا عنه كان الفلاح محققا » .

ولقد أثار بعض الكتاب المعاصرين بأن مصطفى كامل كان مخدوعا بالخديو ، وانه كان يعمل لمصلحة طاغية من طغاة أسرة محمد على ، كان يستخدمه كوسيلة لمحاربة الانجليز لأنهم حدوا من نفوذه حتى اذا ما جلا الانجليز عن البلاد انفرد بالحكم والسيطرة على الشعب سيطرة غاشمة ، ولكن هذا الرأى مردود ، لأن واقع الحال لا يؤيده .

حقيقة كان عباس حلمى يفذى مصطفى كامل بنفوذه المادى والأدبى فى أول الحركة ، ويؤيده ليتزعم فريقا من المصريين يسعى حثيثا لطرد الانجليز وتخليص البلاد من احتلالهم . وكان من الحكمة أن يتعاون مصطفى كامل مع الخديو ضد العدو المشترك للبلاد ، ويعلن ولاءه له على رءوس الاشهاد ، ولكن مصطفى كامل لم يكن جاهلا أو غبيا بل كان كتلة من الذكاء والمضاء والعبقرية ، وهو يعرف الخديو معرفة حقة ، ولذلك لم يتوان مصطفى كامل رغم وجود الانجليز بمطالبة الخديو بالدستور . والدستور هو قانون الدولة الشامل الضامن لحقوق أفرادها ، المحدد لسلطات حكامها ، الحريص على اعطاء الشعب حقوقه الديمقراطية الكاملة . واذا كان هذا الفريق من الكتاب بعد أكثر من نصف قرن من دعوة مصطفى كامل يتهمونه هذا الاتهام جزافا ، فلماذا لا نفترض بل ونجزم ان مصطفى كامل كان يخدع الخديو لضمان تأييده للحركة الوطنية ، حتى اذا ما خلصت

البلاد من العدو الأكبر وهو الانجليز ، طالب الخديو بحقوق الشعب ، وأوقفه عند حده ، والزمه الخضوع للدستور وسعى الى الحد من طغيانه وتحديد اختصاصاته وتطبيق المثل الدستورى المعروف أن الملك فى الحكم الدستورى يملك ولا يحكم ، حيث ان الديمقراطية التى نادى بها مصطفى كامل ، والدستور الذى أعلن على رءوس الاشهاد المطالبة به ، كان فى صميمه الاعتراف بمبدأ فصل السلطات . وهى السلطة التشريعية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية . وان السلطة التشريعية هى لممثلى الشعب المنتخبين ، وانهم هم المسئولون فى التشريع والحكم وتوجيه السلطة التنفيذية .

ان مصطفى كامل فى تعاونه مع الخديو كان يقوم بالاجراء المنطقى الذى درسه على زعماء الثورة العرابية الذين نصحوه بالتفاهم مع الخديوى لأبعد مدى ، حتى يسد ثغرة يمكن أن ينفذ منها الانجليز لضرب الحركة الوطنية كما فعلوا أثناء الثورة العرابية اذ أثاروا الخديو على عرابى وأثاروا السلطان خليفة المسلمين على عرابى باعتباره خائنا ومارقا على طاعة أمير المؤمنين .

ولما وجد مصطفى كامل ان عباس حلمى قد تنكر لمبادئه ، وترامى فى أحضان الانجليز بعد الاتفاق الودى سنة ١٩٠٤ ، وعلم أن لا أمل منه ، وانه سيحارب الحركة الوطنية قاطعه بكل شجاعة وثبات ، وأعلن هذه المقاطعة على الملأ ، دون خوف من وعيد أو تهديد ، بل أكثر من هذا ، كان معرضا للقتل ، بعد تعاون الخديو الحاكم الشرعى مع انجلترا الحاكم المستعمر المغتصب .. ؟؟

وفى الخطابات السرية الخاصة التى كتبها مصطفى

كامل لمحمد فريد ، كان نقده لاذعا لتصرفات عباس حلمى المشينة فى أوروبا ، فقد ذكر فى أحد هذه الخطابات ، أن الصحفية الفرنسية الكبيرة مدام جولييت آدم أقامت تكريما للخديو عباس بمناسبة وجوده بباريس ، حفلة شاى فخمة فى دارها بالاتفاق مع مصطفى كامل والاستفادة من وجوده فى هذه اللحظة ، واستغلال حضوره ، للدعاية للقضية الوطنية ، وجمع المؤيدين من رجال الرأى فى فرنسا ، لتأييد الجلاء والدعاية له ، فما كان من عباس حلمى الا أن تنكر لهذه الدعوة ، رغم وعده بالحضور ، وأخذه علما مسبقا بها ، وفضل أن يقضى وقته عابثا مع احدى عشيقاته الفرنسيات عن الحضور لحفلة تخدم قضية الوطن ، وقد علق مصطفى كامل تعليقا ساخرا بهذا التصرف المزرى من شخص كبير مسئول ، كان الظن به ، أن يحقق ظن البلاد فيه ، ويستفيد من كل فرصة فى سبيل خدمة بلاده ، كما كان الموقف مخذلا لمصطفى كامل ، خاصة أمام صديقته الكاتبة العظيمة ، التى نظمت هذه الحفلة تقديرا منها لقضية لمصر ولصديقها الوطنى الشاب ، المتقد حمية لانقاذ بلاده .

من هذا نرى بأن مصطفى كامل لم يأل جهدا فى سبيل الاستفادة من كل وسيلة ومن كل شخصية تنفع القضية الوطنية ، وانه لم يخدع من عباس حلمى ، ولم يؤخذ به ، واستفاد بمعاونته حين كانت وجهته وطنية سليمة ، ولكنه حين انحرف بمعاهدة رجال الاحتلال الانجليزى قاطعه مقاطعة سافرة واضحة ، وأشهد الوطن والعالم بأسره بأنه لن يحيد عن جهاده مهما حدث من خطوب وانه سيوالى الجهاد حتى آخر نسمة من حياته .

ومع ذلك فقد اعترف عباس حلمى فى مذكراته التى نشرتها جريدة المصرى فى ١٩٥١/٥/١٨ بفضل مصطفى كامل وينفى أن يكون عميلا أو أجيرا له فيقول :

« ليس هناك ما هو أشد بعدا عن الحقيقة من هذا الذى قيل ، ان مصطفى كامل لا ينتمى الا الى نفسه .

ثم يقول أيضا :

« كان مصطفى كامل أول من نشر الفكرة الوطنية بين الشباب المصرى الذين كانوا يتلقون دروسهم فى أوروبا وهو الذى أيقظ الروح المصرية من سباتها ، وضم الى عقيدته وحزبه السواد الأكبر من الموظفين وكثيرا من الأعيان والمثقفين وجميع الطلاب والعمال . وكان مترفعا عن الدنايا ولم يتاجر فى السياسة ، كان بسيطا ومستقيما . كان يخفى فى مظهره الساكن روحا تواقة الى جلائل الأعمال ، وقلبا مليئا بمختلف مشاعر الدعة والطيبة ، لقد وهبه الله ميزة المنطق والجدال ، كان فصيح اللسان ، وكانت جمله سلسة قوية ، وكان يتقن فن الاقناع فى جاذبية سحرية .

كان حبه لوطنه ينبعث من حماس شديد ، دون أن يجعله يفقد اتزان العقل .. الى أن قال : كان صوته يدوى الى ما وراء النيل ، لقد عقد صداقات متينة فى أوروبا ولا سيما فى فرنسا وابتدأ صوته يسمع فى انجلترا فى أواخر حياته ، وكان رجلا نافعا حقا لوطنه . كانت جنازته فخمة اذ شيعتها مصر بأجمعها ، وجاء من القرى النائية آلاف مؤلفة من أنصاره لتشييعه الى مقره الأخير .. كانت روحه مصدر ايحاء للشعب الذى ورث مثله العليا » .

اللــــــواء والجـريـيـدة
فى ســاحة الجهـاد الوطنى

التفت الجماهير العطشى لمناهل الوطنية حول رائدها الزعيم الشاب مصطفى كامل ، تروى صداها من ورده السائغ ، ونبعه العذب ، وتزحف صفوفها وتزأر حوله ، معلنة العزم على الجهاد والفداء لاستخلاص حق الوطن المقدس .

ولكن فريقــــا من المواطنين لم يرضهم هذا الاندفاع الحماسى الجماهيرى ، وخشوا مغبته أو عاقبته ــ وسواء كانوا فى ظنونهم على خطأ أو صواب ــ أو غاب عن ظنهم وادراكهم غاية حــــركة مصطفى كامل أو التبس الأمر عليهم ، فيما اذا كان مصطفى كامل يستخدم ولاءه للخلافة العثمانية لغاية واحدة هى انهاء الإحتلال أو شىء آخر بعد ذلك .. واعتقدوا أن الاحتلال قد ينتهى ويواجهون من جديد نوعا من الحكم التركى ، واستبدادا أشنع من استبداد الخديو ، ولذلك جمعــــوا جموعهم وأنشأوا « حزب الأمة » فى سبتمبر سنة ١٩٠٧ برئاسة محمود سليمان باشا وعضوية حسن عبد الرازق وعلى شعراوى ولطفى السيد ومحمد محمود وعمر سلطان وأحمد حجازى وغيرهم .

وتألفت شركة لانشاء « الجريدة » كان من الشركاء

فيها عدا من ذكرنا أحمد فتحى زغلول رئيس محكمة مصر حينئذ وأحمد عفيفى المستشار بالاستئناف وعبد الخالق ثروت .

وأكثر هؤلاء هم الذين كانوا فيما بعد نواة « حزب الأحرار الدستوريين » الذى ألف على أثر اعلان تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ .

والملاحظ على حزب الأمة انه جمع كبـــــار الملاك والاقطاعيين ورجال الطبقة الرأسمالية وطائفة من المثقفين الذين تأثروا بالثقافة الغربية أكثر من تأثرهم بالثقـــافة الاسلامية ، وهذا العنصر كان قليلا حينذاك فى مصر كما أن نوع تفكيره كان جديدا على البيئة المصرية لذلك لم يلق استجابة من الأغلبية الشعبية حينئذ .

وأعلن حزب الأمة برنامجه فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٠٧، ولنستشف اتجاهاته وآرائه فى هذا الباب مما ورد فى « الجريدة » لسان حاله . لنرى الى أى مدى اختلفت مبادىء الجـــريدة عن مبـــادىء اللواء لسان حال الحزب الوطنى .

كانت الجريدة تطالب بالدستور والاستقلال ، وهى فى هذا الهدف تتفق مع الحزب الوطنى ، وهو اتفـــاق طبيعى ، فحزب الأمة يريد الدستور ضمانا لعدم قيـــام الاستبداد الفردى ، واعتمادا على ما لأعضائه من نفوذ فى قراهم ودوائرهم ، قد يكسب لهم التأييد فى الانتخابات .

ثم ان الحزب جمع صـــفوة ممن تلقـــوا ثقافة غربية وفرنسية على الأخص ــ فهم من هذه الناحية متشبعون نظم الحكم الحديثة المعروفة فى العالم المتحضر حينئذ ، رغما عن عدم تأكدهم من صلاحية النظم حين تطبيقها ،

وهى الدستور والنظام البرلمانى ، أما الحزب الوطنى فهو يريد الدستور لأنه يمثل القوى الشعبية الغالبة .

وكان كلا من الحزبين « الأمة والحزب الوطنى » يطالب بالاستقلال الا أن مفهوم الكلمة عند الحـــزبين يختلف اختلافا بينا ، فهو عند حزب الأمة الاستقلال السياسى القـــائم على تـــكوين الأمة المضرية كشعب له مقـــوماته وتاريخه ومثله وتقاليده الخاصة دون اعتماد على فـــكرة دينية أو تبعية للخلافة أو ما عداها ، بينما كان الحزب الوطنى (حسب ظنهم) يربط بين الاستقلال وبين التشيع لدولة الخلافة ، ويلون كلامه وبحثه فى شئون الدستور والحـــــكم ومستقبل الوطن المصرى بالمثل والأفـــكار والاتجاهات الاسلامية ــ وهذا لا يضير الحزب الوطنى طبعا .. لأن مبادىء الدين الاسلامى الحنيف حقيقة فى بؤرة الشعور المصرى .

ومن هذا الاختلاف فى وجهات النظر ، نشأت خلافات أخرى كثيرة منها أن الحزب الوطنى كان يدعو الى الجامعة الاسلامية وكان حزب الأمة يدعو الى الاستقلال المصرى ، وكان الحزب الوطنى يدعو الى معاونة الدولة العثمانية والأعتماد عليها ، بينما كان حزب الأمة يدعو أولا وقبل كل شىء الى الاهتمام بالمشاكل المصرية وعـــدم الاعتماد على أحد فى الحصول على الاســـــــتقلال سوى جهـــد الأمة واستعدادها للبذل والتضحية .

ومن هنا يستبين لنا الخطأ الجسيم فى فهم الخطـــة السياسية التى خطها مصطفى كامل ، فقد قصد رحمه الله الاستعانة بالخلافة العثمانية وسيلة لا غاية ، بينما فهم رجال حزب الأمة ــ خطأ أم صواب ــ أن ــ الوسيلة غاية ، وأن مصطفى كامل لا يستعين بالخلافة العثمانية

فحسب بل سيؤدى فى النهاية الى وقوع البلاد مرة أخرى فى أحضان الاحتلال العثمانى بعد خلاصها من الاحتلال البريطـــــانى .. !! ؟؟ والملاحظ أيضـا أن « الجريدة » لم تكن قاسية الوطأة فى محاربة الاحتلال على نحو ما كانت جريدة « اللواء » لسان الحزب الوطنى، وليس معنى ذلك انها كانت راضية عن كل تصرفاته أو مؤيدة له .

ولم تكن « الجريدة » بكتاباتها وآرائها والقارئين لهـا أثيرة لدى جماهير الشعب بل كانت على النقيض من ذلك، مكروهة بغيضة هدفا لكل اتهـام ونقيصة وانحراف ، أيسرها انها تمالىء المحتل وانها تكفر بالدين .

وكانت جمهرة الشعب تظـــاهر جريدة « اللواء » ومحررها مصطفى كامل وتتحمس له تحمسا بالغا .

ثم جاءت حادثة دنشواى سنة ١٩٠٦ لطخة عار فى جبين الاحتلال ووقائعها معروفة ، ووجد مصطفى كامل فيها فرصة فريدة ، فشنها حربا قاسية على الاحتلال .

وأثمرت صيحته العـــالية ، وصرخته المدوية ، على ضراوة ما كان الاســتعمار حينئـــذ فى مصر وغيرها ، واضطرت انجـــلترا ازاء موجة الاستياء التى عمت فى انحـاء العالم المتحضر ، أن تخلع حاكمهـــا المتغطرس اللورد كرومر من منصبه على الرغم من النجاح الكبير الذى سجله فى مصر من وجهة النظر الاستعمارية وكان رحيل كرومر عن مصر منـــاسبة لقيـــام جدل عنيف بين القوى المتصـــارعة على المسرح حينئـــذ ، فاختلفت فى تقديره ووداعه ، وأخـــذ على المرحـــوم لطفى السيد انه أجزل له الثناء ولم ينتقـــد حـكمه الا على

استحياء ، وأخذ عليه وعلى غيره انهم اشتركوا فى تكريمه او دعواه ، وكان أولى به وبغيره ان يقاطعوا أى فكرة لتكريمه وتوديعه بعدما فعله فى البلاد ، فكان رده عليهم بأن سياسة المسالمة بين المصريين والانجليز تدعو الى هذه المجاملة لأن سياسة المعاندة عقيمة ؟ وان ليس أجدى من سياسة المسالمة والمحاسنة المقرونة بالمحاسبة .

وخاصم مصطفى كامل جميع من ودعوا اللورد كرومر واعتبرهم مارقين على الوطن ومارقين على الوطنية ، اذ كيف يستقيم أن يكرم الوطنى ممثل الاحتلال فى بلاده ، يودعه لنقله من منصبه ، وكأن هذا النقل بأسباب جريمة شنيعة ارتكبت ضد الوطن .

ورغم هذه الخصومة بين لطفى السيد ومصطفى كامل فى أسلوب الجهاد السياسى لكل منهما والاختلاف البين بينهما ، ونقده لسياسة لطفى السيد وحزب الأمة فقد رثاه لطفى السيد حين موته أبلغ رثاء ، ودعا الأمة بعد وفاته لاقامة تمثال تخليدا لذكراه ، وقال عنه فى مذكراته ما يأتى :

« لا أريد أن أطيل القول فى مصطفى كامل ، فحياته معروفة مشهورة ، ولكنى أقول موجزا :

« ان مصطفى كامل كان شعاره الوطنية ، وحياته الوطنية ، وغرضه الوطنية ، وكلماته الوطنية ، حتى لبسها ولبسته فصار بينهما التلازم الذهنى والعرقى ، فاذا ذكرت مصطفى كامل بخير فانما تطرى الوطنية ، واذا قلت الوطنية فان أول ما تتمثل فى خيالك شخص مصطفى كامل كأنما هو والوطنية شيء واحد .

ولقد تمثل ذلك يوم وفاته فى هذه المظاهرة التى لم

يعرف لها فى ذلك الزمان مثيلا ، فقد اشترك جميع أفراد الأمة فى أمر واحد ، وعلى رأى واحد ، بصورة واحدة ، مع اختلافهم فيما عداه .

كل ذلك دل على أن الشعور الذى قادهم ليس مذهبا سياسيا ، ولا طريقا من طرائق المنازعة السياسية ، بل هو أعلى من ذلك ، وهو التضامن القومى والجامعة الوطنية .

ان مصطفى كامل كان مثال الوطنية ، ولقد دعوت فى اليوم التالى لوفاته على صفحات الجريدة ، الى اقامة تمثال له يشهد له بالاعتداد بفضله فى عمله وتخليدا لذكراه واعترافا من الأمة لكل عامل يقف نفسه على خدمتها ، ويجسد لهذه الخدمة كيانه وتفكيره » .

رائد التأليف السياسى

يعتبر مصطفى كامل أول زعيم سياسى فى الشرق اهتم بغرس الروح الوطنى فى نفوس المواطنين عن طريق تأليف الكتب الوطنية ، التى تشرح حقائق المسائل السياسية المعاصرة وارتباطها بقضية الوطن وفيما يلى ما أصدر من مؤلفات :

١ ـ « المسألة الشرقية » صدر فى ابريل سنة ١٨٩٨ ، شرح فيه تطور المسألة الشرقية وبيان حوادثها فى القرن الـ ١٨ ثم القرن ١٩ ، مستطردا الى ذكر استقلال اليونان ثم قضية سوريا بين محمد على وتركيا وحرب القرم ومؤتمر برلين ثم شرح القضية المصرية بجلاء ، ثم القضايا البلغارية واليونانية .

ويعد هذا أول كتاب سياسى أصدره زعيم فى الشرق .

٢ ـ رسالة موجزة باللغة الفرنسية عن « اخطار الاحتلال البريطانى سبق ذكرها فى بيان نشاطه فى العام الأول من الجهاد الوطنى ، نشرها فى ١٨٩٥/٨/٨ ، وتنبأ فيها بالمشكلة الفلسطينية وفصل السودان عن مصر قبل حدوثها بأكثر من نصف قرن .

٣ ــ كتاب الشمس المشرقة صدر فى يونيو سنة ١٩٠٤ وضع لمناسبة الحرب الروسية اليابانية وما ظهر فيهما من عظمة اليابان التى بهرت العالم بتقدمها ووطنيتها ، وقصد منه حث الأمة المصرية على الاقتداءباليابان فى نهضتها العظيمة (كان ينوى زيارة اليابان سنة ١٩٠٨ لدراسة شئونها على الطبيعة ولكن الموت لم يمهله) .

٤ ــ المصريون والانجليز .

جمع مصطفى كامل فى صيف سنة ١٩٠٥ خطبه التى ألقاها عن المسألة المصرية والرسائل التى تبودلت بينه وبين كبار الساسة وترجمها الى الفرنسية وطبعها بباريس وظهرت كتابا فى ديسمبر سنة ١٩٠٥ فى ٣٢٠ صفحة ثم وزعه فى كل جهات العالم لتعريف العالم بالحركة الوطنية فى مصر وتطوراتها وشرح اهداف الحزب الوطنى فكان خير دعاية عالمية للقضية المصرية وقد وضعت مدام جولييت آدم مقدمة لهذا الكتاب وفيما قالته عن مصطفى كامل « انه يجاهد بكل الصور والأشكال ضد اليأس والقنوط وعدم الاكتراث بشئون البلاد (وقلة الوطنية) . تلك الآفات الثلاث التى تتهدد مصر كما تتهدد فرنسا نفسها ، والتى هى أشد خطرا على الأمم من المغيرين .

٥ ــ وضع فى ديسمبر سنة ١٨٩٣ مسرحية « فتح الأندلس » وهى رواية وطنية ضمنها حوادث فتح العرب للأندلس وأظهر فيها فضائل الصدق والأمانة والثبات وقصد بها تربية الأمة على الفضائل الوطنية وطبعت فى حياته .

أثره في الشعر العربي

كان لظهور الدعوة الوطنية التى بثهـا مصطفى كامل أثر كبير فى تطور الشعر العربى فى مصر واتجاهه الى الناحية القومية التى لم يطرقها الشعراء من قبل ، وظهر ذلك جليا فى قصائد جميع الشعراء المعاصرين له ، فان قرائحهم بتأثير دعوته وأحداث حياته ، وكفاحه المنيف ، ووقفاته المشهورة ازاء الظروف السياسية التى مر بهـا في طريق جهاده ، قد فاضت بالشعر الوطنى ، وسارت النهضة الأدبية الى جانب النهضة الوطنية تعتز بهـــا وتؤيدها وتسجل حوادثها ، وتعبر عن آلامها وآمالها ، وليس ادل على ذلك من قصائد حافظ ابراهيم وأحمد شوقي واسماعيل صبرى بعد موقف مصطفى كامل من حادثة دنشواى ، وقصائد حافظ ابراهيم فى شكوى الاحتلال ، وبعد اســتقالة اللورد كرومر ، وفى حفلة مدرسة مصطفى كامل وقصائد صديقه الحميم خليل بك مطران شاعر القطرين ، ولمـا مات مصطفى كامل كانت الفجيعة فى فقده حدثا تاريخيا من أعمق الاحداث فى تاريخ البلاد فى أوائل القرن العشرين ، فتبارى الشعراء فى رثاء الزعيم الشـــاب وجادت قرائحهم ومـلكاتهم الشـــعرية بأخلد المراثى التى قيلت فى الشعر العربى

الحديث ، وكانت سيرة حيـاته وكفـاحه أكبر مصدر لالهامهم .

وظل الشعراء يخلدون مجدهم الأدبى والفنى (فى شبه مباراة بينهم) بانتاج أعظم مراثيهم كلمـا اقبلت ذكراه ، على توالى الأعـوام والأيـام ، حتى انقضى عهد اقطاب الشعر الحديث شوقى وحافظ ومطران .

وكيف لا يخلدون مجدهم برثاء مصطفى وقد كتب الى صديقه محمد فريد من بودابست فى ٢٨ أكتوبر سنة ١٨٩٨ ردا على من كانوا ينكرون عليه فائدة عمله .

(لكنهم جهلوا ان لى روحا هى من نور الحريةالساطعة، لا تستطيع الحياة فى ظلمات الظلم والاستبداد ، جهلوا ان روحى تنادى الى يوم الممات ما شاكلها من الأرواح الشريفة لتتحد معها على القيام بهـذا العمل الشرعى الحق) وكيف لا تجود القرائح ! مهما ضن معينها ، بمن فكر فى مصير بلاده وحرية أهلها ، حتى آخر نسمة من حياته وهو قاب قوسين أو أدنى من الموت ؟!

لذلك كانت القصائد التى رثى بها من أخلد صفحات الشعر العربى فى العصر الحديث وبلغت بعض الأبيات منها ، من الشهرة ما جعلها تجرى مجرى الأمثال ، وتروى فى الأحاذيث والخطب فى كل زمان ومكان .

مصطفى كامل رائد الخطـابة السياسية فى الشرق العربى :

فى السنوات العشر الأولى للاحتـلال ، خفت صوت الخطابة الذى كان قد بدأ يعلو منتعشا فى فترة الثورة

العرابية ، وحين بدأت الحركة الوطنية تعود الى اليقظه وتتخذ سبيل النضال ، كانت الخطابة من أهم أسلحتها فى هذا السبيل ، وقد تعددت المجالات وتنوعت الميادين التى منحت الخطابة الانتعاش ثم النشاط ، حتى شهدت تلك الفترة طائفة كانوا من أعظم من عرف تاريخ الأدب الحديث من خطباء كما حظى التراث الأدبى بجمهرة من أروع ما ضم هذا التراث من خطب .

وكان من أهم مجالات الخطابة ، المجـــال السياسى والمجال القضائى والمجال الاجتماعى أما المجال السياسى فكان له ميـــدانان : ميـــدان رسمى يتمثل فى الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين ثم الجمعية التشريعية بعد ذلك ، ومجـــال غير رسمى يتمثـــل فى الأحزاب والهيئات السياسية التى كانت تناضل لتحقيق ما ترى انه خير للبلاد وقد كان أهم هذه الهيئات السياسية غير الرسمية الحزب الوطنى وحزب الأمة .

وليس من شك فى ان زعماء الحزب الوطنى قد كانوا فى تلك الفترة ، أكثر جنود هذا اللون من ألوان النضال حماسة وأقواهم شكيمة ، ويأتى فى مقدمة هؤلاء جميعا الزعيم الوطنى مصطفى كامل ، الذى يعد من الاعلام فى الخطابة السياسية فى التأريخ الأدبى ، فقد كانت مواهبه الخطابية المبكرة خير أسلحته فى اجتذاب الجماهير حوله وكسب تأييدها لدعوته وكان من أهم مظاهرها : التحمس الشديد والتدفق المنساب ، والقدرة البالغة على تحريك مشاعر الآلاف من المواطنين والهاب عواطف السامعين ، ثم المهارة فى تفنيد حجج الخصوم وتدعيم الرأى الذى يدعو اليه بمزيج من الأدلة العقلية والمؤثرات العاطفية .

وكان لا يدع فرصة الا انتهزها للتشهير بالاحتـــلال وجرائمه ، ثم للمطالبة الحارة بالجلاء والدستور وتحقيق آمال البلاد .

وقد كانت الخطابة من أهم عوامل نجـــاح مصطفى كامل ، بل أصبحت تشكل جزءا من شخصيته كزعيم ومن يومها ارتبط النجاح السياسى بالنجاح فى الخطابه والقدرة عليها ، واصبحنا نرى جل الزعماء الكبار يهتمون بالخطابة ويتخذون منها وسيلة فعالة من وسائل النجاح.

مميزاته الخطابية

لم يكن يرتجل خطبه ، كما انه لم يكن يقرأها ، بل كان يسكب على الورقة عصارة ذهنه وأهم افكاره ثم يختزنها جميعا فى ذاكرته ، حتى اذا ما اعتلى المنبر كان مالكا لموضوعه ، مسايرا طبيعته ، مطلقا عبقريته ليعبر عما يجول فى أعماق نفسه .

كان يسيطر على الجماهير لمجرد اتصاله بهـــا حتى يضمها تحت لوائه ، فالمكان الفسيح والهواء الطلق هو كل ما يحتاج اليه ويبعث فيه الحماس .

كان يصدع بـكلمة الحق ويرددها حتى تنفـــذ الى قلوب السامعين ، فينقادوا وراءه . كان عقله هو الذى يتكلم . والعقل فى غير حاجة الى زخرفة اللفظ ، بل فى حاجة الى الحجة الدامغة ، ولم تنقص مصطفى كامل الحجة ، لذلك كان يصل الى غرضه دون تمهيد أو لف أو دوران . كان لايبحث عن اقتناع الشعب ليطويه تحت لوائه فقط ، بل ليعلمه ويثقفه . كان يعرض رأيه ويدعمه بالبراهين القوية .

مصطفى كامل
يتنبأ بمشكلة فلسطين

لقد أثار اليهود مسألة الصهيونية والوطن القومي ، لأول مرة في « هوايت هول » ومجلس العموم البريطاني حوالي سنة ١٩١٧ ، فرأى الانجليز أن ينتفعوا بما لهؤلاء من مال ونفوذ في العالم ، ليقهروا ألمانيا في الحرب العالمية الأولى .

وكان قوام الدعاية لقضية الحلفاء يومئذ اللورد نورثكليف ، وقد اتخذ اذ ذاك سويسرا مقرا له ، فأدت هذه الدعاية الى تألب اليهود على حكومتهم الوطنية في أثناء تلك الحرب .

ولسنا نجاوز موضوعنا ، اذا قلنا ان هذه الحركة كانت السبب الرئيسي في نقمة الألمان المسيحيين من الألمان الاسرائيليين ، واليها يرجع كل ما نالهم بعد ذلك من تشتيت ، فكأنما كانت بريطانيا سبب نكبتهم . وهنا نسأل ماذا كان موقف فلسطين الشهيدة : وهي التي لبثت الى ذلك التاريخ بعيدة عن هذه المصائب ؟ لقد خدع أهلها بما خدع به أكثر العرب في مصر وسوريا والعراق من بريق الوعود الرسمية والشبيهة بالرسمية ، من الأماني العالية ثم جاء وعد بلفور فكان حلقة ثانية في الدعاية البريطانية وخطوة أولى في سبيل الاستعمار

البريطانى ، وما لم يكن بد من ضحية فلتكن هى فلسطين لأنها لا تكلف انجلترا شيئا .

ومع أنه لم يكن للصهيونية أثر فى الشرق قبل ذلك ، فانها لم تكن وما يشبه الهمس ، بين غلاة دعاتها حتى تبنتها السياسة البريطانية فخلقت منها مشكلة معقدة فى الشرق الأدنى .

ولقد عاش اليهود فى فلسطين قبل هـذه الخطوة ، كما عاشوا فى غيرها على آهنأ ما يكونون ، فلما سيطرت انجلترا على تلك البلاد المقدسة باحتلالها أوغرت صدور المسلمين فى جميع أنحاء العالم بتشجيعها اليهود ، كما أوغرت صدور الفلسطينيين بهـذا الاحتـلال الأجنبى البغيض الذى ظلت تتظاهر فيه للعرب تارة ولليهود تارة أخرى حسبما تقتضيه الصوالح الاستعمارية .

على ان السياسة الانجليزية لم تقف عند هذا الحد ، فانها لم يكفها أن تحتل تلك البلاد وأن تتبنى الصهيونية علانية وبتصريحات رسمية ، وأن تجعل جيشها عونا على تثبيت قدمهـا ، بل قيل ان أول حاكم انجليزى لمدينة القدس كان يتدخل تدخلا شخصيا ، مستعينا باجادته للغة العربية وبماضيه الطويل ببلاد الشرق — فى شراء الأراضى من العرب الذين أجهدتهم الحرب وأرهقتهم الأزمة المالية (مسلمين ومسيحيين) ثم يتضح فى كل صفقة أنها تشترى لأفراد من الصهيونيين أو الجماعات منهم وهكذا استمر تعضيد انجلترا لليهود حتى عام ١٩٤٨ حين أعلن انشاء دولة اسرائيل .

وقد نشر المرحوم مصطفى كامل باشا رسـالة صغيرة فى أغسطس ١٨٩٥ عن نتائج احتلال انجلترا لمصر سماها

« اخطار الاحتلال البريطانى » نبه فيها العالم الى خفايا السياسة البريطانية وكانت باللغة الفرنسية وكان مما جاء فيها :

« ان الانجليز اذا تركوا يحتلون مصر كما هم اليوم ، سيعملون على فصل جزء من الوطن وهو السودان ويعملون على امتلاكه ليحققوا حلم سيسيل رود بخلق امبراطورية افريقية كما انهم سوف يتجهون من موانى السويس وسواكن الى الأراضى المقدسة فيثيرون قبائلها، وهم هم الذين يتظاهرون بالمحافظة على العهود القديمة بصون الامبراطورية العثمانية ويتذرعون بالدسائس والوعود البراقة ، ولن يقفوا عند هذا الحد بل سيتطلعون الى فلسطين والأراضى المقدسة ويغزونها من مصر » .

ولقد كانت هذه الرسالة التى لم يعوزها المنطق ، محل تقدير الذين قرأوها ، أما الآن فلا يملك المرء الا القول بأن فقيد الشرق العظيم كان يكاد يطالع الغيب .

ففى أقل من نصف قرن فصل السودان ثم قسم الى شمالى وجنوبى ثم قيل ان السودان يخاف مصر وأن مصر تريد أن تستعمر السودان ، وهكذا انقلب الانجليز الغاصبون سودانيين وأخيرا تم استقلال السودان وانفصاله نهائيا عن وطنه الأم بفضل دسائس الانجليز أما قضية فلسطين فلا زلنا نكافح ويكافح معنا كل ذى قلب أبى وروح حر فى سبيل استرداد حقوقه ، واستكمال كيانه واستقلاله وحصوله على حريته السليبة من براثن الاحتلال الاسرائيلى .

وقد طبع مصطفى كامل هذه الرسالة وبعث بها الى جميع رجال السياسة والصحف الشهيرة فى أوروبا ،

فكان لها دوى كبير وجاءه نحو مائة خطاب من مشاهير السياسيين فى فرنسا وغيرها يعلنون شكرهم وتهنئتهم .

كما كانت هذه الرسالة الخـــــالدة مثار اعجــاب الصحفية الكبيرة مدام جولييت آدم حينما أرسل اليها اول خطاب للتعارف وأرفق به نسخة منها . قالت تصف اثر هذه الرسالة فى نفسها :

« أعجبتنى كثيرا هذه الرســالة (أخطار الاحتــلال البريطانى) فأنشأت فى الخامس عشر من شهر سبتمبر سنة ١٨٩٥ مقالة عنها ، واقتبست منها أسانيد جديدة فى المسألة المصرية ، وقد سبق لى الخوض فيها كثيراً ، واثنيت على المؤلف فى مقالتى » .

يرفض تشكيل وزارة :

من اشهر الخطب السياسية لمصطفى كامل تلك الخطبة التى القاها فى فندق كارلتون عقب المأدبة الكبرى التى دعا اليها لفيفا كبيرا من النواب والكتاب والصحفيين ورجال الرأى فى انجلترا وذلك فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٠٦ احتجاجا على حكم المحكمة المخصوصة فى مأساة دنشواى وكانت هذه الخطبة احدى خطبه التى هزت المجتمع البريطانى وزعزعت مركز اللورد كرومر ، وقد رفض فى هذه الخطبة الاتهامات والادعاءات المغرضة التى يقيمها الاحتلال ضد المصريين وأولها التعصب الدينى ، ثم تناول ســياسة الانجليز فى السودان وانتقد شغل الوظائف القيــادية الــكبرى بالبلاد بالانجليز ، وهيمنة اللورد كرومر على الجهـــاز الادارى بالدولة وتقييده لسلطة الوزراء ، ثم انتقد السياسة التعليمية التى يتبعها الاحتلال من حرمان

الفقراء من التعليم والاهتمام بنشر اللغة الانجليزية أكثر من العناية باللغة العربية ، ومن انشائه جيلا من الطلاب يكون أداة المستعمر فى حكم البلاد ، واهماله مواد التاريخ والفلسفة والعلوم الانسانية التي تعمل علي تقويم النشء قوميا ومعنويا ، وقال : ان الوطنيين يعملون على تعويض النقص فى التعليم بانشاء المدارس الأهلية ذات البرامج القومية .. ثم انتقد المحكمة المخصوصة التى أثارت المصريين بقراراتها الأخيرة وفى هذا الموضوع قال : ان من أقبح الأمور وجود محكمة لا قانون لها ولا تعرف الاستئناف أو العفو فى بلد متمدن يعتبر من الناحية الفكرية جزءا من أوروبا — ان وجود هذه المحكمة سبة للقانون والعدالة والشعب الانجليزى .

ان من واجب انجلترا الغاء مثل هذه المحكمة . ان العالم أجمع استمع عدة مرات الى أصواتكم وهى تدافع عن الانسانية وعن المدنية ، انكم عارضتم بكل قواكم الحيف والظلم الذى يقع على الشعوب الأخرى ، فمن واجبكم ان تعارضوا اليوم الظلم المنتشر فى مصر باسمكم .

هل من العدل محاكمة ٢١ شخصا بالشنق والأشغال الشاقة والجلد من أجل وفاة انجليزى واحد عرضا واصابة آخر بجرح ؟؟

انى أطالب باسم أصدقاء العدالة الحقيقيين وأصدقاء الانسانية اعادة النظر فى قضية دنشواى أمام مستشارين مستقلين » .

وأخيرا تناول مصطفى كامل قضية الدستور الذى يطالب

به المصريون منذ أربعة وعشرين عاما ، باعتباره الطريق لضمان العدالة وحرية الرأى وحسن سير الأمور .. الى ان قال :

« ان ثروات العالم جميعا لا تنسينا اطلاقا كرامتنا وحقوقنا ، ولقد كان من مصلحة انجلترا أن تتقدم مصر ماليا لتنال ثقة حملة سندات الدين المصرى ولتستطيع فتح السودان وتعميره ولكنها لم تنفذ التعهدات التى أخذتها على نفسها حتى بشأن تقدم المستوى الثقافى للشعب » .

ثم أعلن فى نهاية خطبته « ان مصر لا تسأل احسانا بمطالبتها بحريتها ، بل تطلب حقا معترفا به ولا نزاع فيه ، تطلب حقها فى الحياة ، وانى لواثق من انكم لو كنتم محلنا لشعرتم بنفس شعورنا ولسلكتم مسلكنا لأنه لا يوجد الا مطلب واحد خليق بأن يشغل حياة الانسان الا وهو الاستقلال وعظمة الوطن » .

وقد علق المستر روبرتسن ، من النواب الأحرار على خطبته بكلمات كلها تأييد وميل وعطف على قضية مصر .

وأرسل الى مدام جولييت آدم بتفاصيل هذه الوليمة ونص الخطبة ، وردود الفعل التى يتوقع حدوثها بعد نشر هذه الخطبة على الرأى العام وتقول مدام جولييت آدم فى كتابها « انجلترا فى مصر » :

« ان سير كامبل بانرمان رئيس وزراء انجلترا طلب مقابلة مصطفى كامل بعد اطلاعه على الخطبة التى القاها فى فندق كارلتون ، وتمت المقابلة بين الرجلين فى داونتج ستريت » .

وصرح خلالها الزعيم المصرى الشاب لرئيس الوزراء قائلا : « أرجو أن تكون قد لمست الآن كيف نال عمالكم فى مصر من شرف انجلترا بتلويثهم العدالة » . واقتنع كامبل بانرمان بمأساة دنشواى واعترف بأنهـــا حادثة مؤسفة ، ولكنه استناذا على ادعاءات اللورد كرومر قال لمصطفى كامل بانه لا يظن ان فى مصر رجالا يستطيعون ادارة البلاد ، فرد عليه قائلا : اسمح لى ان أقول أن اللورد كرومر يصرف الأمور فى البلاد لصالح انجلترا وحـدها وأنه يحكم مصر منــذ ١١ عاما بمساعدة وزارة مصطفى فهمى باشا صديق انجلترا ، وهذه الوزارة مكروهة من المصريين المخلصين اوطنهم وللعدالة » . فقال له الرئيس البريطانى : هل تقبل تكوين نظارة بمعرفتك ؟

فرد عليه مصطفى كامل على الفور : ان وطنيتى تفرض على رفض كل مركز فى الحكومة طالما ظل الاحتلال فى البلاد ثم اضاف : « واسمح لى أن أتكلم فى مسألة الجلاء » فقاطعه الرئيس البريطانى قائلا : « اظن أنه لابد من اعداد المصريين أولا للنظام النيابى ومتى تم هذا الاعداد فعلا فسنحقق أمانيكم بشأن الاستقلال » .

— كنا دائما خليقين بالاستقلال التام .

— هل تقبلون الانفصال عن تركيا ؟

— ان بلادنا تطمع فى التمتع بالســيادة الـكاملة فى الداخل والخارج ، وعلى اثر هذه المقابلة ، سلم مصطفى كامل لسير هنرى كامبل بانرمان قائمة تشتمل على اثنين وثلاثين من أسماء أصدقائه وأعوانه الذين يستطيعون تكوين نظارة قومية . وكان بين الأسماء سعد زغلول ، أحد مستشارى محكمة الاستئناف ، ويقول مصطفى كامل

فى خطاب أرسله الى مدام جولييت آدم :

« يلوح لى أن سير « بانرمان » كان مخلصا فى حديثه معى بشأن استقلال مصر ، ان سعد زغلول من ألمع مستشارى محكمة الاستئناف ولقد وضعت اسمه فى القائمة التى سلمتها لسير بانرمان ولديك نسخة منها ، فاختار اللورد كرومر لسعد زغلول من بين الاثنين والثلاثين اسما التى ذكرتها ربما يكون القصد منه الأمل فى ضم سعد زغلول الى سياسته حيث أنه متزوج من ابنة ناظر النظار ، والمستقبل كفيل بأن يحكم بأنى قمت بواجبى » .

ينقذ عرش عباس حلمى

فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩٠٦ ، كون مصطفى كامل شركة مصرية برأس مال قدره ٢٠٫٠٠٠ جنيه لاصدار جريدتين يوميتين احداهما باللغة الفرنسية والأخرى باللغة الانجليزية .

وفى هذه الأثناء قام نزاع بين الانجليز والخديو لعدة أسباب منها أنه أيد تركيا فى حادثة طابا واستنكر الحكم الصادر من المحكمة المخصوصة فى حادث دنشواى ، ورفض حضور الحفلة التى أقيمت يوم ٩ نوفمبر سنة ١٩٠٦ لذكرى مولد ملك انجلترا ، واشتد الغيظ باللورد كرومر وقابل الخديو عباس فى ٢٩ نوفمبر واتهمه بالمساعدة المالية للصحيفتين اللتين سيصدرهما مصطفى كامل، واحتج الخديو معلنا بطلان هذه التهمة من أساسها أما مصطفى كامل فقد رد على فرية كرومر والصحافة المأجورة بنشر أسماء المساهمين فى الشركة المذكورة

والمبالغ التي ساهم بها كل منهم .

وفي أول ديسمبر كتب مصطفي كامل الي مدام جوليت آدم يقول :

« ان مسألة هامة تضطرني الي السفر الي انجلترا في مدي أسبوع وسأكلمك عنها في باريس .. ان اللورد كرومر مستاء جدا من جهودي ويحاول بكل الطرق عرقلة أعمالي ولكني واثق من النصر لأن العدل والحق في جانبنا » .

وفي ١٥ ديسمبر سنة ١٩٠٦ وصل مصطفي كامل الي العاصمة الفرنسية بصحبة محمد فريد وذهب لزيارة مدام جوليت آدم وأخبرها أن مراسله في لندن أرسل اليه كتابا يعرفه فيه بأن اللورد كرومر الح على حكومته بمطالبة السلطان بعزل الخديو ، بدعوى أنه دفع مصطفى كامل الى شن حملة شديدة ضد الانجليز عقب مأساة دنشواى ، وأن كرومر يعتقد أن الخديو أمد مصطفى كامل بأمواله لاصدار صحيفتيه الجديدتين ، لذلك كلف الخديو مصطفى كامل بالسفر الى انجلترا واحباط مناورة المعتمد البريطاني .

ذهب الي لندن في ١٩ ديسمبر ومكث فيها أياما ، ثم عاد الى باريس وزار مدام (١) جوليت آدم وأخبرها بأنه قابل سير « كامبل بانرمان » وأنه نجح فى افهامه بأن خلع الخديو سيؤدى الى اضطرابات فى مصر ، كما سيخلق صعوبات جمة في وجه انجلترا ، وان مصلحة انجلترا اقصاء اللورد كرومر عن مصر لكره المصريين وبغضهم له . وهكذا نجح مصطفى كامل فى انقاذ عرش حلمي .

لما عاد الى معسكر الوطنيين ، وواتته الشجاعة فاستنكر تصرفات الاحتلال واستهدف بعدها لانتقام اللورد كرومر ، وتقول مدام جولييت آدم عن مصطفى كامل عقب أسراره لها بهذا الحديث : أنه اصيب بداء عجيب ، وأشرفت حالته على الهلاك ، ولم يخف الطبيب المعالج وساوسه من أن يكون قد وضع له السم (١) في الطعام أثناء تواجده بلندن ...

ثم تستأنف الكاتبة الكبيرة قائلة (٢) :

ورغم هذا ، فقد قام من فراش المرض ، رغم ما يعانيه من آلام ، وعاد الى مصر فى ٢٤ يناير سنة ١٩٠٧ لانجاز مشروعه الصحفى ، واصدار الجريدتين فى أقرب وقت » .

---

(١) فى الموال الشعبى الذى تغنى به أهالى دنشواى ، عقب المأساة ، وفى الاشاعات التى تناقلتها الجماهير فى كل أنحاء البلاد آنذاك ، ذكر لهذه الحقيقة ، وأن الانجليز دسوا السم لمصطفى كامل عقب نجاحه فى الافراج عن مسجونى دنشواى .

(٢) كتاب مصطفى كامل وكفاحه ـ دكتور أحمد راشد .

تأسيس الحزب الوطني

كانت كلمة « الوطنيون » تطلق منذ ظهور مصطفى كامل على مسرح السياسة على كل مواطن مصرى يطالب الاحتلال بالجلاء وبالاستقلال التام للبلاد ، وكانت هذه الكلمة تجرى على لسان الزعيم الشاب وتكتب فى الصحف المصرية والأجنبية . لم يكن هناك فى الواقع حزب وطنى بالمعنى القانونى ، ولكنه كان يمثل معارضة حية تناهض المحتل . وأمام حب الظهور لدى بعض المصريين وانتهازية البعض الآخر ممن كونوا حزبا جديدا كما أسلفنا ، سواء أكان ذلك للتفاهم مع المحتل أم للحلول محل أنصار مصطفى كامل ، عزم هذا الأخير على توطيد أركان الحزب الوطنى حتى يستطيع استئناف كفاحه وجهاده بهمة وعزم فى حالة وفاة زعيمه .

ولوح بهذا العزم فى مقاله الذى نشره فى ١٩٠٠/٧/٢، كما كتب فى اللواء فى ١٩٠٧/١٠/١٠ « أن الحزب الوطنى المصرى الذى جعل أول مراميه وأسمى غاياته استقلال مصر ورد حقوقها اليها ، موجود فيها فعلا من ثلاثة عشر عاما مضت ، فهو وان لم يظهر بشكل نظامى وبلائحة ولجنة ادارة ، فقد ظهر بأعمال اتفق أعضاؤه عليها لخدمة البلاد بكل قوة ، وقاوم الاحتلال

فى أوروبا ومصر مقاومة شهدها كل المصريين والغربيين، وارتبط بروابط كبيرة مع جملة من ساسة اوروبا » .

وفى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ ، خطب الزعيم المصرى داعيا مواطنيه الى الانضمام اليه ثم عرض البرنامج الذى اتفق على تحقيقه وهو كالآتى :

أ ـ منح مصر الحكم الذاتى أو استقلالها الداخلى طبقا لمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠ .

ب ـ اقامة حكومة دستورية يكون فيها الحكام مسئولين أمام برلمان منتخب .

جـ ـ احترام المعاهدات والاتفاقات المالية التى تتعهد فيها الحكومة المصرية بدفع ديونها .

د ـ نشر التعليم فى أنحاء البلاد ، ونشر المبادىء الدينية ، وحث الأغنياء على تأسيس الجامعات ، وارسال البعثات الى أوروبا وانشاء دراسة ليلية للعمال .

هـ ـ تنمية الزراعة والصناعة والتجارة وجميع مرافق الحياة الاجتماعية فى سبيل حصول البلاد على استقلالها الاقتصادى .

و ـ تقارب عنصرى الأمة : المسلمين والمسيحيين والوحدة المتينة بينهما .

ز ـ تحسين الأحوال الصحية لازدياد النسل القوى .

ح ـ تقوية روابط حسن التفاهم بين المصريين والأجانب المقيمين فى وادى النيل .

ط ـ تقوية العلاقات الودية بين تركيا ومصر من جهة ، وبين مصر والدول الأوروبية من جهة أخرى لاكتسابها الى جانبها .

وأنهى مصطفى كامل خطبته قائلا : « ضموا صفوفكم واجمعوا أمركم واعملوا بجد وأثبتوا للأعداء والأصدقاء أننا أحق الأمم بالدستور والاستقلال » .

وعلى أثر هذا النداء ، تقاطر الناس من كافة أنحاء البلاد لقيد أسمائهم فى الحزب الوطنى وعقدت الجمعية العمومية اجتماعها الأول فى مقر اللواء فى ٢٧ من ديسمبر سنة ١٩٠٧ ، شهده أكثر من الف مندوب ينتمون الى مختلف النقابات والمهن ، وألقى فيهم مصطفى كامل آخر خطبة فى حياته عبر فيهـــا عن تفاؤله وعن السرور الذى يخالج نفسه لرؤية هذا العدد الضخم من المواطنين وشرح مرة أخرى أهداف الحزب ، وقام بعض المجتمعين بالقاء كلمات التأييد والتعبير عن تقديرهم لمصطفى كامل ثم قام فؤاد بك سليم وقرأ لائحة الحزب الوطنى المصرى وهى مكونة من ٢٤ مادة ، المادة الأولى فيهـا اختيار مصطفى كامل رئيسا للحزب مدى الحياة ، والمواد ١٠ ، ١١ ، ١٢ عن تكوين اللجنة الادارية من ثلاثين عضوا خلاف الرئيس ، والمادة ٢١ عن انشاء ناد يمكن أن تكون له فروع فى الأقاليم .

واجتمعت اللجنة الادارية اجتماعها الأول فى ٢ يناير سنة ١٩٠٨ واتخذت عدة قرارات منها شكر الخديو على الاعانة السنوية التى قررها من الأوقاف الخيرية لصالح الجامعة المصرية وقدرها ٥٠٠ جنيه ، طبـع تقرير سنوى باللغات الفرنسية والعربية والانجليزية عن الحالة فى مصر .

زعيم المبادىء والتضحيات :

سيظل اسم مصطفى كامل علما للوطنية السامية ، المنزهة عن الأهواء والأغراض ومثالا للاخلاص الكامل للمبدأ الوطنى الحر . أما عن تضحياته فى سبيل وطنه فهذا أمر لا يجادل فيه أحد ، ولا يختلف فيه اثنان ، وتبدو روح التضحية فى تاريخه من السبيل الذى استنه فى حياته ، فهو لم يسلك طريق الراحة والرخاء ، والأبهة والجاه والغنى ، ونعنى به طريق المناصب ، ولو هو اختاره كما فعل معاصروه لبذهم جميعا بذكائه وكفاءته ونشاطه ، ولضمن لنفسه ولأهله وذويه ، طبقة بعد طبقة ، رغد العيش والثروة الطائلة والمراكز الممتازة ، ولكنه على نقيض ذلك ، اختار الطريق الوعر الخطر . طريق الجهاد والكفاح ، طريق الجهد والعرق والدم ، بل الطريق الذى استنفد قواه واستهلك حيويته واستنزف شبابه ، وأدى به الى الردى سريعا وهو لم يسلخ من عمره أكثر من أربعة وثلاثين ربيعا .. فضرب بذلك لكل مواطن حر ، أعظم مثل فى التضحية فى سبيل الله والوطن . بل فى سبيل حرية مصر وشعبها ، وفى ذلك يقول فى محاجة خصومه سنة ١٩٠٠ :

« يمكننى اليوم أن أقول أمام الملأ كله ، انه لا يستطيع انسان فى العالم أن يدعى أنى خالفت مبدءا من مبادئى لحظة واحدة ، مع تغير الظروف وتقلبات الأحوال ، وموت الآمال عند كثير من الرجال ، ولا يوجد من يقول انى عملت ما عملت طمعا فى عز أو ثروة ، لأن الطامع فيها لا يقف موقفى ، ولا يجاهد ضد الاحتلال تحت سماء مصر ، ولا يخطب ضد المحتلين حتى فى الوقت الذى كان فيه

أخى فى قبضتهم ، يعاملونه بالذل والاستبداد ويذيقونه أنواع العذاب وصنوف البلاء ويهددونه بالموت والاعدام فى كل آن » .

ولقد كانت جهوده الضخمة وآماله العظيمة أقوى مما تحتمل صحته البدنية فقد كان كثيرا ما يعتريها التعب والاعتلال من الجهد الذى حملهـا اياه ، وتدل رسائله الخاصة على أن صـحته كانت فى حاجة الى الراحة والعلاج قبل الوفاة بعدة سنوات ولكنه رغم ذلك مضى فى طريق النضال ، مستهينا بكل عقبة مهما كانت ، لا يبالى أن يحمل صحته ما لا تطيق من التعب والعناء .

كتب الى مدام جولييت آدم من فيشى فى ١٩٠٣/٩/٢٥ يقول :

« يجب أن أقضى معظم هذا الشهر فى (التيرول) مع صديقى فريديك الذى تشرفت بتعريفه اليك منذ سنتين، لأن الأطباء قد رأوا انه من الواجب أن أمضى فى الجبل بعض الزمن اذ أخذ التعب يستولى على أعصابى ولهم الحق فى ذلك فانى لم أشفق على نفسى » .

وكتب اليها فى ١٩٠٥/٦/٢٥ كتابا قال فيه :

« ان العمل قـد أضنانى الى حد أشـعر فيه بسرعة الحاجة الى ترك الوسط الذى أعيش فيه ، وكأن الطبيعة قـد خالفت سنتهـا ، اذ جعلت روحى أكبر من قـوة جسمى » .

وقد سافر فى يوليو سنة ١٩٠٣ الى أوروبا وقصد الى لوزان وعرض نفسه على الدكتور بورجيه ليعالجه من مرض فى أمعائه كان يستبد به أحيانا فيعانى منه آلاما فظيعـة ، وفى صيف سنة ١٩٠٦ ذهب الى أوروبا

للاستشفاء والعلاج وكان فى حاجة قصوى الى الراحة ، ولكن حادثة دنشواى جعلته يغير برنامجـه الذى نظمه للعلاج والراحة ، وهب هبة الأسد صائلا ، باذلا جهودا جبارة لا تصدر الا عن اقوى الناس صحة وجسما ، ولما سافر الى باريس ولندن فى شتاء سنة ١٩٠٦ بصحبة محمد بك فريد لاختيار محـــررى جريدة ذى اجبشيان استاندرد وجريدة الاتندار اجبشيان عاوده المرض فى أثناء الرحلة واعتكف في الفراش بباريس عدة أيام ، عاد بعدها الى الجهاد والكفاح .

« ذكر المرحوم محمد فريد أنه فى تلك المـدة عاده فيها الدكتور روبان الطبيب المشهور ونصح له بحضوره بعدم اجهاد قواه فى العمل ، وأن يترفق بصحته فـــلا يحملها فوق طاقتها من العناء ، ويترفق كذلك بامته فلا يحرمها وجوده ، حتى يتم مهمته التى وقف حيـــاته عليها . قال فريد بك :

« ولكن النصيحة أتت بعكس ما كنت أنتظره ، فانه رحمه الله لما احس يضعف قواه واســتعداده للأمراض الفتاكة ، أسرع الخطى وضاعف الجهــود ، فأتم معدات اللواءين الفرنسى والانجليزى حتى ظهـــرا فى مارس سنة ١٩٠٧ واستمر يجاهد ويبذل الجهود الجبارة طيلة سنة ١٩٠٧ . وبفضل هذه الجهود عظم اهتمام الرأى العام فى اوروبا وانجلترا بالمسألة المصرية ، وظهر تيار من الاستنكار العام لسياسة الاحتلال فى مصر .

وفى صيف سنة ١٩٠٧ ذهب الى فرنسا كعـــادته للاستشفاء والجهاد ، وكانت هذه آخر رحلة له باوروبا ، وكان يشعر بدبيب العلة يسرى فى جسده ، ذكر المسيو

ادولف أدرير مراسل الاتندار في باريس انه قابله وقتئذ في باريس فكان يقول له :

« اني أشعر أن المرض قد دب الى ، ترى هل أعيش حتى رأى اول نجاح لجهودى ليحصد الآخرون نتائج جهادي ، ولكن ليكن لى وقت كاف للفرس والزرع » .

وكان هذا التصريح نذيرا بخطورة مرضه واحساسه الخفى بدنو نهايته . وقد قابله بعد ذلك فى شهر اغسطس فى افيان على بحيرة جنيف حيث قصدها للعلاج . وكان يلزمه أن يمكث بهـا واحدا وعشرين يوما للاستشفاء بحماماتها ، ولكنه لم يمكث غير عشرة أيام لشعوره بضعف مستمر فى قواه ، فسافر الى اعالى جبال سويسرا ، ولم يلبث بها غير بضعة أيام ، لأنه لم يكن يستريح أينما توجه ، وقال المسيو ادرير « وجاء شهر سبتمبر فعدت واياه الى باريس ولم اتركه حتى ساعة سفره ، وكان دائما متوعك الصحة فكنت ارى هذا الوجه الذى ترتسم عليه الشجاعة والذكاء والاقدام ممتقعا شاحبا ، وقد سافر منهوكا الى حيث لايعود الينا ابدا »[1].

وقد عاد مصطفى كامل الى مصر فى أكتوبر سنة ١٩٠٧ فقابله الشعب بأعظم مظاهرة قام بها فى حياته ، وأخذ يبذل الجهود الجبارة لتنظيم صفوف الوطنيين ، وبناء الدعائم التأسيسية للحزب الوطنى . حتى اذا لم يكن فى عمره متسع لا يخشى عليه من الانحلال ، ألقى خطبته الشهيرة بالاسكندرية يوم ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٠٧ وعلامات الضعف بادية على محياه ، وقد لمحها اصدقاؤه الأقربون.

واشتدت به العلة قبل وفاته بثلاثة أشهر ، ولكنه كان يغالب المرض ويصارعه ويجـاهده بشجاعة معدومة

المثيل ، حتى أنه لما حان موعد اجتماع الجمعية التأسيسية للحزب الوطنى يوم ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ ترك سرير مرضه . ونزل الى ساحة دار اللواء حيث اجتمعت الجمعية العمومية ، وألقى خطبته كأقدر وأقوى خطيب ، حتى انعقدت الدهشة على وجوه الحاضرين لبلاغته وقوة أدائه وبراعة القائه وقوة جنانه رغم ما به من آلام ، وكان هذا آية عظمته وقوة ايمانه بالله والوطن.

وكانت هذه آخر خطبة ألقاها رحمه الله ، ثم اشتد به المرض عقب الاجتماع وعاد الى غرفته مريضا ولم يغادرها.

وقد بلغه في صباح اليوم التالى للاجتماع نبأ وفاة صديقه ونصيره الكبير لطيف باشا سليم أحد مؤسسى الحزب الوطنى وأحد أعلام الحرية الوطنية ، فجزع لوفاته . واشتدت عليه آثار العلة لحزنه عليه .

وكان وهو على سرير المرض لا يدع العمل والتفكير ، فقد أرسل وهو طريح الفراش قبل وفاته بخمسة أيام احتجاجا برقيا قويا ضد تصريحات فاه بها السير (١) ادوارد جراى فى مجلس العموم البريطانى اتهم فيها المصريين بعدم الكفاية للحكم الذاتى ، فرد عليه بأن مصر تماثل فى الاستعداد للحكم الذاتى كثيرا من الأمم الأوروبية وأن مصر ستظل تجاهد فى سبيل حريتها واستقلالها حتى تنالها .

وقد زاره صديقه الشاعر الكبير المرحوم احمد شوقى بك فى غضون هذه الفترة وخلد ما شاهده من أحداثها الرهيبة ، وظروفها الخالدة فى ابيات من عيون الأدب والشعر ، يصور فيها آلام زائريه من انصاره وأصدقائه

(١) وزير خارجية بريطانيا فى ذاك الوقت .

وهم يغالبون دموعهم ، ويكتمون جزعهم عليه ، وهو يعمل بعزيمة لا تــكل وارادة جبارة رغم ما يعالجه من سكرات الموت وساعات حياته الأخيرة :

ولقد نظرتك والردى بك محدق
والداء ملء معـــــالم الجثمان
يبغى ويطغى والطبيب مضـــلل
قنط وســــاعات الرحيل دوانى
ونواظر العواد عنك آمالهـــــــا
دمع تعالج كتمه وتعـــــــانى
تملى وتكتب والمشــــاغل جمة
ويداك فى القـــرطاس ترتجفان
فهششت لى حتى كأنك عائدى
وانا الذى هد الســـقام كيانى
ورأيت كيف تموت آساد الشرى
وعرفت كيف مصارع الشـجعان
ووجدت فى ذاك الخيال عزائما
ما للمنون يد كهن يـــــــدان

وكان الزعيم قد سأله فى هذه الزيارة الأخيرة ، سؤالا فى غاية الغرابة : « يا شوقى بك قد دنا وقت منامى ، وستغرب الشمس قريبا فهل ترانى جديرا برثائك .. فدهش أمير الشعراء لما سمع ، وصمت ، وأخذ يدير عينيه ليغالب دمعه .. وتوارى بناظريه قليلا .. ثم تحول نحوه متصنعا الابتسام .. ورد عليه :

(عفوا يا باشا ، أتمنى أن لا يكون هذا منى أبدا فى حيـــاتى ، انك بحال حسنة ، وسوف ينعم الله عليك بكمال العافية والشفاء ، وتستعيد قــوتك وســلامتك

ونراك فى اهاب الصحة والجمـــال والقوة .. فعقب مصطفى كامل : « اذا أراد الله أمرا يا شوقى فسوف يقضى ، وانى شاعر بنهايتى » ...

قال شوقى يعتذر عن تأخره فى رثاء صديقه العظيم ، وعدم استطاعته أن ينظم مرثيته وقت وفاته ، فقد نظمها يوم ٢٣ فبراير سنة ١٩٠٨ بعد وفاته ..

قد كنت تهتف فى الورى بقصائدى
وتجل فـــوق النيرات مـــكانى
ماذا دهــــانى يوم بنت فعقنى
فيك القـــريض وخاننى امكانى
هون عليك فلا شـــمات لميت
ان المنيـة غاية الانســـــان
وجعلت تسألنى الرثاء فهــاكه
من أدمعى وسرائرى وجنـــانى
لولا مغالبة الشجون لخـــاطرى
لنظمت فيك يتيمـــة الأزمان
وأنا الذى أرثى الشموس اذا هوت
فتعود ســـيرتها من الدوران

ولقد كانت حياة مصطفل كامل الفريدة بين حيوات العظماء وعباقرة التاريخ ، ملهما لأمير الشعراء لينظم هذه الأبيات الخالدة مقارنا بين حياة الانسان الضئيلة الحقيرة يقضيها لغير ما غاية ولغير ما هــدف سوى أن يحياة كبقية الأحياء ، وفى ذلك يقول :

الناس جار فى الحيـــاة لغاية
ومضلل يجرى لغير عنـــــان

والخلد فى الدنيـــا وليس بهين
علياء المراتب لم تتح لجبـــــان
فلو ان رسل الله قد جبنوا لمـا
ماتوا على دين ولا ايمـــــــان
المجد والشرف الرفيع صـحيفة
جعلت لها الأخلاق كالعنـــوان
وأحب من طول الحيـــاة بذلة
قصر بربك تقـــاصر الأقران
دقـــات قلب المرء قـــائلة له
ان الحيـــــاة دقـائق وثوان
فارفع لنفسك بعـد موتك ذكرها
فالذكر للانســـــان عمر ثانى
للمرء فى الدنيا وجم شئونهـــا
ما شـــاء من ربح ومن خسران
فهى الفضـــــاء لراغب متضلع
وهى المضيق لمؤثر الســـلوان

واختتم قصيدته الخالدة ، بهذه الأبيات :

يا صب مصر ويا شهيد غرامها
هـــذا ترى مصر فنـم بأمان
اخلع على مصر شبابك عاليـــا
والبس شباب الحـور والولدان
فلعل مصرا من شـــبابك ترتدى
مجـــــدا تتيه به على البلدان
فلو أن بالهــــرمين من عزماته
بعض المضاء تحرك الهـــرمان
علمت شبان المدائن والقـــرى
كيف الحياة تـكون فى الشبان

وفـــاة مصطفى كامـــل

كتب فى آخر خطاب له لمدام جولييت آدم فى يناير سنة ١٩٠٧ :

« منــذ ١٧ نوفمبر وانا مريض جــدا ، ولقد بذلت مجهودا جبارا لألقى كلمتى فى الجمعية العمومية للحزب الوطني .. ان صحتى متهدمة حقا .. اذا تحسنت خلال خمسة عشر يوما فسأمضي شهرا فى أسوان » .

وفى ١٩٠٧/١/١٨ نشرت (ليتاندار) أخباره قائلة :

« ان نبأ وفاة لطيف باشا سليم أثر كثيرا فى صحته حتى انه لازم الفراش عدة أيام » .

ثم شفعت الجريدة كلامها بنشرة صحية عن سير المرض مؤكدة ان صحته تتحسن شيئا فشيئا وانه يستعيد قوته رويدا رويدا . (والحقيقة ان ما تقوله الجريدة ان هو الا ليبث الطمأنينة فى قلب أمة متجهة كلهــا نحو زعيمها وتتشوق لرؤياه) مهما يكن من الأمر فقد طلعت جريدة اللواء في عدد ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ بالنبأ التالى :

« توفى الى رحمــة الله مديرنا العزيز مصطفى كامل باشا رئيس الحـــــزب الوطنى المصرى فى تمام الساعة الرابعة من بعد ظهر أمس . لقد أصيب مديرنا باغماء فى

الصباح أقلق بالنا ، وحوالى الظهر لاح لنا أنه تحسن قليلا ، فاستأنفنا أعمالنا ، وقد كنا قطعناها فأنهيناها ، ولكن سرعان ما انتكس وخارت قواه تدريجيـــا ولفظ أنفاسه الأخيرة عندما كانت الساعة تدق الرابعة » .

انتشر النبأ الأليم فى أنحاء مصر والعالم ، وعم الحزن والأسى فى جميع الأرجاء ، وبكى الشعب الوفى رئيسه المحبوب مر البـــكاء ، وكرست جرائد مصطفى كامل الصادرة فى ١١ فبراير جميع صفحاتها ، لنعى الفقيد العظيم وكتب محمد فريد فى افتتاحية باسم الحزب :

« خسرت البلاد حامل لواء حركتها الوطنية ، ونهضتها العلمية والتحــررية مصطفى كامل باشا وهو فى ريعـــان الشباب » .. الى أن قال « مات رئيسنا ولكن روحه ستظل معنا ، وسنكمل عمله الـذى بداه الى ان نصل الى النهاية التى كان ينشدها وأعلن عنها فى رسائله وكتاباته أو خطبه فى مصر وأوروبا .. مات رئيسنا ، ولكن البذور التى زرعها استوت على سوقها وسيأتى اليوم الذى تحصد فيه البلاد ثمرها .. لن يترك الحزب الراية التى رفعها الفقيد عاليا وسنضاعف جهودنا لتقوية أواصر الاتحاد فى صفوفنا » .

ذكر المرحوم على فهمى كامل شقيقه الساعات الأخيرة قبل وفاته ، فى خطاب له الى مدام جولييت آدم بعثه اليها فى ٢٧ فبراير ١٩٠٨ (حيث أنه لم يستطع لفداحة الكارثة ان يكتب لها عقب وفاته مباشرة) واننا نقتطف من خطابه الطويل للصحفية الكبيرة هذه الفقرات :

« عانقته وقبلته فى الساعة التاسعة من مساء الأحد الموافق ٩ فبراير سنة ١٩٠٨ بعد ان حادثته ثلاث ساعات

وكان مليئا بالحيوية والسرور ، ثم تركته لأنام ، وفى صبيحة الاثنين دخلت غرفته كعادتى لأطمئن عليه ، فوجدته لا يزال نائما ، وبعد أن فضضت البريد ، ووزعت عمل صحف الألوية الثلاثة صعدت لأراه ، فوجدته فى صحة جيدة ، وشددت يده ، وأنا أسأله كيف مضى ليلته ، فأجابنى جوابا مرضيا ولكنى لاحظت أثناء الحديث ان لونه آخذ فى التغيير ، وعينه تغيب فملأت رعبا وسألته عما يؤلمه ، فأجابنى قائلا : « تشجع وامض فى عملك بحكمة للوصول الى غرضنا » وما نطق بهذه الجملة حتى غاب عن وعيه .. وظل مدة على هذه الحالة .. حتى سكت الى الأبد لقد تسلمت ١٣٣٣٤ برقية ، ٨٤٣٠ خطاب عزاء : ان الشبيبة شبانا وشابات أعلنوا الحداد اربعين يوما رغم معارضة المستشار الانجليزى لنظارة المعارف دنلوب ، ظن الانجليز أن المعارضة قد ماتت بموت مصطفى كامل ، ولكنى أؤكد لك يا سيدتى العزيزة ان العمل الذى أسسه أخى سيزدهر ، وأنه خدمنا حتى فى موته ، بارك الله فى وحدتنا ... يطلبون منى المبادرة بكتابة سيرة مصطفى كامل بالعربية ، ولهذا تجدينى شديد الرغبة فى أن أتلقى منك بعض بيانات عنه راجيا منك أن تكرسى بضعة أيام من وقتك فى سبيل ابنك الروحى » .

المأتم العظيم

منذ صباح يوم ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ ، أخذت تتقاطر الجماهير الحزبية من كل حدب وصوب على دار اللواء وما حانت الساعة الثالثة بعد الظهر ، وهو الموعد

المقرر لبدء سير الجنـــازة حتى غصت بهم الدار على سعتها ، وامتلأت الساحات والشوارع المؤدية اليهـــا بالمشيعين الوافدين من جميع انحاء القطر ، وكان على رأس المشيعين كثير من الأعيان وأعضاء مجلس الشورى يتقدمهم رئيسهم وكبير التشريفاتية وياور الخـــديوى ورئيس الديوان العــربى للخديو وناظر الحقانية وناظر الأشغال وشيخ الجامع الأزهر وقاضي القضاةوسكرتيرأول الصدر الأعظم ومدير مدرسة الحقــوق الفرنسية ولفيف من المستشارين وكبار الموظفين .

ولما بدات الجنازة فى المسير ، تقدم المشهد كوكبـة من الجنود الفرسان ، فطلبة مدرسة مصطفى كامل ، فطلبة المدارس الابتدائية الأميرية والأهلية ، فطلبة دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعى فالمدارس الثـــانوية « التوفيقية ـ السعيدية ـ الخديوية » ثم المدارس العليا فالمدارس الثانوية الأهلية والأجنبية ثم عساكر البوليس وتلاميذ مدرسة الشرطة ثم نعش الزعيم ملفوفا بالراية المصرية ، محمــولا على أعنـــاق الشباب من مدرسة الحقوق . ثم سار المشيعون خلف النعش يتقدمهم محمد فريد ، وكان عددهم فى بدء الجنازة يزيد على عشرات الآلاف ، الا أن ذلك الجمع الهائل لم يكن الا قطرة من بحر ممن انضم الى الجنازة اثناء سيرها ، حتى زخرت الشـــوارع بالمشيعين ، ولمـــا تعذر سير الجنازة ، وقف معظمهم على جانبى الشوارع . .

وبلغ عـــدد المشيعين ربع مليون نسمة ، هذا عدا الألوف الذين اصطفوا على جانبى الطريق من دار اللواء الى مدافن الامام الشافعى والمطلين من نوافذ المنـــازل

والفنادق وشرفاتها وفــوق أسطحتها وفي المنعطفات المترامية الأطراف ، وجماع القول أن الشوارع الواقعة من دار اللواء في شارع الدواوين وقبر الفقيد كانت العين لا تقع فيها الا على اجسام متزاصــة من المشيعين ومع اشتداد هذا الزحام الذي لم يسبق له نظير في تاريخ مصر ، كان النظام مستتبا ، والسكون شاملا رهيبا ، ولم يكن يسمع أثناء سير الجنــازة سوى بـكاء الباكين وزفرات الحزن المنبعثة من أعماق الأفئدة رجالا وسيدات، شبانا وشابات ، كلهم يبكى شباب الزعيم ووطنيتــه ، فكان هذا الاحتفال الرهيب أعظم وأروع جنازة في تاريخ مصر الحديث .

ولقد تأثر حافظ بك ابراهيم شاعر النيل بهذا الحدث الرهيب فصوره في قصيدته بقوله :

عز القــــرار على ليلة نعيه
وشهدت موكبه فقــــر قرارى
وتسابقت فيه النعاة فطــــائر
بالكهرباء وطــائر ببخــــار
شاهدت يوم الحشر يوم وفاته
وعلمت منه مراتب الأقـــدار
ورايت كيف تفى الشعوب رجالها
حق الولاء وواجب الاكبـــــار

ثم يصور منظرا من أخلد المنـــاظر في تاريخ المجتمع المصرى ، الذي عاش في أسر التقاليد قرونا طويلة — وكان الكتاب آنذاك يتنازلون بعضهم في موضوع تحــرير المرأة والمعركة محتدمة بين السفور وأنصاره والحجاب وأنصاره .

فلما شيعت جنازة مصطفى كامل الشاب الوطنى الذى سقط فى معركته الوطنية وهو فى عنفوان شبابه واكتمال جماله وازهاره عمت أعاصير الحزن مصر بأسرها ، واندفع الحزن يمشى بين الناس بعنف وحـدة ، ولم يستطع انسان فى مصر كبت مشاعره ، واسفرت المرأة المحجبة لأول مرة فى تاريخها تبكى هذا الشاب الذى لم تربطها به اية صلة سـوى صلة الروح الوطنى العظيم الذى تجسده وتعذب به فانشغل بالوطنية عما عداها من آمال الحياة ، فكان البكاء عليه يمثل أروع صورة للتقدير النزيه لشخص مات فى سبيل الجماهير الوطنية فى جيله وجميع الأجيال من بعده ، وأعلنت المرأة شعورها فجأة وانطلقت من أسر الحجاب !!

قال حافظ ابراهيم يصف بكاء المرأة وسفورها برغم التقاليد يوم جنازته :

كم ذات خدر يوم طاف بك الردى
هتكت عليك حرائر الاسـتار

سفرت تودع أمة محمـولة
فى النعش لاخبرا من الأخبـار

أمنت عيون النـاظرين فمزقت
وجه الخمـار فلم تلذ بخـمار

قد قام ما بين العيون وبينهـا
ستر من الأحـزان والاكـدار

وقال أحمد شوقى أمير الشعراء :

شقت لمنظرك الجيوب عقـائل
وبكتك بالدمع الهتـون غوانى

ولما وصل الموكب الرهيب الى جامع « قيسون » بشارع القلعة ، اقيمت الصلاة على الفقيد ثم تابعت الجنازة سيرها (في محيط خضم من الكتل البشرية) ، حتى المدفن بالامام الشافعى .

وعندما اجتاز النعش ساحة المدفن وادخل مكان الضريح ، ووضع على حافته ، ضج المكان بالبكاء والنحيب ، فى هذا الوقت وقف الشاعر الكبير والصديق الحميم للفقيد ، إسماعيل صبرى باشا ليلقى قصيدة حزينة قال فى مطلعها :

أداعى الأسى فى مصر ويحك داعيا
هددت القوى اذ قمت بالأمس ناعيا

ولم يكد يلقيه حتى ظهر عليه التأثر الشديد والاعياء ولم يتم رثاءه .

ولم ينته الحزن ومظاهره الى حد الجنازة ، فقد أعلنت جماهير الشعب حدادها كما لو كان مصطفى كامل قريبا لكل مواطن ، تربطه به صلة الرحم . فارتدى الرجال الملابس السوداء وارتدت النساء وشاحا أسود يمتد من ذيل الفستان الى كتفه وأطلق عليه حزن اللواء ، ولأول مرة جلل الحوذية العربات بالسواد ووضعوا شارات الحداد على رءوس الخيل وعلى مقابض المصابيح ، وزينوا المقاعد بصور مصطفى كامل كما علق أصحاب الحوانيت والمقاهى صورة الزعيم فى صدر المكان .

وانتشر الحزن العميق فى جميع الأنحاء واقفرت المسارح ودور اللهو من روادها وظلت خاوية فترة بعد وفاته ، ولما غنى الشيخ سلامة حجازى قصيدة أحمد

شوقى المشهورة فى رثاء مصطفى كامل ومطلعها :

المشرقـــان عليـــك ينتحبـــــان
قاصـــــيهما فى مأتم والدانى

وسجلت على اسطوانات ، أقبلت المسارح على اقتنائها واذاعتها فى بدء برامجها الفنية لاجتذاب الجماهير .

ويقول سعد زغلول زعيم الوفد المصرى فى مذكراته :

« ما وصلت الى مصر ، من رحلة تفتيش فى الفيوم ، حتى علمت فوق ما قرأت ، واصبحت الناس لا حديث لها الا هذه الوفاة ، وما أصاب الناس من الفزع الاكبر من هولها ، وأكثر الناس من الاعجاب بالجنازة ، ومن كان منهم لا يعبأ بالمتوفى حين حياته ، اهتم لوفاته اهتماما كبيرا ، وعد التفاف الناس حوله وبكاء الكثير منهم علامة على تنبه الشعور الوطنى ، ودليلا على نمو الاحساس فى الناس ، وذهبوا الى أنه هو الذى أوجد هذا الشعور الشريف ونماه وافتتحت (جريدة أحمد لطفى السيد) وهى من الجرائد المخالفة له ، والتى كانت بينها وبين جرائده خلافات شديدة اكتتابا لاقامة تمثال له تذكارا لشأنه .

فهرس

رقم الايداع ٢٧٤٤ ــ ٨١

الترقيم الدولى ٩١٠٢ ــ ٧٠٣١ ــ ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة ـ ص ـ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم علي لحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
7. Bishopsthrose Road
London S.E. 26
ENGLAND

البرازيل :

M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc. 904
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.

اسعار البيع للجمهور في البلاد العربية للاعداد العادية من « كتاب الهلال » الشهري بسعر ٢٠ قرشا للقارىء في مصر .

سوريا ٣٠٠ ق٠م « ثلاثمائة قرش سوري »
لبنان ٢٥٠ ق٠ل « مائتان وخمسون قرشا لبنانيا »
الاردن ٢٥٠ فلسا « مائتان وخمسون فلسا اردنيا »
الكويت ٣٥٠ فلسا ثلاثمائة وخمسون فلسا كويتيا »
العراق ٤٠٠ فلس « اربعمائة فلس عراقي »
السعودية ٤½ ريال « اربعة ريالات ونصف ريال »



هـذا الكتاب

مصطفى كامل مثل من امثلة الوطنية العربية متجدد الذكرى فى كل حين • فهو مدرسة كبرى الف عنه الكثيرون كتبا نشرت وقرات ، وتعلم منها الناس ما تيسر لهم ان يتعلموا عن مصطفى كامل • وهـذا الكتاب محاولة جديدة لبيان فضل مصطفى كامل وتعريف الناس ببعض ما فات المؤلفين السابقين من خصائص ذلك الرجل العظيم •

الكتاب حديث ومؤلفه من الجيل الجديد ، وهنا اهميته فهو يدل على ان مصطفى كامل لازال يفتن الاجيال رغم كثرة ما كتب عنه • انها نظرة جديدة بقلم مؤلف جديد نقدمها للشباب والشيوخ ايضـا لكى يعلموا ان مصطفى كامل ككل زعيم اصيل يتجدد كل يوم ويعلم الناس فى كل جيل •

وليس هذا بالغريب فان مصطفى كامل فعلا هو اول عربى احس بالمعنى الكامل للقومية كعاطفة انسانية كبرى تحـرك الامم وتصنع التاريخ ، ويكفى ان نورد هنا كلمات قالها تعرفنا بالفكر الوطنى لهذا الرجل الذى علم العرب جميعا معنى الوطن وحب الوطن •

ـ الحياة جهاد والعمر قصير وخير الناس من جاهد فى سـبيل بلاده وعمل لخيرها وناضل عن حقوقها •

ان روحي تتغذى من حب الوطن ، وبغيره لا استطيع الحياة ، اذ لا قيمة للحياة بغير هذا الحب الرائع العظيم الذى يفيض على المرء كل سلوى وكل سعادة •

